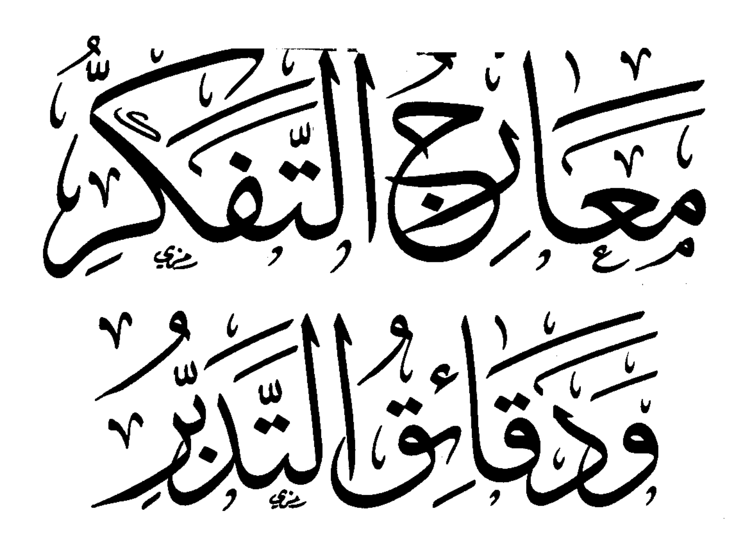


معارج التفكر ودقائق التدبر

تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول
وفق منهج كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل»

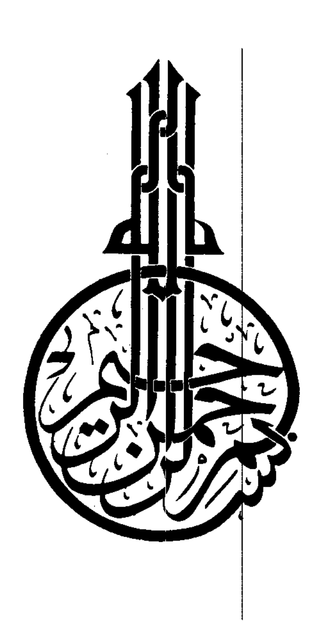
المجلد الرابع

تفسير سورة

الأعراف (٣٩) من الآية (١ - ١٧١)

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق




معارج التفكر
ودقائق التدبر

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

سُورَةُ الأَعْرَافِ

٧ مصحف ٣٩ نزول

وهي كلها مكيّة إلاّ الآيات

من (١٦٣ وحتى غاية الآية ١٧٠) فمدنية

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

سورة الأعراف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ

---

٣ ـ ● قرأ: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.
وقرأ: [يَتَذَكَّرونَ]: ابن عامر.
وقرأ: [تَذَّكَّرونَ]: باقي القرّاء العشرة.
تَذَكَّرون، وتَذَّكَّرُون، أصلُهما «تتذكَّرُون، حُذِفت التاء تخفيفاً في الأولى، وأدغمت بالذّال في الثانية وفق قواعد الإدغام العربية.
وأمّا قراءة [يَتَذَكَّرُون] فبينها وبين القراءتين الأخريين تكامل بَيَانِي، إذ هما يخاطبان المتَلَقِّين للقرآن، وهذه تتحدَّثُ عن غيرهم الغائبين عن التلقِّي.

٤ ـ ٥● قرأ: [بَاسُنَا] بالألف بدل الهمز في اللفظتين: السوسي، وأبو جعفر في الوصل والوقف.
وحمزة في الوقف.
وقرأ: ﴿بَأْسُنَا﴾ بالهمز باقي القرّاء العشرة.

٦ ـ٧● قرأ بضَمّ هاء الضمير في [إِلَيْهُمْ] وفي [عَلَيْهُمْ] حمزة ويعقوب. =

فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ

= وقرأ بكسر هاء الضمير فيهما باقي القرّاء العشرة.

١١ ـ ● قرأ: [لِلْمَلاَئِكَةُ اسْجُدُوا] بضم التاء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة بكسرِها.

١٦ ـ ● قرأ: [سِرَاطَكَ] قُنبُل، ورُويس.

وقرأ باشمام الصاد زاياً خلف عن حمزة.

وقرأ ﴿صِرَاطَكَ﴾ بالصاد: باقي القراء العشرة.

١٧ ـ ● قرأ: [أَيْدِيهُمْ] بضمّ هاء الضمير: يعقوب.

وقرأ بكَسْرِها ﴿أَيْدِيهِمْ﴾: باقي القرّاء العشرة.

شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ

---

١٩ ـ ● قرأ: [شِيتُمَا] بالياء بدل الهمزة: السوسي، وأبو جعفر، في الوصل والوقف. وحمزة في الوقف.

وقرأ: ﴿شِئْتُمَا﴾ بالهمزة باقي القرّاء العشرة.

٢٢ ـ ● قرأ: [عَلَيْهُمَا] بضمّ هاء الضمير: يعقوب.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿عَلَيْهِمَا﴾ بكسر هاء الضمير.

٢٥ ـ ● قرأ: [تَخْرُجُونَ] بفتح التاء: ابن ذكوان، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف.

وقرأ: ﴿تُخرَجُونَ﴾ بضم التاء: باقي القرّاء العشرة.

وبين القراءتين تكاملٌ بياني، إذ الموتىٰ يُخرَجُونَ بالبعث من الأرض بخَلْقِ الله، فهم بالمطاوعة يَخرُجونَ.

٢٦ ـ ● قرأ: [وَلِبَاسَ التَّقْوىٰ] بنصب (لبَاسَ) عطفاً على [لِبَاساً]. نافع، وابن عامر، والكسائي، وأبو جعفر.

وقرأ: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوىٰ﴾ برفع «لبَاس» على الاستئناف باقي القرّاء العشرة.

ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

٣٠ ـ ● قرأ: [عَلَيهِم الضَّلاَلَةُ] بكسرِ هاء الضمير وكَسْر الميم بعدَهُ: أبو عَمْرو.

وقرأ: [عَلَيهُمُ الضَّلاَلَةُ] بضم هاء الضمير وضمّ الميم: حمزة، والكسائي، وخلف، ويعقوب.

وقرأ: [عَلَيهِمُ الضَّلاَلَة] بكسر هاء الضمير، وبضمّ الميم بعده: باقي القرّاء العشرة.

وهي وجوهٌ من النطق العربي.

٣٠ ـ ● قرأ: [يَحْسَبُونَ] بفتح السين: ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر.

وقرأ: [يَحْسِبُونَ] بكسر السين: باقي القرّاء العشرة.

وهما وجهان عربيان للكلمة.

خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ

٣٢ ـ • قرأ: [خَالِصَةٌ] بالرفع، على أنها خبرٌ ثانٍ للمبتدأ [هِيَ]: نافع.
وقرأ: [خَالِصَةً] بالنصب على أنها حال: باقي القرّاء العشرة.
والوجهان جائزان في اللسان العربي.

٣٣ ـ • قرأ: [رَبِّي الْفَوَاحِشَ] بإسكان ياء المتكلم: حمزة.
وقرأ باقي القرّاء العشرة بفتحها ﴿رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ وهما وجهان عربيان.

٣٣ ـ • قرأ: [مَا لَمْ يُنْزِلْ] من فعل: «أَنْزَلَ»: ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب.
وقرأ: [مَا لَمْ يُنَزِّلْ] من فعل «نَزَّلَ»: باقي القرّاء العشرة.
أنزل ونَزَّل فعلان متكافئان في المعنى.

٣٤ ـ • قرأ: [لاَ يَسْتَاخِرُون] بالألف اللّينة بدل الهمزة: ورش، والسوسي، وأبو جعفر، في الوصل والوقف، وحمزة في الوقف.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لاَ يَسْتَأْخِرون﴾ بالهمزة.

٣٥ ـ • قرأ: [يَاتِيَنَّكُمْ] بالألف اللينة بدل الهمزة: ورش، والسوسي، وأبو جعفر.
وقرأ ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ بالهمزة، باقي القراء العشرة.

٣٥ ـ • قرأ: [فَلَا خوفٌ عَلَيْهُمْ] برفع: «خوفٌ» وبضم هاء الضمير [عَلَيْهُمْ]: حمزة والكسائي، وخلف.
وقرأ: [فَلَا خَوْفَ عَلَيْهُمْ] بفتح الفاء، وبضم هاء الضمير: يعقوب.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿فَلَا خَوْفٌ عليهِمْ﴾ برفع الفاء مع التنوين، وكسر هاء الضمير.

عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ

٣٧ ـ ● قرأ: [رُسْلُنَا] بإسكان السين: أبو عمرو.
وقرأ: [رُسُلُنا] بضم السين: باقي القراء العشرة.

٣٨ ـ ● قرأ: [فَآتِهُمْ] بضم هاء الضمير: رويس.
وقرأ باقي القراء العشرة بكسر هاء الضمير.

٣٨ ـ ● قرأ: [وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ] بياء الغائبين: شعبة.
وقرأ: [وَلَكِنْ لاَ تَعْلَمُونَ] بتاء المخاطبين: باقي القراء العشرة.
وفي القراءتين هنا تكامل في الأداء البيانيّ، لأن المعنيين بالخطاب مُتَلَقُّون، وغير متلقين فهم بحكم الغائبين.

٤٠ ـ ● قرأ: [لاَ تُفْتَحُ]: أبو عمرو.
وقرأ: [لاَ يُفْتَحُ]: حمزة، والكسائي، وخلف.
وهما وجهان عربيان جائزان:
وقرأ: [لاَ تُفَتَّحُ] بتشديد التاء الثانية من الفعل المضعّف: باقي القراء العشرة، أي: يُشدّد في إغلاق أبواب السماء دونهم، لشدّة عنادهم وكفرهم. فبين المضعَّف وغير المضعف تكامل في الأداء البياني.

ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى

٤٣ ـ ● قرأ: [مِنْ تَحْتِهِمِ الأَنْهَارُ] بكسر هاء الضمير والميم بعدها: أبو عَمرو، ويعقوب.
وقرأ: [مِنْ تَحْتِهُمُ الأَنْهَارُ] بضم هاء الضمير والميم بعدها: حَمْزَةُ، والكسائي، وخَلَف.
وقرأ: [مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ] بِكَسْرِ هاء الضمير وضمّ الميم بعدها: باقي القرّاء العشرة.
وهي وجوه من النطق في اللّسان العربي.

٤٣ ـ ● قرأ ابن عامر: [مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ] بحذف حرف العطف قبل: [مَا كُنَّا].
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ] بإثبات حرف العطف الواو.
والقراءتان وجهان بيانيّان متكافئتان، لتكافؤ الفصل والوصل هنا.

٤٤ ـ ● قرأ: [نَعِمْ] بكسر العين: الكسائي.
وقرأ باقي القراء العشرة: [نَعَمْ] بفتح العين.
وهما نُطْقَان للكلمة في اللّسان العربي.

٤٤ ـ ● قرأ: [مُوَذِّنٌ] بالواو بدل الهمزة: ورش.
وأبو جعفر في الوصل والوقف، وحمزة في الوقف.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مُؤَذِّنٌ] بالهمزة.

٤٤ ـ ● قرأ: [أَنْ لَعْنَةُ] بأنْ التفسيرية، وبرفع [لَعْنَةُ]. =

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ

= وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أَنَّ لَعْنَةَ]: بأنَّ المشبهة بالفعل، و[لَعْنَةَ] اسمُها.
والقراءتان من التفنُّن في الأداء البيانيّ.

رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ

٥٤ ـ ● قرأ: [يُغَشِّي] من فعل «غشّى»: شعبة، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف.

وقرأ: [يُغْشِي] من فعل «أغشى»: باقي القراء العشرة.

المهموز مثل المضعّف فالقراءتان متكافئتان.

٥٤ ـ ● قرأ ابن عامر: [والشَّمْسُ والْقَمَرُ والنُّجومُ مُسَخَّرَاتٌ] بالرفع على الاسْتئناف.

وقرأ باقي القرّاء العشر: [والشَّمْسَ والْقَمَرَ والنَّجومَ مُسَخَّرَاتٍ] بالنصب عطفاً على السّماوات والأرض.

وبنصب [مُسَخَّرَاتٍ] على الحالية.

وهما وجهان جائزان عربيًّا، وفيهما تفنُّن في الأداء البياني.

٥٥ ـ ● قرأ: [وَخِفْيَةً] بكسر الخاء: شعبة. وقرأ باقي القراء العشرة: [وَخُفْيَةً] بضمّ الخاء. وهما وجهان عربيان لنطق الكلمة.

٥٧ ـ ● قرأ: [الرِّيحَ] بالإفراد: ابنُ كثير، وحمزة، والكسائيّ، وخلف.

وقرأ: [الرِّيَاحَ] بالجمْع: باقي القرّاء العشرة.

الرِّيح: بالإفراد اسم جنس، وهو يشمل أنواعَ الرياح، وبين القراءتين تكافؤ في المعنى، مع التنبيه على أنّ الرّياح أنواع.

٥٧ ـ ● قرأ عَاصِمٌ: [بُشْراً] من البشارة. وقرأ ابن عامر: [نُشْراً] من النَّشْرِ بمعنى المدّ الواسع. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلَف: [نَشْراً] من النّشر أيضاً.

وقرأ باقي القراء العشر: [نُشُراً] من النّشر أيضاً.

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ

٥٧ ـ ● قرأ: [مَيِّتٍ] ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وشعبة ويعقوب. وقرأ: [مَيْتٍ] الباقون.

٥٧ ـ ● قرأ: [تَذَكَّرُونَ] بتخفيف الذال: حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف. وقرأ: [تَذَّكَّرُونَ] الباقون.

٥٨ ـ ● قرأ: [لاَ يُخرِجُ إلاَّ] من فعل: «أَخْرَجَ» ابنُ وَرْدَان في أحد الوجهين له. وقرأ باقي القراء العشرة [لاَ يَخْرُجُ إلاَّ] من فعل «خَرَجَ» المجرد، وهو الوجه الآخر لابن وردان.

٥٨ ـ ● قرأ أبو جعفر: [نَكَداً] بفتح الكاف، وهو مصدر. وقرأ باقي القراء العشرة [نَكِداً] بكَسْر الكاف، وهو صفة مشبهة باسم الفاعل. والقراءتان متكاملتان في الأداء البياني.

٥٩ ـ ● قرأ الكسائيّ، وأبو جعفر: [مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ] بجرّ «غَيْرِه» صفة لإلَه على اللفظ. وقرأ باقي القراء العشرة: [مَا لَكُ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ] صفة لإلَه على المحلّ.

٥٩ ـ ● قرأ: [إِنِّيَ أَخَافُ] بفتح ياء المتكلم: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر. وقرأ باقي القراء العشرة بإسكان ياء المتكلّم هذه. وهما وجهان عربيان لنطق ياء المتكلّم.

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ

٦٢ - ● قرأ أبو عمرو: [أُبْلِغُكُمْ] من فعل: «أَبْلَغَ» المتعدي بالهمزة.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أُبَلِّغُكُمْ] من فعل «بَلَّغَ» المضعف.

والقراءتان متكافئتان.

٦٨ - ● قرأ أبو عمرو: [أُبْلِغُكُمْ] من فعل: «أَبْلَغَ».

وقرأ باقي القراء العشرة: [أُبَلِّغُكُمْ] من فعل «بَلَّغَ» بتشديد اللام.

٦٩ - ● قرأ: [بَسْطَةً] بالسّين: قُنبل، وأبو عمرو، وهشام، وحفص، وخلَفٌ عن حمزة، ووجه لخلّاد، ورُوَيس، وخلف عن نفسه.

وقرأ: [بَصْطَةً] بالصّاد: باقي القراء العشرة، وهو الوجه الثاني لخلّاد.

٧٠ - ● قرأ: [أَجِيتَنَا] بالياء بعد الجيم، السوسي، وأبو جعفر، في الوصل والوقف. =

مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي

= وحمزة في الوقف.

وقرأ: [أَجِئْتَنَا] بالهمزة بعد الجيم: بَاقي القرّاء العشرة.

٧٠ ـ ● قرأ: [فَاتِنَا] بالألف اللينة بعد الفاء: ورش، والسوسي، وأبو جعفر، في الوصل والوقف، وحمزة في الوقف.

وقرأ: [فَأْتِنَا] بالهمزة الساكنة باقي القرّاء العشرة.

٧٣ ـ ● قرأ: [مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ] بجرّ «غَيْرِه» صفة «إِلَهٍ» على اللّفظ.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [غَيْرُهُ] بالرّفع مراعاة لمحلّ لفظ [إِلَهٍ] وهو الرّفع بالابتداء.

٧٤ ـ ● قرأ: [بُيُوتاً] بضم الباء: ورش، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب.

وقرأ: [بِيُوتاً] بكسر الباء: باقي القرّاء العشرة.

والقراءتان لغتان عربيتان.

ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ

٧٥ ـ ● قرأ: [وَقَالَ الْمَلأُ] بالعطف بالواو: ابن عامر.
وقرأ باقي القراء العشرة: [قَالَ الْمَلأُ] بغير عطف.
الوصل والفصل هنا وجهان متكافئتان بلاغيًا.

٨١ ـ ● قرأ: [إِنَّكُمْ لَتَاتُونَ] بالألف الليّنة بعد التاء [لَتَا] ورش، وأبو جعفر.
وقرأ: [إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ] بالهمزة الساكنة بعد التاء: قالون، وحفص.
وقرأ: [أَإِنَّكُمْ لَتَاتُونَ] بالألف الليّنة، السوسي مع همزة الاستفهام.
وقرأ: [أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ]: باقي القراء العشرة.

٨٤ ـ ● قرأ: [عَلَيْهُمْ] بضمّ هاء الضمير: حمزة، ويعقوب.
وقرأ: [عَلَيْهِمْ] بكسر هاء الضمير: باقي القراء العشرة.

فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى

٨٥ ـ ● قرأ: [مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ] بجرّ: [غَيْرِهِ] مراعاةً للفظ: الكسائي، وأبو جعفر.
وقرأ: [مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ] برفع [غَيْرُهُ] مراعاة للمحلّ: باقي القرّاء العشرة.

٨٦ ـ ● قرأ: [سِرَاطٍ] بالسين: قنبل، ورُويس.
وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد زاياً.
وقرأ: [صِرَاطٍ] بالصاد: باقي القرّاء العشرة.

ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى

٩٤ ـ ● قرأ نافع: [مِن نَبِيءٍ] مع المدّ المتّصل.
وقرأ باقي القراء العشرة: [مِن نَبِيٍّ].

٩٤ ـ ● قرأ: [بِالْبَاسَاءِ] بالألف اللينة بدل الهمزة: السوسي، وأبو جعفر، في الوصل والوقف، وحمزة في الوقف فقط.
وقرأ باقي القراء العشرة: [بِالْبَأْسَاءِ] بالهمزة الساكنة.

٩٦ ـ ● قرأ: [لَفَتَّحْنَا] بتشديد التاء: ابن عامر، وأبو جعفر، ورُوَيس.
وقرأ: [لَفَتَحْنَا] بالتاء المفتوحة دون تشديد: باقي القراء العشرة.
والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، لأنّ الله عزّ وجلّ قد يَفتَح أحياناً برفق، وقد يُفتّحُ أحياناً أُخرَىٰ بشِدَّةٍ على وفق حكمته.

٩٧ ـ ٩٨ ● قرأ في الآيتين: [بَاسُنَا] بالألف اللّينة بعد الباء: أبو جعفر، والسوسي، =

وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ

= في الوصل والوقف، وحمزة في الوقف فقط.

وقرأ فيهما: [بَأْسُنَا] بالهمزة الساكنة: باقي القرّاء العشرة.

٩٨ ـ ● قرأ: [أَوْ أَمِنَ]: نافع، وابنُ كثير، وابنُ عامر، وأبو جعفر. على أن حرف العطف (أَوْ).

وقرأ: [أَوَ أَمِنَ] بفتح الواو: باقي القراء العشرة، على أن حرف العطف «الواو» وقبلها همزة استفهام.

والقراءتان من قبيل التفنّن البياني.

١٠١ ـ ● قرأ: [رُسْلَهُمْ] بإسكان السين: أبو عمرو.

وقرأ: [رُسُلَهُمْ] بضم السّين باقي القراء العشرة.

وهما وجهان عربيان لنطق الكلمة.

١٠٥ ـ ● قرأ نافع: [حَقِيقٌ عَلَيَّ]. =

جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ

= وقرأ باقي القراء العشرة: [حَقِيقٌ عَلَىٰ].
وسيأتي إن شاء الله توجيه القراءتين عند تدبر الآية.

١٠٥ ـ ● قرأ: [مَعِيَ] بفتح ياء المتكلم: حفص.
وقرأ: [مَعِي] بإسكان ياء المتكلم: باقي القراء العشرة.
وهما وجهان عربيان لنطق ياء المتكلم.

١١١ ـ ● في لفظة [أَرْجِهْ] عدّة قراءات تتعلّق بنطق الكلمة تُهِمُّ المقرئين.

١١٢ ـ ● قرأ: [سَحَّارٍ]: حمزة، والكسائي، وخلف.
وقرأ: [سَاحِرٍ]: باقي القرّاء العشرة.
والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد، لأنّ اقتراح ملأ فرعون كان مُوَجّهاً لإحضار كلّ سَاحِرٍ وكلّ سحّارٍ ذي مهارة شديدة في السّحر.

١١٣ ـ ● قرأ: [قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْراً]: نافع، وابن كثير، وحفص، وأبو جعفر.
وقرأ: [قالُوا أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً] بإظهار همزة الاستفهام: باقي القراء العشرة.

١١٤ ـ ● قرأ الكسائي: [نَعِمْ] بكسر العين، وقرأ باقي القراء العشرة بفتح العين، وهما وجهان عربيان لنطق الكلمة.

عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ

١١٧ ـ ● قرأ البزّيّ في الوصل: [فَإِذَا هِيَ تَّلَقَّفُ]. وقرأ حفصٌ: [فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ]. وقرأ باقي القراء العشرة: [فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ] قراءة البزّي وجهُ في النطق. وقراءتا: [تَلْقَفُ] و[تَلَقَّفُ] متكاملتان في التعبير عن المعنى المراد، إذْ كانت عصا موسى التي انقلبت حيّة تلْقَفُ أحياناً أدوات السَّحرة، وتتَلَقَّفُهَا أحياناً أخرى، بحَسب ما تحتاج إليه من أمر.

١٢٧ ـ ● قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو جعْفَر: [سَنَقْتُلُ].
من فعل «قَتَل» غير المزيد.
● وقرأ باقي القراء العشرة: [سَنُقَتِّلُ] من فعل «قَتَّلَ» المزيد بتَشْدِيد التاء.
والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد.
إذ دَلَّ فعل: [سَنَقْتُلُ] على أن فرعون قال هذا في حالة الهدوء. وعلى أن فعل: [سَنُقَتِّلُ] قد قاله مرّةً أُخرَىٰ في حالة الغضب، أي: سنشدّد في التَّقْتِيل.

وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرْنَا مَا

---

١٣٣ ـ ١٣٤● قرأ بضمّ هاء الضمير من [عَلَيْهُمُ] في الآيتين: حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف.

وقرأ بكسر هاء الضمير منها في الآيتين: باقي القراء العشرة.

كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ

١٣٧ ـ ● قرأ ابْن عامر، وشعبة: [يَعْرُشُونَ] بضمّ الرّاء.
وقرأ باقي القراء العشرة: [يَعْرِشُونَ] بكسر الراء.
وهما وجهان لنطق الكلمة في اللّسان العربي.

١٣٨ ـ ● قرأ حمزة، والكسائيّ، وخَلَف: [يَعْكِفُونَ] بكَسْرِ الكاف.
وقرأ باقي القراء العشرة: [يَعْكُفُونَ] بضم الكاف.
والقراءتان وجهان لنطق الكلمة في اللّسان العربي.

١٤١ ـ ● قرأ ابن عامر [وَإِذْ أَنجَاكُمْ] تعبيراً عمّا قالَهُ موسى عليه السلام لقومه بشأن ما أكرمهم الله به من النجاة.
وقرأ باقي القراء العشرة: [وَإِذْ أَنجَيْنَاكُمْ] تعبيراً عمّا قالَهُ الله لهم، وبلَّغَهُمْ إيّاهُ مُوسَى عليه السلام.
فبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

١٤١ ـ ● قرأ نافع: [يَقْتُلُونَ] من فعل «قَتَل». وقرأ باقي القراء العشرة: [يُقَتِّلُونَ] من فعل «قَتَّلَ» مضعف التاء.
والقراءتان متكاملتان في أداء المعنىٰ المراد، فقد كان آل فرعون يُقَتِّلُون أبناء الإسرائيلين بعنف أحياناً في حملات مشدّدة، ويَقْتُلُونَهُمْ أحْيَاناً أخرى دون عنف.

أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ

---

١٤٢ ـ ● قرأ أبو جعفر، وأبو عَمْرو، ويعقوب: [وَوَعَدْنَا] مِنْ فِعْل: «وَعَدَ».
وقرأ باقي القراء العشرة: [وَوَاعَدْنَا] مِنْ فِعل: «وَاعَدَ» الدال على المشاركة أي: أكدنا الوعد.
والقراءتان متكاملان في بيان المعنى المراد، فقد وعد الله موسىٰ أوّلاً، وبعد ذلك أكدّ له الوعد.

١٤٣ ـ ● قرأ ابن كثير، والسّوسي، ويعقوب: [أَرْنِي] بإسكان الرّاء، وقرأ الدّوري باختلاس كسرة الراء. وقرأ باقي القراء العشرة: [أَرِنِي] بكَسْرِ الراء.

١٤٣ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي، وخَلف: [دَكَّاءَ]. وقرأ الباقون: [دَكًّا] وهما وجهان عربيان.

١٤٣ ـ ● قرأ نافع وأبو جعفر: [وأَنَا أَوَّلُ] بألف ممدودة بعد نون «أنا» وقرأ الباقون: بنون مفتوحة دون ألف.

١٤٤ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو: [إِنِّيَ اصْطَفَيْتُكَ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأ باقي القراء العشرة بإسكانها.

١٤٤ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر، ورَوْح: [بِرِسَالَتِي] على الإفراد.
وقرأ باقي القراء العشرة: [بِرِسَالاَتِي] على الجمع.
وفي القراءتين دلالة على رسالة موسى بالنظر إلى عمومها هي واحدة، وبالنظر إلى أجزائها وأقسامها وتنزُّلاتها هي رسالات.

مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا

---

١٤٦ ـ ● قرأ ابن عامر، وحمزة: [عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ] بإسكان ياء المتكلم.
وقرأ باقي القراء العشرة بفتحها في الوصل.

١٤٦ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [الرَّشَدِ].
وقرأ الباقون: [الرُّشْدِ] بضم الراء وإسكان الشين. وهما لغتان.

١٤٨ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي: [حِلِيِّهِمْ] بكسر الحاء واللام وتشديد الياء المكسورة.
وقرأ يعقوب: [حَلْيِهِمْ] بفتح الحاء وإسكان اللام وكسر الياء غير المشددة.
وقرأ باقي القراء العشرة: [حُلِيِّهِمْ].
وهي لغات عربية لنطق هذه الكلمة.

١٤٨ ـ ١٤٩● قرأ بضم هاء الضمير في: [ولاَ يَهْدِيهُم] وفي: [أَيْدِيهُمْ]: يعقوب.
وقرأ الباقون بكسرها في الموضعين.

١٤٩ ـ ● والكسائي، وخلف: [لَئِن لَمْ تَرْحَمْنَا رَبَّنَا وَتَغْفِرْ لَنَا]: خطاباً لله عزّ وجلّ بالدعاء.
وقرأ باقي القراء العشر: [لَئِن لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ويَغْفِرْ لَنَا].
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذ هم قالوا ما جاء في قراءة=

لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

= الجمهور وتوجّهوا بالدُّعاء لربّهم، كما جاء في القراءة الأخرى.

١٥٠ ـ ● قرأ: [بِيسَمَا] بالياء المدّية بدل الهمزة: ورش، والسُّوسي، وأبو جعفر، في الوصل والوقف. وحمزة في الوقف فقط.

وقرأ: [بِئْسَمَا] بالهمزة باقي القرّاء العشرة.

١٥٠ ـ ● قرأ: [مِنْ بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ] بفتح ياء المتكلم: نافع، وابن كثير، وأبو عَمرو، وأبو جعفر.

وقرأ بإسكانها باقي القراء العشرة.

١٥٠ ـ ● قرأ: [بِرَاسِ] بالألف اللينة بدل الهمزة: السوسي، وأبو جعفر في الوصل والوقف، وحمزة في الوقف فقط.

وقرأ: [بِرَأْسِ] بالهمزة الساكنة: باقي القراء العشرة.

١٥٠ ـ ● قرأ: [ٱبْنَ أُمِّ] بكسر الميم المشدّدة، ابن عامر، وشعبة، وحمزة، والكسائي وخلف.

وقرأ: [ٱبْنَ أُمَّ] بفتح الميم المشدّدة: باقي القراء العشر.

وهما وجهان عربيان لنُطق الكلمة، وأصلها: «أمّي» حذفت منها ياء المتكلم مع ملاحظتها ذهناً.

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ

١٥٦ ـ ● قرأ: [عَذَابِيَ أُصِيبُ] بفتح ياء المتكلم في الوصل: نافع، وأبو جَعْفر.
وقرأ بإسْكانها في الوصل والوقف باقي القراء العشرة.

١٥٧ ـ ● قرأ نافع: [النَّبِيءَ] مع المدّ المتصل.
وقرأ: [النَّبِيَّ]: باقي القراء العشرة.

١٥٧ ـ ● قرأ ابن عامر [ءَاصَارَهُمْ] بالجمع.
وقرأ باقي القراء العشرة: [إِصْرَهُمْ] بالإفراد.
ومؤدّىٰ القراءتين واحد، لأنّ المفرد المضاف يعُمُّ كلَّ ما للمضاف إليه من أفراد.

فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ

١٦٠ ـ ● قرأ أبو عَمْرو: [عَلَيْهِمِ الْغَمَامَ] و[عَلَيْهِمِ المنَّ] بكسر هاء الضمير وكسر الميم بعدها في الوصل.

وقرأ بضمهما في الموضعين في الوصل: حمزة والكسائي، ويعقوب، وخلف.

وقرأ باقي القراء العشرة بكسر هاء الضمير وضمّ الميم فيهما.

١٦١ ـ ● قرأ نافع، وأبو جعفر ويَعْقوب: [تُغْفَرْ لَكُمْ خَطِيئَاتُكُمْ] بالبناء لما لم يسمّ فاعله، وبالجمع بألف وتاء.

وقرأ ابن عامر: [تُغْفَرْ لَكُمْ خَطِيئَتُكُمْ] بالبناء لما لم يسمّ فاعله، وبالإفراد، والإفراد مع الإضافة كالجمع في المعنى.

=

ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾

= وقرأ أبو عَمرو: [نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ] بنون المتكلّم العظيم، وجمع التكسير.

وقرأ باقي القراء العشرة: [نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُ] بنون المتكلم العظيم والجمع بألف وتاء.

وفي هذه القراءات تفنّن في التعبير والمؤدّي واحد.

١٦٣ ـ ● وقرأ ابن كثير، والكسائي، وخلف: [وَسَلْهُمْ] وقرأ باقي القراء العشرة: [وَاسْألْهُمْ].

١٦٣ ـ ● قرأ: [تَأْتِيهُمْ] بضم هاء الضمير في الموضعين: يعقوب.

وقرأ باقي القراء العشرة بكسر هاء الضمير فيهما.

١٦٤ ـ ● قرأ حفصٌ: [مَعْذِرَةً] بالنصب، على أنها مفعول لأجله.

وقرأ باقي القراء العشرة بالرفع: [مَعْذِرَةٌ] على أنّها خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي معذرة.

١٦٥ ـ ● قرأ نافع وأبو جعفر: [بِعَذَابٍ بِيسٍ].

وقرأ ابنُ عامر: [بِعَذَابٍ بِئْسٍ] وقرأ شعبة في أحد الوجهين عنه: [بِعَذَابٍ بَيْئَسٍ].

وقرأ باقي القراء العشرة: [بِعَذَابٍ بَئِيسٍ] وهو الوجه الثاني لشعبة.

وهذه القراءات وجوه من الأداء، والمعنى واحد.

فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

---

١٦٩ ـ ● قرأ رُويسٌ بضم هاء الضمير في: [يَأْتِهُمْ].

وقرأ باقي القراء العشرة: [يَأْتِهِمْ] بكسر هاء الضمير.

١٦٩ ـ ● قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [أَفَلَا تَعْقِلُونَ] بتاء المخاطبين.

وقرأ الباقون: [أَفَلَا يَعْقِلُون] بياء الغائبين.

وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البيانيّ، فالمتَلَقُّون يقال لهم: [أَفَلَا تَعْقِلُون] والآخرون يقال بشأنهم: [أَفَلَا يَعْقِلُونَ].

١٧٠ ـ ● قرأ شُعبة: [يُمْسِكُونَ بالكِتَاب] من فعل: «أَمْسَكَ».

وقرأ الباقون: [يُمَسِّكُونَ] من فعل: «مَسَّكَ» بتشديد السّين.

روعي في إحدَىٰ القراءتين حال من يُمْسِكُ بغير التزام بقوّة، وفي الأخرى حالُ من يُمَسِّكُ بالْتِزام وقوّة، وكُلٌّ منهما لا يُضيع الله أجره.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ

١٧٢ ـ ● قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب: [ذُرِّيَّاتِهِمْ] بالجمع.

وقرأ باقي القراء العشر [ذُرِّيَّتَهُمْ] بالإفراد.

والمؤدى واحد في القراءتين.

١٧٢ ـ ١٧٣ ● قرأ أبو عَمرو: [أَنْ يَقُولُوا] و[أَوْ يَقُولُوا] بياء الغائبين فيهما.

وقرأ باقي القراء العشرة: [أَنْ تَقُولُوا] و[أَوْ تَقُولُوا] بتاء المخاطبين فيهما.

وفي القراءتين تكامل في الأداء البياني، فالمتَلقُّونَ يخاطبون، والآخرون يُتحدَّث عنهم بضمير الغائبين.

بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ

---

١٨٠ ـ ● قرأ حمزة: [يَلْحَدُونَ] من فعل: «لَحَدَ».
وقرأ باقي القراء العشرة: [يُلْحِدُونَ] من فعل: [أَلْحَدَ].
لَحَدَ وأَلْحَدَ لغتان عربيتان.

١٨٦ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر: [وَنَذَرُهُمْ] بنون المتكلّم العظيم، وبرفع الفعل.
وقرأ أبو عمرو، وعاصم، ويعقوب: [وَيَذَرُهُمْ] بياء الغائب، وبرفع الفعل.
وقَرأ الباقون: [وَيَذَرْهُمْ] بياء الغائب، وبجزم الفعل، على اعتبار «مَنْ» في: [مَنْ يُضْلِلِ] شرطيّة.

لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ

١٨٨ ـ • قرأ قالون في أحد الوجهين له: [إِنْ أَنَا إِلاَّ] بإثبات ألف «أنا».
وقرأ باقي القراء العشرة بحذف ألف «أنا» وهو الأكثر في الاستعمال.

١٩٠ ـ • قرأ نافع، وشعبة، وأبو جعفر: [شِرْكاً] على المصدرية.
وقرأ باقي القراء العشرة: [شُرَكَاءَ] جمع «شريك».
والقراءتان من قبيل التفنن في أداء المعنى المراد.

١٩٣ ـ • قرأ نافع: [لاَ يَتْبَعُوكُمْ] من فعل «تَبِعَ» المجرد.
وقرأ باقي القراء العشرة: [لاَ يَتَّبِعُوكُمْ] من فعل «اتَّبَعَ» المزيد الدال على التكلف.
وفي القراءتين إشارة إلى أحوال الشركاء، المدركين أنهم مَعْبُودون وغير المدركين ذلك.

١٩٥ ـ • قرأ أبو جعفر [يَبْطُشُونَ] بضم الطاء.
وقرأ باقي القراء العشرة: [يَبْطِشُون] بكَسْر الطاء. وهما وجهان عربيان.

ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ
(١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ
(١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا
أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا
وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨) خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ
بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ
الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا
هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا
يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ
إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ

١٩٥ ـ ● قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب: [قُلِ ادعُوا] بكَسْر اللام في الوصل.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [قُلُ ادعُوا] بضم اللاّم في الوصل.
وهما وجهان من الأداء في النطق جائزان.

١٩٥ ـ ● قرأ أبو عمرو، وأبو جعفر: [كِيدُوني فَلا] بإثبات ياء المتكلّم في الوصل.
وقرأ يعقوب، وهشام: [كِيدُونِي] بإثبات ياء المتكلّم في الوصل والوقف.
وقرأ باقي القراء العشرة: [كِيدُونِ] بحذف ياء المتكلّم في الوصل والوقف.

٢٠١ ـ ● قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو، والكسائي، ويعقوب: [طَيْفٌ].
وقرأ باقي القراء العشرة: [طَائِفٌ] والمعنى فيهما واحد، فالطيف هو الخيال الطائف.

٢٠٢ ـ ● قرأ نافع، وأبو جعفر: [يُمِدُّونَهُمْ] منْ فعل «أَمَدَّ» وقرأ باقي القراء العشرة: [يَمُدُّونَهُمْ] من فعل: «مَدَّ يَمُدُّ».
وهما لغتان عربيّتان والمعنى واحد.

٢٠٣ ـ ● قرأ رَويس: [تَأْتِهُمْ] بضمّ هاء الضمير.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [تَأْتِهِمْ] بِكَسْرِ هاء الضمير

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

٢٠٤ ـ ● قرأ أبو جعفر [وإذ اقْرِيَ] بالياء بدل الهمزة.
وقرأ باقي القراء العشرة: [وَإِذَا قُرِئَ] بالهمزة على الأصل في كلمة [قُرِئَ].

(٢)
مما ورد في السنة بشأن سورة (الأعراف)

صحّ عن النبي ﷺ أنه كان يقرأ أحياناً بهذه السورة في صلاة المغرب، يُفَرِّقُها في ركعتين.

(١) روى النسائي عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف فَرَّقها في رَكْعَتَيْن.

(٢) وروى النسائي أيضاً من حديث أبي مُلَيْكَةَ، عن عروةَ عن زيد بن ثابت، أنّه قال لمروانَ بْن الحكم: «مَالِي أَرَاكَ تَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِقِصَارِ السُّوَرِ، وَقَدْ رَأَيْتُ رسول الله ﷺ، يَقْرَأُ بِأَطْوَلِ الطُّولَيَيْن».

قال مروان: قُلْت: «يا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا أَطْوَلُ الطُّولَيَيْنِ؟».

قال: «الأعراف».

(٣) وجاء في حديث أمّ سَلَمَةَ رضي الله عنها، «أنّ رسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقْرَأُ في الْمَغْرِب بِطُولَى الطُّولَيَيْنِ».

المراد بالطُّوليين: «الأنعام» و«الأعراف» وسورة «الأعراف» أطول، إذ عدد آياتها (٢٠٦) وعدد صفحاتها (٢٤) صفحة. أما سورة الأنعام فعدد آياتها (١٦٥) وعدد صفحاته (٢٣) صفحة بحسب مصحف المدينة المنورة.

أي: أمّا «البقرة» و«آل عمران» و«النّسَاء» فمعروفات بأنها الطّوال. وكلٌّ منها أطول من «الأعراف».

وتأتي «المائدة» بعد «النساء» وقبل «الأنعام» وهي أقصر من «الأنعام» فالطوليان بعد المائدة في المصحف هما: «الأنعام» و«الأعراف».



(٣)
موضوع سورة الأعراف

يمكن وضع العنوان التالي لموضوع سورة (الأعراف):

مطلوبُ الله من عباده في رحلة امتحانهم أنْ يَتّبعُوا ما أُنزِل إليهم من ربّهم، وتفصيلات تتعلّق بهذا المطلوب، وقصة التاريخ الإنساني تجاه هذا المطلوب الرّباني مُنذُ خلَقَ اللَّهُ آدم وزوجه.

فيدور موضوع سورة (الأعراف) حول تاريخ الناس، آدَمَ وزوجِه وذراريهما، تُجَاهَ ما يجب عليهم من اتّباع ما أُنزِل إليهم من ربّهم، وما يحرُم عليهم من اتّباع أولياء من دونه، وبيان ما أثبته الواقع من أنّ الناس قليلاً ما يتذكّرون عبْرَ التاريخ البشري.

واشتمل هذا الموضوع على معالجات للرّسول ﷺ، وللّذين لم يَتَّبعوا ما أَنْزَل ربّهم إليهم، وعَلَىٰ بيانات لأصول الدين الذي اصطفاه الله للناس، وكُليَّاتِه الكبرى، وتحذيراتٍ لبني آدم من أن يفتنهم الشيطان، فيصُدَّهُمْ بوساوسه وتسويلاته عن دخول الجنة، كما أخرج أبويهم آدم وحواء من الجنة، بمخالفتهما لما نهى الله عنه.

واشتمل على كشف ما أوصَىٰ الله بني آدم به، منذ تاريخهم الأول، من وجوب اتّباع آياته الّتي يُبَلِّغُهُمْ إيّاها رسُلٌ مِنْهُمْ يُرسلهم إليهم ليَقُصُّوها عليهم كما أنزلها الله.

واشتمل على عرض لقطات من مشاهِدِ يَوْمِ الدّين، فيها ترغيبٌ وترهيب، وعلى أمثلة تاريخيَّةٍ من الأمم السالفة، وما جَرَىٰ لهم في الحياة الدنيا، وما أعَدَّ الله لهم يوم الدين.

واشتمل على معالجات اقناعيّة حول توحيد الربوبيّة والإلّهيَّة لله عزَّ وجل، وما يجب على الناس تجاههما، وعلى معالجات إقناعيّة لأمّة دعوة محمد ﷺ، وترغيبية وترهيبية، والثناء عليهم بأنّ منهم أُمَّةً يَهْدُونَ بالحق وبه يعدلون، وعلى وصايا للرسول ﷺ ولحملة رسالته من أمّتِه، في مجالات تأديتهم وظائف الرسالة التي يحملون مُهمَّاتِها.

ويلاحظ المتدبّر المتَتَبّع أن الخطّ الأعظم الذي تسير عليه آيات السورة هو الخطّ المنطلق من الآية الثالثة منها، وهي قول الله تعالى خطاباً للناس جميعاً:

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ③﴾.



(٤)
دروس السورة

تشتمل سورة (الأعراف) على اثني عشر درساً تدور حول موضوعها الذي سبق بيانه بصورة إجمالية.

الدرس الأوّل وهو الآيات من (١ ـ ١٠).

ويشتمل على بيان لقطات موجزات من أصول الدّين في قضايا، مع

خطاب الناس عقب بيان بعضها بأنّهم قليلاً ما يتذكّرون، وعقب بيان مِنَّة الله عليهم في ظروف هذه الحياة الدّنيا بالتمكين في الأرض، وبما جعل لهم فيها من معايش، بأنَّهُمْ قَليلاً ما يَشكُرون.

وقد اشتمل هذا الدرس الأول على ثماني قضايا:

القضية الأولى: بيان أنّ القرآن مُنَزَّلٌ مِنَ الرَّبِّ الخالق للعالمين المخاطبين بما جاء فيه.

القضية الثانية: بيان وظيفة الرسول محمد ﷺ بالنسبة إلى القرآن، بوصف كونه رسولاً، وهي تبليغه، وبيانه، وأخيراً الإنذار بما جاء فيه من إنذارات، فهو غير مسؤول عن تحويل الناس من الكفر إلى الإيمان.

وبيان ما يجب على الناس تجاه ربّهم والكتاب المنزّل إليهم، فالمطلوب من المؤمنين أن يكون هذا الكتاب ذكرىٰ لهم دواماً.

القضية الثالثة: توجيه الله الأمر لكل الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، بأن يتخذوا ربَّهم هو وليّهم، وبأن لا يتخذوا من دونه أولياء على خلاف ما تقتضيه ولايته لهم، وبأن يتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إليهم من ربّهم.

القضية الرابعة: بيان حقيقة من حقائق واقع المجموع البشري، وهي أنهم قليلاً ما يتذكّرون ما يجب عليهم تجاه ربّهم، لتحقيق سعادتهم الأبدية.

القضية الخامسة: الإلماح إلى الإنذار بمعجّل العقاب في الحياة الدنيا، قياساً على من أهلكهم الله عزّ وجلّ من أهل القرىٰ السَّابقين بسبب كفرهم، وعدم اتّباعهم ما أَنْزَل الله إليهم، وتكْذِيبهم رُسُلَ رَبّهم، مقروناً ببعض تفصيل عن أسلوب الله عزّ وجلّ في إهلاكهم.

القضية السّادسة: توجيه الإنذار بمؤجّل العقاب إلى يوم الدّين، من خلال عرضٍ لمحاتٍ من عُنْصُرَيْن من عناصر محكمة العدل الربّانيّة يوم الدّين، وهما عنصُر السؤال، وعنصر الوزن لأعمال العباد.

القضية السابعة: بيان أنّ الله عزّ وجلّ قد جعل الناس في الأرض ممتَّعِين بأتَمّ كيفية لتحقيق امتحانهم في الحياة الدنيا، بيْنَ طريق الشكر لربّهم، وطَرِيق الكفر به، إذْ مكَّنَهُمْ في الأرض فجعَلَهم قادرين على أن يتصَرَّفوا فيها على ما يُرِيدُونَ من طاعةٍ لربّهم بإرادة الخير وفعله، أو معصِيَةٍ لربّهم بإرادة الشرّ وفعله، وجعل لهم فيها وسائل عيْشٍ مختلفة، ليبلُوهُمْ فيما آتاهم.

القضية الثامنة: بيان حقيقة من حقائق واقع حال المجموع البشري، وهي أنّهم قليلاً ما يَشْكُرُونَ.

الدرس الثاني وهو الآيات من (١١ ـ ٢٥).

ويشتمل على بيانٍ حول قضيّة خلق الإنسان متمثّلاً بالشخص الأول من نوعه، وهو آدم ومعه زوجته، ولقطاتٍ مما رافق خلقه من أحداث، وما جرى لهما بعد إدخالهما الجنة إدخال امتحان واختبار، لا إدْخال خلودٍ واستقرار، من إغواء الشيطان لهما، حتى عصيا ربَّهما فأكلا من الشجرة الّتي نهاهما عن أن يقرباها، فكان السبب في إخراجهما من الجنة.

وكان ما جرى منهما مثلاً من أمثلة عدم اتّباع الإنسان الممتحن المكلف ما أنزل الله إليه، واتّخاذه وليًا من دون الله عزّ وجل، وكان ما جرى لهما مثلاً من أمثلة الجزاء الرَّبّاني بالعقاب على معْصِيَةِ أوامِرِ الله ونواهيه.

الدرس الثالث وهو الآيات من (٢٦ ـ ٣٦).

ويشتمل هذا الدرس على قصة الدّين الذي كان هُدَى الله لبني آدم

الأوّلين، وقد تضمّن بيان الأسس العامّة للدّين الذي جاء به جميع رُسُل الله آدمُ فَمَنْ أرسَلَهُ الله من بعد آدم إلى أممهم، وهو الدين الذي بلّغه كلّ رسُولٍ لأمّته، وقد ختم الله ببعثة محمد ﷺ وبما أنزل عليه رسالاتِه للناس.

وجاء في الآية (٣٢) من هذا الدّرس بيانٌ حول القرآن بأنّ الله عز وجل يُفصّل الآيات لِقَوْم يَعْلَمُون، للتّنْبيه على بعض خصائص البيان القرآني، وجاء هذا البيان في أثناء ذكْرِ بعْضِ القضايا المفصّلَة في هذا الدرس.

الدرس الرابع وهو الآيات من (٣٧ ـ ٥٣).

وقد جاء هذا الدرس مرتّباً على الخطّ الفكري الذي جاء في الآية الثالثة من السورة، وهو قول الله عزّ وجل خطاباً للناس:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

فقد جاء في مطلع الدرس الرابع قول الله عزّ وجل:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ... ﴿٣٧﴾﴾.

وقد جاء في هذا الدرس بيان لقطات من مشاهد عذابهم يوم الدّين، وبيان لقطات أخرى من مشاهد ثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، متبعين في الحياة الدنيا ما أُنزل إليهم من ربّهم.

وجاء فيه عرض حِوارَيْنِ بين أصحاب الجنة وأصحاب النار:

أحدهما: حِوارٌ اقترن بنداء لبُعْدِ ما بين الفريقين، وهذا الحوار يكون في موقف الحشر.

والآخر: حوارٌ اقترن بنداءٍ أيضاً، وهذا الحوار يجري حين يكونُ أهل الجنة في الجنّة، وأهل النار في النار، ويجعل الله بينهما وسائل اتصال.

الدرس الخامس وهو الآيات من(٥٤ ـ ٥٨):

وقد جاء هذا الدرس أيضاً مرَتّباً على الخطّ الفكري الذي جاء في الدرس الأول من دروس السورة، في الآية الثالثة منها، وهي:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

وقد اشتمل هذا الدرس الخامس على بيان بعض آيات الرَّبّ الخالِقِ في كونه، وأنّ له في الوجودِ كلّه الخلْقَ والأمْرَ، فعلَىٰ مَرْبوبيه أن يَعْبُدُوه وحده لا شريك له، ومِنْ عِبَادَتِه جَلَّ جلاله، أن يَدْعُوَهُ عَبِيدُه تَضَرُّعاً وخفية، وأن لا يَعْتَدُوا، وأن لا يُفْسِدُوا في الأرض بَعْدَ إصلاحها، وأن يتوجّهوا له بالدُّعاء في أحْوَالِ الخوف، وفي أحوال الطمع.

الدرس السادس وهو الآيات من (٥٩ ـ ١٧١).

وهو درس طويل يشتمل على قِصَصٍ فيها تفصيل متوسّطٌ أو مطوّل لستّة رُسُلٍ وأقوامهم، وبيان مجمل عن رُسُلٍ لم تُذْكَرْ أسماؤهم ولا أسماءُ أقوامهم.

وينقسم هذا الدرس إلى سبع فصول.

الْفَصل الأول: فيه لقطات من قصة نوح عليه السلام مع قومه، وهي الآيات من (٥٩ ـ ٦٤).

الْفَصل الثاني: فيه لقطات من قصة هود عليه السلام مع قومه عاد، وهي الآيات من (٦٥ ـ ٧٢).

الفصل الثالث: فيه لقطات من قصّة صالح عليه السلام مع قومه ثمود، وهي الآيات من (٧٣ ـ ٧٩).

الفصْلُ الرابع: فيه لقطات من قصة لوطٍ عليه السلام مع قومه، وهي الآيات من (٨٠ ـ ٨٤).

الفصْلُ الخامس: فيه لقطات من قصة شعيب عليه السلام مع قومه، وهي الآيات من (٨٥ ـ ٩٣).

الفَصْل السادسُ: فيه بيان مجمل عن رُسُلٍ لم تُذْكَرْ أسماؤهم، ولا أسماء أقوامهم، وفيها بيان عامٌّ عن سُنَّةِ الله عزّ وجَلّ في أهل القرىٰ، وتوجيهاتٌ هادياتٌ وواعظاتٌ لكلّ النّاس ما تعاقبت القرون حتّىٰ زَمَنِ إقفال باب التوبة، والإيذان بإقامة ساعة إنهاء ظروف الحياة الدنيا حياة الابتلاء.

وهي الآيات من (٩٤ ـ ١٠٢).

الْفَصْلُ السابعُ: فيهِ لقطاتٌ من قصة موسىٰ وأخيه هارون عليهما السلام، مع فرعون ومَلَئِه وقَوْمِه، ومع بني إسرائيل.

وهي الآيات من (١٠٣ ـ ١٧١).

الدرس السابع وهو الآيات من (١٧٢ ـ ١٧٤).

وهو درس يشتمل على بيان العهد الذي أخذه الله عزّ وجلّ على بني آدم وهم في عالم الذّرّ، بأنّهُ رَبُّهم، والّذي أشهدهم فيه على أنفسهم بذلك.

وجاء في آخر هذا الدرس آية فاصلة حول القرآن تبيّن أن الله عزّ وجلّ يفصّل الآيات للناس لعلّهم يَرجعون إلى الحقّ، وإلى صراط الله المستقيم فيلتزموا سلوكه وهي الآية (١٧٤).

الدرس الثامن (هو الآيات من ١٧٥ ـ ١٧٧).

وهذا الدرس يشتمل على بيان حال من يكون مَحْمِيًا بِلبَاسٍ شاملٍ من آيات الله، ثمّ يَنْسَلِخُ مِنها، وعندئذٍ يُتْبِعُهُ الشيطانُ، ويَسْتَهْوِيه حتى يكون من الغاوين، بسبب اتّبَاعِه هَوَاه، وإخلادِه إلى الأرض.

وهذا الدرس موصول بالخط الفكريّ الأعظم الذي جاء في الآية الثالثة من السورة، التي تأمر الناس جميعاً باتباع ما أُنْزِل إليهم من ربّهم، في آياتٍ بيانِيَّةٍ تتضمّن مطلوب الرَّب الخالق من عباده المكلّفين.

الدرس التاسع وهو الآيَتان (١٧٨ ـ ١٧٩).

وهذا درس يعرض الله عزّ وجلّ فيه لقطة من لقطات محكمة العدل الرّبانية يوم الدين، وهي لقطةٌ ختاميَّة تَكْشِفُ أنّ من يحكم الله له بالهداية فهو المهتدي، وأن من يحكُم الله عليه بالضلالة فهو الخاسر لا محالة.

وجاء فيه تعليقٌ بيانيٌ بشأن أهل جهنّم الّذين لم ينْتَفِعُوا بما آتاهم الله من قلوب مؤهَّلَةٍ لأن تَفْقَه، إلاّ أنهم لم يَفْقهوا بها، ولم يَنْتَفِعُوا بما آتاهم الله من أعْيُن مؤهلة للإبصار، وآذان مؤهلة للسّماع، إلاّ أنّهم كانوا في حياة امتحانهم كالأنعام بل كانوا أضلَّ من الأنعام، إذْ لهم أعينٌ ولكنَّهُمْ لا يُبْصرون بها، ولهم آذانٌ ولكنَّهُم لا يسمعون بها، بسبب انصرافهم عمّا يُنْجِيهم من عَذَاب الدنيا وعذاب الآخرة، ويُظْفِرهم بجنات النعيم يوم الدّين، غروراً بمتاع الحياة الدنيا وزيناتها.

ولا يخفى ارتباط هذا الدرس بموضوع السورة، وبالخطّ الأعظم الذي تسير عليه آياتها.

الدرس العاشر وهو الآية (١٨٠).

ويتضمن هذا الدرس وجوب الالتزام بأسماء الله الحسنى لدى عبادته بالدُّعَاء، والتحذير من الإلحاد في أسمائه.

وهذا الالتزام هو من عناصر اتّباع ما أنزل الله عزّ وجلّ لعباده في آياته الْبَيَانِيَّةِ من مطالب، فالدّعاء أوّل عبادة العبد لربّه، ورأسُ عباداته له، ويجب أنْ يكون خالياً من كلّ شرك.

الدرس الحادي عشر وهو الآيات من (١٨١ ـ ١٩٨).

وهو درس يتعلّق بأُمَّةِ دَعْوَة محمد ﷺ وهم كلُّ الناس بعد بِعْثَتِه، وفيه بيان أنّه توجد فيهم أمّةٌ مؤمنون يهدون بالحق وبه يعدلون، ويوجد

فيهم آخرون مُكذِّبون بآيات الله سينالون عقابهم، وفيه مُعَالجاتٌ إقناعيّة لهؤلاء المكذبين، ولا سيما ما هم فيهِ من شرك، وَفيه رَدٌّ على سؤالهم عن وقت قيام الساعة.

الدرس الثاني عشر وهو الآيات من (١٩٩ ـ ٢٠٦) آخر السورة.

وهو درس ختاميٌّ فيه توجيه للرسول محمّد ﷺ، ولحملة رسالته من بعده، بشأن ما ينبغي التحلي به لدى القيام بمهمات الدعوة إلى الله وما ينبغي اتخاذه تجاه نزغ الشيطان المحرّض على مقابلة السيّئة من المدعوّين بمثلها، وما ينبغي أن يجيب به الرّسُولُ المتعنتين الّذِين يقترحون عليه أنْ يأتي بالآيَاتِ على ما يشتهون.

وهذه التعليمات موصولة بما جاء في أوّل السورة، وهو قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾.

وفي هذا الدّرْس أمْرٌ من الله للمؤمنين بأن يستمعوا للقرآن إذا قُرِئ وهُمْ حضور، وبأن يُنْصِتُوا راجين أن يرحَمَهُمُ الله، وهذا الأمر موصول بالآية الثالثة من السورة، المشتملة على الخطّ الأعظم الذي تَسِيرُ عليه دُرُوسها.

وفيه أمْرٌ لكلّ مستجيب لدعوة الحقّ الرّبانية بأن يذكر رَبَّه في نفسه تَضَرُّعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال، وهذا الأمر موصول بالآية الثالثة من السّورة أيضاً، وبفقرتها الأخيرة بالذّات وهي قولُه تعالى فيها: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ وذلك لأنّ التذكُّرَ وسيلتُه حَرَكَةُ الذكر في النفس، وأقَلُّهُ وِرْدُ الْغُدُوّ، وَوِرْدُ الأصيل مع التضرع والخوف وأن يكون دون الْجَهْرِ من القَوْل.

❁ ❁ ❁

(٥)
التدبر التحليلي للدرس الأوّل من دروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ١٠)

قال الله عزّ وجلّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

تمهيد:

● في هذا الدرس يخاطب الله عزّ وجل رسوله محمّداً ﷺ، فيُبَيِّنُ له حُدودَ وظيفةِ رسالتِه تُجاه القرآن الّذي أَنْزَلَ إِلَيْهِ قِسْماً منه خِلَال الزمن الذي بدأ في أَوَّلِه بعثُهُ رسولاً للناس أجمعين، وسَيُنْزِلُ إليه سائره خلال ما بقي من حياته، وهذه الوظيفة محدَّدَةٌ بأنَّ عليه تبليغَهُ وبيانَه للناس.

ثم إنْذار من لم يستَجِبْ لدَعْوتِه، بما جاء فيه من إنذارات، بعد أداء مُهِمّاتِ رسالَتِه لهم.

● أمّا من استجاب فآمن إيماناً صحيحاً صادقاً، فالمطلوبُ منه أن يكون القرآن له ذِكْرىٰ، يَتَذَكَّرُ ما جاء فيه من بيانِ مطلوبِ الله من عبادِه، عِنْد كلِّ مُنَاسبَةٍ داعيَةٍ لهذا التذكُّر.

● وبعد هذا نجد في هذا الدَّرْسِ خطاباً موجّهاً من الله عزّ وجلّ لكلّ النّاس الصالحين للخطاب، والموضوعين في الحياة الدّنيا موضع الابتلاء، فيأمرُهم فيه أمْرَ إلزامٍ وإيجابٍ باتّباع ما أُنزِل إليهم من ربِّهم أو سَيُنْزَلُ على وفق ما تمَّ به قضاؤه، في هذا الكتاب الّذي يُبَلّغُهُمْ إيّاه الرسُول محمّد ﷺ، أو المبلِّغون عنه من أُمّتِه الّذين آمَنُوا به وحَمَلُوا واجِبَ تبليغ رسالَتِه الّتي تَبَلّغوها منه، وينهاهم نَهْيَ إلْزامٍ وتحريمٍ، عن أن يَتّبِعُوا من دون ربّهم أولياء، يَشْرعُونَ لهم ويُحلّلُون لهم ويحرّمون عَلَيْهِمْ ما لَمْ يُنَزِّل اللَّهُ به سلطاناً.

● وبعد ذلك نجد في هذا الدرس إعلاماً من الله عزّ وجلّ، بأنّ واقع حال النّاس الّذِي سيكونُونَ علَيْهِ باختيارِهِمُ الحرّ، والذي سبَقَ به عِلْمُهُ كَشْفاً لا جَبْراً، أنّهم قليلاً ما يتذكّرُونَ، بسبب أنّهم سَيتَّبِعُونَ أوْلِياءَ منْ دُونِ ربّهم، الّذين يُزَيّنون لهم معصية الله، ويُحَبّبُونَ إليهم عَدَمَ اتّباعِ ما أَنْزَلَ ربُّهم إلَيْهم، ويَضَعُونَ لهم أحكاماً وشرائع وسُبُلاً طاغُوتيَّةً، مَقْرُونَةً بزُخْرُفٍ من القَوْلِ، ليتَّبِعُوها، ويستثيرونَ فيهم أهواءَهُمْ وشهواتِهم ويُعَلّقونَها بما حرّم عليهم ربُّهُمْ من زِينات الحياة الدنيا، غير مكْتَفِينَ بالكثير الذي أحَلَّه لهم ربُّهم منها.

● واستدعى بيان هذا الواقع الذي سيكون عليه الناس، أن يحذّرهم ربّهم من المصير العقابي في الحياة الدنيا، نظير الّذي أنزله بالظالمين الأوّلين الذين أهْلَكَهُمْ من كُفّارِ القرون الأولى، الذين كذّبوا رُسُل رَبّهم، ولم يَتّبِعُوا ما أُنزِل إليهم منه، فجاء في هذا الدرس ما يكشف هذه السُّنَّةَ من سُنَن الله في عباده الظالمين.

● لكِنَّ المصيرَ العقابيَّ المعجّلَ في الحياة الدنيا، بالإهلاكِ الجماعيّ العام للأقوام الظالمة، مع إنزالِ بعْضِ الْعَذَاب عليهم قبل إماتَتِهم، لاَ يُسَدِّدُ ما يَسْتَحِقُّون من جزاء، إذ الجزاء الأَوْفَىٰ مؤجّلٌ إلى يوم الدِّين، يومَ يُبْعَثُونَ

لحياةٍ أُخرى يكون فيها الحساب، وفصلُ القضاء، وتحقيقُ الجزاء الأوفىٰ بالعدْلِ على ما قَدَّمُوا وأخّروا في الحياةِ الدنيا حياةِ الابتلاء.

فَسَيُحَاكمون في محكمة العدْل والفضل الربّانيّة، وفيها يُسْأَلُون عن مخالفاتهم لأوامر ربّهم وَنواهيه، ويُسْأَلُ الشُّهود الّذين بَلَّغُوهُمْ ما أُنْزِلَ إليهم من ربهم، وفيها تُعْرضُ عليهم صُحُفُ أعمالِهم الّتي سَلَفَتْ في الحياة الدنيا، فَيُشَاهِدُونَ صغارَها وكبارَها، إلاَّ ما سَتَرَهُ اللَّهُ وعفَا عنه منها. وفيها تُوزن أعمالُهُمْ بموازِينِ العدل الرَّبَّانيّة القائمة على الحقّ، والتي تَزِنُ أصْغَرَ الذَّرّاتِ، بموازينَ ملائمةٍ لِوَزْنِ الأعمال بحسب الطّاقاتِ التي أنفقت فيها، وتكشف هذه الموازين أحوال الناس، ومراتبَهم، ومنازِلَهم ودرجاتِهم ودرَكَاتِهم المساويةَ لأعمالهم الجسديّة والفكريّة والنفسيّة والقلبيّة، فمنهم من تثقل موازينُهُمْ، فيحكُمُ الله لهم بالفلاح، على مقادير مراتبهم ودرجاتهم، ومنهم من تخِفُّ موازينُهُمْ، بسبب ظلمهم الناجم عن عدَمِ اتّباعِهم ما أُنْزِل إلَيْهِمْ من آياتِ ربّهم، فيكُونُون خاسِرين أنْفسَهُم، إذْ يَصِيرون إلى عَذابٍ خالِدٍ فِي جَهَنّم، وذلك هو الخسران الأعظم.

● وقد كان الواجب عليهم في رحلةِ امتحانِهم في الحياة الدنيا، أنْ يشْكُرُوا ربّهم على ما أَوْلاَهُم فيها من نِعَمٍ كثيرة، ولو من مستوى أَدْنَى الشكر بالإيمان وبَعْضِ العمل الصالح المعبِّر عن صدق إيمانهم بربهم وبما أُنزِلَ إليهم منه، إلاَّ أنَّ الناسَ قَليلاً ما يشْكُرُونَ.



التدبّر التحليلي:

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾:

﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ تُتلَىٰ على وفق أسماءِ حروفها: «أَلِفْ، لاَمْ، مِيمْ، صَادْ» وقد سبق في أول سورة (القلم) بيانٌ كافٍ حوْلَ الحروفِ المقطعة الموجودة في أوائل بعض السّور.

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾: أي: هَذا القرآنُ كِتَابٌ أُنزِلَ إلَيْكَ من رَبِّكَ يَا مُحَمَّد، وجاء في هذا إطْلَاقُ عُنْوانِ كلِّ الكتاب الرَّبَّانيّ القرآن، مع أنَّ الّذي أُنزِلَ عَلَيْهِ فِعلاً مِنه قبل إنزال سورة (الأعراف) بَعْضُهُ لاَ كُلُّه، نظراً إلى أنَّ القضاء الرَّبَّانِيّ قَدْ تَمَّ بإنْزَالِهِ كُلِّهِ مُنَجَّماً، فَهُو بِحُكْم المنزَّلِ كُلِّه، فَسَائِرَهُ سيَنْزِلُ حتماً. وإلى أنّ ما أُنزِلَ مِنْهُ يُحْدِثُ في صَدْرِ الرَّسُولِ حَرَجاً إذَا لَمْ يُبَيّن الله عزّ وجلّ لرسُولِه وظيفته تجاهه، إذْ قَدْ يَتَصَوَّرُ أنّه مسؤول عن تبليغه وبيانه، ومسؤولٌ أيضاً عن اتّخاذ الوسائل لتحويلِ الناسِ من الكُفْرِ إلى الإيمان، ومن أعمال الشرّ إلى أعمال الخير التي تُرضي الله عزّ وجل، تحويلاً بالإكراه والجبْرِ، وهذا التَّصوُّر يُولِّد حَرَجاً وضِيقاً في صَدْرِه صلوات الله وسلاماته عليه، فأبان الله عزّ وجلّ له في هذه الآية حدود وظيفته تجاه كتاب ربّه.

يضاف إلى هذا اعتراضاتُ المشركين على تنزيلهِ مُنجّماً لا جملَةً واحدَة، الأمر الذي يسبّب له ضيقاً في صَدْرِه من اعتراضاتهم.

﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾: أي: فلا يكن في صَدْرِكَ يا محمَّدُ ضِيقٌ من هذا الكتاب الذي أُنزِلَ إليك، بسبب اعتراضات المشركين على تنزيله منجّماً، وبسبب تصوّرك أنك مسؤول عن تحويل الناس من الكفر إلى الإيمان.

والمعنى: فلا يكن في صَدْرِكَ ضِيق من مسؤوليَّاتِكَ ومَا يجب عليك تُجَاهُ ما أُنزِلَ إليك، فالأمر لَيْسَ كما يتبادر إلى تصوُّركَ من أنّك مسؤولٌ عن تحويل الناس إلى الإيمان من واقع الكفر الذي هم فيه، وإكراههم على

أَنْ يَسْلكوا الصراط المستقيم، بينما واقع حالهم أنّهم مُتَفَرّقون في السُّبُل المنحدرة إلى عذاب الجحيم، بل تنحصر مسؤوليتك في تبليغ وبيان ما أنزل الله إليهم، فإذا لم يَسْتَجِيبُوا فما عليك إلاَّ أن تُنْذِرَهُمْ بما جاء فيه من إنذارات، إذ هم ممتحنون قد وهبهم الله إرادات حرّة ليَبْلُوهم، ولا يكن في صَدْرِكَ حَرَج من اعتراضات المشركين.

الحرج: الضيق. وقال الزّجاج: أضيَقُ الضِّيق. وقال ابن عباس: الحرج الموضع الكثير الشجر الذي لا يَصِلُ إلَيْهِ الراعية. ويقال: مكان حَرَجٌ وَحَرِجٌ، أي: ضيّقٌ كثير الشجر.

أقول: هذا المعنى المادّي نُقِلَ للدّلالة على مشاعر الضِّيقِ الّتِي تكونُ في الصُّدُور من أمْرٍ عظيم.

ونلاحظ في هذا التعبير القرآنيّ إبْداعاً في الأداء البياني من جهة، وحكمة تَرْبويّة رَبَّانيّةً من جهة أُخرى.

● أمّا الإبداع البيانيّ فظاهر في توجيه النهي للحرج، لا للرَّسُول ﷺ، فلم يَقُل الله له: لاَ تكن حَرِجَ الصَّدْر، بل قال له: فلا يَكُنْ في صَدْرِك حَرَجٌ، ولا يخفى ما في هذا من تلَطُّفٍ بالرسول، إذْ لم يواجهْهُ الله بالنهي، بل وجّه النهي للْحَرَج.

ومن الإبداع في الأدَاءِ البياني، أنّ لَفْتَ النظر قد جاء للأثر، لا لمُسَبِّباته، مع أنّ المقصود هو مُسبّبَاته، فالحرَجُ في صدْره أثَرٌ قَدْ يَحْدُثُ من جرّاء تصوُّره أنّ مسؤوليّته تجاه هذا الكتاب الّذي أنزل إليه، أن يجعل الناس مُتَّبِعين له، وهذا أمْرٌ لم يملكْهُ الرسول ﷺ، بعد أن ظهر له خلال مسيرته في دعوته حتى وقت إنزال سورة (الأعراف) أنّ معظم قومه كفروا به، ورفضوا اتّباعه، فماذا يفْعَلُ تجاه مسؤوليته العظمى الّتي تمثّلَتْ في تصوُّره؟

وقد يحدث من جراء اعتراضات أئمة الكافرين على تنزيل القرآن منجماً واتخاذ ذلك ذريعة لاتهامه بالافتراء على الله.

فاقتضىٰ الأمر إعلامه بأنه ليس مسؤولاً عن إلزامهم بالاتباع، ولا عن اتخاذ الوسائل الإكراهيّة الّتي تجعلهم يتبعونه، وهي غيْرُ مُتَاحَة له بمقتضىٰ نظام الأسْباب والمَسبَّبَات، وأنّ اعتراضاتهم على تنزيل القرآن منجماً ينبغي له أن لا يهتم لها، لأنها اعتراضات على الاختيار الحكيم لرب العالمين.

والتعبير التلقائي القريب لإعلامه بهذه الحقيقة، يكون ببيان أنّه ليس مسؤولاً عن جعلهم يتّبِعُونَ الكتاب، فإذا لم يتّبعُوهُ فلا يَجدْ في صدره حرَجاً من ذلك، لأنّ الله قد منح الناس إرادات حرّة ليبلُوهُمْ من خلالها فيما آتاهم، فلا سلطان للرسول ولا لغيره من خلق الله على إكراه الناس على الإيمان والإسلام والطاعة.

لكنّ مثل هذا التعبير يتناول الموضوع بطريقة مباشرة ليس فيها إبداعٌ فكريّ، فعدَلَ عنه الأداء القرآني، ووجّه النهي للأمر النفسيّ الذي يُحْدِثُه تصَوُّره أنّه مسؤول عن جعلهم يتّبِعُون ما جاء في القرآن، وهو الحرجُ في صدره.

أي: لا تَتَصَوَّر تصوُّرات تفضي بك إلى أن تَشْعُر بالحرج في صدرك، لأنّ التكليف الموجّه لكَ ليس فيه ما يجعل في صدرك حرجاً.

هذا الأسلوب غير المباشر هو من رفيع الأدب في جانب المضمون الفكريّ للنصّ.

● وأمّا الحكْمةُ التربويّة الرَّبّانيَّةُ، فنلاحظها في تَقْديم البيان الدالّ على نَفْي ما يُسَبّب الحرجَ في صدْرِ الرسول ﷺ، إذ الحرجُ هو المشكلة الّتي كان يُعَاني منها إبان نُزُول هذه الآية.

وقد جاء قول الله عزّ وجل: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ بمثابة

جملة مُعْتَرِضَةٍ بين: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وبين: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فَطَمْأَنَ اللَّهُ عزّ وجلّ رسولَه بأنَّ تحويل الناس خارج عن حدود مسؤولياته.

وهكذا جاء تأخير البيان الدّالّ على مسؤوليته تجاه ما يُنْزِلُ الله إليه من القرآن، وهي أن ينذر الذين كفرُوا بما جاء في القرآن من إنذارات، ويَذَرَهُمْ وشأنَهُمْ، لأنّه ليس مسؤولاً عن كفرهم وعن عدم اتّباعهم لما جاء في الكتاب، وليس مكلّفاً أنْ يحوّلَهُمْ من الكفر إلى الإيمان والعمل الصالح.

أمّا من آمن واستجاب لدعوته، فليأمُرْهم بكتابته، وتلاوته، وتدبُّره على مقادير استطاعاتهم، وأن يكون لهم ذكرى، وقد جاء الإيجاز الدَّال على هذه المعاني بقوله تعالى:

- ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾:

﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾: أي: كتابٌ أُنزِلَ إليكَ لِتُنْذِرَ بما جاء فيه من إنذارات، مَنْ كَفَر بكَ وبما أُنزِلَ إليك، بعد التبليغ والبيان واتّخاذ كلْ وسائل الإقناع.

﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: وليكون ذِكْرَى للمؤمنين، يُذَكِّرُونَ به، ويَتَذَكَّرُون به، ويكون لهم أَدَاةَ تَذَكُّرٍ كُلّما تَلَوْهُ، أو قَرَؤوه، أو سَمِعُوه.

ذِكْرَىٰ: اسم يؤتَىٰ به للدلالة على معنىً أو أكثر من معاني ثلاثة:

المعنى الأول: التذكير، ومنه ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾: أي: إنْ كان التذكير مَطْموعاً بنَفْعِه.

المعنى الثاني: التَّذَكُّر، ومنه ما جاء في قول الله عزّ وجل في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بشأن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام:

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾: أي: تَـذَكُّـرُ الـدَّار الآخـرة دواماً.

المعنى الثالث: التَّذْكِرَة، أي: الوسيلة التي يَحْصُل بها التذكّر، كبطاقةٍ فيها ما يُذَكِّر، أو رتيمة، وهي الخيط الذي يوضع في الإِصْبَعِ للتّذكُّر.

والقرآن بالنسبة إلى المؤمنين هو ذكرى على المعاني الثلاثة، فهم يُذَكَّرُون به من قبل المذكِّرين، وهم يتذكَّرون به، ثم يكون هُوَ لَهُم إذا قرَءُوه في المصاحف، أو تلَوْهُ من حفظهم، أو سَمِعُوه ممن يقرؤه أو يتْلُوه أَدَاةَ تذكير.

وقد فهمنا مسؤولية الرسول ﷺ في تبليغ القرآن للناس من دلالة اللُّزُومِ العقلي، ومقتضياتِ الترتيب الطبيعيّ للأشياء.

وذلك لأنّ القرآن لا يكون ذِكْرَىٰ للمؤمنين ما لم يتَبلَّغُوهُ أوّلاً، ولا يكون تَبَلُّغُهُمْ له مَا لم يُبَلِّغْهُمُ الرَّسُولُ إيّاه، أو أحَدُ حَمَلةِ رسالَتِه من أُمّتِه.

ولا يُنْذِرُ به الرَّسُولُ الكافِرين ابْتِداءً، بل لاَ بُدّ أن يُبَلِّغَهُمْ إيّاه أولاً، ويبيّنَ لهم ما جاء فيه ممَّا يتعلّقُ بإيمانهم وإسلامهم وعملهم، ويُكرِّرَ تذكيرهم به، فإذا أصَرُّوا على رفْضِ الاستِجَابة لدعوته، وأَبَوْا أن يُؤْمِنُوا وَيُسْلِمُوا أَنْذَرَهُمْ بما جاء فيه من إنذارات.

وإيجازاً في التعبير، وحَذْفاً لما يُمْكن إدْرَاكُهُ ذِهْناً قال الله عزّ وجل لرَسُولِه: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

● فمن أَبَىٰ وَكَفر، ولم يستجب لدَعْوَةِ الإيمان والإسلام، أَنْذَرَهُ الرَّسُول، وكذَٰلِكَ حَمَلَةُ رِسَالَتِهِ مِنْ أُمَّتِه، بما في القرآنِ من إنذَارَاتٍ عاجِلاتٍ قد يَجْرِي تنفيذُها في الحياة الدنيا، وآجلاتٍ مؤخرات التَّنفِيذِ إلى يوم الدين.

● ومن آمن وأسْلَم وأَطاعَ كانَ القرآن له ذِكْرَىٰ.

فلا داعي لأنْ يكون في صَدْرِ الرسولِ حَرَجٌ، إذَا وَجَدَ الناس لم يستجيبوا لدعوته، وهذا يتضمَّن أمْرَين:

الأمر الأول: أنَّهُ غَيْرُ مكلّفٍ أمراً لاَ يستطيعُه، وهو تَحْوِيل الناس من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصيةِ إلى الطاعة، لأنَّهُمْ أصحاب إرادات حرَّةٍ منحهم الله إياها ليَبْلُوَهُمْ في ظروف الحياة الدنيا، ولا سبيل إلى إكراهها إلاّ من قبل خالِقِها، وهذا يتعارض مع حكمة الابتلاء.

الأمر الثاني: أنّ الله عزّ وجلّ سَيَمُدُّهُ بالمعونة والتأييد، حتَّىٰ يُؤَدِّيَ رسالَتَهُ على أحسن وجه.

إذن فلا داعِيَ لأنْ يَكُونَ في صدْرِهِ حَرَجٌ.

الحكمة من عبارتي: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ و﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ ونحوهما.

جاء في بعض النّصوص القرآنية حول إنزال القرآن التعديةُ بحرف الجرّ «إلى» وجاء في بعضها التعديةُ بحرف الجرّ «على».

● فمن أمثلة التعدية بحرف الجرّ «إلى» ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجل في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/٤ مصحف/٩٢ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجل في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ . .﴾.

● ومن أمثلة التعدية بحرف الجرّ «علىٰ» ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجل في سورة (الزّمر/٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ . . . ﴿٧﴾﴾.

فما الحكمة من هذا التنويع في التعبير؟

أقول: الذي أراه أنَّ كُلًّا من هذَيْن التّعبيريْن يدلُّ على معنى مقْصُودٍ غير المعنى الذي يَدُلُ عليه التعبير الآخر.

وذلك لأنّنا نُلاحظ أنّ بعض آيات القرآن فيها تكاليفُ يُنَاسِبُها التعبير الاستعلائيّ، فجاء في بعض النصوص التعبير متعدّياً بحرف الجرّ «علىٰ».

ونلاحظ أيضاً أن بعض آيات القرآن تشتمل على معارف وعُلومٍ ونَصَائِح نافعةٍ لاَ تَكْلِيفَ فيها، وهذه يُناسِبُها التعبير الدّالُّ على معنى

الإرشاد، والهداية، والْهَدِيَّةِ من الله عزّ وجلّ لعباده، فجاء التعبير في بعض النُّصُوس متعدّياً بحرف الجرّ «إلى».

وبهذا الإجراء البيانيّ تكامَلَتِ النُّصُوصُ في أداءِ الغرضَيْنِ، وملأَمَة التعبير للمضمون الفكري.

❁ ❁ ❁

● قول الله عزّ وجل:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

في هذه الآية خطابٌ مُوجَّهٌ لجميع النّاس الموضُوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، لابتلاء إراداتهم الحرَّةِ في اختياراتها بين نَجْدَيْ الخير والشّرّ، وفي هذا الخطاب أمْرٌ ونَهْيٌ من الله لعباده.

﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾: يُقالُ لغة: تَبِـعَ الشيءَ تَبعاً وَتَباعاً وَتُبُوعَا، أي: سار في أثره وقفاه دون تكلُّفٍ وَلاَ مُعانَاة.

ويقالُ: اتَّبَعَه اتباعاً إذا سار في أثره وقفاه بتكلف ومشقة.

ويقالُ لغة: اتَّبَعَهُ وَتَتَبَّعه، وفي هذَيْن معنىٰ الْقَصْدِ بعناية، وفي تَتَبَّعَ معنى الاستقصاء. وعبارة ﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾: فعل أمْرٍ تكليفيّ.

واتَّبَعَ الْقُرآنَ: أي: ائتَمَّ بِهِ، وعَمِلَ بما فيه، بقَصْدٍ وعِنَاية.

﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾: أي: آيات القرآن، وبَيَانَاتِ الرسول لَهُ المتَعَلِّقة بقضايا الدِّين.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ﴾: في هذِه العبارة نَهْيٌ إلزاميٌّ عن اتِّباعِ أَوْلِيَاءَ من دُونِ الله الرَّبِّ جلَّ جلاله.

﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: أي: من أشياء أو أحياء غَيْرِ رَبِّكُمْ هِي بطبيعتها تقع

دونه لأنها خلْقُهُ، وهو سبْحَانه المتصِفُ بالْفَوْقِيَّة المطلقة فهو العليُّ الأعْلَىٰ.

كلمة «دُون» في اللّغة تأتي في الأصل مقابِل كلمة «فوق» فهي مثل «تحت». وكُلٌّ من كلمتَيْ «فوق» و«دون» يستعمل في الحسيّاتِ وفي المعنويّات.

﴿أَوْلِيَآءَ﴾: جَمْعُ «وَلِيّ» والْوَليّ كالْمَوْلَىٰ.

الْوَليّ: يأتي بمعنىٰ: الرَّبّ، والمالك، والسَّيّد، والمنعم، والمعتق، والناصر، والمحبّ، والتّابع، والجار، وابن العمّ، والحليف، والصِّهْر، والْعَبْدِ، والمعْتَقِ، والْمنْعَمِ عليه، والْعَصَبَةِ من الأقارب، والذي يَلِي أَمْرَ اليتيم ويقوم بكفايته، والذي يلي عَقْدَ نكاح المرأة عَلَيْها.

ووَليُّ الرَّجُلِ هُوَ الّذي يَلي علَيْه أمْرَهُ.

والمناسِبُ من معاني الولِيّ للآية معْنَىٰ الرَّب الْمُطَاعِ المنْعِمِ، الذي ينْصُر عباده المؤمنين، والذي يَلِي جميع أمُورهم، ومِنْها أُمُورُ دينِهم الشاملة لشرائعهم، وأحكامِ سُلُوكِهِمْ في حَيَاتِهم، ومنْهَاجِ مَسِيرَتهم في هذه الدّنيا دارِ امتحانهم.

فمعنى ما جاء في الآية من أمْرٍ ونَهْيٍ: أيُّها الناسُ اتّخِذُوا رَبَّكُمْ وليَّكُمُ الذي يلي جَميعَ أُمُورِكم في حياتكم، فأطيعوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، مُتَّبعين ما أُنْزِل إليكُمْ عن طريق رسُولِهِ المؤيَّد بآياته، في كتابه القرآن، وفيما أوحَىٰ به إلى رسوله محمّد ﷺ من حقائق اعتقادِيّة، وشرائِعَ وأحكامٍ ووَصَايا، فاعْمَلُوا بما أَمَرَكُمْ به، واجْتَنِبُوا ما نهاكم عنه، واهْتَدوا بِهَدْيه. ولاَ تتخذوا من دون ربّكُمْ بارِئِكُمْ ومُصَوِّركم ومُمِدِّكم دواماً بنِعَمِه الظاهرة والباطنة، أرباباً من أشياء أو أحياء أولياء، تجعلُونَهُمْ أوْلياءَ عليكم، يَتَوَلَّوْن أُمُورَكم في مسيرتكم في حياتكم، فتَتَّبِعُونَ ما يأمرونكم به أو تأمُرُكم به الشياطين السّادِنُونَ لهم، أو الموسوِسُونَ لكم في صدوركم، فتعْمَلُونَ به،

وتَتَّبعُون ما ينهَوْنَكُمْ عنه أولئك، فتجتَنِبُونه، وتَعْمَلُونَ بشرائِعهم ومناهجهم وخُطَطهم ووَصاياهم، الّتي وضَعُوها لإغرائكم وإغوائكم وسَوْقِكُمْ إلى عذاب جهنّم.

فحقُّ رَبّكُمْ عليكم أن تُوَحّدُوهُ في وِلايَة أُمُورِكم في مسيرتكم في الحياة الدُّنيا حياة الابتلاء.

وكلٌّ من الأمر والنَّهي الواردَيْنِ في الآية من قبيل التكليف الإلزامي من الله عزّ وجل للناس، والمستَتْبَعِ بالمثوبة على الطاعة، والعقوبة على المعصية.

ومن الملاحظ أنّه اختير من أسماء الله عزّ وجلّ في هذه الآية اسم «الرَّبِّ» للدّلاَلة على أنّ الله تبارك وتعالى هو الذي له على الناس حقُّ أن يتَّخِذُوه وليًّا يَتَوَلّىٰ جميع أُمُورهم في مَسِيرَتِهم في حَيَاتِهِمْ، فيتّبعوا ما أَنْزَلَ لهم، ويأتَمِرُوا بأَوَامره، وينتهوا عمَّا نَهاهم عنه، ويَهْتَدُوا بِهَدْيه، ويَعْمَلُوا بوصاياه، ولا يَتَّخِذُوا من دونه وَلِيًّا، إذْ لا رُبوبيَّةَ في الوجود كُلّهِ إلاّ للّهِ وحده لا شريك له.

فالرَّبُّ: هو الخالق ابتداءً، وهو الْمُمِدُّ بالْبَقَاءِ والنَّماءِ وشُروطِ الحياة، والمحافظة عليها دواماً، حتَّىٰ نهاية الأجل المقضيّ من قِبَلِه لكلّ مَوْجود سِواه.

والرَّبُّ: هو المربّي الّذي يَتَعَهَّدُ مَا يُرَبِّيه ومَنْ يُرَبّيه بما يحتاج إليه دواماً، إذ التربيَة هي الإنشاء المتدرّج مع توالي الزَّمَنِ، حتَّىٰ إبلاغ الشيء درجة كماله، ويتْبَعُ ذلك التَّعَهُّد بالتناقُص شيئاً فشيئاً حتى نهاية الأجل المقدّر المقضي للمخلوق وفق نظام التربية.

وهذه التربية في تصاعُدِها وفي تَنَازُلِهَا للأحياء وسائر الكائنات هي من أفعال الله عزّ وجلّ في الوجود، لا يُشارِكُهُ فيها أحَدٌ.

إذَنْ: فلا أحد ولا شيءَ من دون الله يَصْلُح لأن يكون وَليًا لأحَدٍ من خَلْقِ الله في الوجود كلّه، إلاّ بأمْرِهِ أو إذْنِه، وضِمْن الحدود والشروط الّتي يُبَيّنُها سُبْحانه وتعالى فيما أنْزَلَ للناس.

فكيف يكونُ حالُ من يتَّخِذُ الطَواغيتَ أو شياطينَ الإنْسِ والجنّ أوْلِياء من دون الله، أو يَتَّخِذُ إلَهَهُ هَوَاهُ؟!.

وكَيْفَ يكونُ حالُ من يَرْفُضُ أحكام الله وشرائِعَهُ لعباده، ويَتَّخِذُ أَرْبَاباً من دون الله، يُشَرِّعُونَ لَهُ ما لَمْ يأذَنْ به الله، ولَمْ يُنزِلْ بِهِ سُلْطاناً؟!.

إنّه يَرْفُضُ الاستجابةَ لطلَب الله منه في الأمْر وفي النَّهْي، فَيَعْصِي مَرَّتَين، لقد عصَىٰ الأمْر فلم يَتَّبعْ ما أُنزِلَ إليه من ربّه، وعصَىٰ النَّهْيَ فاتَّخذَ أرباباً من دون الله واتَّبَعَ أوامرهم ونواهِيَهم، وشَرائِعَهُم ومناهِجَهُمُ الّتي لم يأذَنْ بها الله، ولَمْ يُنَزِّلْ بها سُلْطاناً.

ونُلَاحِظُ في هذا النصّ أنّ جملة الأمْرِ قَدْ حُذِفَ مِنها ما جاءَ الدليلُ عليه في جملة النَّهْي، وأنَّ جُمْلَةَ النَّهْي قَدْ حُذِفَ منها أيضاً ما جاء الدليل عليه في جملة الأمْر، وهذا ما يُسَمَّىٰ عنْدَ أهل البلاغة «الاحْتِباك».

فقد حُذِفَ مِنْ جملة الأَمْرِ التكليفُ باتخاذ الله وليًا، وحُذِفَ من جملة النَّهْي التَّكليفُ بعدم اتّباع شرائع ومناهجَ وأحكام يَضَعُها الواضِعُون من دون الله، بغَيْر سُلْطانٍ منْهُ أو إذْن.

واسْتُغْنِي بدلالة كلٍّ مِنهما على ما حُذِفَ من مُقَابِله، فوَضَحَ أنّ المعنَىٰ يَشْمَلُ النهيَ عن اتخاذ أولياء من دون الله بغير سلطانٍ منه أو إذْنٍ، وعن اتّباع شرائع ومناهج وأحكام يضَعُها هؤلاء الأولياء بغَيْرِ سُلْطانٍ من الله أو إذْن.

قوله تعالى في الآية خطاباً لجميع الناس الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء: ﴿.. قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أصلها «تَتَذَكَّرُون» حذفت التاء الثانية

تخفيفاً. وقُرِئ: [تَذَّكَّرُون] بإدغام التاء الثانية بالذال، والحذف والإدغام في مثل هذا جائز في اللّسان العربي، وهما وجْهان من الأداء متكافئان.

وقُرِئ: [يَتَذَكَّرُون] بضمير الغائبين، مراعاة لأحوال الذين لا يتَلَقَّوْن الخطاب الرَّبَّانيَّ في القرآن.

فبين الخطاب والحديث عن الغائبين تكاملٌ في الأداء البياني.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾: أي: تَذَكُراً قَلِيلاً قَلِيلاً تَتَذَكَّرُون، فلفظُ ﴿قَلِيلًا ﴾ صِفَةٌ لمفْعُول مطلق محذوف مقدّم على فعله، ولفظ ﴿مَّا﴾ إبهاميّة لتأكيد القِلّة.

والمرادُ بالتذكُّر الأثَرُ النفسيُّ والسُّلُوكيُّ الذي يُثِيرُهُ أو يُحْدِثُه التَّذَكُّر لقضيَّةٍ ما من قضايا المعرفة.

والمعرفة المرادة هنا هي المعرفَةُ الدّينِيَّةُ الّتي أوحَىٰ اللَّهُ بها إلى رسُوله، وهو ما جاء بيانُه في صدر الآية الّتي نَتَدَبَّرُها.

التَّذَكُّر: هو استحضَارُ المعلُومَةِ في الذّاكرة، أو في جهاز التَّصَوُّر الحاضر في الدّماغ، باستخراجِها من مَخَازِنِ المعرفة، وإحضارِها إلى ساحة التصوُّر الحاضر.

ومخازِنُ المعرفة هي مراكِزُ مُتَخصِّصةٌ في الدماغ للاحتفاظ بالمعارف، وتُسْتَدْعَىٰ المعارِفُ منها عند الحاجة، وتتعرّضُ للنسيان بعدّة أسباب، ومن هذه الأسباب الإهمال، وعدَمُ اهتمام النفس بالمعلومة، وعدَمُ المبالاتِ بها والاكتراثِ لها.

أحوال الإنسان بالنسبة إلى المعارف:

وباستطاعتنا لدى التحليل النفسيّ بالنسبة إلى المعارف أن نكْتَشِفَ أنّ الإنسانَ له عدّة أحوالٍ معها:

الحالة الأولى:

هي الجهل بها مطلقاً، ونعلَمُ بداهةً أنّه لا مسؤوليّة على الإنسان بالنسبة إلى المعرفة أو بالنسبة إلى العمل بها، مع الجهلِ الأصْلِيّ الّذي لا كَسْب للإنسان فيه، أمّا مَا لَهُ كسبٌ فيه كأن دُعِيَ إلى المعرفة فأبَىٰ، أو عُرِضَتْ عليه فأعْرَضَ عنها أو أَدْبَر وتولَّىٰ، فهو مسْؤولٌ عن الجهلِ، ومسؤولٌ عن عَدَمِ العمل بما كانَ عليه أن يتعلَّمه.

الحالة الثانية:

تَهَيُّؤ الْفُرصَةِ والشُّروطِ اللّازِمة لاكتساب المعرِفَةِ الواجبة، والناسُ مع هذه الحالَة قسمان:

- قِسْمٌ يَحْرِصُ على المعرفة، ويَبْحَثُ عَنها بوسائلها، الفكرية، أو التجريبيّة أو الخبريَّة.

وهذا القسم من النّاس قد عَرَفَ ميزَةَ ذاته بوصفه إنساناً، وقامَ بواجبِه نحوَها، أو ببَعْضِ واجبه، وأهْلُ هذا الْقِسْم من الناس على درجات مُتَفَاضِلَاتٍ.

- وقِسْم لا يُبالي بالمعرفَةِ ولا يكْتَرِثُ لها، ويبقَىٰ راضياً بحالة الجهلِ الّتي هو فيها.

وهذا القِسْمُ من الناس قد أَهْمَلَ إنسانيَّتَه، وانْسَاق مع الدّوافع الحيوانيّة فيه، ولم يَقُمْ بواجبه نحْوَ ما ميّزَهُ الله به عن سائر الحيوانات، مُنْذُ كرَّمَه وشرَّفه بأداة المعرفة ووسائلها، الّتي منَحَهُ الله إيّاها، وكرّمه وشرّفه بالإرادة الحرَّة الّتي فطَرَهُ عليها.

وهذا القسم مسؤولٌ عَنْ إِهْمالِه وتقصيره، ومؤاخذٌ عليه.

الحالة الثالثة:

حصول المعرفة بوسيلة من وسائِلها الفكريَّة، أو التجريبيَّة، أو الخبريّة.

وأصحاب هذه الحالة قسمان:

● قسْمٌ يحَافِظُ على المعرفة، ويُوَجِّهُها لمخازِن المعارف في نفسه.

● وقِسْمٌ تَمُرُّ المعرِفَةُ علَى فِكْرِه، فَلاَ يَعْتَنِي بها، ولا يكترِثُ لها، ويَدَعُها تَمُرُّ عَابرَةً، دون أن يهتمَّ بنقْلِها إلى مخازن الذاكرة في نَفْسِه، بسبب إهماله وعدم اهتمامه.

وهذا القسم من الناس مسؤولٌ عن إهماله وتقصيره، ومؤاخَذٌ عليه.

الحالة الرابعة:

استقرار المعرفة المكتَسَبةِ في مخازن الذاكرة في النفس.

وأصحاب هذه الحالة قسمان:

● قِسْمٌ يسْتَدْعِي المعلُومَةَ من مخازنِ الذاكرة، إلى سَاحَةِ التصوُّر الحاضر عند المناسبة التي تَقْتَضِيها، وهذا هو التَّذَكُّر.

ويتفاوَتُ أهْلُ هذا القِسْم في دَرَجَاتِ الاستدعاء التذكُّرِيّ.

● وقِسْمٌ يُهْمِلُ هذه المخازن، حتَّىٰ تكون في زَوَايَا المتروكاتِ والْمُهْمَلاَتِ، أو نَوادِرِ الاستدعاء، أو في غياهب النسيان.

وهذا القِسمُ مسؤولٌ عَنْ إِهْماله وتقصيره، ومسؤولٌ عن نِسْيَانِه، إذْ كانَ لَهُ كَسْبٌ فيه.

ولدَىٰ إِحْصَاء واقِعِ حالِ النَّاسِ أَمَامَ هذِه الأحْوالِ نَجِدُ القليلَ النادر منهم الَّذي يَكْتَسِبُ المعرفةَ الدينيَّةَ الّتي تَخْدُمُ الآخِرَةَ، والكَمالَ الحقيقيَّ للإنسان، ويُحَافِظُ عَلَيْها في مَخَازن المعرِفَةِ لدَيْه، ويَسْتَدْعيها إلى ساحَةِ التّذكُّر والتصوُّرِ الحاضر، عند المناسباتِ الدَّاعيات، ليكُونَ هذا التذكُّر الحاضِرُ موجِّهاً للإرَادَةِ، ومُحَرِّكاً للسُّلُوك على وفْقِ المعْرِفَةِ وما تقتضيه من اعتقادٍ أو عمل.

كلُّ هذه المعاني قَدْ فتَحَ لنا أبوابَ إدْراكها قول الله عز وجلّ في الآية: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

قيمة التذكُّرِ وأثَرُهُ في السُّلوك:

ولمّا كان الّذي يُحرّكُ شيئاً ما مِنْ جوانِبِ النفْسِ إقبالاً أو إدْباراً بعاطِفَةٍ منَ العواطف، أو انفعالٍ من الانفعالات، ويُحَرّكُ إرادَتَها، ويَدْفَعُها لتَصَرُّفٍ من التصرُّفاتِ، أَوْ عَمَلٍ من الأعمال، لاَ بُدَّ أن يَمُرَّ في سَاحَةِ التذكُّر الحاضر، كان من الحكمة في البيان القرآنيّ التَّنْبيهُ عَلىٰ قضيَّةِ التذكُّر للْمَعارِف والْقَضَايا الدينيّة.

فالّذِينَ لاَ يَتَذَكَّرُونَ هذِه المعارِفَ والْقَضَايَا لاَ يَعْمَلُونَ بمقتضاها، والَّذِينَ يَقِلُّ تَذكُّرُهُمْ لَها، يَقِلُّ عمَلُهُمْ بها، والَّذِين يُكْثِرُون من تَذَكُّرِها يكُونُ عمَلُهُمْ بمقْتَضاها أزجَىٰ وأكْثَر، لأَنَّ التذكُّر يُثيرُ دَوَافِع النَّفْسِ، ويُحَرِّكُ مَطَالِبَها ورَغَائِبَها.

الْهَمُّ لاَ يُحْييه في النَّفس إلاّ التذكُّر، أمّا النسيان فيمْحُوه.

والعشقُ لاَ يُوقِدُ لهَبَهُ في النفس إلاَّ التذكّر، أمّا النسيان فيطفئه.

والحِقْدُ لاَ يثير بُرْكَانَه في القلب إلاَّ التذكّر، أمَّا النسيان فَيَطْوِيه ويُميته.

والحَسدُ لا يُثيرُه إلاّ شَغْل سَاحَةِ التصوُّرِ والتذكُّر بمراقبة نِعْمَةِ الله على المحسُودِ، أمّا النسيان فَيَصْرِفُه عن القلب، فلا تتحرّكُ النفسُ به، فتَنْعَدِمُ الرَّغبةُ في كَيْد المحْسُودِ أو ضُرّه أو إيذائِه، أو تمنّي زوالِ نِعْمَتِه، أو تمنّي الحصول على مِثْلِ ما أنعَمَ اللّهُ به عَلَيْهِ من زِينَةِ الحياة الدنيا وزخْرُفها.

ويأنَسُ الصَّدِيقُ ويَسُرُّهُ أَنْ يكونَ في ذاكرة صديقه دواماً أو أحياناً، لذلك فهو يَفْرَحُ بما يَدُلُّ على هذا التذكّر، كَهَدِيَّةٍ رَمْزية، أو رِسَالَةٍ، أوْ

بِطَاقَةِ دَعْوىٰ، أوْ زِيارَةٍ، أو محادَثَةٍ بالْهَاتِفِ، أوْ نحوِ ذلك. وحِينَ يُعَاتِبُه على التقصير يقول له: أَلَمْ نَخْطُرْ فِي بالِكَ؟! أنَسِيتَنَا؟! ألم تذكُرْنا؟!.

واشْتِغَال الْقَلْبِ وجَوانِب النَّفْسِ في حرَكَاتِها وتَصَرُّفاتها بأنواعِ الْعِبَادَة لله عزّ وجلّ، وبطاعته، وبالتَّقَيُّدِ بأوامِرِه ونواهيه، مَسْبُوقٌ باشْتِغَالِ قِسْم من سَاحَةِ التَّذَكّر باللّهِ والْيَوْمِ الآخرِ، الذي يفتح في الذَّاكِرَة صفحاتِ مطالب الدّين تُجاهَ المُثِيرِ الْمُقارِن، مِنْ حَرَكَةِ الزّمن، أو مطالِبِ الحياةِ وشهواتِ النفوس.

وكلّما كان الشيء أكْثَر حُضُوراً في سَاحَةِ التذكُّر كان أكْثَر تأثيراً في النَّفْس، وتَحْرِيكاً للإرَادَةِ الموجّهةِ للطّاقاتِ نحو السُّلوك الملائم لمطلوب النَّفْسِ الّذِي أثَارَهُ التَّذكُّر.

وكلّما كانَ الشيءُ أكْثَر شَغْلاً لنِقَاطِ سَاحَةِ التذكُّر، كانَ أكثر تَأْثِيراً في جوانب النَّفْس، وَأَكْثَر مُحَاصَرَةً لَهَا، فالشَّامِلُ لسَاحَةِ التَّذَكُّرِ يَسْتَأْثِرُ بكُلّ جوانب النفس.

وكلّما كان الشيء أدْوَمَ بَقاءً في سَاحَةِ التَّذكُّر، كان أَدْوَمَ تأثيراً في جوانبِ النفس، واستثارَةً لَها نحو السُّلوكِ الملائمِ لمطلُوبِها الذي أثارَه التَّذَكُّر.

فمن كانَتْ ذاكِرَتُه مشغولَةً دواماً بالدّارِ الآخِرَة، وما يُحقّقُ السَّعَادَةَ الأبَدِيَّة فِيهَا، كانَتْ جَوَانِبُ نَفْسِه كلُّها مُسْتَثَارَةً لتحقِيق مطالِبِها من الدار الآخرة، بالْعَمل لمَا يُحَقّقُ أَعْظَم سعادةٍ خالِدَةٍ يَوْم الدّين، وطَرِيقُ ذَلِكَ الْعَمَلُ بمراضِي الله عزّ وجل، وابتغاءِ وجْهِهِ الكَرِيم بالأعمالِ الصَّالِحَات.

وهكذا كانَ حَالُ إبراهيم وإسْحَاقَ ويعقوبَ عليهم السّلام، وفي وصفهم قال الله عزّ وجل في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ فلِكُلّ حريص على أعلى المراتب يوم الدّين:

﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

إنّ الخصْلَةَ الْخَالِصَةَ من الشّوائِب الّتي اصْطَفَاهُمُ اللّٰهُ بها، فجعَلَهُمْ بِها مِنَ المصطفَيْنَ الأخْيارِ، هي أنَّ سَاحَةَ تذكُّرِهم مشغُولَةٌ دَواماً بالدّارِ الآخِرَةِ، وبما يُبَلِّغُهُمْ فِيها أعْظَم سعَادَةٍ مِنْ رضوانِ الله عزّ وجلّ، ويجعَلُهُمْ فِي الفردوس الأعْلَىٰ مِنْ جنَّتِه العظمى.

ولهذا جاء في القرآن المجيد التّوجيهُ بعنايةٍ فائقَةٍ للذّكْرِ والتّذَكُّر والتّذْكِير.

يُضافُ إلَىٰ مَا سَبَق بَيانُه، أنَّ للْقَضَايَا الاعْتِقَاديّة عنْدَ إحْضَارِها في ساحَةِ التّصوُّر الحاضِر، ومَرَاكِزِ التذكّر، رُدُودَ أفْعالٍ في النفسِ مُلائمةٍ لها، ومساوِيَةٍ لها في مقدارها شِدَّةً وَضَعْفاً، وذلك عند سَلامَةِ الفطرة النفسيَّةِ وأجْهِزَتِها، وسلامةِ التصوُّراتِ من العوارض المشوّشَةِ المفْسِدَة، أو الصَّادَةِ لها، الواقعة في طريقها تَمْنَعُها من النُّفُوذِ إلى داخل النفس، أو المخدِّرَة لَها، إذْ تَشُلُّها عن الحركَةِ والتّأثِير، فَتَغْدُو تصوُّراتٍ اعتقاديَّةً كميّتَةٍ في قلوب أصْحَابِها بالشَّلل الذي أصابها، فهي حينئذٍ قد تَرَىٰ ولا تتحرّك، وقد تَعِي ولا تَفْعَل شيئاً، فلا بُدَّ لَها مِنْ عِلَاجٍ في كلِّ هذه الأحوال غير الطبيعية.

أمّا في الحالة الطبيعيّة السَّلِيمَةِ فلكُلّ تصوُّرٍ اعتقاديٍّ ردُّ فعْلٍ نَفْسِيٍّ ملائمٍ له، ومساوٍ له في مقداره، أوْ زائدٍ عليه من شِحْنَةٍ ذاتِيَّةٍ تنْطلقُ من نفْس الإنسان.

وفي بيان تأثيرِ ذِكْرِ الله وذِكْرِ وتَذَكُّرِ آيَاتِه المنزّلات، في توجيه السُّلوك الدينيّ والدَّفْع إليه، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾.

أي: من أحضر في تصوُّرِه أسماءَ ربّه الحسْنَىٰ، وصِفَاتِهِ العظْمَىٰ، دفَعَهُ تذكُّرُه لَها إلى الخضوعِ لَهُ، والْتِماسِ رَحَمَاتِه، فَصَلَّىٰ لَهُ، راكعاً، وساجداً، ودَاعياً.

والمرادُ بالتذكّر لقضايا المعرفَةِ الدّينيَّةِ المتصلة باللّٰهِ عزّ وجلّ، إحضارُهَا في ساحَةِ التذكّر والتَّصَوُّرالحاضِرِ، بإخراجها من خَزَائِنِ المعْرِفَةِ في النَّفْسِ، وشَغْل الفِكْرِ المتحرِّكِ بها.

وأبان الله عزّ وجلّ أنَّ عوارض نَزْغِ الشيطان في النفس يصرفها تذكُّرُ الله والاستِعَاذَةُ بِه، فقال الله عزّ وجل في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) الّتي نتدَبَّرُها:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾.

فَكَشَف هذا النّصّ أَثَر الاستعاذَةِ الحقيقيّة بالله، وهي الاستعاذة المصحوبةُ بتَذَكُّرٍ فكْرِيٍّ حقيقيٍّ لله عزّ وجلّ، في إحداثِ الإِبْصَارِ القَلْبي الوجدانيّ بعين البصيرة لحقائقِ الأُمُورِ التي يحيط بها نزْغُ الشيطان ويَسْتَغِلُّها بوسَاوِسِهِ ونَزَغَاتِهِ. وهذا الإبصارُ القلبيُّ يطاردُ نزغ الشيطان، ويصْرِفُ عَنِ النَّفْسِ طائفه.

بخلاف إخوان الشياطين الّذين لا يستعيذون بالله من نَزْغِهِمْ، ولا يَذْكُرون الله ذكْراً حقيقيًا واصلاً إلى أعماق الفكر والنفس، فإنّ الشياطين يَمُدُّونَهُمْ في الْغَيِّ والضَّلالِ ابتداءً، ثُمَّ لاَ يُقْصِرُون وَلاَ يَكُفُّونَ عن مُتَابَعةِ الإغْواء دواماً.

وأبان الله عزّ وجلّ أنَّ المؤمنين المتَّقِين الّذين يَرْتَكِبُون عوارض المعاصي، فيَظْلِمُونَ بها أنفُسَهم، ويُعَرِّضُونَها لاستحقاقِ العقوبة من الله جلّ

جلاَلُه، لا يَتْرُكُون أنفسهم بعيدين بمعاصيهم عن صراط الله ومواقِع تنزُّلاتِ رحماته، بلْ يَتَدارَكُونَ أَنفُسَهُم بذِكْر الله، والرَّجْعَةِ الحميدة إلى مُقْتَضَيَاتِ التقوى، فيسألون اللَّهَ أن يَغْفِرَ لهم، ولا يُصِرُّون على مُتَابعة تكرار ارتكاب المعاصي الّتي سَبَقَ أن ارتكبُوها، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) في معرض بيان صفات المتقين:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

فمن صفات المتقين أَنَّهم إذا عَصَوْا مَعْصِيَةً ذَكَرُوا الله بَعْدَها، فَدَفَعَهُمْ ذِكْرُ الله إلى الاسْتِغْفَارِ لذُنُوبهم، وعدم الإصرار على المعصية.

وأبان الله عزّ وجلّ ما لذِكْرِ الله من تأثيرٍ في النَّهْي عن الفحشاء والمنكر، فقال تعالى في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

فذكْرُ اللَّهِ الدَّائِمُ أَكْبَرُ في النَّهي عن الفحشاء والمنكر من الصلاة الّتي قد يَغْفُل المصلّي فيها عن ذكْرِ الله، ولَيْسَ المرادُ الاكتفاءَ بذكر الله عَنِ الصَّلاَة، بلِ المرادُ التَّنْبيهُ علَىٰ قيمة ذِكْرِ الله عزّ وجل في توجيه سُلُوكِ الإنْسَانِ إلَىٰ طاعَةِ الله والعمل بمراضيه.

ولَيْسَ معنى النَّهْي عن الفحشاء والمنكر تحقُّقُ الانْتِهاءِ تلقائيًا، بل لا بُدَّ من حَرَكَةٍ نَفْسيَّة إراديَّةٍ أُخْرَىٰ يَتَحَقَّقُ فيها الانتهاءُ في واقع سُلُوك الإنسان، غَيْرَ أَنَّ رَجَاءَ الانتهاء مع وجود النَّهْي الّذي يكُونُ بالصَّلاة أو بذكر الله الدائم ولو في غير الصلاة، أكْثَر مِنْهُ حِينَمَا يكُونُ المؤمن غافلاً عن ذكر الله.

وأبانَ الله عزّ وجلّ أنّ التذكُّر النافع في جَعْلِ الإرادة تتوجَّه لتنفيذ السُّلُوك الذي يُرْضِي الله، هو التذكُّر الّذي يتذكَّرُهُ المؤمِنُون المتَّقُونَ أولُوا الألباب، فقال تبارك وتعالى في سورة (الزُّمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول):

﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

وقال تبارك وتعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

الألْبَاب: هي العقول الواعيَةُ الدَّرَّاكة، الّتِي تَعْقِلُ المعارف فَتُمْسِكُ بها، وتعقل النَّفْسَ عن اتّباعِ الْهَوَى.

ولِمَا للذِّكْرِ بمعنى إحْضَار الشيء من ساحة التصوُّر الحاضر من مخازن المعرفة في النَّفْسِ، من قِيمةٍ عظيمةٍ جدًّا، في تحريك الإرادة وتوجيه السلوك، جاءَ في القرآن المجيدِ نصُوصٌ كثيرة جدًّا يتطلّب تدبُّرها بالتفصيل مجلَّداً ضخماً، وهذه النّصوص تأمُر بذكر الله، وبذكر آياته المنزّلات، وبذكْرِ قِصَصٍ وأَحْوالِ الأوّلين للاعتبار والاتّعَاظ، أو الاقتداء والتأسّي، وهذا الذكر لا بُدَّ أن يكون مَسْبُوقاً بتلَقِّي القرآن كلِّهِ أو بَعْضِه، ومسبوقاً بتفَهُّمِه، واختزانِه في مراكز المعرفة في النفس، وبَعْدَ ذَلِكَ يأتي تذكُّرُهُ، بإحضار ما يتعلَّقُ منه بالمناسَبَةِ الداعية، في ساحة التصوُّر الحاضر، لتَحْرِيكِ الإرادة وتوجيه السلوك.

مراتب تأثير ذكر الله في قُلُوب المؤمنين:

ولتأثيرِ ذكر الله عزّ وجلّ في قُلوب المؤمنين ثلاثُ مراتب، ولكلّ مرتبة منها درجات متفاضلاتٌ بحَسب أحْوالِ أصْحَابها.

المرتبة الأولَىٰ الدُّنيا «مَرْتَبَةُ الوَجَل»:

إنّ المؤمن المتقي الذي يتملَّكه الشُّعُورُ بالمعاصي والتقصيرات، إذَا

ذَكَرَ الله خاف من عقابه، فوَجِلَ قَلْبُه، ويكونُ مقدارُ وَجَلِه بمقدار قُوّةِ إيمَانِه شِدّةً وضعفاً، وبهذا تَتَفَاضَلُ درجاتُ أهْلِ الوجَلِ.

الْوَجَلُ في اللُّغة: الخوفُ والفزع.

دلَّ على هذه المرتبة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾.

المرتبة الثانية الوسطىٰ (مَرْتَبَةُ الْخُشوع):

الْخُشوع: هو سُكُونُ النفس وخضُوعُها، وكلُّ خاشعٍ ساكنٌ خاضع.

وهذه المرتبة يرتقي المؤمن إليها، ثم يرتقي في درجاتها، إذا قَلَّتْ معاصيه ومُخَالَفَاتُه، وكَثُرَتْ طاعاتُه وقُرُباتُه، وعَظُم رجاؤه لفضل الله ورحمته، وتكون نسبة خُشوعِه بمقدار قلّة معاصيه، وكثرة طاعاته وقُرُباته وعِظَمِ رَجائه، وبهذا تتفاضل درجات أهل الخشوع في هذه المرتبة.

دلَّ على هذه المرتبة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾: أي: أَلَمْ يَحِنْ، يقال لغة: أَنَىٰ يَأْنِي أَنْياً وَإِنىً وأَنَاةً، أي: حَانَ وَقَرُبَ.

والمعنى: ألم يَحِنْ للّذين آمَنُوا أن يَرْتَقُوا فَوْقَ مَرْتَبَةِ الوجل، ويَصِلُوا إلى مرتبة الخشوع والسكينة، بعد المدّة التي مرّت عليهم وهم يمارسون فيها العبادات وأنواعَ الاستقامة على صراط الله المستقيم.

وقد نزل هذا النصّ بعد النصّ السابق بمدّة كافية لحدوث الخشوع في قلوب المؤمنين من أصحاب الرسول ﷺ في المدينة.

المرتبة الثالثة العليا (مرتبة الطمأنينة):

وهي حالَةُ السُّكون النفسِيّ والقلْبيّ التامّ المسْتَرْخِي في أحضان فَضْلِ الله ورحمته وفيض إنعامه.

وهٰذه المرتبة يرتقي المؤمن المتّقي إليها إذا صار من الأبرار أو مِنَ المحسنين، فاستوفى حُقُوقَ مَرْتَبَةِ المتقين بفعل الواجبات، وترك المحرّمات، ودخل سِبَاقَ نوافِلِ العبادات والقُرُبَات، أو الإحسان في أداء العبادة للربّ جلّ جلاله.

دلّ على هذه المرتبة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرعد/١٣ مصحف/٩٦ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾.

❀ ❀ ❀

مقادير الذكر والتذكر في الأزمان والأحوال:

وبالنظر إلى الأزمان التي تمرّ على المؤمنين والأحوال الّتي يتقبلّون فيها نلاحظ أنهم يتفاوتون تفاوتاً كثيراً في مقادير ذِكْرهم لله، وتَذَكُّرِهم لآياتِه المنزّلات، أو ما فيها من دَلاَلاَت على قضايا دينِهِ لعباده، وأوامره ونواهيه ووصاياه.

وقد أمر الله الذين آمنوا أن يذكُروه ذكْراً كَثيراً، وأنْ يُسَبِّحُوهُ بُكْرةً وأصيلاً، والتسبيح من الذكر، إلاَّ أنَّهُ خاصٌّ بتنزيه الله عن كلّ ما لا يليق به، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/٣٣ مصحف/٩٠ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

البُكْرَةُ: أوّل النهار إلى طُلوع الشمس.

الأصيل: الوقت الذي يكون من حين اصفرار الشمس إلى غروبها.

والكثرةُ والقِلّةُ في الذّكر تكونُ من وجْهَيْن:

الوجه الأول: وجه تلاحظ فيه قلّة الذّكرِ وكثرتُه في اللّحظة الواحدة، فأكثره ما يملأ ساحة التذكّر كلّها في هذه اللّحظة، فيستبدُّ الشيءُ المذكور فيها بجوانب النفس كُلّها.

ويتنازَلُ المقدار حتى يكون الشيْءُ المذكُورُ في ساحة التذكّر بمثابة فَرْدٍ من أفرادٍ كَثِيرَةٍ مرّتْ كُلُّها في وقت واحدٍ، وامْتَدَّ إلَيْها الشهود في رُؤْيةٍ واحدةٍ بالتّسَاوِي، كمن يَرَىٰ شخصاً واحداً بِعَيْنِه ضمن جمهورٍ غفيرٍ من الناس بإثارَةٍ مشتركة.

الوجه الثاني: وجه تُلاحظ فيه قلّةُ التذكر وكثرتُه للشيء الواحد في تتابع اللّحظات، فأقلُّه ما يمرُّ في الذاكرة لحظة واحدة وينْصَرِف، وأكْثَرُهُ أدْوَمُه وأبْقَاهُ مُسْتَمرًا مع الزمن.

وينتج عن هذين الوجهين حالاتٌ لا حصر لها، ناتجَةٌ عن نسبة شَغْلِ الشيء المذكور لساحة التذكّر في اللّحظة الواحدة، وفي مقدار دوام هذا التَذَكُّرِ واستِمرارِه مع توالي الزمن.

ولو استعرضنا أحوال الناس وأَمكنَنَا أن نَشْهَدَ واقع أحوال ذَاكِراتِهم للأشياء لَوَجَدْنَا أمراً عَجباً عُجَاباً.

فمن الناس من لا يُوجد في ساحة تذكُّره إلاّ المالُ وجمعُه، فلا تتجه عواطفُهُ وإرادته وسُلوكُهُ إلاّ لجمع المال بأيّة وسيلة مُتاحَةٍ له.

ومن الناس من لا يُوجَدُ في سَاحَةِ تذكُّره إلاّ عَشِيقَتُهُ، وهذا يكون مشْغُولَ الْعَواطِفِ والإرادَةِ والسُّلُوك بها، بغية الوصول إليها.

ومن الناس من لا يوجَدُ في ساحة تذكُّره إلاّ السُّلْطانُ والعلوّ في الأرض، فهو مشغُولُ العواطف والإرادة والسلوك به دواماً.

ومن الناس من لا يوجد في ساحة تذكُّره إلاّ مطالِبُ شَهَواتِه ولذّاتِه من طعام وشرابٍ ورفاهية ونساء ونحو ذلك، فهو مَشْغُول العواطف والإرادة والسلوك بما يملأ ساحة تذكُّرِهِ من هذه الأمور.

أمّا الذين يتَذَكّرُون ربَّهم والدّارَ الأخرةَ، ومطلوبَ سعادَتِهم الأبديّة يوم الدّين فهم نادِرُونَ قَلِيلُون في الناس، وهم على مراتِبَ متفاضلات، ودرجاتٍ كثيرات متفاوتات، كما قال الله عزّ وجل في الآية التي نحن في صَدَد تَدَبُّرها خطاباً للناس:

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ و[تَذَّكَّرُونَ].

وحديثاً عن الناس في القراءة الأخرى: [**قَلِيلاً مَّا يَتَذَكَّرُونَ**].

والخلاصة: أنّ قليلاً من النّاس من يتذكَّرُ الأشياء الّتي جعَلَ الله سعادَةَ الناس في دُنياهم وأُخراهُمْ بها، وكلُّها مربوطةٌ بذكر الله، وبذكرِ مَا أَنْزَل لعباده وبلَّغَهُ رَسُوله، وذلك لأنّهم لا يَضَعُونَها أصْلاً في مراكز علْمِهِمْ وإيمانِهم حتّىٰ يُحْيُوها بالتذكر الباعث على العملِ للدّار الآخرة، ومرْضاةِ الله، بلْ سَاحَةُ تذكُّرِهم مشغولةٌ بمطالِبهم من الحياة الدّنيا.

والمؤمنُونَ الّذِينَ يتذكَّرُونَ أحياناً الأشياء الّتي جعل الله سعادة النّاس في دُنياهم وأخراهم بها قليلاً مَّا يتذكّرون، إذْ لا يسْتَغْرقُونَ أَوْقاتاً كثيرةً من عُمْرِهم بتذكُّرِهم لها إذا تذكّروها، فيقِلُّ تذَكُّرهم في اللّحْظَةِ الواحدة، ويقلُّ مِقْدارُ زَمَنِ التذكُّر عندهم في مَدَىٰ أَعْمَارِهم، وسبَبُ ذلكَ الغَفَلاتُ، والصوارِفُ من مطالب الجسَدِ وشَهَواته، ومَطَالِبِ النفس من الدنيا وشهواتها مع شوارد الأفكار العاملة دواماً.

إنّ مطالب الجسد والنفس هي مُثِيراتٌ من داخلها، وهذه لها أيضاً

مثيراتٌ من الخارج تأتي عن طَرِيق الحواسّ، وهذه المثيراتُ تستدعي الأفكار للاشْتِغَالِ بها، بُغْيَةَ تحقيقِها أو الاستمتاعِ بها، فتمتَلِئُ ساحَةُ التَّصَوُّر الْحَاضِر بها، فلا تجد القضايا الإيمانية المتعلِّقَةُ بالله واليوم الآخر مجالاً في هذِهِ السَّاحَةِ، فتَبْقَىٰ فِي خزائنها نائمةً.

ومعلومٌ أنّ مطالِبَ الجسَدِ والنَّفْسِ من الدنيا لا تنتهي، وبسبب ذلك تَبْقَىٰ ساحة التصوّر الحاضر مشغولَةً بشريطٍ ممتدّ من صُور الأفكار الموصولَةِ بهٰذِه المطالِب، وهذا الشريط لا نهاية له.

ولهذا جعل الله عزّ وجلّ لأهْلِ الإيمانِ به برْنَامَجَ ذكْرٍ واجبٍ، يذكُرون فيه ربّهم على وفقه، في أوقاتٍ من كلّ يوم موزعات ما بين الفجر إلى الفجر، وأوقاتٍ أسبوعيَّةٍ، وأوقاتٍ سنويّة؛ أو في العمر كلّه. وجعلَ لهم برنامج ذِكْرٍ تَطوُّعيّ يتسابقُ الذاكرون الله والذاكراتُ فيه إلى اغتنام أكْبَرِ قَدْرٍ من ذكر الله عزّ وجل وذكْرِ آياتِه وذِكْرِ الدار الآخرة، للظفر بالمراتِبِ والدرجاتِ الرفيعات في جنّاتِ النعيم.

فالصلوات الخمس اليومية جعلها الله عزّ وجلّ وعاءً عمليًا يَحْتَاجُ مِقْداراً من الزمن، والمطلوبُ فيها مع الأعمال ذكْرُ الله عزّ وجلّ.

وصلاة الجمعة في كلّ أسبوع سَعْيٌ إلى ذكر الله والتذكير به بصفَةٍ جماعيَّةٍ ذات شمولٍ للمُدُن والحواضر.

وصِيامُ شهر رمضان في كلّ عامٍ مناسَبَةٌ لذكر الله وتكبيره، وتذكُّرِ نِعَمه العظيمة، والاستكثارِ مِنْ تِلاوَةِ القرآنِ وقيام اللَّيل، وشُهودِ حلقاتِ الْعِلْم والذِّكْر لله عزّ وجلّ والتَّذْكِير به.

والحجّ إلى بيت الله الحرام وشهود مشاهده والقيام بأركانه وواجباته وسائر مناسكه، إنّما كان كلّ ذلك لذكر الله عزّ وجلّ، مَعَ الأغراض الأخرى من هذه العبادة.

ولدى التحقيق والتَّدْقِيقِ نُلاحظُ أنَّ ذِكْرَ الله هُو رُوحُ العِبَادات كُلِّها، والنُّصُوصُ من القرآن والسُّنَّة تَدُلُّ على هذه الحقيقة من حقائق الدين.

والمطلوب ترغيباً من المؤمن أنْ يَكُونَ ذاكراً لله في أحواله كُلِّها، غير أنّ مطالب الجسَدِ والنفسِ من الدُّنيا، وعوارِضَ الْهُمُومِ والمتاعِبِ والمصَاعِبِ، صَوارِفُ تَصْرِف الإنسانَ عن ذِكْر ربّه.

وكلّما جَاءَتْ خطَرَاتُ الإيمان فشدّتِ المؤمن إلى ذكْر ربّه، جاءت الصّوارف فجعلَتْهُ يتفلَّتُ بسُرْعةٍ إلى أمور دُنياه، ولهذا كان بحاجة إلى حِصَص زمنيَّةٍ يُفَرِّغُ فيها نفسَهُ إلزاماً لعبادة ربّه، ويُخَصِّصُها لذِكْرِ الله عزّ وجلّ، فكانت العبادات بحكْمَةِ الله مخصَّصَةً لذكر الله فَوْقَ الْعَادَة.

أمّا سائر أوقات المؤمن وأحوالِهِ فَعَلَيْهِ أن يَذْكُر الله فيها وفْقَ الْعَادَةِ، أيْ: ضِمْن حُدُودِهَا، ومَعَ كُلِّ مُنَاسَبةٍ تَسْتَدْعي ذكر الله جلَّ جلاله وعَظُمَ سلطانُه وتباركت أسماؤه وصفاته.

وذِكْر الله عزّ وجلّ هو في حقيقته حالة استحضارٍ في التصوّر وتذكُّرٍ لعناصر الْقَاعِدَة الإيمانية، الشّامِلَةِ لصفات الله كلّها، وآياته الجليلات، ونِعَمِه العظيمة، ووعْدِه ووعيده، وواجبات الإنسان تجاه ربّه.

وبهذا التذكّر والاسْتِحْضَار في التّصوُّر تكونُ مُراقَبَةُ الله المحيط بكُلّ شيءٍ قُدْرَةً وعِلْماً، ومَعَهُ تَتحرَّكُ رُدُودُ الأفعال النفسيّةِ والقلبيّةِ الموجّهةُ للسُّلُوكِ على ما يُرْضي الله عزّ وجلّ، ويَكُونُ ذلك في النفوس المؤمنة السَّوِيَّة.

والنصوص الدالة على هذه الحقيقة كثيرة، منها النصوص التالية:

(١) حين خاطب الله عزّ وجلّ موسَىٰ عليه السلام بالوادي المقدّس طُوى، قال الله تبارك وتعالى له كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾.

أي: وأقِمِ الصَّلاَةَ لِتَذْكُرَنِي في عِبَادَتِكَ لي.

(٢) وفي الدعوة إلى حضور صلاة الجمعة، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الجمعة/ ٦٢ مصحف/ ١١٠ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩﴾.

فأبان الله عزّ وجلّ أنّ السَّعي إلى حضور صلاة الجمعة هو في حقيقته سعْيٌ إلى ذِكْرِ الله.

(٣) وَبشأن عبادة الحجّ قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿...فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ٢٠٠ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾.

فهذه أعمال الحجّ مَشْحُونَةٌ بذكْرِ الله الّذي أمَرَ الله ورسولُه به.

إلى غير ذلك من نصوص قرآنية كثيرة فيها توجيه لذكر اللّهِ عزّ وجلّ في السّلم والحرْب، والمشي في مناكب الأرض لكسب الرزق، والصحة

والمرض، والمنْشَطِ والْمَكْرَه، إلى سائر أحوال الحياة، ويضاف إلى النصوص القرآنية بيانات نبويَّة من أقوال الرسول وأفعاله[١].

❁ ❁ ❁

● قول الله عزّ وجل:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾.

في هاتين الآيتَيْن بيانٌ لأَحداثٍ مضَتْ في تاريخ الناس، وإشارةٌ إلى سُنّة الله عزّ وجلّ في عبادِه، وهذه تتضمن عن طريق اللُّزوم العقليّ تَوْجيهَ إنْذارٍ من الله جلَّ جَلاَلُه وعظُم سلطانه للكافرين إبَّان تنزيل السُّورة، ولمَنْ سَيأتي بعدهم عبْرَ القرون، بالإهلاك المعجّل إذا وَصَلَ حَالُهُمْ إلى مثْلِ ما وصَلَتْ إليه أحوال المهلَكِينَ السّابقين من أَهْلِ الْقُرُونِ الأولى، من مُكَذّبي الرُّسُلِ، ورَافضي اتّبَاعِ ما أُنزِل إليهم من ربّهم، والّذين اتّخذُوا مِنْ دُونِه أولياء.

وهذا التوجيه الإنذاريّ هو بمثابة التفريع على ما جاء في الآية الثانية من السّورة الّتي نتدبّرها، وهو قول الله عزّ وجل لرسوله:

﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

فالإنْذَار بالقرآنِ منْ عناصِره عَرْضُ مَا جَاءَ في آياتِه من بيان إهلاكِ الله للكُفَّارِ أهْل القرون الأولى، إذْ يَدُلُّ عَرْضُها على أنَّ سُنَّة الله في عبادِهِ

(١) انظر كتيّب «العبادة في الإسلام» للمؤلف، ففيه بعض إضافات حول ذكر الله، على أنه يوجد في هذا البحث المستفيض في تفسير الآية (٣) من سورة (الأعراف) مفهومات لم تذكر في كتاب «العبادة في الإسلام».

السابقين واللاّحِقِينَ، أن يُهْلِكَ الأُمم إهلاكاً جماعيًا، إذا بلغت من الكفر والفساد والإفساد في الأرض مبْلَغاً تقضي الحكمة الرَّبَّانيَّةُ معه بإهلاكهم، لأنّ بقاءَهُم الْمُجْبِرَ للأجيال على الكفر يُلْغِي الغاية من خلْق الناس ليَبْلُوهُمْ في ظروف الحياة الدنيا.

ولمّا كان إهلاك السّابقين لم يَحْصُل إلاّ بعْدَ إنذارٍ من الله لهم، مسبوقٍ بتبليغ رُسُل اللّهِ لهم أُصُولَ الدّين وشرائع الله وأحكامَه وأوامره ونواهيه لعباده، ومَسْبوقٍ بصَبْرٍ طويلٍ علَيْهم، ومعالجةٍ لهم بمختَلِفِ وسائل الإقناع والتربية والترغيب والترهيب والجدال بالّتي هي أحْسَن وغير ذلك من أمور، كان من الحكمة الإشارة إليه بحرف عطفٍ هو (الواو) في صدْرِ حِكَايَةٍ مُوجز إهلاك قُرىً كثيرة سابقة، العاطِفُ على محذوف[1]، فقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَهَا . .﴾.

ولو كان هذا المطويّ في النّصّ المتفرّعُ عن مضمون قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ مُصَرَّحاً به لكان التعبير على نحو قولي:

فكم من رسولٍ أرْسَلْنَا إلَىٰ قريَةٍ فبلّغها وأنْذرَهَا، وكم من قرية أَرْسَلْنا إلَيْها رسُولاً برِسَالاَتنا، فبلّغها وَنَصَحها وهَداهَا إلى صراط ربّها، وحذّرها وأنْذَرَها، فلَمْ تَسْتَجِبْ لدعوته، وكفَرتْ وعَانَدَتْ وأصرّت على فسادها، وعلى إفْسَادِهَا في الأرض، وحين اقتضت الحكمةُ إهلاكَها أَهْلَكْنَاهَا.

بهذا الفهم يتمّ ترابط الكلام، ولا تكون به واو العطف مجرّد عاطفة جملةً على جُمْلَةٍ، أو للاستئناف، دون ملاحظة ترابط المعاني المرادة.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾: أي: وكم من أهل قرية، وإطلاق أسماء الأماكن

---

(١) صحّ عِنْدِي بتتبُّع النصوص القرآنية أن العطف على محذوف من اللفظ لا يقتصر على الفاء الفصيحة التي تنَبَّهَ إليها المفسّرون وذكرها النحويُّون، بل كلُّ حروف العطف قد تكون مفصحة عن محذوف، ويشهد لهذا كثير من دلالات النصوص القرآنية.

على أهْلِها وسُكَّانها من الاستعمالات الشائعات في العربيَّة وغيرها. ويُسمّي علماء البلاغة هذا الإطلاق مجازاً مُرْسلاً، وهو من إطلاق المحلّ وإرادة الحالّ فيه، فيقالُ عن مدينة شاع في أهلها الفجور مثلاً: المدينة الفاجرة، أو المدينة العاهرة، ونحو هذا.

«كم» اسم يقع على العدد بمعنى «كثير» وتُسَمَّىٰ: «كم الخبريَّة» للتفريق بينها وبين «كم الاستفهامية».

ولإبْهامها ودلالتها على عدَدٍ مجهولِ الجنْس كانت مفتقرةً إلى التَّمْييزِ، ومميِّزها مجرورٌ بعدها، ويجوز دُخولُ حرف الجرّ «من» عليه للتأكيد.

و«كَمْ» مبتدأ، خَبَرُهُ جُمْلَة ﴿أَهْلَكْنَـٰهَا﴾.

﴿أَهْلَكْنَـٰهَا﴾: أي: أَفْنَيْنَاها، واسْتَأْصَلْنَاها، أصْلُ الإهلال في اللّغَةِ الإماتة، ويقع على إفناء الأشياء واستئصالها.

والمراد بقوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَـٰهَا﴾ أرَدْنا إهلاكها، فقضيناهُ، إذ استحقت الإهلاك، وبعد ذلك يأتي إصدار الأمْرِ التنفيذي بإهلاكها، وهذا من الاستعمالات الشائعات، وله نظائر كثيرة في القرآن، وفي استعمالات الناس، بالنسبة إلى كلِّ أمْرٍ قد صَارَ متحقّق الوقوع في المستقبل.

فمن ارتكَبَ جَرِيمة يستحقُّ عليها القتل، ووقع في قبضة الحاكم الّذي يُنَفِّذُ الأحكام بالعدل، قال الناس بشأنه: قتلَتْه جريمته، ولو لم يكُنْ قَدْ قُتِلِ بَعْدُ، نظراً إلَىٰ أنّه صائرٌ إلى ذلك بحسب العادة، فكيْفَ إذا كان الأمْرُ حَتْمِيَّ الوقوع، كقضاء الله وأوامِره التنفيذيّة؟!

ومن أطْلَقَ قَذِيفةً بتسديدٍ مُحْكَمٍ، يُقالُ بشَأْنه: لَقَدْ أصاب الْهَدَف، ولو لم تَصِلْ بَعْدُ قَذِيفتُه.

ودلّنَا على أنَّ هذا المعنى هو المعنى المراد في الآية، ترتيبُ أحداثِ

تنفيذ الإهلال على جُمْلَةِ ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ بحرف الفاء الدّالّ في اللّسان العربيّ على الترتيب مع التعقيب، في قول الله عزّ وجل:

● ﴿... فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾.

﴿بَأْسُنَا﴾: أي: عذابنا الشديد، فالبأسُ في اللُّغَة هو العذاب الشديد.

﴿بَيَٰتًا﴾: أي: وهي دَاخِلَةٌ في اللّيل، قال الزّجاج: كلُّ من أدْرَكَهُ اللَّيْلُ فقد بَاتَ، نامَ أو لم يَنَمْ، يقال لغة: بَاتَ يَبِيت، وبَاتَ يَبَاتُ، بَيْتاً، وبَيَاتاً، ومَبيتاً، وبيتُوتَةً.

فالْبَيَاتُ مصْدَرُ بَاتَ، ولفظ «بياتاً» في الآية منصوبٌ على الحاليَّة، أي: بائِتين، بتنزيل المصْدَر مَنْزِلَةَ اسْمِ الفاعل.

﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾: أي: أو هم في وقت القيلولة، وهي الاستراحة نِصْفَ النهار إذَا اشْتَدَّ الحرُّ.

يقال لغة: قال يَقِيلُ قَيْلاً: وقَائِلَةً، وقَيْلُولَةً، وَمَقَالاً، وَمَقِيلاً، أي: اسْتَراح نِصْفَ النهار عنْد اشتداد الحرّ، فهو قائلٌ، وهم قائلون.

والجملة حاليّة، أي: في حالة بيَاتِهم، أَوْ في حالة قَيْلُولَتِهِمْ.

والمعنى: فكم من رَسولٍ أَرْسَلْنَاهُ إلَىٰ أمّةٍ في قَرْيَةٍ، فبلَّغَهَا رسالاَتِنَا، وحَذَّرَها وَأَنْذَرَهَا، فَلَمْ تَسْتَجِبْ لِدَعْوَتِهِ، وحينَ اقتضت الحكْمَةُ إهْلاكَها قضيناه ـ وَبَعْدَ ذلِكَ أَصْدَرْنا الأمْرَ التنفيذيّ، فجاءها عَذَابُنا الشَّدِيد، وهم بائتون ليلاً، أو هم مستريحون في وقت الْقَيْلُولَة نهاراً.

والمراد بالْقَرْيَةِ كُلُّ مجمّعٍ سكَنيّ كَبُرَ أم صَغُرَ، وفي ذكر القرية هنا تلويحٌ إلى سُكَّانِ مكّةَ أُمّ الْقُرىٰ إبَّان التنزيل.

وهذه المباغتة في اللَّيل وفي الغالب عند الفجر، أو في القيلُولَةِ في النهار، بعد الإنذار بالعذاب على ألسنة الرُّسل، هي من سُنَن الله عزّ وجلّ

في إهلاك الأمم، الّتي يقضي الله تبارك وتعالىٰ إهلاكَهَا بسَبَبِ ذُنُوبِها، وتكذيبها رُسُلَ رَبّها، وطُغْيَانها في الأرض.

❁ ❁ ❁

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾: أيْ: فَمَا كانَ دُعَاؤُهم. **الدعوى والدُّعاء**: بمعنى واحد، فكُلٌّ منهما مصْدَرٌ من مصادر «دَعا» والدُّعاء هو رفع الصَّوْتِ بأمْرٍ ما.

والمعنى: فما كان نِداؤُهم حِينَ نُزُولِ بأْسِ الله فيهم، وانْصِبَابِ سَوْطِ عذاب الله عليهم إلاّ الاعترافُ بأنّهم كَانُوا ظالمين، لأنّ الاعتراف بأنّهم كانوا ظالمين في تِلْكَ اللّحظات هي الوسيلة الوحيدَةُ الّتي يطمعون أن يرفع اللَّهُ عزّ وجلّ عنهم بِها البأس النّازِلَ في دِيَارِهم لإهلاكهم.

أمّا المعاذِيرُ فلا دَوْرَ لها، وأمّا جحود الذّنب فعنادٌ يزيد من شدّة البأس، وطَلَبُ الغفران لا بُدَّ أن يُسْبَقَ بالاعتراف بالذّنب، أي: إنّا كُنّا ظالِمِينَ يَا رَبّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وارْحَمْنَا وَارْفَعْ عَنّا الْعَذَابَ، لكنْ فات أَوانُ التَّوْبَة والاستغفار، فعند نزول العذاب لا يَنْفَعُ الدُّعَاء، ولا الرَّجاء، ولا التوبة والاستغفار.

جاء في عبارتهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ تأكيد اعترافهم بظلمهم بمؤكدين: «إن ـ والجملة الإسميّة» رجاء أن يرفع الله عنهم العذاب.

واعترافُهُمْ بظلمهم يتضمَّنُ اعترافهم بكُفرهم، وبتكذيبهم رُسُلَ ربّهم، وسائر معاصيهم الّتي كانوا يَرْتكبُونها.

ويضع الله عزّ وجلّ الكافرين المخاطبين بهذا البيان عن أحوال

المهلَكين من أهل القرىٰ السابقين، أمَامَ صُورَةٍ قريبة الشَّبَهِ بالأحوال الَّتي هم عليها، فعليهم أَنْ يضَعُوا في حسابهم أنَّ سُنَّة الله لا تبديل لها، ولا تغيير فيها، فإذا أصَرُّوا على ظُلْمهم كما أصَرَّ الأوَّلُونَ، فَعَلَيْهِم أن يترقَّبُوا أن يأتيهم بأسُ الله بياتاً أَوْ هم قائلون.

والوعيد بالإهلاك المعجَّل في الدنيا قبل يوم الدين قد جاء في بعض السور النازلة قبل سورة (الأعراف):

(١) فقد جاء في سورة (الفجر(٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) بأسلوب عرضٍ موجزٍ إيجازاً مختزلاً، يتعلَّقُ بإهلاك عادٍ وثمود وفرعون الذين طَغَوْا في البلاد.

(٢) ثمَّ بعرضٍ موجز لما فعل الله عزّ وجل بأصحاب الفيل، في سورة (الفيل/ ١٠٥ مصحف/ ١٩ نزول).

(٣) ثم بعرضٍ موجزٍ لإهلاك عادٍ وثمودَ وقومِ نوح وقوم لوط، في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف / ٢٣ نزول).

(٤) ثم بعرضٍ موجز لإهلاك أصحاب الأخدود في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) مع إشارة في آخرها إلى فرعون وثمود.

(٥) ثم عَرَّضَ الله عزَّ وجلّ للكافرين المكذبين بقوله في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣):

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

(٦) ثم تحدَّثَ عنهم في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) بقوله فيها:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

وبقوله فيها:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾.

(٧) ثمّ فَصَّل الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بعض تفصيل قصص قوم نوح، وعادٍ وثمود، وقوم لوط، وآل فرعون، مع بيان إهلاكهم.

وواجه مكذّبي الرسول محمد ﷺ بقوله تعالى فيها لهم:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾.

وبقوله أيضاً فيها خطاباً لهم:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾.

(٨) ثُمَّ طَمْأَن اللَّهُ عزّ وجلّ رسُوله والمؤمنين معه في سورة(ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بقوله:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾.

وبقوله تبارك وتعالى فيها:

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾.

❁ ❁ ❁

● قول الله عز وجل:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ

وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

تمهيد:

ارتباط هذه الآيات بما سبقها من آيات هذا الدرس الأوّل، يتضح لنا حينما نُلاحظ ما جاء في بدايتها، وهو عنصر الإنذار للكافرين الّذين كذّبوا رسُول ربِّهم، وكذّبوا بآيات الله، وجَحَدُوا واستكبروا، ولم يَتَّبِعُوا ما أنزل الله إليهم.

ففي صدر السورة خاطب الله عزّ وجلّ رسوله بقوله:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

ولمّا كان الإنْذَارُ بعقاب الله وعَذَابِهِ للكافرين المكذّبين ينقسم إلى قسمَيْن:

القسم الأول: الإنذار بالعقاب المعجَّل في الدنيا وأبرَزُ مظاهرِهِ إهلاكُ الأُمَّة المجتمعة على الكفر والتكذيب والظلم والعدوان والفساد في الأرض، وقد جاء الاستشهاد بوقائع من التاريخ مثالاً على تحقُّق إنذار الله للأمم السابقة في الآيتين الرابعة والخامسة من هذا الدرس.

القسم الثاني: الإنذارُ بالعقاب المؤجّل إلى يوم الدين في الحياة الأخرى.

وهذا الإنذار يستدعي بياناً ما عنه، فجاء في هذه الآيات من (٦ ـ ٩) عرض لقطاتٍ من مشاهد يوم الجزاء الأكبر، وفيها إشارة إلى الجزاء الرَّبَّاني بالعدل، إذ اشتملت على بيان بعض عناصر موقف المحاكمة يوم الدين.

والمحاكمة العادلة لا بُدَّ أن تشتمل على سؤال المحاكَم، وسُؤالِ الشهود، وبيان وثائق إثبات الجرائم، ووضْعِها في ميزانٍ دقيق يُحَدِّدُ مقدار الجريمة، ومقدار ما تستحقُّ من عقاب، ثمّ يكون إصدارُ الحكم بالعدل مستنداً إلى ذلك، وهذا ما اشتملت على بيانه هذه الآيات.

وقد اشتملت هذه الآيات على بيان ثلاث قضايا، السؤال، والإعلام بسجلّ الأعمال، والوزن لإصدار الأحكام:

التدبّر:

قول الله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾.

إنّ سؤال النّاس الذين أُرسل إلَيْهِمُ الرّسل، في بدء مُحَاكَمتهم يوم الدّين في محكمة العدل والفضل الرَّبّانيّة، يكون حَوْلَ أمور دينهم عقيدةً وشريعةً ومنهاجاً، وحول الْعَمل بها، لانتزاع اعتِرافِهم بأنّهم قَدْ بَلَغَهُمْ ما أَنْزَلَ الله عزَّ وجلّ إليهم، عن طريق رُسُلِه إلَيْهم، أو عَنْ طريق مَنْ حَمَلَ بلاغاتهم من الذين آمَنُوا بهم واتَّبَعُوهم، فإذا اعْتَرَفُوا سُئِلُوا عن عَمَلِهم بما أَنْزَلَ رَبُّهُم إليهم، وعن إخلاصهم له به، إذا كانوا قد آمَنُوا وعَمِلُوا به، تمهيداً لمحاسبتهم على ما قَدَّموا من عمل خيراً كان أمْ شَراً، وعلى ما أَخَّرُوا من عَمَلَ فَلَمْ يَعْمَلُوهُ وهو مطلوبٌ منهم، وبعد الحساب يَفْصِلُ الله القضاء، ويُصْدِرُ حُكْمَهُ علَىٰ كُلّ فرْدٍ وُضِعَ فِي الحَياة الدنيا مَوْضِع الامتحان، بالفضل أو بالعدل، على وَفْق مقتضى حكمة الله جلّ جلالُهُ وعظُم سلطانه وسَمَتْ حِكْمَتُه.

وإنَّ سُؤَال المُرْسَلِين، ويُلْحَقُ بهم حَمَلَةُ رِسالاتهم من الذين آمنوا بهم واتَّبَعُوهم، يكون لتقْدِيم شَهادتهم على من بَلَّغُوا من الناس، بأنّهم قد بلَّغُوا رِسالاَتِ ربّهم، وعَمِلُوا بما أمرهم الله به تُجاه أُمَمِهم، فَهُمْ شُهُودٌ في محكمة العدل والفضل الرَّبّانيّة يوم الدين، على مَنْ بَلَّغُوهم دين الله لعباده،

وبهذه الشهادة يُعْلنُون أيضاً براءتهم من التهاون أو التقصير، فيما كلّفَهُمُ الله إيَّاه من تبليغ الرسالة، وتأدية الأمانة، والنُّصْح والهداية والإرشاد، على الوجه الذي أَمَرَهُمُ الله به.

وتَظْهَرُ الحَاجَةُ إلى شَهَادَةِ المبلِّغِينَ، حينما يَجْحَدُ الْمُحَاكَمُون من أهل الكفر أنَّهُم تَبلَّغُوا ما أَنْزَلَ الله إليهم، أمّا المقرُّون الْمُعْتَرِفُون فإنّهم باعترافاتهم يكونون شاهدين على أنفسهم، ولا تَظْهَر الحاجة عندئذٍ إلى إحضار الشهود الذين يَشْهَدُون عليهم.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾: أي: أقسم لَنَسْأَلَنَّ، فجاء في العبارة التأكيد بالقسم، فالّلام دالَّة على القسم المحذُوف، ونون التوكيد لازمة في نحو هذا القسم. واحتاج الإخبار بالسؤال إلى التَّأْكيد لأنّه من موضوعات الآخرة المعدّة لجزاء العباد، وهو أمْرٌ يُنْكرُهُ الكافرون أو يشكُّون فيه.

ونظيرها: ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾، وظاهر أنَّ السؤال هو القضية الأولى من قضايا محكمة العدل الربَّانية يوم الدين.

● قول الله تعالى:

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾.

تضمَّنَتْ هذه الآية بيانَ القضيّة الثانية من قضايا محكمة العدل الربَّانية يوم الدين، وهي قضيةُ الإعلام بما اشتملَتْ عليه صحف أعمال العباد في الحياة الدنيا حياة الابتلاء.

فبعد سؤال المسؤول في محكمة العدل الرَّبَّانية يوم الدّين، يَقُصُّ الله عزّ وجلّ عليْه قِصَّة رحْلَتِه في الحياة الدّنيا بإعلامٍ شامل، فلا يُغَادِر صغيرة ولا كبيرةً إلاً أحْصَاها، ويظهر أنّه يراها مفصَّلة في كتاب أعماله وقد يكون هذا الكتاب سجلاً يشمل الصورة والصَّوْتَ والخواطرَ والنيّات، والأعمال الظاهرة والباطنة، ومن الباطنة أعمال القلوب والنفوس والأفكار.

القَصُّ في اللُّغَة: تَتَبُّعُ الأثر، يقال لغة: قَصَّ أثَرَه قَصّاً وَقَصَصاً، أي: تَتَبَّعَهُ بدقَّة.

والقِصّة: الحكاية، ويُقَال: قصَّ القِصَّة، أي: رواها وحكاها، ويقال: قصّ عليه خَبَرَهُ، إذا أورده على وجْهِه.

﴿بِعِلْمٍ﴾: أي: بوسائل إثباتٍ علْمِيَّةٍ لا مجال لجُحُودِها وإنكارها، ومنها صُحُفُ الملائكة، وشريطُ رحْلَةِ حياتِه المصوّر لَهَا عَمَلاً وقولاً ونيّاتٍ وخواطِر، ومنها شهادة جوارحه عليه.

وفوق كلّ وسائل الإثبات العلميّة، عِلْمُ الله عزّ وجلّ، الذي هو شهيد على كلّ شيء، وهو ما أشار الله إليه قولُه تعالى في الآية:

﴿... وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾: أي: بل كُنّا حاضرين شاهِدينَ كلَّ شيء، وجاء في العبارة اسْتِخْدامُ ضمير المتكلّم العظيم، لأنَّ شُهُودَ كلِّ شيءٍ في الوجود وشمولَه بالعلم يُلائمهُ هذا الضمير الدّالّ على عظمة المتكلّم في ذَاتِه وفي صفاته.

● قول الله تعالى:

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

تضمَّنَتْ هاتان الآيتان بيان القضيّة الثالثة من قضايا محكمة العدل الرّبانيّة يوم الدين، وهي قضية وزن أعمال العباد، لإصْدار الأحكام الجزائية بالعدل الكامل بالنسبة إلى السَّيّئات، وقد يشمل بعضَها الفضلُ الرَّبّاني، أمّا بالنسبة إلى الحسنات فحُكم الله لعباده فيها يكون بالفضل العظيم.

الوزن: عمليَّةٌ يُقْصَدُ بها معرفَةُ مقادير الأشياء الماديّة أو المعنويّة، ذات المقادير المجهولَة للوازن أو الموزون له، بمعادَلَتِها بأشياء أُخرى معلومَة المقادير.

والغرض معرفة مقادير الحقوق الشاملة لأنواعِ ولجزئيّاتِ الحقوق المادّيّة أو المعنوية، بغْيَةَ إقامة واجب العدْلِ بالاستناد إليها.

فمن اشترى عشرة أرطال من السُّكر، أو عشرة أمدادٍ بعشرين دِرْهماً، فقد ثبتَ له من الحقّ هذا المقدارُ من السُّكّر، ولكنْ لا يُسْتَطاع معرفة هذا المقدار إلاَّ بِوَزْنِه بموازين، أو كيله بمكاييل تكشف بصِدْقٍ المقدار الذي اشتراه من السُّكّر.

أمّا الكيل فيحتَاج إلى أداةٍ ضابطةٍ يَعْرِفُ الناسُ مقدار ما تَسْتَوْعِبُ، فيُكالُ بها ما اتُّفِق على شرائه وبذل ثمنه.

وأمّا الوزن فَيَحْتَاجُ إلى آلة للتعادل، وهي الميزان، وهذا التَّعادُل إمَّا أن يكون داخلاً في أصل نظام الميزان، وإمّا أن يكون بوساطةِ مَثَاقِيل معلومة المقادير، توضع في إحدىٰ كِفَّتي الميزان المتعادِلَتينِ تماماً عنْد نقطة الصّفر، وتوضَعُ الأشياء الأخرى في الكفَّة الأخرى، لوزن مقاديرها.

هذه الآلة اليسيرة الصُّنْع هي أُولَى الموازين الّتي عرفها الإنسان، وعمليَّةُ الوزن بها تُشَاهَدُ بالحسّ البصريّ، وإنَّما توزَنُ بها الأشياء ذوات الأثقال الملموسة، وتكون قيَمُها بحَسَب مقادير ثِقَلِها أو خفَّتها، والَّتي تُقاسُ أثقالها بقُوىٰ الرَّفع المعارضة لقُوَّةِ جاذبيَّة الأرض، وَلَوْ كانت مكتسبةً منها، كالثِّقْلَيْن في كَفَّتَيِ الميزان.

ولكنَّ قيمَ الأشياء ومقادِيرَها لا تُوزن كُلُّها بقوى الرَّفع، فمنها ما يُوزَنُ بقُوىٰ الدَّفع، ومنها ما يُوزَنُ بمقدار ما فيه منْ مُؤَثِّراتٍ كيمائية، ومنها ما يُوزَن بآلة تُحَدِّدُ عَدَدَ ذَرَّاتِه النوعيَّة، ومنها مايُوزَنُ بمقدار ما يَشِعُّ منْهُ من عناصِرَ مُشِعَّةٍ، ومِنْها ما يُوزن بحسابِ الحجْم والسُّرْعَة.

وحفظ النصوص يوزن بمقدار المطابقة أو عدم المطابقة بيْنَهُ وبين النصوص.

ومقدارُ التحصيلِ العلْمِي يُوزَنُ بموازين فِكْرِيَّة خاصة. وللحبِّ موازين، وللكراهية موازين، إلى غير ذلك ممَّا لا يُحْصَر.

وكلُّ شيءٍ في الوجود يخْضَعُ لنظام المقادير المختلِفَةِ المتَفاضِلَةِ فإنَّ ضَبْطَ مقداره يحتاج إلى ميزانٍ يلائم طبيعته.

فإذا لاحَظْنا أنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ خلَقَ كلَّ شيْءٍ فقدَّره تقديراً وأنَّ كُلَّ شيءٍ عِنْدَه بمقدار، وكما قال جلَّ جلاله في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

فلا بُدَّ أنْ نُدرِكَ أنَّ لكلِّ جِنْسٍ من أجناس الوجود، ولكُلِّ نوع من أنواعه، ولكلِّ صنف من أصنافه، ولكلّ جُزْئِيٍّ من جزئيَّاتِه، ميزاناً يلائم طبيعته، وبهذا الميزان تُكْتَشَفُ مقاديره.

ولهذا امْتَنَّ الله على عباده بأمْرَيْنِ أَسَاسَيْنِ كُلِّيَّيْن أَنْزَلَهُما:

الأمر الأول: الحقّ.

الأمر الثاني: الميزان.

● فالْحقُّ يُدْرَكُ بما وهَبَ اللَّهُ النّاسَ مِنْ وسَائِلَ عِلْمِيَّة يمكن أَنْ يَعْرِفُوا بها قَدْراً كبيراً منه، ويُدْرَكُ بما أنزل الله لعباده من كُتُب، وبما أَوْحَى به إلى رُسُله من مَعَارِف.

● والميزان يُكْشَفُ به نِسَبُ التعادُل والتراجُحِ بين الأشياء في مقاديرها، وقد وَضَع الله عزّ وجلّ أنظمةَ الموازينِ في الأرض، ليكتشِفَها النّاسُ بما آتاهم من قُدْراتٍ ووسائل، وليَزِنُوا بها مقادير الأشياء، وليقيموا الوزنَ بالقسْطِ، ويَعْدِلُوا بين أصحاب الحقوق، فيُعْطُوا كُلَّ ذي حَقّ حقَّهُ.

وأنزل جلّ جلالُه فيما شرع لعباده القواعدَ والضوابطَ والأُسُسَ

الْعَدْلِيَّة، ليزنوا بها حقُوقَ الناس، ولِيَسْتَنِدَ إليها حُكَّامُهُمْ الْمُقْسِطُونَ، بُغْيَة إقامَةِ الْعَدْلِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ به.

ولهذا نُشَاهِدُ فيما اكْتَشَفَ النّاسُ من موازينَ أنواعاً وأصنافاً كثيرةً جداً.

- فَلِمَعْرِفَةِ مقادير ثِقَلِ الأَشْيَاءِ ذَاتِ الْحُجُومِ الملْمُوسَة موازين خاصة.
- ولِمَعْرِفَةِ دَرَجَة الكَثافة، أو مقادير الكَثافَةِ، موازين خاصّة.
- ولمعْرِفة درجَةِ الحرارة أو مقاديرها موازين خاصّة.
- ولمَعْرِفة مقادير الصلابة موازين خاصّة.
- ولمَعْرِفَةِ مقادير التّيّار الكَهْرَبائيّ موازين خاصّة.
- ولمعرفة مقادير ضغط الدّم في الأجساد موازين خاصّة.
- ولمعرفة سُرْعَةِ المركبات البريَّةِ والبحريَّةِ والجوّيَّة موازين خاصة.
- حتَّىٰ صار الْجَهْدُ الفكريُّ قابلاً للوَزْنِ بموازين خاصَّةٍ فَضْلاً عَنْ الْجَهْدِ العضَلِيّ والعَصَبِيّ.

وأُأكّد أنَّ الوسائل الحضاريّة البشريّة قد ارتقت ارْتِقاءً بَاهراً جدّاً في اكتشاف أنواع كثيرة من الموازين، إذ اضطُرّ الباحثون العلميُّون أن يتخذوا موازين لكلّ شيءٍ يمكِنُ أن يُجَزَّأَ إلى وحدات صُغْرىٰ تتكون من اجتماعها مقادير قابلة للتزايد بحدّ أو بغير حدٍّ، وقابلةً للتناقص حتَّىٰ الفناء.

وأدنى مقدار يمكن أن يُدْرَك ولو بالأدوات والوسائل لأيّ شيء، يمكن أن يجزّأ إلى وحداتٍ صغرى، وأصغر الوحدات هي ذرَّةُ ذلك الشيء.

● فذرَّة السُّكَّر الّتي هي أصغر مقدارٍ منهُ ويحمِلُ الصَّفَةَ السُّكَّريَّة لها وزْنٌ نوعي:

● وذَرَّة المِلح التي هي أصغر مقدار منهُ ويَحملُ الصَّفَة الملحية لها وزن نوعي.

● وذَرّة الذهب التي هي أصغر مقدار منه ويحمل الصفة الذهبية لها وزْنٌ نوعيٌّ.

كذلك الحرارة والبُرودة، والضغط، والقوة، وسائر المادّيات والمعنويات.

ويقاسُ عليها الإيمان والكفر، والحبُّ والبغض، والتلاؤم والتنافر، فضلاً عن الأعمال الّتي لا تكون إلاّ ببَذْلِ طاقاتٍ من الجَسَدِ للقيام بها.

ولمَّا كان كلُّ شيء في الوجود ذا مقادير فإنّه لا بُدّ أن يخْضَعَ لوَزْنٍ يحدّد مقدارَهُ، ولا بُدَّ أن يكون ميزانُه ملائماً لطبيعته.

وقد حكّم بعْضُ مُدَّعي العقلانية عقولَهُم القاصرةَ بشَأْن وزْنِ أعمال العباد يوْمَ الدّين بالموازين الْقِسْطِ الّتي يَضَعُها الرَّبُّ جَلّ جلالُه ليوْم القيامة، فحَملُوا ما جاء في النُّصُوصِ على أنّه من قبيل المجاز، إذْ تَصَوَّرُوا أنّه لا تُوجد موازين إلاّ ما كانوا يَعْهدونه في أسواق البيع والشراء، وإذْ رأَوْا أنّ أعمال العباد الظَّاهرَة والباطنة أعراض، ورأَوْا أنّ الأعراضَ لا تخضع للوزن، مع أنّها في الحقيقة ذوات مقادير تزيد وتنقص، وكلُّ ذي مقادير يخضَع لنظام الوزن، ويمكن أن تُتَّخذ له موازين.

الدليل على إنْزال الحقّ وإنزال الميزان:

ولإقامة العدل بين النّاس في قضايا الحقوق، أنزل اللَّهُ عزّ وجلّ القرآن والكتُب السابقة له بالحقّ، وأنزل على رُسُلِه الميزان، ووضع موازين

الأشياء في متناوَلِ الباحثين عنها، بما أودع في فِطَر الأفكار والقلوب والنفوس.

فالقواعِدُ والأصول الفكْرِيَّة، والأحكامُ والتشريعات الدِّينيَّة، والوسائل والأدَوات في الأنفُس وفي الكون من حَوْلِها، قد وَضَعها الله للأنام، حتَّى يَتَوَصَّلُوا بها إلى وزن الحقوق، والحكم بالعدْل.

وبالاستناد إلى الوزن المنضبط أو التقريبيّ يحْكمُ الحكَّامُ المقسطون فيما بين النّاس بالعدل.

● قال الله عزّ وجلّ في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ... ﴿١٥﴾﴾ أي: وأُمِرْتُ بأمُورٍ كَثيرَةٍ تتعلَّقُ بقضايا الحقّ والعدْل، لأعْدِلَ بَيْنَكُمْ في أحْكامِي القضائيَّة وفي غيرها.

● وقال تَبارَكَ وتعالى فيها أيضاً:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ... ﴿١٧﴾﴾، أي: الله الـــذي أنزل الكتاب مُقْتَرِناً بالحقّ في كلّ قضاياه، وأنزل الميزان، ليتّبعَهُ الناسُ ويَحْكُموا بالعدْل، إذا أرادوا الاستقامة على صراط الله.

والإنزال يشمل كلَّ عطاءٍ ربَّانيّ سواءٌ أنزله الله من السماء. أم خلقه في الأرض.

فمن بيان الحقوق مثلاً حقُّ الإنسان في حياته، وحقُّه في مالِه، وحقُّهُ في الإيمان بما يَرَىٰ أنَّهُ الحقُّ، وحقُّهُ في كَسْبِ رزْقه ممَّا أباح الله جلّ جلاله، إلىٰ غير ذلك من حقوقٍ يَصْعُبُ إحصاؤها.

ومن قواعِد ميزانِ الْعَدْلِ القِصَاص من القاتل، أو الدِّيَةُ إذَا عَفَا بَعْضُ أوْلياء القتيل عن القصاص ضمن ما جاء في أحكام الشَّرْع.

ومن قواعِد ميزان العدْلِ في الحقوق المالية، أنّ من أَخَذَ مالَ أخيهِ بغَيْر حقٍّ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَرُدَّ لَهُ عيْنَ مالِهِ إِنْ وُجِدَ، أو ما يُعَادِلُه فِي الْقيمَةِ أَوِ المنْفَعةِ إِنْ فُقِدَ.

وهكذا إلى سائر قواعِدِ ميزانِ العدْلِ المستَنِدَة إلى الحقّ.

● وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

فدلّ هذا النصّ على أنَّ إنزال الكتاب مقترناً بالحقّ وملتزماً به، وإنْزال الميزان، لم يَكُنْ خاصاً بِرِسَالَة محمّدٍ ﷺ في الإسلام، بل جاء مثلُ ذلك في الرّسالات الرّبّانيّة السّابقات.

وأضاف هذا النَّصُّ بيانَ إنْزالِ الْحَدِيد الّذي فيه بَأْسٌ شديدٌ، إشارةً إلى ضَرُورَةِ حمايَةِ أحكام الْعَدْل في المجتمع البشريّ، بالقوىٰ المسلَّحة بالأسْلِحَة الحديديَّة الّتي تَمْلِكُهَا الدَّولَةُ، والتي يجب أن تملِكَها لإقامة الحقّ والعدل.

وأضاف أيضاً أنّ من أغراض إنْزال الحديدِ استخدامَ أسْلِحَتِهِ في نُصْرَةِ دين الله عزّ وجلّ، ونُصْرَةِ رُسُلِه، والجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى.

نفهَمُ هٰذَا من إشارة قول الله عزّ وجلّ فيه:

﴿... وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ... ﴿٢٥﴾﴾.

ودلَّ هذا النصّ أيضاً، على أنَّ الله عَزّ وجلَّ، قَدْ وَضَعَ في الأرض الأنْظِمَة وَالْوَسَائِلَ الّتي يُمْكِنُ أَنْ تُصَنَّعَ بها الموازين المختلفة، الّتي تُعْرَفُ بها مقادِيرُ كُلّ الأشياء.

• وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الرحمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):
﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾.

فَدَلَّ هٰذا النَّصُّ على أَنَّ الله عزَّ وجلّ بَعْد أنْ وضع الميزان كما سَبَقَ به البيان، أمَرَ بأن لا يَطْغَىٰ الناسُ في الميزان مُتجاوزين حُدُود الحقّ وما يجب أن يكون، وأمَرَ النّاس أن يُقِيموا الْوَزْنَ بالقِسْطِ، أي: بالعدل، وأَمَرَ أَنْ لا يُخسِرُوا الميزانَ، فَلا يَنقُصُوا مِنَ الموْزُوناتِ في عَمليَّاتِ الْوَزْنِ الَّتِي يُجْرُونها شيئاً.

وأبانَ هذا النَّصُّ أن الله جَلَّتْ حِكْمَتُهُ قَدْ وَضَعَ الميزان بكمال إتقانٍ وإحكام، كما رفَعَ السَّماءَ بكمالِ إتقانٍ وإحكام.

﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾: أي: وأوْجَدَ في الأرض وأثْبتَ الأنظمةَ والقوانِينَ والوسائل، الّتي يَسْتَطِيعُ النّاسُ بها صِناعَة الميزان الشّامل لمختلِف الْموازِين الّتي تُوزَنُ بها مَقَادِير الأشياء المختلفة، ووضَعَ للنَّاس بمَا أَنْزَلَ عَلَىٰ رُسُلِهِ أحْكام الْعَدْلِ.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾: أي: ومع الأحكام التي أنزلها فيما أوحَىٰ إلى رسُولِه لإقامةِ الْعَدْلِ بَيْنَ الناس، وَجَّه تكليفاً مضمونُه النَّهْيُ عن الطُّغيانِ في عَمَلِيَّاتِ الوزْن.

الطُّغيانُ: هو الزّيادة على مقدار الحقّ في الوزن ضِدَّ مصلحة الموزون له، بأنْ يأخُذ الوازِنُ أكْثَرَ مِنْ حَقِّهِ وَيُعْطِيَ الموزونَ لَهُ أَقَلَّ مِنْ حَقّه.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾: أي: ووجَّه تكليفاً آخَرَ مضمونُهُ وجُوبُ إقَامَةِ الوزْنِ بالْعَدْل.

العدْلُ في الوَزْنِ هو المساواةُ التَّامَّةُ بَيْنَ قيمَةِ الحقِّ المطلوب، وقيمة الموزونِ الَّذِي يُؤَدَّىٰ به الحقُّ.

﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾: أي: ووجّه تكليفاً آخَرَ مضمونُه النَّهْيُ عن النقص في الْوَزْنِ عن الحقّ المطلوب.

يُقَالُ لُغَةً: خَسَرَ الميزانَ وأخْسَرَهُ، إذا نَقَص الوازِنُ في عَمَلِيَّةِ الْوَزْنِ عَنِ الحقّ المطلوب.

فاشتمل هذا النصُّ على تكاليف رَبَّانية ثلاثة:

(١) النهي عن الزيادة على الحقّ المطلوب في عملية الوزن.

(٢) الأمر بالمساواة العادلة بين حَقِّ المَوْزُونِ له والموزونِ منه.

(٣) النهيُ عن النقص عن الحق المطلوب في عملية الْوزن.

وفي هذا استقصاء للاحتمالات في عمليات الوزن، عنايةً بضرورة العدل، وهذا من التفصيلات التي اشتمل عليها القرآن، مع أن بعضها كان يغني عن بعض فكرياً.

ومن هُنا نُدْرِك أنَّ وَزْنَ أعمال العباد يوم الدين، سواءًا أكانت أعمالاً جَسَدِيَّةً ظاهرة للحواس، أمْ أعمالاً فِكْرِيَّةً، أم نَفْسِيَّةً أم قلبيَّةً إراديَّة، يكونُ بموازين تُلائم طبائعها الّتي طبعها الله البارئ عليها.

إذا كان الناس باكْتشافاتهم لأنظمة الموازين الّتي وضعها الله عزّ وجلّ لَهُمْ في الأرض، قد توصَّلُوا إلى اكتشاف أنواعِ كثيرة جدّاً، يَزِنُونَ بها المادّيّات الظَّاهرات، والمعنويَّات، والْقُوىٰ الّتي كان الْقُدَمَاءُ يُسَمُّونها أعراضاً، أفَلا يكونُ عِنْدَ الله البارئ الخالق لكلِّ شيءٍ يَوْمَ الدِّين موازينُ تَزِنُ الأعْمَالَ الظَّاهرة، وتزن الخواطر، وتَزِن النيَّاتِ، وتَزِنُ الإرادات، وتَزِنُ مقادير الإيمان والكفر، وتَزِنُ مقادير الحبّ والبغض، ومقادير الرِّضا والغضب، ومقادير العفو والحقد إلى سائر العواطف؟!

ويَدُلُّنا على اخْتِلافِ أنواع الموازين الّتي يُوزَنُ بها ما كَسَب العبادُ أو

اكْتَسَبُوا في الحياة الدنيا، حين يُحَاسَبُونَ عليها يوم الدين، أنَّها لَم تُذْكَرْ في نُصُوصِ القرآن المجيد إلاَّ مجموعة، وما ذُكِرَ في القرآن مفرداً بلفظ «الميزان» فقد جاء في بيان ما أنْزَلَ الله للنَّاسِ في الحياة الدنيا، ويُحْمَلُ على الجنْسِ الشّامِل لمختلِفِ أنواع الموازين الّتي نُشَاهِدُها في واقِعِنَا، أو الّتي سَيَكْتَشِفُها الناس مستقبلاً في الحياة الدُّنيا، بالوسائل الّتي وهبها الله لهم في ذواتهم، أو في الأشياء من حَوْلِهم.

فلا رَيْبَ في تَنَوُّعِ الموازين عند الله جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُه وله الحكمة البالغة، والقُدْرة على خلق ما يشاء، وهو سبحانه وتَعالَى العليم الخبير، بما تكون عليه موازين أعمال العباد الظَّاهرة والباطنة الجسديَّة والنفسيّة يوم الدين.

وحسبنا في هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

لفظ «ميزان» ويجمَعُ على «مَوَازِين» يُطْلَقُ على الآلة الّتي تُوزَنُ بها الأشياء.

ويُطْلَقُ أيضاً على المثاقيل ذاتِ المقادير المعلومَة، التي تُوضَعُ عادَةً في إحدىٰ كَفَّتي الميزان، لتوزن بها الأشياء ذات المقادير المجهولة، وهي الّتي يُقَالُ لها: «صِنج»، و«سِنج»، واحِدَتُها: «صَنْجَة» و«سَنْجَة».

ويُطْلَقُ أيضاً لفظ «المِيزان» ويُراد به عمليَّةُ الْوَزْنِ، وهٰذا من إطلاق أداة الشيءِ على المصدر الّذي يَدُلُّ على الحدث.

ويُطْلَقُ أيضاً لفظ «الميزان» على المقدار، فميزان الرَّجُلِ مقدارُه.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

دلّت هاتان الآيتان على أنّ موازين محكمة العدْل الرّبّانيّة يوْمَ الدّين تَزِنُ علىٰ طريقة أنّ العمل الصالح المقبول عند الله سواءٌ أكانَ عَملاً جَسَدِياً أمْ فِكْرِياً أمْ نَفْسِياً أم قَلْبياً، يَضغَطُ بِثِقْلٍ يُعْطِي إشَارَة تُحَدِّدُ مقدار قيمته الحقيقية فوق إشارة الصِّفر، أمّا العملُ السَّيِّئُ فهو بعَكْسِ العمل الصَّالح، إذْ هو يَجْذِبُ كِفَّةَ ميزانِه إلى الأعلىٰ بقُوىً شائلة، حتّىٰ تظْهَرَ طائِشة فتكْشِفُ إشارة الميزان أنَّ قيمة الْعَمَل هو تحْتَ إشارةِ الصِّفْرِ بحَسَبِه.

وأمّا العمل الذي لا هو من الحسنات ولا هو من السَّيّئاتِ عِنْدَ الله، وكذلِكَ الْعَمَلُ الذي لا يُبْتَغىٰ به وجْهُ الله عزَّ وجلَّ، فلا يُقَامُ له وَزْن، ولا يُحرِّكُ في الموازين الرَّبّانيّة شيئاً، لا شيئاً مُوجِباً، ولا شيئاً سالِباً.

ويُشيرُ قول الله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بصيغة الجمع إلى أنَّ الموازين مختلفة بحسب أنواع الأعمال.

● فمنها مثلاً ميزانٌ يَزِنُ مقادير الإيمان والإخلاص والصِّدْق مع الله، ونقائضها.

● ومنها ميزانٌ يَزِنُ مقاديرَ الحبّ في الله والبغض في الله، ومقادير كراهية الحقّ، وكراهية فعلِ الخير وتركِ الشرّ، وحُبّ العدوان والظلم، ونَقَائِضَها.

● ومنها ميزانٌ يَزِنُ الإراداتِ والرَّغَبَاتِ، ومقاديرَ شِدَّتِها وضَعْفِها.

● ومنها ميزانٌ يَزِن مقدار الصَّبْرِ علىٰ جَهْدِ فِعْلِ الطَّاعات، وتَرْكِ المعاصي والمنكراتِ من مطالب الشهوات، ونحو ذلك.

• ومنها ميزانٌ يزِنُ شُحَّ النّفوسِ وجودها، ونحو ذلك.

• ومنها ميزانٌ يَزِنُ أعْمَالَ الجوارح الظّاهرة، إلى غير ذلك من موازين لا نَسْتَطِيعُ بقدراتنا البشريَّة تَحْدِيدها، ولا يَسْمَحُ لنا التَّصوُّر الملتزِمُ بما يأتي عن الوحي بتحديدها، إذْ لم يأتِ في بيانات الْوَحْيِ عَنْ موازين يوم القيامة أكْثَرُ من الدّلاَلَة على أنّها موازين، والظاهر من كونها موازين لكُلّ موضوع موضع المحاسبة يوْمَ الدّين أنّها أنواع، كَمَا أنَّ الموازين للأشياء في الدُّنيا أنواعٌ مختلفات.

• ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: أي: فَمَنْ ثَقُلَتْ مقادير أعْمَالِهِ الموزونة بالموازين، إذْ كَانَتْ إيجابيَّة الضغط، بسبب ما فيها من قِيمَةٍ ذَاتِ ثِقَلٍ عنْدَ الله عزَّ وجلَّ في موقف الحساب وفَصْل القضاء يوم الدّين، والضمير في ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ يعود على لفظ ﴿مَن﴾ ومعناه على الجمع، لأنه من صيغ العموم.

• ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: أي: فأولَئِكَ أصْحابُ الدرجات الرفيعات الّذِين يُشَارُ إليهم باسم الإشارة الموضوع للبعيدين، هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وجاءت الفاء في جملة الخبر لما في المبتدأ من رائحة الشرط.

هُمُ المُفْلِحُون: أي هم الظّافِرُونَ بما يُحبُّونَ، والفائزون بالنعيم الخالد في جنّاتِ عَدْنٍ، ودلَّ ضمير الفصل على الحصر، أي: هم وحدهم المفلحون.

• ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾: أي: ومَنْ خفَّتْ أعماله الموزونَة بالموازين، إذْ كانت سالبةً شائلَةً، لَمْ يُوجَدْ لَهُ فِيها إيمانٌ صَحِيحٌ صادق، ولا عَمَلٌ صَالِحٌ مُسْتَنِدٌ إلى إيمان صحيح صادق، فلَمْ تُسَجّلْ إشاراتُ موازينِهِ ثِقْلاً ما لِعَمَلٍ ما مقبولٍ عِنْدَ الله، والضمير في ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ هنا أيضاً يعود على لفظ ﴿مَن﴾ ومعناه على الجمع لأنّه من صِيَغ العموم.

• ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾: أي: فأولئك أصْحابُ الدَّركات السافلات الذين يُشَارُ إليهم باسم الإشارة الموضوع للبعيدين، هُمُ الَّذِين خَسِرُوا أنْفُسهم.

ومعلومٌ أنّ خسارَة الأنفس أعْظَمُ الخسارات، وجاءت الفاء في جملة الخبر لما في المبتدأ من رائحة الشرط.

• ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾: أي: خَسِرُوا أنفسهم بسبب مَا كَانُوا في الحياة الدُّنيا حياةِ الابتلاء، يَظْلِمُون على توالي الأيام، واللّيالي، بترك اتّباع آياتنا، الّتي أمرناهم باتّباعها.

الظُّلْم: تجاوز حدِّ الحقّ والخير والواجب، إلى مهاوي الباطل والشّر والموبقات، ووَضْعُ الشّيءِ في غير موضعه.

فمن عصى الله ورسولَه فقد ظلم بتجاوزه ما يجب عليه أداؤه، وبارتكابه ما يحرُم عليه فعْلُه، وظلم نفسه إذْ عَرَّضها للعقوبة، ودفع بها إلى دَرْك الشقاء والعذاب.

فمعنى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾: يظْلِمُون بتركِهِمُ اتّباعِ آياتنا المنزّلات، التي أمرناهم باتّباعها، وهو ما جاء بيانه في الآية (٣) من هذه السورة التي نتدبَّرُ آياتِها، والّذي هدىٰ إلى هذا التقدير أنّ فِعْل «ظَلَم» يتَعَدّىٰ بنَفْسِه، ولا يتعدّىٰ بالباء، والتقدير الملائم أن نقول: يظلمون بتَرْكهم اتّباع آياتنا المنزّلاَت الّتي أمرناهم باتّباعها، وهو المناسب لما جاء في صدر السورة.

❁ ❁ ❁

• قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ١٠﴾.

يخاطب الله عزّ وجلّ في هٰذه الآيَةِ بضمير المتكلم العظيم، النّاس

المؤهلين للخطاب، بأَنَّهُ قَدْ مَكَّنَ لهم في الأرض، وجعل لهم فيها ما يَعِيشُونَ به بطريقة مباشرة، كثِمَار الأشجار، أو بطريقة مَنْحِهِمُ الوسائلَ والأسبابَ والْقُوىٰ المادِّيَّةَ والمعنويَّة لاستخراج واستنباط معايشهم من الأرض، فمِنَ الواجب عليهم أنْ يَشْكُروا نِعَم الله الَّتي هيَّأهَا لهم، ومكَّنَهُمْ من الانتفاع بها والاستمتاع بمتاعها.

وأكَّدَ الله عزّ وجلّ بيانَ هٰذه الحقيقة بعبارة: ﴿وَلَقَدْ﴾ نظراً إلىٰ أنّ أذهانَ النّاس مُنْصَرِفَةٌ عن ملاحظة النِّعَم العظيمة الّتي أنعم الله بها عليهم في هٰذِهِ الحياة الدنيا.

وأبان الله عزّ وجلّ في هذه الآية للناس أَنَّهم قليلاً ما يَشْكُرُون الله على نِعَمِه.

التمكين: هو الإِقدار على التَّصَرُّف الموصل إلى تحقيق المطالب، ولا يَقْدِرُ على التَّصرُّف في الأرض بالأشياء، مَنْ لم يَكُنْ لَهُ فيها مكانٌ ثَابِتٌ مستَقِرٌّ، وهو قادرٌ على الثَّبات فيه إذَا شَاءَ، وقادرٌ على التحرُّكِ فيه بحُرِّيَّةٍ كَمَا يشاء، وقادرٌ على استخدام ما في الأرض من وسائل مادِّيَّةٍ، وَمَعْنَوِيَّةٍ تُظْفِرُهُ بمطالبه.

قال الجوهريّ: مكَّنه الله من الشيْءِ تمكيناً، وأمكَنَهُ منه، بمعنًى، أي: بمعنى واحد. واسْتَمْكَنَ الرَّجُلُ من الشيء، وتمكَّنَ منه بمعنى. وفُلانٌ لا يُمْكِنُهُ النّهوض، أي: لا يقدر عليه.

قال ابْنُ سِيدَه: تمكَّنَ مِنَ الشيء واسْتَمْكَن ظفر.

قال أبو منصور: ويُقالُ أمكنني الأمْرُ يُمْكِنُني فهو مُمْكِن، أقول: أي: مقدور عليه.

قالوا: والاسم من كلِّ ذلك «المَكَانَة». أقول: أي: التمكُّن.

فمعنىٰ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: ولَقَدْ جعلنَا لَكُم في الأرض تمكيناً تقدرون به على التصَرُّف بالمسخَّراتِ لكم فيها.

ومن مظاهر هذا التمكين استقرارُ النّاس في المُدن والقرىٰ والبوادي، وقُدْرَتُهم على إنشاء المساكن والحصون والمصانع والمعامل، وقُدْرتُهم على التسلُّط على حيواناتِ البرّ والْبَحْر، وقُدرتُهمُ على قَطْع الصُّخور وخَرْقِ الجبال وتطويع الحديد وسائر المعادن، وقدرتُهم على حفْرِ الآبار العميقة جدّاً، واستخراجِ النِّفْط والمياه من باطن الأرض، وغيرهما من كنوز الأرض، وقدرتُهُمْ على اكْتِشافِ الْقُوَىٰ الّتي أوْدَعَها الله فِي الأشْيَاءِ، واستخدامها والانتفاع بها في السِّلْم والحرب، إلى غير ذلك من كلِّ ما نجد النّاس قَدْ قَدرُوا عليه، وتمكَّنُوا منْهُ، ممّا لا نَسْتَطِيعُ إحصاءه.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾: أي: ولقد جعلْنَا لكم في الأرض الّتي مكّنّاكُمْ فِيها مَا تَعِيشُونَ به.

مَعَايش: جمع «مَعِيشَة» وهي ما يُعاشُ به مباشرةً، أو باتّخاذ الوسائل والأسباب لاستخراجه واستنباطه وتصنيعه.

العيش: هو في اللّغة الحياة. يقالُ: عَاشَ يَعِيشُ عَيْشاً، وعِيشَةً، ومَعِيشاً، ومَعَاشاً، وَعَيْشُوشَةً، أي: حَيِيَ.

وهذه المعايش الّتي جعلها الله للناس في الأرض تستوجب أنْ يشْكُرُوا نِعَمَ الله عَلَيْهِمْ بها، فَهَلْ هُمْ يَشْكُرُونَ رَبَّهم عليها؟؟. والجواب في قول الله عزّ وجل يخاطب الناس جميعاً:

- ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾: أي: أنْتُم يا أيُّها النّاس بالنظر إلى مجموعكم لا إلى جَميعكَمْ تَشْكُرونَ شُكْراً قليلاً جدًّا نِعَمَ رَبِّكُمْ عليكم.

﴿قَلِيلًا﴾: صفة لمفعول مطلق محذوف مُقَدَّمٍ على فِعْلِه.

﴿مَّا﴾: إبهاميّة لتأكيد القلّة.

فالشَّاكِرُونَ من النَّاسِ نِعَمَ رَبّهم عليهم قَلِيلُونَ جداً بالنسبة إلى غير الشاكرين، إذْ أكثر النَّاس كافِرُون.

ومعظم الّذين يشْكُرُون من أَهْل الإيمان يَشْكُرُونَ شُكْراً قَلِيلاً لا يكافئ عطاءات الفضل الرَّبَّانيَّة.

وسبق التحليل المستفيض لمثل هذه العبارة لدىٰ تَدَبُّر قول الله عزّ وجلّ في الآية الثالثة من هذه السورة خطاباً للناس:

● ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فلا حاجة إلى إعادة هذا التحليل.

❁ ❁ ❁

قضايا الدرس الأول من دروس السورة:

اشتمل هذا الدرس الأول من دروس سورة (الأعراف) على بيان لقطاتٍ موجزاتٍ من أصول الدين وواقع حال الناس بالنسبة إلى بعضها، في ثماني قضايا:

القضيّةُ الأولى: بيانُ أنّ القرآن مُنَزَّلٌ من الربّ الخالق للعالَمين المخاطبين بما جاء فيه.

القضية الثانية: بيانُ وَظيفة الرَّسُول بالنسبة إلىٰ القرآن، بوصْفِه رَسُولاً، وهي تَبْلِيغُه، وبيان ما يَجِبُ على الناس تُجاهَ رَبّهم، فَمَنْ لم يسْتَجِبْ لدَعْوَتِه بَعْدَ التبليغ والبيان ومُتابعة التذكير، ووصل إلى حالةٍ مَيْؤوسٍ منها، فالمطلوبُ من الرَّسُول ﷺ نَحوَهُمْ أنْ يُنْذِرَهُمْ بما جاء في القرآن من إنذارات مُعَجَّلاتٍ في الحياة الدُّنيا، ومؤجّلات إلى يوم الدّين.

أي: فلَيْس مسؤولاً عن تحويل النّاس من الكفر والمعصية، إلى الإيمان والطّاعة، حتّى يكون في صدره حَرَجٌ ممّا أُنْزِلَ إليه.

أمّا من استجابوا لدعوة الرّسُول ﷺ فآمنوا، فالمطلوب منهُمْ أنْ يكون القرآنُ لهم ذِكْرَى، يتذكّرون منهُ عند كلّ مناسبةٍ داعيَةٍ ما يَتَعلّقُ بها، ويَتّبِعُون ما جاء فيه.

القضية الثالثة: توجيه الأمْر الرّبّانيّ لكلّ موضوعٍ في الحياة الدنيا موضع الامتحان، بأَنْ يتّخذوا رَبّهُمْ وَلِيّهُمْ، وَيَتّبِعُوا ما أنزله إليهم.

وتوجيه النهيّ الرّبّانيّ لهم بأنْ لا يتّخِذُوا من دون الله أوْلياء، وبأن لا يتّبِعُوا هؤلاء الأولياء في مناهج مخالفة لما أنزل رَبُّهم إليهم.

القضية الرابعة: بيان حقيقة من حقائقِ واقع المجتمع البشري، وهي أنّهُمْ قَلِيلاً ما يَتَذَكّرُون، وذلِكَ لأنّ أكثر الناس كافِرون فهم لا يتذكّرونَ رَبّهم ولا مَا أَنْزَلَ إليهم بصورَةٍ طبيعيّة، ولأن الذين يَتَذَكّرون منهم وهم الأقَلُّون المؤمِنُونَ، أكْثَرُهم لا يَتَذَكّرُونَ إلاّ قليلاً.

القضية الخامسة: توجيه الإنذار من الله والرسول للكافِرين، بمعجّلِ العقاب في الحياة الدنيا، قياساً على من أهلكهم الله من كُفّار القرون السّالفة، مقروناً ببعض تفصيل عن سُنّةِ الله في إهلاكهم.

القضية السادسة: توجيه الإنذار من الله والرسول للكافرين، بمؤَجّل العقاب إلى يوم الدّين، من خلال عرض لمحاتٍ من عُنْصُرَيْنِ من عناصر محكمة العدل الرَّبّانية يوم الدين، وهما عُنْصُر السؤال، وعنصر الوزن والموازين.

القضية السابعة: بيانُ أنّ الله عزّ وجلّ قد جعل النّاس في الأرض، في أتَمّ وأحْكَم كيفيَّةٍ لتحقيق امْتِحانهم في الحياة الدنيا بين نَجْدَي الشكر والكُفْر لربّهم، إذْ مكّنَهُمْ في الأرض، فجعَلَهُمْ قادِرين على أن يتصرَّفُوا فيها على ما يريدون من طاعَةٍ لربّهم وقُرُباتٍ إليه بإرادة الخير وفِعْلِه، أو معصيةٍ لِرَبِّهِمْ بإرادة الشرّ وفِعْلِه، وجعلَ لهم في الأرض وسائلَ عَيْشٍ مختلفة،

وهي وسائل وموادُّ إمداد حياتهم بالعيش إلى انتهاء آجالهم فيها، وموادُّ استمتاعهم فيها بما يشتهون، ومكَّنَهُمْ من استخدام بعضها في طاعته، أو في معصيته، لِيَبْلُوَهُمْ فيما آتاهم.

القضية الثامنة: بيانُ حقيقة من حقائق واقع حال المجتمع البشري، وهي أنّهم قليلاً ما يشكُرون، وذلك لأنّ أكْثَرَ الناس كافرون، ولأنّ الذين يشْكُرُونَ منْهُمْ وهم الأقَلُّون المؤمنون أكثَرُهُمْ عُصاةٌ لربّهم، لا يَشْكُرُونَ إلاَّ قَليلاً، والشَّكُورُونَ منهم قَلِيلُونَ نَادِرُونَ، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) حكايةً لما خاطب به آل داود عليه السلام:

﴿... ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿ٱلشَّكُورُ﴾: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «الشَّاكر» أي: الكثير الشكر.



(٦)
التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة وهو الآيات من (١١ ـ ٢٥)

قال الله عزّ وجلّ خطاباً للناس جميعاً:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ

وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

تمهيد:

سبق في الملحق الرابع من ملاحق سُورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) تدبّر هذا الدَّرس تَدبُراً تكامُلياً مع سائر النصوص التي جاءت في القرآن بشأن قصّة خلق الإنسان الأوّل وفي ظهره ذُرّيّاته، وما رافق خلقه من أحداث.

وكشف ذلك التدبُّر التكامليُّ مفهومات يصْعُبُ على المتدبّر لكتاب الله اكْتِشَافُها من خِلالِ دِراسَتِه لكلّ نصٍّ منها دراسةً منفصلة، لا تَجْمَعُها جَميعاً نظرةٌ عامَّةٌ شَاملةٌ لكلِّ النُّصُوص الواردة في القرآن حوْلَ الموضوع نفسه.

والْتِزَاماً بما تَوَصَّلْتُ إلَيْهِ في تلك الدراسة التكامليّة، فإنّي أشرح معاني آيات هذا الدرس طبق ما كنت قد توصَّلْتُ إلَيْهِ في تلك الدراسة، لئلاَّ يَحْدُثَ اختلافٌ في المفهومات المستَنْبَطَاتِ من آياتِ كتاب الله عزّ وجلّ.

وهذا الدرس الثاني من دروس سورة (الأعراف) يتضمّن مُلْتَقَطاتٍ بيانيّة، من قصَّة خلْق نَوْعِ الإنسان، متمثّلاً بالشخص الأول من هذا النّوع، وفي ظهره كُلُّ ذُرِّيَّاتِه، وهو أبو البشر آدم عليه السلام، ويتضمّن مُلْتَقَطاتٍ مِنَ الأحداث الّتي رافَقَتْ خَلْقَه، ومنها أمر الله الملائكةَ ومن كان معهم

مُنْدَساً فيهم بالسُّجُودِ لآدم، وعصيانُ إبليسَ المندسّ، واستِكْبَارُه، وعَرْضُ محاكَمةٍ من محاكماته الثلاث، وإصْدَارُ الحكْم عليه، ومنها إدْخالُ آدَمَ وزوجِهِ الجنَّة إدخال امتحان واختبار، لا إدْخال خلُودٍ ودَوامٍ واستقرارٍ، ومنها مُلْتَقطاتٌ مِنْ مَكايِد إبليسَ بالوسْوَسَةِ لهما، حتّى عَصَيَا ربَّهُما فأكَلا من الشجرة الّتي حَرَّم الله عليهما أن يأكُلا منها، فحاكَمَهُما على معصيتهما فاعْتَرفَا بذَنْبِهِما، فعاقبهما الله بالإخراج من الجنّة، وأهبطهما وفي ظهر آدم كُلُّ ذُرِّيَّاتِه إلى الأرض، ليمُرّا هُما وَذُرِّيّاتُهما رِحْلَةَ امتِحانِهم فيها، وَبَقَاءُ سلالة هذا النوع في الأرْض مقدَّر إلى حينٍ محدَّدٍ معلوم لله عزَّ وجلَّ، وعندئذٍ يتمُّ إنْهاء ظروف الحياة الدنيا، وبعْد فاصلٍ زَمَنيّ يَبْعَثُ الله عزّ وجلّ الخلائِقَ إلى الحياة الأُخرىٰ، للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

التدبّر:

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾: يؤكّد الله عزّ وجلّ بعبارة ﴿وَلَقَدْ﴾ لأن المضمون يحتاج تأكيداً للمخاطبين به والواو عاطفة على ما جاء في الدرس الأول من دروس السورة. فما جاء في الدرس الثاني ذُو رَوابط فكريّة واضِحَةٍ بما جَاءَ في الدرس الأول.

وجاء في عبارة ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ خِطاباً للناس أَجْمَعِين استخدامُ ضمير المتكلم العظيم، للإشعار بأنّ خَلْقَ النّاس مَظْهَرٌ من مظاهر ربوبيَّةِ الخالق العظيم، الّذي يُلائمه استِعْمَالُ ضَمِير المتكلّم العظيم.

الخلق: يأتي في اللغة بمعنيَيْن:

المعنى الأول: التقدير، أي: تحديد مقادير كلّ شيء يُرادُ إيجادُه.

المعنى الثاني: الإبداع على غير مثالٍ سبَق، إيجاداً من الْعَدَم الكلّي، أو إيجاداً من موادّ موجودة، بإعطائها صفاتٍ بالتركيب والتقدير والتصوير، لم يكن لها وجود فيها وهي عناصِرُ وأجزاءٌ متناثرة. وهذا المعنى الثاني يدخل فيه المعنى الأوّل، إذْ لا يكون إبداعٌ لشيءٍ مُرَكَّب من عناصر، دُونَ تحديد مقادير أجزائه بإِحْكام، لقليلها وكثيرِها، صغيرِها وكبيرِها.

فالمعنى: وَلَقَدْ قَدَّرْنَا تكوينَكُمْ الشَّامِلَ لكلّ العناصر صغيرها وكبيرها، قليلِها وكثيرها، والّتي يتكوَّن مِنها مجتمعةً في نَسَقٍ متكاملٍ هذا المركَّبُ الإنسانيُّ، بكلّ صفاته وخصائصه النفسيَّة والجسَدِيَّة، المادّيّة والمعنويَّة، وهٰذه الْعَمليَّةُ الّتي اشتملت على تَحْدِيد مقادِير العناصِر في مواقعها من البناء الكلّي، قد كانت إبداعاً على غير مثالٍ سبق.

﴿ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ الخلْقِ التقديريّ الإبْدَاعِيّ صَوَّرْنَاكم.

تَصْوِيرُ الشي: جَعْلُه في صُورةٍ وهيئةٍ خاصَّةٍ يَتَمَيَّزُ بها عن غيره، وهذه الصورة تُدْرَكُ بالحسّ الظاهر.

دلَّ قول الله عزّ وجلّ خطاباً للناس جميعاً: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ علىٰ أنّه تبارَكَ وتعالىٰ قد خَلَق آدَمَ وَخَلَقَ جَمِيعَ ذُرّيّاتِهِ في ظهره، ثُمَّ صَوَّرَهم، قبل أن يأمُرَ ملائكَةَ الملأ الأعلى بالسُّجُودِ لآدم، إذ جاء العطف بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾.

وقد أبان الله عزّ وجلّ أنّه صَوَّر آدم وزَوْجه وذُرّياتهما فأَحْسَنَ صُوَرَهُمْ، أي: جَعَلها في صُوَرٍ حَسَنَةٍ جميلة، فقال تبارك وتعالى في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) خطاباً للناس:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ... ﴿٦٤﴾﴾.

وقال تبارك وتعالى في سورة (التغابن/ ٦٤ مصحف/١٠٨ نزول) خطاباً للناس أيضاً بامتنان عليهم:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾.

فالتصوير للصُّورةِ الحَسَنةِ الظاهِرَة للإنسانِ الشّامل للأَبِ الأوّل ولكلّ ذُرِّيَّاته، قَدْ كانَ بَعْدَ تَحْدِيدِ مقاديرِ عناصِرِ إنسانيّته بزَمَنٍ متراخ غير مباشرِ لتَقْدِير خَلْقِه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ فجاء العطف بحرف العطف: ﴿ثُمَّ﴾ الذي يَدُلُّ علىٰ الترتيب مع التراخي.

لقد خلق الله جلّ جلالُهُ وعظُم سلطانُه آدَمَ، وأَوْدَعَ فِي ظَهْرِهِ كُلَّ ذُرِّيَّاته إلى أن تقوم السّاعة، وجَعَلَهُمْ متداخلين بَعْضَهُمْ في بَعْضٍ على وفق نظام تناسُلِهِمْ فيما بَعْدَ ذلك، فكان خَلْقُ آدَمَ خَلْقاً له ولكلّ نَسْلِه معه، وهذا يقتضي أنَّ صورة كلّ إنسانٍ موجُودةٌ في خَرِيطَةِ نواتِه الصُّغْرىٰ، فقد تمّ خَلْقُ نَسْلِ آدم مع خلقه، وتَمَّ تصويرُهُمْ مع تَصْوِيرِه، وكانوا مُصَغَراتٍ متداخلاتٍ في ظهره، أمَّا ظُهُورُ هٰذِهِ الذّريات كائناتٍ حيّة تتحرك على الأرض في الحياة الدنيا للامتحان، فهو ظهور لاحِقٌ، يتَتَابَعُ حَتَّى آخِرَ إنْسانٍ يُولَدُ في الحياة الدنيا.

● ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾: المراد بالملائكة ملائكة الملأ الأعلى، بدليل ما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) من بيان أنّهم كانوا هم المُخْتَصِمين السَّائلين عن الحكمة من خلق آدم، وقد سبق بيان هذا في التدبّر التكاملي في الملحق الرابع من ملاحق سورة (صٓ).

والخطاب الموجَّهُ لملائِكَةِ المَلأ الأعلىٰ قد كان مُوَجّهاً لهم ولِمَنْ كان مُنْدَساً فيهم ومُلْتَحِقاً بهم، وهو إبليس، بدليل اسْتثنائِه من عُمُوم السَّاجِدين الآتي في الآية.

ودل حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ على أن تكليف ملائكة الملأ الأعلى ومَنْ

كان مندساً فيهم وملتحقاً بهم وهو ليس من نوعهم، قد كانَ بَعْدَ مُدَّةٍ متراخية من الزمن، والله أعلم بمقدارها.

ودلّت نصوص قرآنيةٌ أخرى، على أنَّ الله جلَّ جلالُه قَدْ نفخ في آدم الرُّوحَ بعد أنْ أتَمَّ خلْقَه وتصويره، ثمّ علّمه الأسماء كُلّها، ثُمَّ أجرى المباراة بينه وبين الملائكة حول معرفة الأسماء، فتفوّق آدم عليهم بالعِلْم الّذي آتاهُ الله إيَّاه وآتاه وَسَائِلَ الْوُصُولِ إلى معارف عن طريق الاستدلال العقليّ، مُتَجَاوِزاً بها المدركات الحسّيَّة، ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ الملائكة بالسُّجُود لآدم، وكلُّ ذَلك قد كان في مراحل متفاصلة.

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾،

دل قول الله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ على أنَّ في الْعِبَارَة الّتي اشتملت على المستَثْنَىٰ مِنْهُ مَحْذُوفاً، ويمكن تقْدِيرُه مع لوازِمِهِ الفكريّة كما يلي:

ثم قُلْنا للملائكةِ ولمنْ كان معهم مندساً فيهم ولاحقاً بهم من الجنّ، الّذين كانوا مُمَكَّنِينَ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ بِعْثَة محمّد ﷺ، فأجسامُهُمْ لطيفة قابلة للتَّشَكُّلِ كأجساد الملائكة، ومنهم جنٌّ طيارُون كالملائكة قادرون على الصعود إلىٰ السماوات، إلاَّ أنّ الملائكة مخلوقُون من النور، ولا يَعْصُونَ الله ما أمرهم بالفطرة، أمّا الجنُّ فمخْلُوقون من النار، ولَدَيْهِمْ إرادات حرَّةٌ، وهم قد يُؤمنون ويُسْلِمُون فيُطِيعُون، وقد يكفرون فيَرْفُضُون الإيمان والإسلام والطاعة، بإراداتٍ حرَّةٍ غَيْرِ مَجْبُورَة.

والاستثناءُ على هذا هو من قبيل الاستثناء المتّصل، ويكون التكليفُ ابتداءً مُوَجَّهاً للملائكة، وقَدْ أَلْحَقَ الله بِهِمْ من كان معهم مُنْدَساً في صفوفهم، ولَيْسَ هُوَ مِنْ نَوْعِهم، فكَشَفَهُ الامتحانُ.

وقد أثبت القرآن المجيد أنَّ إبليسَ كانَ من الجنّ فَفَسَقَ خارجاً عن أَمْرِ رَبِّه، وعَنْ واجب طاعَتِه، في توجيه الأمر له بالسُّجُود لآدم، ولا يَصِحُّ

أن يُحاسِبَ الله إبليس على عدَم السُّجُودِ لآدم، ما لَمْ يَكُنْ داخِلاً في عُمُوم خِطَاب التكليف.

وعبارة ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ تَدُلُّ على قَضِيَّتَيْنِ:

القضية الأولى: أنه لَمْ يَسْجُدْ فَلَمْ يَكُنْ منْ ضِمْنِ السَّاجِدِينَ، ولكنَّ هذا المعنى قَدْ فُهِمَ من الاسْتِثْنَاءِ، فالعبارةُ على هذا بمثابة توكيدٍ لِمَا هُوَ مَفْهُومٌ مِن العبارَةِ السَّابِقَةِ لَهَا.

القضية الثانية: أنَّ إبليسَ لَمْ يَكُنْ من نَوْع السَّاجِدِين، إذْ هُمْ أحياءٌ من نوع الملائكة المعصومين عن المعصية بالفطرة، وهو من نوع الجنّ ذوي الإرادات الحرَّةِ المخيَّرين للابتلاء بين الطاعة والمعصية.

ودلالة العبارة على هذه الحقيقة دلالةٌ تأسيسيَّة، وبحمل العبارة على المعنَيين معاً، نَسْتَفِيدُ دلالة تأكيديَّة، ودلالةً تأسيسيَّة.

ويُؤَكِّد فهم القضية الثانية من العبارة قولُ الله عزّ وجل في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾:

أي: أبىٰ أن يكون ساجداً مع السَّاجدين من ملائكة الملأ الأعلى، بمقتضىٰ مُخالَطَتِه لهم، ودخُوله بيْنَهُمْ، والتحاقه بهم، ولَوْ لَمْ يكُنْ من نوعهم في أصْلِ خَلْقِه وطبيعته.

ومن النَّصَّيْنِ تتكامل الفكرة المرادُ بيانُها، فهو لم يكن منْ نَوْعِ السَّاجدين، في أصل تكوينه، وأبىٰ أن يُشَارِكَهُمْ في السُّجودِ فيكُونَ معهم، بمقتضى كوْنِه أنْتَمَىٰ إلَيْهم، والْتَحَقَ بِهِم، وصَارَ يَعْبُد الله مِثْلَ عِبَادَتِهم، وشَمَلَهُ أَمْرُ السُّجُود.

❁ ❁ ❁

قول الله عز وجل:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

بالنظرة التدبّريّة التكامليّة، الّتي سبق بيانها في الملحق الرابع من ملاحق سورة (صَ/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) ظهر لي أن المحاكمة لإبليس التي أبانها هذا النصُّ من سورة (الأعراف) هي الجلسة الثالثة من الجَلَساتِ الّتي جَرَتْ فيها محاكَمتُه، أو المحاكمة الثالثة من مُحَاكماته الثلاث، الّتي أعطاه الله برحمته فيها فرصَةَ مُراجَعةِ نفسه، واعترافه بذَنْبِه، وإعلان إيمانه الكامل بإلٰهيَّة الله، وأنّه لا إله إلاّ هو، لكنه لم يفعَلْ، بل أصَرَّ على عناده واستكباره.

● قول الله تعالى:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ . . .﴾؟ بدأت جَلْسَةُ هٰذِه المحاكمة بسؤالِ الله عزّ وجلّ لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟

رأى بعض المُفَسّرين أَنَّ حرف النفي «لاَ» في عبارة ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ زائدة لتأكيد عدم سجود إبليس.

ولست أرى هذا الرأي صواباً بل قول الله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ جَارٍ على قاعدة التضمين القرآنيّة، ذات النظائر الكثيرَة، فيه، وهُنا ضُمّنَ فِعْلُ «مَنَعَ» معنى فعل «حَمَلَ» فعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ، فَأَغْنَتِ الْجُمْلَة عَنْ جُمْلَتَيْنِ، وَأَصْلُ الْكلام: مَا مَنَعَكَ أن تَسْجُدَ، ومَا حَمَلَكَ عَلَىٰ أن لا تَسْجُدَ؟

وبالتضمين الإيجازيّ البديع، جاءت العبارة: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ واختصاراً في التقدير نَقُول: ما منَعك فَحَمَلَكَ علىٰ ألاَّ تسجد، ولا مانع من تقدير فعل نظير فعل «حَمَل» كفعل «دَعَا» مما ينسجم مع عبارة «ألاَّ تَسْجُد». بهذه العبارة أبان الله تعالى أنه سأل إبْليس عن المانع له من السُّجود، وعن الحامل له على عَدَم السُّجود، واعتبار «لا» زائدة لا يستقيم مع كمال الإعْجاز القرآني.

﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: أي: وقْتَ أَمْرِي إيَّاكَ بالسُّجودِ مع مَنْ أَمَرْتُ من ملائكة الملأ الأعلى، الّذين دخَلْتَ فيهم، واعْتَبَرْتَ نفسك واحداً منهم، فأبان الله عزّ وجلّ في هذه الجلْسَةِ لإبْلِيسِ بهذا السؤال مخالفته لواجب طاعة العباد لربهم فيما يأمُرُهُمْ به أو يَنْهَاهم عنه، بمقتضىٰ أنّه إلٰهُهُم الذي يجب عليهم أَنْ يَعْبُدُوه، ومن عبادتهم الأولى له بَعْدَ الاعتراف له برُبُوبيّته وإلٰهيَّتِهِ، أَنْ يُطِيعُوهُ في أوامره ونواهيه، لكِنَّ إبليسَ لم يعتَذِرْ بأنّه لم يكن يَعْلَمُ أَنَّ أَمْرَ الله موجَّهُ له ضِمْنَ مَنْ هو مَعَهُمْ من الملائكة، بل أصَرَّ على عناده، ولم يُراجِع نفسه، وأعْلَنَ بهذا الإصرار أنّه غَيْرُ مؤمِنٍ بإلٰهيَّة الله له، وأنَّهُ مُعْتَرِضٌ على أمْرِ الله لهُ بِالسُّجودِ لآدَم، ولهذا الاعتراض لوازِمُ كُفْرِيَّة مُتَعَدِّدَة.

فبماذا أجاب إبليس ربَّهُ؟

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢﴾.

أي: لم يكُنْ أَمْرُكَ لي بالسُّجودِ لآدم أمْراً حَكِيماً، وليس من حَقِّكَ أَنْ تكلِّفَني أَنْ أَحْتَرِمُ بالسُّجودِ مَنْ هو أَدْنَى مِنِّي في العناصِرِ الَّتي خَلَقْتَهُ منها، فطبيعةُ النَّار الّتي خَلَقْتَني منها، أشْرَفُ من طبيعة الطِّين الّتي خَلَقْتَ آدم منها.

هذا الادّعاء من إبليسَ قائِمٌ على فِريَتَيْنِ، قاعِدَتُهما التوهُّم الباطل، ودافِعُهما الكِبْرُ وحُبُّ الاستِعْلاءِ ولَوْ بغَيْر حقّ.

الفرية الأولى: أنَّ من كان مَخْلُوقاً مِنْ عُنْصُرٍ أو عَناصر أشرف، كَانَ هو أشرف دواماً، ولو ظَهَرَتْ منه بعْدَ خَلْقِهِ قبائحُ ومنكراتٌ وأشياءُ خسيسَةٌ، لم تَظْهَرْ ممّنْ كان مخلوقاً من عناصِرَ أقلَّ قيمةً من عناصره التي خُلِقَ هو مِنْهَا، ولو ظَهَرَتْ منْهُ بَعْدَ خَلْقِهِ فَضَائِلُ ومزَايَا ومحاسِنُ عظيمة، لم يأتِ بِمِثْلِها ذُو العنصر الأشرف.

وهذه الفرية هي أساس الاسْتِعْلاءِ والاستكبار بالأعراق والأصول، القائم على ادّعاء التَّفَاضُل العرقيّ الذي يسري إلى الفروع، وفروعِ الفروع، ولو فَسَدَتْ ونجم عنها ضُرٌّ كبير، وشَرٌّ مُسْتَطِير.

الفرية الثانية: أنَّ عُنصُر النّار أشْرَفُ من عُنصُر الطِّينِ، وهذا ادِّعاءُ توهُّمِيٌّ باطل.

فالنار ذات نفع بحرارتها. لإنضاجها الأشياء، واستخدامها في منافع كثيرة، وذاتُ ضَرَرٍ عَظِيمٍ وخَطَرٍ جسيم، حينما تُحْرِقُ وتُتْلِفُ وتُهْلِك.

والطِّينُ ذو نَفْعٍ عظيمٍ جدّاً حينما يكون عُنْصُراً لإنْبَاتِ الزروع والثمار، وسائر نباتات الأرض النافعات للأحياء في غِذَائِهم، ودوائهم، ومصالح حياتهم الكثيرة، وحينما يكون بيئَةً صالحة لإمداد الأشجار الباسقات، حتّى تكون جنَّاتٍ وارفاتِ الظلال.

والطين لا يعطي عطاءَهُ العظيم حتّى يأْخُذَ حظَّهُ من الحرارة الناريَّة بالمقادير المحَدَّدَةِ في سُنَنِ التكوين الرَّبَّانِيَّة.

ومع حاجة كلّ من النّار والطين إلى العنصر الآخر منهما للتَّزاوج، في تشارُكٍ تكامُلِيٍّ، فإنَّ النسبَةَ النفعيَّة الّتي تُسْتَفَادُ من الطين أكثر من النسبة النفعيَّة الّتي تُسْتَفَادُ من النار، ومع هذا فلا يَصِحُّ اعتبار عُنْصُر الطِّينِ أشْرَفَ من عنصر النار، ولا العكس، لأنّ كُلًّا مِنْهُما في سُنَنِ الله التكوينيَّة لا يتحقَّقُ الانْتِفَاعُ به إلاَّ إذا امتزجَ بالآخر أو اتَّحَدَ به، ضِمْنَ المقادير النافعة غير الضارّة.

فتفضيل عُنصُرِ النار على عُنصُر الطِّين تفضيلٌ توهُّميٌّ باطل، دافعه النزعة الاستكباريَّة المنتِنَة، الّتي نفَخَتْ في صدر إبليس، فجعلَتْهُ يَعْصي رَبَّه، ويُكَابِرُ معانداً مُصِراً على المعصية، كافراً بحقِّ الرَّبِّ الّذي لا ربَّ في الوجود سواهُ، فهو وحده الإله الّذي لا يجوز أن يُعْبَدَ من دونه سواهُ، لا أَحْيَاء، ولا أشياء، ولا مفهوماتٌ فكْرِيَّةٌ، ومبادئ عقليَّة، ولا قوانِينُ تَسِيرُ على وفق أنْظِمَتِهَا ظَواهِرُ الخلْق.

إنّ الشَرَف الحقيقيّ للأحياء ذوي الإرادات الحرّة، الّذين يفعلون ما يشاؤون بإرادتهم، لا يكون بشرف الأصول فقط، بل يكون بما يَكْتَسِبُونَهُ من أَعْمَالٍ وصِفَاتٍ وأخلاقٍ ذَواتِ فَضْلٍ، وشَرَفٍ، ومَجْد، وهذا ما جعل ابْنَ الورديّ يقول في لاميَّته:

لاَ تَـقُـلْ أَصْـلِـي وَفَـصْـلِـي أَبَـداً   إِنَّـمـا أَصْـلُ الْـفَـتَـى مَـا قَـدْ فَـعَـلْ

والسجود المأمور به لآدم سجود تكريم طاعَةً لأمر الله، لا سجود عبادة، فالأمر بالسجود له أمْرٌ حَكِيمٌ، إذْ هو في الحقيقة إذْعانٌ لحكمة الخالق، كيْفَ لا وقد أخْضَع الله للإنسان بالتسخير ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، وهذا الإخضاع التسخيريّ أعظم من السجود التكريمي.

توجيه السؤال لإبليس في المجالس الثلاثة:

(١) في الجلسة الأولىٰ كان السؤال الموجّه لإبليس من ربّه، هو ما جاء في سُورة (الْحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

فتلطَّفَ الله عزّ وجلّ بإبليس وناداه باسمه، وسأَلَهُ عن عُذْرِه في أنْ لا يكونَ مع السَّاجِدِين من ملائكة الملأ الأعْلَىٰ الذي دسَّ نفسه فيهم، واعتَبَرَ نفسه واحداً مِنهُم.

(٢) وفي الجلسة الثانية كان السؤال الموجّه لإبليس من ربّه، هو ما جاء في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول):

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

فتلطَّفَ به أيضاً، وسألَهُ عن المانع لَهُ مِنَ السُّجودِ، مُبَيّناً لَهُ أنّ هذا المخلُوق قد اعتَنَيْتُ به عِنَايَةً خاصَّة، وكَرَّمْتُهُ فَخَلَقْتُهُ بيَدَيَّ.

وَوضَع الله إبليس أَمَام احتمالَيْنِ لا ثَالِثَ لَهُما:

الاحتمال الأول: أن يكون قَدِ اسْتَكْبَرَ بِغَيْرِ حَقٍّ.

الاحتمال الثاني: أنْ يكُونَ مِنَ الْعَالِينَ الَّذِين لم يُوَجّه الله لَهُمْ أَمْرَ السُّجُودِ لآدَم، لكِنَّ هذا الاحتِمالِ احتمالٌ ساقِطٌ، لأنّ إبليس يَعْلَمُ أنّ الله قَدْ أَمَرَهُ بالسُّجود مع ملائكة الملأ الأعلىٰ الّذين هو مندَسٌّ فيهم. أو أنْ يكون مُعْتَقِداً أنَّهُ من الْعَالِين في تكوينه، فَلَا يَلِيقُ به السُّجود لآدم.

(٣) وفي الجلْسَةِ الثالثة كَانَ السُّؤَال الْمُوجَّهُ لإبليس من ربّه هو ما جاء بيانُه في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ ... ﴿١٢﴾﴾.

فلم يتلَطَّفِ الله به، وخاطَبَهُ دُون أَنْ يَذْكُر اسْمه، وسأَلَهُ عن المانع له من السجود، وعن الحامل له على عدم السُّجود، وأبَانَ لَهُ أَنَّهُ قَدْ وَجَّهَ لَهُ الأمْرَ بالسُّجودُ، فمن حقّ رُبُوبِيّتِه لَهُ، أَنْ يُطِيعَهُ ويَعْبُدَهُ، وَلاَ يَجْحَدَ إِلٰهِيَّتَهُ له، وأن لا يتَّخِذَ إِلٰهَهُ هواه.

وكان جوابُ إبْلِيس علىٰ أَسْئِلَةِ رَبّه له في الجَلْسَاتِ الثلاثِ، ما جاء بيانه في سورة (الحجر) وفي سورة (صٓ) وفي سورة (الأعراف):

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾﴾.

فأصدرَ الله عزّ وجلّ الْحُكْمَ الختاميّ عَلَيْهِ بالإهباط وبالطَّرْدِ، وبأَنَّهُ مِنَ الصَّاغِرِينَ، وهُوَ ما جَاء بيانُهُ في الآية التالية من سورة (الأعراف):

● ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾.

لقد أصرَّ إبليس على كُفرِهِ بإلٰهيَّة الله له، الَّتي هي اللأزم العقليُّ لرُبوبيَّته له، فاستحقَّ الطَّرْدَ والإخراجَ من مواطن الملأ الأَعْلَىٰ من الملائكة، وجَعْلَهُ من الصَّاغِرِينَ.

وإصدار هذا الحكم الذي تضمَّنَتْهُ هٰذِهِ الآيةِ يقتضي كلاماً مطوياً قال الله لَهُ فِيه: كذَبْتَ، فَلَسْتَ خيراً مِنْهُ، وَلَسْتَ مِنَ العالين، بل أَنْتَ مُسْتَكْبِرٌ بغَيْرِ حقٍّ، جاحِدٌ إلٰهيَّةَ رَبّكَ لَكَ، مُتَمَرِّدٌ عَلَىٰ طَاعَتِهِ في أَمْرِ يخالفُ هَواكَ، فأَنْتَ كافِرٌ، والفاء الفصيحة في ﴿فَاهْبِطْ﴾ تدلُّ على هذا المحذوف المطويّ.

● ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾: **الْهُبُوط**: ضدُّ الصُّعودِ، يقال لغة: هَبَطَ يَهْبِطُ هُبُوطاً، إذا نزل من مَكانٍ مُرْتَفِعٍ إلى مكانٍ مُنْخَفِضٍ، ويُسْتَعْمَلُ في الماديَّاتِ، وفي المَعْنَويّات، كالهبوط إلى المَهَانَةِ والذِّلَّةِ والخسَّة. ﴿مِنْهَا﴾: أي: من مواطن ومنازل مَلائكَةِ الملأ الأعْلَىٰ، أي: فاهبط منها هبوطاً متوالياً إلى أدنىٰ المنازل.

﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾: أي: فَمَا أنت مُمَكَّنٌ من أَنْ تَتَكَبَّرَ وأَنْ تَبْقَىٰ في مواطنِ ومنازلِ ملائكةِ الملأ الأعْلَىٰ، وَبِمَا أَنَّكَ تَكَبَّرْتَ بِغَيْرِ حَقٍّ فَاهْبِطْ مِنْهَا، فَما يكون لك حُرِّيَّة أَنْ تَرْتَع في منازل الملائكة وتكون فيها من المتكبِّرين، إنَّها منازلِ الَّذين لا يستكبرون عن عبادة ربِّهم.

● ﴿فَاخْرُجْ﴾: هذا حُكْمٌ مُتَمِّمٌ للأمرِ بالهبوط، لأنَّ الإهباط لا يَسْتَلْزِمُ الإخراجَ الكُلِّيَّ، فجاءَ الأَمْرُ بالخروج الكُلّيّ بَعْدَ الأمْرِ بالهبُوط مُتَمِّماً للحكم الصادر ضِدَّهُ بالطَّرْدِ الكُلّيّ واللَّعْن.

وقد يفيد الأَمْرُ بالخروج، الْخُروجَ من كُلّ منازل الملائكة في السَّمَاءِ، ولَوْ لَمْ يَكونوا من أهل الملأ الأعلى، أيْ: فإذا بَلَغْتَ في هُبُوطِكَ إلىٰ أَدْنَى الحدود فاخْرُجْ منها خروجاً كلياً.

● ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾: هذه مادَّةٌ ثَالِثَةٌ مِنْ موادّ الحكْمِ عليه.

الصَّاغرون: جمْع «الصَّاغر» وهو الوضيع الذَّليل الحقير، ذو القيمة القليلة، أو الّذي لا قيمة له.

وجاء في سورة (الحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) بشأن الحكم على إبليس بالخروج، قول الله تعالى:

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾.

وجاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) قول الله تعالى:

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

وقد سبق في الملحق الرابع من ملاحق سورة (صٓ) بيان الحكمة مِنْ فُروق هٰذه العبارات، الّتي يُلائم كُلٌّ مِنْها مَجْلِسَ المحاكمة الّذي صَدَرَتْ فيه.

❁ ❁ ❁

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾:

لقد استعطف إبليس رَبّه في الجَلستين الأولى والثانية، فقال فيهما بَعْدَ إصْدَار الحكم عَلَيْه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

أمّا في الجلسة الثالثة التي كانت خَاتمةَ جلسات المحاكمة، فقد خاطب الله جلّ جلالُهُ بجفَاءٍ دُونَ أَنْ يقولَ لَهُ: ﴿رَبِّ﴾ بل قال: ﴿فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. لَقَدْ وَاجَهَ رَبَّهُ بخطابٍ مُمَاثِلٍ لخطَابِ الله له.

فكما قال الله له في هذه الجلسة الثالثة: ﴿..مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ...﴿١٢﴾﴾ دون أن يَتَلَطَّفَ به بِذِكْر اسْمه، كما فعل في الجلستين

الأولى والثانية. قال إبليس: ﴿أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ دون أنْ يقول له: «رَبِّ» فمع إلْحَاحِه بتكرار الطلب الّذي لم يُعْطِه اللّهُ مِنْهُ إلاَّ الإنْظَارَ إلَىٰ يَوْمِ الوقت المعلوم الَّذِي يُمِيتُ الله فيه جميع الأحياء، كما جاء في الجلْسَتَيْن الأُولى والثانية، فقد كانَ في الجَلْسَةِ الثالثة شَدِيدَ الوقاحة، فخاطب رَبَّهُ بأسْلُوبٍ لاَ يَكُونُ إلاَّ من النِّدِّ للنِّدِّ، فقال الله له: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾، أي: إنَّكَ منظرٌ مع الذين أُأَخر إماتتهم إلى وقت إنهاء ظروفِ الحياة الدنيا، فجميع المنظرين من كبراء الملائكة يميتهم الله عندئذ.

كان إبليس بَعْدَ الحكم عليه بالهبوط والخروج، واللَّعْنِ في كُلِّ جَلْسَةٍ مِنْ جَلَسَاتِ مُحَاكَمَتِه، يُمْعِنُ في إصراره عَلَىٰ إغواءِ آدم وزَوْجِهِ وذُرِّياتهما حَتَّىٰ يكونوا من أهل النار.

وَكان اللّهُ عزَّ وجلَّ به حَلِيماً رَحِيماً، بأنْ عقد لهُ ثلاث جلساتٍ لمحاكمته، لِيَتْرُكَ لَهُ فُرْصَةَ مُرَاجَعَةِ نَفْسِهِ، وَيَقْطَعَ عَلَيْهِ كُلَّ عُذْرٍ يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَذِرَ به مُستقبلاً، كَعُذْرِ أَنَّ الحكم عَلَيْهِ قد كان بمحاكَمةٍ مستَعْجَلَةٍ لَمْ تَتْرُكْ لَهُ فِيها فُرْصَةُ التَّرَوّي، لَعَلَّهُ يُراجع نفسه، أو أنَّه كان في حالَةِ اسْتِيَاءٍ وَغَضَبٍ أَخْرَجَتْهُ عَنْ وَعيه السّليم، فصَدَرَ مِنْهُ مَا صَدَرَ من عِنَادٍ وإصْرَارٍ على الاستكبار، ورفض طاعَةِ الله جلّ جلاله بالسجود لآدم.

ويترجَّحُ لدَيّ أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ بعد أنْ أصْدَرَ الحكْمَ علَيْهِ في الجلسة الأولى، وفي الجسلة الثانية، أعْلَمَهُ بأنَّهُ سيَعْقِدُ لَهُ جَلْسَة محاكَمَةٍ أُخْرَى، لِيُعِدَّ نَفْسَه للتَّوْبَة والاستغفار، وليراجعَ نَفْسَهُ عَسى أن يَتُوبَ الله عليه، ويرفَعَ عنه حكم الطَّرْدِ واللَّعْنِ المؤبَّدَيْن، لكنّ إبليس أصَرَّ على العناد والاستكبار، وجُحُودِ إلْهيَّةِ الله له.

كرَّر إبليس في هذه الجلسة الثالثة طلَبَ إنظارِه إلى يوم البعث، راغباً في أن لا يَذُوقَ الموتَ حتَّىٰ عنْدَ إنْهاء حياةِ كلّ الأحياء، لأنَّه كان يَعْلَمُ أنَّه

بَعْدَ البعث لا مَوْتَ للموضوعين في الحياة الدنيا موْضِعَ الابتلاء، فكأنَّهُ في هٰذا يَطْلُبُ الْخُلُود، ولو كان مَصِيرُه إلى عذاب جَهَنَّم الخالد.

وربّما كان يَتوهَّمُ أنَّ تَأْخِيرَ إماتَتِه إلى يَوْمِ الْبَعْثِ يُخْرِجُهُ من قانون الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء، بحيلة أَنَّ هذا يكون بَعْدَ البعث، وهُوَ مُنْظَرٌ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يُبْعَثَ، وربّما تَوَهَّمَ أَنَّ الله لو أَنْظَرَهُ لجادَلَ رَبَّهُ في موضوع حسابه، وفَصْل القضاء بشأنه، ومجازاته على ما كان منه في الحياة الدنيا.

❀ ❀ ❀

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾: أي: قَالَ إبليسُ خطاباً لِرَبِّهِ، فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي، أي: فَبِسَبَبِ ما حَكَمْتَ عَليَّ بالْغَوَايَةِ، لرفضي طَاعَةَ أَمْرِكَ بالسُّجُودِ لآدم، ولإصراري علىٰ هٰذَا الرَّفض.

«الفاء»تَفْريعيَّة، و«الباء» جارَّةٌ سببِيَّة، أي: فَبِسَبَبِ حُكْمِكَ عَلَيَّ بالْغَوَايَةِ. و«ما» مَصْدَرِيَّة، وهي الَّتي تُؤَوَّلُ مع الفعل الذي بَعْدَها بِمَصْدَرٍ، أي: فبإغْوائِكَ لي في حُكْمِكَ الصَّادِرِ عليَّ.

فالمرادُ بالإغواء الحكم به في مجلس المحاكمة، لا تقديره، ولا الإجبار عليه.

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾: أي: لأقْعُدَنَّ مُتَرَصِّداً مَسِيرَةَ كلّ واحِدٍ من ذُرِّيَّةِ آدم في حياته، لإغوائه وإضلاله، ملازماً صراطَك المستقيم، وهو الصراط الّذي يُوصِلُهُمْ إلىٰ مَرْضَاتِكَ، فَيَجْعَلُهُمْ مُسْتَحِقِّين أَنْ يَدْخُلُوا جَنَّتَكَ دَارَ النَّعيم الخالِدِ، بحَسَبِ وَعْدِك للمتقين من عبادك.

انْتَصَبَ لفظ «صِراطَ» لِتَضْمِينِ فِعْلِ «أَقْعُد» مَعْنَىٰ فعل «أُلازم» على أَنَّهُ مَفْعُولٌ به، فأغْنَىٰ هذا التَّضْمِينُ عن التصريح بجملَتَين، إذ الجملة الأولى حُذِفَ مَعْمُولُها، والجملة الثانية حُذِفَ لَفْظُ فِعْلِها، وضُمِّنَ الفِعْلُ المذكور معناه، والتَّقْدِير: لأقْعُدَنَّ عِنْدَ صِراطِكَ، مُلازِماً إيَّاهُ».

والتَّضْمِين ظاهرة قُرآنيَّة هيَ مِنْ عَناصِرِ إبداعِهِ البياني.

واللاَّم في: ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ واقعة في جواب قَسَمٍ محذوف، فيكون تقدير الكلام:

فبِسَبَب حُكْمِكَ عليَّ بالْغَواية، أُقْسِمُ لأقْعُدَنَّ لإغوائِهِم مُلازِماً صِرَاطَكَ المستقيم.

أبان إبليسُ بقُعودِهِ معنىٰ التمكُّن، وأضافَ إليه معنى الملازمة، فَتَمَّتْ لَهُ المرابطة بكامل عناصرها.

لم يكن لإبليس أن يُعْطِيَ الْعَهْدَ علىٰ نَفْسِه بهذه المرابطة، لولا أنَّه لاحَظَ ذُرِّيَّتَهُ الأبالِسَة، وجنودَهُ من شياطين الجنّ والإنس، بدليل قول الله عزّ وجلّ خطاباً للناس في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشُّعَراءِ/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشَأْن مَصِيرِ الْغَاوِين، والْمُشْرِكِينَ فِي الجحيم، وجُنُودِ إبليس أجمعين:

﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

إنَّ المرابطَةَ بتمكُّنٍ وَمُلازَمَةٍ وَتَرَصُّدٍ، هي أَوَّلُ شُرُوطِ أعمال الإغراء والإغواء، للإبعادِ والصَّرْف عن صراط اللّهِ المستقيم.

وقد اختار إبليس أن تكون مُرابَطَتُهُ عِنْدَ صراطِ الله المستقيم، لأنَّ مُهِمَّته صَرْفُ المتجهين لسُلُوكِه عنه، وإخراج السالكين فيه منه، أمَّا الآخرون السَّالكون في سُبلِهم المختلفة البعيدة عن صراط الله المستقيم، فإنَّهُمْ غاوُون بأنْفُسِهم، وَقَدْ كَفَوْا إبْلِسَ مُبَاشَرَةَ مِهِمَّةِ إغْوَائِهم، بل هم مُهَيَّئُون لأنْ يكونوا من جُنُودِهِ شياطين الإنْس، مع شياطين الجنّ الملازمين لهم.

وإبليسُ يَعْلَمُ أنّ صراطَ الله المستقيم يُوصل سالِكَهُ إلى سعَادَةِ الدُّنيا وسَعَادَةَ الآخِرَة، وقَدْ هَيَّأَ نفسه لإغراء ذُرّياتِ آدم وزوجه وإغوائهم، حتَّىٰ يَسْلكوا سُبُلاً مُنْحَدِرَةً مُجَافِيَةً لصراط الله المستقيم، وهذه السُّبُل توصِلُ سَالِكها إلى الشقاء وعذاب النار يوم الدِّين، مع ما فيها من نتائج وخيمةٍ في الدنيا، تَجْعَلُهُمْ تُعَسَاء في مشاعِرِهِمْ الدَّاخِلِيَّة.

وأمّا ما يُصِيبُونَهُ من لَذَّات، وتحقيق بعض أَهْواء نفوسهم، فَمَغْمُوسٌ بمصائب وأكْدَارٍ وهُمُوم، تَتْبَعُها حَسَرَاتُ أمْرَاضٍ ونَكَباتٍ.

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ . . . ﴿١٧﴾﴾.

شَمَائل: جمع «شِمال» مقابل «اليمن».

تنحصر أعمال الْمُغْوي الحريص على صَدّ السَّالِكِ عَنْ سبيل الله، وإخراج السَّالك فيه منه، وتوجيهِهِ لسُبُلٍ ضَالَّةٍ شَتَّىٰ، في أَرْبَعِ جهَاتٍ:

الجهة الأولى: هي جهة ما بين يَدَي السَّالك.

الجهة الثانية: هي جهة ما خَلْفَ السَّالك.

الجهة الثالثة: هي الجهة الواقعة عن يمين السَّالك.

الجهة الرابعة: هي الجهة الواقعة عن شمال السالك.

وأعمال الْمَغْوِي: إمّا أن تكونَ صَدّاً، وهذه تكون من الأمام.

وإمَّا أن تكونَ جذْباً ومَنْعاً من التقدّم، وهذه تكون من الخلف، وإمَّا أن تكون تحويلاً عن خطِّ السَّير، وهذه تكون عَنْ الأيمان، وعن الشَّمائل، والوسيلة هي التَّزيين لَهُم في الأرض من إفكارٍ، وأهْواءٍ وشهوات وغرائز، وهو ما جاء بيانه في النص الذي جاء في سورة (الحجر).

أمّا ما هو فوْق الصراط، أو ما هو تحته، فلا دفع ولا جذب يكون في أي واحد منهما، لأن موقع الصراط شاملٌ لما هو فوقَهُ ولما هُو تحته، فمن كان سَالكاً على صراط الله المستقيم، فكُلُّ عُلْو فوق أرضه هو منه، وكُلُّ عُمْقٍ تَحْتَ أرضه هو منه.

وبهذا أبان إبليس خُطَّتَهُ في الحصار الإغوائي، وطوىٰ النّصّ حرَكات الصّدّ والمنع والتحويل عن صراط الله المستقيم، لأنّها مِمَّا يُمْكِنُ فَهْمُهُ ذِهْناً.

فأصول الإغواء ترجعُ إلى ثلاثة أعمال في خُطَّة إبليس:

الأول: الصّدُّ من الأمام.

الثاني: المنْعُ والجذْبُ من الخلف.

الثالث: التحويل ذات اليمين، أو ذات الشّمَال.

وهكذا أعْلَن إبليس أصول خُطّتِه العامّة، لإغواء ذُرّيَّةِ آدَمَ وزَوْجه، عقب هذه الجلسة الثالثة من جلسات محاكمته.

وأعطاه الله عز وجلّ التمكين من التحرُّك لتنفيذ خُطّته، لِيَتِمَّ اخْتِبَارُ الإنسان في الحياة الدنيا على أحسن وجه، ولكن حدّد له إمكانات تحرُّكه، فَجَعَلَهَا لا تَصِلُ إِلَىٰ أَنْ يكون لَهُ على أحَدٍ مِنْ عِبادِ اللَّهِ سُلْطان.

● ﴿... وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾: أي: وقال إبليس لربّه بَعْدَ أَنْ أعْلَنَ أُصول خُطّتِه الّتِي رسمها، ولا تَجِدُ بعد قيامِي أَنَا وذُرّيّتي وجنودي

بإغواء ذُرِّيَّة آدَمَ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ، بَلْ تَجِدُ أَكْثَرَهم في نهاية رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا، كَفُورِين، يسْتَحِقُّون الخلُودَ يوم الدِّين في النار دار عذاب المجرمين.

شَاكر: اسْم فاعل، وهو يُطْلَقُ على من يكون منه شُكْرٌ ما ولو كان قليلاً، وأَقَلُّ الشُّكْرِ يكون بإيمان صحيح صادقٍ تُعَبِّرُ عنه كلمة «لا إلٰه إلا الله».

أمّا من لَيْس لديه أدنَىٰ شُكْرٍ لربّه فَهُو كَفُورٌ «صيغة مُبَالغة لكافر»، والكفور هو الّذي لَيْسَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إيمان.

ولهذا عَبَّر الله عزّ وجلّ عن المؤمِنِ، ولو من أدنى دَرجات الإيمان، بعبارة «شَاكِرٍ» وعبّر عن الكافر ولو من أخف دركاتِ الكُفْرِ بعِبَارَة «كَفُور» فقال تبارك وتعالى في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾.

أي: إمّا أن يكون بعد رحلة امتحانه شاكراً ولو من أدنى درجات الشكر بإيمان مقبول يُدْخل الجنَّة، وإمّا أن يكون بعد رحلة امتحانه كَفُوراً، ولو كان كُفْرُهُ من أَخَفِّ دركاتِ الكُفْرِ، وهو الكفر الذي يجعَلُه خالداً في عذاب النار.

ونتساءل: ما الّذي جعل إبليس يُخْبِرُ أنَّ خُطَّتَهُ ستَنْجَح في المستقبل، عَبْرَ تاريخ الإنسان في الأرض، فيَكُونُ أَكْثَرُهُمْ كَفُورِينَ لرَبِّهم؟

أقول: لقد كانَ هذا ظَناً مِنْهُ، مُسْتَنِداً إلىٰ ما رآهُ من عوامل ضَعْفِ تكوينه، وتأثير أهوائِه وشهواته وغرائزه على إرادته، وإمكانِ استهوائه بِهَا.

وربما قاسَ الإنسانَ على ما سَبَقَ أن عرفه من طبيعة الجنّ، ذوي

الإرادات الحرَّةِ، والأهواء والشَّهوات والغرائز، وهذه مُشَابِهَةٌ لمَا لدَىٰ الإنسان.

والدّليل على أنّ هذا قَدْ كان ظَنًّا من إبليس مستنداً إلى أماراتٍ لاحظَها، قول الله عزّ وجل في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/٥٨ نزول) في مَعْرِض الحديث عن سَبأ، ومعاقَبَتِهِمْ بالسَّيْل الْعَرِم، وتمزيقهم كلَّ مُمَزَّقٍ:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

● قول الله عزّ وجل:

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

وجّه الله عزّ وجلّ هذا الطَّرْدَ والذَّمَّ والدَّحْرَ، والوعيدَ بعذاب جهنَّم يوم الدِّين لإبليس ولمن تَبِعَهُ، بعْدَ أن أصرَّ إبليس على كُفْرِه بإلٰهيَّة الله له، وعلى عناده واسْتِكبارِه، وخاطب ربَّهُ بوقاحَةٍ كأنَّهُ نِدٌّ لَهُ وهو يَسْألُه بإلْحاحٍ أنْ يُنْظِرَهُ إلَىٰ يَوْم البعث الّذي لم يُجِبْهُ إليه، بل وَعَدَهُ بالإنْظَارِ مع المنظَرين إلى ساعَةِ إنهاء ظروف الحياة الدنيا، وبَعْدَ أن أعْلَنَ إبليس أُصول خُطَّتِهِ الْعَامّة الّتي رسمها للإغْراء والإغواء والإضلال والإبْعَادِ عن صراط الله.

● ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾: في هذه العبارة أَمْرُ إهانَةٍ وإذْلال بالخروج من كلّ المنازل التكريميّة، الّتي جعلَها الله لعباده من الملائكة المكْرَمين.

● ﴿مَذْءُومًا﴾: أي: مَذْمُوماً، مَعِيباً، مُحَقَّراً، مَخْزِياً، مَطْرُوداً.

يقال لغة: ذَأَمَهُ، أي: ذَمّه، وعَابَهُ، وحقَّرَهُ، وأخْزَاهُ وطَرَدَهُ.

● ﴿مَّدْحُورًا﴾: أي: مَدْفُوعاً مُبْعَداً بعُنْفٍ وإهانَةٍ وإذْلاَل.

يُقال لغة: دَحَرَهُ يَدْحَرُهُ دَحْراً وَدُحُوراً، أي: دفعه بعُنْفٍ وإهَانَةٍ وإذْلاَلٍ ليُبْعِدَه.

فالدَّحْرُ: هو الطرْدُ والإبْعَادُ المقْتَرِنُ بِدَفْعٍ فيه إهانة وإذْلال.

• ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾: أي: لَمَنْ تَبِعَكَ من بني آدم الذين عزَمْتَ علىٰ إغوائهم، ورسَمْتَ خُطَّتَكَ المحاصِرَةَ الشَّامِلَة لذلِكَ.

اللَّام في: ﴿لَّمَن﴾ ابْتِدَائِيَّة للتأكيد، أو موطئة لقَسَمٍ محذوف، هذان الْوَجْهان رَأيان عند النحويّين، والأوّل هو الأرجَحُ فيما أرىٰ.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: اللَّام في ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ واقعةٌ في جواب القسم المحذف، وهذا الجواب قد سَدَّ مَسَدَّ جوابِ الشرط في: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾.

جَهَنَّمَ: اسْمُ عَلَمٌ من أسْمَاءَ دَار العذاب يوم الدِّين، وهو ممنُوعٌ من الصَّرْف، للعلميَّةِ والتأنيث. ويُقَالُ للقَعرِ البعيد جَهَنَّم.

وجاء التأكيد بلفظ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لدفع توهُّم أنَّ بعض الذين يتبعون إبليس فيكْفُرُون بإلٰهيَّة الله عزّ وجلّ قد يَنَالُهُم العفو، فلا يَكُونُون من أهل جهنّم.

ممّا جاء في السُّنَّة حول ملْء جَهَنَّمَ بالكافرين:

(١) صحّ أنّ الله عزّ وجلّ يُعَظِّمُ أَجْسَادَ الكافِرِين في جَهَنَّم.

روى مُسْلِمٌ عن أبي هريرة قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «ضِرْسُ الكافِرِ أو نَابُ الكافِرِ مِثْلُ أُحُدٍ، وغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَة ثَلاثَة أَيَّامٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ».

(٢) وصَحَّ أَنَّ الجبَّار يَضَعُ قَدَمَهُ، فَيَنْضَمُ بَعْضُ جهَنَّم إلَىٰ بَعْضِهَا، حَتَّىٰ يكُونَ أهْلُهَا مَالِئِيها.

روىٰ البخاري عن أنسٍ عن النَّبِيِّ ﷺ قال:

«يُلْقَىٰ في النَّارِ، وتقُولُ: هلْ مِنْ مَزِيدٍ، حتَّى يَضَعَ قَدَمَهُ، فَتَقُولُ: قَطْ، قَطْ».

أي: حَسبي، حَسْبي، لقد امْتلأْت.

وروى مسْلمٌ عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال: «تَحاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بالمتكبِّرينَ، والْمُتَجبِّرِينَ، وقَالَتِ الْجَنَّةُ فَمَا لِي لاَ يدْخُلُنِي إلاَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَغِرَّتُهُمْ، قَالَ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ: إنَّمَا أَنْتَ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ من أَشَاءُ مِنْ عبادي، وقَالَ لِلنَّارِ، إنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادي، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُها، فأَمَّا النَّارُ فَلا تَمْتَلِئُ حَتَّىٰ يَضَعَ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ رِجْلَهُ، تقولُ: قَطْ، قَطْ، قَطْ. فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ، ويُزْوَىٰ بَعْضُهَا إلَىٰ بَعْض[1]، ولا يَظْلِمُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَداً، وأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقاً».

ولهذا الحديث رواياتٌ مُتعدِّداتٌ عند البخاريّ ومُسْلِمٍ وَغَيْرِهِما، ومَعَانِيهَا مُتَقَارِبة، منها المختَصَرُ، ومنها الْمُطَوَّل.

وممّا جاء مُطَوَّلاً منها، ما رَواهُ الترمذيُّ بِسَنَدِهِ عن أبي هريرة، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «يَجْمَعُ الله النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ:

أَلاَ يَتْبَعُ كُلُّ إنْسَانٍ مَا كَانَ يَعْبُدُ؟ فَيُمَثَّلُ لِصَاحِبِ الصَّلِيب صَلِيبُهُ، وَلِصَاحِبِ التَّصَاوِيرِ تَصَاوِيرُهُ، وَلِصَاحِبِ النَّارِ نارُهُ، فَيَتْبَعُونَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَيَبْقَىٰ الْمُسْلِمُونَ، فَيَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَيَقُول:

أَلاَ تَتَّبِعُونَ النَّاس؟ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ باللَّهِ مِنْكَ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، اللَّهُ رَبُّنَا، وَهٰذَا مَكَانُنَا حَتَّىٰ نَرَىٰ رَبَّنَا، وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ وَيُثَبِّتُهُمْ، ثُمَّ يَتَوارَىٰ، ثُمَّ يَطَّلِعُ فَيَقُولُ: أَلاَ تَتَّبِعُونَ النَّاس؟ فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، اللَّهُ رَبُّنَا، وَهٰذَا مَكَانُنَا حَتَّى نَرَىٰ رَبَّنا، وَهُوَ يَأْمُرُهُم وَيُثَبِّتُهُم.

---

(١) يُزْوَىٰ بَعْضُهَا إلَىٰ بَعْض: أي: يُضَمُّ بعضُها إلى بعض.

قَالُوا: وَهَلْ نَراهُ يَا رَسُولَ الله؟

قال: وَهَلْ تُضَارُّونَ في رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟

قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: فَإِنَّكُمْ لا تُضَارُّونَ في رُؤْيَتِهِ تِلْكَ السَّاعَة.

ثُمَّ يَتَوارَىٰ، ثُمَّ يَطَّلِعُ، فَيُعَرِّفُهُمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُومُ الْمُسْلِمُونَ، وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ، فَيَمُرّونَ عَلَيْهِ مِثْلَ جِيَادِ الْخَيْلِ والرِّكَابِ، وقولُهُمْ عَلَيْهِ: سَلِّمْ، سَلِّمْ.

ويَبْقَىٰ أَهْلُ النَّارِ، فَيُطْرَحُ مِنهُمْ فِيهَا فَوْجٌ، ثم يقال: هل امتلأت؟ فتقول: هل من مزيد ثُمَّ يُطْرَحُ فِيهَا فَوْجٌ فَيُقَالُ: هَلِ امْتلأتِ؟ فَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ إِذَا أوعِبُوا فيها[١]، وَضَعَ الرَّحْمٰنُ قَدَمَهُ فِيهَا، وَأُزْوِيَ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ[٢]، ثُمَّ قَالَ: قَطْ؟. قَالَتْ: قَطْ، قَطْ.

فإذَا أَدْخَلَ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وأَهْلَ النَّارِ النَّارَ، قَالَ: أُتِيَ بالْمَوْتِ مُلَبَّباً، فَيُوقَفُ عَلىٰ السُّورِ الَّذِي بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَطَّلِعُونَ خَائِفِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَطَّلِعُونَ مُسْتَبْشِرِينَ يَرْجُونَ الشَّفَاعَة، فَيُقَالُ لأهْلِ الْجَنَّة وأَهْلِ النَّارِ: هَلْ تَعْرِفُونَ هٰذَا؟ فَيَقُولُونَ، هٰؤُلاءِ وَهٰؤلاءِ: قَدْ عَرَفْنَاهُ، هُوَ الْمَوْتُ الَّذِي وُكِّلَ بِنَا، فَيُضْجَعُ، فَيُذْبَحُ ذَبْحاً عَلَىٰ السّورِ الذي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ لاَ مَوْت، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ لاَ مَوْتٌ»، قال الترمذي: هٰذا حديث حَسَنٌ صَحِيحٌ.

❁ ❁ ❁

---

(١) **أوعِبُوا فيها**: أي: أُدخِلُوا فيها جميعاً، يُقالُ لغة: أَوْعَبَ الشيْءَ في الشيء، أي: أَدْخَلَهُ فيه كُلَّه.

(٢) أي: جُمِعَ.

● قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

جاء هذا القولُ مُسْتَقْطعاً من الحَدَثِ الماضي للقصَّة، كأنّ الحدَثَ يَجْرِي الآن، وهذا مِنْ أبْدَع أسَالِيب الأداءِ البياني، يُعَلِّمُنا اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيه فَناً من فُنُون البيان الرفيع، مع ما قد يتضمَّن من دَلاَلاَتٍ يَكْشِفُهَا تَدَبُّر النُّصُوصِ المختلفة الأساليب، لدى دراسَتِها مجتمعة.

وقد دلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ عن طريق اللُّزُوم الذهْنِي على أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ خلَقَ لآدم زَوْجَهُ، وهي أُمُّنا حوّاء، وجاء في عدّة نُصُوصٍ أُخْرىٰ بيان أنّ الله تبارك وتعالى خلَقَ النَّاسَ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ، هي نَفْسُ آدَمَ عليه السَّلام، وأنَّهُ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَها، وأَنَّهُ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجها، وأنَّ هذا الْجَعْلَ قَدْ كانَ بَعْدَ مُدَّةٍ مُتَرَاخِيَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ لخلْقِ آدم، فقال الله عزَّ وجلّ في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) مُبَيّناً لعباده بعضَ ظواهِرِ خَلْقِهِ في كونه:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . . ﴿٦﴾﴾.

وجاء في بيان الرَّسُول ﷺ أنَّ أُمَّنا حَوَّاءَ قَدْ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ من أضْلاع آدم.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال: «اسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خيْراً، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْراً»[1].

ولاَ شَكَّ أَنَّ أَوَّلَ امْرَأَةٍ خُلِقَتْ هي زَوْجَةُ أَبِي الْبَشر آدم، فدلَّ هذا الحديث علىٰ أنّها خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ من أضْلاعه.

---

(١) انظر صحيح الجامع الصحيح للألباني ص٢٢٦ المجلد الأول.

وأورد ابنُ كثير، في كتابه «قِصَص الأنبياء»[١] قال: حكى السّدّي، عن أبي صالح، وأبي مالك، عن ابن عباس، وعن مُرّة عن ابن مَسْعُودٍ، وعن ناسٍ من الصّحابة، أنّهم قالوا: أُخرِجَ إبْلِيسُ من الجنّةِ، وأُسْكِنَ آدَمُ الجَنَّة، فكان يَمْشِي فِيها وَحْشِيًا لَيسَ لَهُ فِيهَا زَوْجٌ يَسْكُنُ إلَيْهَا، فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَ رَأْسِهِ امْرَأَةٌ قَاعِدَةٌ، خَلَقَهَا اللَّهُ مِنْ ضِلَعِهِ، فَسَأَلَهَا: مَا أَنْتِ؟ قَالَتِ: امْرَأة. قَالَ: وَلِمَ خُلِقْتِ؟ قَالَتْ: لِتَسْكُنَ إلَيَّ.

فقالَتِ الْمَلائِكَةُ يَنْظُرُونَ مَا بَلَغَ مِنْ عِلْمِهِ: مَا اسْمُهَا يا آدَمُ؟. قَالَ: حَوَّاء. قَالُوا: وَلِمَ كَانَتْ حَوَّاء؟. قَالَ: لأنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ شَيْءٍ حَيٍّ.

ونستطيع أن نستخلِصَ مِن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ أربَعَ قضَايَا:

القضية الأولى: أنّ اللّهَ عزّ وجلَ تَولّى بِنَفْسِهِ عَقْدَ تَزْويجِ بَيْنَ آدم وحَوَّاء، بقوله لآدم: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾.

القضية الثانية: أنّ الله عزّ وجلّ أسْكَنَهُما في بَيْتِ الزَّوْجِيَّة الْمُعَدِّ لَهُمَا ولِذُرِّيَاتِهِما المؤمنين باللّهِ الْمُسْلِمِينَ له، أمّا غَيْرُهُمْ فَلا حَظَّ لَهُمْ فيها.

وكان هذا الإسْكانُ الأوّل إسْكَانَ امْتِحَانٍ واختبار، لا إسْكَان خُلودٍ واسْتِقرار.

القضية الثالثة: أنّ الله عزَّ وجلَّ أحلَّ لَهما أَنْ يَأْكُلاَ مِنْ كلّ مَأكُولٍ فِي الجنَّةِ، ومن كُلّ مكانٍ من أمْكِنَتِهَا، وَحَرَّم عليهما في إقامتِهما الاخْتِيارِيَّة أنْ يَأْكُلا مِنْ شَجَرَةٍ خاصّة، عَيَّنَها لَهُما بِشَخْصِهَا أَوْ بِنَوْعِهَا، إذْ نهىٰ عن الاقتراب منها نَهْيَ تحريم، بدليل ترتب العقاب على الأكل.

---

(١) انظر الجزء الأول صفحة(١٩ ـ ٢٠).

دلَّ على هذه القضية: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾.

النهيُ عن الاقتراب أبلَغ من النهي عن الأكل، والأكلُ من ثمرتها ولو مع البُعدِ عن مغرسها هو اقتراب من جزء منها، والجُزْءُ من الشيءِ له حكم الكلِّ، ولأنّ الغرض من النهي عن الاقتراب النهي عن الأكل منها، بدليل الإذن بالأكل من غيرها.

القضية الرابعة: أنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ حَذَّرَهُما من مغبَّةِ مَعْصِيَتِهما إذا أَكَلَا من الشجرة الّتي حَرَّم عليهما أن يأكُلَا منها.

دلَّ على هذه القضيَّة: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. والْحُكْمُ بالظُّلْمِ يسْتَدْعي الْعُقُوبة، وكانت العقوبة الإخراجَ من الجنّة، وَجَعْلَ الأرْضَ هيَ مَسْرَحَ الامْتِحَانِ، فمَنْ آمَنَ وأسْلَم، اسْتَحَقَّ دُخول الجنَّةِ خَالِداً فِيها أَبَداً. وَمَنْ كَفَرَ برُبُوبيَّةِ الله أوْ بإلٰهيَّته وتمرّدَ على طاعة رَبّه كان خالداً في دار عذاب المجرمين.

ورحلةُ الامتحانِ في الأرض لآدم وزَوْجِه وَذُرِّيَاتِهما، رِحْلَةُ كَدْحٍ ومكابَدَةٍ وكشْفٍ لما في النُّفُوسِ، من إرادَةِ خَيْرٍ واعتراف بالحقّ، أوْ إرادَةِ شرٍّ وجُحُودٍ للحقّ واتّباعٍ للأهواء والشهواتِ وزينَةِ الحياةِ الدنيا.

● ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: من الظَّالِمِينَ لأنْفُسِكُما، إذْ تُسَبِّبُ لَكُمَا معصيَتُكما الإخراجَ من الجنَّة، والإهْبَاطَ إلى الأرض، وتَحَمُّلَ الكدْحِ والكَدِّ والعناء والمتاعبِ فيها.

❁ ❁ ❁

● قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

● ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: **الوسوسة**: تُطْلَقُ في اللُّغة على الصَّوْتِ الخفي، يُقَال لُغَةً: وَسْوَسَ يُوَسْوِسُ وَسْوَسَةً وَوِسْوَاساً.

والوَسْوَسَةُ، وَالوِسْوَاسُ: حَدِيثُ النفس، والاسْمُ منْهُ: الْوَسْوَاسُ بِفَتْحِ الواو، ويُطْلَقُ على الشيطان اسم «الْوَسْواسِ» لأنّه يُحَدِّثُ من داخل النفس.

وتُطْلَقُ الْوَسْوَسَةُ والوِسْوَاسُ على صَوْتِ الْحُلِيّ إذا تَضارَبَ بَعضُها ببعض. ويُطْلَقُ على هَمْسِ الصَّيّادِ الَّذِي يُخْفِي صَوْتَهُ لفظ «وَسْوَاس» بفتح الواو.

الشَّيطَانُ: يطْلَقُ لفظ «شيطان» على كلّ عاتٍ متمرّدٍ من الجنّ والإنْسِ والدَّوَابّ. وهو على وزن «فَيْعال» من فعل: «شَطَنَ، يَشْطُنُ شَطْناً» ويأتي هذا الفعل بمعنى: «بَعُد». تقولُ: شطَنَ عَنه، أي: بَعُدَ، وأشْطَنَهُ، أي: أبْعَدَهُ. ويأتي بمعنى: «شَدَّهُ بالشَّطَنِ». **الشَّطَنُ**: هو الحبْلُ الّذِي يُشْطَنُ به الدَّلْوُ من البئر، وكُلُّ حَبْلٍ، وقيل: هو الحبلُ الطويل الشديد الفَتْل، يُسْتَقَىٰ بِه، وتُشَدُّ به الخَيْلُ. ويُجْمَعُ علىٰ أشْطَان.

ومعْلُومٌ أنَّ إبليس ومن كان على شاكِلتِه يحمل وصفين:

الوصْفُ الأول: أنّه بَعِيدٌ عن الحقّ، مطرودٌ عن دائرة رَحْمَةِ الرَّحْمٰنِ الواسِعَةِ، وهو مُبْعِدٌ مَنْ يُغْوِيهم عن صراط الله بوسَاوِسِه وتَسْويلاته.

الوصف الثاني: أنّه يَشْطُنُ من يُغْويهم بأشْطَانِه أي: «بحبائِلِه المعْنَويّة» الإغرائيَّة، ويُدَلّيهم في آبار المآثِم والمهالِكِ لِيكُونُوا من أهْل جهنّم.

والوسيلة الّتي مكَّنَ اللّهُ عَزَّ وجلّ منها إبلِيسَ وجُنُودَهُ مِنْ شَيَاطِين الجنّ، هي الدَّعْوَةُ إلىٰ مَعْصِية الله، وإلى الابْتِعَادِ عن صراط الله المستقيم.

وحينَ تكونُ هٰذه الدَّعْوَةُ وَسْوَسَةً في الصَّدْرِ مِنْ مُحَدِّث غَيْرِ مَرْئِيٍّ، فَإنَّها تُشْعِرُ بأنَّها من قَبِيل حَدِيث النَّفْس لذاتِها.

وهذا أَدْعَىٰ للاستجابة، والانْدِفاعِ إلى ما تَدْعُو إليه الوسْوسة، باعْتِبار أنَّ الدَّاعِيَ شَيْءٌ من ذاتِ النَّفس، لا من جهة أُخْرَىٰ تأْمُرُ وتَنْهَىٰ وتُغْرِي.

وبعد أن حذَّرَنا اللَّهُ عزّ وجلّ من وساوس الشياطين، فإنَّنا نَعْرِف بتجاربنا كيْفَ تكُونُ وَسَاوِسُ الشَّيْطَان في صُدُورنا، إذْ نَشْعُرُ بأَنَّها مِنْ قَبِيل أحاديثِ النَّفْسِ الَّتي تَنْزِعُ بنا إلى الإثم والْمَعْصِية لله عزّ وجل، وتَنْصَرِفُ حين نذكُر الله ونَسْتَعيذُ به، وذَلِك بحَرَكَةِ خُنُوسٍ مُؤَقَّتٍ، وتَرْجِعُ إلى الوَسْوَسَةِ عند الغَفْلَة.

وَأَمَّا كيْفَ وسْوسَ الشيطانُ لآدَمَ وزَوْجه في الجنّةِ، فقضيَّةٌ من قضايا الْغَيْبِ الّتي لم يَرِدْ في النُّصُوص الإسلاميَّةِ الصَّحيحة بيانٌ عنها، فلا داعيَ لإيرَادِ إسْرائِيليَّاتٍ لا نَعْلَمُ مدى الصِّدْقِ في واحدٍ منها، ولا لإيراد أخبارٍ لَيسَتْ مَرْوِيَّةً عن المعصوم.

لكنَّنا عَلِمْنَا من دلالات نُصُوصِ القرآن المجيد، أنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ مَكَّنَ إبْلِيسَ من وسائلِ دَعْوَةِ آدَمَ وَزَوْجِهِ لمعصية ربّهما، حتَّى أكلا من الشجرة المحرّمة، ومكّن إبليس وجُنُود من شياطين الجنّ من وسائل دعوة ذُرِّيَّاتهما لمعصية الله حتَّىٰ أخسِّ دركات الكفر، دون أن يكون لهم سُلْطَانٌ على أيّ واحدٍ مِنهم، يُلْغِي إرادَتَهُ الحرّة، أمّا من كان غاوياً واتَّبَعَ الشيْطانَ فإنَّهُ هو الذي مَكَّنَ الشيطانَ من أن يكون له علَيْه سُلطان.

ولمَّا كان إسكان آدم وزوْجِهِ الجنَّة إسكانَ امْتِحَانٍ واختبار، لا إسْكانَ خُلودٍ واستقرار، كَانَ تمكين الله عزّ وجلّ لإبليس من أن يُوَسْوِسَ لهما بوسيلة ما، ولَوْ بدُخول الجنَّةِ دَخُولَ غَيْرِ ساكنٍ وَلا مُسْتَمْتع، امرًاً منسجماً مع الحكمة الرّبانيّة، ولا يَتنافىٰ مع قَضِيَّةٍ من قضايا صِفاتِ الجنَّة.

والاعتراضُ بأنّ إبليسَ طُرِدَ من الجنَّة، اعْتراضٌ غير وارد، لأنَّهُ ليس في النّصوص ما يُعَيِّن أنَّ طَرْدَ إبْليسَ قد كان طَرْداً من الجنّة، بل الاحتمال

الّذي تدُلُّ عليه سوابق النُّصوص ولوَاحِقُها ومفهوماتها العامّة، هو أنَّ طَرْدَهُ قد كان من منازِلِ الْقُرْب من الله الّتي يحْظَىٰ بها أهل الملأ الأعْلَىٰ من الملائكة.

والاعْتِرَاضُ بأنَّ من دخل الجنَّة لا يَخْرُجُ منها، اعْتراضٌ غير واردٍ أيضاً، لأنّ النُّصوص تثبتُ أنّ من دخل الجنَّةَ يَوْم الدِّين بعد الحساب، وفَصْلِ القضاء، وكَانَ دخولُه جَزَاءاً علَىٰ ما قَدَّم من عَمَلٍ في الحياة الدُّنيا، هو الذي يَكُونُ خالداً فيها، أمَّا من دَخَلَها دُخُولَ امتحانٍ واختبار، أوْ مكَّنَهُ الله من دخولها للاطلاع، أو القيام بعَمَلٍ من الأعْمَالِ المشْمُولَةِ بخُطَّةِ الله التكوينيَّة العامَّة، ولِتَحْقِيق حِكْمةٍ من حِكَم اللَّهِ في خلْقهِ، فإنَّهُ لا خُلُودَ له فيها، ما لم يَقْضِ اللَّهُ لهُ بالْخُلُود بقضاء خاصّ.

ولهذا أخرج الله آدم وحواء من الجنَّةِ لمَّا عَصَيَا، إذْ أَكَلاَ مِن الشجرة الّتي حرّم الله عليهما الأكْلَ مِنها.

ونتساءَلُ: ما موقع الّلام في عبارة: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ مع أنَّ فعل «وَسْوَسَ» لازمٌ لا يَتَعَدَّىٰ، إذْ هو بمعنى: أحْدَث همْساً خفياً، أو صَوْتاً خَفِياً يتضمّن حَدِيثاً.

أقول: إنَّ فِعْل «وَسْوَسَ» ضُمِّنَ مَعْنَى فِعْل «سَوَّلَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيته، فأغْنَتِ العبارة المختَصَرَةُ عَنْ جُمْلَتين، أي: وَسْوَسَ وَسَوَّلَ لَهُمَا.

التَّسْوِيل: التَّحسين والتَّزيين، والتَّحْبِيبُ بِالأمر. والإغراء به، وتهوينُه وتَسْهيلُه.

يُقالُ لغة: سَوَّلَ لَهُ الشيطان، أي: حَسَّنَ له وزَيَّنَ، وحَبَّبَ إلَيْهِ أَنْ يَفْعَل أو يَقُولَ مَا فِيه مَعْصِيَةٌ لله عزَّ وجلَّ.

فيكون المعنى: أحْدَثَ وِسْوَاساً، بِصَوْتٍ خَفِيٍّ، تَضَمَّنَ تَسْوِيلاً لَهُمَا، بتَحْسِينِ وَتَزْيِينِ الأَكْلِ من الشجرة الّتي حَرَّمَ الله عَلَيْهِما أَنْ يأْكُلا منها.

وجاء في النصّ الذي في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في معرض الحديث عن آدم وقصَّتِه:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾.

فجاء في هذه الآية استخدام حرف «إلىٰ» بدل حرف «اللاَّم» المستخدم في النصّ الذي من (الأعراف) وجاء فيها أيضاً الحديثُ عن آدَمَ وحْدَهُ منفرداً عَنْ زَوْجَتِه. فما الحكمة من هذا الإجراء؟

أقول: دلَّ ما جاءَ في سورة (طه) علَىٰ أنَّ الشَّيْطَانَ لَمْ يُوَسْوِسْ لآدم في أوّل الأمْرِ بصُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ، بلْ كانَ يَتَّخِذُ وَسَائِلَ بَعِيدَة عن الْوَسْوَسَةِ المباشرة، وهِيَ في آخِرِها تُحدِثُ الْوَسْوَسَة، دَلَّ عَلىٰ هٰذَا اسْتِخْدامُ حَرْف «إلى» المشعر بطُولِ المسافة بَيْنَ بَدْءِ الشيطان بحركَتِه وبَيْنَ حُدُوث الوسوسة، ودلَّ عليه أيضاً اسْتِخْدَام أسْلُوبِ العرض الاستفهاميّ في العبارة الإغرائية: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ فهي عبارة تثيرُ الشَّوْقَ إلَىٰ الْمَعْرِفَة، وليس فيها إشارةٌ ما إلىٰ الشجرة الّتي نَهَىٰ اللّهُ عزّ وجلّ عن الاقتراب مِنْها، وهذا العَرْض يُشْعِرُ بأنّ إبليس لا يَعْلَمُ شيئاً عن أنَّ الله حرَّم على آدم وزوجه أن يأكلا من الشجرة، فدلَّ على أنه خالي الذهن تماماً من هذا الموضوع، وهو كاذب ماكر.

فما جاء في سورة (طه) بَيَانٌ للمحاولة الأولى من محاولات الشيطان، تَلَتْهَا مُحَاوَلاَتٌ أُخْرَى في خُطُواتٍ شيطانيّة تَهْبِطُ في الدركات.

ولمَّا أَدْرَكَ الشَّيْطَانُ أنَّهُ قَدْ غَرَسَ في نَفْسِ آدم الرَّغْبَةَ فِي الظَّفَرِ بالخُلْدِ وبمُلْكٍ لا يَبْلَىٰ، اقتربَ شيئاً فشيئاً حتى صَارَ يُوَسْوِسُ لآدم وزوْجه بطَرِيقةٍ مباشرة، دون اسْتِخدام وسائل بعيدة، لقد اتخذ إبليس حيلة التشْويق للرّبط، حتى وقع على المغمز الملائم لِصيد الفريسة فأمسك به، وقد دَلَّ علىٰ هذا

ما جاء في سورة (الأعراف) وهو قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ . . . ﴿٢٠﴾﴾. وحين دلَّهما على الشجرة لا بُدَّ أن يكون آدم قد قال له: إن الله حرَّم علينا أن نأكل منها، فأبدى إبليس تعجُّبه من هذا النهي، ثم افترى فريَّته.

● قول الله تعالى:

﴿لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا. . . ﴿٢٠﴾﴾.

في هٰذه العبارة بيانُ أَحَدِ لوازم غَرَضِ إبْليسَ مِنْ وَسْوَسَتِهِ لآدم وزَوجِهِ، إنَّ غَرَضَهُ إيقاعُ آدَمَ وزوجه في معصية الله ربّهما، وإيصالُهما إلى دَرَكَةِ الكُفْرِ لَوِ اسْتَطاع، وبتَحقُّقِ هذا الْغَرَضِ يَشْفِي غَيْظَهُ مِنهُمَا وَمِنْ ذُرِّيَّاتِهما.

فَمِنْ ظواهر مَعْصِيَتهما بأكلهما من الشجرة المحرّمَة عَلَيْهِما تَسَاقُطُ ما كان يَسْترُ جُلُودَهُما من كُسْوَة عَلَيْها، وبتَسَاقُطِ هٰذِهِ الْكُسْوَةِ السَّاتِرَةِ تَنْكَشِفُ سَوْآتُهما، وتَظْهَرُ عَلَيْهِمَا آثارُ مَعْصِيَتِهِمَا، إذْ لِكُلِّ مَعْصِيَةٍ آثارٌ تَظْهَرُ بحَسَبِ سُنَنِ الله السَّبَبيَّة.

وكانَ إبْلِيسُ لَعْنَةُ الله عليه يَعْلَمُ أنَّ من آثار أكلهما من الشجرة المحرّمةِ تَساقُطُ أكْسِيَتِهما وَبُدُوُّ سَوْآتِهِما، الَّتي كانَتْ مَسْتُورَة بها، فيكونُ بُدُوُّ سَوْآتِهِما علامَةً ظاهِرَةً على مَعْصِيَتهما، وأنَّه اسْتَطَاعَ بوَسْوَسَتِهِ أَنْ يُغْوِيَهُمَا، ويَسْتَنْزِلَهُما إلى اسْتِحقَاقِ عِقَاب اللّهِ لهما، وإخْرَاجِهما من الجنَّة.

فجاءت الكنايَةُ في العبارة عَنْ غَرَضِهِ الحقيقيّ بِذِكْرِ أثَرٍ ظاهِرٍ من آثاره، وهو بُدُوُّ سَوْآتِهِما لَهُما.

● ﴿مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا﴾: أي: ما سُتِرَ وأُخْفِيَ عَنهُمَا بأكْسِيَةٍ سَاتِرَة لَمْ يأت في النُّصُوصِ بيانٌ عَنْها.

● ﴿مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾: السَّوْءَة، هي العَوْرَةُ، القُبُلُ والدُّبُر. وتُطلَقُ السَّوْأَةُ على كلِّ عَمَلٍ وأمْرٍ قَبِيح شَائِنٍ.

وَحِينَ تَظْهَر لَهُما سَوْآتهما ينكشفُ لَهُما أنَّ إبليسَ قد خَدَعُهما وغَرَّر بِهِما، وَكَانَ أقْوَىٰ منهُمَا بمُخَادَعَتِه وحيلَتِه، وأنَّهُ شَفَىٰ غَيْظَهُ من آدمَ، وأنه كان له العذر في رفضه السجود له، فليتحمل آدمُ وزَوْجه نَتَائجَ مَعْصِيَتِهِما إخراجاً مِنَ الجنَّة، كَمَا طُرِدَ هُوَ بِمَعْصِيَتِهِ من منازل أهل الملأ الأعلىٰ من الملائكة.

وبانْكشَافِ سَوْآتهما الماديّة تنكَشِفُ سوْآتهما النَّفسِيَّةُ المستعِدَّةُ للسُّقُوط في المعْصِيَة وارْتكاب الإثم.

لقد كان إبليس مُتَلَهِّفاً أنْ يَرىٰ أوّلَ ظاهِرَةٍ من ظواهِرِ معْصِيتِهما، وهي بُدُوُّ سَوْآتهما، وما يُصاحِبُه من حُزنِهما، وألَمِهِمَا، وَخَوْفِهما من الإخراج من الجنَّة، فقد سبَق أنْ حَذَّرَهُما الله من إبليس ومكايده، وقال لآدم كما أبان الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نُزُول):

﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾.

لكنَّ آدم وزَوْجَهُ قدْ غفَلاَ عَنْ هٰذا التَّحذِير، أو لم يَحْرِصَا علَىٰ استذْكارِه دَواماً، فأسْقَطَهُما إبليس بوَسَاوسِه وتَسْوِيلاته في المعصية.

● قول الله عز وجل:

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾.

الّذِي يظهر أنَّ إبليس قَدْ زَيَّنَ لآدَمَ وزوجه بوساوسه وتسويلاته الأكْلَ مِنَ الشجرة، وأنَّهُ قَدَّمَ لَهُمَا عدَّة إغراءاتٍ، إلاَّ أنَّهُمَا قَدْ كَانَا حَذِرَيْنِ فَلَمْ يَسْتَجِيبَا له، إلىٰ أن ظَفِر بمَغْمَزِ ضَعْفٍ لَدَيْهما، يسْتثير رغْبَتَهما في أنْ يكونَ

لهُما انطلاقُ الملائكةِ في السَّماوات بأجْسَادٍ نُورَانيَّةٍ، أوْ أنْ يَكُونا خالِدِينِ فيما هُما فيه من نَعِيمٍ في الجنَّة، إذْ كانَا يَعْلَمَانِ أنَّهُما في سُكْنَىٰ ابْتِلاءٍ، لا في سُكْنَىٰ دَوامٍ وبَقَاءٍ.

عندئِذٍ زَرَعَ الشَّكَّ في قُلوبِهِما حَوْلَ الْغَرَضِ من نَهْي اللَّهِ لَهُما عَنْ أنْ يأكُلاَ مِنَ الشجرة المحرَّمة، فجاء هذا النَّصُّ مُبَيِّناً هٰذِهِ الحيلَةَ الشَّيْطَانِيَّة، إذْ كان قد أشعرهما بأنَّه لا يعلَمُ شيئاً عن أنَّ اللَّهَ قد حرّم عليهما أن يأكلا منها، لولا أن علم ذلك منهما.

أي: وقال لهُما مَعَ ما قَدَّمَ لَهُما من إغراءاته وتَسْويلاته: ما نَهَاكُمَا رَبُّكُما عن الأكل من هٰذِهِ الشجرة، إلاَّ مَنْعَ أنْ تكونا مَلَكَيْنِ أوْ تَكُونَا من الخالِدِين.

ورُبّما قالَ لَهُمَا إنَّ الْمَلائِكَةَ لم يَصِيرُوا نُورَانِيِّينَ يَنْطَلِقُونَ في السّماواتِ بأجْسَادٍ نُورَانيَّة إلاَّ بعْدَ أنْ أكَلُوا مِنْ هٰذِه الشجرة.

هٰذِه هِيَ الفِكْرَةُ الإبليسيَّة القديمة المكَفِّرَة، الّتي تَجْعَلُ للأشْيَاءِ طبائعَ ذاتِيَّةً أصْلِيَّةً ثَابِتَةً، وأنَّ الله يَخْلُقُ مِنْ خِلالِها.

وَمَنْ يَسْقُطُ في أوْهَام هٰذِه الفكْرَةِ الباطِلَة، يَغْتَرُّ بأنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ قَدْ جَعَلَ تَصَارِيفَ خَلْقِهِ مُقَيَّدَةً بالأَسْبَابِ، مَعَ أنَّهُ هُو الّذي وَضَعَهَا بحِكْمَتِهِ في الأشْيَاءِ، لِيَمْتَحِنَ عِبادَهُ في الإيمان به خَالِقاً مِنْ قَنواتِ الأسْبَاب، وَأنَّ الأسْبابَ لَيْسَتْ إلاَّ أوْعِيَةً يَمُرُّ الْخَلْقُ الرَّبَّانِيُّ من خلالها، ولو شاء الله جلّ جلاله لخلَقَ ما شاء دُونَ أن يَمُرَّ خَلْقُه من ظَواهِرِ الأسْباب، وَلأوْجَدَ من الْعَدَمِ المطْلَقِ بكَلِمَة: «كُنْ» مَا شَاءَ مِنْ أكْوان، إنَّما أمْرُهُ إذَا أرَادَ شيئاً أنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ، فَهُوَ يكُونُ بأمْرِ التكوين.

إنّ إبليسَ لمَّا رفضَ السُّجودَ لآدَمَ عَلَّلَ رَفْضَهُ بأنَّ عُنْصُرَ النار بطَبِيعَتِها الذَّاتِيَّة أشْرَفُ من عُنصر الطين، فلَيْسَ من الحكمة تكليفُ مَنْ هُوَ أشرَفُ في عُنْصُرِه، أن يَسْجُدَ لمَنْ هُوَ فِي عُنْصره دُونَهُ شرفاً.

وفي تَسْوِيله لآدم وزوْجِه، زَعَمَ لَهُما كاذباً أنَّ عُنْصرَ الشَّجَرة المحرَّمَةِ، يُحَوِّل الآكِلَ مِنْهَا إلى مَلَكٍ نُورَانيّ يَعْبُرُ أقطار السَّماواتِ بخِفَّةِ الأنوار، أو الأَرْوَاحِ المجرّدة، أَوْ يجْعَلُهُ خالداً يَعِيشُ أبداً دُون أن يُدْرِكَهُ الموْتُ، وأَوْهَمَهُما أنَّ الله لا يُرِيد لَهُما أن يَكُونا ملكَيْن، أَوْ من الْخَالِدِين، فَحَرَّم عَلَيْهِما أنْ يأكُلا من هذه الشَّجرة، وأَلْقَىٰ في تَصَوُّرِهِمَا أَنَّهُ يُوجَدُ في الكون مَخْلُوقُونَ خَالِدُون، بقوله لهما: ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴾.

لا شَكَّ أنّ قَبُولَ هٰذِهِ الفكرة الشيطانية يوقع في إحدى معصيَتَيْنِ، هُما من أكبر الكبائر الاعتقادية.

فإنْ قَبِلا فِكْرَةَ أَنَّ الشَّجَرَةَ ذَاتُ عُنْصرٍ ذَاتِيٍّ فَعَّالٍ في أَنْ يَكُونا مَلَكَيْنِ، أَوْ يَكُونا مِنَ الخالِدِينِ، فَقَدْ جعَلاَ طَبَائِعَ الأَشْيَاءِ شُرَكَاءَ للَّهِ في كَوْنِهِ، وَمَا نَظُنُّ أَنَّ آدَمَ وَزَوْجَهُ قَدْ سَقَطَا فِي هٰذِهِ الكبيرَةِ الشِّرْكِيَّة.

وَإِنْ تَصَوَّرَا أنَّ الله عزّ وجلّ هُوَ الَّذِي جعَلَ في الشَّجَرَةِ هٰذِهِ الميزَةَ الخاصَّة، وأنَّهُ حرَّمَ عليهما الأكْلَ مِنْها لئلاّ يكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ يَكونا مِنَ الخالِدِين، فقَدْ وَقَعَا في غَفْلَةِ أَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِما، عَلِيمٌ بكُلّ حَرَكَةٍ يتَحرَّكَانِها، وكُلِّ سَكَنِةٍ يَسْكُنَانِها، وأنّه لَوْ كَانَ لِهٰذه الشَّجَرَةِ هذه الميزَةُ بخلْق اللَّهِ، واللَّهُ لا يُرِيدُ أَنْ يكونا مَلَكَيْن، أَوْ يَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، فإِنَّهُ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سلطانُه، لا يُمَكِّنُهما من الأكْل منْها، إذا أرادا مباشرة ذلك، أو يَسْلُبُ الشَّجَرَةَ مِيزَتَها، فإرادة الله تبارَكَ وتعالَى لا يُمْكِنُ مُعَارَضَتُها.

والَّذِي أَوْقَعَهُما في هٰذه الغفلَة شِدَّةُ رَغْبَتِهما بأن يكون ملكَيْن، أو بأن يكونا خالِدَيْن. ومعْلُومٌ أنَّ شِدَّةُ الرَّغْبَةِ تتحوَّلُ إِلَىٰ هَوىً، ومنْ شأْنِ الْهَوىٰ أنْ يُغَشِّيَ على مراكِزِ التفكير الصحيح، ويجعَلَ الإنسان يتصرَّفُ بمُوَجِّهٍ من رَغباتِ نفسه، لا بمُوَجِّهٍ من فِكْرِهِ وَعَقْلِه وإيمَانِهِ، ومن هُنَا يَسْقُطُ المؤمِنُونَ في أَوْحَالِ الْمَعَاصِيَ والْخَطَايَا.

ووَجَمَ آدَمُ وزَوْجُهُ عَنْ قَبُولِ مَا سَوَّلَ إبليسُ لَهما به، فَلَجأَ إبليسُ إلىٰ حِيلَة حَلِفَ الأَيمَانِ المُؤَكَّدَة، فَشَرَعَ يُقْسِمُ لَهُمَا بِرَبِّه كاذِباً، ويُؤَكِّدُ أَقْسَامَهُ، وَيَقُولُ لَهُمَا: إنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

فعل «قَاسَمَ» من الصِّيَغِ الّتي تَدُلُّ عَلىٰ المشاركة، ولكنَّها قَدْ تخرجُ عن هذه الدّلالة، للدّلالة على المبالغة والتّشدِيدِ، في مضمون الحدث الذي دلَّ عليه الفعل، والظاهر أنَّ عبارة ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ من هذا القبيل، أَوْ أَنَّهُما طَلَبَا منهُ أن يُقْسِمَ على ما ذكر لهما، فأقْسم كاذِباً مُفْتَرِياً، ولم يَكُنْ لآدم وزوجه خِبْرَةٌ سابقَةٌ بالكذّابين المنافِقين المفْتَرِين، لكنَّ الله عزّ وجلّ قد حذَّرَهُما من مكايِدِه بصُورَةٍ عامَّةٍ فلا عُذْرَ لَهُما.

ولم يكْتفِ إبليسُ بالتَّشدِيد في القَسم، بل شدّد أيضاً في تأكيد المُقْسَم عليه بعدّة مؤكّدات هي: «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزحلقة» في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

وعلى الرُّغم من كلِّ هٰذه التأكيدات فإنَّ آدم زوجَهُ لم يُسْرِعَا في الاستجابة لدَعْوَتِه وَتَسْويلاته.

فاتَّخذ إبليس معهما أسْلُوب الخُطَواتِ الإزلاقِيّة المتابعة، والتَّدْلِيَةِ شيئاً شيئاً في بئر المعصية، ومع كلّ مَرْحَلَةٍ من مراحلِ التَّدْلِية إغراءَاتٌ مِنْ مَنَابع التَّغْرِيرِ والخِدَاعِ والإِطْمَاعِ بالباطل.

دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ . . . ﴿٢٢﴾﴾،

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾: أي: فَبَعْدَ أَنْ شَدَّدَ في الحَلِفِ لهما، وأكَّد لَهُما أنَّهُ لَهُمَا لَمِنَ النَّاصحين، أَخَذَ يُنْزِلُهما شيئاً فشيئاً في بئر المعصية، أو مَهْوَاةِ

الْمَعْصِيَة، ليَجْعَلَهما عند حَدِّها تَماماً لَيْسَ بينهما وبينها إلاَّ الملامَسَةُ وعندئذٍ يَسْهُل جدّاً إزْلاقُهما، وإيقاعُهما في الزَّلَل.

يُقَال لغة: دَلَّىٰ الدَّلْوَ وأدْلاَه، أي: أرْسَلَهُ في البئر بشَطَنِه.

ويقال: دَلَّىٰ الشيْءَ في المَهْواةِ إذا أرْسَلَهُ فِيها.

ومعلُومٌ أنّ التدلية لا تكون رَمْياً أو قَذْفاً، وإنَّما تكون إرسالاً برفْقٍ شيئاً فشيئاً، وهذه هي وسيلَة الشيطان، إنَّها قائمة على أسْلوب الخطوات المتتابعاتِ تنازُلاً إلى الحضيض، أو إلى الدَّرْك الأسْفلِ من الجحيم.

إنّ الأديبَ الذَّوَّاقَ للعبارات الفنِّيَّةِ الأدبيّة، ليَجِدُ في عبارة ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ إبْداعاً بالغ الغاية، في المطابقة بين العبارة الّتي هي في غاية الإيجاز، وبيْنَ الفكرة المرادَة ذاتِ المرامي والأبْعَادِ الواسِعَة.

إنّ تَشْبيه عمليّة الإغواء ذي الخطوات المتتابعات في الانحدار بالتَّدْلِيَةِ في بِئْرٍ، أو فِي مَهْوَاةٍ من أَبْدَع التشبيهات وأبْرَعِها وأدَقّها.

واستعمال فِعْلِ «دَلَّى» كان على سبيل الاستعارة.

﴿بِغُرُورٍ﴾: الغُرُورُ، مَصْدَر «غَرَّهُ» تقول لغة: «غَرَّهُ يَغُرُّهُ غَرّاً، وغُرُوراً، وغِرَّةً»، أي: خَدَعَهُ وأطْمَعَهُ بالباطل.

«الباء» للملابَسةِ والمصاحبة، أو سَبَبِيّة. أي: دلاَّهما تَدْلية مصحوبة بغُرُور، أو تَدْلِيَةً بسبب الغرور الّذي كان يَغُرُّهما به.

فالمعنى: فأخذ إبليس يُنْزِلُهما في مَهْواةِ المعصيَةِ شيئاً فَشَيْئاً، تَدْلِيَةً مصحوبةً بأَسْبَابِ خِدَاعٍ منْهُ لهما، وإطماعٍ لَهُما بالباطل.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ . . . ﴿٢٢﴾﴾:

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾: أي: فَحِينَ ذاقا طَعْمَ مَأْكُولٍ ما مِنَ الشجرة. «لمَّا» حينيَّة ظرفية تختص بالماضي.

الذَّوَاقُ: هو الإِحْسَاسُ بطَعْم المأكُولِ أو المشروب.

﴿بَدَتْ لَهُمَا﴾: فعل «بدَا» جوابُ «لمَّا» الحينيَّة الظرفية.

﴿سَوْءَٰتُهُمَا﴾: أي: عوراتهما، بسُقُوط الأكسِيَةِ السَّاتِرة لهما.

وقد دلَّتْ عبارة: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ علىٰ أن نَزْعَ لِبَاسِهِمَا عَنهما وبُدُوَّ سَوْآتهما قد كان عَقِبَ تَذَوُّقِهما من الشجرة المحرَّمة عليهما مباشرةً، دون تأخير.

وكان هذا أوَّلَ مظْهَر من مظاهِرِ عُقُوبَتِهِمَا، قَبْلَ مُحَاكَمَتِهما على خطِيئَتِهما. وكَانَ علامَةً على أنَّهما سَيُخْرَجَان من الجنَّة.

ولكنْ هَلْ طَرَحَا مَا في أفْواهِهِما مِنها، عند مشاهدة أثر هٰذا الذّواق؟.

أقول: لقد دَلَّ ما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) علىٰ أنَّهما أتمَّا أكْلَ مَا ذَاقَاهُ منها، فقد جَاء فيها قول الله تعالىٰ: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا... (١٢١)﴾.

ويَظْهَرُ أنّ الْبُدُوَّ الّذي كان عَقِبَ الذّواق قد كان بُدوّا أوّلِيًا وجُزئيًا، وأنَّ الْبُدُوَّ الَّذِي كَانَ بعد الأكْل قد كانَ نهائيًا وكامِلاً.

ويظَهرُ أنّ لَذَّة طَعْم الشجَرَةِ غَلَبَت إرادتَيْهِما فأتَمَّا الأكل، ولم يَمْلِكَا أنفُسهُما لِلَفْظِ ما في أفْواهِهِما من الشَّجَرَةِ اكْتفاءً بما حصَلَ لَهُما من ذَوَاقٍ، واتّعَاظاً بِبُدُوِّ آثاره، بل تابَعا أكْلَ ما في أفواههما وابتلاَعَه.

- قول الله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ... (٢٢)﴾:

﴿وَطَفِقَا﴾: أي: وشَرَعَا آدَمُ وزوجُهُ. طَفِقَ: من أفْعالِ الشروع،

تَعْمَلُ عمل «كان» إلاَّ أنَّ خَبَرَهَا يَجِبُ أن يكون جُملَةً فعليَّةً من مضارعٍ مجرَّدٍ من «أَنْ» المصدرية، وفاعله ضمير يَعُودُ على الاسم قبله.

﴿يَخْصِفَانِ﴾: أي: يُلْصِقَانِ على جُلُودِ سَوْءآتِهِما من ورَقِ أشجار الجنَّة، لسَتْرِهِها.

واخْتَفَىٰ إبليسُ بعدَ أَنْ غَرَّرَ بِهما وَخَدَعَهُما، حتَّىٰ أوقَعَهُما في مَعْصِيَة رَبِّهما.

❁ ❁ ❁

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

في هذه الآيات بيَانُ مُسَاءَلَةِ اللَّهِ عزّ وجلّ لآدم وحَوَّاء بشأن مَعْصِيَتِهِما، وأكْلِهِمَا مِنَ الشجرة الَّتي حرَّمَ عليهما أنْ يَقْرَبَاها. وبيانُ مُحَاكمته لَهُمَا، وحُكْمِه عليهما بالإخراج من الجنَّة، وبالْهُبُوطِ إلى الأرض، وبأن تَكُونَ في الأرض رحْلَةُ امتحانهما، وامتحانِ ذُرِّيَّاتهما الَّذِين قَضَى اللَّهُ أن يتناسَلُوا منهما، وبأن تكون الأرض مستقرّاً ومتاعاً لهم إلى حين.

وأبان الله عزَّ وجلَّ لهما أنْ ذُرِّيَّاتهما سيكونُون في رحلةِ امتحانهم مُتَنافِسِين، مُتَحاسِدِين، مُتَخَالِفِين، فيكُونُونَ بسبب ذلك متَعادِين مُتَقَاتلين، بَعْضُهُم لبَعْضٍ عَدُوٌّ.

وخطابُ الله لآدَمَ وَحَوَّاءَ، قد كان مُوَجّهاً لَهُمَا، ولمن أَوْدَعَ فيهما من ذُرِّيَاتٍ سَتَتَناسَلُ منهما، حتَّىٰ آخِر مولُودِ إنسانٍ في الأرض.

● ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾: النّداء برفع الصوتِ وَمَدِّهِ إنّما يسْتَعْمَل لتبليغ الْبَعِيد، أو مَنْ هو مُنَزَّلٌ مَنزِلَةَ البعيد.

ويظْهَرُ أنّهما لمّا عصَيَا واكْتَشفا أثر المعصية ببُدُوِّ سَوْءَاتهما إبْتَعدا عن مكان شجرة الابتلاء الّتي أكلامنها، وأخَذَا يخصفان عليهما من ورَقِ الجنَّةِ اسْتِحْيَاءً من الله جلَّ جلاله.

فخاطَبَهُما الله بحسب حالة أنفسهما، فناداهُما.

● ﴿.. أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾:

اشتملت هٰذِه العبارة في جلسة محاكمة آدم وزوجِه على معصيتهما على استفهامٍ تَقْرِيرِيٍّ من شِقَّيْنِ، فيهما معنى الإنكار عليهما:

الأوّل: استفهامٌ لانتزاعِ إقْرارِهِما، بأنّ رَبَّهُما قد نَهَاهما عن الاقتراب من الشجرة المحرَّمَةِ، والأَكْلِ منها، وقد خالفا فاقترفا معصِيتهما.

والإجابة الصّادِقَةُ على هذا الاستفهام تكونُ بعبارة: «بلَىٰ» لأنّ الاسْتفهام مُسَلَّط علىٰ منفيٍّ، مع أنّه في الواقع لم يكُنْ منفيًا، بل كان أمْراً حقًّا، فقد نهاهما الله عزّ وجل عن أنْ يقْرَبَا مِنها، فخالَفَا نَهْيه.

الثاني: اسْتِفْهَامٌ لاتنزاع إقرارِهما، بأنّ ربّهُما قد حذَّرَهُما من إبليس الشيطان، ومِنْ مكايده، وأبَانَ لهما أنّه عَدُوٌّ مُبينٌ لَهُما، وأنّه سَيَسْعَىٰ بكلّ ما لَدَيْهِ من حيلة ووسيلة، لإسقاطهما في الخطيئة، التي تكون سبباً في مُعَاقَبَتِهما بالإخراج من الجنة. وقد ذكر الله إبليس باسمه الجديد: الشيطان والإجابة الصادقة على هذا الاستفهام تكون أيضاً بعبارة «بَلَىٰ» لأنّه مُسَلّط على منفيّ، والواقع لم يكن منفيًا، بل كان أمراً حقاً، وقد خالفا مقتضى التحذير فاستجابا لتسْويلاته فسَقطا في الخطيئة.

وطوى النصّ إجابتهما بعبارة «بلىٰ» إذْ جاء بَعْدَهُ ما يَدُلُّ على اعترافهما بذنبهما. وبإقرارهما بأنَّهُمَا عصَيَا، وبأنهما بمَعْصِيَتِهِمَا قَدْ ظَلَمَا أَنْفُسَهُما.

ومن الملاحظ أن الله عزّ وجلّ لمَّا نهاهُما عن الاقْتِراب من شجرة الابتلاء، ذكَرَهَا بلفظ الإشارة الموضوع للمشار إليه القريب، إذ قال لهما:

● ﴿. . وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾.

لكنه جلَّ جَلاَلُهُ في سُؤالِ مُحَاكمَتِهِمَا قَال لهما:

● ﴿أَلَمْ . . . أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ . . . ٢٢﴾.

فذكَرَها بلَفظِ الإشارة الموضُوعِ للمشَارِ إليه البعيد.

فدَلَّ هٰذا الإجراء البيانيُّ علَىٰ أَنَّهُما ابْتَعَدا بعْدَ الأكل منها، وانْكشَافِ سوْءَاتِهِمَا، عن مَوْقِعِ خطيئَتِهِما ابْتِعاداً يَصِحُّ معه أن يُشَارَ إلى الشجرة باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، ويَصِحُّ معه أن يخاطبا بالنداء الذي يكون للْبَعيد.

ومعلومٌ أن من طبيعة المذنب إذا ظهرت عليه بعض أمارات الذنب، أَنْ يَبْتَعِد عن المكان الذي ارتكب فيه ذنْبَه، وهذه الحركة تكون منه حركةً تلْقَائيَّةً تُوَجِّهُها البديهة دون أَنَاةٍ في التفكير.

ولم يَكُنْ من آدم وزَوْجِه في جلْسَةِ محاكمتهما إلاّ الاعترافُ لربّهما بأنَّهما قَدْ ظلَما أنفُسَهُما، وَأَلْحَقا الاعْتِرافَ بطَلَبِ مغْفِرَتِه ورَحْمَتِه، واستعطافه بأنَّهُ إنْ لم يَغْفِرْ لهما ولم يَرْحَمْهُمَا فإنَّهُمَا لَيَكُونانِ من الخاسِرين حتماً، لأنّ خطيئَتَهُما تقتضي خَسارَتَهُما بمقتضى أحكام العدْل الرَّبَّانية.

● ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٢٣﴾.

خاطبا الله جلَّ جلالُهُ بِرُبُوبيّته لهما، وعُبُودِيَّتهما له، انْكساراً وذُلاً

واستعطافاً، وأبانَا في اعترافِهما أنَّهما ظَلَما أنفُسَهُما، باعتبار أنْ مَعْصِيَتَعهما لم تضرَّ اللَّهَ شيئاً، بل هُما بمعصيتهما الجانيان، وهما المجنيُّ عليهما، إذْ عَرَّضَا أنفُسَهُما للعقوبة الّتي يخْسَرَانِ بها البقاء في الجنَّة، ويتَحَمَّلاَنِ بها متاعِبَ الشَّقَاءِ في رِحْلة الابتلاء في الأرض.

واسْتَجْدَيَا المغْفِرَة، ورَحْمَةً زَائِدَةً على المغفرة، بطريقةٍ مليئَةٍ بِالتَّذَلُّلِ والأَدَب مع رَبِّهما.

ورجَّحَا في هذا الموقف جانب الرَّجاء، باستعمال حرف الشرط «إنْ» الذي يُسْتَعمل في المشكوك فيه، فقالا: ﴿..وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فحرف «إنْ» دخل على الْمَنْفِيّ، وهذا المنفيُّ مَشْكُوكٌ فيه، فيكونُ نَقِيضُهُ مَرْجُوًّا، وهو المغفرة، والرَّحْمَةُ الزائِدَةُ عليها.

● ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾: هذه الجملة جواب الشرط «إنْ» وقَدْ جاءَتْ مُؤَكَّدَةً على تقدير وقوع الشرط وهو عدم المغفرة وعدم الرحمة، لكنّ وُقُوع هذا الشرط مشكوكٌ فيه، إذ المرجُوُّ أن يغْفِرَ اللَّهُ لَهما وَيَرْحَمَهُما.

﴿مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾: أي: من ضمن جماعات الخاسرين الّذين خَسِرُوا أنْفُسَهُم من قبلنا، كإبليس وسَائرِ كفَرَةِ الجنّ، ومن بعدنا من الجنّ ومن ذُرّياتنا من الإنس.

عندئذٍ أصْدَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ حُكْمَهُ عليهما:

● ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

وفي هذا الحكم الصَّادر عليهما، وعلى ذُرِّيَّاتهما الّذين سيتناسَلُون منهما، نَقْلٌ لرِحْلَةِ الابتلاء من الجنة، الْمُعَدَّةِ في الْخُطّة الربّانية لأن تكون إحدىٰ دَارَي الجزاء، إلى الأرض التي نحن الآن فيها، والمعَدَّةِ في أصل الْخُطَّةِ الرّبانيّة، لأن تكون هي مَكانَ الابتلاء.

وبإسكان آدم وزَوْجِه أوّلاً في الجنّة، أَعْلَمنا الله عزّ وجلّ عن طريق التَّجْرِبة، أنّ الحكمة تقضي بأنْ لا تكون الجنة هي دار الابتلاء والامتحان، بل يَنْبَغِي أن تكون دار جزاء فقط.

وأعلمنا أيضاً أنْ المسْكَنَ الدائم للإنسان الذي خَلَقَه في أَحْسَنِ تقويم هي جنّاتُ النعيم، بشرط أن يجتاز رحلة امتحانه بنجاحٍ، ولو من أدْنَىٰ الدَّرَجَاتِ، الّتي يكافَأُ عليها بأدنى درجات الجنّات، وشَرْطُ استحقاق دُخُولِ الجنة والخلودِ فيها هيّنٌ سَهْلٌ، إنّه الإيمان برُبُوبيّة الله لكونه، وبإلَٰهيَّتِهِ لعباده، دون أن يُشْرِكَ الممتَحَنُ مِنَ الْعِبَادِ بالله شيئاً في ذَلِك، مع قيامة بما يَدُلُّ على أَنَّهُ غير مُسْتَكْبِرٍ ولا مُتَمَرِّد على طاعته.

أمّا مَنْ أخلَّ من العباد الممتَحَنِين بهذا الشرط، فالحكمة تقضي بمعاقبته فِي دَارِ عَذابٍ مُعَدَّةٍ للكافرين المجرمِين الَّذين يُقْضَىٰ علَيْهم بأن يَخْلُدوا فيها.

ومن عصى غَيْرَ مستكْبِر ولا مُتَمرِّد علَىٰ طَاعَةِ رَبِّه في التكاليف العملّية، فإنه يسْتَحقّ الْعِقَابَ بالْعَدْلِ على مقادير معاصيه، إذا لم يَشْمَلْه عَفْوُ الله أو غُفرانه.

وبتقديم تَجْرِبةِ الامتحان في الجنّة والإخراج منها بالمعصية، يكْشِفُ اللَّهُ عزّ وجلّ لنا، أنَّ الحكمة الَّتي ينبَغِي أن يُعْمل بها دواماً، تقضي أن يكون الامتحانُ في مكانٍ ما أخر خارج الجنّة، لتكُونَ الجنَّة بعْدَ ذلك ثواباً وجزاءً لمَنْ يكونُ أهلاً للخلود فيها.

فالخلُودُ السّعيد لا يُكْتَسَبُ بالأكْل من شجرة، أو مادّةٍ مَا فيها إكْسِيرُ الخلُودِ السَّعِيد، وإنّما يكونُ بالعمل الإرَادِيّ الذي يَتَحقَّقُ به رضوان اللَّهِ رَبِّ الأكوان، والمهيْمنِ على كلّ شيء فيها بعلْمِهِ وحكمته وقُدْرَتِه، والمُجْرِي أحداثَها بقضائه وقَدَره وخَلْقه.

وهو الذي يمْنَحُ بحكمته الخلودَ السّعِيدَ، لِلَّذِين يجتازون رحلة امتحانهم على ما شرع لهم، من الذين وضَعَهُمْ موضع الامتحان، ليحاسبهم، ويَفْصِلَ القضاء بَيْنَهُم، ويجازيهم يوم الدين.

أمّا الّذِين قابَلُوا نِعْمَةَ الله وتفضيلهم في الخلْق وتكريمَهُ لَهُمْ بالكفران والجُحود، والاعتراضِ على حكمته في تكاليفه بمقتضى ربوبيته وإلّهيّته، فلهم دار عذابٍ مضادَّةٌ ومُنَاقِضَةٌ في صِفَاتِها لدار النعيم، وجزاؤهُم الخلود فيها، سواء أكانوا من الجنّ أم من الإنس.

إنّ إجراء تجربة الابتلاء في الجنّة، ثم الانتقال منها إلى الأرض، بعْدَ مَعْصِيَة الإنْسَانِ فيها، تُشبِهُ عَمَلِيَّاتِ النَّسْخِ في الأحكام التشريعية، الّتي يُعَلّمنا الله بها التّغيير في قراراتنا بحسب مُقْتَضَيات الحكمة، ويُعْطِينَا بها قُدْوَةً حَسَنَةً من أفْعَالِه الحكيمة جلّ جلالُه، حتَّىٰ لا نتَعَصَّبَ لقراراتِ وأحكامٍ نَبُتُّها، وحتَّى لا نَتَشَبَّثَ بها، إذا اكتَشَفْنَا ما هو خير منها وأفْضَلُ لتحقيقِ المطلوب، بل الواجب علينا أَنْ نُعَدِّل إلى الأصْلح دواماً، صاعِدِينَ عَلَىٰ دَرَجَات سُلّمٍ ارتقائي في أنظمتنا وتراتيبنا الإدارية، وأساليبنا الحضاريّة.

إذا كان الرّبّ العليم بكلّ شيء، والحكيم في اختياراته، ينْسَخُ في أحكامه، مراعَاةً لما هو الأحكم والأصلح، وليضرب لنَا مثلاً من نفسه، حتَّىٰ نَقْتَدِي به، فَمَاذَا يجبُ علَيْنا ونَحْن ذَوُو عُلُوم قاصِرَة، ونظراتٍ ضَعِيفَةٍ مَحْدُودَةٍ كَلِيلَة؟!!

● ﴿ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: خِطَابٌ لآدَم وزَوْجِهِ، وَذُرِّيَّاتِهِما فيهما، لأنّ مُصَغَّرات أنْسَالهما موجوداتٌ في ظَهْر آدَم، وعند حوّاء مصغّرات البيوض، بأعْجُوبة إعجازيَّة لاَ يقضي بتكوينها إلاَّ رَبُّ كُلِّ شيءٍ وخالِقُ كلّ شيء.

● ﴿ٱهْبِطُواْ﴾: أَمْرٌ تكوينيٌّ فيه إشْعارٌ بالعقوبة لهما، وبإجراء الأحْكَمِ بالنسبة إلىٰ ذُرِّيَّاتهما.

• ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾: جملةٌ حاليّةٌ، وهي من نَوْع الحال المقدّرة، أي: والحال أنّه سيكون بعضُكُمْ عَدُوّاً لبعض.

إنّ التكوينَ النفسيَّ للنّاس القائم على حُرّيّة إرادةِ الأفراد، وعلى اختلاف المصالح والأهواء والشهواتِ والمطالِب، وعلى تعارضها وتبايُنِها مع التّزاحُمِ والتنافُسِ وما في النفوس من تَحاسُدٍ، من شأنه أن تَظْهَر بَيْنَهم العداوات، وهي عَداوَاتٌ تكونُ بين الأفراد، وبين الجماعات الصغرى، ثمّ بين الأقوام والأمم، وهيَ تظهر في شتَّىٰ أنواع سلوكهم وتحركاتهم، حتَّىٰ تَصِلَ إلى مكايد كثيرة بينهم، وإلى خُصُومات شديدات، ثم إلى مقاتلات وحُرُوب كبرى.

وهكذا كان واقع حال الناس في تاريخهم الطويل.

ولَسْتُ أرى أنّ الشيطان له دخل في عموم: ﴿ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ إذْ قد جاء بيانُ عَدَاوَتِهِ لآدم وزوجه في قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾.

وفي غيره أيضاً، وخاطب الله الناس جميعاً بأنّ الشيطان لهم عدُوٌ مُبِينٌ في عِدَّة نصوص.

فالعداوة المرادة هنا هي العَداوَة بين الناس الذين تَنحدِرُ أَنْسَالُهُمْ من آدم وحَوّاء. والله أعلم.

• ﴿. . . وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤﴾:

اشتملت هذه الجملة على بيان الفقرة الثانية من المادّة الأولى من قرار الحكم. وهي تتعلّق بالمكان المنقول إليه، لاستكمال رحلة الابتلاء بالنسبة إلى آدم وحواء، وابتداء رحلة الابتلاء بالنسبة إلى كلّ موضوع مَوْضِعَ الامْتِحَانِ من ذُرّيّاتهما.

والمكان المنقول إليه هي الأرض التي نعيش عليها، والتي كان الله تبارك وتعالىٰ وجلّت حكمتهُ قد أعَدَّها إِعداداً ملائماً لظروف الامتحان الأمثل، بحسب خصائص الإنسان الجسديَّة، والفكريَّة، والنفسيَّة.

• ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: أي: مكَانُ اسْتِقرار مُؤَقَّتٍ، مُقَدَّر بإحكامٍ لسُكَّانِه، حتَّىٰ انتهاء آجالهم.

• ﴿وَمَتَٰعٌ﴾: المتَاعُ: كلُّ شيْءٍ يُنْتفَعُ به، ويُتَبَلَّغُ به، ويُتَزَوَّدُ، وغايته الفَنَاءُ والانْقِطَاع.

بخلاف «النّعِيم» الذي جاء وصفاً لما في الجنَّة من لذَّات وأنواع سعادات، فهو مُتَّجدِّد دواماً لاَ يَنْقَطِع، وليس لِتَوارُدِ أفراده نهاية، لأنَّ أهلها خالِدُون فيها.

• ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: أي: إلى زَمَنٍ مُحَدّدٍ بقضاء الله وَقَدَرِه، لكل فَرْدٍ في الحياة الدنيا، وللحياة الدنيا كُلّها.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

اشتملت هذه الآية على المادّة الثانية من قرار الحكم، فقد دلَّ بَدْؤها بفعل: ﴿قَالَ﴾ علَىٰ أنها مادّة ثانية من القرار الرَّبَّاني.

وقد خاطب الله عزّ وجل في هذه الآية أيضاً آدم وزوْجَه وذُرّياتهما وهم في عالم الذَّر.

﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾: أي: فيها تكون حياة ابتلائكم.

﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾: أي: فيها يكون مَوْتكُمْ، فلا تُنْقَلُونَ إلى كوكب آخر لاستكمال رحلة امتحانكم.

﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾: أي: ومن هذه الأرض تُخرجون يومَ بعثِكم للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاء.

وجاء في القراءة المتواترة الأُخْرَى: ﴿وَمِنْهَا تَخرجُونَ﴾ بالفعل المبني للمعلوم، وبين القراءتين تكامُلٌ فِكْرِي.

فقراءة ﴿تُخْرَجُونَ﴾ بالفعل المبني لما لم يُسَمَّ فاعِلُه دلَّتْ على أنّ الله جلّ جلالُهُ يُخْرِجُهم بالْبَعْثِ من الأرض التي قُبروا فيها.

وقراءة ﴿تَخرجون﴾ بالفعل المبنيّ للمعلوم دلَّت على أنّهم يُطَاوِعُونَ، فَيَخْرُجُونَ خُروجاً جَبْرِيًا، لا يَقْدِرُ أحَدٌ مِنهم أنْ يَعْصِي إرادة الخالق فيه.

وبهذا انتهى تدبّر الدرس الثاني
من دروس السورة والحمد لله على معونته وتوفيقه



(٧)
التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة وهو الآيات من (٢٦ ـ ٣٦)

قول الله عزّ وجلّ خطاباً لبني آدم:

● ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ

عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠) ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٣٦) ﴾.

تمهيد:

تضمَّن هذا الدرس فيما ظهر لي قصّةَ الدِّين الذي كان هُدىً لبني آدم الأولين، وقد اشتمل على الأسُس العامّة للدّين الّذي جاء به جَمِيعُ رُسُل الله من بعد آدمَ لأمَمِهم، وبلَّغهُ كُلُّ رَسُولٍ لأمَّتِه، وأخيراً خَتَمَ اللَّهُ بِهِ رِسَالاَته للناس أجمعين، بما أنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين، برسالة عامّة شاملة تامَّة، بَعَثَهُ الله بها للناس أجمعين بدءاً من بِعْثَتِه حتىٰ قيام السَّاعة.

ويظهر لي الربط بين الدرس الثاني وهذا الدرس الثالث، إذْ ألاحظ أن الدرس الثاني قد انتهىٰ ببيان أنّ آدم وحواءَ أهْبطا من الجنَّةِ عَارِيَيْنِ حِسِّيًا، بسبب خطيئتهما الّتي تعرَّيَا بها نفَسِيًا وسلوكيًا عما يَقِيهما من عقاب الله، إذْ سقَطَتْ عنهما بالمعصية وقَايَتُهما، وبَدَتْ لَهُمَا سَوْءاتُ إثْمهما، تأثُّراً بوساوس وتسويلات إبليس الشيطان، الّذي هُو عَدُوٌّ لَهُما وَلِذُرِّيَّاتِهما، فكانت مكايد إبليسَ الشيطانِ، هي السبَبَ الذي جعل إرادتَيْهما

الحرَّتَينْ تختاران ارتكابَ الخطيئَةِ، طمعاً في أن يكونا مَلَكيْن أو يكونا مِن الخالدين، كما وسْوَسَ لهما الشيطان، وقد تسبَّبَ ارتكابهما الخطيئة بالأكْل من الشجرة المحّرمة، في نَزْعِ أكْسِيَتِهما المادّيَّة عنهما، وكان هذا النَّزْعُ ظاهرة من ظواهر العقاب المعجّل لهما، قَبلَ مُحَاكَمَتِهما، وكان مُمَاثلاً لنَزْعِ لبَاسِ التقوىٰ عنهما، وكانَ سَبَباً في إخراجهما من الجنة إلى الأرض، لِيَسْتَكملا رحلة امتحانِهما عَلَيْها، ولتبدأ ذُرّيَّاتُهمَا رِحْلاَتِ امتحانهم عليها.

وقد جاء الدرسُ الثالثُ مُبْتَدئاً بِبَيَانِ بَدْءِ رحْلاتِ امتحان بني آدم بمنَّة الهدايةِ لصناعة الألْبِسةَ السَّاتِرَةِ للسَّوْءاتِ وسائر الأجْسَادِ، وصِنَاعَةِ الرِّيَاشِ، وهو الأثَاثُ الْفَاخِر وكلُّ ما فِيهِ رفاهيَةٌ لِلْعَيْش، والهداية لمَا يَقِي من عَذَابِ الله يوْمَ الدّين، من اعتقادٍ أو خُلُقٍ أو عمل ظاهرٍ أو باطن، وهذا الواقي شبيهٌ بالأكْسِيَة والدروع الواقية، والألْبِسَةِ السَّاتِرَةِ لِلْعَوْرَاتِ، وهو في الحقيقة خَيْرٌ وأعْظَمُ نَفْعاً للإنسان من الألْبسةِ السَّاتِرةِ للأجْسَادِ، والواقيَةِ لها من ضُرِّ الحرِّ والْبَرْدِ، وقُبْحِ انْكِشَافِ السَّوْءاتِ الجَسَدِّية، ذاتِ المناظِرِ المسْتَكْرَهَةِ، الّتي يَدْعو كشفُها إلى إشاعة الفاحِشَةِ، وتَسَافُدِ النَّاسِ كالبهائم المهملة.

وبعد المنَّة بهٰذيْنِ السِّتْرَيْن الواقِيَيْن المادِّيّ والمعنويّ، حذَّر الله عزّ وجلّ بني آدم مِنْ أن يَفْتِنَهم الشيطان، فيصُدَّهم أو يحوِّلهمُ عن صراط الله، حتَّىٰ لا يكونوا من أهل الجنة، بل من أَهْلِ النار، بعد رحْلَةِ الامتحانِ في الحياة الدنيا على الأرض، كما فعَلَ بأبَوَيْهِمْ، إذ أَوْقَعهما بحِيَلِهِ ووساوسِه وتَسوْيلاَتِه في الفتنة. حتَّىٰ سقَطا في معصية ربّهما، فكان السَّبَبَ في إخراجهما من الجنة عقوبةً لهما على مَعْصِيَتِهما الاختيارية.

وخاطب الله عزّ وجلّ في هذا الدَّرس بَني آدم، بكَثِيرٍ من الشرائع والأحكام الدِّينيّة، على سبيل الحكاية الْمُقْتَطَعَةِ مما خاطب به بني آدم

الأوّلين، منذ عهد آدم عليه السلام، أو إشعاراً بأنّ هذه التعليمات والبيانات قد تلقّاها بنو آدم الأوّلونَ، ممّا أوْحَىٰ الله عزّ وجلّ به إليه من هُدَى، باعتبارِ أنّ آدم عليه السّلام بعْدَ أنْ تَابَ الله عليه هَدَاهُ واجْتَبَاهُ، فهو أوّل نبيٍّ ورسولٍ للنّاس، يُبَلّغ هُدَى رَبّه وشرائِعَهُ وأَوَامِرَهُ ونواهِيَهُ لعباده.



التدبر:

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾.

في مَطْلِع هذا الدّرس يُشْعِرُ الله عزّ وجلّ بأنَّهُ قد خاطب جميع بني آدم، بدْءاً من أولاد آدم في عَصْرِه، حتّىٰ أَخِرِ ذَرَاريه، مُمْتَنًا عليهم، بأنّه قَدْ أَنْزَلَ عليهم لباسَيْنِ:

اللّباس الأول: هو اللّباسُ المادّي الذيّ يَسْتُرُونَ به أَجْسَادَهم ممّا يُؤْذيها، ويَسْترُ سَوْآتِهم، تجميلاً لَهُمْ وتَزْييناً وتَحْسِيناً، وحماية لَهُمْ ممّا يَشِينهم في عيون النَّاظِرين إليهم من الناس، وتَكريماً لهم عن أن يكونوا كالدَّوابّ والأنعام بَادِي السَّوْءَاتِ، وأَنْزَل عليهم رِيشاً وهو الفاخر من الثياب، والأثاث لمنَازِلهم ومَحَلاّتِ إقامَاتِهم، وحِلِّهِمْ وتَرْحَالهم، وما يكون وسيلة رفاهِيَتِهِمْ، في يَقَظَتِهِم وفي مَنامِهم.

اللّباس الثاني: هو اللّباسُ المعنويُّ الّذي يقِيهم بهَدْيِه وصِراطِه ومنهاجه ووَصَايَاهُ، شقاءَ الحياةِ الدّنيا، وعقَابَ الله فيها، ويَقِيهِم عذاب الله يوم الدين، إذَا عَمِلُوا به واتّبَعُوه، مؤمِنين مُسْلِمين.

وهذا اللّبَاسُ هو الدّين الذّي اصطفاه الله لعباده، فإذا لَبِسُوه وقاهم شقَاءَ الدنيا وعذابَ الآخرة، فكانَ لَهُمْ لِبَاسَ تقوى.

ـ كلمة «لِبَاس» من عبارة «ولِبَاسُ التَّقْوىٰ» قُرِئتْ في المتواتر بالرَّفع وبالنَّصب.

فالقراءة بالنصب تقتضي أنّ ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ﴾ معْطُوفَةٌ على ﴿لِبَاسًا﴾ من عِبَارَةِ: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾. فالمعنى: قد أنْزَلْنَا عليكم لباساً يُوارِي سَوْآتكم وأنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ رِيشاً لِزينتكم وتأثيثِ منازلكم، وأنْزَلْنَا عليكم لباسَ التقوىٰ وهو أحكام دينكم الذي تَقُونَ بارتِدائها والعمل بها أَنْفُسَكُمْ من شقاء الدنيا وعذابِ الآخرة، وتقون بها أنفسكُمْ من نقمته، وآثار معصيته الفاضحة.

والقراءةُ بالرَّفع تستَلْزِمُ مَحْذُوفاً مُقَدّراً جاء التصريح به في القراءة بالنَّصب، أي: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾. ولِبَاسَ التَّقْوى ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾. فتكون الجملة مُسْتَأْنفةً لبيان فضْلِ وَخَيْرِيَّةِ لِبَاسِ التَّقْوَىٰ المعْنَوِيّ على لِبَاسِ الْجَسدِ المادِّي.

شُبِّهَ العملُ بأحكام الدِّين بارْتِداءِ الألبسة علىٰ الأجساد، بجامع الوقاية في كلٍّ منهما، وأُطْلِقَ على أحكام الدِّين الذي اصطفاه الله لعباده لفظ «لِبَاسِ» على سبيل الاستعارة، وأُضِيف لفظ «لباس» إلىٰ التَّقْوىٰ المراد بها اتقاء عذاب الله بالعمل بأوامره ونواهيه ووصاياه، لتَمْييزِه عن اللّباس الذي يواري السّوْآت الجسَدِيَّة، والذي يَقِي من أذى الحرّ والْبَرْدِ، واللّباسِ الذي يقي من بأْسِ المقاتلين. كالدُّروع والمغافر ونحوها.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾: خطابٌ مُوجَّهٌ لجميع بني آدمَ المؤهَّلِين للخطاب، مُنْذُ بَدْءِ وُجُودهم في الأرض حتَّىٰ آخر كائنٍ مِنهم.

وقد دلَّ السِّياق في النصّ على أنَّ هذا الخطابَ قد أنزِلَ على آدَمَ مِنْ ضِمْن ما أُنزِل عليه من هُدَى.

- ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ﴾: أي: قَدْ مَنَنَّا عَلَيْكُمْ بعطَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ أَمراً من

أمْرِنا، نافِذاً على وفْق الأمْر، فألْهَمْناكُمْ وَعَلَّمْنَاكُمْ بما أَنْزَلْنا علَيْكُمْ وَخَلَقْنَا لَكم.

ولا يقتضي التعبير بالإنزال في القرآن أنَّ الشَّيء المنَزَّلَ كاللّباس والأنعام والحديد، قد أُنزلَ من السّماء، بل الْمَعْنَى أَنَّ عطاء الله لعباده كُلَّهُ إنْزالٌ من رحمته، بأمْرِهِ وقضائِه وقَدَرِه، ولو كانت مادّةُ ذلك الشيء مَوْجودةً في الأرْض بخَلْقِ الله قبل ذلك، إنّ الله جلّ جلالُه لَهُ الْعُلُوُّ دواماً، فكُلُّ مَا يَصْدُرُ عنه من رحْمَةٍ، وفَيْضِ عطاءٍ، أو تنفيذ جزاءٍ ولو بعقابٍ، هو إنزال من أَمْرِه، في أيّ موقع من الوجود كلّه.

● ﴿لِبَاسًا﴾: **اللِّباسُ**: ما يَسْتُر الجسم، من ثوبٍ ونَحْوِه، ولَوْ كانَ ساتراً لبعض الجسم كالرأس أو الأقدام أو العورة المغلّظة، لدفع الأذى والضرر، أو استحياءً من القبيح، أو للزينة، أو للإحصان من البأس كالدُّروع والمغافر.

أي: أَلْهمناكم وعلّمْناكُمْ أن تصْنَعُوا ممّا خَلَقْنَا لكم في الأرض لباساً.

● ﴿يُوَٰرِي﴾: أي: يُخْفي ويُغْطّي ويَسْتُر، يقال لغة: وارىٰ الشَّيْءَ يُوارِيهِ، أي: أَخْفاهُ، وغَطَّاهُ، وسَتَرَه.

﴿سَوْءَٰتِكُمْ﴾: أي: عَوْراتِكُم وهي الفروج وما حولها، سُمّيت العورة سَوْءَةً، لأنَّ النظر إليها يَسُوءُ الناظِرَ بِسبَب قُبْحِها، فهي مخرج الفضلات والقذارات.

قيل: إنّ جبريل عليه السّلام أتَى آدَمَ وحَوَّاءَ بَعْدَ أَنْ أَهْبِطَا إلى الأرض عاريَيْن، إلاَّ مَا خَصَفَا على سَوْآتِهما من ورَق الجنّة، فأعطاهما قُطْنا، وأمَرَ حَوَّاءَ أن تَغْزِلَ، وعلَّمها كيْفَ تَغْزِلُهُ خُيُوطاً، وأمَرَ آدم بالحياكة، وعلَّمَهُ كيْفَ ينْسُجُ الخيوط، حتّىٰ تكونَ صالحة لوِقَايَةِ الأجساد من ضُرّ الحرِّ، وضُرّ البرد، فكان هذا أوّل صناعة الألبسة، والله أعلم.

• ﴿وَرِيشًا﴾: أي: وأَنزَلْنا عليكم رِيشاً، فهو معطوف على ﴿لِبَاسًا﴾. **الرّيشُ في اللُّغَة والرِّيَاش:** يأتيان بمعنىٰ مَا ظهر من اللّباس، وبمعنى اللّباس الفاخر، وبمعنى الخِضْب، وبمعنَىٰ المال، وبمعنى الأثاث الذي تُفرَشُ به المنازل وتُزَيَّن. وبمعنى المعاش، وهو كُلُّ ما يُعَاشُ به. ومن حُسنِ التَّدبُّر أنْ يُحْمَل لفظ: «رِيشاً» هنا على كلّ المعاني التي يُطْلَقُ عليها، لأنّ كلَّ مَدْلُولات هذا اللّفظ ممَّا تفضّل اللّهُ به على بني آدم، وممّا امْتَنَّ به عليهم، وليس بعضها أولى من بعضٍ بالتخصيص.

لكنّ الله عزّ وجلّ أَفردَ امتنانهُ بنعمة اللّباس الّذي يواري السَّوْآتِ، ويسْتُرُ الفروجَ وما حولها. بقصد توجيه العناية للأدب الديني الّذي يأمُرُ بستّر العورات، والتذكير بأنّ المعصية الّتي كان من أوّل مظاهرها كشْفُ السَّوْآتِ لآدم وزَوْجِه في الجنَّة، كانت هي السَّبَب في إخراجهما منها، فعلَىٰ ذُرّيَاتهما أن يستُروا عَوْرَاتِهم إلاَّ عند الحاجة، وعليهم أن يؤمنوا برُبُوبيّة الله وإلَهيته. وأن يلتزمُوا طاعته في أوامره ونواهيه، حتَّىٰ لا تنكَشِف سَوْآتُ نفوسهم، وحتَّىٰ لا يُسْتَنْزَلُوا بالخطوات الشيطانية إلَىٰ كبائر الإثم، فالكُفْرِ بالله، فيُحْرَمُوا من دُخول الجنَّة، ويَسْتَحِقُوا دُخُول دَارِ العذاب يوم الدّين.

• ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ برَفع «لباس» ونَصْبِه على القراءتين. أي: وأنْزَلْنا عليكم يا بني آدم تعاليمات وأحكامَ لِبَاسِ التقوى المعنوي، التي هي هُدىً لَكُمْ، فهي تَقِيكُم إذَا آمَنْتُمْ بها واتَّبَعْتُموها في حياتكم شقَاءَ الدُّنيا، وعذابَ الآخرة، ومن العقوبة العاجلة فضيحةُ الإنسان بقبائحه وفواحشه الكاشفة لسَوْآت نفسه.

ولِبَاسُ التقوى هو الإيمان برُبوبيَّة الله وإلَهيته، وطاعَتُه في أوامره ونواهيه، واجتناب معصيته.

وأشار الله عزّ وجل إلى لباس التقوى بعبارة ﴿ذَٰلِكَ﴾: الموضوع

للمشار إليه البعيد، للإشعار بعلوّ مَنْزِلَتِه ورِفْعَتِها، وبُعْدِها في الدّرجات العاليات، وأبان أنّه خَيْرٌ من كُلّ لباسٍ يَقِي بِه النّاسُ أجْسَادَهم، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

• ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: ذلك الذي أنزلْنَاهُ على بني آدم من نِعَمِ الحياة الدُّنيا لمعايشهم، وما أنزلْناه عليهم من هداية في تعليمات الدّين الذي اصطفيناهُ لهم، هو من آيات اللَّهِ العظيمات، الدَّالَّاتِ على عظيم رحمته ونعمته وحكمته.

• ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾: أيْ: ونحن نَوَدُّ ونُحِبُّ لهم أن يضَعُوها في ذاكراتهم، وأن يَعْملوا بما تهديهم إليه، ممّا يحقّق سعادتهم في عاجل أمْرِهم وآجله، ولكننا لا نجعلهم مجبورين على ذلك، لأنّنا خلَقْنَاهم مُمْتَحَنِين مُخَيَّرِين، ذوي إراداتٍ حُرَّةٍ لنبلُوَهُمْ فيما آتيناهم.

❋ ❋ ❋

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾: هذا نداءٌ ثانٍ مُوجَّهٌ لجميع بني آدَمَ المؤهَّلِين للخطاب، مُنْذُ بَدْءِ وُجودِهم في الأرض حتى آخر كائنٍ منهم.

وهذا نظير النداء الأول، إذْ دلَّ السِّباقُ على أنّه قد أُنزِل على آدم من ضِمْن ما أُنزِلَ عليه من هُدىً.

• ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: صيغَةُ النَّهيِ المؤكّدَة بنون التوكيد الثقيلة، مُوجَّهَةٌ بحَسَبِ ظاهِرِ الاستعمال اللُّغويّ للشيطان، لكنَّ النَّهْيَ في

الحقيقة مُوجّهٌ لبَنِي آدم، والعبارةُ فيها محذُوفٌ مقدّرٌ ذِهْناً، وهي عَلَىٰ تقدير: لاَ تُمكّنُوا الشيطانَ من أَنْفُسِكُمْ حتَّىٰ تتأثَرُوا بِهِ فيَفْتِنَكُمْ، كما يَقُولُ القائِلُ لإنسانٍ دخَلَ بَيْتَ الأَسَدِ: لاَ يَأْكُلَنَّكَ الأَسَدُ، أي: خُذْ حِذْرَك منْهُ، ولا تُمكِّنْهُ مِنْ أَنْ يَنْتَهِزَ فُرْصَةً يفْتَرِسُك فيها.

[لا يفتنكم] أي: لا تمكنوه من أن يُغْرِيكُمْ بخداعه وغُروره، ووسَاوسِه وتسويلاته، حتَّىٰ يُضِلَّكُمْ عَنْ صراطِ ربّكم، فيوقِعَكُمْ في الغَوايَةِ، فتكونوا مِنَ الّذِينَ يُعَذَّبُونَ في النار جاء الفعل مؤكّداً بنون التوكيد الثقيلة للمبالغة في النهي، واسْتُخْدِمَ الفعل المضارع للإشارة إلى أن أعمال الشيطان دائمة التكرار والتجدد والمتابعة بدأب.

الفِتْنَةُ: هي في الأصْلِ الصَّهْرُ بالنار للْمَعدن، كالذهب والفضّة، لتمييز الرديء من الجيد، اختباره، تقول لغة: فتن الصائغ الذهب مثلاً، يَفْتِنُهُ فَتْناً وفُتُوناً، أي: أذابَهُ بالنار ليخْتَبِرَه.

ثم صارت مادّة الكلمة تَدُلُّ على مُطْلَق الابتلاء والامتحانِ والاختبار، وبما أنّ اختبار الإرادة إنّما يكونُ بما تكْرَهُ النفوس وُيخَالِفُ أهواءَها وَشهواتِها، فإنّ جِنْسَ الألَم الّذي يُحْدِثُه مسُّ النار باقٍ في دلاَلَة المادّة مع دلالتها على الاختبار والامتحان.

ومن التوسعات اللُّغَوِيَّةِ في دلالة هذه المادة اللُّغَويّة ما يلي:

● اطْلاَقُها على ما يُسبِّب الضَّلاَلَ فَيُوقِع في الخطيئة، التي يستَحِقُّ مُرْتَكِبُها العذاب، فينالُه ما يكْره، ومن هذا يقالُ: فَتَنَ الشيطانُ الإنْسَانَ إذا اغراهُ بوساوسه وتَسْويلاته، فاستجابَ لخِدَاعِهِ وغروره، حتَّىٰ أضلَّهُ فأغواه، فعَرَّضَهُ لعذاب الله، ولهذا يُسَمَّى الشيطان فاتِناً وفَتَّاناً، ولهذا يقال لكلِّ مُضِلّ فاتِنٌ وفَتَّان.

● إطْلاقُها على الضلال وارتكاب الإثم، لأن ذلِكَ يُعَرِّض لعقوبة الله، إلى غيرِ ذلك من إطلاقات.

• ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾: أي: كما فتَنَ أبويكم آدم وحوّاءَ فافْتَتَنا به فتسبَّبَ في إخراجهما من الجنة، إذ استجابا لإغراءاته فأكلا من الشجرة المحرّمة.

أي: يا بني آدم لاَ تمكّنُنَّ الشَيْطَانَ من أنفسكم، فَيَسْتَمِيلَكُمْ ويسْتَنْزِلكم في الدَّركاتِ، ويُدَلِّيكُمْ في مهاوِي المعاصي والأثام، بخداعه وغروره، ويصرفكم عن طريق الجنة، حتى يدفع بكم إلى عقاب ربّكُمْ، كما فَعَل بأبَوَيْكُمْ، إذْ أخْرَجَهُما من الجنّة.

• ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾: أي: إنّ إبليس الشيطانَ قد تَسَبّبَ عن طريق فتنةِ أبَوَيْكُمْ بإخراجِهِما من الجنَّة، حَالةَ كوْنِهِ يَنْزِعُ عنهما لباسَهُما.

دلّ الفعل المضارع «يَنزِعُ» على أنَّ إبليسَ كَرَّرَ مُحَاولاته بتَتابُعٍ وإلحاح لِيَنْزِعَ عَنْهما لِبَاسَهُما، فقد كان إبليس يَشُدُّ بحِيَلِهِ لِيَنْزِعَ، وهُما لاَ يَسْتَجِيبان، حتَّىٰ أَثَّرَ على إرادَتَيْهِمَا، فَضَعُفَتْ قُواهما، فسَقَطَا في الخطيئة، فأكلا من شجَرَةِ الاختبار الَّتي حَرَّمَهَا اللَّهُ عَلَيْهما.

• ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا﴾: أي: يستَمِيلُهما وَيَسْتَّهْوِيهِما ليَعْمَلا ما يكون سبباً في نَزْعِ لباسِهِما عنهما، وهو لباسُ التقوى، ولباسُ الْجَسَدِ، وهذا من إطلاقِ المسَبَّبِ، وهي عمليّاتُ النَّزْعِ، وإرَادَةِ السَّبَبِ، وهي الحيَلُ والوساوسُ والتسويلاتُ وألوان الخدع والتغرير لهما.

لقد كانَا وهما في الطَّاعَةِ لِرَبِّهما مَسْتُورَيْنِ بِلِبَاس التقوىٰ، وبِلباس الجسَد، السَّاتِرَيْنِ لِسَوْآتِهما النَّفْسِيَّةِ والْجَسَدِيَّةِ.

فَعَمِلَ الشيطانُ إبليسُ على أنْ يَنْزِعَ عَنهُما لباسَ التقوىٰ، بإسْقاطِهما في المعصية لِرَبّهما، الَّتي تَكْشِفُ لَهُما سَوْآتِهِما النفسيَّة، وتُظْهِر أنَّهما يَعْصِيان رَبَّها كمَا عصَىٰ هو ربّه.

وكان إبليسُ الشيطان يَعْلَمُ أنَّ نَزْع لباسِ التقوىٰ، مِنْ آثاره الّتي قضاها الله في خُطَّةِ اخْتِبَارِهِ لَهُمَا نَزْعُ لباسِ الجسَدِ عَنْهُما، الّذي تنكَشِفُ به سَوْءاتُهما عِنْدَ فُرُوجهما وما حَوْلها، فيكُون ذلك افتضاحاً ماديًّا لهُمَا بسُقُوطِهِما في مَعْصِية رَبِّهما.

فإذَا أراهُما سَوْآتهما الجسَدِيَّةِ والنفسيَّةِ، شفَىٰ غَيْظَهُ بإشعارهِمَا وإشعَارِ الملائكة أنَّهما لم يكونا أفضلَ منه، إنَّهُ سبَقَ أنْ عصَىٰ أَمْرَ رَبِّهِ له بالسُّجُودِ لأدم، وها هُما قد عَصَيا نَهْيَ رَبِّهما لَهُما عن الأكْلِ من الشجرة. إنّه طُرِدَ واسْتَحَقَّ عذاب النار خالداً فيها، فهو حريصٌ على طَرْدِهِمَا وذُرِّيَاتِهما واسْتحقَاقِهِمْ عذاب النار.

ويَبْدو أنَّ الرَّبط بيْنَ لِبَاسِ التقوىٰ النفسيِّ الإرادي السَّاتِر للسوْآتِ النفسيّة، وبين لِبَاسِ الجسَدِ السَّاترِ لِسَوْآتِ الْجَسَدِ، قد جِيءَ بِهِ للدَّلاَلَةِ على أَنَّ كُلَّ سُلُوكٍ إرَادِيٍّ باطِنٍ من خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، لَهُ أثَرٌ مَا يَدُلُّ عليه في ظَاهِراتِ الأجْسَاد، قد لا يُدْرِكُهُ إلاَّ أصْحَاب الفِرَاسَةِ الإيمانيّة، من المتقين والأبرار والمحسنين.

● ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾: أي: يـا بَـنـي آدم إنَّ إبليسَ الشيطَانَ يَراكُمْ هُوَ وقبيلُهُ من شياطين الجنّ، من أمْكِنَةٍ يكُونُونَ معكُمْ فيها، وأنْتُمْ لا تَرَوْنَهُمْ.

والسَّبَبُ في هذا أنَّ اللَّهَ جلَّتْ قُدْرَتُهُ وَعَظُمَتْ حِكْمَتُه، قَدْ جعَلَ أبْصَارَ الإنْسِ مَحْدُودة الرُّؤيَةِ، فهيَ لاَ تَرَى الهوَاءَ مثلاً، ولاَ تَرَىٰ أجْسَادَ الملائِكَةِ النورَانية، ولا أجْسَاد الجنّ الشفَّافَة النَّاريَّة بِحَسَبِ الْعَادة، ولا الحيواناتِ الدقيقة الصغيرة كالجراثيم، والميكروبات، والفيروساتِ، دون مُكبِّراتٍ مجهريّة لها.

وهذا من نظام اللَّهِ في خَلْقِ الإنْسِ والجنّ والْمَلاَئِكَة.

• ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾: أي: وجماعَتُه وجُنُودُهُ من الجنّ وذُرِّيَّته.

القبيل: هو في اللّغة؛ الجيلُ، والجماعَةُ، والأتْبَاعُ، والصنْف المماثل.

وفي إعلام الله عزّ وجلّ بني آدم بأنّ إبليس وجنودَهُ مِن شياطين الجنّ، يكُونُونَ مَعَهُمْ وَيَرَوْنَهُمْ، من حَيْثُ هم لاَ يَرَوْنَهُم، مَعَ أنَّهُمْ يُوسْوِسُونَ، وَيُسَوِّلُونَ، وَيَبْذُلُونَ ما يَسْتَطِيعُون لإغوائِهِم وإضْلالِهِم، تَنْبيهٌ لَهُمْ علَىٰ أنَّ خواطِرَ السُّوءِ، ونَزَغاتِ النفوس إلى المعاصي الَّتي يَشْعُرُونَ بها في داخِلِهم، تُشَارِكُ في إثارَتها الشَّيَاطِين، بما جعَلَ الله عزّ وجلّ لَهُمْ من تَمْكِينِ بحَسَبِ نِظَامِ خَلْقِهِمُ الفِطْرِيّ، لحكمة استكمال ابتلاء الناس على أحْسَنِ وَجْهٍ، وَأكْمَلِه.

• ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾: يتحدَّث البَاري جلّ جلالهُ بضمير المتكلّم العظيم فيُخْبِرُ بني آدَمَ جَمِيعاً مُنْذُ عَهْدِ آدمَ حتى آخر كائن من ذُرّيته صالح للخطاب، بأنّهُ قَدْ جعَلَ في نظام التكوين العامّ لِخَلْقِ الأحْيَاء ذوي الإرَادَات الحرَّة، الموضوعين موضع الابتلاء، أنَّ مَنْ لم يُؤْمِنْ منهم باللّهِ وبما جاء من عند الله على لسَانِ رُسُلِه، ولم يُؤْمِنْ بالجزاء الرَّبَّانيّ المعجَّل منه والمؤجَّل إلىٰ يومَ الدّين، كانت الشَّيَاطين أوْلياءَ له، أي: هي الّتي تتوَلَّىٰ بوساوسِها وَتَسْوِيلاتِها تُوْجِيهَهُ وَتَسْيِيرَهُ في الحياة، لأنّه تخَلَّىٰ بأرادته الحرَّة عَنْ حِمَاية الله له، وخَرَجَ من حِصْنِه بالكُفر، فتجد الشياطين فُرْصَتَها مواتية للعَبَثِ به وتَسْيِيره من خلال أهوائه وشهواته ولذَّاتِهِ من زينَة الحياة الدُّنيا، وهو يَحْسَبُ أنّهُ يتحرَّكُ في الحياة دُون أن يكُونَ من حَوْلِه مَنْ يُغْرِيهِ ويُغْويه من غَيْر المنظور، فهذا الجعْلُ هو جَعْلٌ في النظام السببيّ العَام، كجعْل النَّارِ تحرقُ من دخل فيها، وليس أمْراً جبريًّا لا اختيار للمكلف فيه.

ولا غرْوَ أنَّ من تَوَلّته الشياطين ساقته في مسالِكِ الغَواية، الّتي تَنْتَهِي به إِلَىٰ أنْ يكونَ في الجحيم يَوْمَ الدِّين، مع ما يَنَالُهُ من شقاءٍ وهُمومٍ وأكدارٍ وعذابٍ في الحياة الدنيا.

ومن تولّته الشياطينُ اتَّبَعَها مُطِيعاً لَهَا طاعَة العابِدِ للمعبُود، وقد أبان اللّهُ عزّ وجلّ أنَّ هذا اللَّوْنَ مِن الطاعَةِ لِلْمُوَسْوِس الغيبيّ عبادة، فحذَّرَ بني آدم من عبادة الشيطان.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول) مبيناً ما سَوْف يقولُهُ يوم الدِّين للّذِين كانوا يتَّبِعُونَ الشيطان في الحياة الدُّنيا:

﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ﴾: أي: أمة من الخلق وجماعة كثيرة من الناس.

﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾؟: أي: أَأَعْرَضْتُم عن الاسْتِماع لبيانات رِبّكُمْ، وتَحْذِيراته لكُمْ من الشيطان عَدُوّكُمْ، فلَمْ تكُونُوا تَعْقِلُونَ المعَارِفَ الدّينيَّة، فَتُمْسِكُونَها في ذَاكِرَاتِكُمْ للانتفاع بها والعمل بما أوصتكُمْ به، ولَمْ تكونُوا تَعْقِلُونَ بإراداتِكُمْ نُفوسَكُم عن اتّباع الأهواء والشهوات، واتّباع نَزَغَات الشيطانِ ووَسَاوِسِه ودَسَائِسِه وتَسْوِيلاتِه؟!! فنالُوا اليوم جزاءَكُمْ بالْعَدْلِ من رَبّكُمْ الذي وضعكم في الحياة الدنيا موضع الابتلاء.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

• ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾: قال أهل اللُّغة: الفاحِشَةُ القبيحُ من القول والفعل، وكلُّ خصْلَةٍ قبيحة. وكلُّ شيء جاوز قدْرَهُ وحدَّهُ فهو فاحش.

وقد نظرت في الاستعمالات القرآنيّة لهذه المادّة، فوَجَدْتُ أنَّها تدور حَوْل المحرَّمات الكبائر المتعلّقة بشهواتِ الفروج.

• ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾: أي: قالوا: وجَدْنا آباءَنا حالَةَ كَوْنِهم مُدَاومِينَ وَمُوَاظبينَ عليها.

• ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾: أي: وقالُوا افتراءً علَىٰ الله: واللَّهُ أمَرَنَا بها.

• ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾: أي: قل لهم يَا مُحمَّد، ويَا كُلَّ مناظرٍ لهم من حَمَلَةِ رِسَالَتِهِ من أُمَّته: إِنَّ اللَّهَ بصفاته الجليلة العظيمة، ومنْها حكمتُه البالغة، وعلْمُهُ المحيطُ بكُلِّ شيء، وإرادَته الّتي لا تأذَنُ بالضُّرِّ والشّرِّ والقبائحِ، لا يُمْكِن أن يأمُر بِالْفَحشاء، إِذْ هو منافٍ لكمال صفاته، فمن المستحيل أن يَصْدُر عنه شيءٌ من ذلك.

• ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾؟: أي: أتـقـولـون كَـذِبـاً على الله وافتراءً عليه، قَوْلاً لاَ تَعْلَمُونَ عِلْماً يَقينيًا أنَّهُ قالَهُ جلَّ جلاله؟!.

الاستفهام هنا استفهامٌ توبيخيٌّ لأصحاب هذا القول، وإنْكارٌ عليهم لكَذِبِهِمْ وافترائهم على ربّهم.

ويتساءلُ المتدبّر: ما هو وجْهُ الرَّبط بين هٰذه الآية، وبَيْنَ الآيتَيْنِ السّابقتَيْنَ لَهَا في هذا الدَّرْس؟

أقول: إذا تفكَّرْنا في أحوال بني آدم منذ بدء التاريخ البشري على الأرض، وجَدْنا أنّ أوّل داعٍ لمعصية اللّهِ في المحّرمات، هو داعي الفاحشة، ومعصيةِ الله عزّ وجلّ بالزنا.

وذلك لأنَّ وفرة ما في الأرض من رزقٍ ومطالب عيشٍ، مع قلّة

سُكّانها من بني آدم، لا تدعُ مجالاً للتنافس، حتَّىٰ تظهر المعاصي الأخرى، كالسَّرقة والعدوان على الحقوق، والظلْم وغير ذلك، حتَّى الشّركُ بالله لم تكن دواعِيهِ قد ظهَرَتْ، وإشراكُ الأسْباب لرُبُوبيَّةِ اللَّهِ لَمْ تُنْسَ بعْدُ عقوبتُه الَّتي أَخرجَتْ أبَوَيْهم من الجنّة، والقَتْلُ في أوّل البشريّة لَمْ يكن له داعٍ إلاّ داعي التنافس على مطالب شهوة الفروج.

ففي ذلك الوقت كانت النُّدْرَةُ والمنافسة المثيرة للتحاسُدِ مُنحَصِرَةً في مطالب الشهوة الحيوانية المتركّزَةِ في الفروج.

وهذا يَدُلُّنا على أنّ في مقدّمة ما نزلَ من نَهْيٍ رَبَّانِيٍّ تَحرِيميٍّ على بني آدم منذ بَدْءِ التاريخ البشريِّ على الأرض، النهيَ عن الفاحِشَةِ المتعلّقة بالسَّوْآتِ، ومنذ ذلك الوقْت نَزَلَ الأمْرُ بسَتْر السَّوْآتِ، وهي العورات المغلظة، حيثُ تكُونُ سُبلُ هٰذهِ الفاحشة، ليكونَ سَتْرُها علامةً على الموضِع الّذي يتركَّز في بُؤْرتِه التحريم، وليكون مساعداً على التزام العفَّة، فكشْفُ العورات، والاستهانَةُ بإبدائها للناظرين، الّذِين لدَيْهِم دوافع شهوة مُرْتبطَةٍ بها، يُشِيرُ لمُمَارَسَةِ تَلْبِيَةِ مطالب الشهوة، وهو بمثابة إعلانٍ بأنّ الأبوابَ مفتَّحَة، والسُّبُلَ إليها مُيَسَّرَة، وأنَّ الوَطَر لدَيْها مقضيٌّ باستضافَةٍ أو إباحَةٍ، ولا سيما إذا ظهَرَتْ فيها عَلَامات الرَّغبة.

ونزل تعليم بني آدم الأوّلين صناعَةَ أو استخدامَ الألبسة الساترة، من جُلود البهائم، أو مما ينْسَجُ من الخيوط، وجاء التركيز في بداية التعليم على مواضع السّوآت، للإشارة إلى أنّها مواضع أوّلِ تحريم دينيٍّ نزل على بني آدم مُنْذُ بَدْء تاريخهم على الأرض

وجاء التمهيد له في بيان نَزْع اللّباس عن سَوْآت آدم وحوّاء، لمَّا ذاقَا الشجرةَ المحرَّمَة في الجنّة، وهي الشجرة المعيَّنَةُ لامْتِحانهما. وفي بيانِ امتنان الله عزّ وجلَّ على بني آدم بإنزال اللّباس الذي يواري سوْءَاتهم بَعْدَ

هبُوط آدم وحوّاء إلى الأرض، وأتْبَعَهُ الله عزّ وجلّ بالامتنانِ بإنزال الرِّيشِ الشّامل في معناه العامّ لكلّ مطالب الحياة.

وتكاثَرَ بنو آدم على الأرض، وأخذ بعضُهُمْ يسْقُط في فاحِشَةِ الزِّنا، ثُمَّ شَاعَتْ هٰذِهِ الفاحشَةُ في كثِيرٍ منهم، وتوارَثُوها تَقْلِيداً، وكانوا يَرَوْنَها في أوّلِ الأَمْرِ من المعاصي، فلَمَّا صارَتْ تَقْلِيداً مُتوارَثاً، جَعَلُوها جُزْءاً من تقاليدهم الدينيّة، وَأَمْعَنَ الشيطان في إغوائهم، حتَّىٰ جعَلُوا مُمَارسَة الفواحِشِ من مُقَدَّسَاتِ الدّين، وظهرتْ لِعِبَادَةِ الْفُروجِ الممثَّلَةِ بأوْثَانٍ معَابِدُ في جبالِ الهنْد لهَا مَواسِمُ، وهي من التحريفاتِ الشيطانيَّة لأديانٍ قديمةٍ في تاريخ بني آدم، وظهَرَتْ طوائف بَعْد ذَلِك تَعْبُدُ فُروج النّساء.

فالّذي أراه أنّ في قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ . . (٢٨)﴾ إشَارَةً إلى انتشار الفاحشةِ في بني آدَمَ، حَتَّى صَارَتْ عَمَلاً متوارثاً، جعلَهُمْ يَقولون لمن يَعِظهُم باجْتِنَابِها، وينهاهم عنها: وَجَدْنَا آباءَنا بالتَّقْلِيد المتوارثِ عن آبائهم مُواظِبِينَ عليها، مضِيفين إلى هذا قولهم: واللّهُ أَمَرَنا بها افتراءً على الله.

ورُبَّما كانت حُجَّتُهم زَعْمَهُمْ أَنَّها لا تكونُ مُنْتَشِرَةً في أَجْيَالِ آبائهم وأَجْدَادِهم ما لَمْ تَكُنْ أَمْراً من أَوامِرِ الله، وجُزْءاً مِنْ تعاليم الدّين.

هٰذه ظاهرة من ظاهراتِ الجاهليَّاتِ الأولىٰ في بني آدم، القائِمَةِ على مَعْصِيَةِ الله عزَّ وجلَّ، فيما نَهَاهُمْ عنه بما أَنْزَلَ عليهم من أحكام الدين على آدم ثم على من جاء بَعْدَهُ من رُسُلٍ بَعَثَهُمُ الله لهداية الناس إلى صراطه المستقيم.

ولئلاَّ تَمُرَّ قصَّةُ هذه الظاهرة الشنيعة دُونَ تَعْقِيبٍ، قال الله عزَّ وجلَّ لرسوله محمَّد ﷺ:

﴿قُلْ . . إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ . . (٢٨)﴾.

أي: إِنَّ الفحشاء سَبيلٌ سَيِّئٌ قبيح، وله عواقب ضارّة في الأفراد وفي المجتمعات البشريَّة، ومن المؤكَّدِ الذي لا مجال فيه للشّكّ أنّ اللَّهَ الْعَلِيم الحكيم لا يأمُرُ بالْفَحْشاء.

ولـمَّا كان في المخاطَبِين من أهل الجاهليَّة في عَصْرِ الرَّسُول محمد ﷺ مَنْ يقولون مثل مقالة أهل الجاهلياتِ القديمات، علّم الله جلّ جلالُه رسُوله أن يقول لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ وعلَّمَهُ أيضاً أن يقول لهم مستنكراً ومُوَبِّخاً: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟!!

أي: أتقولُونَ ما لا تعلمون بوسائل إثباتٍ صَحِيحةٍ كذِباً وافتراءً على الله: إِنَّ الله يأمُرُ بالفحشاء.

في هذه العبارة توجيه السؤال لهم بأسْلُوب الاستفهام الإنكاريّ التوبيخيّ، ومعناه الإنكارُ عليهم، وتَوبيخُهُمْ على مقالتهم الشنيعة على الله، الَّتي ليس لدَيْهِم عِلْمٌ مَا بأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قد قالها.

أمّا فِعْلُ آبائهم للفاحشة حتَّىٰ صارت من الظواهر التَّقْلِيديَّة في مجتمعاتهم الجاهلية، فهو لا يَصْلُح لأنْ يكُونَ دليلاً علَىٰ أنّ الفحشاءَ من أوامر الدِّين لدِينٍ صَحِيحٍ مُنَزَّلٍ من عند اللَّهِ عزّ وجلّ، بل هو من الظواهِرِ البشريَّة التي انحرفَ النّاسُ فيها عن الدِّين الرَّبَّانيِّ الصَّحِيح، واستحبَّتْهَا نفوسُهم لأنّها تُعْطِي شهواتِهم انطلاقَها دُونَ قيودٍ ولاَ حُدُودٍ.

ومِنْ بؤرَةِ شهوات الفروج الحيوانيَّةِ، يَسْتَغِلُّ شياطينُ الجنِّ والإنْسِ مغامِزَ الضعف البشريّ لإخراج الناس عن صراط الله المستقيم، ويُزَيِّنُون لهم ذلك بما يُسمُّونَهُ بنظريَّاتٍ علميَّةٍ نفسيَّة، أو اجتماعيَّة، أو اقتصاديَّة، أو فلسفيَّة، وبما يُقَدِّمونَه من أكاذيبَ تارِيخيَّةٍ أو دينيَّة، أو غير ذلك، عدا ما يُهيِّئُون لهم من بيئاتِ إثارةٍ وإغراءٍ واستنزالٍ إلى الخطيئة، ومَعْصِيَةِ الله جلّ جلالُه.

وإذْ قد ثبت أنّ التَّقْليد المتوارَث، لا يَصْلُح لأن يكونَ دليلاً على أنّه من مَوْرُوثاتِ الدِّين التي أمر الله بها، إذْ لا يتضمَّنُ الفِعْلُ المرتَبِطُ بالشَّهَوات أيَّ دليلٍ علْمِيٍّ يَجْعَلُ الأَمْرَ المتَّفَق على ممارَسَتِه من أوامِرِ الله عزّ وجلّ، فلَمْ يبقَ أمَام مُدَّعي هٰذِه الدَّعْوَىٰ إلاّ أَنْ يُقَدِّمُوا دليلاً مِنْ نصٍّ دينيٍّ صَحيحٍ، عن رسُولٍ من رُسُلِ الله، أو كتابٍ ثابتٍ لَمْ يُحَرَّفْ من كُتُبِ اللّهِ عزّ وجل، أو دَليلاً عَقْلِيًّا قاطعاً.

لكن أحداً لا يملك أن يقدم دليلاً دينياً صحيحاً، ولا دليلاً عَقْلِيًّا قاطعاً.

بل الأديانُ الرَّبَّانيّة كُلُّها، والكُتُبُ المنزّلَةُ من عِنْدِ اللّهِ كُلُّها، تَنْهَىٰ عَنْ فَاحِشَةِ الزّنا، وعن سائر فواحِشِ الفروج.

والدَّلِيلُ العقلِيُّ القائِمُ على دراسة الآثار الضّارّة والمفسدة للحياة الإنسانيّة في الأرض للفواحش، يُثْبِتُ أنَّ الله جلَّتْ عَظَمَتُهُ ليْسَ من حكمته العليّةِ أَنْ يأمُرَ بالفحشاء، بلْ مِنْ حِكْمَتهِ أن ينْهَىٰ عنها في عالم الابتلاء، وهذا الدليلُ العقليُّ قد جاءت الإشارة إلَيْه في قول الله عزّ وجلّ:

﴿.. قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ..﴿٢٨﴾﴾.

وعلى الرغم من تتابع الرّسَالات الرَّبَّانيَّة على البشر، بَقِي لأفكار اسْتِباحَةِ الفواحش، والمذاهِبِ الشيطانيَّة حولَها، دُعاةٌ مُجْرِمونَ في الأرض، تظهر رؤوسهم كما تظهر رؤوس الأفاعِي من جُحُورها.

وَقَدْ أَخذَت هذه الأفكار في عصور الإلحاد الحديث مَسِيراتٍ تتستّر بالعلم، وبالبحوث العلميّة المزَيَّفَةِ.

❋ ❋ ❋

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

تمهيد:

إنّ الدّين عند الله الإسلام، منذ عَهْد آدم حتّىٰ قيام السّاعَة، والحديثُ عمّا أَنْزَلَ الله عزّ وجلّ على بني آدم الأَوّلين ينسَحِبُ أيضاً على كلّ بني آدم الأوْسَطِين والآخِرِين.

وفي هذا الدَّرْسِ الّذي يتحدَّثُ اللّهُ جلّ جلالُهُ فيه عن بَعْضِ عناصِرِ الدّين، الّذي أَنْزَلَهُ على بني آدم الأوّلين، منذ عَهْدِ آدم عليه السّلام، يُدْمِجُ فيه تبارك وتعالىٰ تَكْلِيفَ الرَّسُول محمد ﷺ أَنْ يُبَيِّن لأمَّتِه الّتي هي خاتِمةُ الأمم، كما هُو خاتم الأنبياء والمرسلين، أنَّ هٰذِه العناصر من الدّين، هيَ من الأمور الباقِيَة الّتي لم تتعَرَّضْ للنَّسْخِ، لأنَّ وَاقِعَها لا يقتضي بحِكْمَةِ اللّهِ أن تنسخ.

ومن تَرْتيبِ بيانِ واجب العَدْل وتحريم الجور والظُّلْم، بعْدَ الإشارَةِ إلى أنَّ أوّلَ معاصِي بني آدم قد كانت في الفواحِش المتَّصلة بشهواتِ الفروج، نُذرِكُ أنَّ ثاني المعاصي الّتي ظهَرتْ في بني آدم الأوّلين، هي معاصي العدوان والظلم، الّتي تكون بيْنَ الناسِ بعْضِهم لبعض، ومنها ما كان من قبيل التزاحم والتنافس على المرأة، وهو ما كان بين قابيل وهابيل، الذي جرَّ إلى قَتْلِ قابيلَ لأخيه هابيل ظُلْماً وَعُدْواناً.

ثم جرّ التنافُسُ على الامتلاك وعلى الزعامات، إلى أنواع من العدوان والظلم كثيرة، ومنها التنافُسُ على ما يكون به معاشهم ورفاهيتهم.

ومن هذا نُدْركَ أيضاً أنّ ثاني تحريفٍ في الدّين ظَهَر في بني آدم، هو الإذْنُ بظُلْمِ طَبَقَةٍ في المجتمع الإنسانيّ لطبَقَةٍ، وظُلْمُ أشخاص الرُّؤسَاءِ والْقَادَةِ وكُبَراءِ الْقَوْم لسائِر المجتمع.

ثُمَّ ظهَرَتْ طبَقَةُ السادَةِ والعبيد، فبالتحريف الشيطانيّ للدِّين، أُعْطِيَ هٰذا الظُّلْمُ مُسَوّغاتٍ دِينيَّةً افتراءً على الله، واسْتَمَرَّتِ الجاهليَّاتُ البشريَّةُ تتوارَثُ هٰذِهِ المسوّغاتِ المفتريَاتِ على الدّين الرَّبّاني، لظُلْمِ بَعْضِ طبَقَاتِ وأفرادِ المجتمع لبعض، حتَّىٰ المجتمعُ الجاهليّ الّذي بُعِثَ فيه الرسُولُ محمد ﷺ، فجاء قول الله له: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ مُبَيِّناً الْحُكْمَ الدّينيَّ مُنْذُ عَهْدِ الرّسَالَةِ الأولى لبني آدَم الأوّلين، في قضايا الحقوق بين الناس، وهو العدْلُ، وهذا الحكم غَيْرُ قابلٍ للتغيير ولا للنَّسْخِ بمقتضىٰ حِكْمَة اللّهِ، ما دَامَ في الكائناتِ أفرادٌ يُمْكِنُ أَنْ يَظْلِمَ بعضهم بعْضاً، ويَعْتَدِيَ بعْضُهُمْ على بعْضٍ، ويأخُذَ بَعْضُهم بالقوّة أو بالحيلَة حقّ بَعْض، وهو يَعْلَمُ أنّه ظالم.

أي: وَدَبَّ في بني آدم العدوان والظُّلْم، وبتطاوُل الْعَهد أعْطَىٰ شياطين الإنْسِ والجنّ هذا العدوانَ مُسَوّغَاتٍ مَنْسُوبَةً إلى الدّين، تَحْرِيفاً في دينِ الله، وافتراءً على اللّهِ جلّ جلاله. وتوارَثَ كثيرٌ من النّاس هذا التحريف، ومنْه مقالة اليهود بالنسبة إلى الذين يتعاملون معهم من سائر الأمم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾[1]: أي: لاَ نُحَاسَبُ إذا ظَلَمْنَاهُمْ، وأكَلْنَا حُقُوقهم، وسَلَبْنَا أمْوَالَهُمْ، أو قَتَلْنَا مِنهم.

ثُمّ مع تكاثر بني آدم، واجتماعِهم في بيئة أوبيئاتٍ يتنافَسُونَ فيها على ما يكون به معاشُهم ورَفاهياتُهم، مع وسائل تحصيل مطالب الحياة المختلفة، إذْ قَلَّت الوفرةُ الكبيرَةُ الكثيرَةُ الّتي كانت في الأرض منذ بدْءِ

---

(١) من الآية ٧٥ من سورة آل عمران.

التكاثر البشري، وتشابكَتِ العلاقات الاجتماعية، وانطَلَقتِ الشياطينُ تَنْزَغُ بيْنَ النَّاس، وتُثِيرُ مطامِعَ بعْضِهِمْ للاستيلاء على حُقُوق آخَرِينَ مِنْهم، وامْتَدَّتْ آيادِي المستجيبينَ لوَسَاوِسِ الشياطين، فَسَلَبَتْ أو نَهَبَتْ، أو سَرَقَتْ، أَوْ تحايلَتْ، أو قتَلتْ، ظُلْماً وعُدْواناً، فكانَ من أشدّ الواجباتِ الاجتماعيّة، وأوْلاَهَا بالرّعاية والتطبيق، مبدأ الْعَدْل الّذي أمَرَ الله به وأنزلَهُ مع ما أنزل من أحكام الدين. فقوْلُ الله عزّ وجل: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ يُشِيرُ ضِمْناً إلىٰ كُلّ ذَلْكَ فيما أرى. والله أعلم.

التدبر:

في هاتين الآيتَيْن بيان لخَمْس قضايا من قضايا الدين الكبرى منذ عهد آدم.

القضية الأولى:

● ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ..﴿٢٩﴾﴾: أي: قل يا مُحمَّدُ: أَمَرَ رَبِّي، وهو رَبُّكُمْ ورَبُّ السَّمَاوَاتِ والأرضِ بالْقِسْطِ، وهذا الأمْرُ صادِرٌ عن اللَّهِ وَمُنَزَّلٌ على بني آدم مُنْذُ نشأتِهِمْ في الأرض.

القِسْطُ: هو العدل، وهو من المصادر الّتي يوصَفُ بها، وكَلِمَةُ «القِسْط» يُوصَفُ بها المفرد والمثنىٰ والْجَمْع.

يقال لغة: «قَسَط يَقْسِطُ قِسْطاً» أي: عدَلَ. ويقال: «أَقْسَطَ يُقْسِطُ إقْسَاطاً. فهو مُقْسِط» أي: عادِلٌ.

أمّا الْقَسْطُ بفَتْحِ القاف والْقُسُوطُ فهو الجوْرُ والْعُدولُ عن الحق، والقاسِطُ هو الجائر.

وقد جاء في دين الله لعبادِهِ بيانُ أَحْكام تَحْدِيدِ الحقوقِ، وأحْكَامِ قواعِدِ العَدْل، للْفَصل بين النّاس في خُصُومَاتهم.

والعذلُ يكونُ بإعْطَاءِ كُلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ أوْ مَا يُسَاوِيه، ويكونُ بمعاقبة المعتدي بما يعادِلُ ما كان منه من عُدْوانٍ وَظُلْمٍ عَلى صاحب الحقّ.

القضيَّةُ الثانية:

● ﴿.. وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ... (٢٩)﴾: أي: وأمَر بالصَّلاةِ وقال لبني آدم كلِّهِمْ: ﴿أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: أي: عنْدَ كلّ صَلاَةٍ.

لفظ «مَسْجِد» اسْمٌ لمكان السُّجود، واسْمٌ لزمانِ السُّجود، ومَصْدَرٌ ميمِيٌّ لفِعْل «سَجَدَ».

السُّجُود: هو وضْعُ الجبهَةِ على الأرض، ويُطْلَقُ على الصَّلاة لفظ السّجودِ، لأنَّه أبْلَغُ أركانها عُبُودِيَّة لله عزّ وجلّ.

ويَحْسُنُ أنْ نحمل لفظ «مَسْجِد» في الآية هُنَا على معانيهِ الثلاثة، أي: وأقيمُوا وُجُوهَكُمْ عنْدَ كُلّ سُجودٍ، بمعنىٰ كلّ صَلاةٍ، وعنْدَ كلّ وقْتِ صلاةٍ تسْجُدونَ للّهِ فيها، وعنْدَ كلّ مكان صلاةٍ تَعْبُدونَ الله فيه، وتَسْجُدُونَ لله فيه.

فما المراد بإقامَةِ الْوُجُوهِ عنْدَ كلّ مَسْجدٍ؟

أقول: يُقَالُ لُغَةً: أقام الشيءَ، أي: عَدَّلَهُ وأزالَ عَوَجَه، والإنسانُ حينَ يَنْصِبُ قامَتَهُ، ويَقِفُ على رِجْلَيْهِ، فإنَّهُ يُعَدّلُ قامَتَهُ، ويُزِيلُ كُلَّ عَوَجٍ ومَيْلٍ فيها، كالرُّمْحِ المنتَصِب الذي لا عَوَجَ فيه.

ومن اهْتَمَّ بأمْرٍ لِعَمَلِه وإصلاح شأنه، فإنَّه يقوم له، ليكونَ في أحْسَنِ أحْوالِ استعداده لبَذْلِ كلّ قُواه، مع غايَةِ الاهتمام والعناية، بخلافِ منْ لا يقوم له، بل يَعْمَلُهُ قاعداً أو مضطجعاً.

فإقَامَةُ الوجوه في الصلاةِ عند كلّ مسْجدٍ كِنَايَةٌ عن توجيه الاهتمامِ

والعناية التامّة لعبادة الله عزّ وجلّ، استقبالاً للقبلَةِ الَّتي أمَرَ اللَّهُ باستقبالها، وتركيزاً للحواسّ الموجودَة في الوجه لها مُعَدَّلَةً غَيْرَ مُعْوَجَّةٍ وَلاَ مائلة، ولا شارِدَةٍ ولا مُدْبرَةٍ أَوْ مُعْرِضَة، ويكونُ ذلِكَ بتوجيه السَّمْعِ والْبَصَرِ واللِّسانِ مُعَدَّلاَتٍ في استقامَةٍ وتوجيه لعبادة الله عزّ وجلّ، ومن وراء الحَواسّ الظاهرة الفكْرُ والنَّفسُ والقلْبُ، وبذلك يؤدّي المصلي صلاتَه أداءً حسناً ظاهراً وبَاطناً.

فدلَّ قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ بظاهر اللَّفظِ وَلَوَازِمه، على أوّل واجِبٍ عَمَلِيّ تَعَبُّدِيّ دينيّ وهو أداءُ الصَّلاَةِ المفروضة، مع ما ينْبَغي فيها من تَوجُّهٍ تامٍّ للحواسّ الظاهرة والباطنة لعبادة الله جلّ جلالُهُ وعظم سلطانُهُ، حتَّىٰ تُثْمِرَ الصَّلاَةُ ثَمراتِها المرجُوَّة مِنْها.

والوجْهُ من كلّ شَيْءٍ: هو ما يَسْتَقْبِلُكَ منه. والوجْهُ من ذي الحياة، هو ما يَسْتَقْبِلُكَ فيه السَّمْع والْبَصَرُ والْفَمُ الذي فيه اللِّسانُ المعبِّر.

ومن الأُمُور الطبيعيَّة أنَّ مَنْ أرادَ جهةً مَا، أقْبَلَ إلَيْها بوجهه وصَدْره، وكلّ ما يستقْبِلُهُ منه، ومعلومٌ أن حواسَّ السَّمْع والْبَصَرِ واللِّسَانِ أعظَمُ النَّوافذِ للحواسّ الباطنَةِ استقبالاً وبثًّا.

ومن وراء الوجْهِ الّذي يحتوي على أجلّ الحواسّ الظاهرة تَقَعُ مستقْبِلاتُ الفكر والقلْب والنَّفسِ، والصّادِراتُ عنها.

من أجْلِ هذا جاء التعبيرُ عن الإقبال على الشيء في النصوص القرآنيَّة بعبارة التوجُّهِ لَهُ ونَحْوِها، والمرادُ التوجُّهُ النَّفْسِيُّ القلْبِيُّ أحياناً كثيرة.

وعكْسُ التوجُّهِ للشيْءِ الإدْبارُ عنه، ويكون بمقابلَةِ الشيْءِ بالدُّبُر والظَّهر، ودُونَهُ، الإعْراضُ واللَّيُّ.

ودلّت النصوص القرآنية المتعدّدة على أنّ التوجُّه بالْوَجْهِ عُنْوانٌ على

الإقبالِ لمُمَارَسَةِ المطلوب الدِّينيّ بعناية واهتمام، سواءٌ أكان حِسِّيًا جَسَدِيًّا، أمْ فكريًّا أمْ نفسيًّا أمْ قَلْبِيًّا.

(١) فجاء بشأن تَحْقيقِ عبادَةِ الْعَبْدِ لرَبّه تَعْلِيمُ المؤمنين أن يُوَجّهوا وُجُوهَهُمْ لِلّهِ وَحْدَه، اقتداءً بإبراهيم عليه السّلام في قوله الذي جاء بيانه في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

(٢) وجاء بشأن الإسلام للّهِ إيماناً به، وطاعةً له، ورضاً بمقاديرِه، وعَملاً بشرائعه، وتَقَرُّباً إلَيْهِ بالعبادات، ورغْبَةً في ثوابه، وخوفاً من عقابه، ودُعَاءَ لَهُ في مطالب الدنيا والآخرة، قول الله عزّ وجلّ في سورة (لُقْمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):.

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

فجاء التعبير في هذه الآية بإسْلَام الوجْهِ إلى الله، وجاءَ نظير هٰذا في (البقرة ـ وآل عمران ـ والنساء) والإسْلَامُ هو التسليم الكامل إلى الله عزّ جلّ على مُرَادِه في كُلِّ شيء.

(٣) وجاء بشأن القِبلَةِ في الصّلاة، قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لرسولِهِ فالَّذِينَ آمَنُوا جَمِيعاً:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ... ﴿١٤١﴾﴾.

(٤) وجاءَ بشَأن توجيه كامِلِ العنايَةِ، وكلِّ القُوىٰ، للمطالب الدينِيَّةِ الشَّامِلَةِ بمضْمُونِهَا لمصالح الدُّنيا والآخرة، التعبيرُ بإقامة الوجْهِ للدِّين، فقال الله عزّ وجل في سورة (الرُّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ... ﴿٤٣﴾﴾.

مَرَدّ: مصدر ميمي، أي: لا دَفْعَ لما يَجْرِي فيه من جزاء.

وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً:

• ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

(٥) وَجاء بشأن أبتغاء رضوان اللّهِ عزّ وجلّ، في مجالات إنفاقِ الأموالِ في الطاعات والقُربات، التعبيرُ بابتغاءِ وجْهِ اللّهِ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول) أيضاً:

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

فظهر لنا من هذه النُصُوص القُرآنيَةِ أنَّ التعبير بالوجْهِ ذُو دلالَةٍ حِسِّيَّةٍ وَمَعْنُوِيَّةٍ في الحسّيات، وذُو دلالة معنويَّة في المعنويّات، وأنَّ الغرض من توجيه الوجوه جَعْلُ أجهزَةِ البَثِّ والاستقبال في الإنسان مُقَابِلَةً لِلْجِهَةِ المعيَّنَةِ، الَّتي حُدِّدَتْ لاستقبال الواردات، وبَثّ الصادرات، لتحْقِيق أحْسَنِ الظرُوفِ الملائمة، وأوفَىٰ المقاصِدِ المرْجُوَّة.

القضيَّة الثالثة:

• ﴿.. وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ... ﴿٢٩﴾﴾: أي: وأمَر الله عزّ وجلّ بني آدم كُلَّهُمْ بأن يتوجَّهوا له بالدُّعاء، وقال لهم: أدْعُوا رَبَّكُمْ مُخْلِصينَ لَهُ الدّين، أي: مخلصين له الدُّعَاء، لأنّ الدُّعاءَ من الدِّين، وهُو من عناصِرِ العبادَةِ الكُبْرىٰ، والعملُ الدينيُّ لاَ يكونُ صحيحاً ولاَ جائزاً إلاَّ أن يكون للّهِ وحْدَه، لاَ شَريكَ له، إنَّهُ جلّ جلالهُ لاَ شَريكَ له في رُبوبيّته، فلا شَرِيكَ لَهُ في إلَهِيَّتِه.

وإخْلاصُ الدِّينِ للَّهِ يكُونُ بِجَعْلِه خالصاً صَافياً مُنَقًّىٰ من الشِّرْك، ومن الرِّياء، ومن شوائِبِهما.

هذه القضيَّةُ من التعليم الدِّينيّ الَّذِي خاطَبَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ به بني آدَم مُنذُ عَهْدِ نَشأتِهم الأولى على الأرْضِ، حتَّىٰ آخِر كائنٍ مِنْهُمْ في السُّلاَلاَتِ الْبَشَرِيَّةِ علَى الأرض.

القضية الرابعة:

● ﴿. . كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ . . ﴿٢٩﴾﴾: هٰذه العبارة تدلُّ على أنّ من مبادِئ الدّين المنزَّلِ على بني آدم الأوّلين، مبْدأ الإيمانِ بالْيَوْمِ الآخر، وهذا المبدأ قَد خَاطب اللَّهُ عزّ وجل به جَمِيع بني آدَمَ حتَّى آخِرِ كائن منهم في السُّلاَلاَت البشرية، فهو ممّا بلَّغَهُ كُلُّ رسُولٍ لأُمَّتِه، وسبَقَ بيانُ أنّه مَعْلُومٌ للملائكة والجنّ من قَبْل خَلْق آدم عليه السّلام.

وجاء التعبير هُنَا عن اليوم الآخِر بذكْرِ فِقَرةٍ من الفِقَراتِ الَّتي يُحْتَجُّ بها علَىٰ الشَّاكِّين بالْبَعْثِ إلى الحياة بَعْدَ الموت، الَّذين يستَبْعِدُونَ إعادة الموتَىٰ إلى الحياة بَعْدَ أَنْ يَصيرُوا تُراباً، ويتَبَدَّدَ رُفَاتُهُمْ في تُرابِ الأرض.

وهٰذه الفقرة تَدُلُّ على ما قَبْلَها وَمَا بَعْدَها، فَمَنِ اسْتَبْعَدَ قضيَّة الْعَوْدَةِ إلَىٰ الحياة الأخرى، فلْيتأمّلْ في قضيَّةِ بَدْءِ الحياةِ الأولى، تَتَبَدَّدْ أَوْهَامُه.

فالمعنى: كما بَدَأَ اللَّهُ خَلْقَكُمْ فكُنتُمْ بشراً أحيَاءً، لَكُمْ من الصفاتِ ما لم يَكُنْ لكم منها شَيءٌ، قَبْلَ أَنْ يَبْدأ خَلقكُمْ، فإنَّهُ يُعِيدُكُمْ إلى الحياة بعْدَ أنْ يُميتكُمْ ويَجْعَلَكُمْ تُراباً، فَتَعُودُون إلَىٰ الحياةِ مُطَاوِعِين، دُونَ أَنْ يكُونَ لإرادَاتِكُمْ في ذلِكَ تَدَخُّلٌ بشيءٍ، فتَجدُودن أنفُسَكُمْ أحيَاءً مَسُوقين إلى الحسَابِ، وفَصْل القضاء، وتَنفيذِ الجزاء.

كما بدأكم فصرتم أحياءً مطاوعين، يعديكم بعد الموت والفناء فتعودون إلى الحياة مطاوعين ليوم الجزاء.

القضيَّة الخامِسَة:

● ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

في هذه الآية تَصْويرٌ مُوجَزٌ لمَا سَوْفَ ينْتَهِي إلَيْهِ الأمْرُ يَوْم الدين، بعْدَ الحساب، وفَصْلِ القضاء، بَيْنَ بَنِي آدم الّذِينَ وضَعَهُمُ اللّهُ عزّ وجلّ في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، إذْ يكونون فريقين:

(١) ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾: أيّ: فريقاً حكَمَ الله لَهُم بالْهِدَايَة، إذْ كانُوا قد اختاروا لأنفُسِهِمْ في الحياة الدّنيا طريق الهداية، فآمَنُوا بربوبيّة الله وَإِلَهِيَّتِهِ، وأعْلَنُوا إسْلامَهُمْ له، ولم يُشْرِكُوا به شيئاً.

(٢) ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: ثَبَتَ علَيْهِمْ أنّهم كَانُوا قد اختاروا لأنفسهم في الحياة الدّنيا طَرِيقَ الضلالَةِ، فَلَمْ يُحقّقُوا أدْنَىٰ مَطْلُوبِ اللّهِ منهم من إيمان وإسْلام، فَحَكَمَ الله عليهم في محكَمَةِ العدل يوم الدين بالضلالة فاستحقوا الْخُلُودَ في عذَاب النّار، ولا مُعَقّبَ لحُكْمِ اللّهِ جلّ جلاله.

﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: إنّهم في الحياة الدُّنيا رَفَضُوا وِلايَةَ اللّهِ لَهُمْ، فَلَمْ يتّبعوا مَا أنزلَ اللّهُ لهدايتهم، بَلْ زَيّنَتْ لَهُمُ الشّياطينُ اتّبَاعَ الأَهْواءِ والشهواتِ والمحرَّمَاتِ منْ زينَةِ الْحيَاةِ الدنيا، فاتَّخذُوا الشياطين أولِيَاءَ لَهُمْ من دون الله بإراداتِهم الحرّة، فغَرَّتْهُمُ الشّيَاطِينُ بوسَاوِسِهِمْ وتسويلاتهم وإطْمَاعَاتِهِمْ لهم بالباطِلِ من زُخْرُفِ الأفْكار والأقوال. فصاروا يُتابِعُونَ في مَسِيراتِم خُطُواتِ الشياطين آناً فآناً على غَيْرِ بَصِيرَة، حتّى أوْصَلَتْهُمْ إلى حَضِيضِ الضلالة، وأدْرَكَتْهُمْ منَايَاهم وهم في هذا الحضيض.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾: أي: ويَقَعُ في اعْتِقَادِهِمْ أنّهُمْ

باتِّباعِهِمُ المحرَّمَاتِ من زِيناتِ الحياة الدّنيا، على خلاف منهج الله وصِرَاطه المستقيم، مُهْتَدُونَ إلى تحقيق سَعَادَاتِهِمْ.

فعل «حَسِبَ يَحْسَبُ» لم يُسْتَعْمَلْ في القرآن إلاَّ في الظَّنِّ التوهمِيِّ الباطل.

إنّهم ينْقَادون للشياطين بدوافع من داخل أنفسهم، ويَسْعَوْن وراءهم سَعْياً حثيثاً مهما تعثَّرُوا في سُبُلِهم، ومهما أَصَابُوا من مَتاعِبَ ومشقاتٍ، ومهما نَزَلَتْ بِهِم من مَصَائِبَ ونكبات، ويتوهمّون أنهم واصِلُون إلى أمانيهم من الحياة الدنيا، وأنهم مهتدون، والحقيقة أنّهم ضَالُّون.

جاء التعبير في هٰذهِ الآية عمّا سَوْف ينتهي إليه الأمر يوم الدّين بعْدَ الحسَاب وفَصْلِ القضاء، بالفِعْلِ الماضِي: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ للدَّلاَلَة عَلىٰ تحقُّقِ وُقوعه في المستقبل، كما تحقَّقت الأحداثُ الّتي مضت وانقضت.

وهذه العبارة هي بمثابة لقطَةٍ مُقْتَطَعةٍ من مشاهد يوم الدّين الموعود به، وإيرادُها في سِبَاقِ وَسِيَاقِ ما أنزل الله عزّ وجلّ من دينٍ، لبني آدم الأوّلِينَ، منْذُ عَهْدِ آدم، يُشِيرُ إلى أنّ مضمُونَ هذا البيان ممّا تلَقّاهُ بنُو آدم الأوّلُون من تعليم دينيٍّ. ودلّتِ النّصوص القرآنيّة على أنَّ هذا المضمُونَ هو من أُسُسِ الرّسالاَت الرّبّانيّة كُلِّها لبني آدم جميعاً، من عَهْدِ آدم عليه السلام، حتّىٰ آخر موضُوعٍ في الحياة الدنيا موْضِعَ الامتحان من ذُرِّيَّتِه.

إنّ النّاسَ يوم القِيامَةِ بَعْدَ الحِسَاب وفَصْلِ القضاء يُقْسَمُون إلى فَرِيقَيْن أعْظَمَيْن، مؤمِنين وكافِرين، ثُمّ يُقْسَمُ كلُّ فريقٍ منهما إلى زُمَرٍ، بَحَسْبِ دَرَجَاتِهم الارتقائية بالإيمان والعمل الصالح، أوْ دَرَكَاتِهم الانْحِدَارِيَّةِ الهابطة بالكُفْرِ وارتكابِ الجرائم.

❁ ❁ ❁

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

تمهيد:

في الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث، بيانٌ لقضيّتَيْنِ من قضايا الدّين الّتي أنْزَلها الله عزّ وجلّ على بني آدم، بدْأً من ذُرّيّاتِه الأوّلين، وحتّىٰ آخرِ كائن موضوع في الحياة الدُّنيا مَوْضِع الابتلاء منهم، فهِي من تعليمات الدّين المنزَّلَةِ على جميع المرسَلِين بعد آدم، وحتّىٰ خاتمتهم محمد بن عبد الله صلى الله وَسلّم عليه وعليهم أجمعين.

وفي الآيَتَيْن التاليتَيْنِ إشارَةٌ إلى تحريفات الناس في الدّين، حَوْلَ هاتين القضيَّتين، بتَحْريم ما لَمْ يُحرّمْهُ اللّهُ جلَّ جلالهُ، منْ زِينَتِهِ الّتي أخرجها لعباده، ومِنَ الطّيّبات من الرّزق، وفيهما تعليم جدليٌّ حوْل تَحْرِيفاتهم الباطلات، وبيانٌ حَوْلَ أصُولِ المحرّماتِ الدّينيَّة الرَّبَّانِيّة، في الدِّين الّذي اصْطَفَاهُ اللّهُ عزَّ وجَلَّ لعباده، وبلَّغَتْهُ رُسُله الصَّادقُونَ إلَىٰ أُمَمِهِم.

التدبّر:

القضيّةُ الأولى:

● ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ... ﴿٣١﴾﴾:

سبق بيان أنّ لفظ «مَسْجد» يُطْلَقُ على مكان السُّجود، وزمان

السجود، وعلى السجود، باعتبار «مَسْجد» مصدراً ميميًا، لِفَعْل «سَجد».
فَبَنُوا آدم مأمُورون بأن يأخذوا زينتهم عند كلّ صَلاة، وعند كلّ زمَانِ صَلاةٍ يُؤَدّونها، وعند كلّ مَكانِ صلاة يؤَدُّونَ الصَّلاةَ فيه، وقد جاء التعبير عن الصلاة بلفظ السجود. لأنّ السجودَ أعظم أركانها، إذ هو دالٌّ على غاية الخضوع لله عَزّ وجلّ.

وسبَقَ في هذا الدرس أن الله عزّ وجلّ، قد امتنَّ على بني آدم بأنَّه أنْزَلَ عليهم لباساً يواري سَوْآتهم وريشاً.

ولمّا كانت السَّوْآتُ مستَقْبَحَاتِ المنظر، فإنَّ سَتْرَها باللّباسِ السَّاتِرِ من الزّينة.

ولمَّا كانَ من آداب عبادَةِ اللّهِ عزّ وجلّ في الصّلوات وفي الطَّوافِ، ومن آداب المجامع الدينيَّةِ في المساجد، سَتْر ما يُسْتقبَحُ مَنْظَرُه، وهذا من أصول دين الله الّذي أنزلَهُ على بني آدم منذ عَهْدِ آدم إلى آخِرِ رسالةٍ أنزلها الله للناس، كان قولُ اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ﴾ قولاً يُبيّن الله تبارك وتعالىٰ فيه ما أنزله على بني آدم الأوّلين فَمَنْ بَعْدَهم، ويُوجّهُهُ تَكْليفاً لِبني آدم الآخِرينَ، الّذِينَ جاءَتْ خاتِمَةُ الرّسالاتِ الرّبّانيّة لبَلاَغِهِم وتكليفهم.

فَدَلّنا هذا على أنَّ وجوبَ سَتْرِ الْعَوْراتِ عند كلّ مَسْجِد من الأحكام الثابتة في كلّ الرّسالات الرّبّانِيّة للناس.

والأَمْرُ بأخْذِ الزينَةِ ستْراً للعورات عند كلّ مسجد، يُشْعِرُ بأنّ تحَلّيَ الإنسَانِ بمختلفِ أنواع الألبسة الّتي أنزلها الله للناس، مأذونٌ به في الدّين، بل قد يكونُ مطلوباً طَلَب نَدْبٍ وترغيب، باسْتثناء ما نزل تحريمه بالنصّ.

القضيّة الثانية:

- ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ. . . ﴿٣١﴾﴾:

هذه القضية من وصايا الدِّين وأحكامه الّتي أنزلها الله عزّ وجلّ، على بني آدم الأوّلين فمن بَعْدَهم، حتَّىٰ آخرِ كائن من ذُرِّيَّته، موضوعٍ في الحياة الدنيا مَوْضِع الابتلاء.

أي: وكُلُوا مِنْ كُلّ مأكُولٍ لَمْ يُحَرَّمْ عليكم بالتعْيين أو بالوصْف، واشْرَبُوا من كلِّ مَشْرُوب لم يُحَرَّم عليكم بالتعْيين أو بالوصْف.

والأمْرُ بالأكل والشُّرب يُحْمَلُ على وُجوه:

(١) فإذا كان تَرْكُ الأكْل أو الشُّرب يُسْقِمُ، أو يُميتُ، أو يُضْعِف عن القيام بما يجب القيام به، فالأمْرُ للوجوب.

(٢) وإذا كان تَرْكُ الأكْل أو الشُّرب يضعِفُ عن القيام بما يُنْدَبُ القيام به، فالأَمْرُ للنَّدْبِ.

(٣) وإذا كان تَرْكُ الأَكْلِ أو الشُّرْبِ في بعض الأحوال لاَ يَضُرُّ ولا يَنْفَعُ فالأمْرُ للإباحَة.

هذه الأحكامُ تُفْهَمُ من هذا النصّ مجموعاً مع جُمْلَة نُصوصٍ أخرى، وتُفْهَمُ ضِمْن كُلّيَّاتٍ عامَّةٍ من كلّيَّاتِ الدّين المستخرجَةِ من عِدَّةٍ نُصُوص.

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾: في هذه العبارة نَهْيٌ عن الإسْرَافِ في الأكْلِ والشُّرْب.

الإسْرَاف: هو تجاوز الحدّ إلى ما يُؤْذِي أو يَضُرّ.

والنهيُ عن الاسْرافِ له أيضاً عدَّةُ وجوه:

(١) فإذا كان الاسْرَافُ في الأكل أو في الشرْب ضارًّا بالصّحّة، أو ضارًّا بالآخرين من الناس، إذْ يُقَلّلُ مواردَهُمُ الغِذَائيّة، ويُوقِعُهم في الجوع أو في العطش، فالنَّهْيُ للتحريم، إذْ لاَ يجوزُ في الدّين لبَعْض الناس في المجتمع أنْ يُسْرِفُوا في مآكلهم ومشاربهم إسرافاً يَنْجم عنه جُوعُ الآخَرين

وظَمَؤُهم. ولا يجوز للإنسان أن يُسْرف في طعام أو شراب إسرافاً يُضِرُّ بصحّته، ويُعرّضُه للأسقام والأمراض وهو يَعْلَمُ أنْ احتمالات الضَّرَرِ راجحة.

وكذلك إذا كان الإسراف في الطعام أو الشراب يمنَعُ من القيام ببَعْض الواجبات، فالنَّهْي عنه للتحريم.

(٢) وَإذا كان الإسراف في الأكْل أو في الشرب يَمنَع من القيام بما يُنْدَبُ القيامُ به ولا يَضُرّ، فالنَّهْيُ عنه للكراهة.

(٣) وإذا كان الإسرافُ في الأكْلِ أو في الشُّرب ليس له أثَرٌ ضارٌّ أوْ مُؤْذٍ، ولا يمْنَع من القيام بما يُندبُ القيام به، فالنَّهْيُ عنه للإرشاد إلى ما هو الأفْضَل في الاقتصاد، والأفضلُ للمحافظة على السَّلامَةِ وكمالِ الصّحَّة في المستقبل، مع ما في ضَبْط النَّفس عن الإسراف من تَدَرُّبٍ على قُوَّةِ الإرادة، في مخالفة شهواتِ النفس، وعدَم الانسياقِ وراءَ أهْوَائها ولَذَّاتِها الّتي إذا اسْتشْرَتْ قادَتْ إلى المهالِكِ الدنيويَّةِ أو الأُخْرَوِيّة.

قال علماء الصحّة: قاعدة: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ تتضَمَّن رأْسَ قواعِد الصحّةِ غِذاءً وَوِقايةً، أو ما يُسَمَّىٰ بالأمْنِ الصّحيّ.

وقال علماء الاقتصاد الغذائي: إنَّ هٰذه القاعدة هي رأسُ قواعدة الاقتصاد، للمحافظة على الأَمْن الغذائي.

وللتحذير من الإسْرافِ بصُورَة عامَّةٍ. قال الله عزّ وجلّ في ختام الآية: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾. الضميرُ في ﴿إِنَّهُ﴾ يَعُودُ على الله جلّ جلاله، وهذا يُفْهَمُ من السِّبَاق والسِّياق. فالإسراف بوجه عامّ يُوصلُ إلى الوقوع في المضارّ أو المهالك، أو الظلم أو التحريف في الدين، إلى غير ذلك من أمُورٍ غير حَمِيدَة، والله لا يحبُّ هذه الأشياء، فهو لا يحبُّ من يعرِّض نفسه إليها.

التحريفات في الجاهليات الأولى لأحكام الألبسة والمآكل والمشارب الربّانية:

هذه الأحكام التي جاء بيانها في الآية (٣١) أحكامٌ منزّلة مُنْذ عَهْدِ آدم عليه السلام، ومُتَتابِعةٌ في الرّسالات الرَّبّانهيَّةِ، حتَّىٰ خَاتِمَتِها.

إلاّ أنّها قد تعرَّضَتْ في تاريخ البشر للتحريفات من قِبَلِ شياطين الإنْس والجن.

● فَوُجُوب أخذ الزينة عنْد كلّ مسْجدٍ قد تعرَّضَ لتحريفاتٍ في الجاهليّة قبل الإسلام.

ومن هذه التحريفات في الدّين أنّ العربَ من غير قريشٍ كانُوا يطوفون بالبيْتِ الحرام «الكعبة المشرفة» عُراةً، ويقولُون: لا نَعْبُد الله في ثيابٍ أَذْنَبْنَا فيها. واللّواتِي يستَحْيِين من نساء العرب كُنَّ يَطُفْنَ عَارِيَاتٍ في اللّيْلِ، لكِنْ إذا وجَدَ العربيُّ من يُعِيرُهُ ثوباً مِنَ الْقُرشِيّين، استعارَه وطافَ فيه، وكذلك إذا وجدت العربيّة من تُعِيرُها ثوباً من القرشيات، استعارتْهُ منها وطافت فيه.

ومن التحريفات في الدّين بالنسبة إلى المآكل والمشارب التي أباحها الله عزّ وجل، تحريمُ العرب في الجاهلية بعْضَ الأنعام، ضِمْنَ أوصاف وشروط خاصّة، وتحريمُهُمْ بعض المنتجات الزراعيّة، وتخصِيصُها لأصنامهم. فلا يَطْعَمُ منها في زَعْمِهم إلاّ ما يَشَاءُون.

وكان للعرب في الجاهلية أحكامٌ افْتَروْها على الله، ومنها ما كانوا يُسَمُّونه: «الْبَحِيرَة، والسّائبة، والوصيلة، والحام» وقد جاء بيانها في القرآن في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) في الآية (١٠٣) ـ وفي سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) في الآيات من (١٣٨ ـ ١٤٠) بشأن بعض الأنعام والحرث.

ممّا ورد من روايات بشأن التحريفات في أحكام الألبسة والمطاعم:

■ أمّا الْعُري الكامل في بعض العبادات الذي هو من تحريفات الجاهلية، فقد ورد بشأنه عدّة روايات، منها ما يلي:

(١) روى مُسْلمٌ والنّسائي وابْنُ أبي شيبة وغيرهم، عن ابن عباسٍ: أنّ النِّسَاء كُنَّ يَطُفْنَ عُرَاةً، إلاَّ أَنْ تَجْعَلَ الْمَرْأَةُ على فَرْجِهَا خِرْقَةً وتقول:

الْـيَـوم يَـبْـدُو بَـعْـضُـهُ أَوْ كُـلُّـهُ   وَمَـا بَـدَا مِـنْـهُ فَـلاَ أُحِـلُّـهُ

فنزلَتْ: ﴿يَبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ٣٠﴾.

(٢) وأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وابْنُ أبي حَاتِمٍ، وابْنُ مَرْدَوَيْهِ، عن أَبْنَ عباسٍ أيضاً في هٰذه الآية قال:

«كَانَ الرِّجَالُ يَطُوفُونَ بالْبَيْتِ عُرَاةً، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بالزِّينة، والزِّينَةُ اللِّبَاسُ، وهُو مَا يُوَارِي السَّوْأَةَ، ومَا سِوَىٰ ذَلِكَ مِنْ جَيِّدِ الْبَزِّ والمتَاعِ».

(٣) ورویٰ ابْنُ جريرٍ عن ابن عبّاس قَالَ:

«كانُوا يَطُوفُونَ بالْبَيْتِ عُرَاةً، الرِّجَالُ والنّساء، الرِّجالُ بالنَّهَارِ، والنِّسَاءُ باللَّيْلِ».

(٤) وأخرج مُسْلِمٌ عن عُرْوةَ بْنِ الزُّبَيْر قال:

«كانَتِ الْعَرَبُ تَطُوفُ بالْبَيْتِ عُراةً إِلاَّ الْحُمْسَ[1]، والْحُمْسُ قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ، فَكَانَ غَيْرُهُمْ يَطُوفُونَ عُراةً، إِلاَّ أَنْ يُعْطِيَهُمُ الْحُمْسُ ثِيَاباً، فَيُعْطِي الرِّجَالُ الرِّجالَ، والنِّسَاءُ النِّسَاءَ».

(١) الْحُمْسُ: المتشدِّدُون في الدِّين، وقد أطلق القرشيّون على أنفسهم أنهم حُمْسٌ، تفاخراً بأنّهم متشدّدونَ في التمسك بالدين في جاهليتهم، على ما هم قد ابتدعوه من تحريفات جاهلية.

ورُوي عن عُرْوة أيضاً: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذا وَصَلُوا إلى مِنَىٰ، طَرَحُوا ثيابَهُمْ، وأَتَوْا الْمَسْجِدَ عُرَاةً.

(٥) ورُوِيَ أَنَّ الْحُمْسَ كَانُوا يَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ الْحَرَمِ، فَلاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ أَنْ يَطُوفَ إِلاَّ فِي ثِيَابِنَا، ولاَ يَأْكُلَ إِذَا دَخَلَ أَرْضَنَا إِلاَّ مِنْ طَعَامِنَا. فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْعَرَبِ صَدِيقٌ بِمَكَّةَ يُعِيرُهُ ثَوْباً، ولاَ يَجِدُ ما يَسْتَأْجِرُ بِهِ ثَوْباً مِنْ قُرَشِيٍّ، كَانَ بَيْنَ أَحَدِ أَمْرَين:

- إمَّا أنْ يَطُوفَ بالْبَيْتِ عُرْياناً.

- وإمَّا أن يَطُوفَ في ثيابه، فإذَا فَرَغَ مِنْ طَوافِهِ أَلْقَىٰ ثَوْبَهُ عنه، فلَمْ يَمَسَّهُ أحدٌ، وَكَانَ ذَلِكَ الثَّوْبُ يُسَمَّىٰ «اللَّقَىٰ». قال شاعرهم:

كَفَىٰ حَزَناً كَرِّي عَلَيْهِ كَأَنَّهُ   لَقَىً بَيْنَ أَيْدِي الطَّائِفِينَ حَرامُ

■ وأمَّا تَحْرِيمُ أَهْلِ الجاهليَّة بعْضَ الطَّيِّبَاتِ افتراءً علىٰ الله، وتَحْرِيفاً في دِينِ اللَّهِ الموروُثِ، فقد ورَدَ بشأنِهِ عدَّة روايات، منها ما يلي:

(١) رَوَىٰ الطبريُّ عن جابر بْنِ زَيْد، أَنَّ العَرَبَ كَانُوا إِذَا حَجُّوا حَرَّمُوا الشَّاةَ وَلَبَنَهَا وَسَمْنَهَا.

(٢) ورُوِي عن السُّدِّيّ وابْنِ عبَّاسٍ، أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يُحَرِّمُونَ علَىٰ أَنْفُسِهِمُ الْوَدَكَ[1] مَا أَقَامُوا في مَوْسِمِ الْحَجِّ.

فكانوا لاَ يأكُلُونَ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ إلاَّ قُوتاً، ويَجْتَنِبُونَ الدَّسَم.

فعلَّمَ اللَّهُ عزّ وجلّ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ، فكُلُّ داعٍ إلى دينِ اللَّهِ من الذين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ، مناظَرَةَ مُلْتَزِمي هذه التحريفاتِ والمبْتَدَعَاتِ في الدّين.

---

(١) **الوَدَكُ**: هو الدَّسَمُ والدُّهْنُ.

• قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ ﴿٣٢﴾﴾.

في هذه الفقرة يُعلِّم اللَّهُ عزّ وجلّ رسُولَهُ، أسْلوبَ مناظرةٍ جَدَلِيَّةٍ، حوْلَ التحريفات في الدّين، الّتي افْتَرتْها الجاهلياتُ قبل الإسلام، بشأن زيناتِ الملابس الّتي أخرجها الله لعباده، وبشَأنِ الطيّبات من الرزق.

أي: قل لهم يا مُحمّدُ ويَاكُلَّ حامِلٍ لرسَالَته من أُمَّتِه: إنّ الله عزّ وجلّ قَدْ أمَرَ بأَخْذِ الزينة عند كلّ مسْجِدٍ، وأَمَر بسَتْرِ الْعَوْراتِ منذ عَهْدِ بني آدم الأوّلين.

فَمَنْ هذا الّذي افترىٰ على اللَّهِ فكلَّفَ الطائفين والطائفاتِ من غَيْرِ قُرَيشٍ، وما وَلَدَتْ قُرَيشٌ، بأنْ يَطُوفوا عُرَاةً بالبيت الحرام؟!!.

وقُلْ لهم: إنّ الله عزّ وجلّ قد أمَرَ بني آدم بأن يأكُلوا وَيَشْرَبُوا ممّا يَشَاءُون من الطيّبات من الرّزق، إلاّ الّذِي حرّمَهُ عليهم بالتعْيين أو بالْوَصْف.

فمن هذا الّذِي افترىٰ على الله، فوضع قواعد التحريم في الأنْعَامِ والحرْث، فقال: هذا حلالٌ وهذا حرامٌ، مَعَ أنّها من الطيّبَاتِ، ولَيْسَتْ من الخبائث؟!!.

أي: هَلْ هٰذا المحرّمُ رَسُولٌ يُبَلّغ عن الله، أم هو كذّابٌ مُفْتَرٍ يَفْتِري على دينِ الله؟!!.

والمعنى من توجيه هذا السؤال الإنكاريّ الجدليّ، أنّ الله عزّ وجلّ لم يُحَرّم شيئاً من هذه المفتريَاتِ في الجاهليات، بل أوجب بعْضَها، ونَدَب إلى بعضها، وأباح بعضَها، وكُلُّ حُكْمٍ مخالفٍ لحكْمِ اللَّهِ هُو من الْعُدْوان على رُبوبيّةِ الله عزّ وجلّ وعلى إلَهيَّتِهِ، لأنّ الْملْكَ مُلْكُه، والخلْقَ خلقه، ومَنْ له الخلْقُ فهو وحْدَهُ الّذِي له الأمْرُ والنهْيُ، وحقُّهُ على عباده أن

يطيعوه، لاَ أنْ يَفْتَرُوا عليه في الشرائع والأحكام، وَيُشَارِكُوهُ في رُبُوبيَّتِهِ وإلَهيَّته.

وفي طرْح هذا السُّؤال الجدليّ مطالَبَةٌ لَهُمْ بدليلِ التحريم، وهُوَ لاَ يَكُون دليلاً عقليًا، لأنَّ موضوعَهُ من موضوعاتِ العِبَادَاتِ الدّينيّة، فلا بُدَّ أنْ يكون دليلاً نَقْلِيًا عَنْ نصٍّ دينيٍّ صَحِيحٍ في كِتَابٍ من كُتُبِ اللَّهِ أو خَبرٍ صَحِيحٍ ثابتٍ عن رسُولٍ من رُسُلِ الله، ولَنْ يَجِدُوا شيئاً من ذلك في نصٍّ صحيحٍ ثابتٍ.

أمّا إذا كان المحرِّمُ لهذهِ الأُمُور زَعِيماً أو كاهِناً، أو نَحْوَهُما، فَهُمْ طَواغَيتُ يفتَرُونَ الكَذِبَ في الدِّينِ عَلَىٰ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، أوْ يجْعلُونَ أنْفُسَهم أَرْبَاباً من دُونِ الله، فَهُمْ يُحَلِّلُونَ ويُحَرِّمُونَ على مَا يَشاءُون بأهوائهم، فأقوالُهُم ساقطة، والْعَمَلُ بها اتّباعاً لهم هو من الشّرْك.

وحين لا يَجِدُ المسْؤولُون الدَّلِيلَ المثبتَ لِما يُحَرِّمُونَ مِنْ زينَةِ اللّباسِ والطّيّبَاتِ من الرّزْق، فإنَّ علَيْهِمْ أنْ يَنْبِذُوا تقاليدهم الباطلة، ويَتّبِعُوا ما أُنزِل إليهم من ربّهم، على لسانِ رسُولِه محمد بن عبد الله ﷺ، ولا يَتّبِعُوا من دونه أولياء.

وإذا استجابوا لمَا أُلْزِمُوا به في نهاية المناظرة، فعليهم أن يُصْغُوا إلى التعليم الّذي يُبَلِّغُهم إِيَّاهُ رسول الله ﷺ.

❁ ❁ ❁

● قول الله تعالى لرسوله: ﴿..قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: قل لهم مُعَلّماً بَعْد أن يُذْعِنُوا أو تدمَغَهم الحجّة بإبْطَال أحكام الجاهلية، حوْلَ زينَة اللّباس، وبَعضِ الطّيبات من المطاعم:

زينة الله الّتي أخرجَ لعباده، والطيّباتُ من الرّزق، قد خَلَقَها الله لِيَنْتَفِعَ ويسْتَمْتِعَ بها الّذين آمنوا وغَيْرُهم في الحياة الدنيا. لكنّها سوف تكونُ يوم القيامَةِ خَالِصَةً لّلذين آمنوا فقط، فَلاَ يُشارِكُهم فيها الكافرون يومئذٍ، لأنّها يوْمَ الدِّين من أصْناف نعيم أهْلِ الجنّة.

ولم يَذْكُر الله عزّ وجلَّ غيْرَ المؤمنين في الانتفاع بها في الحياة الدنيا، اكتفاءً بقوله جلّ جلالُه: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: حالةَ كوْنِها خالِصَةً للّذِينَ آمَنُوا يَوْم القيامة، ولأنّ الكافرين لا يهِمُّهُم حكْمُ الإباحَةِ الرّبّانية، حتّىٰ تكُونَ تصرُّفاتُهم متقيّدةً بما أباح الله، بلْ هم ينتَفِعُونَ ممّا مكّنَهُمُ الله من الانتفاع به كيْفَ كانَ حُكْمُ اللَّهِ فيه حلالاً أَمْ حراماً، فالمناسبُ في النصّ بالنِّسْبة إليهم هو الإعراضُ عن ذكْرِهم بصَرِيحِ العبارة. ﴿خَالِصَةٌ﴾: بالرفع في قراءة نافع، أي: وهي خالصةٌ لهم يوم القيامة، على أنّ اللّفظ خبَرٌ ثانٍ.

● ﴿. . كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)﴾: أي: كذلكَ التعليم والبيان الذي سبَق مُفصّلاً، حوْلَ الأخبار، والشرائع، والأحكام، مِنْ بدْءِ السّورة حتّىٰ هٰذه الآية، سنُفَصّل في الآيات القرآنيَّة الّتي سنُنْزِلها، وهذا التفصيل سيكون مُوجّهاً لمَنْ هُمْ مُهْتَمُّون بأنْ يَعْلَمُوا مَا يُنَزَّلُ إليهم رَبُّهم حتّىٰ يتَّبعُوه، فَهُمْ يتلَقَّوْنَ الآيات، ويتَدبَّرُونَها، فيَعْلَمُونَ دلالاتها جُمْلَةً فَجُمْلَةً وفِقْرَةً فَفِقْرَةً، وقضيّةً فَقَضِيّةً، دراسةً وبحثاً وتأمُّلاً، بغيةَ اتّباعها، والْعَمل بما تضمَّنَتْهُ من وصايا وأحكام وتوجيهات.

● قول الله تعالى لرسوله:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾.

هذه الآية تابعةٌ لمَا أَمَرَ الله به رسولَهُ أن يقولَهُ للمُلْتَزِمين بجاهِلِيّاتهم،

في أحكامٍ ما أنزل الله بها من سلطان، بل هي مفترياتٌ ومُبْتَدَعَاتٌ ابْتَدَعُوهَا، وجَعَلُوها دِيناً.

وفي هذه الآيَةِ حَصْرٌ للمحرَّمَاتِ الَّتي حرَّمَها الله الرَّبُّ جلَّ جلالُهُ، في كلّيّاتٍ خَمْسٍ، هي كُلّيَّاتٌ أصولٌ في كلّ رسالات اللّهِ السّابقاتِ لبَنِي آدم، وهي مستمِرَّاتُ التحريم بحكمة الله، لا تَتَعَرَّضُ لِنَسْخٍ.

[إنَّما] أَدَاة حصر، بمعنى: «ما» و«إلاَّ» فَمَعْنَىٰ: [إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي]: ما حَرَّمَ رَبِّي إلاَّ، والحصْرُ يسْتَلْزِمَ نَفي غير المحصور.

الكليَّةُ الأُولَىٰ: الفواحِشُ مَا ظَهَرَ منها وما بَطَنَ.

الفواحِشُ: جمع «الفاحِشَة» وهي والفُحْشُ والفحشاءُ في اللّغة: كُلُّ قبيح تجاوز حدَّ ما يُحْتَمَلُ وَيُغْضَىٰ عنه عادةً من قولٍ أو عَملٍ.

قال أهل اللُّغَة: كلُّ شيءٍ جاوَزَ قَدْرَهُ وحَدَّهُ فهو فاحِشٌ، وقالوا: الفُحُشُ والفَحْشَاءُ والفَاحِشَةُ، القبيح من القول والفعل، وكلُّ خَصْلَةٍ قبيحة.

وقد نظَرَتُ في الاستعمالات القرآنيَّةِ لهذِه المادّة، فوجَدْتُ أنَّها تَدُورُ حولَ الكَبَائر المتعلّقة بشهوات الفُروج، وترجَّحَ لدَيَّ أن يُحْمَلَ مَا جَاء منها مُطْلقاً لم تُبَيّنْهُ القرائِنُ علَىٰ ما جاء مِنها مُبَيَّناً بالقرائن، فهي في الاستعمال القرآني مُخَصَّصةٌ بهذا الإِطَارِ من المعاصي اصطلاحاً.

(١) ففي سورة النّمْل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) جاء قولُ الله عزّ وجلّ في حكاية قِصَّةِ قوم لوطٍ ومُمَارسَاتِم الشّاذَّات:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

(٢) وفي سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) جاء قَوْلُ الله عزّ وجلّ في النَّهْي عَنِ الزنَىٰ.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

(٣) وفي سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) جاء قولُ الله عزّ وجلّ في حكاية قصّة قوم لوط. وإتيانهم الرّجال شهوةً:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: أنْتُمْ أكْثَرُ الناس مُمَارَسَةً لَهٰذِهِ الفاحِشَةِ الشَّاذَّةِ، الخارِجَةِ عن نظام الْخَلْقِ الرَّبَّانيّ السَّوِيّ.

(٤) وجاء في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ . . ﴿١٥﴾﴾.

وجاء فيها أيضاً قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾.

(٥) وَجَاءَ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) بشأنِ حديث الإفْكِ قولُ الله عزّ وجلّ: .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

من هٰذه النُّصُوصِ ترجّح لديَّ أنَّ الْمُرَادَ بلَفْظِ «الفاحِشَةِ، والفواحش» في الاصطلاح القرآنيّ ما يتعَلّق بالمحرَّماتِ الكبائر من شَهَواتِ الفروج.

● أمَّا مَا ظَهَرَ مِنَ الفواحِش، فَهِيَ الْفَوَاحِشُ المعْلَنَةُ في بُيُوتِ الزّنا الخاصّة، ومَا كان من قبيل الفواحِشِ الَّتِي تُمَارَسُ في الطُّرقات والحدائق العامَّةِ في بلاد الكفر، ونحو ذلك.

• وأمَّا مَا بَطَنَ من الْفَوَاحِشِ، فَهِيَ الفواحِشُ الّتي تكونُ في السّرّ مع الخليلاتِ والصَّدِيقَاتِ، والأَخْدَانِ، ونحوهنَّ.

وقد يُلْحَقُ بما بطنَ من الفواحش تَمنِّي الفاحِشةِ وإرادتُها مع عدَمِ التمكُّنِ من مُمَارَسَتِها، فإرَادَةُ المعْصِيَةِ الّتي يمْنَعُ من تحقُّقِها مانِعٌ خارجيّ تُساوي ارْتِكابَها فِعْلاً، وهذه الإرادة الجازِمَةُ مع وجُود المانع الخارجيّ هي من الْفَواحِشِ الباطِنَة.

الكليّة الثانية: الإِثْمُ، وجاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بيانُ أنّ الإثم منه ما هو ظاهر، ومنه ما هو باطن، فقال الله عزّ وجلّ فيها.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠)﴾.

الإثم: في اللّغَة، الذّنْبُ، وقد نظَرتُ في النُّصوص القرآنية الّتي جاءت فيها مادّة «الإثم» فظَهر لي أنّ «الإِثْمَ» مُسْتَعْمَلٌ فِي القرآن للدّلاَلَة على جميع المعاصِي كبائِرِها وصغائِرِها، وما بينهما.

فقد جاء في القرآن أنَّ أكْلَ المْيتةِ من دُون اضطرار لأكْلِها، إثْمٌ. وأنَّ تبديلَ نصّ وصِيَّةِ الموصِي عمَّا كتبه أوْ أمْلاَهُ على الكاتب، إثْمٌ. وأنَّ أكْلَ أموالِ النّاس بالباطل، إثْمٌ. وأنّ شُرْب الْخَمْرِ وأكْلَ الدَّمِ ولَحْمِ الخنزيرِ وما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ، إثْمٌ. وأنَّ أقوال الكُفرِ، إثْمٌ. وأَنَّ قَذْفَ أَهْلِ الْعِفَّةِ، إثْمٌ. وأنَّ بَعْضَ الظّنّ، إثْمٌ. وأنَّ الشِّرْكَ، إثْمٌ عظيم. وأنَّ افْتِرَاء الكَذِب على اللّهِ، إثْمٌ مُبين. وأنَّ كِتْمَانَ الشهادة، إثْمٌ، وهذا من الإثْم الباطِن، لأنَّهُ سُكُوتٌ عن الحقّ، فهو من إثْمِ الْقُلُوب. وأنَّ أكْلَ الرّبا من الإثْم.

وجاء في القرآن بيانُ أنَّ المعَاصِيَ الّتي يُطْلَق عليها لفظ «الإثم» منها ما هو من الكبائر، ومنها ما هو دونَ ذلِكَ بالتّدرُّجِ حتّىٰ الصَّغائِرِ الصُّغْرى.

وعلى هذا فالْفَوَاحِشُ تَدخُل في عُمُوم الإثم، إلاّ أنّها تَنفَرِدُ بمُصْطَلح

خاصٌ بها، تمييزاً لَهَا عن سَائِر الآثام، لأنَّ لَها أحكاماً خاصَّةً، ولأنّ مزالِقَ النفوسِ إلَيْها كثيرة.

وظاهِرُ الإثْمِ ما هو مُعْلَنٌ منه، أمَّا باطِنُ الْإثْم فما كَانَ مِنْهُ في السِّرِّ، ويَدْخل في عُموم باطن الإثْم ما كان منْهُ من أَعْمال الْقُلوب والنُّفُوس الإرَادِيَّة، كالنّفاق في دائرة الكفر، وبَعضِ أنواعِ الشّرْكِ الخفِيّ الّذي يكون في القلُوبِ والنفوس. وكالرِّياء المحْبِط للْعَمل، والنيَّاتِ الفاسداتِ من وراء الأعمال، والعزْمِ علَىٰ المعْصِيَةِ الّتي مَنَعَ مِنِ فعْلِها أو ممارَسَتِها مانِعٌ خارجيّ، وكالْحَسَدِ المنهيِّ عنه شرعاً، وتدبير الخُطَط للإضرار بأحكام الدّين، أو الإضرار بعباد الله في أنفسهم أو في أموالهم، أو في أعراضهم.

الكليّة الثالِثة: الْبَغْيُ.

البغي: هو الْعُدْوانُ، والظلْمُ، والْعُدُولُ عن الحق، والاستطالة على الناس بغير حق.

وأصْلُ البغي تجاوُزُ الحدِّ المأذُونِ به في السُّلُوك الإرادي إلى ما يَضُرُّ ويُؤْذِي، ويأتِي البغيُ بمعنى الحَسد، قيل: وأصْل البغي الحَسد، ثُمّ سُمِّي الظُّلْمُ بَغْياً، لأنَّ الحاسِدَ يَجْتَهد في أنْ تَزُولَ نعْمَةُ الله عن الْمَحْسُود.

وتَحْرِيمُ الْبَغْي يشْمَلُ مَا ظَهَرَ منه وما بطَنَ، لأنّه يَدْخُلُ في عُمُوم الإثم.

ومن استقراء النصوص القرآنيّة، ظهَرَ لي أنّ المراد بالبغي فيها الظُّلْمُ والعُدْوانُ على حقُوقِ الأفراد والجماعات.

ولمَّا كان الفَسَادُ في الأرض من الْعُدوان على حقوق الجماعات أو الأفراد، كانَ مَشْمُولاً بعُنْوانِ البغي.

وقد خُصَّ الْبَغْيُ بالذّكْر مع أَنّه يَدْخُل في عُموم الإثْم، لِتَوْجِيه اهتمام

المؤمنين، للحذَرِ الشديد من العدوان والظُّلم في الحقوق الخاصّة والعامّة، ومن الفساد في الأرض، إذْ هي من كبائر الذنوب الّتي يَخُصُّها اللّهُ عزّ وجلّ بعقوبات معَجّلات، مع ما يدّخر لمرُتَكِبيهَا من عُقُوباتٍ مؤجَّلاَتٍ إلى يوم الدّين.

وفي هذا التوجيه تَنبِيهٌ على أنَّ المؤمنين مطالَبُون بمكافحة العدوان والظلم والفساد في الأرض، تحقيقاً للأمْن.

وجاء تَقْيِيدُ الْبَغي بقَيْدِ «بغير الحقّ» في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ لإخراجِ ما قَدْ يُسَمَّىٰ بحسَبِ الظاهِرِ بَغْياً، وهو في الحقيقة قَمْعٌ للْبَغْي.

كمقَاتَلَةِ الْفِئَاتِ الباغِيَة، مُعاملَةً لها بمثْلِ أعمالها، لِقَمْعِ ما تقوم به من بَغْيٍ، ولَوْ أَدَّتْ هٰذِهِ المقاتَلَةُ إلى ظُلْمِ بَعْضِ أفرادِ جَمَاعَاتِ الْبَغَاة، لعَدَمِ إمكان التَّمْيِيز.

وكقِيَام بِعْض أولياء الأمُور ضمْن اجتهادِ مَقْبُولِ شَرْعاً، بتصرُّفاتٍ يَقْصِدُ بها تأْمِين النّاس، أو تأْمِينَ الدَّعْوة إلى الله، وهذه التصُّرفاتِ قد يسمّيها الناسُ بحسَب الظاهر عُدْواناً وظُلْماً وَبغْياً، وهي في الحقيقة لِقَمْعِ أَهْلِ المكْرِ والكيد الّذين يَبغُونَ الشَّرَّ وَالْفَسادَ في الأرض.

ومن البغي ما هو ظاهر وباطنٌ، لأنَّهُ يَدْخُلُ في عُموم الإثم، وممَّا بطَنَ من البغْي تدبير المكايد الخفيّة، كالغِيبة، والنميمة، والسِّحْر، والوِشَايات الّتي ينجم عَنْها إضْرارٌ بالآخَرين بغَيْرِ حقّ. وممّا ظهر من البغْي الْعُدْوانُ الصريحُ على الأَنْفُس والأمْوالِ والأعْرَاضِ، ومِنْهُ شهادةُ الزّور، والبهتانُ، وأنْواعُ الشتائمِ والسِّبَابُ، والاتّهامُ بالباطل.

الكلية الرّابعة: الشِّرْكُ بالله.

الشرك بالله جلّ جلالُهُ قسمان: شِرْكٌ في رُبُوبيّته، وشركٌ في إلَهِيَّتِه، ومن الشرك ما هو ظاهر، ومنه ما هو باطِنٌ خفيٌّ.

إنّ الإيمان باللَّهِ خالقاً رَبًا لَهُ كُلُّ صفاتِ الرُّبوبيَّةِ، أوّلُ الحقائق والمطالِبِ الدينيّة، ويقْتَرِنُ بها تَفَرُّدُه بهٰذهِ الرُّبوبيةِ إذْ لا يُوجَدُ رَبٌّ غَيْرُه.

وقد قام على تفرُّدِ اللَّهِ بالرُّبوبيّة وبالوجود الأزليّ دَلِيلُ العقل، المستندُ إلى الظاهراتِ الكَوْنيّة، ودَلِيلُ الْخَبَر عَنِ اللَّهِ الذي جاء به كلُّ أنبياءِ الله وَرُسُلِه، منذُ عَهْدِ آدم حتَّىٰ خاتم المرسَلين محمّد بن عبد الله ﷺ.

فمن جعل مع الله شريكاً لَهُ في رُبُوبيَّتِهِ من أَحْيَاءَ أو أشياء، أو قوانينَ سَبَبِيَّةً، فقد كذَبَ على الحقيقة، وكذّبَ أَخْبَارَ المرسَلِينَ، وظلَمَ حقَّ رَبِّه عَلَيْه، فهو بِشركِه من الكافِرين. وأشدُّ مِنْهُ كُفْراً وظُلْماً من أنْكر وجُودَ الرَّبِّ الخالق، أو أنْكَرَ بعْضَ صفَاتِ رُبوبيته الّتي هي صفات الكمال المطلَق.

وبعد الإيمان بالله رَبًا لا شَرِيكَ لَهُ في رُبوبيّته، تأتي الحقيقة الثانية، وهِي الإيمانُ بإلَٰهيَّةِ الرَّبِّ الخالق، وبأنَّه لا شريكَ له في إلَٰهيَّته.

فالله وحْدَهُ هو الذي لَهُ على عباده حقُّ أن يَعْبُدوه، ولاَ يُشْرِكوا بعبادته أحداً، ولا يُشْرِكُوا بعبادته شيئاً.

وقد قام دليلُ الْعَقْلِ، ودَلِيلُ الْخَبَرِ عن الله، على هٰذهِ الحقيقة الثانية.

● أمّا دليل العقل، فَمِنْ بَدَهيَّاتِ العقُول، أنّ من أنْعَمَ بشيءٍ على غيرِه، كانَ لَهُ حقُّ اعتراف المنْعَم عليه بذلك.

وأنَّ مَنْ كان هو الخالق الموجِدَ من الْعَدَم، كان من حَقّه على المخلوق أن يَخْضَع له ويُطِيعَهُ، لأنَّهُ مِلْكه، فإذا كان هُو الْمُمِدَّ لَهُ بالبقاء وبالنِّعم الجليلة، وبالتكريم والتفضيلِ على كثيرٍ ممّا خلَقَ، فإنّ من حَقّه علَيْه أن يُقَابلَه بالشُّكْرِ ولو ضِمْنَ الْحُدُودِ الدُّنيا.

هٰذِه هي العناصر الأولىٰ لعبادة المخلوق لخالقه، فالواجب الْبَدَهِيُّ على المخلْوق أنْ يكونَ عابداً لخالِقِهِ ورازقهِ والمنعِمِ علَيْهِ عبادةً إراديَّةً.

ومن البَدَهيّ أيضاً أنْ يكونَ الرَّبُّ مَعْبوداً مِنْ قِبَلِ المخلُوقِ، عبادةً إرَادِيَّة، أي: أن يكون إلَهاً له.

وبما أَنَّه لا رَبَّ في الوجود كُلِّه إلاّ الله وحده لا شريك له، فلا معبود إلا الله، أي: فلا إلَه هو مُعْبُودٌ بحَقٍّ إلاَّ الله عزّ وجلّ، تباركَتْ صِفَاته، وعَظُم سُلْطانُه.

● وأمّا دَلِيلُ الْخَبَرِ عن اللَّهِ جلّ جلالُه، الذي هو صاحبُ الحقّ، فما مِنْ نَبيٍّ وَلاَ رَسُولٍ إلاّ أخْبَرَ عَنِ الله، بأنَّ اللَّهَ يأمُرُ كُلَّ الَّذِينَ وضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامتحان أن يَعْبُدوه وحْدَه، وَيَنْهَاهم عن أن يُشركوا بعبادته أحداً، أو شيئاً ما.

هذه الكليّة الرّابعة من الكليّاتِ المحرّماتِ، قد جاءت في الآية بعبارة: ﴿..وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ...﴿٣٣﴾﴾.

السُّلْطانُ هنا: الحجَّةُ والبرهان.

ويتساءَلُ المتدَبِّرُ: لِمَ جاءَ قَيْدُ: **«مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِه سُلْطاناً»؟! وهَلْ يُمْكِنُ أن يُنَزِّل اللَّهُ عزَّ وجلّ سُلْطَاناً باتِخَاذِ شُرَكاءَ له في رُبُوبيته، أو في إلَهيَّته؟؟.**

أقول: هٰذا من الله جلّ جلالُه وعظُمَ سُلْطانُه، تكريمٌ للأفكار والعقُولِ الإنْسَانِيَّة، ومَا مَنَح النّاسَ من أدواتِ مَعْرِفةٍ، يُمْكِنُ أن تتوصَّل بها إلى حقائق الأمور.

فأعْطَاها الحقّ في أنْ تجادِل عن أفكارها، ومعتقداتها، بما مَنَحَها من قُدْرات استدلالٍ، وتقديم حُجَجٍ برهانيَّة.

فَمَنْ كانَ لدَيْهِ سُلْطانُ حُجَةٍ، مكَّنَهُ الله عزّ وجلّ من تقديمها، بما أنزل لعباده، فإنِ استطاع أن يُثْبِتَ بها أنّ لله شريكاً في رُبوبيَّته، أو في إلَهيَّته، فإنّ الله عزّ وجلّ يَعْذُره، ويَرْفَعُ عنهُ المؤاخَذَة.

ومن كان لدَيْهِ خَبَرٌ صَحِيحٌ صادِقٌ عن رسُولٍ من رُسُلِ الله، يُثْبتُ بيقينٍ أنّ لله شَرِيكاً في رُبوبيَّتِهِ، أو في إلَٰهيَّته، فإنَّه يُعْفِي نَفْسَه أيْضاً من المؤاخَذَةِ عنْد رَبّه.

أمّا مَنْ تَرَكَ بُرْهانَ العقل، والثابتَ من النقلَ عن اللّهِ عزّ وجلّ، واعْتَمَد على الأوهام، وعلىٰ مَا لاَ يَصْلُح لأنْ يكونَ دليلاً، واتَّبَعَ الكَذَّابين، والمخَرِّفين، والموسْوِسِينَ من شياطين الجنّ والإنْسِ، فإنَّه يُعَرّضُ نفسه لِلإدَانةِ، بأنّه من المشْرِكين الكافِرين، وبأنّه يَسْتَحِقُّ أنْ يكون في جهنَّم دَار العذاب يوم الدِّين، مع الخالدين في العذاب الْمُهين.

فَمَعَ أنّ الأمْرَ يتعلَّقُ بحَقّ الله عزّ وجَلَّ على عباده، في رُبُوبيته، أو في إلَٰهيّته، فإنّ الله تعالى لم يجعله أمْراً تحكُّمِيًّا، وإنّما جعل له بَراهِينَ عقِليَّةً وعِلْميَّة، وقد آتىٰ الله عزّ وجلّ النّاسَ وسائلها، فهو يحاسِبُهُمْ بمقتضاها، ويُطالبُهُمْ أن يستَنِدُوا إليها، ومكّنَهُمْ من أنْ يحاجُّوا بها.

هٰذهِ هي منطقيَّةُ دينِ اللّهِ الإسلام، إنها تَقُومُ على مَقُولَة: «قُلْ هاتُوا بُرْهَانَكُمْ» ولا تقومُ على مثل مقولة النصارى: «اعْتَقِدْ وأَنْتَ أَعْمَى».

على أنّ الله جلّتْ حكْمَتُه، وعظُمَ سُلْطانه، لو أَمَرنا أن نَعْبُدَ بعضَ خلقه، لكان يجب علينا أن نطيع أمْرَه.

لكنَّ حكْمَتَهُ العليَّةَ قضَتْ بأن يُفْرِدَ نفسَهُ بالعبادة، لئلاَّ يكونَ الشّرْكُ في العبادة دليلاً على الشّرْكِ في الرُّبوبيَّة، وعندئذٍ ينْتَقضُ أصْلُ التوحيد، الّذي هو قاعدة الامتحان الكبرى، في الإيمان بالغيب، بأدلّته البرهانيَّةِ العقليّة، وهذا أَمْرٌ يتنافَىٰ مع كمال الحكمة الرَّبانيَّة، فهو لا يكون.

الكلّية الخامسة: أن يتَقَوَّلَ الْعِبادُ على الله ما لا يعْلَمونَ أنّه من عنْدِ الله حقًّا وصِدْقاً، ولو بغَلَبَةِ الظنّ.

دلَّ على هذه الكليَّة قولُ اللّهِ عزّ وجلَّ في الآية:

﴿...وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: وأنْ تَقُولوا افْتِراءً على الله قولاً لا تَعلَمُونَ عِلْماً صَحيحاً مُسْتَنِداً إلى خَبَرٍ صحيحٍ عن المَعْصُومِ، أنَّ الله عزّ وجلّ قد قاله.

● فمن أمثلة هذا الافتراء على الله عزّ وجلّ ادّعاءُ اليهود أنَّهم لَنْ تَمَسَّهُمُ النّارُ مَهْما كَفُروا أو أجْرَمُوا إلاّ أيّاماً مَعْدُودَةً قليلة.

وفي بيان هذه الفِرْية اليهوديَّة، قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) في معرض الحديث عَنِ اليهود:

● ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

● ومن أمْثلة هذا الافتراء على الله عزّ وجلّ ادِّعاء بعض المشركين، وادّعاء النصارى، وغَيْرهم، أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ اتَّخَذَ وَلَداً.

وفي بيان هذه الفرية قال الله عزّ وجل في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

هذه هي الكلّيّاتُ الْخَمْسُ الّتي حصَرَ الله عزّ وجلّ فيها المحرَّمَاتِ الّتِي حرَّمَها على جَمِيعِ بني آدَمَ، في كلّ رسالاته الّتي بعَثَ اللَّهُ بها رُسُلَهُ، بَدْأً بآدَمَ عَلَيْه السّلام، حتّىٰ خاتم الأنبياء والمرسَلِين محمّد بن عبد اللَّهِ صلى الله وسلم عليهم أجمعين.

ونُلاحظُ في حصر المحرَّماتِ بهٰذه الكليّاتِ الْخَمْس جمعاً لكُلّ مفردات المحرَّماتِ التفصيليَّة، فليس منها محرَّمات أهْلِ الجاهلية، كتَحْرِيم أخذ زينَتِهم في الطواف، وكتحريم بعض الطيّباتِ من الأطعمة.

وفي بيانها إشارةٌ إلى أنّ أهْلَ الجاهلية يرتكبون المحرَّماتِ، الّتي حرَّمها الله في كلّ رسالاته لبني آدم، فلا يَتَورَّعُون عن ارْتِكاب الفواحِشِ ما ظَهَرَ منها ومَا بطَنَ، وارتكاب أنواع الإْثم، ولا يتورَّعُونَ عن البغْيِ بغير الحقّ، بل هم يُشْرِكونَ بالله ما لَمْ يُنَزّلْ بِهِ سُلْطاناً، فيركَبُونَ مركَبَ الكُفر بذلك، وهُمْ يقولُونَ افتراءً علَىٰ الله ما لا يَعْلَمُونَ.

في حينِ أنَّهُمْ يُحَرِّمُونَ باسْم الدِّين ما أحَلَّ اللَّهُ لبني آدم جميعاً، في كلّ رسالاته لهم، كالطواف بثياب عَصَوُا والله فيها بزعمهم. وكتحريم بعض الطيّباتِ من الأنعام والحرث، وكلُّ ذلِكَ من اتّباع أولياء من دون الله.



قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

تمهيد:

هذه الآية موصولةٌ بما جاء في الآيتين (الرابعة والخامسة) من الدرس الأَوّل من دروس السورة، اللّتَيْن جاء فيهما الإنذارُ باحتمال إهلاك كُفَّارِ قريْشٍ إهلاكاً عامّاً شاملاً، إذا وصَلَتْ حالُهم إلى مثل أحوال المهْلَكِين الأولين، من أهل القرون السابقة.

إنّ هذا الإنذار من شأنه أن يُحرِّكَ نفوسَهُمْ لطرح السؤال التالي: ما هو الأجَلُ المحدَّدُ لإنزالِ هذا العقاب المعجَّل، إذا كان الإنذارُ أمراً جدِّيًا صادِقاً.

فأنزل الله عزّ وجل هذه الآية (٣٤) في أثناء الدرس الثالث، فأبان فيها أنّ آجالَ إهلاك الأُمم الكافرة، الّتي كذّبَتْ رُسُل ربّها، وأكثَرَتِ الفساد في الأرض، آجالٌ مقترنَةٌ بتحديدٍ من الله عزّ وجلّ على وفْق حكمته.

إنّ إنزالَ الإهْلاَك العامّ الشّاملِ في الأُمَم يُلاحَظُ فيه أحوالُ عُمُومِ الأفراد، مَتْبُوعين وتابعين، قادةً ومَقُودين، ولاَ يُلاَحَظُ فيه أفراد القادة فقط، أَوْ أفرادٌ مِنهم مع بعْضِ أتباعهم.

فاستبطاءُ نزول العقاب الشامل، بعْدَ التهديدات المتكرّرات، أمْرٌ يدُلُّ على قِصَر النَّظَر، والجهل بحكمة الله عزّ وجلّ في تَرْبيَةِ الأُمَم، وتصاريفه في عقابهم، أو إمهالِهم حتَّىٰ آخر قطْرة زمنيّة يقترن بها في عِلْم الله، أنّ الأمَّة ما زالَتْ فيها بَقِيَّةٌ لم ينقطع معها تَرَقُّبُ استجابةِ بعضِ أفرادها لدعوة الخير، ودخولهم في دين الله.

وحين يعْلَمُ اللّهُ عزّ وجلّ، أنَّ الإمْهالَ غَيْرُ ذي جَدْوىٰ بالنسْبَةِ إليهم، فإنّه يَقْضِي بإهلاكهم، ويُنْزِلُ بهم مَعَجّل العقاب الشامل.

التدبر:

• ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾: أي: ولكلّ أمّةٍ قَضَىٰ اللّهِ بحكْمَتهِ أنْ يُهلِكَها إهلاكاً عامًا شاملاً أَجَلٌ مُحَدَّدٌ بقضائه وقَدَرِه لإهلاكها.

كلمة ﴿أُمَّةٍ﴾ تُطْلقُ في الاستعمال القرآنيّ على كلِّ مجموعةٍ حَيةٍ تجمعها صفاتٌ وخصائصُ، أو رَوَابط مُتمَيِّزَة.

فكلُّ أُمَّةٍ من النّاسِ أُرسِلَ إلَيْها رسُولٌ ليُبلّغَها رِسالَةَ رَبّها، فهي أُمَّةُ بَلاغِ ذلِكَ الرّسول. ومن أَجابَهُ مِنْهُمْ واتَّبَعَهُ فهم أمة الإجابة، ومن قام بواجب الدعوة، إلى دِين الله من اتْبَاعِ الرّسُول فَهُمْ أُمَّةُ الدَّعْوَة. ومَنْ قام بواجب الجهاد في سبيل الله منهُمْ فَهُمْ أُمَّة الجهاد.

والفريقُ من الأُمَّة الواحدة، إذا اجتَمَعُوا على رأْي واحِدٍ متميّزٍ افترقُوا به على سائر إخوانهم، تُطْلقُ عليهم كلمة «أُمَّة».

حتّى الفرد الواحد المتميّزُ عن قَوْمه، هو أُمَّةٌ وحْدَه، وقد كان إبراهيم عليه السّلام أمّةً وحْدَهُ، إذِ انفَرَدَ بكونه مؤمناً. قانتاً لله حَنِيفاً في أوّل عَهْدِه، قبل أن يؤمن به من آمن.

والمراد بلفظ «الأمّة» هُنَا في الآية الأمَّة المكذِّبة الكافرة. وأَجَلُها هو أَجَلُ إهلاكها، ويقابِلُها الأُمَّة المؤمِنَة، وَأَجَلُهَا هو أجلُ نَصْرِها على الأمّة الكافرة، ونجاتِها بمَعُونَةٍ من اللَّهِ عزّ وجلّ وتأييد.

وكلمة «أجل» تأتي في اللّغة للدلالة في ثلاثة معاني:

المعنى الأوّل: الوقت المحدّد أو المناسبِ لحصول الشيءِ وابتداءِ زمانه، مثل الأجل الذي كان في علم الله عزّ وجلّ لبِعْثَةِ محمَّدٍ ﷺ قَبْلَ بِعْثَتِه.

المعنى الثاني: غاية الوقت المحدّد لشيءٍ ما، أو المأذون به، مثل الأجل المحدّد في علْم الله عزّ وجلّ لإنهاء ظروف الحياة الدنيا بقيام السّاعة.

المعنى الثالث: المدَّة المحدّدة للشيء، والمحصُورةُ بَيْنَ أوّلٍ وآخر، مثل أَجَلِ اليوم، أو الشهر، أو السّنة، أو أَجَلِ الحيّ في الحياة الدنيا، أو أَجَلِ الحياة الدّنيا كلّها مُنْذ البدْءِ وحتّىٰ النهاية.

والمراد بالأجل في الآية الّتي نتدبَّرُها يَدُورُ حوْلَ الوقت المحدّد أو المناسب لحصول الشيء، وحوْل غاية الوقْتِ المحدَّد لشيءٍ ما، أو المأذونِ به.

فالمعنى: ولكلِّ أُمَّةٍ مُدَّةُ إمْهَالٍ أو تَرَيُّث، ووَقْتٌ مُحدَّدٌ أو مناسِبٌ

لإهلاكها، إذا كانَتْ كافرةً مُفْسِدَةً في الأرض، ولنصْرِها وَتَأْيِيدها إِذَا كانَتْ مُؤْمِنَةً مُجَاهدةً صَابرَة.

● ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾: أي: فإذَا جاءَ وقْتُ تنفيذ إهلاكهم، أو وقْتُ تنفيذ نَصْرِهم.

﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾: أي: لا يتأخَّرُونَ في حالَتهم السَّابقة زمَناً ما، مَهما قلّ، ولا يَتقدَّمُونَ في حالتهم الّتي هُمْ عليها زمَناً مَا، مَهما قَلَّ، أي: لا يَتمَكَّنُون من تعجيل الأجل الذي يحذفون به من المدَّة مقداراً ما إذْ لا يجري تنفيذ الأمْرِ المقرّر حُدُوثُهُ إلاّ في الأَجَلِ المحدّد تماماً، دون تأخير ولا تقديم.

استَأْخَر: أي: تأَخَّرَ، لُغَة.

استقْدَم: أي: تقدَّمَ، لُغَة.

والمراد بمجيء الأَجَل قُرْبُ الوقت المحدّد، لا حُصُولُهُ بالفعل، وإلاَّ لَمْ يكُنْ للتقدُّم معنى. وهو نظير: قد قامَتِ الصلاة، أي: قد اقتربَ وقت القيام بأدائها.

❊ ❊ ❊

قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

جاء في صدر هذا النّص نداءٌ رَابعٌ مِنَ اللّهِ عزّ وجلّ في بيانَاتِ هذا الدَّرس، مُوَجَّهٌ لبني آدم الأوّلين، الّذين كانوا في عهد آدم عليه السّلام، فمن بَعْدَهُمْ، يَحْكيه الله تبارك وتعالَى للّناسِ، ليُبَيِّن لَهُمْ أُسُسَ الدّين الّذي أَنْزَلَهُ لجميع بني آدم مُنْذُ عَهْدِهِمْ الأوّل في الأرض.

● ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾: ﴿إِمَّا﴾ حرفُ شَرْطٍ مُرَكَّبٌ من «إنْ» الشرطيّة، و«مَا» المضافة لتأكيد معنى الشرط، واصطَلح النحاة على تسميتها زائدة، أي: لغرض التأكيد.

وفِعْلُ الشرط في عبارة: ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وجوابُ الشَّرْطِ في عبارة: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

تضَمَّن هذا البيانُ أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قد وعَدَ بني آدم الأولين، بأنّه سَيُرْسلُ لهم ولذرَارِيهم ولأجيالهم القادمة من بَعْدِهم رُسُلاً، يُبَلِّغونَهُمْ، هُدَى رَبّهم لهم، المشتَمِلَ على أوامره ونواهيَه، ووصَاياه، وشرائعه، وأحكام دِينِهِ الذي اصطفاه لهم، ووَعْدَهُ، ووَعِيدَه، وأخبارَه، وبيَاناته، في آياتٍ يُنَزِّلُها عليهم.

وهذا الوعْدُ يتضَمَّن عن طريق اللُّزُوم الذِّهنِي، أنَّ أجيالَهُمْ ستتعرَّضُ لنسيان الدّين الّذِي بلَّغَهُمْ إيّاه أبوهم آدم عليه السلام، وستتعرّضُ للخروج عن صراط الله المستقيم، في عقائدهم، ومفهوماتهم، ومنهاج حياتهم، حتّىٰ يكونوا بحاجة إلى إرسال رُسُلٍ من عنْد الله، يُبَلِّغونهم من جديدٍ عناصر الدّين الذي نَسُوهُ أو ضَيَّعُوه، ويأمُرُونهم بتَرْكِ مَا ظهر في مجتمعاتهم من انحرافاتٍ عن دين الله، وبالْعَوْدَةِ إلى صراط الله المستقيم، ويُضيفُون إلى التعليمات السَّابقاتِ بأمرِ الله بعض الأحكام الدّينيَّة الّتي صارَتْ مجتمعاتُهم بحاجَةٍ إليها، مُراعاةً لسُنَّةِ التَّطَوُّرِ البشرِيّ التكامُليّ، في تنامي التصرُّفاتِ الفرديَّة، وتزَايُدِ وَتَشابُكِ العلاقات الاجتماعيّة.

وأبانَ اللَّهُ عزّ وجلّ لبني آدَمَ مُنْذُ نَشأَتهم الأولَىٰ، أنَّ الرُّسُل الّذين سيُرْسِلُهم لأجيالِ بني آدَمَ في قُرونهم الآتيات هُمْ مِنهم، أي: أفرادُ بشَرٍ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدم، لا مَلائكة ولا جنّ، دلّ على هذا قول الله تعالى: ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾.

وقد أكّدَ الله عزّ وجلّ هذا النبأ بنُونِ التوكيد الثقيلة، لِيَضعُوا في ذاكراتهم دواماً، أنّهم إذا انْحَرَفُوا وَنَسُوا تعاليم الدّين، بعَثَ لهم رُسُلاً بشراً منهم، يُجَدِّدُونَ لَهُمْ ما كانُوا قد أَبْلَوْهُ من الدِّين، بالانحراف والتحريف والنسيان، معَ ما يُضيفُهُ الله تبارك وتعالى من بياناتٍ تكامليَّةٍ، في مسائل الدين وقضاياه.

وقبل بِعْثَةِ محمد ﷺ أَخَذَ الله الميثاق على الرُّسُل وأتباعهم أن يُؤْمِنوا بالرّسُول الخاتم، ويتّبعُوهُ متىٰ بعَثَهُ الله.

وبإرسال الله عزّ وجلّ رسُولَه محمّداً ﷺ خَتَم الأنبياءَ والمرسَلين، وأكْمَل بما أنْزَلَ عليه الدّين، وتكفَّلَ بحفْظِ كِتَابه منْ أيِّ تَحْريفٍ أو تبديلٍ، أو ضياعٍ أو نِسْيانٍ، فتمَّتْ بذلِكَ مقتَضَياتُ الحكمة الرَّبَّانيّة، وتمّ تدبير أَمْرِ دِينِ اللّهِ لعِبادِهِ، على أحْسَنِ وجْهٍ وَأكْمَلِه.

● ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾: يقال لغة: قصَّ عليه الخبر، أي: حدَّثَهُ به على وجْهِه، بتَتَبُّعِ عناصِرِه، دون تَحْرِيفٍ أو تبديل. وتقولُ: قَصَصْتُ الشَّيْءَ، إذا تتبَّعْتَ أَثَرَهُ شيئاً فشيئاً.

والمعنى: أنّ الرُّسل الذين سأرسلهم إليكم مِنْكُمْ في تتابُعِ أجيالِكُمْ يَا بني آدم، سيَقُصُّونَ بتَتَبُّعٍ كاملٍ، تَالين عليكم آياتي البيانيَّة، الَّتي سَأُنْزِلُها عليهم، فهُمْ يُبَلِّغُونكم إيَّاها، وسيَتَتَبَّعُونَ آياتي الكوْنيَّة فيُرْشِدُونكم إليها.

وفي الآيات البَيَانيَّة المنزَّلاَت الّتي يَقُصُّها عليكم رُسُلي، أوامِرُ ونواهي وتكاليف، وَوَعيدٌ لمَنْ خَالَفَ وعَصَىٰ، ووَعْدٌ بثوابٍ عظيم لمَنِ اتَّبَع وأطاع.

● ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: فَمن اتَّقَىٰ بإيمانِه وإسْلاَمِه الْخُلُودَ في عَذاب النار، ومَنْ أَصْلَح فأتَىٰ من الْعَمَل بما هو صالح، وأصْلَحَ نَفْسَه وعَمَلَهُ مِمَّا يتَعَرَّضُ له من فسادٍ بالتَّوبَة والعمل الصالح، فثوابُه عند ربّه يوم الدّين أن لا يَخافَ من عقَابٍ وعَذَاب، وأن لا يحْزَنَ على أَمْرٍ فاته.

عبارة ﴿ٱتَّقَىٰ﴾ دَلَّتْ على اتّخاذ شيءٍ تكون به الوقاية، ودلَّتْ باللُّزوم الذّهنيّ على أنَّ هذا الشَّيْءَ قَدْ نزَلَ به تكليفٌ في آيات الله. ودلَّتْ على أنَّ هذا التكليف قد اقترن بوعيد لمن عصَىٰ، وهذا الوعيد يشتمل على تَرْتِيب عقوبة ذاتِ أَلَمٍ، وأنَّ الطاعةَ هي بمثابة الوقاية منها.

لكِنَّ مُجَرَّدَ الوقاية من العقاب لا يستَدْعي تَرتيب الثَّواب في جنَّاتِ النعيم، فجاءت عبارة: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ لتَدُلَّ على أنَّ الإصلاح يترتَّبُ عليه الوعْدُ بالثواب في جنَّات النعيم.

فعل «أَصْلَحَ» يأتي لازماً، ويأتي متَعَدِّياً. يقال لغة: أَصْلَحَ الرَّجُلُ في عَمَله، أو في أمْرِه وشأنه، أي: أَتَىٰ بما هو صالِحٌ نافعٌ. ويقال: أصلح الرجل الشيء، أي: أزال فساده.

ويحسن هنا أن يحمل فعل (أصلح) على المعنيين معاً.

والمعنى: فمن اتَّقى العقاب، وأتى بما هو صالح لنيل الثواب، وأصْلَحَ من نفسه وعَمَله ما تَعَرَّضَ له من فساد بالتوبة والاستغفار، فاسْتحقَّ الثواب ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الخَوْف: اضطرابٌ وقَلَقٌ في النفس يحْدُثُ عند توقُّع حُدُوث مكروه، أو تَوَقُّع فواتِ محبُوب.

الْحُزْنُ: ما يَحْدُثُ في النفس من غمٍّ وألَم بَسبَب نزولِ مكْرُوهٍ، أو فواتِ محبُوب.

والله عزّ وجل قد أبان لبني آدم منذ زمن الجيل الأول منهم، أنّ من اتَّقَوْا عقابَ الله وعذَابَه، فجعَلُوا بينهم وبين عقاب اللَّهِ وِقايَةً بإيمانهم وإعلانِهم إسلامَهُمْ لرَبِّهم، وأَصْلَحُوا فأتَوْا بما هو صالحٌ، وأصلَحُوا بالتَّوبة والاستغفار ما تعرَّضُوا له من فساد، فَهُمْ فِئَةٌ لاَ خَوْفٌ تضطربُ به نفوسُهُمْ وقلُوبُهم يوم الدّين، بسَبَبِ ترَقُّبِ مَكْرُوهٍ من عَذَاب الله، ولاَ هُمْ يحْزَنُونَ

بسبب مكْرُوهِ نزَلَ فعلاً بهم، أو من أجل محْبُوبٍ فاتَهُم الحصُولُ عليهم.

عبارة «عَلَيْهم» من جُمْلَةِ: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ تَدُلُّ على أنَّ الخوفَ لا يسْتَعْلِي عليهم اسْتِعْلَاءَ الملازم المسَيْطر.

وعبارة: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ باستعمال الفعل المضارع الذي يدلُّ على التجدُّد، تدُلُّ على أنهم لا يكونُون بحالة يتجدّدُ معَهُمْ فيها الحزْنُ.

وهذا يكون لهم في الدُّنيا وفي الآخرة.

أمّا في الدنيا فلأنّ إيمانهم بالله واليوم الآخر، وما أعَدّ الله لهم من ثوابٍ جزيلٍ خالدٍ في جنّات النعيم، يجعلُهم راضين عن الله جلّ جلالهُ تمامَ الرّضا بكلّ مقاديره، مطمئنّين لحكمته، واثقين بالثواب العظيم، الّذي سوْفَ يلْقَوْنَه يوم الدّين.

وهل يُسَيْطِرُ الخوفُ علَىٰ من يَترقَّبُ مُصِيبةً تُصِيبُهُ بُوزْنِ حَصَاةٍ، وهو يعْلَمُ بيقين أنَّ مكافأته عليها أعظم من وزن جبل؟!.

وهل يتوالَىٰ الحزْنُ على مَنْ تَنْزِل به مصيبة بمقدار حَصَاةٍ، وهُوَ يعْلَمُ بيقينٍ أنَّ ثوابَهُ عليها سوف يكون أعظم من وزن جبل؟!..

على أنّ ثواب الله عزّ وجلّ يَومَ الدّين أعْظَمُ وأجلّ.

وأمّا في الآخرة، فمن اتَّقَىٰ وأصْلَحَ فإنَّهُ لا يخاف من عقاب الله، لأنَّ رحمة الله جلّ جلالُه سَتَشْمَلُهُ بالغفران والعفو، وإنَّهُ لا يَحْزَنُ من أجْلِ محبُوبٍ فاتَه في الدُّنيا، لأنّه سينالُ من النعيم فوقَ ما يتَمَنَّىٰ، وفَوْق ما يَحْلُم به، وسيُعطَىٰ كلّ مَا يَطْلُبُ ويَشْتَهي، ومَزِيداً فَوْقَ ذَلِكَ ما كانَ يعْلَمهُ ولا يتصوَّرُه.

وفوق حالِ من اتَّقَىٰ وأصْلَحَ حال الأبرارُ، وفوقهما حَالُ المحسنين يوم الدّين.

أمّا من كان من أهل الإيمان ولكن لم يَصِلْ إلى درجة من اتَّقَىٰ وَأَصْلَح، فقد ينالُه من الخوف والحزن على مقدار معاصيه، بسبب ما ينزل به من عقاب، وما يُحْرَمُهُ من ثواب.

● ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)﴾.

أيّ: والّذِينَ يَثبتُ عَلَيْهم في محكَمَةِ العدل الرَّبَّانيّة يَوْمَ الدِّين، أَنَّهُمْ كَانُوا في الدُّنيا قَدْ كَذَّبُوا بآياتِ اللَّهِ، الَّتِي بلَّغَهَا رَسُولٌ من رُسُلِ الله، المؤيَّدينَ من عندِ اللَّهِ بالآياتِ البيّناتِ، والمعجزاتِ الباهرات، إذْ كَذَّبُوا الرَّسُولَ على الرُّغم من ثُبوتِ رسالته بالبرهان، ويَثْبُتُ عليهم في محكمة العدْل الرّبّانية، أنّهم اسْتَكْبَرُوا في أنفسهم، وامْتَنَعُوا عن امتثال مطلوب الله منهم، بفعْلِ ما أمَرَ به، واجتناب ما نَهَىٰ عنه في آياته المنَزَّلاَتِ، هُمْ مُلازمُو النَّارِ للعذاب فيها، وهم في العذاب خالدون بلا نهاية.

الاستكبار: يأتي في اللّغة بمعنى الامتناع عن قبول الحق، معاندة وتكَبُراً. ويأتي بمعنى التكبُّر بشِدَّة، والمعنى الأوّل هو الأكثر مناسبة هنا.

وجاءت تَعْدِية فعل: **اسْتَكْبَرُوا** هُنَا بحرف الجرّ «عَنْ» لتضمُّن الفعل معنى الامتناع عن قبول ما جاء في بيَانَاتِ الله من حَقٍّ، والامتناع عن الْعَمل بما جاء فيها من أوامِرَ وَنواهيَ وتكاليف.

ولمّا كانَ هؤلاء كافِرين بَسَبب تكذيبهم واسْتكبارهم مُمْتَنِعين عن طاعة الله، وعن الإيمان بربوبيَّته وبإلَهيّتِه، كانوا مستحقّين لأنْ يكونوا أصْحَابَ النار، وأن يكونوا خالِدينَ فيها.

وجاءت الإشارة إليهم باسم الإشارة الموضوع للبعيدين: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ للدَّلاَلَة على أنّهم بَعِيدُونَ جدًّا عن مواطن تنزُّلات رحْمَةِ الله، وهَابِطونَ في الْعُمْقِ السَّحِيقِ الّذي يكون فيه المجرمون.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: أي: ملازموها، وجاء تأكيد هذه الملازمَةِ بأنّها ملازمَةُ خُلُودٍ فيها، فقال الله تعالَىٰ: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وبهذا تمّ تَدبّر الدّرس الثالث من دروس السورة
والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومَعُونته



(٨)
التدبّر التحليلي للدّرس الرابع من دُروس السورةِ
وهو الآيات من (٣٧ ـ ٥٣)

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا

وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ۚ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

تمهيد:

يسير هذا الدَّرس على الخطّ الأعظم الذي سارت عليه مفهومات أكثر دروس السُّورة ومقَاصِدها، وهو الخطّ الذي دلّت عليه الآية الثالثة منها:
﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

إنّ تكليف الناس الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الابتلاء باتّباع ما أُنزِل إليهم من ربّهم، وبأنْ لا يَتّبِعُوا من دُونِه أولياءَ على ما سبَقَ به التدبّر، يلْزَمُ عنه عدّة أمور:

الأمر الأوّل: أن يُحَافِظُوا علىٰ ما أُنْزِلَ إليهم من ربّهم، فلا يُحَرِّفُوا فيه تحريفاً ما، ولا يُبَدِّلُوا فيه شيئاً، ولا يُضَيِّعوا أو يُهْمِلُوا أَوْ يَنْسَوْا مِنْهُ شيئاً.

الأمْرُ الثاني: أنْ لا يَفتَرُوا علىٰ اللَّهِ كذِباً يَنْسُبُونه إلى الله. ويقولُونَ: إنَّهُ ممَّا أُنزِلَ إلَيْهِم من رَبّهم، وهو من اختلاقاتهم وأكاذيبهم على ربّهم.

الأمْرُ الثالث: أنْ لاَ يُكَذِّبوا بآيَاتِ اللَّهِ المنزَّلاتِ إليهم، الّتي بلَّغَهُم إيّاها الرَّسُول الصَّادِق الأمين، المؤيَّدُ من الله جلّ جلاله، بالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، والمعْجِزَاتِ الباهرات.

الأمر الرابع: أنْ لا يتَّخِذُوا مِنْ دُون اللَّهِ أَوْلياءَ، مِنْ شياطين الإنْسِ والجنّ، فاتّخاذُهُمْ أولياءَ يقْتَضي اتّباعَهُمْ فيما يأمُرُونَ به، وفيما يَنْهَوْنَ عَنْه، والأولياءُ من دُون الله يأمُرُون وينْهَوْن على خلاف أوامر الله ونواهيه، وَيضَعُون قوانينَ وتشريعاتٍ طاغوتيّة، على خلاف شريعة الله ومنهاجِه لعباده، إذْ يَضَعُونَ القوانِينَ والتشريعاتِ الّتي يُحقِّقُون بها أهواءَهُمْ ومصالحهم، دون مُراعاة الحقّ والعَدْلِ والصَّلاح والإصْلاح في الأرض، أو يضَعُونَها بإيحاءِ من إبليسَ عَدُوّ بني آدم، الّذي أخَذَ الْعَهْدَ على نَفْسِه بأنْ يُغْوِيَهُمْ، حتَّىٰ يكُونُوا من الخالدين في عذاب النار، أو من الْعُصَاة المسْتَحِقِّينَ لعقاب الله وعذابه، على مقادير معاصيهم ومخالفاتهم.

وجاء في الدرس الأوّل من دروس السورة في الآية (٩) بيان أنّ الّذِين خَسِرُوا أنفسهم قَدْ خَسِرُوها بِسَبَب أَنَّهم كَانُوا بآيات الله يظْلِمُونَ.

ومشكلة إبليس الّتي جاء بيانُها في الدَّرْس الثاني أنّه عصَىٰ ما أَمَرَهُ الله به، ولم يَتَّبع ما أنزل الله، وكذلك كانت مشكلة آدم وحواء.

وجاء في الدرس الثالث بيان ما أنزل الله لبني آدم الأوّلين فَمَنْ بَعْدَهم، والتَّحْذيرُ من التكذيب بآيات الله والاستكبارِ عن العمل بما جاء فيها.

فجاء الدّرْسُ الرّابع مُرَتَّباً على عناصر الخطّ الفكري الأعظم الّذِي جاء بيانه في الآية الثالثة من السورة ترتيباً مُحْكماً.

التدبر:

● قول اللّهِ عَزّ وجلّ:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

في هذه الآية تفريعٌ ملائمٌ للخطّ الفكري الأعظم، الممتَدّ من أوّل السُّورة حتى آخِرها، وهو خطٌّ استمرَّت تتواردُ عليه بياناتٌ وأفكارٌ ومَفْهوماتٌ لَهَا عَلاَقَةٌ به.

الافتراء: اختلاقُ الكذِب عن عَمْدٍ، يقال لغة: افترىٰ الحديث، أو الخبر، أو نحوهما، أي: اختلقه كاذباً عامداً.

ويقالُ: فَرَىٰ فُلاَنٌ الكَذِبَ يفْرِيه، أي: اختلقه واصطنَعَهُ كاذباً، والاسم منه: «الْفِرْية» وجَمْعُها: «الْفِرَىٰ».

وأصْلُ معنَىٰ الْفَرْي في اللُّغَة: قَطْعُ الجلْدِ، ومِنْهُ سُمِّي قَطَّاعُ الْجُلودِ «فَرَّاء».

في هٰذه الآيَةِ يُبَيِّنُ الله عزّ وجلّ أنَّ افْتِرَاءَ الكَذِبِ علَى الله، والتَكْذِيبَ بآيَاتِ الله، يقعانِ في مُسْتَوىٰ أشَدِّ أنواعِ الظُّلْم، فلا يُوجَدُ بَعْدَهُما أشَدُّ منهما، ولكِنَّ هذا لا يمنَعُ من وجُودِ ظُلْمٍ آخَرَ هُو في دَرَكَتِهما من الخِسَّةِ والإجرام.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾؟: استفهامٌ عن وُجُودِ الأَظْلَم، وهذا الاستفهامُ يُشْعِرُ بأنَّهُ لاَ يُوجَدُ أظلَمُ ممَّنْ افْتَرَىٰ علىٰ الله كذِباً، أَوْ كَذَّبَ بآياته.

وقد جاء في القرآن مثْلُ هذا التعبير بالنسبة إلىٰ مَنْ ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّه ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها، وبالنِّسْبَةِ إلىٰ مَنْ منعَ مَساجِدَ اللّهِ أَنْ يُذكَرَ فيها اسْمُه وسَعَىٰ في خرابها، وبالنسبة إلى مَنْ كَتَمَ شَهادَةً عنْدَه مِنَ الله.

ويدخُلُ الزَّنَادِقَةُ والملاحِدَةُ في المكذّبين بآيات الله.

وقد جاء هذا البيان: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾؟ بأسْلُوب الاستفهام الاستنكاريّ التوبيخيّ، المتضمّنِ التعظيمَ من شَناعة وفظاعة جُرْمِ مَنْ يَفْتَرِي على الله الكذِبَ، وهُمْ مُدَّعُو النُّبُوّةِ الكذّابُونَ، والَّذِينَ يُحَدِّثُونَ أَحَادِيثَ يكْذِبُون بِها على اللَّهِ ورسُولِه، مُفْتَرِينَ في دِينِ الله، والتعظِيمَ من شناعَةِ وفَظَاعة جُرْمِ مَنْ يَسْتَمِعُ إلى آيَاتِ الله المنَزَّلاَتِ على رسُوله، ويَعْلَمُ أَنَّها من كلام الله، أو تَدْمَغُهُ الحجَّةُ بأنَّها من كلام الله، ثُمَّ يكذِّبُ بها، فَلاَ يَقْبَلُها اسْتِنْكافاً عن أن يعَمَلَ بها.

وبعد بيان أنَّ هٰذيْنِ الفريقين من أظْلَم الظَّالِمِين المجرمين، ذكر الله عزَّ وجلَّ عنهم قضيَّتَيْن:

القضيَّةُ الأولى: تتعلّقُ برحلَتِهِمْ في الحياة الدنيا، حتَّىٰ لحظة وفاتهم، فقال الله عزّ وجلّ بشأنهم فيها:

● ﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ... ﴿٣٧﴾﴾.

يَنَالُهُمْ: أي: يَصِلُ إليهم، يُقالُ لغة: نَالَهُ الشيءُ، أي: وصَلَ إليه، وهذا المعنى من معاني هذا الْفِعل هو المناسِبُ هُنا.

ويُقَالُ لغة: نَالَ فلاَنٌ الشيءَ، أي: حصَلَ عليه، وأدْرَكَه وبلَغَهُ، ويقال: نَالَ الرَّجُلُ فلاناً الشيْءَ، أيْ: أعْطَاهُ إيَّاه. ويقالُ: نَالَ مِنْ عَدُوِّه، أي: وتَرَه، ونالَ من عِرْضِه، أي: سَبَّه.

نَصِيبٌ مِنَ الْكِتَاب: أي: حظٌّ ممّا قضاه اللّهُ وقدّره لهم من متاع الحياة الدُّنيا، في رِحْلة ابتلائهم، وكتَبَهُ لهم ضِمْنَ ما كتَبَ من معْلُومَاتٍ مستقْبَلِيَّةٍ عنهُم.

النَّصِيب: هو الحظُّ من كُلّ شيءٍ، والجمْعُ: «أنْصِبَاء» و«أنْصِبَة»

و«نُصُب». والحظُّ في الأصْلِ يكونُ في الخير، وهو كذلك في الاستعمال القرآنيّ، والنصيبُ يستَعْمَلُ غالباً في الخير، وقَدْ يُسْتَعْمَلُ في الشرّ.

القضيّة الثانية: تتعلّقُ ببيان حالَتِهم حينما تأتيهم ملائكة الموْتِ يَتَوَفَّوْنهم، فقال اللَّهُ عزّ وجل بشأنهم فيها:

● ﴿..حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

إنّهم بافترائِهِمْ على اللَّهِ كَذِباً، أَوْ تَكْذِيبهم بآياتِ الله، لاَ بُدَّ أن يكونُوا قد اتَّخَذُوا من دون الله أولياءَ، فَهُمْ يَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونَ الله، أي: يعْتَبرونَهُمْ آلِهةً لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ يَأْتَمِرون بأَوامرهم، وينْتَهُون عَمَّا يِنْهَوْنَهُمْ عنْهُ، ويَتَّبِعُونَ قوانِينَهُمْ وأنْظِمتَهمُ الطّاغوتيَّة، ويَسْتَمِرُّ حَالُهم كذلك حتَّىٰ تَنْتَهِيَ آجال أعْمارِهم في الحياة الدنيا، فتجيئهمْ حينئذٍ مَلائكة الموْت الّذين يُرْسلُهم الله إليهم لقبض أرواحهم.

فإذا جاءَتْهُمْ ملائكةُ المَوْتِ انكشفَتْ لهم عنْدئذٍ حقائق منْ أمُور الآخرة.

وعندئذٍ تقولُ لَهُمْ ملائكَةُ المَوْتِ بأَمْر الله: أيْنَ ما كُنتُمْ تَدْعُون من دُونِ الله؟ أي: ليَدْرَؤُوا عنكم الْعَذَابَ النازِلَ بكم، بِسَبَبِ كُفرِكم برَبّكم، وبِسَبَبِ شِرككُمْ، وليَحْمُوكُمْ ممَّا سَوْفَ تَصِيرُونَ إليه من عذاب جهنَّمَ.

فلا يجدُون جواباً إلاَّ أَنْ يقولُوا: ضَلُّوا عَنَّا، أي: لاَ نَعْلَمُ عَنهُمْ شيئاً، إذْ لا نَجِدُ لهم وُجوداً، ولا نَجِدُ مِنْهُمْ نفعاً، إِنَّهم لاَ يَدْفَعُونَ عَنَّا المَوْت، ولاَ يَدْفَعُون عنَّا شيئاً من العذاب.

فتَقُول لهم الملائكة: إذَنْ كُنتُمْ كافِرِين بما جَاءكم به رُسُولُ رَبّكُمْ، فَكَذَّبْتُموهُ، وكَذَّبْتُمْ بآياتِ الله.

فيقولُونَ: نَعَمْ، ويَشْهَدُونَ على أنْفُسِهِمْ بأنَّهُمْ كانوا كافِرِين.

● ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا﴾: أي: يسْتَمِرُّون في الحياة الدُّنيا يَفْتَرُون على الله كذِباً، ويُكذّبون بآياتِه، ويستَمْتِعُونَ بما قضىٰ الله لهم من نَصِيبٍ منْ متاع الحياة الدُّنيا، حتَّىٰ وقْتِ مَجِيء رُسُلِنا من الملائكة إليهم لقبض أَرْواحهم، وإنْهاءِ رحْلَةِ امتحانهم.

● ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾: أي: يقْبضُونَ أرواحَهُم ويَنْتَزِعُونَها من نفوسهم، أو يتَرَقَّبُونَ اسْتيفاءَهُم كُلَّ نصِيبهم من لحظاتِ ما قُضِيَ لَهُمْ من عُمْرٍ، وما قُضِيَ لهم من رزْقٍ ومن مَتاعِ الحياة الدّنيا، فإذَا اسْتَوْفَوْهَا قَبَضُوا أَرْواحَهُمْ.

● ﴿..قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ..﴾؟.

جاء التعبيرُ هُنَا على طريقة الاستقطاع ممَّا سيَكُونُ حتَّىٰ كأنَّهُ يجري الآن، وهي من روائع فُنُون الأدَب القرآني.

أي: قال ملائكةُ الموْتِ لَهُمْ: أيْنَ الشّركاءُ الّذِينَ كُنتُمْ تجعَلُونَهم شركاءَ لله افتراءً علَيْه، حتَّىٰ يَدْفَعُوا عَنْكُمْ عَذَابَ الله، أو يَشْفَعُوا لكم عِنْدَه.

الاستفهامُ هُنَا فيه معنَىٰ التَّقْرِيعِ والتوبيخ، مع ما فيه من اسْتِجْوابٍ لإثبات كُفْرهم.

● ﴿..قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا..﴾: أي: قال المفتَرُونَ على اللّهِ والمكذِّبُونَ بآيَاته الَّذِينَ اتَّخذُوا من دُون الله أولياء: ضَلُّوا عَنا.

أي: لا نَعْلَمُ عَنهُمْ شيئاً، تقولُ لغةً إذا ضَاعَ منْكَ شيءٌ، فلَمْ تهتَدِ إليه، ولا تَعْلَمُ عنهُ شيئاً: ضَلَّ عَنّي.

● ﴿..وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ۝٣٧﴾:

دلَّتْ هٰذه العبارةُ على أنَّ الملائكة المرسَلِين إليهم لقبض أرْواحِهم، يَسْأَلُونهم عَنِ الرَّسُولِ، وعَنِ آيَات اللّهِ الّتي بلَّغَهُمْ إيَّاهَا الرَّسُولُ عَنْ رَبِّه،

فيُجِيبُونَ إجَاباتٍ تَدُلُّ على أنَّهُمْ كانُوا فِي الحياة الدّنيا كَافِرِين، وهٰذِهِ الإجَاباتُ هيَ شَهَادَةٌ مِنْهُمْ علىٰ أنفُسِهم بأنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِين.

قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)﴾.

● قرأ «رُوَيسٌ» عن «يعْقُوبٍ»: [فَآتِهُمْ] بضَمّ هَاء الضّمِير وهي من لغات الْعَرَب.

● وقرأ «شُعْبَةُ» عن «عَاصِم»: [وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ] بياء الغائبين، أمَّا قراءةُ جُمْهورِ الْقُرّاء العشرة فهي: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ بتاء المخاطبين، وبين القراءَتَين تكامُلٌ في الأداء البياني. إحْدَاهُما لخطاب أصْحَاب الْحوَار، والأخرىٰ لخطاب غيرهم عَنْهُم.

يُلاحظُ في هذا النّصّ أنَّ الْبيانَ الْقُرآنِيَّ يَقفِزُ من تَصْويرِ مَشْهَدٍ مِنْ مشَاهِدِ ما يَتعَرَّضُونَ له حَالَةَ قَبْضِ أرْواحهم، إلى بَيَانٍ لقَطَاتٍ من مَشَاهِدِ أحوالهم يوْمَ الدّين، بعْدَ الْحِسَابِ، وفَصْل القضاء، وهٰذا أسْلُوبٌ رفيعٌ من الإبداع الْفَنّي.

وقد اشتمل هذا النصّ على أرْبَعِ لقطات:

اللّقطة الأُولى:

دَلَّ علَيْها قوْلُ الله عزّ وجلَّ: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ..﴾.

أي: قالَ اللَّهُ عزّ وجلّ لهم هذا القول، هذا هو الظّاهِرُ وَلاَ حاجة للعُدُول عَنه.

● ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾: الخطابُ مُوجَّهٌ للّذين كانوا في ا لحياة الدنيا قد افتَرَوا علَىٰ اللَّهِ كذِباً، وللذّين كذّبُوا بآيات الله.

● ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾: أي: ادخُلُوا حتَّىٰ تكونوا ضِمْنَ هٰذِهِ الأُمَمِ الّتِي مَضَتْ سَابقَةً لَكُمْ إلى مَواضع عَذَابِها في النار، ليَكُونَ كلُّ فريقٍ منكُمْ مَعَ نَظِيرِه من هٰذِهِ الأُمَم السَّابقة إلى النار بالنظر إلى إمَامَتِها وقيادَتِها لَكُمْ في الضلالِ والكُفْرِ والإجرام، وبذلِكَ يُجْمَعُ الأتْبَاعُ مع مَتْبُوعيهم وَأئِمَّتِهِمْ وقَادَتِهم.

وقد ذَكر اللَّهُ عزّ وجلّ أنّها أُمَمٌ، لِأنَّها مختلفة المذاهب، والطرائقِ الكُفْرِيَّةِ والإجْرَاميّة.

● ﴿قَدْ خَلَتْ﴾: أي: قَدْ مَضَتْ وَذَهَبَتْ، ودخلَتْ في النار، بَعْدَ مُحَاكَمَتِها، وفصْل القضاء بشَأنها.

● ﴿مِن قَبْلِكُم﴾: أي: حُوكمَتْ وَفُصِلَ القَضاءُ بشأنِها وأُمِرَتْ بأَنْ تَدْخُلَ في النّار من قبْلكُمْ.

● ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾: جاء تقدِيمُ الجنّ على الإنْسِ هُنَا لأنَّهُمْ أسْبَقُ وُجوداً في دار الامتحان من الإنسِ، ولأنَّ إبْلِيسَ وجُنُودَهُ من الجنِّ أَوْلَىٰ بأنْ يكونُوا المحكومَ عليهم بالعذاب في النار، لحمْلِهِمْ جَرِيمَةَ الإغواء والإضلالِ والإبْعَادِ والإخراج عن صراط اللَّهِ المستقيم عناداً وكُفراً.

حرْفُ «في» من عبارَتَيْ: ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ و﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ على مَعْنَاهُ الأصْلِيّ الظّرْفي، ولا داعيَ لصَرْف الأوّل منهما عن هذا المعنى، وَجعْلِه بمعنى «مع» لأنَّ الأُمَمَ المذكورة قد سبقتهم في دخول النار، فلا مصاحبة لهم عند الدُّخول، وأمّا مصاحَبَتُهُمْ داخل النّار فهي مصاحبَةُ الداخِلِ ضِمْنَهُمْ، المشارِكِ لَهُمْ في أنواع عذابهم.

اللّقطة الثانية:

دلَّ عليها قولُ الله عزَّ وجلّ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾:

هٰذه اللقطة مقتَطَعَةٌ من وصْفِ توارُدِ الأتباع، ودُخولهم ضمن المتبوعين في النار، إذْ يلْعَنُ كُلُّ فَوجٍ داخلٍ من الأتْباع أئمَّتَهُمْ وقادتَهُمُ الّذين أضلُّوهم في الدُّنيا، والّذين سيكُونُونَ داخِلِينَ ضِمْنَهُمْ في العذاب داخلَ النار.

● ﴿كُلَّمَا﴾: تَدُلُّ على أنَّ حركة التوافُد على النار تتكَرَّرُ أفْواجاً فأفواجاً. أي: كُلَّما دخلَتْ أُمَّةٌ تجمَعُها جَامِعَةٌ ما منَ الأتباعِ لَعنَتْ أخْتَها السّابقة لها إلى النّارِ مِنَ الأئمة القادةِ المتْبُوعين.

وأعطَاهُما اللَّهُ عزّ وجلَّ وَصْفَ الأُخُوّة بينهما، لاشتراكهما في طريقة الكُفْر وأعمال الكُفر، إذ الكُفْرُ أنواعٌ ومذاهِبُ شتّىٰ، ويَجْمَعُ اللَّهُ جلّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانُهُ في دار العذاب يَوْم الدّين، كُلَّ ذِي نَوْعٍ من الكُفْر مع أفراد نوعِهِ وأشباهِه ونظائره.

فيقول الأتباع الّداخِلُونَ في النار، لإخوانهم في طَرِيقَتِهِم الكُفْرِيَّة من أئِمَّتِهم الّذِين سبَقُوهُمْ إليها: لَعْنَةُ اللَّهِ عليكُمْ، لَقَدْ كُنتُمْ سَبَبَ ضَلالِنَا وإغْوائِنا.

اللّقطة الثالثة:

دلّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿..حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

● ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾: أي: حتّىٰ إذَا انتَهىٰ تَلاحُقُهُمْ وتتابُعُهُمْ واستَقَرُّوا في مواضعهم من النار جميعاً.

يقال لغة: ادّارَكَ القَوْمُ، وتداركُوا، وادَّركُوا، أي: تَلاحَقُوا وتتابَعُوا

حتَّىٰ لحِقَ آخرُهم أوَّلَهم، ومعلومٌ أنّ هٰذه الغاية تكون مقترنةً باستقرارهم في مواضعهم.

● ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾: أي: قالَتْ أُممُ الأَتْباع الَّذِينَ تَلَاحقُوا بَعْدَ أُمَمِ القادَةِ المتبُوعِين، فأُمَمُ الأتباع هم الأُخْرَىٰ، وأُمَمُ القادة هم الأولى الّذين سبَقَ إدْخالهم في النار.

اللّام في: ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾: قالوا: هي للتعليل، أي: لأجل إضْلالِ أُولاهم لهم، يسْأَلُونَ الله عزّ وجلّ أنْ يُضاعِفَ لهم العذابَ مِنْ حَرِيق النار.

أقول: تأتي «اللّام» الجارّة بمعنى «عَنْ» وحمْلُها هنَا على مَعْنَىٰ «عَنْ» أقْرَبُ وأولى، والمعنى: قالَتْ أُخْراهُمْ عن أُولاَهم.

وتأتي أيضاً بمعنى «على» وهذا المعنى مناسبٌ هنا أيضاً، أي: وقالت أُخْرَاهُمْ على أُولاَهم، أي: قولاً له استعلاءٌ على أولاهم بُدعَاءٍ يقتضي أَنْ يُنْزِلَ اللّٰهُ عليهم عذاباً زائداً.

● ﴿.. رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

الضِّعْف: يأتي في اللُّغَة بمعنَيَيْن:

الأوّل: المِثْل.

الثاني: تضْعِيفُ الشَّيْءِ مِثْلَيْنِ فأكثر.

استعملَتْ كَلِمةُ «ضِعْف» في هذا النَّصّ مرَّةً بمعنَى تضعيف الشيء إلى مثْلَين فأكثر، واسْتُعْملَتْ أُخْرى بمعْنَىٰ مثْلِ الشيءِ. فالأَتْبَاعُ سأَلُوا ربَّهُمْ أن يُؤْتِيَ قادَتَهُمْ مِثْلَيْنِ فَأَكْثر من الْعَذَاب لأنَّهمْ كانوا سَبَبَ ضَلاَلِهم.

وأجابَهُمْ رَبُّهُمْ بأنّ لكلّ منكُم وممّن كانوا قادتكم وائمَّتَكُمْ في الدنيا ضِعْفَ جُرْمِه، أي: مِثْلَ جُرمه، وهذا لا يُستَدْعي تماثل الجزاء بين

الفريقين، فالجزاء الْمُمَاثِلُ لمنْ كان في الدنيا ضَالاً مُضِلاً، أعْظَمُ وأشَدُّ مِن الجزاء الْمُمَاثِل لِمَنْ كان في الدنيا ضَالاً فقط ولم يكن له كَسْبٌ مَا في إضْلالِ غَيْرِه.

● ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ۝٣٨﴾: أي: إنَّكُمْ قَدْ تكونُونَ في موقعٍ واحدٍ من عذَابِ النَّار، ويكونُ بعْضُكُمْ أشَدَّ عذاباً من بعض، ونظير هذا مُشَاهَدٌ في لذَّاتِ الدُّنيا وفي عذابها، فقد يكون معذبَانِ بنوعِ عذابٍ واحدٍ وهما متجاوران، وإحْسَاسُ أحَدِهِمَا بالعذاب أشَدُّ كثيراً من إحْسَاس الآخر.

والْعَدْلُ الرَّبَّانيُّ يوْمَ الدِّينِ هو الحاكم بتَحْدِيدِ مقدارِ عذابِ كلِّ مُعَذَّبٍ بحَسَب جُرْمه.

واستمال كَلِمَةِ «ضِعْفٍ» في هٰذا النَّصّ بأحَدِ مَعْنَيَيْها مَرَّة، وبالْمَعْنَىٰ الآخر مَرَّةً أُخرىٰ، من بديع فُنُونِ الاستعمالاَت القرآنية.

وهٰذه اللقْطَةُ تَحْكِي الصُّورَةَ المسْتَقْبَلِيَّة كأنَّها صورةٌ وقَعَتْ ومَضَت، وهذا من بَدِيعِ التَّصْوِير الْفَنِّي، والغرضُ الفكْرِيُّ منه بيان تحُققِ وقوعه في المستقبل.

وسبَقَ في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) بيانُ أن الأتباع يَدْعُون رَبَّهم قائلين:

﴿..رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ ۝٦١﴾.

لكِنْ لَمْ يُجبْهُم الله عزَّ وجلّ على دُعائهم الذي أبَانته سورة (ص/٣٨ نزول) لإشعارهم بأَنْ عَدْل الله قائم على أنَّ جَزاء السَّيِّئَةِ يكُون بِمِثْلِها، ومعْلُومٌ أنَّ جَرِيمتَي الضَّلالِ والإضلالِ أشدُّ من جَرِيمَة الضَّلال فقط.

ويظْهَرُ أنَّهُمْ لم يفْهَمُوا من إعراض الله عن إجابتهم هذا الْمَعْنَى. فكَرَّرُوا دُعاءَهُم، فجاء بيان إجابتهم في سورة (الأعراف/٣٩ نُزول).

اللقطة الرابعة:

دلَّ عليها قول لله عزّ وجل: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: وقالَتْ ﴿أُولَىٰهُمْ﴾ وهم القادة والأئمة السَّابِقُونَ لدخول دار العذاب: ﴿لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ وهم الّذين كانوا في الدينا أتباعاً لهم، لَمْ تكُنْ حالُكُمْ في الدُّنيا أخفَّ سُوءاً وشرًا من حالِنَا، ولولا أهواؤكم وشهواتُكم ورغباتُكُمْ مِنْ زينَةِ الحياة الدنيا ما استجبْتُمْ لدعوتنا، وما اتَّخذْتُمونا قَادَةً وأَئِمَّةً لَكُمْ ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ مَا، مَهْمَا كانَ قَلِيلاً، حتَّىٰ تَسْأَلُوا رَبَّكُمْ أنْ يجْعَلَ عَذابَنا مُضاعفاً. ويَتَوَهَّمُونَ أنّ مَشارَكَةَ أَتْباعِهِمْ لَهُمْ في مَوْقع الْعَذَاب، تَقْتَضي مشاركَتَهُمْ لهم في مِقْداره، فَيُقولون لَهُمْ: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي: المُمَاثِلَ لِعَذابِنا ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾: أي: بسَبَبِ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ.

ويَغْفُلُونَ عَنْ أنّ تَشابه صورة العذاب لا يلْزمُ عَنْه تَمَاثُلُ الإحْسَاس به.

كَسْبُ الشيء: فعله، وكَسْبُ الإثْم تحمُّله باخْتِيار الكاسب.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

● قرأ أبو عمرو: [لاَ تُفْتَحُ] وقرأ حَمْزَة والكِسَائي وخَلف: [لاَ يُفْتَحُ] بالياء وقرأ الباقون: [لاَ تُفَتَّحُ] وهي وجوه عربيّة مُتكافئة، وفي: ﴿لَا تُفَتَّحُ﴾ المشدَّدَة معنى أنَّه لا سبيل إلى فتحها، مهْمَا اتُّخِذَت الوسائل المشدَّدَة لذلك، فالتشديدُ يدُلُّ على معنى تأكيدِ عَدمِ فَتْحِ أبواب السَّماءِ لَهُم.

هاتان الآيتان سائرتان على الخطّ الأعظم من خطوط موضوع السورة: الذي جاء بيانه في الآية (٣) منها.

وجاء قبلهما على هذا الخطّ الآيتان (٣٦ ـ و ـ ٣٧).

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾.

جاء تأكيد الجملة هُنَا بمُؤكّدَيْن: «إِنَّ ـ والجملة الأسميّة» لرفع تَوهُّم أَنَّ أرواح الكافِرين تَصْعَدُ بها الملائكة إلى السَّمَاءِ بَعْدَ الموت، إذْ تُفَتَّح أبواب السَّماءِ لأرواح المؤمنين التي تَحْملُها الملائكة. لِكنَّ أرواح الكافرين تُرَدُّ لخُبْثِها.

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: كذَّبُو رُسُلَنَا الّذِينَ بلَّغُوهم آياتنا المَنزَّلات من عندنا، فزعَمُوا أَنَّها مُفْتَرَيَاتٌ علىٰ اللّهِ فكَذَّبُوا بها.

• ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾: أي: واسْتكْبَرُوا عَلَىٰ طاعَةِ ربّهم، وامتَنعُوا عَنِ الْعَمَل بما تضمَّنَتْهُ آيَاتُه لهم.

وقد جاء الخبر في هاتين الآيتَيْنِ مُفصَّلاً في سِتّ قضايا من الأخبار الغيبية:

القضية الأولى:

دلَّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾:

إنّ الحديث عن تَوَفّي الملائكة لهم الوارد في الآية (٣٧) قرينَةٌ على أنّ أبواب السّماء لاَ تُفتَّح لأرواحهم بعْدَ قَبْضها إذا صَعِدَتِ الملائكة بها، بل تُرَدُّ لِمَا حَمَلَتْهُ من خُبْثِ نَفْسِ صاحبها، ونَتْنِ أعماله.

وقد ورَدَ بهذا بيان عن النبيّ ﷺ في رواياتِ مختصراتِ وَمُطَوَّلاَتٍ، وبَعْضُ المختصرات منها رواه مسلم.

ومن المطوّلاَت بإسناد صحيح، ما رواه أحمد، وأبو داود، وابْنُ

خُزَيمة، والحاكم، والْبَيْهَقِيُّ في شُعَب الإيمان، وغيرهم، عن البراء بن عازب رضي الله عنه، أنّ النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلائِكَةٌ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهمْ أَكْفَانٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وحَنُوطٌ من حَنُوطِ[1] الْجَنَّةِ، حَتَّىٰ يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مُلكُ الْمَوْتِ، حَتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٍ، فَتَخْرُجُ، فَتَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرةُ مِنْ فِي السِّقاء[2]، فَيَأْخُذُها، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّىٰ يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الحنوط، ويَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وجْهِ الأَرْضِ. فَيصعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ عَلَىٰ مَلإٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ إلاَّ قَالُوا: مَا هٰذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟

فيقولُون: فُلَانُ بْنُ فُلانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ يَنْتَهُوا بِهِ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلّ سَماءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ إلى السَّمَاءِ السَّابِعَة، فَيَقُولُ اللَّهُ عزّ وجَلَّ:

اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوا عَبْدِي إلى الأَرْضِ، فَإِنّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وفيِهَا أُعِيدُهُمْ، ومِنها أُخْرِجُهُمْ تارَةً أُخْرَىٰ.

فَتُعَادُ رُوحُهُ، فَيأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فيقُولاَنِ له: مَنْ رَبُّكَ؟

فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ.

فَيَقُولاَنِ له: مَا دِينُكَ؟.

---

(١) الحَنُوط: كُلُّ ما يُخْلَطُ من الطِّيب لأكْفَان الموتى وأجسادهم، من وزدٍ ومِسْكٍ وعَنْبَرٍ وَصَنْدَلٍ وَكافُورٍ ونحو ذلك.

(٢) مِنْ فِي السّقاء: أي: من فم السقاء.

فَيَقُولُ: دِينِيَ الإِسْلاَمُ.

فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا هٰذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟

فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ الله.

فَيَقُولاَنِ له: وَمَا عِلْمُك؟

فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ.

فُيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وافْتَحُوا لَهُ باباً إلى الجنةِ فيأتيه من رَوْحها وطيبها ويُفسحَ له فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِه، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُول: أَبْشِرْ بالَّذِي يَسُرُّكَ، هٰذا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ.

فَيَقُولُ له: مَنْ أَنتَ؟. فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَأْتِي بالْخَيْرِ.

فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ.

فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ أَقِمِ السَّاعَة. حتَّى أَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِي وَمَالي.

وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ، إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَة، نَزَل إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلاَئِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ[١]، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حتَّىٰ يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَىٰ سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وغَضَبٍ، فَتَفَرَقُ فِي جَسَدِهِ[٢] فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ[٣] مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذَهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَة عَيْنٍ، حَتَّىٰ يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَىٰ وجْهِ الأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بها، فَلاَ يَمُرُّونَ بِهَا

---

(١) الْمُسُوح: ثِيَابٌ خَشِبَةٌ مِنْ شَعْرٍ يلبسها الرهبان.

(٢) فَتَفَرَقُ فِي جَسَدِه: أي: فَيَشْتَدُّ خَوْفُها.

(٣) السَّفُود: عُودٌ مِنْ حَدِيدٍ يُنْظمُ فيه اللَّحم لِيُشْوَى.

عَلَىٰ مَلأٍ مِنَ الْملاَئِكَةِ إلاَّ قَالُوا: مَا هٰذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟!. فَيَقُولُونَ: فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتي كَانَ يُسَمَّىٰ بِهَا فِي الدُّنيا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلاَ يُفْتَحُ له، ثُمّ قَرأَ ﷺ: ﴿..لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾.

فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الأَرْضِ السُّفْلَىٰ، فتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحاً، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِه، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ.

فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟.

فَيَقُولُ: هَاهْ، هَاهْ، لاَ أَدرِي.

فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟.

فَيَقُول: هَاهْ، هَاهْ، لا أَدري.

فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا هٰذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟.

فَيَقُولُ: هَاهُ، هَاهُ، لاَ أَدرِي.

فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَىٰ النَّار، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّىٰ تَخْتَلِفَ أَضْلاَعُهُ[1]، ويَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيح، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ، هٰذَا يَومُكَ الَّذِي كُنتَ تُوعَدُ.

فَيَقُولُ: مَنْ أَنتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجيءُ بالشَّرّ؟

فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ.

فَيَقُولُ: رَبِّ لاَ تُقِمِ السَّاعَة».

وعلى ما جاء في هذا الحديث ينبغي أن يُحْمَل قول الله عزّ وجل:

---

(١) حتّى تَخْتَلِفَ أَضْلاَعُهُ: أي: تُضْغَطُ حتّىٰ تَتَغَيَّرَ مواضِعُها عن سوائها. والمراد ما يحصُلُ لديه من شُعُورٍ نَفْسِيٍّ مُمَاثِلٍ لهذا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾.

وتُوجَدُ عندَ بعض المفسّرين آراءٌ أخرىٰ لاَ تَصْلُح بياناً لكَوْن أبواب السَّماءِ لاَ تُفتَّح لهم.

وجاء في هذا الحديث ذكْرُ «عِلّيينَ» وَذِكْرُ «سِجّينِ».

أَمَّا عِلِّيُّونَ فَهُوَ كِتَابٌ خَصّصَهُ الله لِتَسْجِيلِ المؤمنين فيه، ويشْهَدُهُ المقَرَّبُونَ من الملائكة، ومكانُهُ في مَوْضعٍ سماويٍّ رفيع أخذاً من الحديث.

وأمَّا سِجِّينٌ فَهو كِتَابٌ خَصَّصَهُ الله عزَّ وجَلّ لتسجيل الكافرين فيه، ومَوْضِعُه في الأرض السُّفْلَىٰ، أخْذاً من الحديث.

وقد جاء بيان هٰذَيْنِ الكتَابَيْنِ في سورة (المطفّفين/ ٨٣ مصحف/ ٨٦ نُزول) فقال اللّهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾.

وقال الله عزّة وجلّ فيها أيضاً:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾.

القضيّة الثانية: (بشَأْن الّذِين كَذَّبُوا بآيات الله واستكبروا عنها).

دلَّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ . .﴾.

دلَّت هٰذِهِ العبارة علىٰ أنّ اللّهَ عزّ وجلّ قَدْ أصْدَر بشأن هؤلاء أمْراً مُبْرماً مَقْطُوعاً به، لاَ رَجْعَةَ فيه، فهو أمْرٌ من سُنَنِ الله الثّابتة الّتي لا نقْضَ لها وَلاَ تغيير فيها، وهو بمثابة استحالَةِ أن يَدْخُلَ الشّيْءُ الكَبِيرُ العظيم، مع بقائه على وضْعِهِ عظيماً كبيراً، في الثُّقْبِ الصّغير شَدِيدِ الصّغر، كَثُقْبِ الإِبْرَةِ، مع بقائه على وضْعِهِ صَغِيراً شديدَ الصّغَر، وهذا الأمْرُ يقضي بأن لا يَدْخلُوا الجنّة.

وجاءت العبارة بأسْلُوبِ تمثيل أَدَبِيّ، لتأكيدِ عَدَم احتمال دخُولهم الجنَّة، كيْفَ يَدْخُلونَ جَنَّة اللَّهِ الّتي أعَدَّها للمؤمنين المتقين، وهم قد كذَّبوا بآيَاتِ الله، واسْتَكْبَرُوا على طاعَةِ الله، واستنكَفُوا عن العمل بها.

﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ﴾: أي: حتَّىٰ يَدْخُلَ، تقول لُغَةً: وَلَجَ الشيْءُ في غَيْرِه يَلجُ لِجَةً وَوُلُوجاً، أي: دخل فيه. وتَقولُ: وَلَجَ الْبَيْتَ، إذا دخَلَهُ، فهُوَ وَالِجٌ.

﴿ٱلْجَمَلُ ﴾: هو الحيوانُ المعروف مِنْ بَهِيمَة الأنعام.

﴿فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾: أي: في ثَقْبِ الإبْرَةِ الّتي تُخاطُ بها الثياب عادةً.

إنّ من أساليب بيان استحالَةِ وُقوعِ شيءٍ ما، أو التأكيد على أنَّه لن يقع ولَوْ لم يكن مستحيلاً في ذاته، تَعْلِيقَه بأمْرٍ مستَحيلٍ في ذاته، أوْ مستحيلٍ بمقتضىٰ الْقَانون العامّ للأسباب والمسبَّبَات.

ومن المعلوم أنّ من المستحيلاتِ أنْ يَدْخُلَ هذا الحيوان العظيمُ المعروفُ باسم الجمل، وهو على وضعِهِ وعِظَمِهِ، دُون تغيير في خصائصِهِ وصفاته الجسديَّة والنَّفسِيَّة، في ثَقْبِ الإبْرَة التي يخيط بها الخيّاط من النَّاسِ الثيابَ، مع بقائها على وضْعِها، وبقاء ثقبِهَا على مقدارِه كما هو معروفٌ عند الناس.

فالله عزّ وجلَّ يُخاطِبُ النَّاسَ في هذا النّصّ بِحَسَب ما يَعْرِفُون من الجمل وصفاته، وبحسَبِ ما يَعْرِفُون من الإبْرَةِ وصفاتها ومقْدارِ ثَقْبِها.

وكُلُّ تأويل احتماليّ يعتمدُ على تَغْيِيرٍ في صفاتِ الجمل المعروف، وصفاتِ الخِيَاطِ المعروف، هو من التلاعُبِ في دلالة النّصّ، وهُوَ مرفوضٌ عقْلاً وشرعاً، فقد أثبتت النُّصُوص القرآنيّة الكثيرة أنَّ الكافرين خالِدُون في دار العذاب النار، وخلودُهم فيها يَقْتضي حتماً أنّهم لا يَدْخُلُونَ الجنَّةَ بحَالٍ من الأَحْوال.

ولهذا البيان القرآنيّ نظَائِرُ كَثِيرَةٌ في استعمالات النّاس الأدبيَّة، وفي

تعبيرات الأدباء من ناثرين وشعراء، كقَوِلِ القائلِ لِقطْعِ أَمَل طَامِعٍ بأَمْرٍ ما: نُجومُ السَّماءِ أقْرَبُ لكَ.

وتوحي هذه الصّورة القرآنيّة، بأنَّ أمَلَ أصحاب النار الخالِدِينَ فيها بأن يخرُجُوا منها، ويَدْخُلوا الجنَّة، كَأَمَلِ جَمَلٍ لاَ عَقْلَ له، يُراقِبُ ثَقْبَ إبرَةٍ أنْ ينْفَرِجَ لَهُ، فَيَلِجَ فيه، لِيَصِلَ إلى حَيْثُ بجدُ مَا يطْلُبُ، ممّا تَشْتَهِي نفسه.

وفي هذا إبداع رائع في وصف حال الخالدين في النار إذْ يطمعون في دخول الجنة.

القضية الثالثة:

دلّ عليها قول الله عزج وجل في النصّ: ﴿.. وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾: أي: وكذَلِكَ الجزاء الّذي نجزيه الّذين كذَّبُوا بآياتنا واستكْبَرُوا عنها، نَجْزِي سَائِرَ الْمُجْرِمِين. فكُلُّ المجرمِينَ لاَ تُفَتَّحُ لأرواحهم أبواب السَّمَاءِ بَعْدَ قَبْضِها، ولا يدخلون الجنَّةَ يَوْمَ الدِّين، أَمْراً من عند الله مُبْرَماً مقطوعاً به.

الْمُجْرِمُ: هو في اللّغة مُرْتِكبُ الذَّنب. يقال لغة: أجْرَمَ فلان، أي: ارتكَبَ جُرْماً. ويقالُ: أجْرَمَ علَيْهم، وأجْرَمَ إليهم، أي: جنَىٰ جِنَايَةً.

والْجُرْمُ: الذَّنْبُ، ويجمع على «أجرامٍ» و«جُرُوم».

وقد نظرتُ في الاستعمالات القرآنيَّةِ فرأيْتُ أنّ فعل «أَجْرَمَ» واسم الفاعل منه «مُجْرم» يُقَابل فِعْلَ «أَسْلَم» فهو «مُسْلِمٌ».

فالمجرمون: هم الكافرون كُفراً إراديًا مع علمهم بالحقّ الّذِي جاء به المرسَلُون، فمن يأتي رَبَّهُ مُجْرِماً فإنّ له جهنّم خالداً فيها.

فالإجرامُ في الاصطلاح القرآنيّ خاصٌّ بالذّنب الذي يُخَلِّدُ في النار، والْمُجْرِمُ هو ضِدُّ الْمُسْلِم.

ولمَّا كانت الذّنُوبُ العظمىٰ الّتي تجعل المتصف بها من الكافرين المخلّدين في عذاب جهنم أنواعاً كثيرة، وكانَ مِنْ أنواعِها التكذيبُ بآيات اللّهِ، والاستكبارُ على طاعته، والاستنكاف عن العمل بما جاء فيها، كان من الحكمة في البيانِ القرآنيّ أنْ تأتي فيه عبارة عامَّةٌ تشمل جميع المجرمين فقال الله تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤٠﴾. (ال) في ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ اسْتغراقيَّة، فالمعنىٰ: وكذلك نَجْزِي جَمِيعَ المجْرِمِين.

القضية الرّابعة:

دلَّ عَلَيْهَا في النصّ قولُ الله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ..﴾.

المهادُ في اللُّغَة: الفِراشُ، والأرضُ المنْخَفِضَةُ المستوية، وقَاعُ البْحرِ أو النهر. أي: لهم من قَاعِ جهنَّمَ أمْكِنَةٌ معدَّةٌ مُمَهَّدَةٌ لاستقرارهم فيها.

وتَمْهيدُ الأرض يأتي بمعنى بَسْطها وَتَسْهِيلِ أَمْرِ الإقامَةِ فيها، لكنَّها جَهَنَّمُ، فماذا يُخَفِّفُ من عذابها هذا التمهيد، إنَّه كَتَمْهِيدِ الْجَمْر لتَسْهِيل شَيِّ اللّحم عليه، فالمعنى محمولٌ على التحذير من شدَّةِ العذابِ على هذا المهاد، فمَنْ كذّب وَكابَرَ فلْيَتَلَقَّ عبارَةَ التَّهكُمِ به باستخدام لفظ «المهاد».

القضية الخامسة:

دلَّ عليها في النصّ قول الله تعالى: ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ..﴾.

غَواشٍ: جَمْع «غاشِية» ومن معاني الغاشية، ما يَنْزِلُ من السّماءِ من وسائل تعْذيب، تُجَلِّلُ المكانَ الّذِي ينزِلُ عليه من عُلْوٍ.

وأصْلُ الغاشية الغِطَاءُ، فالْغَواشي هي الأغطية، وهي في جهنَّمَ ظلُماتٌ دُخَانِيَّةٌ حارَةٌ تَهْبِطُ عليهم من سَمَائِها.

جاء لفظ «غواشٍ» منكّراً، للتهويل والتعظيم، والمراد أنّها غواشي فيها عذابٌ أليم.

فهم بين (المهاد) الفراش الجهنّمِيّ، و(الغواشي) الحارّة الدُّخانية المائجة في سَمَاءِ مَوَاقعهم، يَتلَقَّوْنَ العذابَ من تحتهم، ومن فوق رُؤوسهم.

وفي هذا التعبير لونٌ من ألوان التنكيل بهم، ومقابلةِ استهزائهم بما أنْذِروا به من عذاب الله، باستِهْزاء في التَّعْبِير بأنّ لهم من جهنَّم مِهاداً، وبأنّهم تجلِّلهم فيها غَوَاشي، ولكن ليس المهاد إلاّ مهاد تَعْذِيب، ولَيْسَتِ الأَغْشِيَةُ إلاّ أغشية تعذيب.

القضية السّادِسة:

دلّ عليها في النّص قول الله تعالى: ﴿... وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾:

أي: وكذلك الجزاء الذي نجزيهِ الّذين كذّبوا بآياتنا واستكْبَرُوا عَنْها، نَجْزِي سائِرَ الظَّالِمِينَ.

والمراد بالظالِمِينَ هُنَا من كان ظُلْمُهُمْ من دركاتِ الكافِرين. وأكثر ما اسْتُعْمِل عنوان الظالمين في القرآن، اسْتُعْمِل في الكافرين المخلَّدِين في النار.

ويحتمل أن يكون المراد بالظالمين، مَنْ كَانُوا من مُرتكبي الكبائر من المؤمِنين، إذا استَحقُّوا دُخُول جهنمّ دخولاً مُؤَقّتاً، فهؤلاء إذا دخَلُوا جهَنَّم، كان لهم من جهنَّمَ مكانٌ مُعَدٌّ لهم، وجَاءَتْهُم من فوقهم غواشي دُخانيَّةٌ حَارَّة.

وللتفريق بين عُمُوم المجرمين وعُمُومِ الظّالمين، كان نوع العذاب الأوّل وهو الخلود في جهنّم خاصًّا بالمجرمين، وكان نوع العذاب الثاني شاملًا كلَّ الظالِمين، مُجْرِمين أو من هُمْ دون المجرمين، لكنهم من مرتكبي كبائر الإثم من المسلمين.

❁ ❁ ❁

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا . . . (٤٣)﴾.

● قرأ ابن عامر الشامي: ﴿مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ بحذف حرف العطف الواو، وقرأ باقي القرّاء العشرة بإثباتها، وقراءة ابنِ عامر موافقة للمصحف الإمام الّذي أُرْسِلَ في عَهْدِ عثمان إلى الشام.

والقراءتان أسلوبان في التعبير متكاملان في الأداء البياني، فالعبارة بحذف الواو حاليَّة وهي تابعة في البيان للجملة التي قبلها، والعبارة بإثبات الواو اسْتئنافيّة، لإفراد التصريح بمضمونها.

هذا النصّ يتضمّن بيانَ بضع لقطات من ثواب المؤمنين، بعد بيان بضع لقطاتٍ من عقاب الكافرين في الآيَتْين (٤٠ و٤١) على منهج القرآن في إتباع بيانِ العقاب ببيان الثواب، أو العكس.

● ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾:

جاءت هذه العبارة في مقابل الذي كَذَّبوا بآيات الله واسْتكْبَرُوا عنها، ومعهم المجرمُونَ والظّالِمون، للدلالة على أنّهما فرِيقان متناقضان عقيدةً وسلوكاً، ولكلٍّ منهما دارُ جزاء، إحداهما دار عقاب، والأخرى دار ثواب.

وهذه العبارة مشتملَةٌ علَىٰ تفصيل لعنوان المتقين، الّذين أعَدَّ الله لهم جنّاتِ النعيم، وهم المُسلِمون الذين جَاءَ ذكرهم في سُورة (القلم ٦٨/ مصحف/ ٤ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦)﴾؟!.

وجاء ذكرهم أيضاً في عدد من نجوم التنزيل السابقة نزولاً لسورة (الأعراف) في (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) وفي (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) وفي (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) وفي (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

فالمتقون الذين هم المسلمون بعنوانين مُجْمَلَيْن، هم بتفصيلٍ ابتدائي: «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» فلا يُوصَفُ الْعَبْدُ بأَنَّهُ من المتقين، أو بأَنَّهُ من المسْلِمِينَ عند الله، حتَّىٰ يُحَقّق في ذاتِه وبإرادته الحرَّة أمْرَينِ:

الأمْرُ الأول: الإيمان بما يجب الإيمانُ به في دين الإسلام، الّذي اصطفاه اللَّهُ لعباده، والإيمانُ هو التصديق الإراديّ القلبيّ الّذِي لا يختلط بشكّ.

وتفصيل هذا قد جاء في آيات كثيراتٍ مُوزَّعَاتٍ في سُوَر القرآن، وجاء أيضاً في بياناتِ الرَّسُول ﷺ.

الأمْرُ الثاني: الْعَمَلُ الصَّالِحُ، وهو العمل الإراديُّ بما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ إلْزاماً أَوْ تَرْغيباً، واجتنابُ الْعَمَلِ الذي نَهىٰ الله عنه إلزاماً أَوْ تَرْغِيباً.

ويشْمَلُ العملُ الأعْمَالَ الجسديَّةَ الظاهرة، والأعمالَ القلبيَّةَ والنَّفْسيَّة، الموجِبَةَ والسَّالِبَة، فكفُّ الأذىٰ عَملٌ سالبٌ، لأنَّهُ كفٌّ وتَرْكٌ إراديٌّ، وتركُ الْغِيبَةِ والنميمَةِ والْحَسَدِ عَمَلٌ سالِبٌ، لأنّه تَرْكٌ إراديٌّ فيه حبْسُ النفس عمَّا تهوىٰ.

ومن الأعمال الإيجابيَّة النفسيَّة النيَّاتُ، وذِكْرُ اللَّهِ في النفس، والتفكُّرُ في آيَاتِ اللَّهِ وآلآئه.

وتفصيلُ هذا وشَرْحُهُ يَطُولُ، إذْ كُلُّ حَرَكَةٍ إراديَّةٍ ظاهرةٍ أو باطِنَةٍ، تَدْخُلُ في عُمُومِ الْعَمَلِ الذي يَكْسِبُهُ العبْدُ بإرادته.

● قول الله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ هذه جملةٌ مُعْتَرِضَةٌ بين المبتدأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وبين الْخَبَرِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ للمبادَرَةِ إِلَىٰ طَمْأَنَةِ المتَّقِين، بأنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ لاَ يكَلِّفُ نَفساً إلاَّ وُسْعَها، قَبْلَ أن يُبَشِّرَهم بأنهم أصحاب الجنّة، وبأنَّهم سوف يكونون خالِدِين فيها.

وهذه الجملة المعترضة تَدُلُّ على قضيتَيْن:

القضية الأولى: أنّ التكاليفَ الرَّبَّانيّة الإلزاميَّة الواردة في آيَاتِه أو على لسان رسُوله في بياناته، مشْمُولَةٌ بأنَّها مِنْ وُسْعِ المكلَّفِينَ على وَجْهِ الْعُمُوم.

أمَّا أصْحَابُ الضروراتِ والمعاذير، فإنَّ الله عزّ وجلّ يخفّفُ عَنْهُمُ التكاليفَ تيْسِيراً عَلَيْهِمْ بمقْتَضَىٰ أحكام التخفيف الوارد في القرآن والسنة، كرفْعِ الحرجِ عن المريضِ والأَعْمَىٰ والأعْرَجِ في بعض الواجبات، كالقتالِ في سبيل الله، وكرفع الحرج عن الناسين المعذورين في نسيانهم، وعَنِ الذين تعرَّضُوا لِسَلْب أهليَّةِ التكليف منهم، ونحو لك.

القضيّة الثانية: أنَّ كُلَّ مَا لا يَدْخُلُ في وُسْعِ المكلَّفِ أنْ يعمَلَه أوْ أن يتْرُكه، فإنَّ الله عزّ وجلَّ لاَ يُحاسِبُهُ عليه، ولا يُدْخِلُهُ ضِمْنَ المسؤوليَّةِ أيضاً، ولاَ يتعلَّقُ به ثوابٌ ولاَ عقابٌ.

﴿لَا نُكَلِّفُ﴾: **التكْليفُ**: الإلزام بما فيه كُلْفَةٌ على فاعِلِه أو تاركه، والكُلْفَةُ هي المشقَّةُ في الفِعْلِ أو في التزْكِ.

﴿إِلَّا وُسْعَهَآ﴾: الْوُسْعُ، والْوَسْعُ، والسَّعَةُ في اللغة: الجِدَةُ، والطَّاقة. فمعنى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾: لاَ نُكلّفُ نَفساً إلاَّ قَدْرَ طاقَتِها واستِطَاعَتِها، وإلاَّ قَدْر جِدَتِها من مالٍ أوْ قُوَّةٍ، ومن القوة قُوَّةُ الإرادة.

ومن هذه العبارة نَفْهَمُ أنَّ مَا يَجْري في الإنسان، أو يحْدُثُ مِنْهُ بغَيْرِ

إرادتِهِ، فهو خارجٌ عن دائرة التكليف الرَّبَّانيّ، إذْ هو خارجٌ عن وُسْعِه، فلا يُعْتَبَرُ مسؤولاً عنه، فعلاً كان أمْ تركاً، لأنَّ الله عزّ وجلّ قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ واسْتُخْدِم في هٰذِهِ العبارة ضمِير المتكلّم العظيم للاشْعَارِ بأنّ عظمة رُبوبيَّةِ الرَّبّ جلّ جلاله، تأْبَىٰ أن تُكَلِّفَ نَفساً فَوْقَ وُسْعها.

فالجبريُّون الَّذِينَ يَزْعُمونَ أنَّ الإنْسَانَ مجبورٌ في رِحْلَةِ ابْتِلَائِه على الإيمان أو الكُفر، والمعصيةِ أو الطاعَةِ، ثُمَّ يُحاسِبُهُ اللّٰهُ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُه على ما جَبَرَهُ عليه، ويُثيبُهُ أو يُعَاقبُه على ما جَبَرَهُ عليه، يُعَارِضُونَ بمَقُولَتِهِم الباطلة صريح قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾.

إنَّه ليْسَ في وُسعِ الإنْسَانِ مُطْلقاً أن يَعْمَلَ شيئاً جَبَرَهُ اللّٰهُ على خلافِه بقضائه وقَدَرِه.

إنّ اللّٰهَ الرَّبَّ قَادِرٌ مُرِيدٌ عَلِيمٌ حكيمٌ عَدْلٌ بَرٌّ رَحِيمٌ، وصِفَاتُهُ جلَّ جلالُهُ، لاَ تَتَعَارَضُ ولاَ تتناقَضُ، بلْ تتكامَلُ في تناسُقٍ هو غايَةٌ في الكمال.

والإنسانُ المكلّفُ يفعَلُ الخيْرَ بإرادَتِهِ الْحُرَّةِ وهو مُدْرِكٌ واعٍ، ويفعَلُ الشَّرَّ بإرادتِه الْحُرَّةِ وهُوَ مُدْرِكٌ واعٍ، واللّٰهُ عزّ وجلَّ يُمِدُّهُ بالْقُوَّةِ وبالأسْباب، والْعَبْدُ يُوَجِّهُها بإرادَتِه، والله يَخْلُقُ لَهُ ما أراد، ثُمَّ يُحَاسِبُهُ ويُجَازِيه علىٰ ما أرادَ، لا علىٰ ما تَمَّ تحقيقُه بخَلْقِ الله.

هذا فهمُ السَّلف، وفَهْمُ أَهْلِ السُّنَّة والجماعَةِ لِهذه القضيّة، وَإنّما يأتي الْخَطَأُ فيها مِنْ حَمْلِ النُّصوص على غير المراد بها.

● ﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

هذه جملة خَبَر: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ جاءتِ الإشارة إليهم باسم الإشارة الموضوع للمشار إليهم البَعِيدين، للإشعار بارتفاع مَنْزِلَتِهِم عِنْدَ رَبِّهم.

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾: أي: ملازِمُوها ملازمة الصاحب لصاحبه، ورُبَّما دَلَّ هذا الاستعمالُ على معنى التملُّك، أي: هم مالِكُوها بتمليك اللَّهِ لهم، أو مالِكُو التَّنعُّم بما فيها من نعيم عظيم مقيم، لأنّ مالِكَ الشيء يُصاحِبُهُ ويُلازمه.

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: أي: هم في الجنَّةِ باقُون بقَاءً أَبَدِيًّا.

والجنَّةُ إذا ذُكِرَت في القرآنِ ثواباً للمتقين، فهي دار النّعيم الّتي أعَدَّها الله لهم، فَهُمْ يَدْخُلُونَها يَوْم الدّين.

● قول الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾:

هٰذه منحة يمنحهم اللَّهُ إيَّاها فوْقَ مِنْحَتَيْ دُخُول الجنَّةِ، وَمَشَاعِرِ الخلُودِ فيها، وهي مِنْحَةُ إرَاحَةِ قُلُوبهم ونفوسِهِمْ منْ كُلِّ مَا يُعَكِّرُ صَفْو سَعَادَتهم مِنْ غِلٍّ.

الغِلُّ: كُلُّ ما يَدْخُلُ في الصُّدُور من عَدَاوَة، وضِغْنٍ، وحقْدٍ، وَحَسَدٍ، وبُغْض، وغِشٍ، وإرادَة سُوءٍ بالآخرِين، ونحو ذلك.

ومادة الكلمة تدور حولَ معنى الدخول في الأشياء من مادّيَّاتٍ ومعنوياتٍ.

فالذين يُثيبُهم اللَّهُ عزّ وجلّ بدخول الجنَّة يَنْزِع مَا في صُدُورهم من عوامل العداء الّتي تَغَلْغَلَتْ إلى بَاطِنِها في الدنيا، فَلاَ يَجِدُون في صُدُورِهم غِلًّا على أحَدٍ، بلْ يُطَهِّرهم اللَّهُ من كُلِّ الأرجاس النفسيَّة، وكلّ ما يُكَدِّرُ بَالَهم، ويُعَكّر صَفْوَهُم.

وهٰذه سعادةُ رَاحَةٍ من الأعماق قد تكون أعظم من سعادتهم بما يُصِيبُونَ من لَذَّاتِ المآكل والمشارب والمناكح ونحوها.

● ﴿وَنَزَعْنَا﴾: النَّزْعُ جَذْبُ الشَّيْءِ واقتلاعُهُ من مكانه، ويَدُلُّ على أنَّ

هذا الاقتلاعَ يكُونُ من الجذور، أي: فتَخْلُو فِطْرَتُهُمْ يوْمَ الدّين منْ كُلّ العوامل التي تُحْدِثُ في الصُّدُورِ غلاًّ، يُفْسِدُ عليها مشاعر سعَادتها بما تصيبُ من نعيم.

● ﴿مَا فِى صُدُورِهِم﴾: أُطْلِقَت الصُّدُورُ على ما تحتويه من قلوبٍ ونُفُوسٍ وأفْئِدَةٍ وألْباب.

وجاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) قول الله عزّ وجلّ بشأنهم أيضاً:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

فأضافَتْ هذه الآية بيان أنّهُمْ يكُونُون بسبب نزْعِ الغِلِّ من صُدُورهم إخْواناً مُتَصَافِين متحابِّين، لا يُعَكِّرُ صَفْوَ أُخُوَّتِم شيءٌ، وهٰذا من كُبْرَياتِ عناصر السَّعَادة الاجتماعيَّة.

● قول الله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾: أي: وممّا يكرمُهُم الله به من نعيم، أنّ الأنهار المتنوّعة تجري من تحتهم في الجنَّةِ، إذْ يكونُون على سُرُرهم في شُرُفات قُصورِهم المرتفعةِ.

وجاءت الأنهار معرَّفةً بأداةِ التَّعريف للدّلالَةِ على كمالها، ف (ال) هنا للكمال.

وقد تكرّر في القرآن المجيد وصْفُ جنَّةِ الخلْد بأنَّها تجري من تحتها الأنهار، إذْ لاَ كمال لجنَّةٍ بدُون أنهَارٍ تجري.

وجاء في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) بيان أنواع أنهار جنَّة الخلْد وبغْضِ صفات هذه الأنهار، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ

وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي: وصْفُ الجنَّة.

﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾: أي: من مَاءٍ لم يتغيَّرْ طعْمُهُ بالمنْتِنَاتِ، أو من طولِ المكث، فهو متَدَفِّقٌ متجدِّد.

● قول الله عزَّ وجل:

﴿..وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

إنّ أهل الجنَّةِ يشْتَدُّ فرَحُهم بالهباتِ الثلاث لهم، وهي:

(١) تَمْلِيكُهم حظُوظَهُمْ من الجنَّة تَمْليكاً أبديًّا وهم فيها خالدون.

(٢) إراحَةُ قُلُوبهم ونفوسِهم من كلّ ما يُعكِّر صَفْوَ سَعَادتهم، فلا يَجِدُونَ فيها غِلًّا على أحد.

(٣) إسعادُهُم بالأنهار الجليلَة العظيمة الّتي يتَنَعَّمُونَ بما فيها من شراب مختلفِ الأنواع والأصناف، ويتَنَعَّمُونَ بمُشَاهدة جَرَيَانها، وهم على سُرُرِهم أو أرائكهم في قُصُورهم أو في شُرُفاتها.

فتنطَلِقُ ألسنَتُهم بالثناءِ العظيم حتَّىٰ الغاية الْقُصْوىٰ، على الله الّذي هَدَاهُم في الدُّنيا الصراطَ المستقيم، الذي أوصَلَهُمْ بفضْلِه إلى هذا النعيم المقيم. وتَنْطَلِقُ ألْسِنَتُهم بإعلان أنّ رُسُلَ ربِّهم قد جاءُوا بالحقّ بلاغاً عن الله عزّ وجل، وفي هذا الإعلان تَمْجِيدٌ لرُسُل الله.

فَيُكافئُهم اللّه على حَمْدِهِم، ورفْعِ ذِكْر رسُلِ ربِّهم، بنداءٍ عامّ يتَضمَّنُ أنَّ ربَّهم قَدْ أوْرَثَهُمُ الجنَّة العظيمة الرفيعةَ المَنْزِلَةِ بسبب ما كانوا يعملون من عملٍ صالح في الحياة الدنيا، وهذا من تكريم اللّه لهم، مع أنهم لم يدخلوا الجنّة إلا بفضله.

وقد جاء هذا البيانُ بأسْلُوب حكايةِ حدَثٍ مضىٰ، مَعَ أنَّه من الأحداث التي سوف تكُونُ مستَقْبلاً، للدَّلاَلَة على أنّه أمْرٌ لاَ بُدَّ أنْ يتحقّق حينما يكون أهْلُ الجنَّة في الجنَّةِ.

● ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي: وقالُوا بعْدَ أن تملَّكَتْهُم الفرحَةُ بهبات اللّه لهم: «الحَمْدُ للّهِ» أي: كلّ الحَمْدِ الّذي يَعْلَمُه اللّه جلّ جلالُه، هو لِلّهِ استحقاقاً ذاتِيّاً أصْلِيّاً، إذْ لَهُ عزّ وجلّ كلّ صفاتِ الكمال الّتي تَسْتَحِقُّ كُلَّ عِباراتِ الحمد الّذي لا نهاية لحُدُوده، نظراً إلى أنَّ صفاتِ الكمالِ للّهِ جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانُه لا نهاياتِ لها، وضِمْن هذا الحَمْدِ العامّ الشامل يَدْخُلُ حَمْدُهُم للّه على ما أولاهُمْ في الجنَّةِ من أنواع نعيم لا يخْطُر في أوهامهم مزيدٌ عليه.

الحَمْدُ في اللّغة: هو الثناء بالجميل. والحمدُ كلمةٌ جامعةٌ تَدُلُّ على ذِكْر المَحْمُود بكمالاته الحسنة الجميلة، على سبيل التعظيم والتكبير وبيان ارتفاع مَنْزِلَتِهِ وعُلُوِّ مقامه.

● ﴿ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾: أي: الذي هدانا في الحياة الدنيا إلى الصراط المستقيم الذي سلكناه، فأوصَلَنا إلى هذا النعيم العظيم الخالد، بفضل عطاء اللّهِ وجُودِه الذي لا حدود له.

بهذه العبارة يبيّنُون الدافِع النّفْسِيَّ الّذي دفَعَهُمْ لإطلاق عبارة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

● ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾: أي: ويُعْلِنُونَ بهٰذِهِ العبارة معترفين ومؤكّدينَ بالكَوْن المنفيّ المتبوع بلام الجحود، أنّهم كانوا في الحياة الدّنيا عاجِزينَ عجزاً تامّاً عَنْ أنْ يتَوَصَّلُوا بعُقُولِهم وتجاربهم إلى معرفة الصراط المستقيم، والاهْتِداء إليه، لولا أنّ اللّه جلّت حكمتُه أرْسَل رُسُلَه، وأنْزَلَ معَهُمْ بيانات الصراط المستقيم الموصل إلى جنّاتِ النعيم، فهَدَوُا النّاس إلى عناصره وأحكام اللّه فيه بالقول والعمل.

● ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾: أي: وبَعْدَ أن يَحْمَدُوا اللّه على هدايَتِهِ لهم، يَذْكُرونَ بالتَّمْجِيد رُسُل ربِّهم، الَّذين كانُوا في الحياة الدُّنيا هُمُ المصطَفين لتبليغ رسالات اللّه، المتضمّنَةِ ما فيه هدايَةُ النَّاس إلى سعادتهم، والمشتملَةِ على بياناتٍ كلُّها حَقٌّ، إذْ كُلُّ جُزْءٍ من أجزائِها مطابقٌ للواقِع تماماً.

فالبياناتُ الخبريَّة عمَّا كانَ وعَمَّا هو كائِنٌ وعمَّا سيكون أو سَوْفَ يكون، الّتي جاء بها رُسُلُ رَبّهم الصادقون، قد كانت كُلُّها مطابقة للواقع.

والأحْكَامُ والشرائع والوصايَا الّتي جاءُوا بها، قَدْ كانت مطابقة للمنهاج الحقّ الموصل إلى السَّعادَة الأبَدِيَّة.

لقَدْ كان إيمانُهم بما جاء به رُسُلُ رَبِّهم في الدنيا إيماناً بالحقّ المستَنِد إلى أدلّة عقليّة، وهو من قبيل الإيمان بالغيب، الّذِي كانَ أوّل عقَبَةِ امتحانٍ لهم في الحياة الدنيا.

ولكنَّهم يَوْمَ الدّين يُشَاهِدُونَ بحواسِّهم كلَّ العَنَاصِرِ الّتي كانَ المكلَّفُون في الدنيا يُطالَبُونَ بالإيمان بها إيماناً بالغيب مُسْتَنِداً إلى براهين عقليّة، فَيُعْلِنُونَ تمجيدَ رُسُل رَبّهم بأنَّهم كانوا صادقين، قد جاءوا بالحقّ تبليغاً عن رَبّهم جلّ جلاله.

واجتماع كلِّ أهْلِ الجنَّةِ على هذا الإعلان التمجيدي لكُلّ رُسُلِ ربّهم، يَدُلُّ على وحْدَةِ الرّسَالاَتِ الرَّبّانيّة الّتي جاء بها الرُّسُل الصادقون، في أصولها، وعقائدها، وقواعِدِ أحْكامها.

أمّا مُخالفةُ بعضِ الأديان ذاتِ الأصول الرَّبّانيّة، عمَّا جاء به خاتم رسُل اللّه محمد بن عبد الله في الأصول، والعقائد، والقواعد الكبرى، فإنّما هو من تحريفات المحرّفين، ومن ضياع بعض الأصول بالنسيان، أو بالإهمال.

● ﴿.. وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾: أي: وبَعْدَ أن يَحْمَدُوا اللَّه رَبَّهم، ويُمَجِّدُوا رُسُلَه، على ما سبَق بيانُه، يُكافِئُهم اللَّه جلَّ جلالُه بتكريمٍ منه، فيَصْدُرُ في أرجاء الجنّة نِداءٌ عامٌّ من اللَّه عزّ وجلّ، أو بأمْرٍ منه، تفسيره ما جاء بعد «أنْ» التفسيريّة.

● ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾: جاءت الإشارة إلى الجنّة الّتي يَنْعَمُ أهلُها بما وهَبَهُمُ اللَّه فيها، باسْم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، للإشعار بجلالة قَدْرِها وارتفاع منزلتها، وهذا من الأساليب البلاغيّة المستعملة في القرآنِ كثيراً.

● ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي: مُنِحْتُمُوهَا بسبب ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ مِنْ أعْمالٍ صالحةٍ في الحياة الدّنيا.

وسمَّىٰ اللَّه عزّ وجلّ استحقاق أهل الجنَّةِ لمنازلهم فيها ميراثاً لحِكْمَتَيْن:

الحكمة الأولى: أنّ عطاء اللَّه عزّ وجلّ لهذه المنازل هو في الحقيقة مِنْحةٌ منه، فهو أشبه بالميراث الذي سبَبُه القرابة أو المصاهرة.

ومنازلُ الجنَّةِ للمتّقين سبَبُها العمل الصالح، مع أنّ العمل الصالح من العَبْد مهما بَلَغَ لاَ يكافئ مَا تفَضَّل اللَّه به عليه في الحياة الدنيا، مِنَ الحياة والرزق والتكريم بخصائص الإنسانية العظمىٰ.

فتأتي منازلُ الجنّة فضلاً آخر من اللَّه على عباده المتّقين، أمَّا العملُ فهو سبَبٌ غَيْرُ فاعل، وهو كسبَب القرابة في استحقاق النَّصِيب من الإرْث، مع أنّ القريب ربّما يكون قد آذى قَرِيبَهُ ولم يَنْفَعْهُ بنَافِعةٍ.

ويدُلُّ على هذا ما رواه البخاري ومُسْلِمٌ عن أبي هريرة، أنَّ رسُول اللَّهِ ﷺ قال:

«لَنْ يُدْخِلَ أحداً عَمَلُهُ الجَنَّةَ، وَلاَ أَنا، إِلاَّ أَنْ يتغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ».

وفي رواية:

«وَٱعْلَمُوا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يُدْخِلَه عَمَلُهُ الْجَنَّةَ»، قالوا: ولاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! قالَ: «وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ».

الحكمة الثانية: أنّ أهل الجنة يَرِثُون فيها المنازلَ الّتي كانت مُعدَّةً للكافرين لو أنّهم كانوا قد آمنوا وأسلموا في رحلة امتحانهم.

روى ابن ماجه بإسنادٍ صحيح عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ لَهُ مَنْزِلاَن: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ وَرِثَ أَهْلُ الجَنَّة مَنْزِلَهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾» [المؤمنون: ٢٣، مصحف/ ٧٤ نزول].

● قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

وقرأ الكسائي: [نِعِمْ] وهي لُغةٌ في [نَعَمْ] والكلمة حرف إيجاب.

تمهيد:

في هذا النصّ عَوْدٌ تَنَقُّليٌّ في البيان إلى موقف المحشر، لتقديم مَشْهَدٍ

من مَشَاهدهِ، بعد أن سبَقَ تقديمُ مَشْهَدٍ من مشاهد أحوال أهل الجنَّة في الجنَّة، في الآيتَيْن (٤٢ و٤٣)، وهذا على طريقة القرآن البديعة في التنقُّل بين الأزمِنة والأمكنة والمواقف، إيثاراً لفَنِيَّةِ الأداءِ المتحَرِّك الآخذ بمجامع الأذهانِ والأفئدة والنفوس.

وفي هذا المشهد الذي عرضَتْهُ الآياتُ من (٤٤ ـ ٤٧) بيانُ نداءٍ من أصحاب الجنَّةِ المفروزين في المحشر إلى جهة اليمين جِهَةِ الجنَّةِ، لأصحاب النار المفروزين في المحشر إلى جهة الشمال جِهَةِ النار، وبيان جوابهم على النِّداء.

ويعقُبُه بيان أذان مؤذِّنٍ من الملائكة، ينادي في أجواء المحشر نداءً تفسيره: ﴿لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ويقْتَرِنُ بهذا البيان بيانٌ من اللَّه للنَّاس وهم في عالَمِ الابْتِلاءِ يُبَيِّن اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيه من هم الظالمون.

وعَقِبَ ذلك يُقَدِّمُ البيانُ مَشْهَدَ حِجَابٍ حاجزٍ مرتَفِعٍ بَيْنَ أهل الجنَّةِ وأهلِ النّار، وعلى الأعراف من هذا الحجاب رجالٌ لَمْ يَصْدُرِ القَرَارُ الرَّبَّانيُّ بَعْدُ بشأْنِهِمْ، هل هم من أهل النّار أمْ من أهل الجنّة، لأنّهم في مَنْزِلةٍ وُسْطَى تماماً بَيْن الفريقين، وهم يترقّبون بَيْنَ الخوف والطمع صُدُور القرار بشأنهم، ويَعْرِضُ البَيَانُ مَشْهداً من مشَاهِدِ تَصَرُّفِهم وهُمْ على الأعراف، إذْ يُنادُون أصحابَ الجنَّةِ أنْ سَلاَمٌ عليكم، وهم ما زالوا في المحشَرِ إلى جهةِ الجنَّة، وتَبْدُو عليهم أماراتُ الطَّمَعِ بأنْ يُسَاقُوا إلى دخول الجنَّةِ زُمراً، لعلَّ بَعْضَ أهل الجنَّةِ كالرُّسل يَرُدُّ عليهم التحيَّة بمِثْلها، فتكون لهم بمثابة بُشْرَى بأنّ اللَّه عزّ وجلّ سيَرْحَمُهُم، فيجعلُهم من أهل الجنَّة، ولو بَعْدَ أنْ يُعاقَبُوا على معاصيهم أو بعضها. وإذا صُرِفَتْ أبْصارُ الّذين هم على الأعراف تلقاء أصحاب النار، وبَدَا لَهُمْ ما هُمْ صائِرُون إليه من خلود في عذاب النار، دَعَوْا رَبَّهُم قائلين: ربَّنا لاَ تَجْعَلْنا مع القَوْمِ الظَّالمين.

التدبّر:

● قول اللّه تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ . . . ﴿٤٤﴾﴾.

هذه الصُّورة الّتي جاءت بأسْلُوب حكايَةِ أمْرٍ مضىٰ، ممَّا سَوْفَ يتحقَّقُ في الآخرة، في موقف الحشر، لتأكيد أنَّه لاَ بُدَّ أن يتحقَّقَ حتْماً، صُورَةٌ تَعْرِضُ لقطةً من لقطات مشاهِدِ يَوْمِ الحشْرِ بَعْدَ الحساب وفَصْلِ القضاء بالنسبة إلى أهلِ الجنَّةِ، وأهل النّار الخالدين فيها، وهُمْ في انتظار توجيه أهل الجنَّة لدخول الجنَّةِ، وتوجيه أهل النّار لدخول النَّار.

أمّا أصحابُ الجنَّةِ فمَجْمُوعُونَ في جهة من أرض المحشر هي جهة اليمين، وحين تُزْلَفُ الجنَّةُ للمتَّقينَ تُزْلَفُ إلى هذه الجهة، وأمّا أصحابُ النار فمَجْمُوعُونَ في جهةٍ من أرض المحشر أُخْرَى هي جِهَةُ الشّمال، ومن هذه الجهة يَسْمَعُونَ تَغَيُّظَ النَّارِ وزَفِيرَها. وبين أصحابِ الجنَّةِ وأصْحَابِ النَّارِ حجابٌ سيَأْتِي إن شاء اللّه البيان عنه.

ودلّ البيانُ على أنّ التخاطبَ بَيْنَ الفريقين يكُونُ بأسْلُوب النّداء، الّذي يُصاحِبُهُ رَفْعُ الصَّوْتِ، لاَ بأسْلُوب المحادثة، ولاَ نَدْرِي ماذا يُهَيِّئُ اللّه من وسائلَ لإيصال أصْواتِ المتنادِين في ذلك الموقف، الذي يجمع اللّهُ فيه الأوّلين والآخِرينَ في مَحْشَرٍ واحد، ويَفْرِزُ فيه المؤمنين عن الكافرين، ويجعلُ الفريق الذين هم بَيْنَ بَيْن على أعراف الحجاب.

يقولُ أصْحَابُ الجنَّةِ الَّذِينَ صَدَرَ القرارُ بأنَّهُمْ من أهل الجنَّة، في نِدائهم لأصحاب النار وهم مَفْرُوزُونَ في مكان حَشْرِهِمْ كلاماً تَفْسيرُهُ: ﴿قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ﴾؟

كلمة «أنْ» في: ﴿أَن قَدۡ وَجَدۡنَا﴾ تفسيريَّة للنّداء، أي لما جاء فيه من كلام.

إنَّهم يُعْلِنُونَ في ندائهم هذا أنَّهم قَدْ وَجدُوا كُلَّ مَا وَعَدَهُمْ اللَّه رَبُّهم في الدُّنيا على أَلْسِنَةِ رُسُلِه بلاغاً وَبياناً، وَجَدُوهُ حقّاً واقعاً كما جاء في وَعْدِهِ الكريم، فالبَعْثُ قَدْ تحقَّقَ، وموقف الحشر قد تحقّق، ومَوْقف الحسَابِ وفَصْلِ القضاء قد تحقَّق، وَإِصْدارُ الحكم لهم بدُخول الجنَّة قد تحقّق، وهٰذِهِ الجنَّةُ تَقْتَرِبُ إلى موقفهم شيئاً فشيئاً، وهم يَنتظرون الإِذْنَ بسَوْقِهم إلى الجنَّة زُمراً، كما جاء في الوعد الرَّبَّاني.

إنَّه نِداء الفَرِحين المبتهجين بثواب اللَّه العظيم، وهو في الوقت نفسه يتضمَّنُ تَحْسيراً لأصحاب النّار، الَّذِين كانوا يُكَذِّبُونَ بآياتِ اللَّهِ ويَسْتَكْبِرُونَ عَنْها.

ويَسْأَلُونَ في ندائهم أصحاب النّار قائلين لهم: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ﴾؟

أي: فهل وجدتُّم كُلَّ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حقاً، سواءٌ أكان وَعْداً بالعذاب والعقاب للكافرين المكذِّبين بيَوْم الدّين، أمْ كان وعداً بالثواب والأجْرِ العظيم للمؤمنين المتّقين؟

● ﴿قَالُوا نَعَمْ ۚ﴾:

من الطبيعي أنْ يكُونَ جوابُ أصحاب النّار بكلمة «نَعَمْ» مع ذِلَّةٍ وتحَسُّرٍ وانكسار، فَلاَ مَجالَ يَوْمَئِذٍ للإنكار.

● قول اللَّه تعالىٰ:

﴿. . فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

● ﴿فَأَذَّنَ﴾: أي: فنادىٰ مُعْلِماً، يقال لغةً: أذَّنَ تأذيناً، وأذاناً، أي: أكثر الإعلام بالشيء.

● ﴿مُؤَذِّنٌ﴾: الظاهر أنّ هذا المؤذّن هو من الملائكة الذين لهم

وظائف يؤدّونها يوم الدّين واللَّه أعلم، ويدلُّ فعْلُ «أذَّنَ» على أنّه يكرّرُ مقالته، كما يكرّر المؤذّن للصلاة عبارات الأذان.

• ﴿بَيْنَهُمْ﴾: أي: يكُونُ هذا المؤذن قائماً بين أصحاب الجنة وأصْحَاب النَّار، فالضمير يعودُ على الفريقين، ويحتمل أن يكون عائداً فقط على أصحاب النارِ الّذين قالوا: ﴿نَعَمْ﴾.

• ﴿. .أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿أَن﴾ تفسِيريَّةٌ لمضمون ما جاء في كلماتِ أذان المؤذّن.

وقرأ جمهور القرّاءِ العشرة: ﴿أَنَّ لَعْنَةَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بتشديد النون من [أنَّ] مَعَ نَصْبِ لفظة [لَعْنَةَ] أي: اعْلَموا أنّ لَعْنَةَ اللَّهِ علىٰ الظالمين.

والقراءتان مُتَكامِلَتان في دلالتيهما، إذْ تشعِران بأنّ المؤذّن يقولُ مُكرّراً: «لَعْنَةُ اللَّهِ علىٰ الظّالمينَ». ثُمّ يقولُ مُكرّراً: «إنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ على الظّالمينَ».

اللّعْنُ: هو في اللّغة الطّردُ والإبعادُ من الخير، ولَعْنَةُ اللَّهِ على الظّالمين تدُلُّ على طردهم من مواطن تنزّلاتِ رَحْمَتِهِ.

والمرادُ بالظالمين هنا الكافِرُون الّذين كذّبوا في رحلة امتحانهم في الحياة الدُّنيا بآيات اللَّه، واسْتَكْبَرُوا عن اتّباعها، وعن طاعة أوامر اللَّه وَنواهيه فيها، وكانُوا يصُدُّون عن سبيل اللَّهِ، ويَبْغُون أن تكونَ السّبيلُ عَوْجاءَ مُوافقةً لأهوائِهم وشهواتِهم ونَزَواتهم.

• قول اللَّه تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

هذه الآيةُ يُبيّن اللَّه عزّ وجلّ فيها للنّاس وهم في الحياة الدُّنيا، المرادَ بعُنْوان «الظّالمين» في العبارة الّتي يُرَدّدها المؤذّنُ يَوْمَ الدّين، وليست من

توابع عبارة المؤذن، إذْ في هذه الآية بيانٌ لما يُمارِسُه الظالمون في الحياة الدُّنيا من سُلُوكٍ واعتقاد.

● ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: **الصَّدُّ** في اللغة يُسْتَعمل لازماً ومتَعَدِّياً. تقول لغة: صَدَّ فُلانٌ عن فُلان، أي: هَجَرَهُ وابْتَعدَ عَنْهُ، واتَّخَذَ جانباً غَيْرَ جانبه، فالفعل بهذا المعنى لازم.

وتقولُ لغةً أيضاً: صَدَدْتُ ابْنِي عن طريق الشَّرِّ، أي: منَعْتَهُ من سُلُوكه، وصَرَفْتَهُ عَنْهُ وأبْعَدْته، والفعل بهذا المعنى مُتَعَدٍّ.

والظَّالِمُون يَصُدُّون عن سبيل الله، بمعنى يهجُرُونه، ويبتَعِدُونَ عنه، ويتَّخِذُونَ جانباً غير جانبه، ومَعْلُومٌ بداهةً أنَّهم لاَ يَصُدُّونَ عن سبيل اللّه إلاّ بسَبَب أنَّهم كذَّبُوا بآياتِ اللّه، واستكبروا عنها، وسبيل اللّه هو دينه وشرائِعُه وأحكامُه ووصَايَاهُ لعباده.

وفَريقٌ من الظَّالمين مُضِلُّون مُغْوُونَ دُعاةُ كُفْرٍ وضلال، فهم يصُدُّونَ عن سبيل اللّه، بمعنى يَصْرِفُون ويُبْعِدُون عنه من يستجيب لضلالاتهم، أو يمنَعُونَ النَّاس بالإكراه الماديّ والمعنويّ عن سلوكه ممَّن يستطيعُون إكراهَهُ.

● ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: أي: ويَبْغُونَ أنْ تكونَ سَبيلُهم وسبيلُ النَّاس في الحياة الدُّنيا عِوَجاً، أي: عَوْجاء غير مستقيمة.

العَوَجُ بفتح العين اسْمٌ لِلْمَيْلِ والانعِطَافِ في الأَشْيَاءِ، ومُجانَبَةِ الاستقامة في المرئيّات، كالقَضِيب الأعوج، والعصاة العوجاء.

والعِوَجُ: بكسر العين عدم الاستقامة في الأشياء المعنوية، كالفِكْرِ، والقول، والمَذْهَب، ومِنْهاجِ السلوك. والعِوَجُ في الأرض عدم الاستواءِ فيها.

● ﴿. . وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾: أي: وهم لاَ يؤمِنُونَ بيوم الدّين، ويَكْفُرُونَ ويكَذِّبُونَ بقانون الجزاء الَّذِي قضاه وقدّره أحكم الحاكمين، ربُّ

العالمين، فلا يجدون في نفوسِهِمْ مَشاعِرَ خوف من العقوبات الرَّبّانيَّة المقرَّرَاتِ للظالمين.

● قول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

● ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ﴾: أي: وبين أصْحَاب الجنَّةِ وأصحاب النار، الّذينَ صَدَرَتْ بشأنِهِمُ الأحْكامُ النهائيَّةُ في المحشر، بَعْدَ الحساب وفَصْل القضاء حجَاب، وهذا الحجابُ الفاصِلُ بين الفريقَيْنِ، هو سُورٌ أو جَبَلٌ مُمْتَدٌّ فاصلٌ من أوَّلِ أرْضِ المحشَرِ إلى آخِرِها.

لقَدْ أقامَ اللَّه عزّ وجلّ بين الفريقين المفروزَيْنِ في أَرْضِ المحشر حجاباً لَهُ شُرُفاتٌ يُنَاظِرُ من يكونُ فيها أصْحَابَ اليمين وأصْحَابَ الشّمال، ويَسْتطِيعُ وهو فيها أنْ يُخاطِبَ هؤلاء وهؤلاء نداءً، وهذه الشُّرُفاتُ المُطِلَّاتُ سَمَّاها اللَّهُ عزَّ وجلَّ أعْرافاً.

● ﴿... وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْۚ ...﴾:

الأَعْراف: في اللّغة جَمْعُ «عُرْف». قالَ أهْلُ اللُّغَةِ: عُرْفُ الأرض، ما ارْتَفَعَ منها، وجمعُهُ «أعْراف».

ويقولون: جَبَلٌ أعْرَفُ، إذَا كانَ فيه شيْءٌ مُرْتَفِعٌ كعُرْفِ الدّيك. ويقولُونَ: حَزْنٌ أعْرَفُ، أي: أرْضٌ غَلِيظَةٌ صَعْبَةٌ مُرْتفعة. وأعرافُ الرِّياح والسُّحُبِ في اللّغة، هي أوائلها وأعَاليها، واحِدُها «عُرْف».

ويظهر أنّ كُلَّ ذلكَ مَأْخُوذٌ في الأَصْلِ من «عُرْف الديك» وهي اللّحمة المستطيلة المرتفعة في أعْلَى رأسِه، ومن عُرْف الفرس، وهو الشَّعْرُ النَّابتُ في أعْلَىٰ عُنُقِهِ.

فالأعرافُ: هي الأعالي المشرفة الّتي تكون فَوْقَ الحجاب الفاصل في المحشر، بَيْنَ أهل الجنّة وأهل النّار، قَبْلَ توجيههم لمصايرهم.

وقد نظرْتُ في أقوال المفسّرينَ حَوْلَ الأعراف في موقف الحشر، وحول أصْحَاب الأعراف، ورأيْتُ فيها اختلافاً كثيراً، وعُدْتُ إلى تدبُّر النّصّ بأنَاةٍ، وإلى ما جاء في المأثور عن الرسُول ﷺ، وهي روايات لم تَرْقَ الأسانيدُ فيها إلى مستوى الصحيح، ورأيْتُ أنَّ أجْوَدَهَا مُرْسَلٌ حسَنٌ كما قال ابْنُ كثير، واستَعَنْتُ باللَّهِ العليم الوهّاب، فترجّح لدَيَّ أنّ الأعراف شُرُفاتٌ مرتَفِعاتٌ فوق الحجاب، وأنّ أصحابَ الأعراف هم الذين كانَتْ حسناتُهُمْ كافيةً لوِقَايَتِهِمْ بفضل اللَّه من عذاب النار، لكنْ ليس فيها ما يُؤَهِّلُهُمْ لدُخولِ الجنّةِ بحَسَب ميزان العَدْل، فوُضِعُوا على الأعراف بَيْنَ بَيْن.

وقد جاء في عدّة أسانيد، قال ابْنُ كثير بشأنها: من المرْسَلِ الحسَنِ، عن النبيّ ﷺ، أنّهُ سُئِلَ عن أصحاب الأعراف فقال:

«هُمْ آخِرُ مَنْ يُفْصَلُ بَيْنَهُمْ مِنَ العِبَادِ، فَإِذَا فَرَغَ رَبُّ العَالَمِينَ مِنَ الْفَصْلِ بَيْنَ العِبَادِ قالَ: أَنْتُمْ قَوْمٌ أَخْرَجَتْكُمْ حَسَناتُكُمْ مِنَ النَّارِ، ولَمْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ، فَأَنْتُمْ عُتَقَائِي، فَارْعَوْا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْتُمْ».

● ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾: أي: ونساءٌ لأنّ سُنَّة اللَّه في عباده واحدة، سواءٌ أكانوا رجالاً أمْ نساءً.

وجاء ذكر الرّجال دون التصريح بالنّسَاء، لأنّ الرجال يكونون في مُقَدِّمَةِ الصفوف، فَهُمُ الّذين تقع عليهم الأنظار في المشهد، أو لأنّ الأسلوب القُرآني يَعْتَمِدُ ذِكْرَ الرّجال دون النساء، على اعتبار أن النّساء يُلْحَقْنَ بهم في الأحكام، ما لم تكن القضية من خصائص الذّكورة، واللَّه أعلم.

● ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾: أي: يَعْرِفُونَ كُلاً من فريقِ أصْحابِ الجنّة، وفَرِيقِ أصْحابِ النّار، بعلاماتهم الفارقات بينهم.

السِّيمَا والسِّيماءُ: في اللّغة: العلامة.

وقد جاء في القرآن المجيد بيانُ أنَّ سِيما الكافرينَ يومَ القيامة، أن تكون وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةً، ولو كانت في الدنيا بيضاء البَشَرةِ، كأحْسَنِ ما تكونُ الوجوه البيض بياضاً، وأنْ تكون سيما وُجُوه المؤمنين يوم القيامة مبيضَّة مُشْرِقَة مُبْتَهِجَة، ولو كانت في الدنيا سَوْدَاءَ البشرة كأشَدِّ ما تكون الوجُوهُ السُّودُ سواداً.

■ ففي سورة (الزّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

■ وفي سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿... وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

إنّ المشهد يَحْكِي ـ بصيغةِ الفعل الماضي لتأكيد أنّه سَوْف يتحقَّقُ يومَ الدّين ـ لَقَطاتٍ من تصرّفاتِ أصحاب الأعراف، ومنها أنّهم في مواقعهم على الأعراف يتوجّهون بأنْظارهم إلى أصْحابِ الجنّةِ، فيُنادُونَهُمْ: سَلاَمٌ عليكم.

وهذا يَدُلُّ على أنّهم قَدْ كان بَيْنَهُمْ وبَيْنَهُمْ لِقاءٌ في الدّين، وتَجْمَعُهُم في دائرة الإسلام تحيَّةُ السَّلام.

وسكَتَ النَّصُّ عن رَدِّ أصْحاب الجنَّةِ هٰذِهِ التحيَّةَ بِمِثْلِها أو بأحْسَنَ منها، ويحتمل هذا السُّكوتُ دَلاَلَتَيْن:

الأولى: الإيجاز، لأنّ الرّدَّ ممّا يُعْلَمُ بداهةً.

الثانية: أنْ يكون أصحابُ الجنّة لم يَعْرِفُوا بَعْدُ مَصِيرَ هؤلاء الَّذِينَ هم على الأعراف، فهُمْ لاَ يَدْعُونَ لهم بالسَّلام إذا لم يكونوا من أهْلِه حينما يقضي اللَّه قضاءَهُ بشَأْنِهم.

● ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾: الضمائر في هذه الجملة تَعُودُ على أصْحَاب الجنّة. وهي تبيّن أنّ أصْحابَ الجنّةِ ما زالُوا في موقف الانتظار، وهم عَالِمُونَ بأنّهم قد صَدَرَتْ بشأنهم الأحكامُ الرَّبَّانيَّةُ بأنّهم من أصْحَاب الجنّة، لكن لم يَصْدُر الأمْر التَّنْفِيذي بالتَّوَجُّهِ لها، حتَّىٰ تَسُوقَهم الملائكةُ إليها زُمَراً. غَيْرَ أنّهم يَتَوَقَّعُونَ لحظةً فَلَحْظَةً أن يَصْدُرَ الأمْرُ التَّنْفِيذِيّ، وهم كلّما مرّت لحظَةُ طَمِعُوا بأنْ تكونَ اللّحظَةُ التاليةُ هي الظَّرْفَ لتوجيه أمْرِ التَّنفيذِ، وهكذا يتجدَّدُ طَمَعُهُمْ لحظةً فلحظةً، نَفْهَمُ هٰذا من استعمال الفعل المضارع في العبارة، أي: لَمْ يَدْخُلُوا الجنَّةَ بَعْدُ، وهم يطمَعُونَ طمعاً متجدّداً مع اللّحظاتِ بأنْ يَصْدُرَ أمْرُ التنفيذ بدُخولها حتّى يَدْخُولوها.

ولَيْسَ وارِداً أنْ يكون المراد بعبارة ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أصحابَ الأعراف، لأنّ النَّصَّ واضحٌ في أنّهم ما زالوا على الأعراف في المنطقة الوسطى، ولم يُلْحَقُوا بَعْدُ بأصحاب الجنّة، فلا معنىٰ لأن يقال: لم يَدْخُلوا الجنّة.

● قول اللَّه تعالىٰ:

﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: وإذا حُوِّلَتْ وُجُوهُ أصحاب الأعراف وأبصارُهم إلى جِهَةِ أصْحَاب النَّار، على غير رَغْبَةٍ منهم، فقلُوبُهم وَجِلَةٌ من أن يُلْحَقُوا بهم، دَعَوْا ربَّهُمْ فَوْراً قائِلينَ: رَبَّنا لاَ تَجْعَلْنا مَعَ القَوْمِ الظَّالمين، أي: رَبَّنا لاَ تُلْحِقْنا بهم حتّىٰ نكون معهم في عذابِ النَّار.

لم يَكْتَفوا بأَنْ يَقولُوا: رَبَّنا لا تجعَلْنا معهم، أو: لاَ تَجْعَلْنا مع

هؤلاء. بل ذَكَرُوهم بالوصف الذي استَحَقُّوا به أن يكونُوا من أصحاب النار.

صُرِفَتْ: أي: حُوِّلَت، وصَرْفُ الشيء: رَدُّه عن وَجْهِه إلى وَجْهٍ آخر، واستعمالُ الفعل المبني لما لَمْ يُسمَّ فاعله هنا يدلُّ على أنَّ هذا الصرف لم يَرْغَبْه أصحاب الأعراف، فهو يجري فيهم حركةً غَيْر إرادية.

● ﴿تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾: التِّلْقاءُ مصْدَرٌ مِثْلُ اللّقاء، أو اسم مصدر لِلّقاءِ كما قال ابْنُ سِيده.

وتوسَّعَ العربُ في استعمال كلمة «تِلْقاءَ» فاستعملوها ظرف مكانٍ بمعنى جِهَةِ اللِّقاء والمقابلة، ونَصَبُوها على الظرفيّة.

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ . .﴾؟!

يُصَوِّرُ هذا البيان مَشْهَدَ حَدَثٍ يكونُ في هذا الموقف، إذْ يُشاهِدُ فيه أصْحابُ الأعْرافِ وهُمْ على شُرُفاتهم، بَعْضَ أصحاب النّارِ مِمَّنْ كانُوا يَعْرِفُونَهُمْ في الحياة الدنيا، وهُمْ يَعْرِفونهم في ذٰلِكَ المَشْهَدِ بعَلاماتهم أنَّهم من أصحاب النار، فينادونَهُمْ من بُعْدٍ قائلين لهم مقالَتَيْن:

المقالة الأولى: يقولُون لهم فيها: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ للأموالِ وللرّجال وللقُرَى في الحياة الدُّنيا ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ به عن اتّباع آيات اللّه المنزَّلاَت التي بلّغكُمْ إيّاها رُسُل ربّكم؟

استفهام يُرادُ به التوبيخُ والتَّقْرِيعُ والإنكارُ والتحسير.

هذه المقالة تَدَلُّ على أنّ أصحابَ الأعراف مؤمِنُونَ، ولكِنْ لم تَبْلُغْ حسَناتُهُمْ أنْ يُفرَزُوا ابتداءً مع أصحاب الجنّة.

المقالة الثانية: يقولون لهم فيها بشأن بعض المؤمنين، الصائرين إلى جنَّاتِ النعيم، وقد كانُوا في الدنيا من ضعفاء المؤمنين وفقرائهم ومساكينهم:

● ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾ إذْ كُنتُمْ في الحياة الدّنيا قائلين: نُقْسِمُ أنّ هؤلاء المستَضْعَفين المساكين الفقراءَ ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾.

استفهامٌ يراد به أيضاً التوبيخ والتقريع والإنكار والتَّحْسير، فلا يجيب المسؤولون بشيء، وعَدَمُ الجواب في هذا الموقف هو الجواب، لأَنَّهُم خَزَايَا نادمون شاعرون بالصغار والذِّلَّة.

وينطوي هذا المشهد.



● قول اللّه تعالىٰ:

﴿... ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

في هذه الجملة انتقالٌ مُفاجئٌ حصل فيه التقاطُ خطابٍ مقتطع مِمَّا سوف يكون عقب المشهد السّابق الذي طُوِي، وأُنْهِيَ الكلامُ حَوْلَهُ في النصّ، دون أن يفصل الكلام بآيةٍ مُنْفَردة، إيغالاً في إحكام الإبداع في العرض.

إنّ النصَّ يَنْتَقِلُ بصُورَةٍ سَريعةٍ مُفاجِئةٍ، لِيُقَدِّمَ لقْطَةَ توجيهِ الأمْرِ الرَّبّاني لأصْحَابِ الجنَّة، الّذِين يترقّبون بطمَعٍ مع توالي اللّحظات، أنْ يَصْدُرَ الأمْرُ التكريميُّ لهم بأنْ يَدْخُلوا الجنَّة.

وهذا الأسلوبُ البيانيُّ جارٍ على طريقة عَرْضِ اللَّقطاتِ المقتِطعات، من عُمُومِ سلاسل المشاهد المتتابعة، دون التمهيد لَها بأيَّةِ مُقَدِّماتٍ، وهذه الطريقة من روائع الأداء البيانيّ، الّذي لم يكن يَعْرِفُهُ البُلَغاءُ ولا الأدباء،

وصِرْنَا نَعْرِفُهُ اليَوْمَ في فُنُونِ عَرْضٍ لقطات الصُّوَرِ السينمائية ذاتِ الأداءِ الفَنِّيِّ الرَّفيع، دون فواصل تُشعِرُ بالانتقال من لَقْطَةٍ لأُخْرىٰ.

ويَلْزَمُ فكراً من توجيه الأمر لهم بأنْ يَدْخُلُوا الجنَّة، أن يكونَ الرَّبُّ جلّ جلالُه قد وَجّه الأمْرَ لِذَوي الاختصاص من الملائكة بأن يَسُوقوهم زُمَراً إليها، لتتكامل دلالاتُ النُّصوص الموزَّعةِ في القرآن المجيد.

فقد جاء في سورة (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) قولُ اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

صيغةُ الأمْرِ في عبارة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ هي صيغة دَعوةٍ تكريمية من الرَّبّ العظيم الجليل لعباده المتقين الذين قضى لهم بأنَّهُمْ أصْحَابُ الجنَّة.

● ﴿...لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

سبَقَ تدبُّر معنى نَفْيِ الخوفِ والحزْنِ عَنْ أهل الجنّة، لدى تدبُّر الآية (٣٥) من هذه السورة.

وأُضيفُ هنا أنّ هذا التعبير قد جاء في القرآن المجيد (١٤) مَرَّة، وتَدَبُّرُها ضِمْنَ سِبَاقها وسِيَاقِها يحتَاجُ دراسَةً تكاملية مستقلّة.

وقد طوى النصّ بيَانَ تَوْجِيهِ الأمْرِ بإدْخال أهل النارِ النّارَ إيجازاً، وللعِلْم به من السِّيَاقِ ومقتضى التقابل.

❋ ❋ ❋

● قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ

هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

تمهيد:

هذه الآيات هي الآيات الأخيرات من الدرس الرابع من دروس السورة، وفيها ما يلي:

● عرض مشهد آخَرَ من مشاهد يوم الدين، إلاّ أنّه مَشْهَدٌ مقتطع من أحوال أهل النّار وهم في النّار، إذ يُنادُون مُسْتَجْدين أصْحاب الجنَّة وهم في الجنَّة، أنْ يَمْنَحُوهم من فَيْضِ ما عندهم من ماء أو رزقٍ مما رَزقهم اللَّه.

أمّا توصيلُ النّداء فيكون بوسيلة يُهَيِّئُها اللَّه عزّ وجلّ للفريقين وهم في دَارَيْهِم، دار العذاب، ودار النعيم.

ويجيبُ أهل الجنَّة بأنّ اللَّه عزّ وجلّ قَدْ حَرَّمَ ما في الجنَّة من ماء وأرزاقٍ على الكافرين.

● بيانٌ ربَّانِيٌّ قد جاء تعليقاً على ذكر الكافرين يَصِفُ اللَّه فيه الكافرين بأنّهم اتّخذوا دينهم لهواً ولعباً، وغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا، وعَزَلُوا عَنْ تَصَوُّراتِهم الآخرةَ، وما فيها من عقابٍ بالعَدْل في دار العذاب النّار، وما فيها من ثوابٍ بالفضل في دار النّعيم الجنّة، وجَحَدُوا بآيات اللَّه وهُمْ يَعْلَمُون أنّها حقٌّ من ربّهم.

فَجَزاؤُهم أنْ يُعَامَلُوا بمثل ما قدّموا في الحياة الدنيا.

● بيانٌ رَبَّاني يَكْشِفُ أنَّهُمْ لا يملِكُون عُذْراً يعْتَذِرُونَ به، فقد جاءهم

رَبُّهم بكِتابٍ فصَّلَهُ بحكمته وعِلْمه الشّامل، وفيه هُدىً ورحْمَةٌ لمن يُرِيدُ أن يستَجِيبَ لدعْوَةِ الحقّ، ويؤمِنَ بالحقّ، المنزَّلِ من لَدُنِ الرّبِّ الحقّ.

وفي هذا البيان مُعالجةٌ، تَرْبويّة حكيمة بديعة، وهم في الحياة الدنيا، وهٰذهِ المعالجةُ يَنْتَفِعُ بها الّذين يحرصون على سَعادَتِهم الأبدية، ولاَ يَغْتَرُّون بزِيناتِ الحياة الدنيا.

التدبُّر:

● قول اللّٰه تعالىٰ:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾.

التّعبيرُ بالنّداء في هذا وأمْثاله يَدُلُّ على بُعْدِ المسَافةِ بَيْنَ المنَادي والمَنادىٰ، وهو الأمر الذي يَسْتَدعِي رَفْعَ الصَّوْت.

ويَدُلُّ التَّعبيرُ بالنّداء في بعض الأحوال على مَشَاعِرِ التَّلَهُّفِ، أو شِدَّةِ الطَّلَب، أو شِدَّةِ التحسُّرِ، أو شِدَّةِ الحُزْن، أو نحو ذلك، مع أنّ المنادىٰ قريب، نظراً إلى أنّ الإنسان من طَبيعتِهِ أنْ يدُلَّ بِرَفْعِ الصَّوْتِ وبعباراتِ النّداء على هٰذهِ الأمور.

والصورة هنا تَدُلُّ على أنَّ النّداء صَادِرٌ من أصْحابِ النّار، وهم يُعَذَّبُونَ فيها، فهُمْ به يَسْتَجْدُون بتلهُّفٍ وشِدَّةِ طَلَبٍ وذِلَّةٍ وانْكِسارٍ، مِنْ أصحابِ الجنّة أنْ يُفِيضُوا عَلَيْهِمْ شيئاً من ماء الجنّة، أو شيئاً من رِزْق اللّٰه لهم فيها من مطاعم ومَشارب.

ولمَّا كانَ التّعبيرُ هُنا يُقَدّمُ مَشْهداً مقتطعاً من الحدَثِ الّذي سَوْفَ يكونُ يَوْمَ الدِّين، كان من رفيع الأداء البياني الفنّيّ أن يُقَدَّم بصيغَةِ حَدَثٍ وقَعَ فِعلاً، والتّعبِيرُ يُقَدِّمُ صورة له. وفيه مع هذه الفنيّةِ التّصْويريّة دَلالةٌ على

أنّ الحَدَثَ سَوْف يقع لا محالَة، وهٰذا الأمْرُ يَسْمَحُ بالتعبير عَنْهُ بلاغيّاً بصيغة الفِعْل الماضي.

• ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا﴾: «أنْ» تفسيرية، فهي هنا تفسّر مَضْمُونَ النّداء بالتعبير الذي جاء بعدها.

﴿أَفِيضُوا﴾: الإفاضة تَدُلُّ على كَثْرَةِ العَطاءِ والبَذْل، أو كَثْرَةِ الدَّفْع، أو كَثْرَةِ السَّكْب، أو كَثْرَةِ التّدَفُّقِ، وتكُونُ لكلّ شيءٍ بحَسَبِهِ.

تقول لغة: أَفَاضَ اللّهُ الخَيْرَ إذا كَثَّرَه. وتقول: أَفَضْتُ الإناءَ، إذا مَلأْتُه حتى فاضَ عنه، وخرج الزائد عن حدوده. وتقول: أفاض الباكي دَمْعَه، إذا سكَبَهُ بغَزَارة.

وتقول: فاضَ الماء إذا كَثُر حتّى سالَ. وفَاضَ النَّهْرُ أو السَّيْلُ، إذا مَلأَ مَجْرَاهُ وزَادَ حتّىٰ طَفَحَ على جانِبَيْه.

وصيغة ﴿أَفِيضُوا﴾ صيغَةُ أمْرٍ معناها هنا الطَّلَبُ باستجداءٍ وذِلَّةٍ وانْكِسَار.

فَأَهْلُ النّار بندائهم يَسْتَجْدُون مِنْ أهلِ الجنَّةِ أن يَتَصَدَّقُوا عَلَيْهِم من الزوائد الكثيرة الفائِضَة عن حاجاتهم، ماءً فائضاً من مياههم الكثيرة، أو رِزْقاً فائضاً من أرزاقهم الكثيرة، أو منهما معاً، لأنّ حرف العطف «أو» يَدُلُّ على التَّخْيير بَيْنَ الأمْرَين، ولا يَمْنَعُ من الجمعِ بَيْنهما.

• ﴿مِنَ الْمَاءِ﴾: أي: أفيضُوا علينا فيضاً زائداً عن حاجاتكم من الماء الكثير الوفير الذي عندكم في الجنَّة، وبَدءُوا بطَلَبِه لشِدَّة ظَمَئِهم في دار تعذيبهم.

• ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾: أي: أو أفيضُوا علينا فَيْضاً زائداً عن حاجاتكم من الرّزْقِ الكثير الوَفير الّذي رَزَقَكُمُ اللّهُ إيَّاهُ في الجنّة.

ويَبْدُو أنَّ لدَىٰ أهل النار فيها وسيلَةً يُشَاهِدُون بها ما في الجنّة من أنْهَارٍ جارية، وأرْزاقٍ كثيرةٍ، ووَسَائِلِ نعيم عظيم، ووسيلةً يخاطِبُون بها أهْلَ الجنَّةِ في الجنَّةِ من منازلهم في دار العذاب، كأجْهِزةِ صَوْتٍ وصُورَةٍ، تقرُبُها إلى أذهَانِنا ما توصّل إليه الناس في هذا العصر الّذي نَعِيشُه في الدنيا من أجهزة الصوت والصورة التي تَنْقُل إلينا الأصْواتَ والصُّوَر من أقْصَى الأرض إلى أقصاها المقابل.

● ﴿... قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾: أي: إنَّ اللّـه عزَّ وجلَّ أبَاحَ لنا الانْتِفَاعَ بكلّ ما في الجنّة بأنْفُسِنا، وملّكَنا ذلِكَ، لكنّه لم يُبِحْ لنا أنْ نَتَصَدَّقَ بشيءٍ ممّا في الجنَّة على الكافِرينَ أصْحابَ النَارِ، ولَوْ كانُوا من أقْرَبِ الأقربين إلَيْنا في الدّنيا. فمَا طلبتُمْ منّا من فائضَيْ ماءٍ أو رِزْقٍ عَنْ حاجاتِنا قَدْ حرَّمَهُمَا اللّه على الكافرين، وأنْتُمْ مِنْهم، فَهُمَا حرامٌ عليكم بتحريم اللّه الذي بِيَدِه ملكوتُ كلِّ شيءٍ، ولَيْسَ لنَا أن نَعْتَدِي على حقِّ اللّه جلَّ جلالُه في مِلْكه بدار ضيافته.

ويضاف إلى هذا المعنى معنىً آخر، وهو أنّ أحداً من أهل الجنَّةِ لو أراد أن يتصدّق بشيءٍ ممّا فيها على أحدٍ من أهل النار، فإنَّهُ لا يستطيع ذلك بقوانين وأسْبابٍ جَبْرِيّة، لا يُمْكِن اختراقُها، أو تجاوزُها، أو التحايُلُ عليها.

❀ ❀ ❀

● قول اللّه تعالىٰ:

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

هذا بيانٌ من اللّهِ عزّ وجلّ جاء بمثابة تعليق شارح لبعض صفاتِ

الكافرين، أصْحاب النار، الّذين حرَّمَ اللَّهُ علَيْهم كلَّ شيءٍ ممَّا وهَبَ في الجنَّةِ لأصْحابها، والهَدَفُ التربويّ مِنْهُ تحذيرُ الكافِرين وهم ما زالوا في حياة الابتلاء من أن يتّخذوا دينهم لهواً ولَعِباً، ومن أنْ تَغُرَّهُمُ الحياة الدُّنيا، ومن الإعْراضِ أو التّولّي عن آياتِ اللَّه المُنَزَلاَّتِ في كتابه الذي فصَّلَهُ جلَّ جلالُهُ، على عِلْم بكلِّ شيءٍ، وجَعَلَ ما اشْتَمَلَ عليهِ من المعاني النفيسة هُدىً يَهْدِي إلى سَعَادَةِ الدارَيْن، ورَحْمَةً مِنْهُ جَلَّ جلالُه، وعَظُمَتْ مِنَّتُهُ لعِبَادِهِ، وهُما نِعْمَتَانِ لا يَسْتَقِي من نَهْرِ كُلِّ مِنْهُمَا، إلاَّ قَوْمٌ تَتَجَدَّدُ لَدَيْهِمْ دواماً حركَةُ الإيمانِ بالحقّ، ولاَ سيّما الحقُّ الذي يَجِيئُهُمْ من رَبِّهِمْ، فلا تَقِفُ دُونَ إيمانِهِمْ عقباتٌ من نفوسهم وأهوائهم وشهواتهم تعلُّقاً بزيناتِ الحياة الدنيا واغتراراً بها.

• ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾: جاء هذا البيانُ الرَّبَّانيُّ وَصْفاً للكافرين أصْحَاب النار.

أي: هم الذين جعَلُوا الدّينَ الَّذِي كُلِّفُوا أنْ يُؤْمِنُوا به ويَتَّبِعُوهُ بالطاعَةِ والتسليمِ الكاملِ والعَمَلِ، بفِعْلِ مَا جاءَ فيهِ من أوامِر، واجتنابِ ما جاء فيه من نواهي، جَعَلُوهُ لَهْواً ولَعِباً.

اتَّخَذَ على صيغة «افتعل» من فعل «أخذ»، وأصل الأخذ تناول الشيء والقبضُ علَيْه وحيازَتُه. وحصَلَ توسُّعٌ لُغَوِيٌّ، فصار فعل «اتَّخَذَ» يسْتَعْمَلُ بمعنى فِعْل «جَعَلَ» وصار مثلَه يَنْصِبُ مفعولَيْن.

﴿لَهْوًا وَلَعِبًا﴾: أي: جَعَلُوا دينَهُمْ شيئاً يَلْهُونَ بهِ ويَلْعَبُونَ، إذْ يَعْتَبِرُونَه شيئاً غَيْرَ ذِي أهميَّةٍ تُقْصَدُ في الحياة، فيتعامَلُونَ معه كَتَعَامُلِهِمْ مع الأشياء الّتي لَيْسَ فيها جِدٌّ مِمَّا يَلْهُونَ بهِ ويَلْعَبُون من أمور دنياهم.

اللَّهو: هو الاشتغال بشيءٍ غَيْرِ ذي أهميَّةٍ عمَّا يَجِبُ تَوْجِيهُ الجَهْدِ والعَمل له.

والكافِرُونَ يَعْتَقِدُونَ أنَّ الاشْتِغالِ بِبَعْضِ العبادات الدّينيّة الرَّبَّانية هو من اللّهو، لأنّهم لا يَجِدُونَ لكثيرٍ مِنْها ثَمَرَةً عاجلةً، وهُمْ لاَ يؤمِنُونَ بيومِ الدّين، ومَا فيهِ من جَزاء، فيتصَوَّرُونَ أنَّ صَرْفَ شيءٍ من طاقاتهم فيها ضَرْبٌ من اللَّهْو الّذي يَصْرِفُهُم ويَشْغلُهُم عمّا يَنْبغي أن يُوجّهوا طاقاتهم وأنواعَ جَهْدِهم له، من مالٍ يَكْسِبُونه ويجمعونه، ومتاعٍ من متاعِ الحياة الدُّنيا يحقِّقُون به لذَّاتِهم وشهواتهم ورغباتهم، وغير ذلك ممّا هو من زينة الحياة الدنيا.

يقال لغة: لَها يَلْهُوا لَهْواً بِكذا عَنْ كذا. ويقال: الْتَهَى يَلْتَهي الْتِهَاءً. ويقال: أَلْهَاهُ ذٰلِك، إذا شغله، والتَّلَهِّي: التَّشاغل.

وطلّاَبُ الدّنيا تلهيهم دنياهم عن أمور آخرتهم أو ما يُسْعِدُهُمْ فيها.

اللَّعب ضِدُّ الجدّ، ويقالُ لكلّ من عَمِلَ عملاً لا يجلُبُ لَهُ نَفْعاً، إنّما أنت لاعبٌ.

ومن اللّعب ما يفيدُ في رياضة الجسم، أو التَّرويح عن النفس، أو اكتساب بعض المعارف والمهارات، وعندئذٍ يكون لَعِباً ذا أغراض جادّة.

فالفرق بين اللّهو واللَّعِب أنَّ اللَّهْوَ قد يكونُ بأمْرٍ مُفيدٍ من أمور الدنيا، وقد يكون مجرَّد عبَثٍ يشْغَلُ عمّا ينْبغي الاهْتمامُ له والعناية به، أمّا اللَّعِبُ فهو إنفاق الطّاقة في أمْرٍ لا يبلُغُ أن يكونَ من الجدّ الذي يهتمُّ لَه ويَعْتني به العقلاء، ذوو الهمَّةِ العليّة، ما لم يكن ذا فائدة للجسم أو النفس أو الفكر، للفَرْدِ أو للمجتمع، مُتيَقّنَةٍ أو مَرْجُوّة.

والكافرون الذين لا يؤمنون بيوم الدين، يَرَوْنَ أنَّ الاشتغال ببَعْضِ العباداتِ الدينيّة الرَّبَّانية، هو من اللَّعبِ الذي قد يفيد في رياضة الجسم، أو في راحة النفس، ولكنَّ هذه العبادات الدينيّة لا تبلُغُ أنْ تكونَ من الجدّ الذي يَهْتَمُّ له العقلاء اهتماماً ذاتياً.

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾: في هذه الجملة بيان السَّبب في كون الكافرين اتَّخَذُوا دينهم لهواً ولعباً، وهو أنَّهُمْ غَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا، فحَسِبُوا أنَّها كُلُّ شيءٍ في وُجودهم، وحَسِبُوا أنَّهُ لَيْسَ وراء هذه الحياة الدنيا حياةٌ أخرىٰ يكون فيها الحسابُ وفصْلُ القضاء وتنفيذ الجزاء، والحياة الدُّنيا هي الحياة القريبة التي نعيشها.

﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾: أي: وخَدَعَتْهُمْ، وأطْمَعَتْهُم بالبَاطِلِ.

يقال لغة: غَرَّهُ يَغُرُّهُ غَرّاً وغُرُوراً وغِرَّةً، فَهُوَ مَغْرُورٌ، وغَرِيرٌ، أي: خَدَعَه وأطْمَعَهُ بالباطل.

والحياة الدنيا هكذا، تَغُرُّ طالبيها السَّاعينَ بكدٍّ للحصول على متاعِها، وأنواع زِينَتِها، ثمّ يَجِدُونَ أنفسهم كساعٍ إلى سرابٍ، حتَّى إذا بَلَغَهُ لم يجدْهُ شيئاً، ولم يجدْ لَدَيْه مطلوبَهُ من الشراب، وتأتيه منيَّته، ويَجِدُ أنَّه قَدْ خَسِرَ نفْسَهُ بَعْدَ كدٍّ مُضْنٍ طَوال حياته، إذْ يُلاقي حِسابَهُ على ما قَدَّمَ وأخَّرَ في رِحْلَةِ الحياة الدنيا التي اجْتَازَهَا مُمْتَحناً.

وحول هذا الموضوع نجد في القرآن المجيد نَصَّيْنِ آخَرَيْن غير هذا النّصّ من سورة (الأعراف) وبين هذه النصوص تكاملٌ في الدلالة على المعاني المرادة.

● قول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً لكل حَرِيصٍ على سعادته، بأسلوب الخطاب الإفرادي:

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: واتْرُكْ هؤلاء، ولا تكترث لهم، ولا تَعْبأْ بهم، فهم سَادِرون في غَيّهم، وسَوْف يُلاقون عند ربّهم يوم الدّين مصيرَهُمْ عذاباً أليماً.

● وقول اللّه عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خطاباً للّذين آمنوا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨)﴾.

فنهىٰ اللّهُ عزَّ وجلَّ عن اتّخاذهم أولياءَ، لأنّهم باتِّخاذِهِم دين اللّه لعِبادِهِ هُزُواً ولَعِباً قَدْ أوْغَلُوا في الكُفْر ومعاداة المؤمنين.

صُور اتّخاذ الكافرين دين اللّه لَهواً ولعباً:

ويتساءل متسائل عن صُوَر اتّخاذ الكافرين دينَ اللّه لهواً ولَعِباً؟

وبالتأمّل، وبمراجعة طائفة من النّصوص القرآنيّة الموزّعَةِ في سُوَر القرآن المجيد، تبدو لنا الصُّور الخمس التالية[1]:

الصورة الأُولَىٰ: الافتراء على اللّه في مسائل الدين، مفهوماته، وعقائده، وشرائعه، وأحْكامِه، كأنّ دين اللّه للناس بمثابة لعبة يَلْعَبُ بها أصحاب الأهواء والشهوات والأغراض والمصالح الخاصَّةِ بهم، أو بمثابة مَلْهَاةٍ يَلْهُونَ بها، غَيْرَ عابِئين بأنّ الدِّين وأحكامه وشرائعه هو مادّةُ امتحان الناس في الحياة الدنيا، وغَيْرَ مكترثين لأنَّ الامتحان ولوازمه وتَوابِعَه هو الغايةُ من خَلْقِ النّاسِ بخصائِصهم الّتي فطَرَهم اللّه عليها، وأنّه لَيْسَ لأحدٍ أنْ يَتَدَخَّلَ في موادّ هذا الامتحان، دون إذْنٍ من صاحب الحقّ فيه، وهو الرّبُّ الخالِقُ الفاطِرُ الممتَحِنُ، ثُمّ المحاسِبُ وفاصل القضاء ومُحقِّقُ الجزاء، بعد الامتحان ورِحْلَتِه التي تنتهي عند الموت الذي ينزل بالممتَحَن،

---

(١) انظر تفصيل النُّصُوص القرآنيّة في الملحق الرابع من ملاحق السُّورة «اتخاذ الدّين لَهْواً ولعِباً».

أو بانتهاء ظُروفِ الامتحان في الحياة الدّنيا، بظهور علامات السّاعة الكبرى، كَطُلُوعِ الشمس من مغربها.

وهذه الصورة موصولة بالخطِّ الأعظم الذي سار عليه موضوع السورة، وهو ما دلَّ عليه قول اللَّه عزّ وجلّ في أوائلها:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ... ﴿٣﴾﴾.

الصورة الثانية: الاستهزاءُ ببعض الأعمال الدينية، واعتبارها صُوراً غَيْرَ ذاتِ جَدْوىٰ، فهي من صُور اللّهو واللّعب. والاستهزاء بآياتِ اللَّه وإنذاراته ووَعْدِهِ ووَعيده.

الصورة الثالثة الدُّخول في الدين على سبيل النفاق، بالتظاهر بالإيمان والإسلام، مع إبطان الكفر، وجعل ذلك وسيلةً لتحقيق مصالح دُنيويّة، أو لِطَعْنِهِ وطَعْنِ المؤمنين الصّادقين من داخل صفوفهم، كأنَّ دين اللَّه للناس لُعبةٌ أو مَلْهَاةٌ يَلْعَبُ بها أو يَلْهُو بها المنافقون.

الصورة الرابعة: الاستهانة بقضيَّةِ الدين، وعدم الاكتراث له، والانصِراف عنه وعن الدّاعي إليه، لأمور متاع الحياة الدنيا ولَهْوِها ولَعِبها.

الصورة الخامسة: الاستهزاء بالرَّسُول والاستهانة به، ويُلْحَقُ بالرَّسُولِ المؤمنون به، الذين اتَّبَعُوا ما أُنزِلَ إليهم من ربِّهم.

وفي الملحق الرابع من ملاحق تدبّر السورة تفصيل النُّصُوص القرآنية حول هذه الصور الخمس، مع شيءٍ من التدبّر، إن شاء الله.

كيف تَغُرُّ الحياة الدنيا الإنسان؟

ويتساءَل متسائل باحثٌ: كَيْفَ تَغُرُّ الحياة الدُّنيا الإنسان، فتجعلُه يُعْرِضُ أو يُدْبِرُ عن الحقّ الذي يضمَنُ له سعادتَه الأبدية، ويأبَىٰ أن تكونَ مَسِيرَةُ حياته على صراط اللَّه المستقيم؟

أقول:

لِنَضْرِبْ مثلاً تاجِرَيْن سافَرا من بَلَدِهما، وحَمَلاَ مَعَهُما رَأْسَ مالِهِما كُلَّه، لَمْ يَدَعا مِنْهُ شيئاً، وانْطَلَقا في رِحْلَةٍ تِجارِيَّةٍ إلى بلدٍ بعيدٍ ناءٍ جدّاً، وإقامَتُهُمَا في هذا البَلَدِ إقامَةٌ قليلَةٌ مَحْدُودة بحُدُودٍ مَا يَشْتَرِيان به بضاعةً تجاريَّة، يُمْكِنُ أن يحقِّقَ كلٌّ مِنهُما فيها رِبْحاً يُقَدَّرُ بآلاَفِ آلاف الأضْعَاف وفوق ذٰلِكَ، إذَا شَحَنَاهَا إلى بَلَدِهِمَا، الَّذِي هُو مكانُ إقامَتِهِما الدَّائمة الباقية.

أمّا أحدُهما، فوجّه اهتمامه وعنايَتَهُ لجمْعِ النَّفائِس الّتي يتحقَّقُ بها رِبحٌ عظيم، تَبْلُغُ الذَّرَّةُ التي بذَلَها في الشِّراء قناطيرَ مُقَنْطَرةً ربحاً عند البيع.

فجعلَ يَشْتَرِي منها، ويَشْحَنُها إلى بلدِهِ تِباعاً مَضْمُونَةَ الوصُول.

وأمّا الآخر، فوجد في بلَد الرّحلة التجارية ذاتِ الإقامَةِ المحدودةِ جدّاً، والقصيرة جدّاً، مَدِينَةَ ألْعابٍ ومَلاهي ومسَاخِر، وفيها دُورُ رَقْصٍ وغِناءٍ، وأماكِنُ تسْلِيةٍ وضَحِك، وحانات خَمْرٍ وفجور، وفيها بعض أمَاكِن لتناول مَلَذَّاتِ المآكل والمشارِب وغَيْرِها.

وفي مدينة الألعاب والملاهي هذه ما يَسْتَهْلِكُ كُلَّ مُدَّةِ إقَامَتِهِ، وكُلَّ رأسِ مالِهِ، فدَخَلَ إليها، وأنفق رأسَ مَالِه فيها، وشغَلَ كُلَّ مُدَّةِ إقامَتهِ داخلها، ولم يُوجّه اهتمامَهُ لجَمْعِ ما يَشْحَنُهُ لِبَلَدِهِ من سِلَعٍ تجاريَّةٍ ذاتِ رِبْحٍ عظيم، وإنْ جَمَعَ شيئاً ما صادَفَهُ عَرَضاً فهو شيءٌ قليلُ القيمةِ لاَ يُحَقِّقُ له رِبْحاً.

أفلا يصِحُّ أنْ يقولَ أهلُ البصَرِ العقلاء: إنَّ هذا الرَّجُلَ قَدْ غَرَّتْهُ مَدِينَةُ الألعابِ والملاهِي، عمّا سافر من أجْلِه، فقضىٰ رِحْلَتَهُ فيها، وعاد إلى بلده خائباً خاسراً فاقداً رأس ماله؟!!

هكذا نَحْنُ في الحياة الدنيا، إنّ رأسَ مَالِنا فيها عُمْرُنا وطاقاتُنا،

ونستطيع برأسِ مالنا هذا أن نشتري نفائِسَ عظيمةً جدّاً، وأن نَشْحَنَها تِباعاً، إلى دار إقامَتِنا الدَّائِمَةِ، الّتي تكون يَوْمَ القِيامَةِ، يَوْمَ الدّين.

وهذه النفائس هي جواهر الإيمان، وجواهر العمل الصّالِح الذي يُرْضِي رَبَّنَا كما شَرَعَ لَنا، وكما بَيَّنَ لنَا في آياتِهِ المُنَزلاَتِ على رَسُولِهِ المجتبىٰ.

أمّا شَحْنُهَا فمضمونٌ قطعاً، لأنّ حَامِليها إلى بلَدِ الإقامة الدّائمة الخالِدَة، هُمْ ملائكةٌ كرامٌ أُمَنَاءُ، لاَ يَعْصُونَ اللّهَ ما أَمَرَهُمْ، ويَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُون.

فمن وجّه هَمَّه وعَمَلَهُ لجمع النفائس لدار الإقامة الدائمةِ الخالِدَة، أفْلَحَ وسَعِدَ سعادةً أبَدِيَّةً.

ومن شغلَتْهُ الحياةُ الدُّنيا بمَتَاعِها، ولذّاتِها، ولَهْوِهَا، ولَعِبها، وزِينَتِها، وشغَلَهُ التَّفَاخُرُ والتكاثُر من فانِياتها، فَقَدْ غَرَّتْهُ وأطْمَعَتْهُ بالبَاطل، لأنّه متىٰ انْتَهَتْ فيها إقامته القليلة الضئيلة، أقبلَ إليه جنُودُ الرَّب فأخْرَجُوهُ مِنْهَا قَهراً، دون أن يكون قد اشترى وجَمَعَ فيها لنفسه من النفائس الّتي تُرضِي ربَّه، ما يَنْفَعُهُ في دارِ إقامَتِه الخالدة.

ولمَّا كانَ رَأْس مالِه عُمْرَهُ وطَاقَاتِه، وهي جُمْلةُ ذاتِه، فإنَّهُ يكونُ باغْتِرَارِهِ بالحياة الدُّنيا قَدْ خَسِرَ نفسه، ومَنْ خَسِرَ نَفْسَهُ كانَ أخْسَرَ الخاسِرِينَ، وَأخْيَبَ السَّاعين.

ولو أنَّ خُسْرَانه قد كان مُجرَّد خُسْرَانٍ سَلْبِيٍّ لكان كالبهائم، إذْ تكون يوم الدّين تراباً، لكنَّهُ خُسْرانٌ يتحمَّلُ بسَبَبِهِ عذابَ النار يومَ الدِّين، يَوْمَ البقاء الدائم الأبديّ، الذي لا موتَ فيه، فَهُو خُسْرانٌ لجنَّاتِ النَّعِيم، وتحمُّلٌ لشقاءٍ في عذابٍ أليم.

وقد حذّرَ اللّه عزّ وجلّ النَّاسَ أجمعين من أن تغُرَّهم الحياة الدنيا،

ومن أن يَغُرَّهُمْ باللَّه الغَرُور وهو الشيطان، الذي يُتَابِعُهم بوَسَاوِسِهِ وتَسْوِيلاته:

■ فقال اللَّه عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾.

السَّعِير: النار، أو لَهَبُها.

أي: إنّ وَعْدَ اللَّهِ عزّ وجلّ بالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ، وبالحياة الأخرى الباقية الخالدة، وبالحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، بالفضل أو بالعدل، في الجنّة دار النعيم المقيم، أو في النار دار العذاب الأليم، وَعْدٌ حَقٌّ سَوْفَ يتحقَّقُ حَتْماً، فَلَا تخدَعَنَّكُمْ الحياةُ الدُّنيا، بما فيها من لَذَّاتٍ وشهواتٍ، ولَهْوٍ ولَعِبٍ، وَزِينةٍ وتفاخُرٍ وتكاثُر، ولا يَخْدَعَنَّكُمْ الشَّيْطانُ الذي هُوَ الغَرُور بوساوسِهِ وتسويلاته وإطْماعَاتِه بالباطل، فَيَجْعَلَكُمْ تَسْتَهِينُونَ ولاَ تَعْبَؤُونَ بوَعْدِ اللَّهِ، فَيُبْعِدَكُم عن صراطِه المستقيم اعْتِقاداً وعَملاً، ويُبْعِدَكم عن اتِّباع ما أُنْزِلَ إليكم.

إنّ الشيطانَ لكُمْ عَدُوٌّ مُنْذُ توجَّهَ لهُ الأمْرُ بالسُّجُودِ لأبيكُمْ، وهو يَتَّخِذُ كلَّ وَسِيلَةٍ مُتاحَةٍ له، ليَخْدَعَكُمْ، فيجْعَلَكُمْ من أصْحابِ السَّعِير.

فاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً، واحْذَرُوا وَساوِسَهُ ومكايدَهُ وخُدَعَهُ، وأباطيلَهُ، وما يَغُرُّكُمْ به، حتّى تكونُوا من حِزْبِهِ، فيدعُوكم إلى سُلوكِ سُبُل الضَّلَالة، الَّتي توصِلُكُمْ إلى جَهَنَّمَ، فتكونوا من أصحاب السَّعِيرِ.

■ وقال اللَّه عزّ وجلّ في سُورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ

هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾.

فأضافَ هذا النَّصُّ التَّصريحَ بالتَّحذِير من عقاب اللَّه يَوْمَ الدِّين، يَوْمَ لاَ يَسْتَطِيعُ والِدٌ أن يَقْضِيَ ما على ولَدِهِ من حُقُوقٍ تجاه رَبِّه، ولاَ يستطيعُ مَوْلُودٌ أن يَقْضِيَ ما على والِدِه من حُقُوقٍ تجاهَ ربِّه، بَلْ كُلُّ إنسانٍ يكُونُ مَسْؤُولاً عن نَفْسِهِ وَعَمَلِهِ يومئذٍ.

وبَعْدَ هذا التحذير للناس، حَذَّرَهُمُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ من أنْ تَغُرَّهُمُ الحياةُ الدُّنيا، وحَذَّرَهُمْ مِنْ أن يَغُرَّهم باللَّه الشيطان، الَّذِي هو غَرُورٌ، مُنْذُ عاهدَ نفسه أن يُغْوِي بني آدم، وأعْلَنَ عَهْدَهُ هذا لِرَبِّهِ، بَعْدَ أنْ أنْظَرَهُ إلى يَوْمِ إنهاء ظُرُوفِ الحياة الدنيا.

غَرُور: على وَزْنِ «فَعُول» صيغَةُ مبالغة لاسم الفاعل «غارّ» أي: كثير الغرور والمخادعة والإطماع بالباطل.

وقد وصف اللَّه عزّ وجلّ الحياةَ الدُّنيا بأنّها مَتاعُ الغُرُور، في الآية (١٨٥) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول)، وفي الآية (٢٠) من سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول).

وبعد أنْ عَرَضْتُ ما فَتَحَ اللَّهُ به من تَدَبُّرٍ لقولِهِ عزَّ وجلَّ في الآية (٥١) من سورة (الأعراف) في وصف الكافرين أهل النار: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ ...﴾ أتابع تدبُّر ما جاء بَعْدَهُ في الدرس الرابع من دُرُوس السورة.

● قولُ اللَّه تعالىٰ:

﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ﴾: الفاء لترتيب الجزاء على العمل، ومعنى التعقيب بالفاء يرادُ به هنا التعقيب على فَصْلِ القَضاء بالإدَانَة، والمراد باليَوْم يومُ الدّين.

﴿نَنسَىٰهُمْ﴾: أصْلُ النسْيان في اللُّغَةِ التَّرْك، تقول لغة نَسَى فُلانٌ الشَّيْءَ يَنْسُوهُ نَسْوَة، إذا تَرَكه. ويكُونُ هذا النسيَانُ تَرْكاً بِدُون تعمُّدٍ وقَصْدٍ، ويكون تركاً بتعمُّدٍ وقَصْد، ومن التَّرْكِ المتعمّد الإهْمالُ وعَدَمُ الاكتراث.

ويأتي النسيانُ ضِدَّ الذِّكْرِ والحِفْظِ للشَّيْءِ في الذّاكِرَة، بمعنى أنَّهُ كان مَذْكُوراً ومَحْفُوظاً، فغابَ عن الذاكرة. وهذا المعنى هو المشهور بَيْنَ النَّاس، ومن المستحيل عقلاً وشرعاً أن يتَّصِفَ اللّه عزّ وجلّ به.

قال ثعلب من أئمة اللّغة في قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ لا ينسىٰ اللّه عزّ وجلّ، إنَّما مَعْنَاهُ تَرَكُوا اللّه فتَرَكَهُمْ، فلمَّا كان النّسْيانُ ضَرْباً من التَّرْكِ وَضَعَهُ مَوْضِعَهُ.

وجاء في التهذيب أنّ المعنى: تَرَكُوا أمْرَ اللّهِ فتركَهُمْ اللّهُ من رَحْمَتِهِ. وجَاءَ فيه أيضاً تَفْسيراً لقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾، أي: أتَتْكَ آيَاتُنا فتركْتَها (أي: لم تُؤْمِنْ بها ولم تَعْمَلْ بما جاءَ فيها مِنْ أحكام ووَصَايَا وتكاليف) فكذلِكَ تُتْرَكُ في النار (أي: فَلاَ تُخْرَجُ مِنْهَا، ولاَ يُسْتَجَابُ لطَلَبِكَ مَهْمَا دَعَوْتَ وتَضَرَّعْتَ).

وبناءً على هذا المعنى اللُّغَوِيّ نَستطيع أنْ نَفْهَمَ معنىٰ قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ دُون إشكالٍ ما.

أي: ففي هذا اليومِ الذي هو يَوْمُ الدّين نَتْرُكُهُمْ ونَتْرُكُ إجابَةَ طَلَبِهِمْ إذْ يَطْلُبُون تخفيفَ العذاب عنهم، أوْ إفاضَةَ شَيْءٍ من ماءِ الجنَّةِ عَلَيْهِم، أو شيءٍ من الرِّزْقِ الوَفير الذي يتنعَّمُ به أهْلُ الجنَّة، كما تَرَكُوا الاستجابة لدَعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانِيَّةِ الّتي جاءهم بها رُسُلُ ربِّهم، وتَرَكُوا العَمَلَ ليومِ الدِّين، كأنَّ أمْرَ دِينِ اللّه لعباده لا يتعلَّقُ بهم، فلا يُهِمّهُم، وانْدَفَعُوا يرتكبُون

المعاصي الكُبْرى الّتي أوْعَدَ اللَّهُ في آياته المنزَّلاَت على ارتكابها بالخُلودِ في عذاب النار.

على أنّ التَّرْكَ بالنّسْبةِ إلى المخلُوقين يُولِّدُ النّسْيَانِ بمعنىٰ غِيابِ المتروكِ عن الذاكرةِ، وهذا ما يَحْصُلُ فِعْلاً لدَىٰ الّذين يتْرُكُون آيَاتِ اللّهِ المنزّلاَتِ بَعْدَ أَنْ يَتبَلَّغُوهَا، ولَوْ وَعَوْها وَحَفِظُوها، فإنّهم بَعْدَ مُدَّةٍ من الزَّمَنِ تَغِيبُ عن ذاكرتِهِم غياباً تامّاً، وتكُونُ ذاكرتُهُمْ مشغولةً تماماً بمتاعِ الحياة الدنيا، فلا يَخْطُرُ في بالِهِمْ إلاّ اللّذات والأهواء والشهوات وسائِرُ ما في الدنيا من زينات.

وضمن سُنَّة اللَّه العدليّة القائمة على أنَّ الجزاء من جِنْسِ العمل، فإنَّهُمْ يُعَامَلُونَ يومَ الدِّين بالترك والإهمال في مواقعهم من عذاب النار، وهذا النّسْيانُ يزيدُ من عذابهم، لأنّه يُشْعِرُهُمْ بأنَّ أحداً لا يَسْمَعُ صُراخَهُمْ، ولا يَعْبَأُ بهم، فهم مَنسِيُّون مُهْمَلُون مَتْرُوكُونَ في العذاب، كما يُنْسَى بَعْضُ السُّجناء من خُصُومِ السُّلْطان، حينما يُسْجَنُ آماداً طويلة، فلاَ يَسْأَلُ عنهُ أحدٌ، ولا يَبْحَثُ بشأْنِهِ أحدٌ، ولا يَتَفَقَّدُ أحوالَهُ أحد.

● ﴿كَمَا نَسُوا لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾: أي: فاليومَ نَتْرُكُهُمْ تَرْكاً مُماثلاً ومُشابِهاً لتَرْكِهِمْ لقاءَ يومِهِمْ هذا، إذْ تركُوا الإيمان به، وتركُوا العملَ له، لأنّهم كفرُوا باللّهِ، وبرَسُوله، وبما أنزل اللّه على رسوله.

● ﴿وَمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾: أي: وكَمَا كانُوا بآياتِنا يَجْحَدُونَ كافِرِينَ بها مع عِلْمِهِمْ بأنّها حقٌّ وصِدْقٌ من عِنْدِ ربِّهم.

والمعنى: فاليَوْمَ نَتْرُكُهُمْ مُهْمَلِينَ مَنْسِيِّينَ في عذابِ جَهَنَّم، مِثْلَما سبَقَ في الحياة الدّنيا أنْ تَرَكُوا وَأَهْمَلُوا لِقاءَ رَبِّهِمْ في يومِ الدّين هذا، ومِثْلَما كانُوا يُتابِعُونَ جُحُودَهُمْ بآياتِنا الّتي نُنَزِّلُها أو نُجْرِيها تِباعاً، مع أنَّ أنْفُسَهُمْ كانَتْ مُسْتَيْقِنةً لها.

ومن تركهم وإهمالهم تَرْكُ إجابَةِ مطالبهم، إذْ نجعلُها بمثابَةِ مطالِبَ لاَ وُجودَ لها، كما جَعَلُوا في الدنيا آياتِنا مَرْفوضةً مَتْرُوكةً غَيْرَ مَقْبولةٍ، مَجْحُودةَ النِّسْبةِ إلَيْنا، وبمثابَةِ شيءٍ لا وجود له، وظاهِرٌ أنَّ هذا الجزاء الرَّبَّانيّ لهم هُوَ من جِنْسِ عملِهم.

يَجْحَدون: أي: يُنْكِرُونَ آيَاتِنا مع عِلْمِهِمْ بأنَّها حقٌّ وصِدْقٌ.

يُقالُ لغة: جَحَدَ فُلاَنٌ الأمْرَ، وجَحَدَ بِهِ، جَحْداً وجُحُوداً، أي: أنْكَرَهُ مع أنَّهُ عالِمٌ بأنَّهُ حقٌّ. ويُقال: جَحَدَ المَدِينُ الدائِنَ حقَّهُ، وجَحَدَ بحَقِّهِ، إذا لم يَعْتَرِفْ له به، مع أنَّهُ في الحَقِيقةِ وواقع الأمْرِ مَدِين.

فنفُوسُهُمْ من الناحِيَةِ العِلْمِيَّةِ مُوقِنَة، وإرادتُهم مُنْكِرَةٌ جاحِدَة اتّباعاً لأهْوائِهِمْ.

وقد أبان اللَّهُ عزّ وجلّ أنّ الجُحُودَ يكونَ مَقْرُوناً باسْتِيقانِ الأنْفس، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بشأن فِرْعَوْنَ وقَوْمِهِ بالنسبَةِ إلى الآيات التي جاءهم بها موسىٰ عليه السلام:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

❀ ❀ ❀

الصفات المذكورة في هذا النصّ للكافرين أصحاب النار:

من هذا النصّ نَسْتَخْلِص للكافرين أصحاب النار أرْبَعَ صفات:

الصِّفَةُ الأولى: أنَّهُمْ اتَّخذُوا دينهم لهواً ولعباً.

الصفة الثانية: أنَّهم غرَّتْهُمُ الحَيَاة الدُّنيا.

الصفة الثالثة: أنَّهُمْ نَسُوا في رحلة امْتِحانهم في الحياة الدنيا، يَوْمَ

الحِسَابِ وفَصْلِ القضاء وتحقيقِ الجزاء، نسيانَ تَرْكٍ وإهمال، غَيْرَ عابِئِينَ بما أتاهُمْ حولَهُ من ترغيبٍ وتَرهيب، في آيات اللّهِ المنزّلاتِ وفي بَيَاناتِ رُسُلِه المصطفينَ الأخيار.

الصفة الرابعة: أنَّهم جَحَدُوا بآياتِ اللّهِ البيِّناتِ، المقرونات بما يَدُلُّ على أنَّها حقٌّ من عند ربِّهم، وأنَّها مُنَزَّلاتٌ لإقناعهم، وتَعْلِيمهم، وتَكْليفهِم العَمَلَ بمطالبِ رَبِّهم مِنْهم في رحلة امتحانهم، وترغيبهم فيما عند اللّه جلّ جلالُه من أجْرٍ عظيم وثوابٍ جزيل، لمن آمنَ وأطاع. وإنذارهم بما عند اللّه من عقابٍ أليم، لمن كَفَرَ باللّهِ وجَحَدَ بآياتِهِ المنزَّلاَتِ على رُسُلِه.

ونلاحظ في النصّ أنّ اللّه عزّ وجلّ قد نوَّعَ الأسْلُوب لدى بيان الصفتين الثالثة والرابعة، إيثاراً للجمال الفنيّ، وخروجاً عن النمطيَّة المتواترة، فلم يَقُلْ: الّذِينَ اتَّخذُوا دينَهُمْ لَهْواً ولَعِباً وغَرَّتْهُمُ الحياة الدُّنيا، ونَسُوا لِقاءَ يَوْمِهم هذا، وجَحَدُوا بآياتِنا.

بل ذكر جلَّ جَلاَلُهُ الصفتَيْنِ الثالثة والرابعة في مَعْرِض بيان سبب نسيان اللّه لهم، وتركِهم مُهْمَلين لاَ تُسْتَجَابُ مطالِبُهُمْ وهم في دار العذاب، وهو مُعَامَلَتُهُمْ بمِثْلِ عَمَلِهم في رحلة ابْتِلاَئِهم.

❁ ❁ ❁

● قول اللّه تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

تمهيد

يَجْمَعُ هذا النَّصُ بَيْنَ تَصْوِير حَالِ الكافرين بكُتُبِ اللَّه المنزَّلة من أهْلِ الْقُرُون السَّابقة لبِعْثةِ الرَّسُول محمد ﷺ، وتصويرِ حالِ الكافرين بالقرآن بَعْدَ بِعْثَتِه، بعد أن قدَّم قبْلَهُ لقطاتٍ من أحوالهم وهم في عالَمِ الجزاء في الحياة الأُخْرَى، تَصْويراً لما سَوْفَ يكون علَيْه شأْنُهُمْ، كأنَّهُ أَمْرٌ واقِعٌ مُنجَزٌ تَجْرِي أحْدَاثُه.

إنّ هذا التنقُّلَ والتراوُحَ في البَيانِ بَيْنَ عالَم الابتلاءِ وعالَم الجزاء، على سبيل التَّعاقُبِ في النَّصّ القرآني، والتَّنَقُّلَ بَيْنَ المَشاهِدِ، من موقف الحساب إلى مُسْتَقَرِّ الجزاءِ، إلى غير ذلك من مشاهِدَ ومواقِفَ أُخْرَوِيَّة، فإلى الحياة الدنيا، وما فيها من أحْداثٍ، أو إلى ما تَسْتَدعي الحكمة التعليميَّة أو التربويَّة من خطاب، حتَّى كأنَّ الزَّمَنَ كُلَّهُ ماضِيَهُ وحاضِرَهُ ومستقبلَهُ في لَوْحَةٍ واحِدَةٍ، تَتَنَقَّلُ عليها عَدسَاتُ التَّصْوير أو الإعلام البيانيّ، حَسْبَ مقتضيات الإثارة ولَفْتِ النَّظَرِ وشَدِّ الانْتِباه.

إنَّ هذا التَّنقُّل والتراوُحَ التَّعاقُبِيَّ المفاجئ، دُون مُقَدّماتٍ تَشْتَمِلُ على إشعارٍ بالانتقال، هو من الإبْداع الفنِّيّ الّذي لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفاً في فُنُونِ الأدب من قَبْلِ القرآنِ المجيد.

فمن الملاحظِ في طَائفة من النّصوص القرآنيّة، أنّ النّصّ بينما يكون جارياً على أسلوب مخاطَبةِ الناس وهم في عالم الابْتلاء الدُّنيوي، إذا به ينتقل مفاجأةً إلى مَشْهَدٍ من مشاهِدِهِمْ وهُمْ في عالَم الجزاء الأخروي، فإذا بِه يفاجئ بالحديث عنهم وهم في عالم الابتلاء الدنيوي، مع التنويع في الأساليب، والتَّغْيير في منهج الخطاب، الأَمْرُ الّذي يشُدُّ الفِكْرَ مِنْ أعْماقِهِ لدىٰ مَنْ هُوَ حريصٌ على تلقِّي المعرفة، وتذَوُّقِ جمال البيان، ورَوْعَةِ الكلام البليغ، فهو بسببِ ذلك يُتابع التدبُّر بنشاط، علىٰ خِلَافِ النّمطيَّةِ

الواحِدَة في أُسلُوب تَقْدِيم الأَفْكارِ والمفهومَاتِ، وعَرْضِ المعارف وسَرْدِها على وتيرة واحِدَة، فإنّ هذه تجلُبُ الفتور، وشُوردَ الذِّهْنِ، ورُبّما نامَ مَعَها المتلقّي، ولَوْ كان راغباً في التلقّي وحريصاً عليه، وتكونُ حالُهُ كحَالِ من ينامُ على نَعِيرِ النَّاعُورَةِ، وجَعْجَعَةِ الرَّحا.

التدبّر:

● قول اللّه تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

● ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾: هذه الجملة هي فيما أرىٰ حاليّة. (الواو) واو الحال، واللام من ﴿وَلَقَدْ﴾ واقعةٌ في جواب قَسم منوي، و«قَدْ» حرف تحقيق مؤكّدٌ لمضمون الجملة، واحتاجَ الموضُوعُ كلّ هذه المؤكدات لأنّ المقصودين بالخطاب في الدنيا منكرون جاحدون.

والمعنىٰ بالنظر إلى الآية السّابقة التي تحدّثت عن صِفَاتِ الكافرين أصْحَاب النّار يُمكِنُ أنْ نقول فيه: إنّهم اتّخذوا دِينَهُمْ لَهْواً ولعباً، وغرَّتْهُمُ الحياة الدنيا، وتركوا التّفْكِيرَ بيوم الدين والعمل لما يُنجيهم ويُسْعِدهم فيه، وجَحَدُوا بآياتِنا، في حَالِ أنّنا جئناهُمْ بكِتابٍ.

● ﴿جِئْنَٰهُم﴾: يتحدَّثُ اللّهُ جلّ جلالُهُ بضميرِ المتكلّم العظيم، للإشارة إلى عَظِيم حِكْمَته، وإلى عِظَمِ ما جاءَهم به من كتاب.

يقالُ لغة: جاءَ القوم بِكَذَا، أي: أتاهُمْ به، وأحْضَرَهُ لَهُمْ، وجَعَلَهُ في متناول أيْدِيهم، أو أسْمَاعِهِم وأفكارهم وقُلوبهم.

● ﴿بِكِتَٰبٍ﴾: المرادُ بالكِتَاب هنا كلُّ كتابٍ أنْزَلَهُ اللّهُ لهِدايَةِ النّاس، وهو يَعُمُّ القرآنَ وسائرَ الكُتُبِ الرَّبّانيّة المنزّلةِ قَبْلَهُ على المُرسَلين السابقين للرسول محمد بن عبد اللّه صلّى اللّه وسلّم عليهم أجمعين، بدليل ما جاء

في الآية التالية (٥٣) من قول الكافرين جميعاً، وهُمْ في دارِ العذاب: ﴿. . .لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ . . . ﴿٥٣﴾ ﴾.

وقد أبان اللّه عزّ وجلّ مِنْ صفاتِ الكِتاب الّذي جاءَ النّاسَ به ثَلاثَ صِفات عُظمى:

الصّفة الأولى: دلَّ عليها قولُ اللّه تعالىٰ مُتَحَدِّثاً بضمير المتكلّم العظيمم:

﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: فَصَّلْنَاهُ: أيْ: بَيَّنَّاه، يُقالُ لُغةً: فَصَّلَ يُفَصِّلُ تَفْصِيلاً، أي: بَيَّنَ يُبَيِّنُ تَبْييناً. وَأَصْلُ التفصيل التَّمْيِيز، بفَصْلِ الشيءِ عن شيءٍ آخر، والتَّفْصِيلُ في المعاني يكونُ بتَمْييزها، وفَصْل بَعْضِها عن بَعْض، وإعْطَاءِ كُلٍّ مِنْها حُكْمَهُ، وهَذا غَايَةُ البَيَانِ لَحَقَائِقِ المعارِف.

ومُسْتَنَدُ هذا التفصيل التَّمَكُّنُ الكَامِلُ من العِلْم بحَقَائِقِ المعلومات، كُلِّيَّاتِها، وجُزْئِيَّاتِها، كِبارِها وصِغَارِها، حَتَّى دَقَائِقِها الدّقيقة البالِغَةِ الغَايَةَ في الدِّقَّة، وجاء قولُهُ تعالىٰ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مُشِيراً إلى مُسْتَنَدِ هذا التفصيل. أي: فَصَّلْناهُ تَفْصِيلاً دقيقاً مَبْنِيّاً أو قائِماً على علمٍ، فالعبارة صفةٌ لمَفْعُولٍ مُطْلَقٍ مَحْذُوفٍ، وهٰذا في نَظَرِي أجْوَدُ في التَّدَبُّر من اعْتِبارِ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حَالاً من الفَاعِلِ، بمعنىٰ فَصَّلْنَاهُ عالِمِين، أو حَالاً من المَفْعُول، بمعنى فَصَّلْناهُ مُشْتَمِلاً على عِلْم.

وقد اسْتَدْعَىٰ البيانُ ذِكْرَ هذا القَيْد: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ لأنَّ الباحثين من النّاسِ قَدْ يُفَصِّلُونَ مَعَارِفَهُمْ، لٰكِنَّ تَفْصِيلَهُمْ لاَ يكونُ قائماً على عِلْم بحَقَائِقِ الدَّقائقِ، فتُضِيفُ تفصيلاتُهم جهالاَتٍ وأحكاماً باطلةً في القضايا الجزئيّة، إلى جَهَالاَتٍ وأحْكام باطِلَةٍ في القَضَايَا الكُلِّيَّة، وبذٰلِكَ تتراكَبُ الجهالاتُ وصُوَرُ الباطل، معَ الإيهامِ بالتفصيل الكثير أنَّها حَقَائِقُ قائِمَةٌ على العِلْمِ بالدقائق.

والتَّفْصِيلُ في القرآن المجيد قَدْ جاءَ لقضايا الدِّين، ولا سيَّما أصُولُ الاعتقاد، وأُصُولُ الأخلاق، وأصُولُ العبادات، وأصُولُ الحقوق، والأحكام المبيَّنَةُ لحدود الله.

ويشمَلُ التفصيل أيضاً التفصيلَ في الصِّياغة اللَّفظيَّة للآيَاتِ في الكتاب المنزّل، فهو أيضاً ظاهرة من ظواهر كتاب اللّه، ذاتِ الأثَرِ الملائم للنَّفْس الإنسانيّة في التَّلَقِّي، والحفظ، والتَّدَبُّر.

الصفة الثانية: دَلَّ عليها قول اللّه تعالىٰ:

﴿هُدًىٰ﴾: الهُدَى يأتي في اللّغة بمعنى الرشاد، وبمعنى الدّلالة إلى ما يُوصِل إلى المطلوب، وبمعنىٰ الطريق الواضح والصراط الّذي هو طريق الحقّ.

وكُلُّ هٰذه المعاني هي من صفات كتاب اللّه حقيقةً.

يقال لغة: هَدَاهُ يَهْدِيه هُدَىً وهِدايَةً وهِدْيَةً بمَعْنَىٰ دلَّهُ وأرْشَدَهُ، وبيّن له طريق الخير وطريق الشرّ، أو طريق الحق وطريقَ الباطل، أو طريق السعادة وطريق الشّقاء.

فالهُدَى على هذا مَصْدَرُ هدَىٰ يَهْدِي.

وكتابُ اللّهِ فيه هٰذا الهُدَىٰ، ولكنَّ الَّذين يَنْتَفِعُون بهُدَىٰ كتاب اللّه في آياته، هُمُ الَّذِين آمَنُوا به إيماناً صحيحاً صادقاً عن وَعْيٍ وبصيرة.

أمّا بالنسبة إلى القرآنِ إبَّان نُزُولِ سُورَة (الأعراف) فالذين يَنْتَفِعُون تِباعاً بهُدَى آياته هُمُ الّذين يتابعون نُجُومَ التَّنزيل بإيمانٍ جَديدٍ، بَعْدَ إيمانٍ سابقٍ بما كان سَبَقَ أنْ قد نزلَ منه.

والآية تَشْمَل حال المتَلَقّين وَقْتَ التَّنزِيل، ثمّ الَّذِين يتجَدَّدُ لدَيْهِمُ الإيمانُ بَعْدَ أنْ اكْتَمَلَ تَنْزِيلُ القرآن، كُلَّما تَلَوْا مِنَ القرآنِ آيَاتٍ فيها هُدًى.

ولفظُ ﴿هُدًى﴾ في الآية مَنصوبٌ على أنَّهُ مفعولٌ لأجله، أي: من أجْلِ هدايتهم، أو على أنَّهُ حال من الكتاب المفصّل، أي: حالَةَ كَوْن الكِتَاب هُدىً.

الصّفة الثالثة دلّ عليها قول اللّه تعالىٰ:

﴿وَرَحْمَةً﴾: أي: هو رحمَةٌ من اللّهِ عزّ وجلّ للنّاس، إذْ جاءَهم به مُفَصَّلاً مُشْتَمِلاً على هُدىً، فأبان لهم صراط سعادتهم في الدُّنيا، وصراط نجاتهم من عذاب يوم الدّين في الجحيم، وظفرهم بالنعيم الخالد في جَنَّات النعيم، فهو أثَرٌ من آثار رحمة اللّهِ بعباده.

ورَحْمَةُ اللّه عزّ وجلّ صِفَةٌ من صفاته على ما يليقُ بجلاله، وهي تَسْتَلْزِمُ الإنْعَام والإكرامَ والإحْسَان، ويكون من آثارِها بحَسَبِ حكمته جلّ جلالُه العَفْوُ والغُفْران.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هذا قَيْدُ لِكَوْنِ الكتاب هُدىً ورَحْمَةً، أي: إنَّ الذين يَنْتَفِعُون من كون الكتاب الرَّبّاني هُدىً ورَحْمَةً، هُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بكُلِّ مَا جاءَ فيه، فيتابِعُون آيَاته بالإيمان الصحيح الصادق، الذي من شأنه أن يدفعهم إلى العمل بأحكامه وشرائعه، فيكُون في الواقع لهم هُدىً، وهُمْ يَسْعَدُون بعَطَاءَاتِ رَحْمَتِهِ.

ولدى تحليل كَوْنِ ما في الكتاب الرّبّانيّ رَحْمَةً يَظْهَرُ لنا أن بَيَاناتهِ وتعليماتهِ ووصَايَاهُ تُعَرِّفُ بالحقّ والباطل، وتوضِّحُ المسافَة الفاصِلَةَ بَيْنَهما حتّىٰ لاَ تَخْتَلِطَ حُدودُهُما، فلاَ يقعَ مَنْ يَهْتَدِي في حَمْأةِ الباطل وهُوَ يَظُنُّهُ حقّاً، وتُعَرِّفُ بطَريقَي الخَيْرِ والشَّرّ، وطَريقي الفُجُورِ والتقوى، وطَريقي الصَّلاحِ والفَسادِ من السُّلُوك الإنسانيّ الظَّاهِرِ والبَاطِنِ، وتُوضِّحُ الحُدُودَ والفَوَاصِلَ بَيْنَ هٰذِهِ الطُّرُق، فَلاَ يَقَعُ من يَهْتَدِي بِهَدْيِ الكتاب الرّبّانيّ في أوْحَالِ الشَّرّ والفُجورِ والفسادِ وأوضارها وأخْبَاثها.

فَهُوَ كالطبيب النّاصِحِ الرَّحيم الّذي يُقَدِّمُ نصَائِحَهُ بِشَأْنِ الوِقاية قَبْلَ الإِصَابَةِ بالدّاء، وبالعلاج بَعْدَ الإصابة به، فَمَنْ عَمِلَ بِهَا رُحِمَ وسُتِر، ومن أَعْرَضَ عَنْهَا أَوْ أَدْبَرَ خَابَ وَخَسِرَ.

إنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بكتاب اللّه وبما جاء فيه من خيرٍ عظيم للناس، قد حَرَمُوا أنفسهم بكُفْرِهِمْ به، واسْتِكْبارِهِمْ عن اتّباع آياته، من منافع كَوْنِهِ هُدىً ورَحْمَةً للعالَمِين.

❁ ❁ ❁

● قول اللّه تعالىٰ:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

ما زال الحديثُ القرآنيُّ يَتَناوَل الَّذِينَ كَفَرُوا وهُمْ أصحابُ النّار، ولَقَدْ جاءهم رَبُّهُمْ بكِتابٍ فَصَّلَهُ على علم هُدَىٰ ورَحْمَةً لقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

● ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾: أي: هَلْ يَنْتَظِرُونَ بَعْدَ الأَدِلَّةِ الكافية، والبراهِينِ العقليّةِ القاطِعَة، المُقْنِعَةِ لِمَنْ أَرَادَ أنْ يَقْتَنِعَ، إلاّ تحقُّقَ مَا تَؤُولُ إِلَيْهِ الأخبارُ الّتي اشتملَ عَلَيْهَا من أنباء يوم الدِّين، إذْ تتحقَّقُ هذه الأنباء في الواقع، ويَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ في أنواع عذاب جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّين بَعْدَ الحسابِ وفَصْلِ القضاء يَتَقَلَّبُون.

فعل «نَظَرَ» يأتي بمعنى «انْتَظَرَ». تقول لغة: نَظَرَ فُلاَنٌ الشَّيْءَ، أي: انْتَظَرَهُ، وتقولُ: جَلَسَ المصلّي في المَسْجِدِ بَعْدَ صلاة المغرب يَنْظُرُ العِشَاء، أي: ينتظِرُه. ونَظَرَ رُكّابُ الطائِرَةِ مَوْعِدَ إقْلاَعِها، أيْ: انْتَظَرُوه.

● ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾: أي: إلاّ الواقع التطبيقيَّ الّذِي تَؤُولُ إِلَيْهِ، بمعنىٰ

تَصِيرُ إِلَيْهِ أنباءُ الوَعيد في آيَاتِ كتاب اللَّه، فهذا هو الّذي تَؤُولُ إِلَيْهِ الآيات التي تَضَمَّنَتْ الأنباء، بما أعْتَدَ اللَّهُ عزّ وجلّ للكافرين المكذّبين بعذاب اللَّه يوم الدّين.

التأويلُ في الُّغة: يأتي بمعنيَيْن:

المعنى الأول: إرْجَاعُ الشَّيْءِ إلى مَرجعِ ما كانَ عليه. تقولُ لُغَةً: آلَ الشَّيْءُ يَؤُولُ أوْلاً وَمَآلاً إلى كذا، أي: رجَعَ إليه. وتَقُولُ: أوَّلَهُ إلَيْهِ، أي: أرْجَعَهُ إليه.

المعنى الثاني: تَصْيِيرُ الشَّيءِ إلى مَصِيرٍ ما، تقول لغة أوَّلْتُ الشَّيْءَ إلىٰ كذا، أي: صَيَّرْتَهُ إلَيْهِ، وتقول: آلَ الشَّيْءَ إلىٰ كَذَا يَؤُولُ أوْلاً ومَآلاً، أي: صارَ إليه، ولَوْ لم يكن في هذا المصير معنى الرُّجُوع.

ويُلاحَظُ أنَّ مِمَّا جاءَ مُفَصَّلاً فيما نَزَلَ من قرآن مَا نَزَلَ حَوْلَ الجزاءِ بالعَدْلِ وبالفَضْلِ يومَ الدّين، وحول البعث إلى الحياة الأخرى.

والتفصيل الذي جاء من ذلك هو تفصيل أنباءِ ما سَوف يَحْدُثُ في المستقبل، ممَّا هُوَ مُقَرَّرٌ في خُطَّةِ التكوين الرَّبَّانية، والخبرُ عنِ المُسْتَقْبَلِ يُعْتَبَرُ واقِعُ الحالِ الذي يكونُ فيه المطابقُ له تَأْوِيلاً له، إذْ هو المصيرُ الذي يصير إليه مَضْمُونُ الخبر.

إنَّ الكلاَمَ عن الواقع الحاضرِ، يكون الواقع الحاضِرُ المطابق له هو الحقيقة للكلام، والكلام تعبيرٌ عنهُ، وصُورَةٌ كلامِيَّةٌ له.

وإنَّ الكلامَ عن الواقع الماضي، يكونُ الواقع الماضي المطابق له هو المَرْجِعَ الذي يَرْجِعُ إليه الكلام، وهو الحقيقة الماضية له، والكلامُ تعبيرٌ عنه، وصُورَةٌ كلامِيَّةٌ له.

وإنَّ الكلامَ عن الواقع المستقبليِّ الذي سيكون أو سوف يكون في

المستقبل القريب أو البعيد، يكُونُ الواقعُ المستقبليُّ المطابق له هو المصير والمآل الذي يَؤُول إليه الكلام، وهو الحقيقة المستقبليَّة له، والكلام تَعْبيرٌ عنه، وصُورَةٌ كلاميَّةٌ له.

فالذين يُنْكِرُونَ القرآنَ المجيد، ويكذِّبُونَ بما تنزَّلَ من آياته، وفيها الإِنْذَارُ المفصَّلُ بأنْوَاعِ الوعيدِ بالعذاب الذي سَوْفَ يُلاَقُونَهُ، ماذا يَنْتَظِرُون من بَرَاهِينَ تُقْنِعُهُمْ بأنَّ مَا جاءَ في هذا القرآنِ المجيد هو الحقُّ من ربِّهم، غَيْرَ المشاهَدَةِ الحسيَّة الّتي سوف يشاهدونها، وغير أن يَذُوقُوا العذابَ الَّذِي سوفَ يَذُوقُونَه حتماً، إذا أصَرُّوا على ما هُمْ عليه من كُفْرٍ، وماتُوا على ذلك.

لقد قَدَّمَ رَبُّهم لهم من الأَدِلَّةِ والبراهين القواطع، ومن صُوَرِ الترغيب والترهيب، ما يكفي لإيجاد القناعَةِ التامَّةِ لدَيْهِم، لو صَرَفُوا عن أنْفُسِهِمْ الكِبْرَ، والتقليد الأَعْمَى، ورغباتِ الفجور في الأرض.

فإنْ كانوا يَنْتَظِرُونَ أموراً يُشَاهِدُونها بأعيُنهم، أو يُدْرِكُونَها بحواسِّهم الأخرى، فإنَّها لا تَكُونُ إلاَّ بَعْدَ انْتِهَاءِ رِحْلَةِ امتحانِهم في الحياة الدّنيا، وعِندئذٍ تَبْدَأُ مَصَايِرهم الجزائيَّةُ تتَتَابَعُ عليهم، حتَّىٰ مَصِيرِهِم الأخير في عَذاب جَهَنَّم، هذا ما دَلَّ عليه قول اللّه تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾: أي: هَلْ يَنْتَظِرُونَ إلاَّ المصيرَ الَّذِي تَؤُولُ إلَيْهِ نُذُرُ العذابِ الخبَرِيَّة، وحينَئِذٍ لاَ يَنْفَعُهُمْ إيمانٌ ولاَ عَمَلٌ.

قول اللّه تعالىٰ: ﴿. . يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ . .﴾: أي: يَوْمَ يَأْتِي تحقُّقُ نُذُرِ العذاب يومَ الدِّين، في الواقع المستقبليّ، ويَحُلُّ بهم ما كانُوا قد كَذَّبُوا به من قَبْل.

● ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾: أي: يقولُ الكافرون الَّذِين تَرَكُوا الإيمانَ بما جَاءَ في كتاب رَبِّهم لهم، وتَرَكُوا العَمَلَ بأحْكامه ووصاياه، ولم

يَتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إليهم من ربِّهم، جُحُوداً، أو إهمالاً.

● ﴿نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾: أي: تركُوهُ في الحياة الدُّنيا حينما كانوا في رِحْلَةِ الابتلاء.

● ﴿... قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ... ﴿٥٣﴾﴾.

دلَّتْ هذه العبارة على أنَّهم يَقُولُونَ يومئذٍ ثلاث مقالات:

المقالة الأولى: دلّ عليها قول اللّه تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾.

في هذه الجملة بَيَانُ أنَّهم سَوْفَ يَعْتَرِفُونَ يومَئِذٍ، بأنَّ رُسُلَ رَبِّهِمُ الذين كانوا كذَّبُوهُمْ في الحياة الدنيا، قَدْ جَاءُوا بالحقّ فَلَمْ يَكُونُوا كاذبين.

وهذه الجملة تَدُلُّ على أنَّ أُمَمَ الرُّسُلِ جَميعاً، يَقُولُونَ قولَةً واحِدَةً، معترفين بَعْدَ ظهور الواقع الخبريّ بصُورَةٍ حِسِّيَّةٍ: قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بالحَقِّ.

وهي تَدُلُّ أيضاً على وَحْدَةِ الرِّسالاتِ الرَّبَّانِيَّةِ، بالنِّسْبَةِ إلى العقيدة بِيَوْمِ الدِّين، وما جَعَلَ اللّهُ عزّ وجلّ فيه بأصل خُطَّةِ التَّكْوِينِ، وقد أنْزَلَ به البَيَانَ على جَمِيعِ المرسَلِين، في كُتُبِهِ المنزَّلَة جميعاً.

ويُلاحَظُ هنا أنّ عِبارة الكَافِرِينَ يَوْمَئِذٍ: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أقَلُّ تَأْكِيداً من عِبارةِ المؤمنين الّتي جاءت في الآية (٤٣) وهي قولهم: ﴿... لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ... ﴿٤٣﴾﴾، ففي عبارة المؤمنين هٰذه زيادةُ اللاّم الواقعة في جواب قَسَمٍ مَنوِيّ قَبْلَ حَرْفِ التحقيق «قَدْ».

المقالة الثانية: دلَّ عليها قولُ اللّهِ تعالىٰ: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾؟.

هٰذهِ أمْنِيَّةٌ يَتَمَنَّاها الكافرون في أنفسهم، ويُصرحُونَ بها في أَلْسِنَتِهِمْ، بعد أنْ وصَلُوا إلى حقِّ اليَقِين بأنَّهُمْ من أصْحَابِ النَّارِ، وهُمْ يَذُوقُونَ عَذَابَها في الواقع.

إنَّهُمْ يَتَسَاءَلُونَ: هَلْ يُوجَدُ لهم من شُفَعَاءَ يَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، فَيُخْرِجَهُمْ من النَّارِ، أو يُخَفِّفَ عَنهُمْ مِنْ عَذَابِهَا.

(مِنْ) حَرْفُ جرٍّ زِيد في الجملة قَبْلَ المبتدأ وبعد «هل» الاستفهاميّة، والغرض من زيادَتِهِ تأكيد التعميم في السّؤال عن أيّ شُفَعَاءَ يَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ.

المقالة الثالثة: دلّ عليها قول اللّه تعالىٰ: ﴿أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾؟

وهذه أمْنِيَّةٌ ثانية يَتَمَنَّوْنَها على سبيل التَّرْدِيدِ بَيْنَها وبَيْنَ الأمْنِيَّةِ الأولى، فأيُّهما أمْكَنَ حُصُولُه فَهُمْ سُعَدَاءُ به.

والمعنى: أوْ هَلْ نُرَدُّ إلى حَيَاةِ الابتلاء مرَّةً أُخْرَى، فنَعْمَلَ عمَلاً صالحاً نُرْضِي به رَبَّنا، غَيْرَ العَمَلِ السَّيِّئ الَّذِي كُنَّا عَمِلْنَاهُ في رحلة الامتحان الأولى، وهو يَشْمَلُ الأعمالَ النفسية كالإيمان والنّيّات، والأعمال ذوات الظواهر الجسديَّة.

وقد جاء في القرآن المجيد نُصُوصٌ كثيرة، تُبَيِّنُ أنَّ أُمْنِيَتَهُمْ هٰذه مَرْفوضة التّحقيق حَتْماً، لأنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا لعادوا لما نُهُوا عنه، إذْ لو رُدُّوا إلى رِحْلَةِ امْتحانٍ أُخْرَى، فإنَّهُمْ يُرَدُّون بَعْدَ أنْ يُمْسَحَ مِنْ ذاكِرَاتِهِمْ كُلُّ شَيْءٍ شَهِدُوهُ يَوْمَ الدِّين.

قـول الـلّـه تـعـالـىٰ: ﴿... قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٥٣﴾.

هذا تَعْقِيبٌ رَبَّاني يَدُلُّ بالكِنَايَةِ، لا بصريح اللفظ، على أنَّ أمْنِيَتَيْهِمْ تُرْفَضان، ولا يُلْتَفَتُ إليهما، فَلاَ يَأْذن اللَّهُ لأيّ شافعٍ بأن يَشْفَعَ لهم، ولا يَمْنَحهُم فُرْصَةَ اسْتِئْنَاف امتحانهم بالعودة إلى مثل الحياة الدنيا حياة الابتلاء.

﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾: إذْ تَسَبَّبُوا لأنْفُسِهِمْ بأنْ يَكُونُوا خالِدِينَ في عذاب جَهَنَّم.

وهَلْ يُوجَدُ خُسْرَانٌ أشَدُّ من هذا الخُسْرَان، وهو خُسْران الأنفس؟

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾: **ضَلَّ عَنْهُمْ**: أي: ضاعَ عَنْهُمْ فَلَمْ يَجِدُوا له أثراً. **ما كانُوا يَفْتَرُون**: أي: ما كانوا يَخْتَلِقُون من أكاذيب يفترونها على الواقع والحقيقة، وهي في الحقيقة من قبيل الافتراء على اللَّه، لأنَّها تتعلّق بخصائصِ رُبُوبيّتِهِ أو إلٰهيّته.

فالشركاء الذين كانوا يعبُدونهم مِنْ دُونِ اللَّهِ ليجلُبُوا لهم نفعاً أو يَدْفَعُوا عنهُمْ ضُرّاً بما جَعَلُوا لهم من بعض خصائص الرُّبوبيَّة، أو ليقرّبُوهم إلى اللَّهِ زُلْفَى، أو ليشفَعُوا لهم عند ربِّهم، قد ضَلُّوا عنهم فلَمْ يَجِدُوا لهم أثراً ما، أو لم يجدوا لهم شفاعَةً ولاَ تقريباً إلى رَبِّهم، بل زادتهم خيبَةً وخُسْرَاناً.



(٩)
التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دروس السورة وهو الآيات من (٥٤ ـ ٥٨)

قال اللَّه عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ

لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾:

القراءات:

(٥٤) ● قرأ شعبَة، وحَمْزَةُ، والكسائي، ويَعْقُوب، وخَلَفُ **يُغَشّي** بفتح الغَيْن وتَشْدِيد الشين المكسورة، من فِعْلِ «غَشَّى».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [يُغْشِي] بإسكان الغين وكسر الشين من غير تشديد، من فعل «أَغْشَىٰ».

والقراءتان متكافئتان، إذْ هما وَجْهان عربيّان لهذا الفعل، أحدهما جاءت تَعْدِيتُه بالتضعيف، والآخر جاءتْ تَعْدِيته بالهمز، والهمزُ والتضعيفُ أخوان.

(٥٤) ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿والشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ﴾ بالنَّصْبِ عطفاً على مَنْصُوب خَلَق، وكلمة «مُسَخَّراتٍ» منصوبة على الحال.

وقرأ ابن عامر: **﴿والشَّمْسُ والْقَمَرُ والنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾** على أنَّ الجملة مُسْتَأنفة، الشَّمْسُ وما عُطِفَ عليها مُبْتَدَأ خَبَرُهُ «مُسَخَّراتٌ».

وبين القراءتَيْنِ تكاملٌ بياني، فقراءة الجمهور تُثْبِتُ أنّ الشمس والقمر والنجوم مخلوقاتٌ للّه، حالة كونها مسخّرات بأمره، على طريقة الحال المقدّرة، وقراءة ابن عامر تُوجّه النظر لخُصُوص تسخيرها لنا مع الناس، تنبيهاً على عناية اللّه بخلقه، إذ جعل مخلوقات كُبْرى في السماء مسخَّرَة لمنافعهم في الأرض.

(٥٥) ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿وخُفْيَةً﴾ بضم الخاء.

وقرأ شُعْبَةُ: ﴿وخِفْيَةً﴾ بكَسْرِ الخاء.

خُفْيَة وخِفْيَة: مَصْدَران لفِعْل «خَفِي الشَّيْءُ يَخْفَى خَفَاءً»، ويقال في المصدر أيضاً خُفْيَةً وخِفْيَةً، خَفِي: أي: استتر.

فالقراءتان لغتان متكافئَتَان.

(٥٧) ● قرأ ابنُ كثيرٍ، وحمزة، والكسائي، وخلَف، ﴿الرِّيحَ﴾ بالإفراد. وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿الرِّيَاحَ﴾ بالجمع.

الرِّيح: اسم جنس يَشْمَلُ كلَّ أنواع الرِّياح، فمؤدَّى القراءتين واحد. وقد يكون بين القراءتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، كما سيأتي إن شاء اللَّه.

(٥٧) ● قرَأَ عاصِمٌ: ﴿بُشْراً﴾: أي: مُعْلِمَةً ببشارة بين يَدَيْ رحمة اللَّه عبادَه بالغيث.

وقرأ ابْنُ عامرٍ: ﴿نُشْراً﴾ بإسْكَانِ الشين، وهو تخفيف «نُشُرٍ» جمع نَشُور.

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: ﴿نَشْراً﴾: **النَّشْر**: الريح الطيّبة. **والنَّشْرُ**: التفريق.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿نُشُراً﴾: جمع «نَشُور» مثل رسول ورُسُل، والنَّشُورُ مُبالغة «الناشر». **النَّشُورُ** من الرياح، الّتي تُثِيرُ السُّحُبَ وتَنْشُرُها.

ومؤدّى قراءات «نُشْراً، ونَشْراً، ونُشُراً» واحد، فهي الرياح الطيّبة التي تَنْشُرُ السُّحُبَ، أو تَنْشُرُ اللّقاحات، أو غير ذلك من نافعات للعباد.

وبين «بُشْراً» وبَيْنَ سَائر القراءات تكامل في أداء المعنى المراد.

(٥٧) ● قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، وابن عامر، وشُعْبة، ويعقوب: ﴿مَيْتٍ﴾ بإسكان الياء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿مَيِّتٍ﴾ بتشديد الياء.

والقراءتان لغتان عَرَبيتان «مَيْت ـ مَيِّت» متكافئتان.

(٥٧) ● قرأ حفص، وحمزة، والكسائي وخَلَف: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: أصلُها «تَتَذَكَّرُون» حذفت إحدى التاءين تخفيفاً.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾: أصلها «تَتَذَكَّرُون» أدغمت التاء الثانية بالذال فصارت ذالاً مشدَّدة «تَذَّكَّرون».

(٥٨) ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿لاَ يَخْرُجُ إلاَّ﴾ من فِعْل «خَرَجَ».

وقرأ ابن وردان في إحدى روايتَيْن عنه: ﴿لاَ يُخرِجُ إلاَّ﴾ مِنْ فِعل «أخْرَجَ»، والرواية الأخرى عنه كقراءة الجمهور.

قِراءَةُ الجمهور تدلُّ على أنّ النّبات في البلد الخبيث لا يَخْرُجُ إلاّ نكداً. وقراءة ابن وردان تدل على أنَّ البلد الخبيث لاَ يُخْرِجُ النباتَ إلاّ نكداً.

فبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

(٥٨) ● قرأ جُمْهُور القرّاء العشرة ﴿نَكِداً﴾: النّكِدُ: العَسِرُ الّذِي لا يُطاوع إلاَّ بشِدَّةٍ، والشّحِيح.

وقرأ أبو جَعفرٍ: ﴿نَكَداً﴾ مَصْدَرُ نَكِدَ الأمْرُ يَنْكَدُ نَكَداً ونَكاداً، أي: عَسُرَ واشْتَدَّ وقَلَّ عَطَاؤه.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، فالنباتُ في الأرض الخبيثة لا يَخْرُجُ إلاّ نكداً، أي: عسيراً، والأرضُ الخبيثَةُ لا تُخْرِجُ نَباتَها، إلاّ نَكداً، أي: إلاّ إخراجاً ذا عُسْرٍ.

الرّبط بموضوع السورة:

هذا الدرس الخامس من دروس السورة، مُرْتَبِطٌ بالآية الثالثة من الدرس الأول من دروسها، وهي قول اللّه عزّ وجلّ فيها:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

وقد سبق أن عرفنا أنّ مضمون هذه الآية يُمَثِّل الخطَّ الأعظم الّذي سارت عليه أكْثَرُ آيات السّورة، ومعظم فقراتِها ودُرُوسها.

لقد جاء في هذه الآية قول اللّه عزّ وجلّ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، واخْتِيرَ فيها من أسْماء اللّه جلّ جلاله اسْمُ «رَبّ» إعلاماً بأنَّ رُبُوبية اللّه لعبادِهِ هي الصّفة الجامعة لكل أسماء اللّه الحسنى المُتعلّقةِ بمَخْلُوقاتِهِ جلَّ وعلا.

إنَّ اللّهَ جلّ جلالهُ هو الرَّبّ الخالق المصوّر المنشئ خَلْقَهُ وفْقَ سُنَّةِ التربية، والمتابعُ لمَا خَلَقَ مَعَ كلِّ أزمانِ وُجُودِهِ بأنواع التربية المختلفة، التي هي الإنشاءُ المتدرِّجُ، والمتابعةُ الدّائمة معَ كلِّ أصْغَرِ وَحْدَةٍ زَمَنِيَّة، حتَّى آخِرِ وُجودِ المخلوقِ، إذا كان لوجوده نهاية، أو مع كلّ أزمانِ إيجاده إذا لم يكن لإبقائه في الوجود نهاية.

ولمّا كانت ذاتُ الرَّبِّ غَيْرَ مَشْهُودَةٍ بالأبصار، ولا مُدْرَكَة بالحواسّ الظّاهرة، كانت الحاجة ماسّة للتّنْبيهِ على آياتهِ الدّالاّتِ عليه في الكائِنات التي هي خَلْقٌ مِنْ خَلْقه، وخاضِعَةٌ دواماً لسُلْطانِ رُبوبيَّته وإمداداتها وعَطَاءاتها، ولولا أنّه جلَّ جلاَلُهُ وعَظُمَ سلطانُه يُمِدُّها بالتَّعَهُّدِ والتربيَةِ دواماً، لَما بقيَتْ في الوُجودِ، ولعَادَتْ لِأَصْلِها وهو العدم، فاللّه تبارك وتعالىٰ هو الّذِي يُمْسِكُ السَّمَاواتِ والأرْض بعطاءات رُبوبيّته دواماً، لتَبْقَىٰ في الوجود هي وكُلُّ أجزائها وصفاتها، ولو رَفَعَ اللّهُ عنهما الإمْسَاكَ في الوجود لعادتا إلى أصلهما وهو العدم، ولَئِنْ زالَتا فَلَنْ يُوجَدَ بعد اللّه جلّ جلاله أحَدٌ يُوجِدُهُمَا ويُمْسِكُهُما.

ولمَّا كانَ قولُ اللّه تبارَكَ وتعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ قد يُثيرُ سُؤَالَ كافِرٍ بوجود الرَّبّ أو شَاكٍّ فيهِ، قائِلاً: مَنْ رَبُّنا الَّذِي يقولُ لنا: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾؟.

كانَ من الحِكْمَة في البيان التربويّ الإجابَةُ على هذا السؤال، بما يتضمَّنُ التنبيهَ على آياته الدَّالأت عليه، في الكائنات التي هي خَلْقٌ من خَلْقِه، والخاضِعَةِ دواماً لسُلْطانِ رُبُوبيَّتِهِ، وذلكَ لأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ في هذه الكائِناتِ يَخْضَعُ لِتَحْرِيكِ حَكِيمٍ، لاَ يَمْلِكُ تَصْرِيفَهُ إلاَّ رَبٌّ مُدَبِّرٌ عَلِيمٌ خَبِيرٌ حَكِيمٌ قَدِير.

ومضمونُ الجواب مَهْمَا جرى التَّنْويع في عرض آيات الرَّبّ الكونيَّة، يتلَخَّصُ بأنّ هذه الظواهر الكونيَّة الكثيرة، كُلَّما تفكَّرْنَا في دَلالاتِها بإمعانٍ، دَلَّتْنا على أنَّ إتْقانَها وإحْكامَها لَيْسَ مِنْها، بَلْ من خالِقٍ رَبٍّ عَلِيمٍ حَكِيمٍ بِيَدِهِ مَقَالِيدُ كُلِّ شَيْءٍ.

فخالِقُها والمُهَيمِنُ عليها برُبُوبيَّته دواماً، هو رَبُّكُمُ الَّذِي يأمُرُكُمْ بأنْ تَتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إليكم منه، وبلَّغكُمْ إيَّاهُ رَسُولُهُ المصطفى المؤيَّدُ من قِبَلِهِ بالمعجزات البَاهرات.

التدبّر:

● قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

● ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾: أي: إنَّ ربَّكُمْ الَّذِي أَمَرْنَاكُمْ في مطالِعِ السُّورَة بأنْ تَتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إليكُمْ مِنهُ، هو الذي تَعرِفونَه باسمه العَلَم «اللّه»

الدّال على ذاتِهِ الغَيْبِيَّة عن حواسِّكم، والمتَّصفة بكلّ صفات الكمال، والمنزّهة عن كلّ صفات النقصان، والذي تَدُلُّ عليه آياتُه وآثارُه في كَوْنه، دلالَةً عقليَّة.

فتعريفهم بربّهم قد جاء أوّلاً بذكر اسمه العلم على ذاته، المعروف عند العرب بلسانهم، وهو لفظ ﴿اللَّهُ﴾.

● ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: هذا تَعْرِيفٌ آخرُ بوصْفٍ كان يُؤْمِنُ بهِ المخاطَبُون مِنَ العرب، فإذا سألَهُمْ سائلٌ: مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ، كَمَا قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بشأنهم في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

خَلَقَ: **الخَلْقُ**: يأتي في اللُّغَةِ للدلالة على ثلاثة معاني:

المعنى الأول: ابتداءُ الشَّيْءِ وإيجادُه من العَدَمِ على غَيْرِ مثالٍ سبق، وهذا لا يكونُ إلاَّ من اللَّهِ عزّ وجلّ.

المعنى الثاني: التقدير، وهو إعطاء أجزاءِ الشيء مقاديرها، وهذا يكونُ من اللَّه، ويكُونُ من غَيْرِه، ومِنْهُ قول اللَّه عزّ وجلّ لعيسَىٰ عليه السَّلامُ كما جاء في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾.

المعنى الثالث يَأْتي الخَلْقُ بمعنىٰ الكَذِب والإفكِ، وإنّما يَفْتَرِي الكَذِبَ

الَّذِين لاَ يُؤْمِنُونَ، ومنه قولُ اللّه عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٥٨ نزول) حكايةً لمقالة إبراهيم عليه السلام لقومه:

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ... (١٧)﴾.

أي: وتَفْتَرُون كَذِباً.

وفِعْلُ [خَلَقَ] في العبارة الّتي نتدبَّرها يُحْمَلُ على المعنيَيْنِ، الأوّل والثاني.

فاللّهُ عزّ وجلّ أَبْدَعَ مِن العدم على غَيْرِ مثالٍ سَبَقَ، وقَدَّرَ المقادير كلَّها بعِلْمه المحيط بكلّ شيء، وحكمته البالغة.

والسَّماواتُ قد ذُكِرَتْ بالجَمْع، ودَلَّت النُّصوص على أنَّها سَبْع سماوات. أمَّا الأَرض فَقَدْ ذُكِرَتْ في كلّ القرآنِ بالإفراد، فهي في الكَوْن أرضٌ واحِدَةٌ، وما جاء في بعض الأحاديث من جَمْعها، كَحَدِيث: «مَنْ ظَلَمَ قيدَ شِبْرٍ مِنْ أَرْضٍ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[1]، فالمراد إلى سَبْعِ طَبَقاتٍ من الأرض. وقول اللّه عزّ وجلّ في سورة (الطلاق/ ٦٥ مصحف/ ٩٩ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ... (١٢)﴾.

فالمماثلةُ مَحْمُولَةٌ على العناصر الّتي تَتَكَوَّنُ مِنْهَا الأرض، فهي مماثِلَةٌ للعناصر الّتي تتكوَّنُ مِنْهَا أجرامُ السَّماوات السَّبْع.

● ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: أي: في سِتَّةِ أقْسَامٍ زَمَنِيَّةٍ، سمَّىٰ اللّهُ عزّ وجلّ كُلَّ قِسْمٍ مِنْهَا يوماً. ولمَّا كانت الأيّامُ تختلف مقاديرُ أزمانها، فَلأَهْلِ الأرض يوم خاصٌّ بهم في الحياة الدُّنيا، ولِكُلِّ كَوْكَبٍ يومٌ بِحَسَبِ دَوْرَتِهِ

---

(١) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد عن عائشة وعن سعيد بن زيد «الجامع الصحيح» رقم (٦٣٨٥).

حول نفسه باتّجاه مَنْبَعٍ ضَوْئِيٍّ، وله مقدارٌ من الزَّمَنِ خاصٌّ به، وللمجرّة التي نَحْنُ ومجموعتُنا الشَّمْسيَّة جُزءٌ صغيرٌ منها يَوْمٌ، ولهذا اليوم مقدارٌ من الزَّمَنِ خاصٌّ به، حتَّى عُمْرُ الحياةِ الدُّنيا كُلُّها يَوْمٌ، وحتَّىٰ كلُّ أزمان الآخرة الّتي لا نهاية لها يوم. لمّا كان الأمْرُ كذٰلِكَ لم يَكُنْ باستطاعتنا تَحْدِيدُ مِقْدار زَمَنِ اليَوْمِ من الأيَّامِ السِّتَّةِ، التي خَلَقَ اللَّهُ فيها السماوات والأرض، أخْذاً من النُّصُوص.

● ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: دلَّ حرفُ [ثُمَّ] على أنّ الاستواء على العَرْش قد كان بعْدَ مُدَّةٍ متراخيَةٍ عن خَلْقِ السماوات والأرْضِ في سِتَّةِ أيَّام.

جاءَ في القرآن: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وجاء فيه ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾:

الاسْتِواءُ لغة الاستقامة والاعتدال. واستوى على كذا، إذا اعتدل واستقام فوقه. واستوى إلى فِعْل كذا، إذا اعتدل واستقام متوجّهاً لِفِعْلِه، قاصِداً إليه لا يَلْوِي على شيءٍ آخر.

ويقال لغة: اسْتَوىٰ فلانٌ على سَرِير الملكِ، إذا تولَّى تَصْرِيفَ شُؤُون مملكته.

وقد وَصَفَ اللَّه عزّ وجلّ نَفْسَه بأنَّه اسْتَوَىٰ على العرش، وقد كان اللَّه قبل أن يَخْلُقَ الخَلْقَ ولَمْ يَكُنْ شيءٌ معه، ووصف نفسه بأنَّه اسْتَوىٰ إلى السَّماءِ فسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سماوات. اسْتِواءٌ وصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَه فنَحْنُ نُثْبِتُه ضِمْنَ حُدُود ما أثْبَتَ لِنَفْسِهِ جلَّ جلالُه وعَظُمَ سلطانُه، ونقول: هو استواءٌ يَلِيقُ بذاتِه، سُبْحانَهُ عمّا وصَفَهُ به الواصِفُون، ضِمْن مُدْرَكاتِهِم المحدُودات الضئيلات الّتي لا تَصِلُ إلى إدراكِ ذاتِه، إذْ لا تُدْرِكُهُ الأبْصارُ، وهو يُدْرِكُ الأبْصارَ وهو اللطيف الخبير.

وأحْسَنُ بيان حول الاستواء الذي وصف اللَّهُ عزَّ وجلَّ به نفسه، ما قاله الإمام مالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُول، والاستواءُ غَيْرُ مجهول، والإيمانُ بهِ واجبٌ، والسُّؤَالُ عَنْهُ بدعة».

العَرش: مخلوق أعظم فوق السماوات السَّبْع، ومحيطٌ بها.

• ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾: أي: يجعلُ اللَّهُ النهارَ يَغْشَىٰ اللَّيلَ فَيَسْتُرُ سوادَهُ بنُورِهِ، والمرادُ بالنهار ضياءُ الشَّمْسِ الَّذِي يَمْتَدُّ على الأرض، فيحدُثُ بِهِ ما يُسَمَّىٰ بالنَّهار.

فِعْلُ [يُغْشِي] يَنْصِبُ مفعُولين وهو بمعنىٰ «يُغَطِّي ويَسْتُر» تَقُول: غَشِيَ النَّهارُ اللَّيْلَ، إذا سَتَرَه، وأغْشَى اللَّهُ اللَّيْلَ النَّهَار، أي: جعلَ النَّهارَ يَسْتُرُ اللَّيْلَ.

وحينَ نتفكَّرُ في حقيقتَي اللَّيْل والنَّهارِ، نَجِدُ أنَّ اللَّيْلَ مَظْهَرٌ من مظاهر غروب ضِياء الشمس عن الأرض، فتَعُمُّ بانْعِدام ضياء الشَّمْسِ الظلمة الَّتي نُسَمِّيها بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْس لَيْلاً.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ الظُّلْمَة هي الأصْلُ في الأشياء، وأنَّ الضّياءَ أو النُّور هو الَّذي يَغْشَىٰ الظُّلْمَةَ فَيُجَلِّلُها ويَسْتُرُها، وكُلَّما ذَهَبَ غِطَاءُ الضِّياء أو النُّورِ وُجِدَتِ الظُّلْمَةُ في الأشياء، لأنَّها هي الأصل فيها. ولمَّا كان مَصْدَرُ الضِّياءِ في الأَرْضِ خِلَالَ النَّهارِ آتياً من الشَّمْسِ، إذْ تكُونُ مُواجِهةً لِقِسمٍ مِنْها، وكانَتِ الأَرْضِ ذاتَ ظُلْمَةٍ ذاتِيَّةٍ مُسْتَمِرَّةٍ فِيها، إلاَّ إذا وصَلَ إليها ضياءٌ أو نُورٌ مِنْ جِهَةٍ ما، وهذه الجهة ذاتُ ضِياء أوْ نُور، كانَ علينا أنْ نَفْهَمَ أنَّ النَّهَارَ هُوَ الَّذِي يَغْشَىٰ اللَّيْلَ فَيَسْتُرُهُ ويُغَطِّيه، لأنَّ الغِشَاءَ هُو الغِطَاءُ السَّاتِر.

هذه الظاهرة الكونيَّةِ هي من آيَاتِ اللَّهِ في كَوْنِهِ، وهي تَدُلُّ على عِلْمِ اللَّهِ العظيم، وحِكْمَتِهِ الجليلة في إتْقان الخَلْق، وتَدُلُّ على عِنَايَتِهِ بخَلْقِهِ سُكَّانِ الأرض، إذْ سَخَّرَ لَهُمُ اللَّيْل والنَّهار تَسْخِيراً يحققُونَ به مصالِحَهُمْ وكثيراً مِنْ شُؤُونِ حياتهم في الأرض.

• ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾: أي: يَطْلُبُ النَّهارُ اللَّيْلَ لِيَغْشَاهُ، حالَةَ كَوْنِهِ حَثِيثاً. **الحَثِيثُ**: المُسْرِعُ الجَادُّ في أمْرِه، المتابِعُ لِمَا يَطْلبه.

وفي جَعْلِ النَّهارِ طالباً بجدٍّ وسُرْعَةٍ أنْ يَغْشَىٰ اللَّيْلَ، مَجازٌ قَائِمٌ على تَشْبِيهِ ظاهرةِ حَرَكَةِ النَّهار السَّاتِرِ لِظُلْمَةِ اللَّيْلِ بضيائِهِ، بِمُتابعِ حَيٍّ يَطْلُبُ طَرِيدَتَهُ بِجَدٍّ وسُرْعَة، كَمُلَاحَقَةِ الْجَيْشِ المُنْتَصِرِ أوَاخِرِ صُفُوفِ الجيشِ المنهزم.

وقد اكْتَشَفَ الناسُ ببحوثهم العلميّة أنَّ ظاهرتَيْ اللَّيْلِ والنَّهارِ في الأرض ناتجتان عن كون الأرض قِطْعَةً شِبْهَ كُرَوِيَّةٍ، تَسْبَحُ في الفضاء على مَدارٍ حَوْلَ الشَّمس، فتُنْهِي دَوْرَتَهَا عِنْدَ نُقْطَةِ البدء في عَام شَمْسِيٍّ كامل، وهكذا تَسِير دَأَباً، وتَدُورُ أيضاً حول نفسها كُلَّ يَوْمٍ دَوْرَةً كَامِلَةً، فَمَا يُواجِهُ الشَّمْسَ مِنْهَا فِي دَوْرَتِهَا حَوْلَ نَفْسِهَا يَظْهَرُ فيه النهار، وَكُلَّمَا انْعَدَمَتِ المواجهةُ في جُزْءٍ مِنْهَا يَظْهَرُ فيه اللّيل.

وَانْدَهَشَ الباحِثُونَ العِلْمِيُّون لدى دراسةِ هاتَيْنِ الظَّاهِرَتَيْنِ مِنَ الظَّواهِرِ الكَوْنِيَّة، لمَا في أسْبَابهما من الدِّقَّة العجيبة، الَّتي أحْكَمَتْ حَجْمَ الأرْضِ بالنِّسْبَةِ إلى الشَّمس، وأحْكَمَتِ المدارَ الَّذي تَدُورُ فيه الأرْضُ حول الشَّمس، وأحْكَمتْ سُرْعَةَ سَيْرِها في مدارها، وسُرْعَةَ دَوَرانها حَوْلَ نفسها، حتَّىٰ كان اللَّيْلِ والنّهار بهذا الإتقان العجيب، الملائم للحياة على الأرض، والملائم لمصالحِ الأحياء عليها، وكانت السَّنَةُ الشَّمْسِيَّةُ بِفُصُولها الأربع.

هذه الدراسة الإنسانيَّة كَشَفَتْ لنا الحِكْمَةَ مِنْ تَوْجِيهِ أنْظارِ الناس في القرآن المجيد، للتَّفكُّرِ في هاتين الآيَتَيْنِ العجيبتَيْنِ مِنْ آيات اللّهِ في كَوْنِهِ.

ولمَّا كان النهارُ هو الذي يَهْجُمُ على اللَّيْلِ ليَغْشَاهُ فَيَسْتُرَهُ بضيائه، إذْ يَبْدُو للأنظار أنَّ الشَّمْسَ مَتىٰ أشْرَقَتْ سَتَرَتِ اللَّيْلَ، وإذا غَرَبَتْ ذهب النّهار وظهرَ اللّيل. ولمَّا كانَتِ الحركَةُ حَرَكَةً دَائِبَةً بِتَتابُعٍ على توالي الأيّام

والدُّهور. كَانَ مِنَ الْبَرَاعَةِ في الأَدَاءِ البيانيّ تَصْوِيرُ أنَّ النّهارَ هُو الّذي يَطْلُبُ اللّيْل دواماً مُسْرِعاً جادّاً، لِيَغْشَاهُ فَيَسْتُرَهُ.

فما أبْدَعَ غِشْيَانَ النّهارِ لِظُلْمَةِ اللّيْلِ في حَرَكَةٍ دائِبَةٍ دائِرِيَّة، لا تَخْرِمُ أوْصَافها، ولا مقادِيرَها.

تبارَكَ مَنْ أتقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صُنْعاً.

● ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾: أي: وخَلَقَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ والنجومَ، حالةَ كَوْنِهَا مُسَخَّراتٍ بأمْرِهِ جلَّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطانُه، لأداء وظَائِفِهَا المفصَّلةِ المبيَّنَة بِقَضَائِهِ وقَدَرِهِ ضِمْنَ مجاري سُنَنِه.

التَّسْخِيرُ: جَعْلُ الشَّيْءِ مُطَاوِعاً مُنْقاداً بِما فُطِرَ عليه من طبيعَةٍ، لِمَا هُوَ مُسَخَّرٌ له، أوْ لِمَنْ هُو مُسَخِّرٌ له، كتسخير الماءِ والنارِ والهواء.

وقد تكونُ مطاوعةُ المسخَّرِ بالقُوَّةِ والتذليلِ، كتَسْخِيرِ العجماوات للإنسان. وقد تكُونُ بالاختيار الحرِّ لما في المطاوعة من مصلحةٍ للمطاوع، كاتِّخاذ الناس بعضهم بعضاً سخريًا.

ومن المشهود أنَّ الشَّمْسَ تعملُ مُسَخَّرةً دواماً في حركتها، وبَثِّ ضِيائِهَا إلى الأرض، وإلى القمرِ لمنافع سُكَّان الأرض، وأنَّ القمرَ مُسَخَّرٌ دواماً في حركته، وبثِّ نُورهِ إلى الأرضِ، وتزايدِ أهِلَّتِهِ وتناقُصِهَا، لمنافعِ سُكَّانِ الأرض، وأنَّ النُّجومَ المَشْهُودَة لنا مسخَّرَاتٌ يَهْتَدِي بمواقِعها وحَرَكتِهَا سُكَّانُ الأرض.

إنَّ الحياةَ بكُلِّ مَظَاهِرِها في الأرضِ مُرْتَبِطَةٌ أسْبابُها بضِيَاءِ الشَّمس، وهي مُسَخَّرةٌ بِعِنايَةِ الرَّبِّ جلَّ جلالُه وعظُمَ سلطانُه تَسْخِيراً عجيباً ضِمْنَ نظامٍ دقيقٍ لمنافع الأحْياءِ في الأرض، فلا تَخْرِمُ نِظامَهَا قِيدَ شَعْرَةٍ.

وإنَّ القَمَرَ مسخَّرٌ ضِمْنَ نِظامٍ دَقِيقٍ جِدّاً، لبَثِّ نُوره المتدرِّج من

الأهِلَّةِ حتَّىٰ يكون بَدْراً كَامِلاً، والمتناقِصِ إلى الأهلَّة حتَّى المَحاق.

وبالشَّمْسِ والقَمَرِ يعلمُ الناس عدَدَ السِّنينَ وحِسابَ الأشْهُرِ والأيَّام، وبالشَّمْس يعلمُ الناس حِسابَ سَاعَاتِ اليوم ودقائقها، والقمر مَسَخَّرٌ بما فيهِ مِنْ جاذبيَّةٍ لِحَرَكَتَي المدِّ والجَزْرِ في البحار.

وبالنُّجُوم يَهْتَدِي الناس في طُرُقاتِ البَرِّ والبَحْرِ ليلاً، لأنَّها مُسَخَّرات ضِمْن نظامٍ دقيقٍ لاَ تَخْرِمه.

إلى غَيْرِ ذلِكَ من تَسْخِيراتٍ يَكْتَشِفُها الباحثُون مِنْ عُلَماءِ الظَّواهِرِ الكونيَّة، وهذه التسخيرات هي من نِعَمِ اللَّه على الناس في الأرض، وعنايته بهم، وقَدْ تحقَّقَتْ بأمْرِ اللَّهِ عزّ وجلّ، ونحن نَعْلَمُ مِنْ بياناتِ اللَّهِ في كتابه، أنَّهُ إذا أَرَادَ شَيْئاً فإنَّما يَقُولُ لَهُ: كُنْ، فهو يكون على مراد اللَّه، وقد أراد جلَّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطانُهُ، فأمَرَ أمْرَهُ التكوينيّ، فكانَ ما هو كائِنٌ في الوجود.

• ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾:

بَعْدَ البيانِ الَّذِي وَجَّهَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيه النَّاسَ للتفكُّر ببعْضِ آثار صِفاتِه الجَلِيلَةِ العَظيمَةِ في كَوْنِهِ، لأنَّ هٰذِهِ الآثارَ دالأَتٌ على بَعْضِ صفاتِهِ، الّتي يَلْزَمُ عَقْلاً مِنْ إثباتِها إثباتُ ذاتِه، إذِ الصّفاتُ لاَ بُدَّ لَهَا مِنْ مَوْصُوفٍ بها، أبانَ جَلَّ جَلاَلُه أنَّ مَنْ لَهُ الخَلْقُ فَلاَ بُدَّ أنْ يكون له الأَمْر، وهذه قضيَّةٌ عَقْلِيَّةٌ لاَ نَقْضَ لها.

• ﴿أَلَا﴾: أداةُ استفتاحٍ وتَنْبيه، وقد جاءت هذه الجُمْلَةُ مَبْدُوءَةً بها إشعاراً بأنّ ما يأتي بَعْدَها أمْرٌ خَطِيرٌ، وعلى المتَلَقِّينَ الاهْتِمامُ بِهِ جِدّاً.

• ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾: لَهُ وَحْدَهُ لاَ شَريكَ لَهُ مِلْكُ جَمِيعِ المَخْلُوقات، إذْ هُوَ خَالِقُها، والمُتَصَرِّفُ فيها، والمدبِّرُ لأمْرِهَا، ومن ضِمْنِهَا الملائكَةُ والجنُّ والإنس.

لفظ «**الخَلْق**» هو في الأصْلِ مصدَرُ «**خَلَقَ**». ويُطْلَقُ على المخلوق، وبدخول «**ال**» الاستغراقية صار لفظ «الخَلْقِ» يعُمُّ كُلَّ المخلوقات، أي: كُلَّ الكائناتِ سِوَى اللَّه عزّ وجلّ.

ويَلْزَمُ عقلاً من كَوْنِ اللَّهِ عزّ وجلّ مالكاً كُلَّ ما في الوجود سواه، لأنَّ كُلَّ ما في الوجود خَلْقٌ من خلقه، أنْ يكون له وَحْدَهُ كُلُّ الأمْر.

ويعُمُّ لفظ «**الأمْرِ**» أمْرَ التكوين إيجاداً وإعداماً، وتحريكاً وإسْكاناً، وتَصْرِيفاً وتَبْدِيلاً وتحويلاً، وجَمْعاً وتَفْرِيقاً، وغير ذلك من تَصارِيف.

ويعُمُّ لفظ «**الأمْرِ**» أمْرَ التكليف لذوي الطاعَةِ بالفطرة، وهم الملائكة، ولِمَنْ مَكَّنَهُمْ جَلَّ جلالُه بمقتضى الأسْباب والمسبّبات، من طاعَته ومَعْصِيته، بما سخَّر لهم، إذْ خَلَقَهُمْ لِيَمْتَحِنَهُمْ فيما آتاهُمْ، وهم فيما أعْلَمَنا اللَّه عزّ وجلّ الإنْسُ والجنّ.

وبما أنَّ أمْرَ التَّكْلِيف هو في الأَصْلِ لَهُ وَحْدَهُ سُبْحانَه، فإنَّ على عبادِهِ ذوي العِلْم، أن يُطِيعُوهُ في أوامره ونواهيه، وأن يطيعوا مَنْ يأمُرُهم بطاعَته، وأنْ يَعْصُوا مَنْ يَأمُرُهُمْ بمَعْصِيته، فهذا حقُّ الخَالِقِ المالِكِ على عباده بداهَة.

● وبما أنَّ الإنْسَ والجنَّ ذَوُو إراداتٍ حُرَّةٍ، لِحِكْمَةِ الابتلاء المستَتْبِع للحسابِ وفَصْلِ القضاء وتحقيق الجزاء، فإنَّ علَيْهم أنْ يُحَقِّقُوا عبودِيَّتَهُمْ للَّهِ بإرادتِهم الحرَّةِ، في طاعتهم لأوامره ونواهيه، ليجتازُوا رِحْلَةَ امتحانهم بنجاح، فينَالُوا مَا وَعَدَهم به ربُّهم من ثوابٍ جزيلٍ يوم الدِّينِ في جنَّاتِ النَّعِيم، وحياةٍ طيِّبَةٍ في الدُّنيا، ويَحْمُوا أنْفسهم من عقابِ اللَّه وعذَابه.

ومن تحقيق عُبُودِيتِهِمْ له، أنْ يَتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إليهم منه، إذْ هُوَ وَحْدَهُ ربُّهم ومَالِكُهُمْ ومَالِكُ أمْرِهِمْ كُلِّه، وأنْ لا يتَّبِعُوا مِنْهُ دونه أوْلياء.

وهذا هو الخطُّ الأعظم الذي سارت عليه أكثر آياتِ سورة (الأعراف) ودروسها.

هذا البيان الذي اشتملت عليه عبارة: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، قَدْ جاء بمثابة تعليلٍ عَقْلِيٍّ مُتَضَمِّنٍ حُجَّةً برهانيَّةً للتكليف الذي جاء في أوائل هذه السورة، بقوله تعالىٰ خطاباً لكلِّ الموضوعين موضع الامتحان في الحياة الدنيا:

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

وقد عرفْنَا أنَّ هذه الآيَةَ تُمَثِّلُ الخطَّ الأعْظَم مِنْ خُطُوطِ مَوْضوع السورة.

● ﴿. . تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾:

بَعْدَ بيان أنَّ مَنْ لَهُ وَحْدَهُ الخَلْقُ مِلْكاً وتَصرُّفاً، فلَهُ وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ كُلُّ الأمْرِ، ومِنْهُ أمْرُ التَّكْلِيفِ الشاملِ للتكليف بالفِعْلِ والتكليف بالتَّرْكِ، كانَ من الحكمة البيانيَّة تأْكيدُ القاعِدَةِ الاعتقاديّة الكُبْرى، الّتي تُبْنَى عليها قضايا السُّلُوكِ الدِّينيّ كُلُّها.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾: أي: تَزَايَدَ وتنامىٰ وتعاظَمَ في صفاتِ كماله فوقَ كُلِّ ما يتصوَّرُ المُتَصَوِّرُون، ويَتوهَم المتوهَمونُ، ويَصفُ الواصِفُون.

تَبَارَك: على وزن «تَفَاعَل» من البَرَكة، وهي في اللّغة النَّماءُ والزِّيَادة، سواءٌ أكانت مَادِّيَّة تُدْرَكُ بالحَواسّ الظَّاهِرَة، أمْ غَيْرَ مَادِيَّة مِمَّا يُدْرَكُ بالحواسّ الباطنة.

قال الزجّاج من علماء اللّغة: البَرَكَةُ هي الكَثْرَةُ مِنْ كُلِّ خَيْر.

أقول:

البركةُ وكُلُّ تصاريفِ هذه المادّةِ في نُصُوصِ القرآنِ والسُّنَّةِ تَدلُّ على

الزيادات الّتي تأتي من وراء المنظور، دون أن تُدْرَكَ لها حُدود، فهي فيضٌ من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، أو زيادات في عالم الغيب بلا حُدُود.

وفي عبارة ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ ثَنَاءٌ من اللّه عزّ وجلّ على نَفْسِه لِيُعَلِّمَنَا صفاته، ولِيُقَدِّمَ لنا الدَّليلَ عَلَيْها من آياته في كَوْنِهِ، وفيما أَنْزَلَ على رسوله، فيَصِفُ نَفْسَه جَلَّ جلالُه وعَظُم سلطانُه، بأنّه «تَبارَكَ» أي: تنامَىٰ وتزايَدَ وتعاظم بالإطلاق العامّ، عن كلّ ما يَصِفُهُ به الواصِفُون من كمالات. وهذا يَدُلُّ على أنَّهُ متّصِفٌ بكُلّ صفاتِ الكمال، ويَلْزَمُ عقلاً من اتّصافه بصِفَاتِ الكمال تَنَزُّهُهُ عَنْ كُلِّ صِفَاتِ النقصان.

﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: تبارَكَ اللّهُ رَبُّكُمْ الَّذِي هُوَ رَبُّ العالمين، والمراد بالعالمين هنا كُلُّ ما سِوَى اللّه من موجودات حاضِرَاتٍ أَوْ غابراتٍ، أو سَتُوجد أو سَوْفَ تُوجَدُ في المستقبل[1]، فَمَا يُوجَدُ مِنْ شَيْءٍ إلاَّ واللّهُ وَحْدَهُ هُوَ رَبُّهُ جلَّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطانُهُ.

❁ ❁ ❁

- قولُ اللّه عزّ وجلّ:

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

بَعْدَ تَعْرِيفِ المقصودين بالخطاب بربّهم، وأنّهُ هو الذي يُسَمُّونَهُ «اللّه»، وبَعْدَ ذِكْرِ بَعْضِ آياتِهِ في كَوْنِهِ، الدّالاّت على طائِفَةٍ مِنْ صفاته الجليلة، والثناء العظيم عليه، وبأنَّهُ رَبُّ العالمين، اقتضت الحكمة البيانيّة ذِكْرَ بَعْضِ تَفْصِيلاَتٍ مِمَّا أُنْزِلَ للنّاسِ من ربِّهم، ممّا طَلَبَ مِنْهم أنْ يَتَّبِعُوهَا، وهو ما جاء في الآية (٣) من السورة.

---

(١) وقد يقصد بالعالمين أحياناً الإنس، وقد يقصد الإنس والجن، وقد يُقْصَدُ الإنس والجنُّ والملائكة، والقرائن هي الّتي تَدُلُّ على المراد.

وقد اشتمل النَّصُّ في هاتين الآيتين (٥٥ و٥٦) على بيان أَرْبَعِ قضايا تعليميَّة يُطالِبُ اللَّهُ عبادَهُ باتّباعها، وعلى قضيَّةٍ تَرْغِيبيَّةٍ وَعَدَ اللَّهُ فيها بأنْ تكونَ رَحْمتُهُ قَرِيباً من المحسِنين.

القضيَّة الأولى: دَلَّ عليها قولُ اللَّهِ تعالىٰ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾:

﴿ٱدْعُوا۟﴾: أي: اسْأَلُوا واطْلُبوا، يقالُ لُغةً: دعَاهُ يَدْعُوهُ دُعاءً ودَعْوىٰ وَدَعْواً ودَعْوَةً، أي: سَأَلَهُ ورَغِبَ إليه وطلَبَ مِنْهُ.

﴿رَبَّكُمْ﴾: أي: اللَّهَ الذي سبَقَ بيان بعض آياته في خلقه، فهو خالقكم والمهيمن عليكم دواماً بِرُبوبيَّتِهِ التي سبق شرحُها.

﴿تَضَرُّعًا﴾: **التَّضَرُّعُ** هو التَّذَلُّلُ والخضوع، وأصْلُه من خَفْضِ وَلَدِ ذاتِ الضَّرْعِ كالحَمَلِ والفَصِيلِ رَأْسَه لِضَرْعِ أُمِّه حتَّى يَرْضَعَ من ثَدْيَيْها، وهِيَ عِنْدَئِذٍ تَحِنُّ عليه فيَدُرُّ لَبَنُها.

﴿وَخُفْيَةً﴾: الخُفْيَةُ والخِفْيَةُ بضمّ الخَاءِ وكَسْرِها، الإسرار، فمن أَدَبِ الدُّعاء لِلَّهِ عزَّ وجلَّ أنْ يكونَ دعاءً في السِّرِّ، لا في الجَهْرِ، لأنَّ الإسرارَ بالعبادةِ أَبْعَدُ عن الرِّيَاءِ المُحْبِطِ للعمل، ولأنَّ اللَّه جلّ جلالُه عَلِيمٌ بمطالِبِ عِبَادِهِ الخفيَّةِ، سَمِيعٌ لِهَمَسَاتِهِمْ مَهْمَا كانت خافِتَةً، لا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ دُعَائِهِمْ شَيْءٌ، فَمِنَ الأَدَبِ مَعَ اللَّهِ أَنْ يُسَارُّوه ويُنَاجُوهُ فيما يدعونه به.

والمعنَى: اَسْأَلُوا اللَّهَ الَّذي هُوَ رَبُّكُمْ يُمِدُّكُمْ دَواماً بعطاءات رُبُوبيَّتِهِ، في كُلِّ أُمورِكُمْ، سواءٌ منها ما تجدون أسبابَهُ مسخَّرةً لَكُمْ بيُسْرٍ، أَمْ لا تَتَيَسَّرُ لَكُمْ أَسْبَابُهُ، فَهُوَ خَالِقُ الأَسْبَابِ والمُسَبّبات، وَدُعَاؤُكُمْ له هو أَوَّلُ تعبيرٍ تلقائِيٍّ عن عبادَتِكُم لَهُ، متَىٰ صَحَّ إيمانُكُمْ به، وبأنَّهُ مالِكُ كُلِّ شَيْءٍ، وبَأَنَّهُ المتَّصَرِّفُ بخَلْقِهِ، وبأنَّهُ لاَ يَكُونُ شَيْءٌ في الوجود إلاَّ بأَمْرِهِ وخَلْقِهِ، أَوْ بِإِذْنِهِ وتمكينهِ وتَسْخِيرِهِ للأسْبابِ، وبهدايته ومَعُونَتِهِ.

والعبادة لِلَّهِ عزّ وجلّ ترجع إلى ثلاثَةِ أصولٍ أساسيّة.

الأصلُ الأوّل: الدُّعاءَ.

الأصْلُ الثاني: طاعَةُ اللَّه بفِعْل ما أمَرَ به، وتَرْكِ ما نَهَىٰ عنه.

الأصْلُ الثالث: التَّقَرُّبُ إلى اللَّهِ عزّ وجلّ بمحابّه من أفعالٍ وتُرُوكٍ، ولَوْ لَمْ يُكَلِّفْنا الْتِزامَها.

والدُّعاءُ الَّذِي هو الأصْلُ الأوّلُ، هُوَ ثَمَرَةُ الإيمانِ بأنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ هو خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، والمتصرِّفُ في كلِّ شَيْءٍ، والقدير على كلِّ شَيْءٍ، والفَعَّالُ لما يَشَاءُ ويختارُ. وثَمَرَةُ الإيمانِ بأنَّ كُلَّ مَنْ سِوَىٰ اللَّهِ جلَّ جلاله لا يَمْلِكُ لنفسه جَلْبَ نَفْعٍ ولا دَفْعَ ضُرّ، فضلاً عن أن يَمْلِك شيئاً من ذلك لغيره. وثَمَرَةُ الإيمانِ بأنَّ اللَّهَ تباركَ وتعالىٰ رَحيمٌ بعبادهِ، وبأنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيب، وبأنَّهُ يُجيب على وَفْقِ مقتضىٰ حِكْمَتِهِ، دَعْوَةَ الدَّاعي إذا دَعَاهُ، مُؤْمِناً به، مُخْلِصاً له في دَعْوَتِهِ، لاَ يُشْرِكُ بعبادتهِ له في الدُّعَاءِ أحداً.

ولمَّا كانَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ قريباً مِنْ عباده، يَعْلَمُ هَمَسَاتِهِمْ ويَسْمَعُهَا، ويَعْلَمُ خَاطِرَات أفكارِهِم، وحركاتِ نُفوسِهِم وقُلُوبِهم، لم يكن بحاجَةٍ إلى مناداتهِ برَفْعِ الصَّوْت.

ولمَّا كانَتْ طَبِيعَةُ الدُّعَاءِ تَتَضَمَّنُ اسْتِجَداءَ عَطاءٍ من جُودِ اللَّهِ ورَحْمَتِهِ، كانَ مِنْ لَوَازِمِ أدَبِ الدُّعاءِ التَّضَرُّعِ للَّهِ معه، وخَفْضُ الصَّوْتِ في الطَّلب، لأنَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالىٰ لَيْسَ بَعِيداً عن عباده حتَّى يُنَادُوه بِرَفْعِ أصْوَاتِهِمْ.

ولهذا أبَانَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ أدَبَ عَبْدِهِ النبيّ زَكَرِيَّا في دُعائِهِ رَبّه، بأنّه نَادَاهُ نِدَاءً خَفِيّاً، فقال تعالىٰ في سورة (مَرْيم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾.

القَضِيَّةُ الثانية: دَلَّ عليها قول اللَّهِ تعالىٰ: ﴿... إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾:

أي: وَلاَ تَعْتَدُوا إنَّهُ لاَ يُحِبّ المعتدين. الضمير في إنَّهُ يَعُودُ على اللَّهِ عزّ وجلّ، الّذي لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ، والَّذِي هُوَ رَبُّ العالَمِين.

وقد أغْنَتْ عبارة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ عن التَّصْرِيح بعبارَةِ: «ولاَ تَعْتَدُوا»، فمِمَّا هُوَ من اللّوازِمِ الَّتِي تُدْرَكُ ذِهْناً بالبديهة أنَّ مَنْ لاَ يُحِبُّهُ الرَّبُّ الخالِقُ لصِفَةٍ فِيه، فإنَّهُ لاَ يُحِبُّهُ لِأَنَّهُ مخالف لما كَلَّفَهُ إيَّاهُ، فَفَعَلَ مَا نَهَاهُ عَنْهُ وَأَمَرَهُ بِتَرْكِهِ أوِ ٱجْتِنَابِهِ، أَوْ تَرَكَ مَا أَمَرَهُ بفِعْلِهِ.

المعْتَدِي: هو الّذِي يَظْلِمُ غَيْرَهُ في حَقٍّ من حُقُوقِهِ المادّيّة أو المعنوية، فالظُّلْمُ في الحقوق الماليّة من الاعْتِدَاء، والظُّلْمُ في الحقوق الجسدية والنفسيّة من الاعتداء.

وفِعْلُ ما نهىٰ اللَّه عزّ وجلّ عن فِعْلِه، وتَرْكُ ما أمَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ بفِعْلِهِ مع الاستطاعة من الاعتداء على حقّ اللَّهِ على عباده.

وشهادةُ الزُّور من الاعتداء على حقّ مَنْ كانت الشهادة ضِدَّه.

ومضارَّة الزَّوْجَةِ بإمْسَاكِهَا بَعْدَ طَلاَقِهَا وَقُرْبِ أجَلِ عِدَّتِهَا لمَنْعِهَا مِنْ أن تَتَزَوَّجَ زَوْجاً آخرَ هو من الاعتداء.

وتحريم ما أَحَلَّ اللَّه أو تَحْلِيلُ ما حَرَّمَ اللَّه هو من الاعتداءِ على حقّ اللَّهِ عزّ وجلّ في التحليل والتحريم، لأنّ اللَّه هو وَحْدَهُ الَّذِي لَهُ الخَلْقُ وَلَهُ الأمر.

وتجاوُزُ حُدُودِ اللَّهِ في الأَحْكَامِ هو من الاعتداء على أحكام اللَّه وشرائعِهِ، جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه.

والإشراكُ باللَّهِ ظُلْمٌ عظيم، وهو من الاعتداء على حقّ اللَّه في الإيمان بأنَّهُ وَاحِدٌ في رُبوبيَّتِهِ، وواحِدٌ في إلٰهيَّته، وهو من كبائِرِ أنواع الاعتداء الشَّدِيدةِ القُبْح، وشَرٌّ مِنْهُ جُحُود رُبُوبيَّةِ اللَّهِ وَجُحُودُ إلٰهيَّتِهِ.

إلى غير ما سَبَقَ ذِكْرُه من أنواعِ وصُوَرٍ تَدْخُلُ في مفهوم العُدْوانِ على الحقوق، ومنها الدُّعاءُ بما لَمْ يَأْذَنِ اللَّهُ عزّ وجلّ بالدُّعاءِ به، ومِنْها دُعاءُ غيرِ اللَّهِ في غَيْرِ الأُمُورِ السببيَّةِ الكونيّة، كَدُعاءِ الجنّ أو الملائكةِ أو الأوثان أو نحو ذلك.

واجتنابُ الاعتداء يَدْخُلُ في عُموم الأصل الثاني من أُصُولِ عبادَة العباد لربِّهم، وهو طاعته جلّ جلالُه بفِعْلِ ما أَمَرَ به، وتَرْكِ ما نَهَىٰ عنه.

القضيَّة الثالثة: دَلَّ عليها قول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾:

الإصلاح: الإتْيَانُ بما هُو صالحٌ نَافِعٌ.

والإفساد: الإتْلاَفُ، وتحويلُ الشَّيْءِ من كونه صالحاً نافعاً، إلى كونه غير صالحٍ ولاَ نَافِعٍ، بل رُبَّما يَصِيرُ ضارّاً كَرِيهاً مُفْسِداً لِلأَشْيَاءِ النافعة.

إنّ إصْلاَحَ الأرْض البُور الّتي لا زَرْعَ فيها، يكُونُ بزراعَتِها، أو تَهْيِئَتها لتكونَ صالِحَةً للزّراعة، ويكون بغَرْسِ الشجر فيها، وتَمْهيد طُرُقها، وإجراء أنهارِها.

ومن إصلاح الأرض إقامةُ الجُسُور، وبناءُ السُّدُود لتجميع المياه وراءها، وحَفْرُ الآبار، وبناءُ المَسَاكن مُزَوَّدَةً بمُخْتَلِفِ مرافِقِ الحَياة، مع إنْشاءِ كُلّ ما تَتَطَلَّبَهُ الشُّرُوطُ الصِّحِيَّةُ من المجاري، والحدائق التي هي في المُدُنِ والقرى بمثابة رِئاتِ التَّنَفُّس، وكذلك الملاعِبُ الرِّياضِيَّة، وميادِين الفروسيّة، ومراكِزُ التدريب العسكريّ، ومراكز التدريب المهني، والتدريب الصّناعي والزراعي، ومراكز التدريب على التمريض والإسعافات الأوليّة، وإنْشَاءُ الأسْواقِ التجاريّة المختلفة.

وفي مُقَدِّمةِ إصلاح الأرْضِ بناء المساجد لعِبَادَةِ اللَّه فيها، وبناءُ المدارسِ ودُورِ العِلْمِ على اختلاف مستوياتها، وعلى مقدار الحاجات

المتزايدات مع التكاثر البشري، وإقامَةُ مؤسَّساتِ الدَّعْوَةِ إلى اللَّه، والأمْرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر، ومؤسَّسات الخدمات الاجتماعيّة.

والنهيُ عن الإفساد في الأرض بَعْدَ إصلاحها يَدُلُّ بمَنْطُوق اللَّفْظِ على النهي عن كلّ عملٍ يُفْضِي إلى إفساد أيَّةِ مُنْشَأَةٍ أُقِيمَتْ لخِدْمَةِ مصالح العباد على الأرض، كتخريب المساكن لا لإعادة بنائها على وَجْهٍ أفضل وأحْسَن، وكتخريب المزارع والمصانِع وخَزَّانات الميَاهِ، وكَإحْرَاقِ آبارِ النّفْطِ، وإفساد الطُّرُقِ.

ومن أقْبَح صُورِ الإفساد في الأرض مَنْعُ مَساجِدِ اللَّهِ من أنْ يُذْكَرَ فيها اسْمُه، والسَّعْيُ في خرابها، وإغلاقُ مدارس التعليم، ولا سيما التعليمُ الدينيُّ، وإلْغَاءُ أوْ حَلُّ الجمعيَّاتِ الخيريَّةِ النافِعَة.

ويَدُلُّ قول اللَّه عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ بمَفْهُومِهِ من وراء منطوق اللَّفْظِ على الأمْرِ بإصْلَاح الأرض بكُلِّ عملٍ يُؤَدِّي إلى إقامة مُنْشَأَةٍ مادِّيَّةٍ أوْ مَعْنَوِيَّةٍ، ذاتِ وَظِيفَةٍ إصْلَاحِيَّةٍ نافِعَةٍ للعِباد، في أمور دنياهم وأُمُور آخِرَتهم، فأغنى النهيُ عن الإفساد في الأرض عن الأمر بإصلاحها.

إنَّ اللَّهَ جلَّ جلالُهُ قَدْ اسْتَعْمَرَنا في الأرض، أي: طَلَبَ منَّا أنْ نَعْمُرها ونُصْلِحَ فيها، لدنيانا ولآخِرَتِنا بِحَسَبِ حَاجَاتِنا، وحَرَّمَ عَلَيْنا أنْ نَأتِيَ إلى ما تَمَّ إصلاحُهُ مِنْهَا فَنُفْسِدَهُ ونُخَرِّبَهُ، دُونَ تحقيقِ مَصْلَحَةٍ أرْجَحَ للدِّين أو للدُّنيا، وإصلاح الأرض إنّما يكون مأموراً به إلزاماً أو تَرْغيباً، إذا كان ضمن مَنهَج اللَّه أو ما أذِن به لعباده.

أمّا طُغَاةُ الأرْضِ وجَبَابِرَتُهَا فإنَّهُمْ مُفْسِدُونَ غير مُصْلِحين، وكذٰلِكَ فُسَّاقُ النَّاسِ كاليهود فإنّهم مُفْسِدُونَ في الأرض بمؤسَّساتهم الفاجرة، كَدُورِ الزّنا، وبُيوتِ القمار، والبُنُوك الربويّة.

وشَرُّ المفسدين في الأرض الّذين يَسْعَوْنَ في هَدْمِ عقائد الإيمان الصّحيح باللّهِ واليَوْمِ الآخر، وإكْرَاهِ النّاسِ على تَرْكِ عبادة اللّهِ جلّ جلالُهُ، وإلْزَامِهم بعبادةِ غَيْرِهِ. ونَشْرِ الفِسْق والفُجُورِ وأنواع الفواحش، والمجاهرة الوقحَةِ بمعصِيَةِ اللّهِ ورسوله.

وبهذا البيان الرَّبّانيّ نُلاحظُ أنَّ الأمْرَ بعمران الأرض، والنَّهْيَ عن الإفساد فيها بَعْدَ إصلاحها، من قضايا الدِّين الذي اصطفاهُ اللّهُ للنّاس مُنْذُ عَهْدِ آدم حتّى خاتمة رسالاته لعباده، بِبِعْثَةِ محمّد ﷺ وبما أنزل عليه وأوحى به إليه.

وبالتأمّل نلاحظُ أنَّ العملَ في اسْتِصْلاح الأرضِ على ما يُرْضِي اللّه عزّ وجلّ، واجْتِنَابَ الإفسادِ في الأرض لما اسْتُصْلِحَ مِنْهَا، يَدْخُلُ بَعْضُهُ في الأصْلِ الثاني من أصول عبادة العِباد لربِّهم، وهو طاعَةُ اللّه جلَّ جلاَلُه، بفعل ما أمر به أو أمَرَ به رسُولُه ﷺ إلزاماً، وترك ما نهى عنه أو نهى عنه رسوله إلزاماً. ويدخُلُ بَعْضُهُ الآخر في عموم الأصْلِ الثالث من أُصُولِ عبادة العباد لربِّهم، وهو التَّقَرُّبُ إلى اللّهِ عزَّ وجلَّ بمحابّه من أفعالٍ وتُرُوكٍ ولَوْ لم يُكَلِّفْنَا الْتِزَامَها.

القضيّة الرابعة: دلَّ عليها قولُ اللّه تعالىٰ: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ﴾:

إنَّ الأمْرَ بدُعَاءِ اللّهِ الرَّبّ جلَّ جلالُه، الّذي جاء في القضيّة الأولى، قد كان مُوجَّهاً لبَيان أدَبِ الدُّعاء، وهو أنْ يكون مصحوباً بتضرُّعٍ وتَذَلُّلٍ للرَّبّ الخالقِ المنعم المتفضل، وأن يكون مناجاةً له في السِّرّ، دُونَ صياحٍ وضَجِيجٍ ورَفْعِ صَوْتٍ، إلاّ في بَعْضِ أحوالٍ خاصَّة يُقْصَد بها إشراكُ الجماعَةِ، وتَبْلِيغُهُمْ عباراتِ الدُّعاء، حتَّى يُرَدِّدُوهَا في السِّرّ، أو يُؤَمِّنُوا عليها، فيقولُوا: آمِين.

أمّا قول اللّه تعالىٰ: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ﴾ فَهُوَ مُوَجَّهٌ لبَيَان

المِحْوَرَيْنِ اللَّذَيْنَ تَدُورُ عليهما حَرَكَةُ النَّفْسِ، وهُمَا «**مِحْوَرُ الخَوْف**» و«**مِحْوَرُ الطَّمَع**».

إنَّ الإنْسَانَ في حالَةِ وَعْيِهِ لاَ يَخْلُو غالباً من أنْ يكون في إحْدَى حالَتَيْن: إمَّا أنْ يكونَ خائفاً مِنْ شيءٍ، وإمَّا أن يكُونَ طامعاً بشيء، وقَدْ يَجْتَمِعَانِ الخوف والطمع[1].

وتَدُورُ دَوائر الخوفِ والطّمع بحركة شِبْهِ دائمةٍ، إذْ تكادُ لاَ تَنْقَطِعُ في نَفْسِ الإنْسان، فَهُو غالباً إمَّا خائِفٌ وإمَّا طامع، وإمَّا خائفٌ وطامِعٌ معاً، وكَثِيرٌ ممّا يخافُه الإنْسَانُ لاَ يَمْلِكُ أسْبَابَ دَفْعِهِ، وكَثِيرٌ ممَّا يَطْمَعُ فيه لاَ يَمْلِكُ أسْبَابَ الحُصُولِ عليه، ولا ينتهي الإنسانُ من تحقيق مَرْغُوبٍ لِنَفْسِهِ، إلاَّ تَجدَّدَ لَدَيْهِ مَرْغُوبٌ فيه آخَرُ للمستقبل.

وقد أمَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ المؤمنين به وبرسُولِهِ أمْرَ تَرغيب، بأنْ يَدْعُو رَبَّهُمْ عِنْدَ حاجاتهم في مُخْتَلِفِ أحوالهم، خائفين أو طامعين.

ولمَّا كانَ الإنْسان لا تَخْلُو لحظاتُ وَعْيِه غالباً من أن يكون خائِفاً أو طامعاً، فإنّ اللَّهَ عزّ وجلّ يأمُرُهُ بأنْ يكونَ داعياً رَبَّهُ مع كلّ خَوْفٍ وطَمَع، طالباً مِنْهُ دَفْعَ مَا يَخَافُهُ مِنْ مكاره الدُّنيا والآخِرة، ومَنْحَهُ ما يَطْمَعُ فيه من مَحَابّ الدنيا الّتي لا معصيَةَ للَّهِ فيها، ومن مَحَابِّ الآخرة، وهي النجاة من عذابه يوم الدِّين، والظَّفَرُ بالسّعادةِ الخالدة في جنَّاتِ النعيم.

وإذا تحقَّقَ المؤمِنُ بعبادَةِ رَبّه بالدُّعَاءِ دواماً، في حَالَتَي الخَوْفِ والطَّمَع، مُلْتَزِماً آدابَ الدُّعاء، كان في عبادة الدُّعاء من المحسنين، إذْ يَرْتَقِي في سُلَّم هذه العبادة إلى مَرْتَبة الإحسان.

وعبادة اللَّهِ عزّ وجلّ بالدُّعاءِ من مَرْتَبَةِ الإحْسَان، تَدْخُلُ في عموم

---

(١) هذه القضية تُسَمَّى عند علماء المنطق مانعة خلوّ.

الأصل الثالث من أصول عبادة العِبَاد لربِّهِمْ، وهو التَّقَرُّبُ إلى اللَّه بمحابّه، فاللَّهُ جلَّ جلاَلُه يُحِبُّ من عباده أنْ يَدْعُوهُ، ما تَجدَّدَتْ لديهم مطالب من مِحْوَرِ الخوف، أو مِنْ مِحْوَرِ الطّمع، إذِ الدُّعاءُ هُوَ التَّعْبيرُ الدائم عن صِحَّةِ الإيمان، وصِدْق التوجُّه للَّهِ، ولهذا جاء في أقوال الرسول ﷺ أنّ الدّعاء من العبادة، أو هو مُخُّ العبادة.

وفي سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) ذكر اللَّه عزّ وجلّ طائفة من الرُّسل، وبَعْدَ ذلك أثنى عليهم بقوله تعالىٰ:

﴿.. إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

القضيّة الخامسة: هي قَضِيَّةٌ تَرْغِيبيَّةٌ في أن يكونَ المؤمِنُ في عبادَته لربّه مِنَ المحسنين، الَّذِين ارْتَقَوْا فَوْقَ سَقْفِ مَرْتَبَةِ التَّقْوى، واجتازُوا سَقْفَ مرتَبَةِ البِرّ، ودَخَلُوا في درجاتِ مَرْتَبَةِ الإحسان.

وقد دَلَّ على هذه القضيَّة الترغيبيَّة قول اللَّه تعالىٰ: ﴿.. إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يُفيضُ عَطَاءَاتِ رَحْمَتِهِ دُونَ إبطاء لعباده المحسنين، لأنَّ رَحمَتَهُ جَلَّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطانُه قَرِيبَةٌ مِنْهُمْ. وكلُّ عَمَلٍ مِنْ أعْمَالِ العباداتِ للَّه، ومنها عبادة الدُّعاء، لَهُ ثلاث مراتب: مرتبة التقوى، ومَرْتَبَةُ البِرّ، ومَرْتبةُ الإحسان.

والإحسانُ هو أعْلَى المراتب الّتي يرتقي إليها الصالحون المؤمِنُون، ودون مرتبة الإحسان مرتبة البرّ، وهي التوسُّعُ في مراضي اللَّهِ من النّوافل، ودون مرتبة البرّ مرتبة التقوىٰ، وتتحَقَّقُ التَّقْوىٰ بفِعْلِ ما أمر اللَّهُ به إلزاماً، وتَرْكِ ما نَهَىٰ اللَّهُ عنه إلزاماً.

أمّا الإحسان الذي هو أعلى المراتب، فهو أن تَعْبُدَ اللَّهَ كأنَّكَ تَرَاهُ.

❁ ❁ ❁

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

تمهيد:

في هاتَيْن الآيتَيْن عَوْدٌ إلى عَرْضٍ بعض آيات اللَّهِ في كَوْنِهِ، الّتي هي من مظاهر رُبُوبيَّتِهِ، وعِنايَتِهِ ورحْمَتِهِ بعِبادِهِ، وهذا العَوْدُ موصولٌ بالآية (٥٤) من هذا الدرس الخامس.

● قرأ ابنُ كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف: **﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾** بالإفراد وقرأ باقي القرّاء العشرة: **﴿الرِّيَاحَ﴾** بالجمع.

وقد يكونُ بَيْنَ القراءتَيْن تكامل في أداء المعنى المراد، وذلِكَ لأنَّ الرِّياحَ أنواعٌ وأصْنَافٌ تَرْجِعُ إلى شِدَّتِهَا، وسُرْعَتِهَا، وطبقاتِ حَرَكتِهَا في الجوّ، ومَسِيراتها المختلفات، وتعَدُّدِ انطِلاَقاتها مُتَسَايِرَةً أوْ مُتَعَارِضَةً، وجِهَاتِ انطلاقها مِنْ دَرَجَاتِ الدَّائِرَة المحيطةِ بالجهات الأربع.

وقد يُرْسِلُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ الرّياحَ مُتَنَوِّعةً وهو الغالب، وقَدْ يُرْسِلُ الرِّيحَ، أي: نوعاً مفرداً من الرِّياح ذَوات الأنْواع والأصْناف.

فأغْنَتِ القراءتان في الكلمة الواحدة: «الرِّيح ـ الرِّياح» عن جُمْلَتَين تُكَرَّرانِ في القرآن، وهذا من عناصِر الإبداع في القرآن المجيد المعجز.

وقد سبَقَ تَوْجِيهُ القراءات في لفظة: **﴿بُشراً﴾** فلا حاجةَ إلى الإعادة، وكذلك في: [مَيِّتٍ ـ وتَذَكَّرُون ـ ويَخْرُجُ ـ ونَكِداً].

التَّدَبُّر:

● ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ﴾:

أي: وربُّكُمُ اللَّه هُو الّذي يُرْسِلُ الرّياح مُبَشِّرةً بِرَحْمَةِ اللَّهِ عِبادَهُ بالغَيْث، ويُرْسلُها نَاشِرَةً السُّحُبَ واللّقاحات وغيرَ ذلكَ من أمورٍ تتَحَقَّقُ بنَشْرِهَا منافع ومصالح كثيرَةٌ للعباد.

إنّ للرّياح وظائف مُتَعَدِّدَة وكثيرة، وهي حينَما تُؤَدِّي وظيفةً ما مِنْ وظائفها في الكون، فإنَّها تُقَدِّمُ دلاَلَةً للمتفكّرين على بعضِ صفاتِ مُرْسِلها بحِكمَتِهِ، إذ هو الخالق الرَّبُّ القدير العَلِيم الحكيم الرَّحْمٰن الرحيم، اللّطِيف الخبير، المنتقم الجبار إلى غير ذلك من صفات الكمال التي هي له، والّتي له بها الحمدُ كلُّه.

وقد وزّع اللَّهُ عزّ وجلّ بيان كثير من وظائف الرّياح في الكون على نَيِّفٍ وعِشْرِين نَصّاً وسُورَة، لأنَّ ظاهرةَ الرِّياح في الكون من الظاهرات الكُبْرى الّتي تَسْتَدعي لَفْتَ أنظارِ المتفكرين إليها، مع التّنبيهِ على أنواعها ووَظائِفِهَا المختلِفةِ، بصُورَةٍ مُجَزَّأةٍ مُفَصَّلَةٍ، لا بصورةٍ عامَّةٍ ومُجْمَلَة.

فمن وظائفها أنَّها تَحْمِلُ للناسِ الإنْعام والإكرام، ومن وظائفها أنَّها تأتي بنُذُرِ القَهْرِ والانْتِقام.

والنَّصُّ هنا في هذا الدَّرْس من دُرُوس السورة، يَلْفِتُ أنْظارَ المتفكّرينَ إلى بعض ما تحمل الرِّياح من إنْعامِ اللَّهِ جلَّ جلالُه على عباده رَحْمَةً بهم، في تَلْبِيَةِ أجَلِّ مطالبهم في الحياة، أَلاَ وهي قضيَّةُ الرِّزْقِ وتَيْسير أسبابه.

إنَّ سَوْقَ الأرْزَاقِ للعباد، وتَهْيِئَةَ وسائِلها وأسبابِها في تصاريف الكون، هو من الصّفات الرّبّانيّة ذَواتِ الآثار المتجدّدة المتكرّرة في الظّاهرات الكونية، فاللَّه جلّ جلاله هو المُمِدُّ بأسْبابِ بقاء الأحياء أحياءً، وقد جَعَلَ سبْحَانه اسْتِمرار حياتهم المقدَّرَةِ بقضائه وقَدَرِهِ لكُلِّ منهم مُرْتبطاً بأرْزاقهم،

وبما أنّه هو رَبُّهم الّذي لا شريك له فقد تَكَفَّلَ بتَهْيِئَةِ أسباب رِزْقهم، ومنها أَنّهُ جلّ جلاله خَلَقَ في ذَواتهم ما يَقْدِرُون به على تحصيل أرزاقهم، ممّا هيَّأَ لهم في الأرض من نَباتٍ وحَيوان.

أمّا النباتُ فقد هيَّأَ لهم أسبابَهُ بُزُوراً وتُرْبَةً مُنبِتَةً، وشَمْساً تُمِدُّ بالطَّاقَةِ الحرارِيَّة التي لا بُدَّ منها بحَسَب نظام اللّهِ السَّبَبِيّ لظُهورِ النَّباتات ونُمُوّها. ومن هذه الأسْباب الماء، وقد جَعَلَ اللّه عزّ وجلّ للماء في الأرض خَزّاناً عظيماً محفوظاً من التغيُّر بما جَعَلَ فيه من أملاح، إنّه البحار في الأرض، وقد جعل اللّه عزّ وجلّ نظاماً عجيباً دائبَ العمل لِتَحْلِيَة الماء المخزون في البحار المالِحَة حتَّىٰ يكون صالحاً للنّباتِ، وسُقْيا للدوابّ والناس.

هذا النظام قائم على أسباب التّبخُّرِ بالحرارة، والحَمْلِ بالرّياح، والتجميع بالسَّحاب، والسَّوْقِ في جَوّ الأرض بالرّياح، وتَلْقِيح نوياتِ ذَرَّاتِ الماءِ في السَّحاب بوساطة ما تَحْمِلُهُ الرّياح من ذرّاتٍ لقاح.

ويأتي الأمْرُ الرّبّانيُّ بسقْيَا بَلَدٍ ميّتٍ، فيُنْزِلُ اللّهُ الماءَ به، فتَشْرَبُ الأرض والأنعام والناس وكُلُّ ما يَدِبُّ على الأرض من أحياء، فيُخْرِجُ به اللّهُ مِنْ كُلِّ النَّبَاتَاتِ ذَوات الثمرات المختلِفات، بحَسَب ما في الأرض من جُذُورٍ وبُزور، والّتي سقاها اللّه بالماء المحلّىٰ الذي أنزلَه غيثاً من السَّحاب.

وهكذا كان تَدْبيرُ اللّهِ في الأرض بربوبيّته الحكيمة، رِزْقَ الناس وسائِرِ الأحياءِ، ضِمْنَ نظامِه السَّبَبيّ في عالَم الأسْباب والمسبّباتِ، فتباركَ اللّهُ أحْسَنُ الخالقين.

فقول اللّه تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ وفي القراءات الأخرى: [نُشُراً ـ نُشْراً ـ نَشْراً] يتضَمَّنُ لَفْتَ نَظَرِ المتفكّرين إلى آثارِ من آثارِ رُبوبيّة اللّهِ لعباده، وهي إرسال الرّياح لأداء وظيفة من وظائفها، تتعلَّقُ بتَدْبير اللّهِ أرزاقَ العباد، رحمةً بهم.

إنَّ من الملاحظ دواماً أنَّ مِنَ الظَّواهِرِ الكونيّة أنْ تَهبَّ الرِّياحُ، فتَسُوق السَّحَاب، وتُجَمِّعَها، فإذا شَاء اللَّهُ سُقْيا أرْضٍ أغَاثَها بإنْزَالِ الماءِ من السَّحابِ عليها، فأرْواها وأرْوَى أحياءَها.

ودلَّتِ كَلِمَةُ: [يُرْسِلُ] على مَعْنَى التَّوْجيه برِفْق، وعلى مَعْنَى حَمْلِ رسالَةٍ رَبَّانِيَّةٍ فيها بيانٌ وتعليمٌ وحُجَّة، يَفْهَمُ ذلك من يُدْرِكُ دَلَالاتِ الآثارِ على فاعِلِهَا وصِفاته.

• ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾: أي: يُرْسل الرِّياحَ لأجل أن يكونَ قُدومُها برِفْقٍ مُبَشّراً بأنَّ الغَيْثَ من السماء قادِم، وهذه طلائِعُهُ، إذْ تحمِلُ أيادي الرّياح رسالة بُشْرى بمقدم الغيث الذي يسقي به اللّه جلّ جلالُه، وعظُمَتْ حكمتُهُ ورحمته، البِلادَ والعباد.

وعلى قراءات: [نُشُراً ـ نُشْراً ـ نَشْراً]: أي: يُرْسِلُ الرِّياحَ لأجل أن تَنْشُرَ الأشياءَ التي جَعَلَها اللَّهُ أسْباباً لمنافع كثيرة، سَبَقَ بيانُ بعضها، ومِنْها اللّقاحات.

• ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾: أي: قَبْلَ مَجيء آثارِ رَحْمَتِهِ، ورَحْمَةُ اللَّه صِفَةٌ من صِفَاتِهِ جلَّ جلالُه، ومن آثارِها فُيُوضُ عطاءاتِهِ، ومن فيوض عطاءاته أنْ يُنْزِلَ إليهم من السَّماءِ ماءً طَهُوراً نَقِيّاً من الشوائب، هو من أسْباب الحيَاةِ والنَّماء.

• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾: أي: حتَّىٰ إذا حَمَلَتِ الرِّياحُ في الجَوّ سَحاباً ثِقالاً بالماءِ المتبخِّرِ.

السَّحاب: اسْمُ جِنْسٍ جَمْعِيٌّ يُفَرَّقُ بَيْنَهُ وبَيْنَ واحدة بالتاء، فمُفْرَدُهُ سحابَه.

﴿ثِقَالًا﴾: جَمْعُ «ثقيلَة» وقد جاءت وَصْفاً للسَّحاب، أي: حتَّى إذا حَمَلَتِ الرِّياحُ سُحُباً ثقيلَةً، والَّذِي يَجْعَلُ السُّحُبَ ثَقِيلَةً ذرَّاتُ الماء المتجمّعةُ فيها، وكُلَّمَا تقاربَتْ كانَتِ السُّحُبُ أكْثَر ثِقلاً.

● ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾: يتحدَّثُ رَبُّنَا بضمير المتكلم العظيم، أي سُقْنا السَّحَابَ، أعيد الضمير المذكّر على السّحاب، لأنّ لفظ «السَّحَاب» يُذَكَّرُ ويُؤَنَّث، أو سُقْنا المَاءَ الّذي تَحْمِلُهُ السَّحاب، وهذا فيما أرَىٰ أولىٰ. **والبلدُ الميّت**: هي الأرضُ الّتي لا نبات فيها، ولاَ خُضْرَةَ ولاَ نُضْرَة، فهي كالجَسَد الميّت.

● ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾: وهنا يتحدَّثُ رَبُّنا بضمير المتكلّم العظيم أيضاً، إشارةً إلى عظَمَةِ رُبوبِيَّتِهِ في تصاريفهِ الحكيمة رحمةً بالعباد، أي: أنزل اللَّه جلَّ جلالُه بعَظَمَة رُوبِيَّتِهِ بالبَلَدِ الميّتِ الماء من السَّحاب.

● ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: أي: فَأَخْرَجْنا بعَظَمَةِ الرُّبوبِيَّةِ وسُلْطانها، بالماء من كُلِّ الثمراتِ، وهي ثَمَراتُ النباتاتِ المختلفات المُنْتَشِراتِ هي أَوْ جَذُورها أو بُزُورُهَا في الأرض الّتي أنزل بها الماء.

إنّ الماءَ سَبَبٌ من الأسْباب الّتي جَعَلَها اللَّه عزّ وجلّ مادَّةً لإنْباتِ النباتات وإخْرَاجِ الثّمراتِ، في عالَمِ الأسْباب والمسبّبات، واللَّهُ جلَّ جلالُه هو مُنْبِتُ النَّبات، ومُخْرِجُ الثمرات المختلفات.

ونلاحظُ في هذا البيان الرَّبَّانيّ، أنّ إرسالَ الرّياح بُشراً «أو نُشُراً أو نُشْراً أو نَشْراً» بين يَدَي رَحْمَة اللَّه، أمْرٌ يتم بأمْرِ اللَّهِ وخَلْقِهِ، وتوجيه قُدْرَتِهِ، إنْفاذاً لإرادَتِهِ الّتي اقْتَضَتْها حِكْمَتُهُ المُقْتَرِنَةُ بعِلْمِهِ المحيطِ بكلِّ شَيْءٍ، أي: ولَيْسَ مجرَّدَ حركَةٍ سَبَبِيَّةٍ في الكونِ، تَتِمُّ بعِلْمه وإذْنه، بلْ هو أمْرٌ تَتَدَخَّلُ فيه الإرادةُ الرَّبَّانيَّةُ أمراً، وإرسالاً لتحقيق أمْرٍ مقصُودٍ ابتداءً.

ولولا تَدَخُّلُ الإرادة الرَّبَّانيّة الخاصّةِ، لَبَقِيَتِ الرّياحُ ضِمْنَ نظام الإرادة العامّةِ، تتحرّكُ بعِلْم اللَّهِ وإذْنِهِ، ولهذا قال اللَّهُ عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

إنّ قضيَّةَ رِزقِ العباد وتوجِيهِ أَسْبَابِه تتدخَّلُ الإرادة الرَّبَّانيَّة بِقِسْمَتِه بعناية خاصَّةٍ.

ونلاحظ أيضاً أنّ الآية هُنا قد جاء فيها بيان إرسال الرّياح بصيغَةِ الفعل المضارع «يُرْسل» للدلالة على حركة الإرسال المتكرّرة المتجدّدَةِ مع الأزمان، أخذاً من دلالة صيغة الفعل المضارع، ولِلَفْتِ الأنظار إلى ما سَيَحْدُث.

وجاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) استعمال الفعل الماضي في بيان هذا الإرسال، للَفتِ أنظار المتفكّرين إلى هذه الظاهرة من آيات اللّه الكونيّة بَعْدَ وقوعها فِعْلاً، فقال اللّه عزّ وجلّ فيها:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾﴾.

فالنصّان متكامِلاَنِ حَوْلَ مَوْضوعٍ واحد، وقَدْ وُزِّعَتْ أفكارُ الموضوع عليهما، وليسَا بمكَرَّرَيْن.

ونلاحظُ أيضاً أنّ اللّهَ تعالىٰ قال: ﴿سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ ولَمْ يَقُلْ سُقْنَاهُ إلىٰ بلدٍ مَيّتٍ، للإشارة إلى أنَّ السُّحُبَ الّتي تَمُوجُ في سَماء إقليم ضِمْنَ أنظِمَتِهَا السَّبَبِيَّةِ بالعِلْم والإذْنِ الرَّبّاني، قد تتدخّلُ عنايَةُ اللّهِ فَيُرْسِلُ الرِّياحَ، فتَسُوقُ السَّحَابَ الثِّقَالَ بالماء للبَلَدِ المَقْصُودِ بالعِنَايَةِ، وهُوَ بَلَدٌ قَرِيبٌ، فيُنْزِلُ به الماء، وقَدْ لاَ يُنْزِلُهُ في بلَدٍ آخَرَ مُجَاوِرٍ لَهُ، ورُبّما كانت السّحاب الثقال بالماء موجودة فوقه، فاللاّمُ تُسْتَعْمَلُ غالباً للقريب، و«إلى» تُسْتَعْمَلُ غالباً للبعيد.

إنّها قضيّةُ أرزَاقٍ، تتدَخّلُ فيها العناية الخاصّة، والإرادة الرَّبّانيّةُ تدخُّلاً مُباشراً.

البَلَدُ والبَلْدَة: تُطْلَقان على الأرض، سواءٌ احْتَوَتْ على مساكِنَ أمْ لَمْ تَحْتَوِ على مساكِن.

ونلاحظُ أيضاً العطفَ بالفاء الّتي تدلُّ على التَّرْتيب مع التعقيب، في جُمْلَتَي: ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ﴾، ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾.

أمّا الترتيب فظاهر، وأمّا التعقيبُ فَيُوضِحُه سَوْقُ السَّحاب الثقالِ بالماءِ لِبَلَدٍ قريب ميّت متلَهّفٍ للماء، أي: إنَّ العنايَةَ الرَّبَّانيَّة قَدْ تُلَبِّي الحاجَةَ بسُرْعَةٍ دُونَ إبطاء.

أمّا جُمْلَةُ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، فالتَّعْقِيبُ هُنَا يُرَادُ به تَعْقِيبُ تَتَابُعِ الأسباب التي يَحْصُلُ بها الإنبات، ولمّا كانت هٰذِهِ الأسبابُ تأتي تِبَاعاً سبباً بَعْدَ سببٍ دُونَ فراغٍ زَمَنِيٍّ بَيْنَ تَوَالِيها، إذِ الماء يتخلّل التراب، فيَصِلُ إلى البزور، فَيَدْخُلُ فيها شيئاً فَشَيْئاً، وتبقَىٰ الأسباب تعمل دون إبطاء، حتَّى تَنْبُتَ البزور، فتَنْمو فَتتكامل شيئاً فشيئاً، فتَخْرُجُ الثمرات المختلفات، وكُلُّ ذلك يكونُ متتابعاً متواصلاً.

ولما كانَ الأمْرُ الواقع كذلك، كانَ من الدِّقَّةِ البالغة في الأداء البياني استعمال الفاء الدالَّةِ على الترتيب مع التعقيب هنا.

ونلاحظ أيضاً في قول اللّٰهِ تعالىٰ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ قضيَّتَيْنِ:

القضيّة الأولى: ذكر الثمراتِ الّتي هي آخِرُ مَرْحَلَةٍ من مراحل حركة النبات، ليَدُلَّ ذكْرُهُ على المراحل السَّابقة، وهي تُدْرَكُ بالمشاهدَةِ، فلا داعي للتصريح بها.

القضيّة الثانية: دلالَةُ حَرْف «مِنْ» الدّال على التبعيض، أي: فأخْرَجنا به بعضاً من كلّ الثمرات، فدلّ هذا على أنّ بعض البزور أو الجذور لا تنبت بالماء، لعَوارض تعرَّضَتْ لها.

وهكذا ظهرت لنا الدِّقَّةُ التَّامّةُ في الأداء البيانيّ الذي اشتمل عليه هذا النصّ القرآني.

● ﴿.. كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾:

في هذا البيان استفادةٌ من ظاهرة مُتكرّرة الشهود، ليقيس أولو الألباب عليها أمْراً غَيْبِيّاً سَوْف يحدُثُ مستقبلاً، بقضاء اللّٰه وقدره، وقَدْ أنْبَأَ اللّٰهُ به، وجَعَلَهُ عُنصُراً من عناصر أرْكان العقيدة الإسلامية، إنَّهُ نَبأ البعث بعد الموت.

أي: كذلِكَ الإخراج الذي نُخرِجُ به النباتاتِ من بُزُورها، ونوياتها الصُّغْرَىٰ المُنْبثّة في الأرض، سَوْفَ نُخْرِجُ الموتى، فنُحْيِيهم ونَبْعَثُهُمْ من الأرضِ الّتي احتفظت بنَوَياتِ نَشأَتِهِمُ الأُخْرَى، إذْ يُنْزِلُ اللّٰهُ جلَّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطَانُه، على الأَرْضِ ماءً خاصًّاً يَبْعَثُ به الموتى من القبور، فتتنَامَىٰ النَّويَاتِ كما تتنامَىٰ الأشجار من بزورها، وفي نواةِ كلّ ميّتٍ خريطة نَفْسِه وجسَدِهِ، فإذا نَمَا ونُفِخَتْ فيه رُوحُه، رجَعَ كَما كانَ في الحياة الدنيا قَبْلَ الموت، ولكِنْ بظُرُوف حيَاةٍ أُخْرَى، هي حياةُ يوم الدّين.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: أي: أعْلَمْنَاكُمْ بهٰذِهِ الحقيقة راغبين في أن تتفهَّمُوها، وتَحْفَظُوها، وتَتَذَكَّرُوهَا دواماً، فإذا شِئْتُمْ لأنْفُسِكُمْ النَّجاةَ من عذاب النار، والفَوْز بجَنَّاتِ النَّعيم، اتَّبَعْتُمْ ما أُنزِلَ إليكم من ربّكم ودَعَاكُمْ للالتزام به من إيمانٍ وعمل.

كلمة: **لعلّ**: تُسْتَعْمَل للترجّي، وللتعليل، وهي بالنِّسْبَةِ إلى اللّٰهِ جلَّ جلالُه يُلائمُها من المعاني الرّغبةُ، والحبُّ، والرّضىٰ.

فاللّٰه تبارك وتعالىٰ يُحِبُّ لعباده أن يَخْتَارُوا لأنفسهم الإيمان والعملَ الصّالح، ويرغب لهم أن يتذكّرُوا دواماً ما فيه نجاتُهم وسعادتهم، ولا يرضى لعباده الكفرَ، ولا يَرْضَى لعباده الفُسُوق والعصيان، لكنَّهُ لاَ يُجْبِرُهم.

❁ ❁ ❁

● ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

الطيّب من الأرض ما كان خصيباً حسن الإنبات. **والخبيث من الأرض**: ضدّ الطيّب. **والنَكِدُ**: العسِر الشحيح القليل النفع.

هذا بيانٌ استِدْراكي لدفع تَوَهُّمِ أنّ جَوْدَةَ خُرُوجِ النّباتِ في الأرض تَرْجِعُ إلى سَبَبٍ واحِدٍ، هو إنزالُ الماءِ من السَّماء عليها، واختلاطُ هذا الماء بها، إذْ فيه بيانُ سَبَبٍ آخَرَ هو كَوْنُ الأرض أرْضاً طيّبةً صالحةً لخُرُوج النبات الجيّد فيها، فإذا اجتمع السَّبَبانِ معاً، وأذِنَ اللّهُ جلَّ جلالُهُ بتحقيقِ المُسَبَّبِ، وهو خُرُوج النباتِ الجيّد النافع، خَرَجَ نَباتُ الأرض جيّداً نافعاً.

أمّا إذا كانت الأرْضُ أرْضاً خَبِيثَةً غَيْرَ صالِحَةٍ لخُرُوجِ النَّباتِ الجيّد فيها، فإنَّ إنْزالَ الماءِ الطَّهُورِ عليها لا يُغَيِّرُ طَبيعَتَها، فلا يَخْرُجُ نباتُها إذا خَرَجَ إلاّ عَسِراً شَحِيحَ العطاء قليلَ النَّفْع.

ويُعْطِينا اللّهُ عزّ وجلّ بهذا البيانِ قانُوناً من قوانِين سُنَنِ اللّهِ في كَوْنِهِ، وهو أنَّ السَّبَبَ قد يَكُونُ شَرْطاً لازماً لتَحَقُّقِ المُسَبّبِ، ولكنَّهُ شَرْطٌ غَيْرُ كافٍ، بَلْ لاَ بُدَّ مِنْ وُجُودِ سَبَبٍ آخَرَ أو عِدَّةِ أسْبابٍ، حَتَّى يتحقَّقَ المطلُوب، فكُلُّ واحدٍ منها شَرْطٌ لازِمٌ غَيْرُ كافٍ، بل لا بُدَّ من اجتماعِهَا حتَّى يتكوَّنَ مِنهَا جميعاً السَّبَبُ الكامل لِتَحْقِيق النَّتِيجَةِ المطلوبة.

إنّ رُؤيَة السَّببِ النَّاقِصِ قد تَكُونُ رؤيةً خادِعَةً، تُوهِمُ أنَّهُ كافٍ لتحقُّقِ النَّتيجة المطلوبَةِ، فتُوقِعُ أفراداً كثيرين، وجماعاتٍ مُتَعَدِّداتٍ في وَرَطاتٍ مُهْلِكات، أو مُحْبِطاتٍ لأعمالٍ جَلِيلاَتٍ مُضْنِياتٍ.

وفي هذا البيان لفتُ أنظار المتفكّرينَ في آثار صِفَاتِ اللّهِ في واقِعِ حالِ الأرض، وكَيْفَ جَعَلَها اللّه جلّ جلالُه على أقسام، مِنْهَا الطيّب ومنها الخبيث، ولهما دَرجاتٌ ودَرَكَات، فالطيِّبُ منها متفاوتُ الدَّرجات في الطيب، والخبيثُ مِنها مُتَفاوِتُ الدّركات في الخبث.

ولدى تَصْنِيف أنواع الأرض من جِهَةِ صلاحيّتها للإنبات، وجودَتِها أو

رَدَاءَتِها، تتكشَّفُ لنا أنواعٌ مختلفة، يُمْكِنُ وَضْعُها في سُلَّمٍ متعدّدِ المنازل، ذي درجات صاعدات، وذي دركاتٍ نازلات.

فالصاعدات يَشْمَلُها عنوان «أرض طيّبة»، والنازلات يَشْمَلُها عنوان «أرضٌ خبيثَة».

ويَتَسَاءَلُ المتفكّر: لماذَا جعلَ اللَّهُ عزّ وجلّ من الأرض ما هو طيّبٌ حَسَنُ الإنبات، على اختلاف الدّرجاتِ في الطّيبة، وجعلَ منها ما هو خبيثٌ سَيّءُ الإنْباتِ، على اختلاف الدّركات في الخبث؟

وتجيبُ الآية على هذا التساؤل، إذْ جاء فيها قول اللَّه تعالىٰ:

﴿.. كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

أي: كذلكَ التصريف في أقسام الأرض إذْ جَعَلْنَاها أنواعاً مختلفة، نُصَرّفُ في كُلّ الآيات المُنْبَثَّة في الكَوْن، فلا نَجْعَلُ كلَّ آيةٍ من آياتِنا صِنْفاً واحداً.

وهذا مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ في خَلْقِهِ، لكُلِّ ما خَلَقَ مِنْ كَوْنِهِ.

التَّصْرِيف: التّدبيرُ والتوجيهُ والتغيير والتنويع، واتخاذ مختلف الوجوه الممكنة لتحقيق الغاية المقصودة.

الآيات: هي هنا آيات اللَّهِ الكونيّة الدّالاّتُ على طائفة من صفاتِهِ جلّ جلاله، إذ جاءت بياناً لسُنَّة اللَّهِ في كونه بمناسبة الحديث عن أنواع الأرض.

إنّ ظاهرة التنويع في الأشياء ضِمْنَ الجِنْسِ الواحد، ظاهرةٌ مُنْتَشِرة، في كلّ ما نُشَاهِدُ من شيءٍ في هذا الكون الكبير، وفي النَّوْعِ الواحِدِ أصْنَاف، وفي الصنف الواحِدِ مختلفات.

ومَا لا يَصْلُح لأمْرٍ من الأمور يَصْلُح لغيره، وحاجاتُ الأحياء كثيرةٌ على مقدار اختلاف الأجناس والأنواع والأصناف.

إنَّ من الأرض ما هي طيِّبَةٌ لزِراعةِ صِنفٍ من أصْناف النباتات، لكنَّها لَيسَتْ كذلك لزراعةِ صنف آخر.

وإنَّ الأرض السَّبْخَة الّتي لا يَخْرُجُ فيها النَّباتُ إلاَّ خروجاً نَكِداً عَسِراً، قَدْ تَكُونُ صالحةً ذاتَ نَفْعٍ عَظِيم لمصالحَ أخرىٰ يَحْتاجُ إلَيْها الناس، غير حاجَتِهِم لاسْتِنبَاتِ الزُّرُوع، واستخراج الثمار.

فالتنويع في الأرض اختيار في الخَلْقِ اقْتَضَتْهُ حِكْمَةُ مُطابقَةِ المخلوقاتِ المتنوّعَة، للحاجات المتنوّعةِ لدَىٰ الأحياء، ولا سيَّما الناس.

وهذا من نعم اللَّه على عباده، ونِعَمُ اللَّه على العباد تَسْتَوْجِبُ منهم أنْ يَشْكُرُوه، فقال تعالىٰ: ﴿.. كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: مثل ذلك التصريف في أنواع الأرض والتنويع فيها، نُصَرِّفُ ونُنَوِّعُ الآياتِ في كُلِّ أشياء الكونِ، لتكونَ دَالأتٍ على الرَّحْمَةِ بِهِمْ، والعناية بتَهْيِئَةِ مطالبِ حياتهم المختَلِفَة والمتنوّعَة.

أمّا المؤمِنُونَ الّذِين لديهم الاستعداد لشُكْرِ اللَّهِ على نِعَمه، فَهُمُ الّذين يَسْتَفِيدُونَ من ملاحظة هذه الآيات، ويَسْعَوْنَ آناً فآناً لأداء واجب شُكْرِ اللَّهِ على نِعَمِهِ، وفَضْلِهِ على عباده.

● ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾: أي: والأرض الطيِّبةُ الصالحةُ للنَّباتِ، يَخْرُجُ نباتُها خُرُوجاً هيّناً ليِّناً سَوِيّاً صالحاً، ضِمْنَ نظام النَّباتِ السَّوِيّ، وبحَسَبِ اسْتِعْدَادِها في عناصِرِها ومُنَاخِهَا لنَوْعِ النَّبات. وهذا الخروجُ ضِمْنَ قَوَانِينِ اللَّهِ وسُنَنِهِ النابِتَةِ في كَوْنِهِ، إنّما يَخْرُجُ بإذْنِ ربّه، الّذي يُرَبّيه ويُنَمّيهِ ويَرْعَاه، والإذْنُ الرَّبّانيُّ مُقْتَرِنٌ بشُمُولِ عِلْمِ اللَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ.

وهذا يَدُلُّ على أنَّ قوانين الكون الثابتَةَ إنّما تُؤدّي وظائِفَها، وتتَحَقَّقُ بها آثارُها ضِمْنَ حُدُودِ أسْبابها، بإذْنِ اللَّهِ وعِلْمِهِ المُهَيْمِنِ على كُلِّ صغيرٍ وكبيرٍ في الوجود.

• ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾: أي: والبَلَدُ الذي خَبُثَ بالنسبةِ إلى النَّباتِ، لاَ يَخْرُجُ نَباتُهُ إلاَّ خُرُوجاً نَكِداً عسيراً شَحيحاً قليل العَطاء والنفع.

وعلى قِرَاءَةِ [يُخْرِجُ] يكُونُ المَعْنى: لاَ يُخْرِجُ نَباتَهُ إلاَّ إخْراجاً نَكِداً.

وعلى قراءة أبي جعفر [نَكَداً] مصدر «نَكِد» يكون المعنى: لاَ يَخْرُجُ نَباتُهُ إلاَّ خُرُوجاً نَكَداً، على الوصف بالمَصْدَر، أو إلاَّ خُرُوجاً ذا نَكَد.

النَّكِدُ: في اللُّغَةِ هو العَسِرُ الَّذِي لاَ يُطَاوِعُ إلاَّ بِشِدَّةٍ، يُقالُ: نَكِدَ عَيْشُ القوم يَنْكَدُ نَكَداً، أي: اشتدّ، وكان عليهم عسيراً غَيْر يَسِير. ويقال: رجُلٌ نَكِدٌ، أي: عَسِرٌ شَدِيدٌ صَعْب. وقومٌ أَنْكاد ومناكيد.

ويُلاحظُ في هذه الآية الحَذْفُ من أوائِلِها اعتماداً على دلالَةِ أواخِرِها، ففي أوائلها قَوْلُ اللَّهِ تعالىٰ: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ فَلَمْ يُوصَفْ فيه نَباتُ البَلَدِ الطيِّبِ بشيء، لكنَّنا لاحظنا أنَّ الوَصْفَ محذوف مقدّر ذهناً، فهو نبات هيِّنٌ لَيِّنٌ جيّدُ العطاء، بدَليل أنّ البلدَ الخبيثَ يَخْرُجُ نباتُهُ نَكِداً عَسِراً شَدِيداً شَحِيحاً قليلَ النّفع، فدَلَّ وَصْفُ النبات المقابِلِ بالنَّكِد في البَلَدِ الخبيث، على أنَّ نباتَ البلد الطيّب ضِدُّ ذلك.

وإذْ كان التنويعُ والتصريفُ من نعم اللَّه على عباده، في ظاهرات كونه، فإنّنا نَرْغَبُ إلى رَبّنا قائلين: رَبَّنا أوْزِعْنا أنْ نَشْكُرَ نِعَمَكَ الجليلة الكثيرة الّتي أنعَمْتَ بها علَيْنا، إنَّكَ أنْتَ الوهّاب.

وانتهى الدرس الخامس والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته.

❁ ❁ ❁

(١٠)
التدبر التحليلي للدرس السادس من دروس السورة
وهو الآيات من (٥٩ ـ ١٧١)

مقدمة

هذا درس طويل يشتمل على لقطاتٍ مختاراتٍ موجزاتٍ أو مُطَوَّلاتٍ من قِصَصِ سَبْعَةِ رُسُلٍ، وبيانٍ مُجْمَلٍ عن رُسُلٍ لم تُذْكَرْ أسْماؤهم ولم تُذْكَر أسماءُ أقوامهم، وقد جاء بيانُهم وفْقَ الترتيب التالي:

(١) نوح عليه السَّلام وقومه.

(٢) هودٌ عليه السَّلامُ وقومُه.

(٣) صالحٌ عليه السلام وقومُه.

(٤) لوطٌ عليه السَّلام وقومُه.

(٥) شُعَيْبٌ عليه السّلام وقومُه.

(٦) بيَانٌ مُجْمَلٌ عن رُسُلٍ وأقوامِهِم، دون ذكر أسمائهم.

(٧) موسَىٰ وهارُونُ عليهما السلام مع فرعون وقومه، ومع بنى إسرائيل.

ويَحْسُنُ تقسيم هذا الدرس إلى سَبْعَةِ فُصول، يتناول كُلُّ فصل منها واحداً ممَّن سَبَق ذِكْرُهم إلى جانب الأرقام السَّبعة، فهذا أدعَىٰ لحُسْنِ التدبُّر والاستيعاب والحفظ، إذِ التفصيل والتجزئة في الموضوعات، ممّا يساعدُ على ذلِكَ، بحَسَب الطبيعة البشريَّة في كُلِّ القضايا الفكريَّة والعمليّة.

❀ ❀ ❀

الفصل الأول
التدبّر التحليلي للّقطات المختارات
في هذه السورة من قصة نوحٍ عليه السلام وقومه
الآيات من (٥٩ ـ ٦٤)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

القراءات:

(٥٩) • قرأ جمهور القرّاء العَشَرة: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ برفعِ كلمة «غَيْر». وقرأ الكسائي، وأبو جعفر: [غَيْرِهِ] بجَرّ كلمة: «غَيْر».

والقراءتان جاءتا على وَجْهَيْنِ إعرابِيَّيْن جائزين، فالرَّفع على أنّ «غير» صفة للفظ «إلٰهٍ» رُوعِيَ فيه المحلُّ وهو الرَّفع، لأنّ «مِنْ» حرف جرّ زائدٍ للتنصيص على العموم، والجرّ رُوعيَ فيه حَرَكَةُ الجرّ الظاهرة في لفظ «إلٰهٍ».

(٥٩) • قرأ نافعٌ، وابنُ كثير، وأبو عَمرو، وأبو جعفر: ﴿إنِّيَ أخافُ﴾ بفتح ياء المتكلم. وقرأ باقي القرّاء العَشرة: ﴿إنّي أخافُ﴾ بإسكان ياء المتكلّم مع المدّ في الوصل. والقراءتان وجهان لنُطْق ياء المتكلّم في اللّسان العربي.

(٦٢) ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ بفتح الباء وتشديد اللّام. وقرأ أبو عمرو: ﴿أُبْلِغُكُمْ﴾: من فعل «أَبْلَغ المهموز. والقراءتان متكافئتان، فالهمز أخو التضعيف.

تمهيد

هذا هو النصّ الخامس من النصوص الّتي تعرّضَتْ لبيان لقَطَاتٍ من قصة نوح عليه السلام وقصة قومه معه، بحَسَب ترتيب النزول، من أصل ثمانية وعشرين نصّاً موزّعة في ثمانٍ وعشرين سورة.

وقد تدبَّرْتُها مجتمعةً تدبُّراً تكامليّاً، في كتاب مُسْتَقِلٍّ، سمّيته «نوح عليه السلام وقومُهُ في القرآن»، وقد ظهر لي أنَّ هذه النّصوص متكامِلَةٌ فيما بَيْنَها غير مكرَّرَة، من خلال جَداول مفصَّلةٍ جزَّأْتُ فيها العناصر الفكريَّة الّتي اشتملت علَيْها، وقابَلْتُ بَعْضَها بِبَعْض، باسْتثناء مفاتيح الحديثِ عن نوحٍ وقومه، وباستثناء التوجيهات العلاجيَّة الدوائية، الّتي يحْسُنُ فيها التّكْرارُ التربَوِيُّ الوَعْظِي، كالأمْرِ بالاعتبار، والأمْرِ بالتَّقْوىٰ، والحثِّ على التذكّر.

وقد أضاف هذا النّصّ إلى ما سبَقَه من نُصُوصٍ في نجوم التنزيل مُوجَزَ دَعْوَةٍ وحِوَار، بَيْنَ نوحٍ عليه السَّلام وقومه. وأَتْبَع هذا الموجز ببيَان أنّ قومَه كذَّبوا، واسْتَمَرُّوا علىٰ تكذيبهم بآيات اللّه فأُهْلِكُوا بالإغْراقِ، عَقِبَ آخر موقفٍ من مواقفِ عنادِهم وتَكْذِيبهم رسولَ ربّهم، وتكذيبهم بآياته.

أمّا مُدَّةُ الإمْهَال الطويل الّتي أمْهَلَهُمُ اللّه فيها، فقد اعتبرها اللّهُ عزّ وجلّ جزءاً من المدَّةِ المقرَّرةِ لدَعْوَتهم، وحينما انْتَهَتْ جاء عقبها مباشرةً إهلاكُهم بالإغراق، ولهذا جاء العطف بالفاء الدّالّة على الترتيب مع التعقيب، فقال اللّهُ عزّ وجلّ في آخر هذا النّصّ:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

وعرض لقطات من قصة نوح متّصل بالخطّ الرئيسي الّذي سارَت عليه دروس السورة، المبيّن في الآية الثالثة منها، والمتضمّنة أنّه يجب على الناس أن يتّبِعُوا ما أُنزِلَ إليهم من ربّهم، وأنْ لا يتّبِعُوا من دونه أولياء.

التّدبُّر:

● قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾:

● ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾:

اللام من ﴿لَقَدْ﴾ واقعة في جواب قَسَم مَنوِيٍّ، و«قَدْ» حَرْفُ تحقيق مؤكّد لمضمون الجملة. والدّاعي لهذا التأكيدَ أنّ المقصودين الأوّلين بهذا البَيَان هُمُ المكذّبُونَ لرسول الله محمد ﷺ، والمكذّبون بما جاء به من رِسالةٍ يُبَلِّغُها عن رَبّه، فحالهم تستدعي تأكيد وقُوع هذه القصّة، بعبارَة من عبارات التأكيد في لسانِ العرب، إذْ يُشِيرُ مَضْمُونُ هذه القصّة إلى أنّ المكذّبين بما جاء به الرسول محمّدﷺ في عصره، وأمثالُهُمْ من بَعْدِهِمْ عُرْضَةٌ لإنْزَالِ الإهلاك بهم، إذَا أصَرُّوا على التّكذيب، كما أهْلَكَ اللّهُ جلّ جَلالُه وعَظُم سُلْطانه قَوْمَ نُوحٍ من قَبْلُ، فذٰلِكَ من سُنَنِ اللّهِ في عباده.

﴿أَرْسَلْنَا﴾: **الإرسالُ** التّوْجِيهُ لأداءِ مُهِمَّةٍ ما بتُؤَدَةٍ وتَرَفُّقٍ وأناةٍ وتَعَقُّلٍ وحِكْمة. والرَّسُولُ هو الذي يُتابعُ أخبارَ الّذي أرسله. ويَقُومُ بمُهِمَّاتِهِ تِباعاً. وَجاء هنا استعمال ضميرِ المتكلم العظيم، للدّلاَلَة على عِظَم الرّسالة التي حَمَلها نوحٌ عليه السلام لقومه، وعلى عِظَم الحدَثِ الّذي أهلَكَ اللّهُ بهِ قومه، وأنْجَىٰ به نوحاً عليه السّلام والّذين آمَنُوا معه.

نوحٌ عليه السلامُ أوّلُ رسولٍ من أولي العزمِ أرْسَلَهُ اللّهُ للنّاس،

والراجِحُ ظنّاً أنَّ قَوْمَهُ كانُوا يَسْكُنُونَ في شبه الجزيرة العربية، أو في منطقة الشَّرْق الأوسط بوَجْهٍ عامٍّ، واللَّهُ أعلم.

وجاء في هذه الآية تلخيصُ مَضْمُون دَعْوَةِ نوحٍ عليه السلام لقَوْمِهِ بفِقراتٍ ثلاثة:

الفقرَة الأولى: دلّ عليها قولُ اللَّه تعالىٰ: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾، أي: فبَاشَرَ عَقِبَ إرْسالهِ بالقِيَام بمهمّاتِ رسالته، بدليل استعمال حرف العطف «الفاء» الدالّ على الترتيب مع التعقيب.

﴿يَٰقَوْمِ﴾: أصْلُهَا «يا قَوْمِي» حُذِفَتْ ياء المتكلّم وبقيتِ الكَسْرَة على الميم دليلاً عليها، ونظائر هذا الحذف كثيرة، وهو من الوجوه العربيّة الجائزة.

﴿ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾: أي: اعْبُدوا اللَّهَ وَحْدَهُ ولاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، بدليل الفقرة الثانية: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

والأَمْرُ بعبادة اللَّهِ وَحْدَه يَسْتَدْعي سابقاً له، هو الإيمان باللَّهِ وَحْدَهُ رَبّاً خالقاً بِيَدِه كُلُّ شَيْءٍ، وهو على كُلِّ شيءٍ قدير.

فإذَا كانَ القَوْمُ مُؤْمِنِينَ به كذلكَ فالمطلوبُ منهم أن يَعْبُدوه وَحْدَه، ولا يُشْرِكُوا بعبادَتِهِ شيئاً، وهذه العبادة تَشْمَلُ كُلَّ صُنُوفِ الطَّاعَةِ للَّهِ عزّ وجلّ، في كُلّ حَرَكاتِ الحياةِ الظَّاهِرَة والباطنة، على ما جاء به الدّين الّذي اصطفاه اللَّهُ لعباده، في أوامره، ونواهيه، وشرائعه، وأحكامه، ووصَايَاهُ، وعِظَاتِه.

الفقرة الثانية دلَّ عليها قول اللَّه تعالىٰ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾: هذه الجملَةُ تَدُلُّ على نَفْيِ وجود إلٰهٍ يُعْبَدُ بحقٍّ غَيْر اللَّه جلّ جلاله، فَهُوَ وَحْدَهُ في الوجود كُلّه الرَّبُّ الّذي بِيَدِهِ جَلْبُ النَّفْعِ وَدَفْعُ الضُّرِّ عن عباده، وبِيَدِهِ كُلُّ شَيْءٍ.

أمّا الَّذِين من دُونه جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلطانُه، فَلَا يملكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ولا لِغَيْرِهِمْ نفعاً ولا ضرّاً.

وهٰذه الجملة لا تَدُلُّ على نَفْي وُجُودِ أشياء أو أحياء تُعْبَدُ مِنْ دون اللَّه، دون أنْ تكونَ مستحِقَّةً لأنْ تُعْبَد، فقد اتَّخذَ المشركون آلِهَةً من دُونِ اللَّهِ، وعَبَدُوهَا ظُلْماً لحَقِّ اللَّهِ الرَّبِّ الخالِقِ عليهم، مع أنَّ مَعْبُودَاتِهِم لاَ تَمْلِكُ لهم ولاَ لأَنْفُسِهَا نَفْعاً ولا ضرّاً، فهي أسماءٌ سَمَّوْها آلِهَةً وأعْطوها صفات الإلٰه، وهي لا تَمْلِكُ من صفاتِ الإلٰه بحقٍّ شيئاً.

إذَنْ: فدعوة نوح لَهُمْ إلى عبادةِ اللَّهِ وَحْدَهُ نصيحة عظيمة لهم، إن استجابوا لَهَا جَلَبَتْ لَهُمْ سَعَادَة هٰذِهِ الحياة، وما بَعْدَ هٰذِهِ الحياة، ودفَعَتْ عَنْهُمْ عذابَ اللَّهِ الَّذي أعَدَّهُ للكافِرِينَ والمشركين به.

إنَّ مُشْرِكِي الأوَّلين كانُوا يَعْبُدونَ أوْثاناً وقُوىً وَهْمِيَّةً، وأرْواحاً لكَائِناتِ من الإنْسِ والجنّ، وقد يَعْبُدُونَ بشراً أمْثالَهُمْ.

أمَّا مُشْرِكُو أهل حضارتنا المعاصِرَةِ اليوم، فَهُمْ يُقَدِّسُونَ قوانين الطبيعة، ويَجْعَلُونَها شُرَكاءَ للَّهِ الخالقِ إذا كانُوا مُؤْمِنِينَ به، ولا يَرَوْنَها من سُنَنِ اللَّهِ السببيَّةِ الَّتي جَعَلَها هو في كونِهِ، وهُو متىٰ شاءَ خَرَقَها، وعَطَّلَ آثارها.

وشرٌّ من هؤلاء المشركين، كُفَّارٌ مُوغِلُون انحداراً في أودِيَةِ الكُفر، يَجْحَدُونَ وُجُودَ رَبٍّ خالقٍ مُدَبِّرٍ عليم حكيم، يَفْعَلُ ما يَشاءُ ويخْتارُ، وهم المادّيّونَ الحسّيُّون، الَّذِين صارُوا كثيرين في عصرنا الحاضر، ولا سيما الشيوعيّون الذين فتَنَتْهُمْ الماركسيَّةُ بأوْهامِها، وزُخْرُفِ أقوالها الباطلة.

الفقرة الثالثة: دلَّ عليها قول اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾، هذه الجملةُ دَلَّتْ على أنَّ نوحاً عليه السلام قد أخْبَرَهُمْ بنَبَأ البَعْثِ إلى يوم الدِّين، وأخْبَرَهُمْ بما في ذلك اليوم من حسابٍ، وفَصْل

قضاء، وتنفيذ جزاء بالثواب في جنّاتِ النّعيم، أو بالعِقَاب في دار العذابِ المعدَّةِ للكافِرينَ الظَّالِمينَ المكذّبين.

إنَّ نوحاً عليه السَّلام ما كان ليُخْبِرَهم بأنّه يخافُ عليهم عذابَ يومٍ عظيم، ما لَمْ يَكُنْ قَدْ أنبَأَهُمْ بيَوْمِ الدّين، وبما فيه من دارٍ للثواب ودارٍ للعقاب، وأنبأهُمْ بأنَّهُمْ مَدِينُونَ، ومُجازَوْنَ على أعمالهم، بالثواب على الحَسَناتِ، وبالعِقاب على السيّئات، فاللَّهُ رَبُّهم مُنتَقِمٌ جبَّارٌ عَدْلٌ، وهو رَحْمٰنٌ رحيمٌ، وهو ذُو الفَضْلِ العظيم.

وجاء في هذا النَّصّ الاقتصارُ على هذه الفقراتِ الموجزات، لتَدْرِيبِ مُتَدَبِّري آيات القرآن المجيد على استخراج اللّوازمِ الفِكْرِيَّةِ، واسْتِنْبَاطِ المعاني المُسْتَكِنَّة في عُمْقِ النُّصُوصِ القرآنيَّةِ، الّتي تَدُلُّ عليها سَلاَسِلُ لَوازِمِ الأفكار، والدِّلاَلاَتُ الدَّقِيقَاتُ لبَعْضِ المفْرَدَاتِ والصِّيَغِ وتَرَاكيبِ الجُمَلِ.

وما فَهِمْنَاهُ اسْتِنْبَاطاً من هذه الآية، قد دَلَّتْ علَيْهِ نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٌ أخرى، فيها بياناتٌ مُفَصَّلات حول الموضوع نفسه، بالنسبة إلى نوح عليه السلام وقومه.

ونلاحظُ في هذه الآيَةِ أنَّ نوحاً عليه السلام قد أشْعَرَ قومَه ببالغِ رَحْمَتِهِ بهم، وعظيم شفقته عليهم، ومن أجْلِ ذلك يَدْعُوهُم إلى الإيمان باللَّه وَحْدَه ربّاً خالقاً، ويدعُوهم إلى عبادته وَحْدَهُ لا شريكَ له.

﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾: **الخوف**: انفعالٌ في النّفس يَحْدُثُ عند توقّع مَكْرُوهٍ قادِمٍ، أو توقّعِ فَوَاتِ محبوبٍ أو مَرْغوبٍ فيه.

يقال لغة: خافَ من كذا، وخافَ على كذا. ويُقال: خافَ كذا على نفسه، أو غيره.

❁ ❁ ❁

● قول اللّه تعالىٰ:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾:

المَلأُ: هُمْ كُبَرَاءُ القَوْم، ورؤساؤهم، وذَوُو الوجاهَة الّذينَ يَمْلَؤُونَ عُيُونَ العامَّة، ومَلأُ القوم هم اللِّسَانُ الناطق عن أنفسهم وعن عامّتهم، إلاَّ من أعْلَنَ خلاف ذلك.

لقد كانَ هذا رَدَّ مَلإِ قومِ نُوحٍ عليه السَّلامُ، في مقابل دعوته لهم إلى عبادة اللَّه وَحْدَهُ، وشَفَقَتِهِ عليهم من عذاب يوم عظيم، هو يومُ الدّين.

وظاهر أن هذا الرَّدَّ مَشْحُونٌ بالعُنْفِ والغِلاَظَةِ، وفظاظَةِ المُسْتَعْلِين المستكبرين.

● ﴿.. إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾: أي: إنّنا لنَعْتَقِدُ اعْتِقاداً جازماً مُسْتَنِداً إلى رُؤْيَةٍ فِكْرِيَّةٍ قَلْبِيَّةٍ، أنّكَ في ضَلاَلٍ عَنِ الحقّ وضَيَاع، وضَلاَلُكَ هذا مُبِينٌ واضِحٌ لاَ يَحْتَاجُ إلى إقامَةِ دَليلٍ عليه.

تضَمَنَّ هذا الرَّدُّ الْفَظُّ الغَليظُ الخَشِنُ ادّعاءَهُمْ أنَّهُ في ضَلاَل مُبِينٍ واضحٍ، دُونَ تَقْدِيمِ أيّةِ حُجَّةٍ، وأكّدُوا ادّعاءَهُمْ هذا بمؤكّداتٍ دلَّ عليها حرفُ «إنَّ» و«الجملة الإسمية» و«لاَمَ الابتداء المزحلقَةُ للخبر»، ومَضْمُونُ الرُّؤْيَةِ الجماعية، إذْ قالوا مُتَوَاطِئِينَ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾: أي: في داخل ضَلاَلٍ أنتَ مُحَاطٌ به.

﴿مُّبِينٌ﴾: أي: واضحٌ جَلِيٌ لاَ يَحتاجُ إلى إقامَةِ دليلٍ عليه، ولاَ يحتاج إلى كَشْفِ الأسْتَارِ عنه.

وظاهر أنَّ هذا الادّعاء مِنْهُمْ لَيْسَ فيه إلاَّ الشتيمة، ومَعْلُومٌ أنَّ كُلَّ ادّعاءٍ فيه تجريحٌ واتّهامٌ بنقيصةٍ دُونَ حُجَّةٍ أو بُرْهانٍ هو من السِّبابِ والشّتائم.

لقد قابَلُوا دَعْوَتَهُ الرَّفيقة، المغلّفة برَحْمَتِهِ بهم، وشفقته عليهم بالطَّعْنِ والشَّتِيمةِ، على طريقة السُّفهاء المستكبرين في أقوامهم.

❁ ❁ ❁

● قولُ اللّه تعالىٰ:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٦٣﴾:

اشتملت هذه الآياتُ الثلاثُ على بيانِ الإجابات التي أجابَ بها نوحٌ عليه السَّلامُ قومه، مُقابلَ رَفْضِهِمْ دَعْوَته، ومُواجَهَتِهِ بالشتيمة، وقَذْفِهِمْ له بأنّه في ضلال مبين.

وفي هذا البيان إيجازٌ بَدِيع لِستِّ قضايا، بَسَطَها نوحٌ عليه السَّلاَمُ في مقالاته الدَّعَوِيَّة لقومه:

القضيَّة الأولى: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾: أي: يا قوم لَيْسَ بي وَصْفُ ضَلاَلَةٍ ما، لقد شَتَمْتُمُوني بأنّي كالغَرِيقِ في الضلالةِ، وأقولُ لكُمْ في الدّفاع عن نَفْسِي: لَيْسَ بي ضَلاَلَةٌ ما قَلِيلَةٌ أو كثيرة، صغيرةٌ أو كَبِيرَة، فأنَا خالٍ وبَرِيءٌ من أيَّةِ ضلاَلَة.

جوابٌ مُشْبَعٌ بالتَّهْذِيبِ الّذي يتحلّىٰ به الدُّعَاةُ إلى اللّهِ، المُحَاطُونَ بعِنَايَةِ اللّهِ، المُلْتَزِمُونَ بمُقْتَضَيَاتِ الحكمة في الدَّعْوَة.

لقد دفع نُوحٌ عليه السلام الاتّهامَ بالنَّفْيِ فقط، ولم يَرُدَّ على الشتيمة بمِثْلِها، وخاطَبَهُمْ بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، فنَسَبَهُمْ إلى نَفْسِهِ، وأضافَهُمْ إلى ذاته، وأصْلُ التعبير: يا قَوْمِي، بإضافة لفظ قَوْمٍ إلى ياء المتكلّم، كما سبَقَ بيانه.

القضيَّة الثانية: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١﴾: بَعْدَ أنْ نفى نوحٌ عليه السَّلام عن نفسه ما اتَّهَمَهُ قومُهُ به، أبَانَ لَهُمْ أنَّهُ لَمْ يَدْعُهُمْ إلى ما دَعَاهُمْ إلَيْهِ من تِلْقاء نفسه، ولكِنَّهُ مَبْعُوثٌ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ، مُكَلَّفٌ أنْ يُبَلِّغَ رِسالاته، ومأمُور بأنْ يَنْصَحَ لِقَوْمِهِ، فهو مَسْؤُولٌ من قِبَلِهِ عن القيام بوظائف رسالَتِهِ الّتي أرْسَلَهُ بها.

وأبان لقومه في هذا أنَّهُ رسُولٌ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ جَمِيعاً، ولَفْظُ العالمين هنا مرادٌ به ما سِوَى اللَّهِ عزّ وجلّ، فعَلَيْهِمْ أنْ يُصْغُوا إلى مَا يُبَلِّغُهُمْ عَنْ رَبِّهِ، ويَتَفَكَّرُوا فيه، فرَبُّ العَالَمِين هو رَبُّهُمْ الّذي لاَ رَبَّ لهم سواه، وهو مَالِكُهُمْ والمُتَصَرِّفُ بمقادِيرِهم، وكلِّ حركاتهم وسَكَناتهم، وكلّ ما يَزْدادُ فيهم أو يَنقُصُ، وهو المُحْيِي والمُمِيت، والمُمْتَحِنُ والمحاسِبُ والمجازي.

القضية الثالثة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾: أي: أُبَلِّغُكُمْ تِباعاً رِسالات رَبّي، رِسَالَةً فرِسَالَةً، بِحَسَبِ مَا يُنْزِلُ عَلَيَّ، ويُكَلِّفُنِي أنْ أُبَلِّغَكُمْ إيَّاهُ.

دلَّتْ صيغَةُ الجَمْعِ في كلمة ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ على أنَّ تَنْزِيلَ البيانَاتِ الرَّبَّانِيَّةَ عليه، قد كانَ على وَفْقِ سُنَّةِ التَّدرُّجِ نَجماً فَنَجماً، في أزمَانٍ متعدّدة، وكُلُّ بيانٍ منها كان رسالةً مضافةً إلى ما سَبَقَها.

وبَعْدَ أن تجتمع الرّسَالاتُ كُلُّها، ويُكْمِلَ اللَّهُ عزّ وجلّ الدّين لعبادهِ، تَكُونُ جميعُها منضَمَّةً في رِسالةٍ واحِدَةٍ.

فالتَّعَدُّدُ هو باعتبار تنجيم التنزيل في أزمانٍ، والإفرادُ هو باعتبار جمع النجوم وضَمِّها متكامِلَةً في كتابٍ واحِدٍ، هو الرّسالةُ الّتي بَعَثَ اللَّهُ بها رَسُولَه، مضافاً إليه ما أُوحَىٰ به إليه من غَيْرِ الكتاب المُنَزَّل.

وقد جاء مِثْلُ هذا الاستعمال على لِسَان هودٍ عليه السلام، وعلى لسانِ شُعَيْبٍ عليه السَّلام، وقال اللَّهُ عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السلام في سورة (الأعراف) هذه التي نتدبَّر آياتها:

﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

وفي هذه الآية قراءتان بالإفراد وبالجمع، فَرُوعي بِعِبارَة: ﴿بِرِسَالاَتي﴾ نُجُومُ التّنزيل، ورُوعي بعبارة ﴿بِرِسَالَتي﴾ بالإفراد مجموع النجوم.

وأمَرَ اللّه عزّ وجلّ رسُولَهُ محمّداً ﷺ بأن يقول لقَومه ما جاء بيانُه في سورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول):

﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾.

فجاءت عبارَةُ: ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ بالجمع، نظراً إلى نُجُومِ تَنْزِيلِ الوَحْيِ على الرسول ﷺ، وتكليفهِ أن يُبَلِّغَ ما أُوحيَ به إليه للناس.

ومعلوم أنَّ تَبْلِيغَ رِسَالَةِ أوْ رِسَالاَتِ الرَّبّ جلّ جلالُه هو الوظيفة الأولى لكُلّ المُرْسَلِينَ عليهم السَّلام.

وفي إعلان نُوحٍ عليه السلام لقومِهِ أَنَّهُ يُبَلِّغُ رسالاتِ رَبّه تَبرُّءٌ مِنْ أن تكون له عندهم مصلَحَةٌ شخصيَّة.

القضيّة الرابعة: دلَّتْ عليها عِبارة: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾: أي: أُقَدِّمُ لكُمْ ما فيه خَيْرُكُمْ وسعادتكُمْ، خالياً من الزَّيْفِ، وخالصاً من الغشّ، وخالصاً من الشوائب.

يقال لغة: نَصَحَ فلانٌ فُلاناً، ونَصَحَ لَهُ، إذَا وَجَّهَ لَهُ مَشُورَةً، أوْ رَأْياً، أوْ قَدَّمَ لَهُ شَيْئاً أو عملاً ما خالصاً من الغشّ.

والنُّصْحُ في الإيمان: خلوصُهُ من الشّرك. والنُّصْحُ في العمل الديني: خلُوصه من الشرك والرّياء. وهكذا، وأصْلُ النُّصْحِ الخُلُوصُ من الشوائب.

والنُّصْحُ يشمَلُ اسْتِخْدَامَ كُلّ الوسائل الإقناعيَّةِ والتربويّة على اختلاف صُوَرِها وأشكالها الحكيمة.

والنُّصْحُ مظهرٌ من مظاهر الإخلاص للّهِ في الدَّعْوَةِ، ومظهر من مظاهر الرَّحْمَة والشَّفَقَةِ والغَيْرِيَّةِ بحِرْصِ النَّاصِحِ على خَيْرِ المَنْصُوحِ، دُون ملاحظةِ ثوابٍ منه.

والمُرْسَلُون كُلُّهُمْ نَصَحَةٌ لأقوامهم، وكذلِكَ يجب أنْ يكون الدُّعاةُ إلى اللَّهِ، وإلى صراطه المستقيم.

والمفروضُ في المؤمنين أنْ يكون بعضُهُمْ لِبَعْضٍ وادِّينَ نَصَحة.

والدِّينُ الحقُّ الصادقُ هو النصيحة للَّهِ ولِرَسوله، ولأئمّة المسلمين وعامَّتهم.

القضيّة الخامسة: دَلَّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾: أي: ومَا أُبَيِّنُهُ لَكُمْ، وأبلِّغُكُمْ إيّاه، وأنْصَحُكُمْ به، مُسْتَنِدٌ إلى عِلْمٍ يقينيّ علَّمَنِي اللَّهُ إيَّاه، ولَيْسَ مِنْ عندي، فإنّي أعْلَمُ عِلْماً أتاني وَحْياً من اللَّهِ، وهذا العِلْمُ الّذي يأتيني من اللّه لا تَعْلَمُونَهُ بوسائِلِكُمْ، فأنا أُبَلِّغُكُمْ إيَّاه.

وفي هذا رَدٌّ مُهَذَّبٌ على قومه، بالنّسبة إلى اتّهامهم له بأنّه في ضَلَالٍ مبين، بإثبات أنّه يَعْلَمُ حقائقَ آتِيَةً إلَيْهِ من اللَّهِ، لاَ يَسْتَطِيعُونَ أن يَصِلُوا إلى العِلْمِ بها بوسائلهم، وفيه أيضاً توجيه لهم للانتفاع بما يُعَلّمهم من عِلْمٍ لاَ شَكَّ فيه، ولا شائبة تَشُوبُه، لأنَّهُ وَحْيٌ من اللَّهِ جلّ جلاله.

ومن البدهيّ أنَّ العِلْمَ مُباينٌ للضَّلَالِ الّذي يُوَلِّدُهُ، ويَدْفَعُ إليه الجهل، فَلْيَكُفُّوا عن اتّهامه بأنَّهُ في ضلالٍ مُبِينٍ، ولْيَتَفَكَّرُوا بما جاءهم به عن رَبّه، من حقائقِ تَقْبَلُها العقولُ وتُسَلِّمُ بها، ولا تجدُ فيها بَاطِلاً وَلاَ شَكّاً.

وجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بعض تفصيلٍ لهذه القضيّة بقول اللَّه عزّ وجلّ فيها حكايةً لمقالة نوحٍ عليه السلام لقومه:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾؟!

أي: أفكّرْتُمْ في احْتِمَالِ أنّي على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبّي تَشْهَدُ لي بأنّي صادِقٌ فيما أُبلّغ عنه؟! فكِّرُوا وأخْبِرُوني.

﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾: أي: إنْ كُنتُ متمكّناً مِنْ حُجَّةٍ قاطعة بَيِّنَةٍ آتيكُمْ بها مِنْ رَبِّي، كمُعْجزَةٍ بَاهِرَةٍ، أو براهينَ آسِرَةٍ مُحَاصِرَة.

﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾: أي: وآتاني مع هذه البَيِّنَةِ رَحْمَةً لَكُمْ مِنْ عِنْدِهِ، هي الدّين، وما فيهِ من تعليماتٍ وبياناتٍ ووصَايَا تتضمَّنُ نجاتكُمْ من عذاب اللّهِ، وسعادتكُمْ في دار كرامَتِهِ.

أي: أفكَّرتُمْ في مَضمُونِ رِسالاَتِ رَبِّي الّتي جئتُكُمْ بها، والّتي هي رَحْمَةٌ عظيمةٌ لكم؟ فكِّرُوا وأخبِرُوني.

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾: أي: فَأُخْفِيَتْ عليكُمْ، والْتَبَسَ عليكم أمْرُها.

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾: أي: أنُكْرِهُكُمْ على الْتِزَامِ هٰذه الرَّحْمَةِ العظيمة، الّتي هي دينُ اللّه الذي اصطفاه لكُمْ، والحالُ أنَّكُمْ كارِهُونَ قبولها والالتزامَ بما جاء فيها؟!

استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: لاَ نُلْزِمُكُمْ إيَّاها، ولا نُجْبِرُكُمْ عليها، إذْ أنْتُمْ في رِحْلَةِ امتحانٍ وابتلاء، عن طريق اختياراتكُمُ الحرَّة، والإكْرَاهُ لا يُعْقَلُ في الدّين، القائم على الإيمان الّذي هو في جَذْرِهِ اختيارٌ إراديٌّ قَلْبِيٌّ، ذو آثارٍ في السُّلُوكِ الظَّاهِرِ.

القضيَّة السادسة: دلَّتْ عليها آيَةُ: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

في هذه الآيَةِ تلخيصٌ غايَةٌ في الإتْقانِ البيانيّ والإيجاز، مع ما فيه من إبداعاتٍ بلاغيَّة.

لَمْ يَقُلْ نُوحٌ عليه السّلام: إنَّ رَفْضَكُمْ لِرسالَتي لاَ سنَدَ له من موازين الفكر ومحاكماته، بَلْ هُوَ تعجُّبٌ قائمٌ على إنْكار ما لم تألَفُوا.

إنَّما عَرَضَ هذا المعنى نَفْسَه مغلَّفاً بصيغة استفهام، فقال لَهُمْ: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾؟!

ودلّنا حَرْفُ العطف بعد همزة الاستفهام في هٰذه العبارة، على أنَّهُ يُوجَدُ مَعْطُوفٌ علَيْهِ مُقَدَّرٌ ذِهْناً بَيْنَ الاستفهام وحَرْفِ العطف (الواو) ومن السَّهْلِ على المتدبّر أنْ يُدْرِكَ هذا المحذوفَ المقدّر[1].

إنَّهُمْ كَرِهُوا تَرْكَ ما هُمْ عليه، واتّباعَ ما جاءهم به نوحٌ عليه السلام، وتعلَّلُوا لإنكار رسَالَتِهِ بإظهار التعجُّب من أنْ يَبْعَثَ اللَّهُ بشراً رسولاً.

ولمَّا طَوَوْا في أنفُسِهِم مَا كَرِهُوا مِمَّا يخالِفُ أهواءَهم، وهو ماثِلٌ في أذْهانِهِمْ وفي قُلُوبهم، لَمْ يَذْكُرْهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ في اللَّفْظِ، لكِنْ أشارَ إليه بحَرْف العطف «الواو»، فأظْهَرَ ما أظْهَرُوا، وقَدَّرَ ما أبْطَنُوا، مُكْتَفِياً بالإشارة الخفيَّةِ إلَيْهِ، وكانَ ذٰلِكَ بذِكْرِ حَرْف العطف على معطوفٍ عليه مقدّر ذهناً.

ولدى إظهار هذا المقدّر ذهناً أقول: أكَرِهْتُمْ تَرْكَ ما أنْتُمْ عَلَيْهِ، وَاتِّبَاعَ ما جِئْتُكُمْ به، وعَجِبْتُمْ أنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ من ربّكُمْ على رجُلٍ منكم؟!!

أمَّا المتعجَّبُ منهُ فقضيَّتان:

القضيَّةُ الأولى: أنْ يَأْتِيَهُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّهِمْ.

القضيّة الثانية: أنْ يَنْزِلَ هذا الذِّكْرُ على رجُلٍ بشَرٍ مِنْهُمْ، ويكون هذا الرَّجُلُ رَسُولاً للَّهِ يُبَلِّغُ قومَهُ الذّكْرَ الّذي أنزلَهُ اللَّهُ عليه، ليُبَلِّغَهُ لقومه.

إنّ نُوحاً عليه السَّلام لم يَطْرَحْ في هذا البيانِ قضيَّة نُبُوَّتِهِ ورِسالَتِهِ، بل طَرَحَ قضيَّة الذِّكْرِ الّذي جاءهُمْ به من ربّهم، ليكون هذا الذِّكْرُ ساحَةً فكرِيَّةً مَعْرُوضةً للمناظرة والمجادلة حول عناصرِها.

ولمَّا كان الذِّكْرُ الّذي يَبْعَثُ اللَّهُ عزّ وجلّ به رُسُلَهُ مُشْتَمِلاً على قضايا

---

(١) لدى تدبّري لكثير من النصوص القرآنية تكشَّفَ لي أنّ العطف على محذوف مقدّرٍ ذهناً لا يقتصر على ما يسمّيه النحاة «الفاءَ الفصيحة» بل كلُّ حُروف العطف قابلةٌ لأنْ تكونَ فصيحة تُفْصِحُ عن معطوف عليه محذوف، والواو هنا من هذا القبيل.

حقٌّ، وهٰذِهِ القضايا تُقَامُ عَلَيْها الأدلَّة البرهانيّة، والأدلَّةُ الإقناعيَّة، كانَ البدْءُ بطَرْحِ قضيَّةِ الذِّكْرِ وما جاء فيه مِنْ حقائق هو الأسْلُوب الأجْدَى للإقْنَاعِ، أو للإلْزَامِ والإفْحَام.

فالرُّبُوبيَّة وتَوحِيدُها، والإلٰهيَّةُ وتَوْحِيدُها، وصفاتُ اللَّه جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه، الّتي منها عِلْمُهُ، وحِكْمَتُهُ، وقَضَاؤُهُ وقَدَرُهُ، وقُدْرَتُهُ على كُلِّ شَيْءٍ، وخَلْقُهُ لكُلِّ شَيْءٍ، وعنايتُهُ بعباده، ورَحْمَتُهُ وعَدْلُه، كُلُّهَا أُمُورٌ مَعَهَا أدِلَّتُها العَقليَّة البرهانيّة، وتَشْهَدُ لها ظواهر الكون، ومُجْرَيَاتُ الأحداث.

ومتَى ظهر لهم أنَّ ما يَدْعُوهُمْ إلَيْهِ حَقٌّ لاَ رَيْبَ فيه، ولا شَائِبَةَ تَشُوبُه، كان أمْرُ إثباتِ نُبُوَّتِهِ ورِسَالَتِهِ، وإثْبَاتِ أنَّهُ يُبَلِّغُ هذا الذِّكْر عن رَبِّهِ، وإثباتِ أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ يُوحِي به إلَيْهِ، أمْراً سَهْلاً سَبَقَ التّمهيدُ الفكريُّ له.

ونستفيد من هذا أنّ البَدْءَ بالإقناعِ حوْلَ مضمون القاعدة الإيمانيّة، بالنسبة إلى قومٍ ليس لهم عَهْدٌ قَرِيبٌ بالأنبياء والمرسلين هو الأمْرُ الحكيم.

وهذا هو الذي اتَّخَذَهُ نوح عليه السلام في مجادلَتِهِ لقومه، بمقتضى هذا النصّ.

والمرادُ بالذِّكْرِ البيانات الرّبّانيّة الّتي كان يُنَزِّلُها اللَّهُ عزّ وجلّ على نوحٍ عليه السّلام، بألْفَاظٍ تُتْلَى وتُفْهَمُ وتحفظ، كسائر الصُّحُفِ والكُتُبِ الرَّبَّانيَّة المنزَّلة على بعض المُرْسَلين.

وقد جاءت تسمِيَةُ هٰذه البيانات الرَّبَّانيَّة ذِكْراً لأمْرَيْنِ:

الأمْرُ الأول: أنّ بعض عناصر رِسالاَتِ المُرْسَلِينَ هيَ من الحقائقِ المَغْرُوزةِ في عقولِ الناسِ ونفوسهم وضَمَائِرِهِم، فهيَ لاَ تَحْتاجُ أكثر مِنْ كَشْفٍ لَها، وتذكيرٍ بها.

الأمْر الثاني: وهذا هو الأهم، أنَّ كُلَّ عناصِرِ رِسَالاَتِ المُرْسَلِينَ حقائق وتعليماتٌ رَبَّانِيَّةٌ، يُطْلَبُ من المكلّفين أن يتعَلَّمُوهَا، وأنْ يَتَفَهَّمُوهَا، ثُمَّ يُطْلَبُ مِنهُمْ أنْ يَتَعَهَّدُوها بالتَّذَكُّرِ حيناً فحيناً، على مدَىٰ الأيّام والسنين، وعِنْدَ كُلّ عَمَلٍ يقتضي شيئاً منها، وعِنْدَ كلّ عارِضَة، تَسْتَدْعِي شيئاً منها، لتكون القاعدة الإيمانية حاضِرَةً في الذّاكرة، فتَدْفَعَ المؤمنينَ بها إلى طاعَةِ اللَّهِ، والْتِزَامِ شريعته، ولتكونَ أحْكامُها ووَصَايَاها برامِجَ مَاثِلَةً في الذّاكرة، ونوراً مبيناً يَهْتَدِي به السَّالِكُونَ في ظُلُماتِ الأهواء والشهوات، ووساوس الشَّيَاطِينِ، وتَسْوِيلاَتِهِم، وتضليلاَتِ المضلّين، ولِيَسْتَرْشِدَ بها مُقْتَحِمُوا عقَباتِ النُّفُوس والأهواء ومصاعِب الحياة، وما فيها من صنوفِ ابتلاءٍ بالخيرِ والشّرّ، والنَّفْعِ والضُّرّ، وكلّ ما فيه فتنةٌ لاختبار الصَّبْرِ واختبار الشّكر.

وطوى البيان في هذا النصّ عناصر المجادلة الإقناعية، والإلزامية والإفحاميَّة، حول القضيَّتَيْن اللَّتَيْن تعجَّبَ قومُ نوحٍ منهما، وقد سبَق بيانهما بتفصيل.

• ﴿ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ اشتملت هذه العبارة على بيان الغاية من إنْزَالِ الذِّكْرِ على نوحٍ عليه السّلام، وهي تتلَخَّصُ بثلاثة عناصر:

العنْصُر الأول: دلَّت عليه جملة: ﴿ لِيُنذِرَكُمْ ﴾: أي: لِيُنْذِرَكُمْ بعقاب اللَّهِ المعجَّل والمؤجّل إذا لم تُؤْمِنُوا ولم تتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إليكم من ربّكُمْ.

الإنْذَار: الإعلامُ بما هُوَ مَخُوفٌ مِنْهُ، والتحذيرُ من مخوفٍ منه ماديٍّ أو معنويّ، والإخبارُ بعواقِبِ غير سارَّةٍ، أو بعواقب مؤلمة، كَشَرٍّ قادمٍ، أو عقوبةٍ على مكتَسَبٍ إرادي، من قولٍ أو عمل أو اعتقاد.

ولا يكُونُ الإنْذَارُ في قَضَايَا الدّين إلاَّ بعدَ البيان التعليميّ، واتّخَاذِ الوسَائِلِ الإقْناعيَّة، ولا يكون أيضاً إلاَّ مصحوباً بالتّبشير بالعواقب السَّارَّة السعِيدَةِ لمَنْ آمَنَ وأطاع.

هذا العُنْصر لوحظ فيه المذَكّرُ، وهو الرّسُولُ وما أُنْزِلَ عَلَيْهِ من ذِكْرٍ.

العُنْصر الثاني دلَّتْ عليه جملة: ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾: أي ولْتُذْرِكُوا خطر عقابِ اللَّهِ الشديد، فتجِدُوا في أنْفُسِكُمْ دافعاً لأن تَتَّقُوهُ، بالإيمان وبالعمل الصالح الرَّشيد، النَّاشِئَين، عن اختياركم الحرّ، إذا اخترتُمْ لأنفسكُمْ النّجاةَ عند ربّكم من عذابه، والظَّفَر بجنَّتِهِ يَوْمَ الدّين.

وهذا العُنْصر لوحظ فيه المتَلَقُّون، بَعْدَ تَلَقِّيهِمُ الذِّكْرَ المنزَّلَ من رَبِّهم على رسُوله، ليُبَلِّغَهُمْ إيَّاهُ.

واللاّم في عبارة ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾ إمَّا أن تكون للدَّلاَلَة على الطَّلَب، أي: وليُطْلَبَ فيه منكم أن تتّقوا، وإما أن تكون لتعليل توجيه الأوامر والنواهي التي من عمل بها وقى نفسه.

التَّقْوَى: أنْ تجعلَ بَيْنَك وبَيْنَ ما تَحْذَرُ وِقايَةً حافظةً، من أذىً أو عقوبة، أي: شيئاً يقي ويَحْمِي، ويحفظ.

تقول لغة: اتَّقَيْتُ اتِّقاءً، وتَوَقَّيْتُ تَوَقِّياً، وتُقىً، وتَقِيَّة، وتِقَاءً، أي: جعَلْتَ بَيْنَكَ وبين ما فيه شرٌّ أو ضُرٌّ ما يقيكَ ويحفَظُكَ.

والاسم: «**التَّقْوَىٰ**». والتقوىٰ في السُّلُوكِ الدّيني تكُونُ بفِعْلِ الواجبات وتَرْكِ المحرَّمات، أمَّا التوسُّعُ فوق ذلك من الخيرات والصالحات فهو من مرتبة البرّ، وأمّا إحْسَانُ العَمَلِ وتجويدُه ظاهراً وباطناً، مع الإخلاص للَّهِ وكمال مراقبتِهِ، فهو من مَرْتَبَةُ الإحْسَان.

العُنْصر الثالث: دَلَّتْ عَلَيْه جُمْلَةُ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أي: وليَتَحَقَّقَ رَجَاؤُكُمْ بالظَّفر برحْمَةِ اللَّهِ، فَيُدْخِلَكُمْ جنَّاتِ النَّعِيمِ، يَوْمَ الدِّين، إذا اتَّقَيْتُمْ فآمَنْتُمْ وأطَعْتُمْ.

وهذا العُنْصرُ لُوحظ فيه المتلقُّون بَعْدَ التأثُّر بمَضْمُونِ الذِّكْرِ المنزَّلِ من رَبِّهِمْ على رسُوله، والإيمان به، وتوجيه الإرادة للعَمَل بمُقْتضاه.

وطُوِيَ من النصّ ما يَدُلُّ على أن الرَّسُولَ والذِّكْرَ مُبَشِّرانِ بالثواب الجزيل في جنّاتِ النعيم، لِمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالحاً، اكْتِفاءً بإشارَةِ عبارة: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أي: ولِيُبَشِّرَكم، ولعلَّكُمْ تَسْتَجِيبُون، فتُؤْمِنُوا، وتُطِيعُوا، فتُرْحَمُوا بدُخُولِ جنَّاتِ النعيم يوم الدّين، واكتفاءً بالدَّليل الفِكريّ الَّذي يَعْقِدُ اقتراناً دائماً بَيْنَ الجزاء بالثواب، والجزاء بالعقاب، وهو ما جاء مُصَرَّحاً به في أكْثَرِ النُّصُوصِ.

❀ ❀ ❀

● قول اللّهِ تعالىٰ:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

● ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: أي: فكَذَّبَهُ الجمهُورُ الأعْظَمُ من قومِهِ، وكان هذا التَّكْذِيب عَقِبَ كُلّ الإقناعاتِ والجدليَّاتِ، ومُخْتَلِفِ وسائل العلاجات التربويَّة الحكيمة، ومنها الترغيبُ والترهيبُ، وعقب الصَّبْرِ الطويل جداً الذي تحمَّلَهُ عليه السَّلاَمُ من أجلهم، رحمةً بهم، وشفقةً عليهم، وحرصاً على نَجاتِهم وسَعَادتهم.

وفي عبارة: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ إيجازٌ لكُلِّ مَا كان منهم تُجاهَهُ وتُجاهَ رِسالَةِ رَبِّهِ الَّتي بَلَّغَهُمْ إيَّاها، وقد جاء بعض تفصيل له في النُّصوصِ القرآنيَّة الأخرىٰ الّتي أنْزِلَتْ بشأن نوحٍ عليه السَّلام وقومه.

إنَّ قوماً كذَّبُوا رَسُولَهُمْ، وهُمْ ذَوُو قُوَّةٍ ومَنَعَةٍ، واسْتَمَرُّوا على تَكْذِيبِهِمْ أحْقاباً عَدِيدَةً عامَلَهُم اللَّهُ فيها بالإمْهَالِ، نظراً إلى أحوالهم البدائيَّة، وإلى أنَّهُمْ أوَّلُ أُمَّةٍ سَتُهْلَكُ بسبَبِ كُفرِهِمْ، وتَكْذِيبهم رَسُولَ رَبّهم، وتهديدِهم إيَّاهُ بالرَّجْمِ، لاَ بُدَّ أنْ تكونَ مِنْهُمْ أُمورٌ كثيرة من إيذاءٍ للرَّسُولِ ومَنْ آمَنَ به من قومه. ومُقاوَمَةٍ لدَعْوَتِهِ، وإصرارٍ على الظُّلْمِ والطُّغيان، والفِسْقِ والفُجورِ والعُدْوَان.

• ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾:

أي: فأنجَيْنا نُوحاً والَّذِينَ آمَنُوا مَعه، من الغرق ومِنْ مكايدِ قومِهِ المكذّبين، وكانَتْ نجاتُهم بالحَدثِ العظيم، الّذي تمَّ به إرْسالُ الطوفان الشامل، وإركابُ نُوحٍ والَّذينَ مَعَهُ في الفُلْك، وإغراقُ الَّذِينَ كذَّبُوا بآياتِ اللَّه، ولَمْ يَتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إليهم رَبُّهُمْ فيها.

الفُلْك: مركب البحر، يطلق على الواحد والاثنين والجمع، ويُذكّر ويؤنّث.

وفي هذا إيجازٌ للحدَثِ الأخير من قصَّةِ نوحٍ مع قومه، تضمَّن إلماحاً للطوفان العامّ، الّذي أغْرَقَ اللَّهُ به المكذِّبين، وإلماحاً للأحداث الّتي نتجَ عَنْهَا رُكُوبُ نوحٍ ومَنْ مَعَهُ وَما مَعَهُ في الفُلْكِ، وجَرْيُهَا بعِنَايَةِ اللَّهِ وحفظه، حتَّى مُسْتَقَرِّ النجاة.

• ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

في هٰذه الجملَةِ بيانُ الصِّفَةِ الدَّائمة الّتي سبَّبَتْ لقَوْمِ نُوحٍ التَّكذيب والعنادَ والعُدْوانَ، والإصْرارَ على الكُفرِ والظُّلْم والطغيان، حتَّى الإهلاك الشامل بالطوفان.

﴿عَمِينَ﴾: جَمْع «عَم» بمعنى «أعْمَىٰ»، أي: هُمْ عَمُونَ عَنْ رُؤْيَةِ الحقّ، والاهْتِدَاءِ بآيَاتِهِ ودلائله، وعَنْ رُؤْيَةِ أنْوَارِهَا البيانِيَّةِ والفِكْرِيَّة والوجْدانيَّة.

إنّ العَمَىٰ أنواعٌ، فَمِنْهُ ما هُوَ في البَصر الظّاهر، ومنه ما هُوَ في القلُوب والبصائر، وكذٰلِكَ كانَ قومُ نوحٍ عليه السلام.

❁ ❁ ❁

الفصل الثاني
التدبُّر التحليلي للقطاتِ المختارات
في هذه السورة من قصة هود عليه السلام وقومه
الآيات من (٦٥ ـ ٧٢)

قال اللّه عزّ وجلّ:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)﴾.

القراءات:

(٦٥) ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ برفع كلمة «غَيْر». وقرأ الكسائي، وأبو جعفر: ﴿غَيْرِهِ﴾ بجرّ كلمة «غَيْر».

والقراءتان جاءتا على وجْهَيْنِ إعرابيَّيْن جائزين، فالرفع على أن «غير» صفة للفظ «إلٰه» روعي فيه المحلّ وهو الرفع، لأنّ «مِنْ» حرف جرٍّ زائد للتنصيص على العموم، والجرّ روعي فيه حركة الجرّ الظاهرة في لفظ «إلٰه».

(٦٨) ● قرأ جُمهور القرّاء العشرة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ بفتح الباء وتشديد اللّام من فعل: «بلّغَ». وقرأ أبو عَمْرو: ﴿أُبْلِغُكُمْ﴾ من فِعْلِ «أَبْلَغَ» المهموز.

والقراءتان متكافئتان، فالهمز أخو التضعيف.

(٦٩) ● قرأ ﴿بَسْطَةً﴾ بالسّين، قُنبُل، وأبو عمرو، وهشام، وحفصٌ، وخَلَفٌ عن حمزة، ورُويس، وإحدى روايتين عن خلّاد، وخَلَف عن نفسه.

وقرأ: ﴿بَصْطَةً﴾ بالصاد، باقي القرّاء العشرة، وهي الوجه الثاني لخلّاد.

وهما وجهان عربيّان في النُّطق.

(٧٠) ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ بالهمزة بعدَ الجيم.

وقرأ السُّوسِي، وأبو جعفر في الوقف والوصل، وحَمْزَة في الوقف: ﴿أَجِيتَنَا﴾ بإبْدال الهمزة ياءً.

والقراءتان وَجْهان عربيّان في النّطق.

(٧٠) ● قرأ جمهور القرّاء العشرة: ﴿فَأْتِنَا﴾ بهمزة ساكنة بعد الفاء.

وقرأ ورْشٌ، والسُّوسي، وأبو جعفر في الوقف والوصل، وحمزة في الوقف: ﴿فَاتِنَا﴾ بألِفٍ مَدِّيّة بَعْدَ الفاء.

والقراءتان وجهان عَرَبيان في النّطق.

تمهيد

هذا هو النّصّ السّادس بحسب ترتيب النزول، من النصوص المتعلّقة بهُودٍ عليه السَّلَامُ، وقومه «عَاد» من أصْلِ «١٩» نصّاً عَرَضَتْ لقطاتٍ مُوَزّعاتٍ على (١٩) سورة.

وقد سبقَ تدبُّر النصوص الخمسة الأولى، لدى تدبُّر السُّور التالية: «الفجر ـ النجم ـ ق ـ القمر ـ ص».

عَادٌ قومٌ من العرب كانت مساكِنُهُمْ في أرْضِ «الأحقاف» من جنوب شبه الجزيرة العربيّة، وهي تقع في شمال «حضرموت»، ويقعُ في شمَالِ «الأحقاف» ما يُسمَّى «الرّبع الخالي» وفي شرقها «عُمَان» وموضِعُ بلادهم اليوم رِمَالٌ قاحِلَةٌ لاَ أنيس فيها ولا ديَّار.

وقد أرْسَل اللَّهُ إليهم رسُولاً مِنهُمْ هو «هُودٌ» عليه السلام بْنُ عبد اللَّه بن ربَاح بْنِ الخُلود بن «عَادٍ» جدِّ هؤلاء القوم، على ما يذكُر أهْلُ التاريخ، وينتهي نسَبُهُمْ إلى «سام» بن «نوح» عليه السلام.

وتُعْتَبر «عادٌ» من العرَب البائِدَة، باستثناء الَّذِين آمَنُوا مِنْهُمْ، وأنجاهم اللَّه عزّ وجلّ مع رسُولهم من الهلاك الشامل الذي نَزَل بكُفّار قومِهِمْ.

وكان هؤلاء القومُ أشدّاءَ أقوياء ممَّنْ زادَهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ بَسْطَةً في الخَلْقِ، وَكانُوا مُتْرَفين في الحياة الدنيا بالنّسْبة إلى أهل زمانهم، فَقَدْ أَمَدَّهُمُ اللَّه جلَّتْ حِكْمَتُهُ بأنْعَام وبنين، وجنَّاتٍ وعُيُونٍ، وألْهَمَهُمْ أنْ يتَّخِذُوا مصَانِعَ لجَمْعِ المياه فيها، وأنْ يَبْنُوا قُصُوراً شامخةً، إلى غَيْرِ ذلِكَ مِنْ وسَائِلِ التّرَفِ بحسَبِ أزْمَانِهِمْ، وضِمْنَ حُدُودِ تقَدُّمِ الناس الحضاريّ حينئذٍ.

وكانُوا أهْلَ بَطْشٍ، فإذا بَطَشُوا بَطَشُوا جبَّارين، وكانُوا أصْحَابَ آلِهَةٍ من الأوثانِ يَعْبُدُونَها مِنْ دونِ اللَّهِ.

وعن ابنِ إسحاق أنّ أصْنامَهُمْ «صَدَاء ـ وصَمُود ـ والهَباء» كما رَوَى الطَّبَري.

وكانُوا يُنْكِرُونَ الدارَ الآخِرة، والبعث للحساب وفَصْل القضاء وتحقيق الجزاء، كما أخبر اللَّهُ عزّ وجلّ عنهم، وكانوا يقولون مَا أبانه اللَّه تعالىٰ عنهم في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

ومع الخطّ الرئيسي الذي سارت عليه دروس السُّورة بوجْهٍ عامٍّ، والمبيّن في الآية الثالثة منها، وهي قول اللّه عزّ وجلّ:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

عَرَضَ اللّهُ عزَّ وجلَّ لقَطَاتٍ من قصّة «عَادٍ» ورَسُولِهِمْ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلام، مبيّناً تَبارَكَ وتعالىٰ أنَّ إهْلاَكَهُمْ الشَّامِلَ قد كانَ بسبب تكذيبهم بآياتِ رَبّهم، وعَدَمِ اتّباعهم ما أنْزَلَ اللّه إليهم، دَلَّ على هذا قولُ اللّه عزّ وجلّ في آخِرِ النّصّ

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

أي: كذَّبُوا بآياتِنا الكونيّة، وآياتنا الإعجازيّة، وآياتنا البيانيّة المنزَّلة، ولم يتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إليهم من رَبّهم، فأهْلَكْنَاهُمْ إهلاكاً جماعيّاً عامّاً شاملاً، إذْ صاروا مادّة فسادٍ وإفسادٍ في الأرْضِ، ومَا كانُوا مستعدّين لأنْ يُؤْمِنُوا مستقبلاً، فاقتضَتْ الحكمة إهلاكهم وقَطْعَ دابِرِهِمْ.

التدبّر:

● قول اللّه تعالىٰ:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾: أي: ولَقَدْ أرْسَلْنا إلى قبيلةِ «عادٍ» أو القوم المعروفين باسم «عاد» الرَّسُول النَّبيَّ «هوداً» وقد كان منهم نسباً ولُغَةً ومَوْطِناً.

ودَلَّ على أنّهُ عليه السَّلامُ مِنهُمْ، قَوْلُ اللّه تعالىٰ: ﴿أَخَاهُمْ﴾، فالأَصْلُ أن يُطْلَقَ هذا التعبيرُ على من كان من القوم، وقد يُطْلَقُ على من انْدَمَجَ في القوم من غيرهم، كأنْ تَزَوَّجَ مِنْهُمْ، مثل لُوطٍ عليه السّلام، فقد

كان من قَوْمِهِ بالمصاهرة، لا بالنَّسَبِ، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ بشأنِهِ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾؟

● قول اللّه تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾؟.

مقَالةُ هودٍ عليه السّلَام هذِهِ لقومه، تُشْبِهُ مقالةَ نُوحٍ عليه السَّلام لقومه، إلاَّ أنّ نوحاً قال لقومه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾، بعد أنْ أمَرَهم بعبادة اللّه وحده.

أمّا هُودٌ عليه السلام فقد قال لقومه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾؟؟.

إنَّ عبارة نوحٍ عليه السّلام فيها إشعارٌ صَرِيح لهم بشفقته عليهم، وخَوْفِهِ من أنْ يُعَرِّضُوا أنفُسَهُمْ بسَبَبِ كُفرِهِمْ وعَدَمِ اتباعهم ما أُنزِلَ إليهم من ربّهم، لعذاب يوم عظيم، هو يوم الدّين.

أمّا عبارَةُ هُودٍ عليه السلام ففيها تَلَطُّفٌ بالعَرْضِ، ولم يُشْعِرْهُمْ بصريح العبارة بشفقَتِهِ عليهم، وخَوْفِه عليهم من عذاب اللّه يوم الدّين، لكِنَّ مضمون طلَب «أن يتّقُوا» فيه معنى رِغْبَتِهِ في نجاتهم، وخوفه عليهم من عذابِ اللّهِ.

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾: أي: يا قَوْمِي اعْبُدُوا اللّهَ وَحْدَهُ، ولاَ تُشْرِكُوا بعبادَتِهِ شيئاً.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي: ما لَكُمْ مِنْ مَعْبُودٍ هو رَبٌّ يَسْتَحِقُّ أنْ يُعْبَدَ غَيْرُ اللّهِ عزّ وجلّ.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟: أي: أفَلاَ تَخافُونَ عقابَ اللّهِ وعذابَهُ الّذي أعْتَدَّهُ للّذِينَ يُشْرِكُونَ به، ويَتَّخِذُونَ مِنْ دُونِهِ إلٰهاً أو آلِهَةً يَعْبُدُونَها، فَتَتَّقُونَ هٰذا

العقاب باجْتِنابِ الشِّرْكِ، وباتّباعِ مَا أُنزِلَ إليكم من ربّكُمْ، وطاعَتهِ فيما يأمُرُكُمْ به، وفيما ينهاكُمْ عَنهُ، فَتُؤدُّونَ ما فَرَضَ عليكُمْ، وتَتْرُكُونَ ما حَرَّمَ عليكم.

● قول اللّٰه تعالىٰ:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

دلَّ قول اللّٰه تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ على أنَّ بَعْضَ مَلَإِ قومه قد آمَنُوا به، ولَوْ كانَ جميعُ الملأ كافرين به، لَجاء التَّعبير كما جاء في قصَّةِ قوم نوحٍ عليه السَّلَام: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾.

إنَّ عبارةَ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وَصْفٌ تَقْيِيديٌّ يُخْرِجُ الَّذِينَ لَمْ يَكْفُرُوا، ومِثْلُ هذا الإخراج يَدُلُّ على وجودهم.

ملأ القوم: هم كُبَرَاؤُهم وسَرَاتُهُمْ ورُؤساؤُهم وذَوو الوجاهَةِ فيهم الَّذِين يَمْلَؤُونَ عُيُونَ العامَّة.

وقد قابَلَ هؤلاء الكافرون من الملأ هُوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ بشتيمَتَيْن

الشتيمة الأولى: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾

السَّفاهَةُ: هِيَ الخفَّةُ والطَّيْشُ مِنْ نَقْصِ العقل، وهي ضِدُّ الرُّشْد. يُقال لغة: سَفُهَ فلانٌ سَفاهاً وسَفَاهَةً. ويُقال سَفِهَ سَفَهاً، أي: صار سفيهاً خفيفاً ناقص العَقْلِ غَيْرَ رَشيد.

وأكَّدُوا مقُولَتَهُمْ هذه بعدّة مؤكدات: «إنَّ ـ والجملة الإسمية ـ ولاَم الابتداء المزحلقة للخبر ـ الرؤية الجماعية»، أي: إنَّنا نَعْتَقِدُ اعتقاداً جازماً، مُسْتَنِداً إلى رُؤْيَةٍ فِكْرِيَّةٍ، أنَّكَ في سَفَاهَةٍ، بمعنى أنَّ السَّفَاهَةَ ظَرْفٌ له فَهِيَ مُحِيطَةٌ به.

وظاهر أنَّ هذا «الادّعاء مِنْهُمْ لَيْسَ فيه إلاَّ الشَّتِيمَةُ، ومعلومٌ أنَّ كُلَّ ادِّعاءٍ فيه تجريحٌ واتِّهامٌ بنقيصَةٍ دُونَ حُجَّةٍ أَوْ بُرْهَانٍ، هو من السِّبابِ والشتائم».

لقد قَابَلُوا دَعْوَةَ رسُولهم المستَنِدَةِ إلى منطق العَقْل وحُجَجِهِ وبراهينه، بالطَّعْنِ والتجريح والشتيمة، مع أنَّ مِثْلَ هذه المقابلَةِ لا يَفْعَلُها عاقِلٌ مُنْصِفٌ طالِبُ حقٍّ.

الشتيمة الثانية: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

أكَّدُوا هٰذهِ الشتيمة الثانية بمِثْلِ ما أكَّدُوا به الشتيمة الأولى، لكنَّ اتّهامهم له بأنَّهُ كاذِبٌ من الكاذبين قد اعتمدُوا فيه على الظَّنّ، إذْ لَيْسَ لديهم حُجَّةٌ يُقَدِّمُونَها صالحةٌ لإثباتِ بُطْلاَن مَا جاءهم به، وإثبات صِحَّةِ ما هم عليه من شِرْك.

ولدى تحليل ظنّهم بالموازين الفكريَّةِ السليمة نَجِدُه من قبيل الأوهام، الّتي لا قيمة لها مُطْلقاً، فما يستَمْسِكُونَ به هو من قبيل التقليد الأعْمَىٰ لما كان عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ وأجْدادهم، ومن بَدهيَّاتِ العقول وأصُولِ التفكير السَّليم، أنَّ التقليدَ لاَ يَصْلُح لأنْ يكون حُجَّةً لإثباتِ أو نَفْيِ قضيَّة عقليَّة، ولَوْ طَلَبُوا مِنْهُ بُرْهاناً على صِدْقِ رِسالَتِهِ لقدمَّ لَهُمْ ذٰلِكَ ولأقَامَ عَلَيْهِمْ الحجَّة المُفْحِمَة.

- قول اللّهِ تعالىٰ:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

في هٰذهِ الآياتِ الثلاث إيجازٌ لتِسْعِ مقالاَتٍ محكمَاتٍ أجابَ بها هودٌ عليه السلام كُفار الملأ من قومه الّذين شَتَمُوهُ بقولهم له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ

فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

المقالةُ الأولى: دَلَّتْ عليها العِبَارة التالية: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾: إنَّهُمْ شَتَمُوهُ بأنَّهُ مُنْغَمِسٌ في السَّفَاهَةِ المحيطَةِ به مِنْ كُلِّ جانِبٍ، فرَدَّ عليهم بأنَّهُ لا تُوجَدُ فيه ولا تَلْتَصِقُ بهِ سَفاهَةٌ ما، مَهْمَا كانَتْ قَلِيلَةً ضَئِيلَةً.

رَدٌّ مُشْبَعٌ بالتَّهْذِيبِ والأَدَبِ الرفيعِ الَّذِي يتحلَّىٰ بهِ الأنبياءُ والرُّسُلُ عليهم الصَّلاة والسلام، وينبغي أنْ يتحلَّى به سائر الدُّعاة إلى اللَّه، الْتِزَاماً بما تتطلَّبَهُ الحِكْمَةُ في الدَّعْوة.

لقد دفع هودٌ عليه السَّلام شتيمة قومه له بالنَّفْيِ فقط، ولم يَرُدَّ على الشتيمة بمِثْلِهَا ولاَ بِأَقَلَّ منها وَلا بأكْثر.

وخاطبهم بقوله لهم: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أصْلُها «يا قَوْمِي»، فنَسَبَهُمْ إلى نَفْسِهِ، وأضافَهُمْ إلى ذاتِهِ، ومِثْلُ هذا الموقف لا يَسْتَطِيعُهُ إلاَّ مَنْ كانَ ذَا حَظٍّ عظيمٍ من الحِلْمِ والصَّبْرِ وَسَعَةِ الصَّدْرِ.

إنَّ رَدَّ الشَّتَائِمِ بمِثْلِهَا أوْ بِأَشَدَّ مِنْهَا يُحَوِّلُ سَاحَةَ الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ إلى سَاحَةِ سُفَهَاء، يَتَقَاذَفُونَ بالشَّتَائِمِ، وَالأَكْثَرُونَ سفاهَةً هُمُ الَّذِينَ يَطْفُونَ على السَّطْحِ، ويَعْلُو ضَجِيجُهُمْ، ويَمْلَؤُونَ السَّاحَة بنُبَاحِهِمْ، وعِنْدَئِذٍ تتلاشَىٰ دَعْوَةُ الحقِّ، وهٰذا ما يَبْتَغِيهِ الشَّيَاطِين.

المقالة الثانية: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: ولٰكنَّ ما أُبَلِّغُكُمْ إيَّاه مِمَّا يُخَالِفُ مُعْتادَكُمْ، ويُخَالِفُ تَقَالِيدَكُمْ لآبَائِكُمْ، إنَّما هو بسبَبِ كَوْني نَبِيّاً رَسُولاً مَبْعُوثاً إليكُمْ مِنْ رَبِّ العَالَمِين، رَبِّكُمْ ورَبِّ العالَمِين جميعاً.

لفظ «العالَمين» يُرادُ به هنا ما سِوَى اللَّهِ عزّ وجلّ.

ولَوْ طَلَبُوا مِنْهُ أنْ يُقَدِّمَ لَهُمْ بُرْهَاناً يُثْبِتُ لهم به أنَّهُ نَبِيٌّ رَسُولٌ من

رَبّ العالمين حقاً، لقَدَّمَ لهم آيَةَ صِدْقه، ولٰكِنَّهُمْ رَفَضُوا أن يكون نبيّاً رَسُولاً، اعتماداً على ظنٍّ ضعيفٍ غَيْرِ مستنَدٍ إلى أيّ حجَّةٍ، إذْ قالُوا له: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾.

ولاَ بُدَّ أنْ يَكُونَ قد قَدَّمَ لهم بعدَ ذٰلِكَ من الخوارقِ والمعجزاتِ ما هُوَ آيَةٌ من رَبّهِ على صِدْقِهِ.

المقالة الثالثة دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى ﴾: أي: وبما أنّي نبيٌّ ورَسُولٌ من ربّ العالمين، الَّذي هو رَبِّي ورَبُّكُمْ باعتبارِنا من العالَمِين، فأنا أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي.

ويُفْهَمُ من صيغَةِ الجمع في كلمة ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ أنَّ تَنزِيلَ البيانَاتِ الرَّبَّانيَّةِ عليه قد كانَتْ على وَفْقِ سُنَّةِ التَّدَرُّجِ الَّتي هِيَ السُّنَّةُ الغالِبَة، في تَنْزِيلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ بَيَانَاتِهِ للنَّاس، وقد سبَقَ شَرْحُها لدَىٰ تَدَبُّرِ قِصَّةِ نُوحٍ وقَوْمِهِ آنِفاً في الفَصْلِ الأول.

وإعْلانُ هودٍ عليه السَّلام أنَّهُ يُبَلِّغُ رِسالاَتِ رَبِّهِ يَتَضَمَّنُ الإشارَة إلى أنَّه ليس له عِنْدَ قَوْمِهِ مَصْلَحَةٌ شخصيَّةٌ، فَهُوَ لاَ يَسْأَلُهُمْ عَلَى دَعْوَتِهِ إيّاهُمْ إلى الحَقّ والهُدَى أجراً قَلَّ أم كَثُرَ.

المقالة الرابعة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾: في هذه المقالة أبان هودٌ عليه السَّلام لقومه صفتَيْنِ مِنْ صِفاتِهِ، وهاتانِ الصِّفَتَانِ لاَ بُدَّ من وُجُودِهِمَا ضِمْنَ صفَاتِ كُلِّ مَنْ يُبَلِّغُ رِسالاَتِ رَبِّهِ، وكُلِّ الدُّعاةِ إلى اللَّهِ، والآمِرِينَ بالمعروف والنَّاهين عن المنكر.

إنَّ كُلَّ مُبَلِّغٍ رِسالَةَ دِينِيَّةَ عَنِ اللَّهِ يُشْتَرَطُ فِيهِ أَوَّلاً أنْ يَكُونَ أمِيناً في تَبْليغِ الرِّسَالَةِ، لاَ يَزِيدُ فيها شيئاً، ولاَ يَكْتُمُ مِنْهَا شَيْئاً، فإنْ زادَ أَوْ نَقَصَ شَيْئاً فَقَدْ خَانَ الأَمَانَةَ الَّتي اسْتَأْمَنَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا، وخائِنُ الأمانَةِ لاَ يَصِحُّ أنْ يَكُونَ رَسُولاً، فَلاَ يَصْطَفِيهِ اللَّهُ لِتَبْلِيغِ رِسالَةٍ ما، ولو وَقَعَتْ مِنْهُ خيانَةٌ ما

بَعْدَ اصْطِفَائِهِ فإنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ تَقْضِي بِقَطْعِ وَتِينِهِ حَالاً، كما قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بشأن رَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ في سورة (الحاقّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، فَأَبْعَدْنَاهُ عَنْ أَنْ يَسْتَمِعَ افْتِرَاءَاتِهِ علينا أحَدٌ، ثُمَّ لَأَهْلَكْنَاهُ بقطع وَتِينِهِ.

الوَتِين: عِرْقٌ في القَلْبِ إذا قُطِعَ ماتَ صاحِبُه.

ولَمَّا كانَ مُبَلِّغُ رِسَالاَتِ رَبِّهِ مَسْؤُولاً عن بيانها وَشَرْحِها للنَّاسِ، وتَرْغِيبهم فيها، واتّخاذ مختَلِفِ الوسائل لإقْناعهم بها، وإزالَةِ شُبُهَاتِهِمْ، وكانَ بالنِّسْبَةِ إلى قَوْمِهِ كالأبِ الرَّحِيمِ، كانَ من الصِّفاتِ اللازمَةِ له أن يَكُونَ ناصحاً.

النُّصْحُ: هو إرادة الخير للمَنْصُوحِ، وعَدَمُ غشِّهِ في شيء، والناصِحُ في توجيهه وتَرْبِيَتِهِ وإرْشَادَاتِهِ يتَّخِذُ كُلَّ الوسائِل الَّتي تَجْلُبُ الخَيْرَ والهدايَةَ لِمَنْ يُوَجِّهُهُمْ ويُرَبِّيهِمْ ويَعِظُهُمْ.

إنَّ تَبْلِيغَهُ رِسَالاَتِ رَبِّه يتطَلَّبُ مِنْهُ أن يكُونَ أميناً، فهو عليه السلام أمين.

وإنَّ تَعَامُلَهُ مع قَوْمِه بالدَّعْوَةِ والتعليم والتوجيه والتربيةِ والقيادةِ إلى نجاتِهِم وسعادَتِهِم يتطَلَّبُ مِنْهُ أنْ يكون ناصحاً، فهو عليه السلام ناصح. وقد جمع بمقالَتِهِ هذه الشَّرْطَيْنِ اللاَّزِمَيْنِ لكُلِّ مُبَلِّغٍ عن ربِّهِ، فهو ناصِحٌ أمين.

ونفهم من هذا أنَّهُ لاَ يَجوزُ لأيِّ حاملِ رسالة الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ والأَمْرِ بالمعروف والنَّهْيِ عن المنكر، أنْ يَخُونَ أمانَةَ التبليغ، فيُفْتِيَ بإباحَةِ الحرامِ،

أو بتحريم المباح، أو يتلاعَبَ بدَرَجاتِ أحْكامِ الدِّين، فيُعَظِّمَ الصَّغائِرَ، ويُصَغِّرَ الكبائر، ويَجْعَلَ المندوبَ واجباً، ويَجْعَلَ المَكْرُوهَ حراماً، بِغَيْرِ سُلْطَانٍ مِنَ اللَّهِ، وهو الدَّليلُ الشَّرْعِيُّ الكافي لإثبات الحكم الذي يُثْبِتُهُ ونَفْيِ الحكم الذي يَنْفِيهِ.

المقالة الخامسة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾؟

لمَّا كانَ مَوْقف «عادٍ» من بشريَّة «هُودٍ» عليه السلام، مِثْلَ مَوْقف قوم «نوح» عليه السلام من بشرّيته، وكان لا حُجَّةَ لكلٍّ من هؤلاءِ وهؤلاء، غير إطلاق عباراتِ الاستغرابِ والتَّعجُّب، كان جواب «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلام لقومه، مُمَاثِلاً لجواب «نوحٍ» عليه السَّلام لقومه.

إنَّ كَوْنَ رَسُولِ اللَّهِ للنَّاسِ رَجُلاً بَشَراً، هو ما تقتضيه الحكمة، ليكون من نَوْعِهِمْ يَحْمِل مِثْل طبائعهم، وليكون في سلوكه أُسْوَةً لَهُمْ، وحُجَّةً عليهم.

وكُلُّ ما اقْتَرَحَ الأَقْوَامُ مِمَّا يخالِفُ بَشَرِيَّةَ الرَّسُول أمْرٌ يُخَالِفُ مُقْتَضَياتِ الحِكْمَةِ.

ولمَّا كانَ التَّعَجُّبُ المجرّد لا يَحْمِلُ دَليلاً لرَفْضِ المتعجَّبِ مِنْهُ، حتَّى يُعَالَجَ هذا الدَّليل بتقديم ما يُبْطِلُهُ ويُظْهِرُ فَسَاده، كان الرَّدُّ الحكيم على عبارات التعجّب يقتضي أنْ يُردَّ التعجُّبُ بمِثْله، مع توجيه ما يُشْعِرُ باسْتِنْكارِ تعجُّبِهم، فجاءت عبارة الرَّدِّ مصدَّرَة باستفهام تعجُّبي مَمْزُوجٍ بالاسْتِنْكارِ: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾: أي: إنَّ تعجُّبكُمْ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أنْ يُتَعَجَّبَ مِنْهُ، وأنْ يُوَجَّهَ لَهُ الاسْتِنْكار.

إنَّ مَا جاء مُوافقاً لِلْحِكْمَةِ هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أنْ يُحْمَدَ ويُمَجَّدَ، لاَ أنْ يُتَعَجَّبَ مِنْهُ.

ودَلَّ تَوجيه هذا الاستفهام على أنَّ المخاطبين من قوم هودٍ عليه السلام قد رَفَضوا الإيمان برسالته، مستدلِّين بأنَّ كَوْنَهُ رَجُلاً بَشراً أمْرٌ مستغرَبٌ مثيرٌ للعجب، مخالِفٌ لمقتضَيَاتِ الحكمة، مع أنَّ نُوحاً عليه السَّلام قَبْلَ هود قد كان رجُلاً بشراً، وكان قوم هود يَعْلَمُونَ هذه الحقيقة.

ودَلَّنا وُجودُ حَرْفِ العطف «الواو» بَيْنَ همزة الاستفهام وفِعْلِ «عَجِبْتُمْ» على أنَّ الواو تَعْطِفُ على محذوف، نظير ما سبَقَ بيانُه لدىٰ تَدَبُّرِ مقالةِ نوحٍ لقومه، والتقدير: أكَرِهْتُمْ تَرْكَ ما أنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ شِرْك، واتِّباعَ ما جِئْتُكُمْ بِهِ، وعَجِبْتُمْ أنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ من ربِّكُمْ مُنَزَّلٌ علىٰ رَجُلٍ مِنكُمْ، فَهُوَ يُبَلِّغُكُمْ ما أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَرَبِّكُمْ.

ودلَّ لفظ «الذِّكْر» على أنَّ كتاباً رَبَّانياً قد أُنْزِلَ على هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، تَنْزِيلاً مُنَجَّماً، لِيُبَلِّغَهُ لِقَوْمِهِ.

ودلَّت العبارة على أنَّهم تعجَّبُوا من أمْرَين:

الأمْرُ الأول: أنْ يَأْتِيَهُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّهم.

الأمْرُ الثاني: أنْ يَنْزِلَ هٰذَا الذِّكْرُ على رَجُلٍ بَشَرٍ مِنْهُمْ، وأنْ يكون هذا الرَّجُلُ رَسُولاً لِلَّهِ يُبَلِّغُ قَوْمَهُ الذِّكْرَ الَّذِي أُنزِلَ عَلَيْهِ، وكُلِّفَ أنْ يُبَلِّغَهُ لقومه.

وأقولُ هنا نظير الذي سبَق بيانُهُ لدَىٰ تَدَبُّرِ العبارة المماثِلَةِ التي وجَّهَهَا نُوحٌ عليه السَّلام لِقَوْمِهِ.

المقالة السَّادِسَة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾: أي: ضَعُوا في ذاكِرَتكم دواماً أنَّكُمْ سُلاَلَةُ القَوْمِ الَّذِينَ آمَنُوا بنوح عليه السَّلام، وأنجاهُمُ اللَّه بالفُلْكِ المَشْحُونِ، حينَ أهْلَكَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِ رَبِّهِمْ ولَمْ يَتَّبِعُوها من قومه بالطوفان، أفَلاَ تخافُونَ أنْ يُهْلِكَكُمُ اللَّهُ كَمَا أهْلَكَ أُولٰئِكَ، فأنتم اليوم بشِرْكِكُمْ وكُفْرِكُمْ ومعاصِيكُمْ قَدْ جَمَعْتُمُ الصِّفاتِ القبيحَة الَّتي بِسَبَبِهَا أهْلَكَ اللَّهُ جلَّ جلالُه كُفَّارَ قوم نوح.

وبما أنَّ سُنَّةَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ في عبادهِ واحدة، فَقَدْ جَعَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ عُرْضَةً لأَنْ يُجْرِيَ اللَّهُ سُنَّتَه فيكم، كما أجراها في الَّذِينَ من قبلِكُمْ.

ففي هذه العبارة تَهْديدٌ لَهُمْ بأنْ يُنْزِلَ اللَّهُ فيهم عقابَهُ، فَيهْلِكَهُمْ أجمعين.

المقالة السابعة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾: أي: وقد ٱمْتَنَّ اللَّهُ عليكم فزادكم في خَلْقِهِ لأجْسَادِكُمْ سَعَةً، فأنْتُمْ أكْثَرُ طُولاً وعَرْضاً من قَوْمِ نوحٍ عليه السلام، وهذه المنّة تستَدْعي مِنْكُمْ أنْ تَشْكُرُوا رَبّكُمْ على ما أولاَكُمْ مِنْ نِعَمٍ، فتُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِ وَتَتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إليكم منه، ولا تَتَّبِعُوا من دُونِهِ أولياء.

إنّنا نَعْلَمُ أنَّ ذُرِّيَّة نُوحٍ عليهم السَّلام كانوا هُمُ الباقين مِنْ قومه بَعْدَ الطوفان، فعادٌ من سُلالتهم، وهذا يَدُلُّنا على أنَّ نوحاً عليه السَّلام قَدْ كانَ رَجُلاً ذَا بَسْطَةٍ في خَلْقِهِ، فَوَرِثَتْ سُلالَتُه عَنْهُ ذٰلِكَ، ضِمْنَ سُنَّةِ اللَّهِ جلَّ جلالُه في العوامل الوراثية، فجاءَتْ «عادٌ» وارِثَةً ذٰلِكَ من آبائِهِم حتَّى نُوح عليه السلام.

فهُودٌ عليه السَّلامُ يذكِّرُهُمْ في هذا بجَدِّهِمْ نوح، ويَسْتَثِيرُ فيهم انتماءَهُمْ له، ويُشِيرُ إلى بَعْضِ نِعَمِ اللَّهِ علَيْهِمْ الّتي تَسْتَوْجِبُ الشُّكْرَ.

المقالة الثامنة: دلَّتْ عليها عبارة؛ ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾: أي: وإذْ زادكُمْ في الخَلْقِ بَسْطَةً، وآتاكُمْ نِعَماً كثيرة، فاذكُرُوا آلاَءَ اللَّهِ عليكم، أي: نِعَمَهُ علَيْكُمْ، ليكون ذكْرُكُمْ لها دافِعاً ومحرّضاً على أن تَحْمَدُوه وتَشْكُرُوه، على ما أولاكُمْ مِنْ فضله.

وفي مقدّمة واجباتِ شكركُمْ له، أن تَعْبُدُوهُ، ولا تُشْرِكُوا بعبادته شيئاً، مادّيّاً كان أم معنويّاً، حيّاً أمْ غير ذي حياةٍ، وأن تُطِيعُوهُ بفِعْلِ مَا أَمَرَكُمْ به، وتَرْكِ ما نهاكُمْ عنه.

الآلاء: هي النِّعم، واحدها ألْيٌ، وإِلْيٌ، وإِلىً، إِلىً وآلاَء، مِثْل: مِعىً وأمْعاء.

المقالة التاسعة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: في هٰذه الجملة إطْماعٌ من هُودٍ عليه السَّلام لقَوْمِهِ، بأَنَّهُمْ إذا عَمِلُوا بِمَا جاءَهُمْ في الذِّكْرِ، الَّذِي بلَّغَهُمْ إيَّاه عن ربِّهِ بأمانة، وعَمِلُوا بنَصائِحه الَّتي وجّهها لَهُمْ، وذكَرُوا نِعَمَ اللَّهِ عليهم فحَمِدُوهُ، وشكَرُوه، وعَبَدُوه، ولم يُشْرِكُوا بعبادَتِهِ شيئاً، أفْلَحُوا.

«**لعلَّ**» يظهَرُ من معاني لعلَّ هنا معنىٰ التّعليل، أي: لأَجْلِ أن تُفلِحوا. وأمَّا على أنّها للتَّرَجِّي، فالمعنىٰ: راجين أَنْتُمْ أنْ تَفلِحُوا، أوْ راجياً لكُمْ أنْ تُفْلِحُوا، وراغباً من أجْلِكُمْ فيه وحَرِيصاً عليه.

الفَلاح: النجاةُ، والفَوْزُ بحيَاةٍ طيِّبَةٍ في الدّنيا، وسَعَادَةٍ عظيمة خالِدَة في الآخرة، وأصل الفلاح البقاءُ في النعيم والخير.

قال الأزهريّ: وإنّما قيل لأهل الجنَّة مُفْلِحُونَ لِفَوْزِهِم ببقاء الأبد.

● قولُ اللَّهِ تعالىٰ:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾:

دلَّتْ هٰذِهِ الإجابةُ على أنَّ مُعْظَمَ قومِهِ قَدْ رَفَضُوا دَعْوَتَهُ، وأمَّا الَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ فَقَدْ كانُوا قِلَّةً لاَ يُشَكِّلُونَ قُوَّةً ذات بأس.

إنَّ الكَثْرَة الكاثرة من قومه قد كذَّبُوهُ، وكذَّبُوا بالذِّكْرِ الَّذي أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ من ربِّهم، فلَمْ يتَّبِعُوا ما جاءَ فيه، ولم يكترثوا لِمَا وعَدَهُمْ به من فلاح إذا استجابوا لدعوته واتَّبَعُوهُ، واسْتَهَانُوا بما أنْذَرَهُمْ به من عذابٍ إليم خالِدٍ يوم الدِّين، في جهنَّمَ دار عذابِ المجرمين، وبما أَنْذَرَهُمْ به من إهلاكٍ مُعَجَّلٍ

نظير الإهلال الذي عاقَبَ اللَّه عزّ وجلّ به قَوْمَ نوحٍ من قَبْلهم، ونَسُوا أنَّهُمْ سُلالَةَ أولادِ نوح الناجين معه في الفُلْكِ، بسبب إيمانهم بما جاء به نوحٌ عليه السلام من رَبّه واتّباعهم له.

وواجَهَهُ ملأ قَوْمه ومِنْ ورائِهم جَمَاهِيرهُمْ بمقالَتين، اسْتَنْكَرُوا في أُولاهما أنْ يَسْتَجِيبُوا لدعوته لهم أن يَعْبُدُوا اللَّهَ وحْدَهُ، ويَتْرُكُوا ما كان يَعْبُدُ آباؤهم من أوثانٍ اتَّخَذُوها شُرَكَاءَ للَّهِ سبحانه وتعالىٰ عمَّا يُشرِكُونَ، وتَحَدَّوْهُ في الثانية بأنْ يأتيهم بما كان يُنْذِرُهُمْ به من إهلاكٍ عامٍّ شاملٍ إنْ كان من الصَّادقين.

وقد دلَّتْ هذه الآية (٧٠) على بيان مَوْقفهم هذا بَعْدَ مُدَّةٍ كافِيَةٍ من تاريخ دعوته لهم إلى اللَّهِ، وإلى اتّباع ما أُنْزِلَ إليهم من ربّهم. اسْتَوْفَى فيها هودٌ عليه السَّلامُ، ضِمْنَ منهج اللَّهِ لرسُلِه كُلَّ ما تحتاجُ أُمَّةٌ من دَعْوَةٍ وهِدايَةٍ بالحكمةِ والموعِظَةِ الحسنة، ومُجادَلَةٍ بالّتي هي أحسن، وصَبْرٍ طويلٍ، ومُعَالَجَةٍ بمُخْتَلِفِ وسائل العلاج الّتي تَكْفِي للإقْناع، وإزالةِ كُلِّ الشُّبُهَاتِ، وإصلاح من لدَيْهِ استعدادٌ إراديٌّ لأنْ يَقْبَلَ الحقَّ ويَتَّبِعَهُ، وفيما يَلي شرح لمقالتي قَوْمه له:

المقالة الأولى: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؟!!

استفهامٌ إنكاريٌّ فيه معنى الاستهزاء بما يَدْعُوهُمْ هُودٌ عليه السّلام إليه، من عبادة اللَّه وحده، وأنْ يَذَرُوا ما كانَ يَعْبُدُ آباؤهم من شركاء اتَّخذوها من دُونِ اللَّهِ شُركاء للَّهِ في الإلٰهيَّة، إذْ كانوا يَرْجُونَ من عبادتها نَفْعاً لهم في دنياهم، إمَّا على أساس مُشَارَكَتِهَا، للَّه في بَعْضِ عناصِرِ رُبُوبِيَّتِهِ، وإمَّا على أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ أَمَرَ بعبادتها أوْ أذن به، ورَتَّبَ على عبادتها نَفْعاً لعابِديها.

ودلَّ هذا الاستفهام على رفضهم لما دَعَاهُمْ إليه هودٌ عليه السلام، وكُفرِهِمْ به، وتَكْذِيبهم له في نُبُوّتِهِ ورسالَتِهِ، وتكذيبِهِمْ بما جاءهم به عن رَبِّه.

المقالة الثانية دَلَّتْ عليها عبارَة: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

هذه المقالة دلَّتْ على أنَّ هُوداً عليه السَّلامُ قَدْ كانَ يُنْذِرُ قَوْمَهُ بإهْلاكِ اللَّهِ لَهُمْ إهلاكاً عامّاً مُعَجَّلاً في الدّنيا، كما أَهْلَكَ قوم نوحٍ من قَبْلِهِمْ.

ودلَّتْ أيضاً على أنَّهُمْ يَجْزِمُونَ بأنَّهُ رَجُلٌ كاذبٌ غَيْرُ صادقٍ فيما يُخْبِرُ به عن اللَّهِ جلَّ جلاله، وغَيْرُ صادقٍ في ادّعائِهِ أنَّهُ نبيُّ اللَّهِ ورسوله، ومن أجْلِ هذا تَحَدَّوْهُ بأنْ يَأْتِيَهُمْ بِمَا كانَ يَعِدُهُمْ به، أي: بما كان يُنْذِرُهُمْ به من عذابِ اللَّهِ.

الوَعْدُ الإخْبَارُ بما سَيَحْدُثُ خيراً كان أم شرّاً، وقَدْ يُخَصُّ الوَعْدُ في الخير، والوَعِيدُ في الشَّرّ، ولكِنَّ هذا غير لازمٍ لُغَةً.

ولم يكونوا مُعْتَقِدِينَ بأنّه رسُولٌ صادقٌ يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ، لأنَّهم لو كانوا مُعْتَقِدينَ صحَّةَ نُبُوَّتِهِ ورسالته لمَا تَحَدَّوْه بأنْ يَأْتيهم بما كان يُنْذِرُهُمْ به من هلاكٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدنيا، إذْ لا يُعْقَلُ أنْ يَطْلُبُوا إهلاكَهُمْ إهلاكاً عامّاً لمجرَّدِ الإصرار على عبادة أوثانهم من دون اللَّه، ولو أنَّهم تجرَّدُوا عَنْ أوهامهم وعن تقاليدهم العمياء، لأَدْرَكُوا أنَّ عبادتهم لآلهتهم الوثنيَّة لا تجلُب لهم نفعاً، ولا تَدْفَعُ عنهم ضرّاً.

كيف يتحدَّى ضعيفٌ عاجزٌ جبَّاراً عظيماً، وهذا العاجز يعتَقِدُ في قرارة نَفْسِه أنَّ الجبّار قادِرٌ على أنْ ينفِّذَ وعيده، لِكنَّه قد يتحدّاه حِينَ يُصَدِّقُ أوْهام نفسه بأن الجبّار عاجزٌ عن تنفيذ وعيدِه، إذْ هٰذا العاجِزَ تحْمِيه قُوَّةٌ أقوىٰ من قُوَّةِ الجبّار.

❁ ❁ ❁

● قول الله تعالى:

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾:

تضمَّنَ هذا البيانُ ثلاث مقالاَتٍ قَالَهَا هُودٌ علَيْهِ السَّلاَمُ لقومه، بَعْدَ تَحدِّيهم لَهُ بأنْ يأتِيَهُمْ بِمَا كَانِ يُنْذِرُهُمْ به من إهلاك شاملٍ مُعَجَّلٍ في الحياة الدنيا.

المقالة الأولى: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾:

أي: قَدْ قَضىٰ اللَّهُ بِأَنْ يُوقِعَ عَلَيْكُمْ عقابَهُ بإهلاكِكُمْ إهلاكاً عامًّا شاملاً بَعْدَ أَنْ قَدَّرَ ذلك بمقتضىٰ عِلْمِهِ وَحكْمَتِه.

ولم يكُنْ هُودٌ عليه السّلَام ليُخْبِرَهُمْ بهذا لَوْ لَمْ يَنْزِلْ عليه به وحْيٌ من ربِّه، مَقْرُونٌ بالأمْرِ بأنْ يُخبِرَهُمْ به، أو بالإذن له بذلك.

وما قَدَّره الله وقَضاهُ جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطَانه فإنَّه سَيَقَعُ لاَ مَحالَةَ، فَهُو بحُكْمِ الأمْرِ الَّذِي وقَعَ فِعْلاً، مع الإشعار بقُرْب الوقوع، ولهذا أخبرهم عليه السَّلاَمُ بأنّه قد وقع، لأنَّهِ قَدْ تَمَّ به قضاءُ الله، وقَرُبَ وُقُوعه. واستعمال الْفِعل الماضي للتعبير عن الأمر الّذي سيَقَعُ في المستقبل لا محالة، من أبْلَغ أَسَاليبِ التأكِيدِ لِوُقُوعِ الأحْدَاثِ المستقبليَّة، ويستعمل كثيراً فيما قَرُبَ وقوعُه مثل: قد قامَتِ الصلاة، قد قامَتِ الصَّلاَة، في عبارات الإقامة للصلاة.

الرِّجْسُ: يُطْلَقُ على الأشياء الْقَذِرة النَّجِسَة الّتي تَحْمِلُ الضُّرَّ والأذَىٰ، أو الّتي تعافُها النفوس، ويُطْلَقُ أيضاً على العقاب والعذاب، وهو بهذا المعنى يكون مرادفاً للرّجز.

قال الفرّاء: لعَلَّ الرِّجْسَ والرِّجزَ لُغتان أُبْدِلَتِ السِّينُ زاياً.

الْغَضَبُ: ضِدُّ الرِّضا، يُقَال مثلاً: غَضِبَ السُّلْطَانُ على عامله، أي: سَخِطَ عليه، وأراد الانتقام مِنْهُ.

ومن لوازم الغضَبِ الكراهية والْمَقْتُ، وحِرْمَانُ المغضُوب عَلَيْهِ ممّا يُحِبّ، ومع شدّةِ الغضب تتوجَّهُ الإرادة للانتقام، ولإِنْزَالِ المكارِهِ وأَنْوَاعِ الْعَذَاب بالمغضوب عليه.

المقالة الثانية: دلَّت عليها عبارة: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ...﴾:

استفهامٌ يسْتَنْكِرُ فيه هُودٌ عليه السَّلاَمُ مُجَادَلَةَ قَوْمِهِ لَهُ في أوثانِهِمُ الّتي يَعْبدُونها من دون الله، مُتخِذِين إيَّاها شُرَكاءَ للَّهِ في إلَهيّتِهِ، ورُبَّما بِبَعْضِ عناصِرِ رُبُوبيَّتِهِ لكونه، وهي رُمُوزٌ ليس لها من الحقيقة شيءٌ تَسْتَحِقُّ بِهِ أَنْ تُعْبَدَ مِنْ دُون الله، إنّها في الحقيقة ليْسَتْ أكْثَرَ مِنْ أسْمَاءٍ تُلْفَظُ بالألْسِنَة دُون أن يكُونَ لها في الواقع حقيقَةٌ ذاتُ أثَرٍ ما في نَفْعٍ أو ضُرّ.

وَإذا ادَّعَىٰ أَحَدُ المشركين الوثنيّينَ أنَّ اللّهَ عزّ وجلّ أَمَرَ بعبادَتِها أو أَذِنَ بِهِ، فإنَّهُ مُطَالَبٌ بأنْ يَأْتِيَ بُسْلَطَانٍ من الله يُثْبِتُ ذلك.

السُّلْطانُ هنا: الدَّلِيلُ الخبريُّ عن اللّهِ، الّذي يَصِحُّ أن يُحْتَجَّ بِهِ، ويُقَامَ به بُرْهَانٌ خَبَرِيٌّ عن اللّهِ جلَّ جلالُه، ولا وُجود لمثل هذا الدليل في كتابٍ رَبَّانيّ مُنَزّل، ولا على لسانِ نبيٍّ مُرسل. أمَّا البرهان العقلي فيثبت أنّه لا ربَّ في الوجود إلاّ الله، ولا إلَه يستحِقُّ أن يُعْبَدَ إلاّ الله.

ويُطْلَقُ «السُّلْطان» في اللّغة: على الحجّة الملزمة، والبرهان ذي الْقَهْر لِلْعُقُولِ، ولفظ «السُّلْطان» بمعنىٰ الحجّة والبرهان لا يُجْمَعُ لأنّهُ أُجْرِي مُجْرىٰ المصدر، فهو مفرد دائماً من جهة اللفظ.

والمادّة تَدُور حول القهر والتَّغلُّب والإلزام بقوة، ولهذا يُطْلَقُ على ذي الولاية والحكْمِ سُلْطان.

المقالة الثالثة: دلّت عليها عبارة: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝٧١﴾:

أي: فانتَظِرُوا وقُوعَ مَا قَدَّرَ اللَّهُ وقضَىٰ بِشَأْنِكُمْ، إنّي مَعَكُمْ مِنَ المنتظِرين لهذا الأمْرِ العَظيم الّذي يُهْلِكُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بِهِ الْكَافِرِين، ويُنْجِي رَسُولَهُ والذين آمَنُوا مَعَه.

❁ ❁ ❁

● قول اللَّهِ تعالى:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٧٢﴾:

أي: فَعَقِبَ آخِرِ مَرْحَلَةٍ مِنْ إمْهَالِهِمْ، المصحوبَةِ بِعِنادِهم وإصْرَارِهم على كُفرِهِمْ، وتَكْذِيبِهِمْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ، أنْجَيْنَا «بضمير المتكلّم العظيم جلّ جلالُه» هُوداً، والَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ مؤمنين به، ومتبعين له، ولما أنزِل إليهم من رَبِّهم، إذْ أنْزَلْنَا بقَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا به وَكذَّبوا بآيات رَبِهم، وَمَا كانُوا مستَعِدِّين مُسْتَقْبلاً لأنْ يَكُونُوا مؤمنين، العذابَ الْمُهْلِكَ المدمِّر، واسْتَمرَّتْ وَسَائِلُ إهلاكهم مُتَتَابِعَةً عليهم، حتَّىٰ قُطِعَ دابِرُهم باسْتِئْصَالهم.

وإنجاءُ هُودٍ والَّذِين كانُوا معه مؤمنين قَدْ كانَ بسَبَب رَحْمَةٍ من اللَّهِ لهم، كان من آثارها تَدْبِيرُ أسْبَابِ نَجَاتِهِم.

وإهلاكُ سائر قومه الكافرين قَدْ كان بَسببِ غَضَبٍ من اللَّهِ عَلَيْهم، كان من آثاره تدبر أسْبَابِ إهلاكهم، وتدمير ديارهم.

● ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: وقَطَعْنَا آخِرَ مَنْ بَقِي منهم.

يُقَال لغة: قَطَعَ اللَّهُ دابِرَ الْقَوْمِ، أي: قَطَعَ آخِرَ مَنْ بقي منهم، فأهْلَكَهُ معهم. **والدَّابر**: في اللُّغَة التابع.

وأبان اللّهُ عزّ وجلّ بهذه العبارة، أنّ من أسْباب إهلاكه كُفّار عادٍ قوم هود عليه السلام، تَكْذِيبَهُمْ بآيَاتِ الله، فلَمْ يَتّبِعوا مَا أُنْزِلَ إليهم من ربّهم، الّذي هو الخطّ الأعظم الذي سارت عليه دُرُوس السورة بوَجْهٍ عامّ.

﴿..وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٧٢﴾: أي: وَمَا كَانُوا مستَعِدّين لأَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتقبلاً مَهما أمْهَلَهُمُ الله وأطال مُدَّة اختبارهم فِي ظروف الحياة الدّنيا. فلفظ [مُؤْمِنِينَ] اسْم فَاعل بمعنى الفعل المضارع يَدُلُّ على الحال والاسْتِقْبال.

❁ ❁ ❁

الفصل الثالث
التدبر التحليلي للّقَطَاتِ المختارات
في هذه السورة من قصة صالح عليه السلام وقومه
الآيات من (٧٣ ـ ٧٩)

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٧٤ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۝٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٧٦ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧٧ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾:

القراءات:

(٧٣) ● قرأ جُمهورُ القراء العشرة: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ برفع «غَيْرُهُ».

وقرأ الكساني وأبو جَعْفَر: [مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيرِهِ] بِجَرِّ «غَيْرِه».

وقد سبَق توجيه هاتين القراءتين نحويًا في الآية (٥٩) وفي الآية (٦٥) من هذه السورة.

(٧٤) ● قَرأ ورْشُ، وأبو عَمْرو، وحفْصٌ، وأبو جَعْفر، ويعقوب ﴿بُيُوتًا﴾ بضمّ الياء.

وقرأ باقي القراء العشرة [بِيُوتاً] بكسر الباء.

والقراءتان لُغَتان عَرَبيان لنُطْق الكلمة.

(٧٥) ● قرأ ابن عَامِرٍ: [وَقَالَ الْمَلأُ] بإضافة حرف العطف «الواو».

وقرأ جُمْهُورُ القرّاء الْعَشَرَةِ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ بدون حَرْف عطف.

والقراءتان هاتان تمثّلاَنِ وَجْهَيْنِ بَيَانِيَيْنِ في الْفَصْل والوصل، فجملة و﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ . . .﴾ إلى آخر مقول القول، جُمْلَةٌ لاَ مَحلَّ لها من الإعراب، وهي معطوفة على جملة: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ . . .﴾ إلى آخر مقول القول الذي قالَهُ صالحٌ عليه السلام، وهي جملة لا محلَّ لها من الاعراب أيضاً، ولكنّ الجملَتَيْن تشتركان في أنّهما جزْءانِ من أجزاء قصَّةٍ واحدة، هي قصة صالحِ عليه السَّلاَم مع قَوْمِه، والتغايُرُ الذي يقتضيه العطف بالواو مَوْجُود في هٰذين الجزأيْنِ من أجزاء القِصَّة. وكُلٌّ من الوصل والفصل حَسَنٌ وجميل بلاغيًا في مِثْلِ هذا، فالْفَصْلُ يُشْعِرُ المتَلَقّيَ بأنَّهُ حاضِرٌ مع مَشْهَدَي القِصَّة، والْوَصْلُ يُشْعِرُ المتَلَقِيَ بِأَنَّهُ يَسْتَمِعُ إلى قَاصٍّ يَقُصُّ عليه فيَعْطِفُ مَشْهَداً على مَشْهَدٍ، وكلا الأمْرَين وجْهان بلاغيَّانِ جميلان.

ولعَلَّ الْفَصْلَ أكْثَرُ تَأْثيراً في مشاعر مُعْظَم المتلَقّين البلَغاء، فجاءَتْ قراءةُ الوصْلِ عِنْدَ ابْنِ عامرٍ فقط، وجاءت قراءةُ الْفَصْلِ عند جمهور القرّاء العشرة، وهذا مِنْ إجرءَاتِ الحكمة الرَّبَّانيّة اللّطيفة.

تمهيد:

هذا هو النصّ الثامن بحسب ترتيب النزول، من النّصُوص المتعلّقة بثمود قوم النبيّ الرّسُول صالح عليه السلام من أصل (٢١) نصًّا عرضَتْ لقطاتٍ موزّعاتٍ على (٢١) سورة، من قصّتِهم مع رسولهم صالح عليه السلام.

وقد سبَقَ مقدارٌ مَا من تدبّر النصوص السبعة الأولى، لدىٰ تدبُّر سُور «الفجر ـ النجم ـ الشمس ـ البروج ـ قٓ ـ القمر ـ صٓ».

وأستعين بالله في هذا الفصل على تدبّر هذا النصّ من سورة (الأعراف).

ثمود: قوْمٌ من الْعَرب، تكاثروا بَعْدَ إهلاك اللّهِ عزّ وجلَّ «عاداً» قومَ النبيّ الرسول «هُودٍ» عليه السلام.

ولفظ «ثمود» جاء في القرآن مصروفاً مُنَوَّناً مراعاةً لاسم الجدّ، وَجاءَ مَمْنُوعاً من الصَّرْف مراعاةً لكوْنِه اسْماً للقبيلة المؤنّثة.

كانَتْ مساكن «ثمود» في أرْضِ «الحِجْر» ولهذا سمّاهم الله في القرآن أصْحَابَ الحِجْر.

الحِجْر: أرْضٌ بين الشّام والحجاز، إلى وادي الْقُرى، وتَقَعُ في الطريق الْبَرّيّ للمسافر من الشام إلى الحجاز، وآثار مدائن هؤلاء القوم ظاهرةٌ حَتَّىٰ الآن، وتُسَمَّى «مدائن صالح» وتُعْرَفُ ديارُهُمْ أيضاً باسم «فَجّ النّاقة».

وثمود قبيلة من القبائل العربيّة الّتِي أَهْلَكَ اللّهُ عزّ وجَلّ مَعْظَمها، ولَمْ يَبْقَ مِنْها بَعْدَ إهلاكهم إلاّ من آمن برسولهم صالحٍ عليه السَّلام.

وسميت «ثُموداً» نسْبَةً إلى أحَدِ أجْدَادِهَا، وهو كما ذكر النَّسَّابون: ثَمُودُ بْن عامر بن إرَمَ بن سام بن نوحٍ عليه السلام، والله أعلم بهٰذِه الأنساب.

كانَتْ قبيلةُ ثَمُودٍ صاحِبَةَ أوثانٍ يَعْبُدونَها من دون الله. وقد تناقَلَ الْقَصَّاصُون من العرب قبْلَ الإسلام، أخبار قبيلة ثَمود، وكيف أهلكهم الله عزّ وجل بعَدْلِه وحكمته.

تلخيص ما جاء في القرآن بشأن ثمود ودعوة رسولهم صالح:

وألخص في فقرات ما جاء في القرآن المجيد بشأن ثمود ودعوة رسولهم صالح لهم:

(١) كانوا أهل بناءٍ وعمران في أرضهم الحجر، فكانوا يقْطَعُون الصخْرَ بواديهم، ويَبْنُونَ القُصُور، وكانُوا ينْحِتُون من الجبال بيوتاً للرفاهية، وكانُوا أهل زراعة، فقد كانت لهم جنَّاتٌ وعُيُونٌ، وزُرُوعٌ ونَخْلٌ، وكانُوا في ديارهم مستقرِّين آمنين.

(٢) وَكَانُوا مُشْرِكين يَعْبُدونَ آلِهةً من دون الله، اتّخذوا لها رُمُوز أوثان، وقد توارثوها عن آبائهم بالتقليد الأعمى.

(٣) بعَثَ اللَّهُ لهم رُسُلاً، وبلَغَتْهُمْ دَعْوَةُ رُسُلٍ من بين أَيْدِيهم، ومن معاصِرِيهم من الأُمم، فلَمْ يُقْلِعُوا عن شِرْكهم، وطُغْيَانهم، وفسادِهم وَإِفْسَادهم في الأرض.

(٤) طَغَوْا في البلاد، فأكْثَرُوا فيها الفساد.

(٥) ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ إليهم نبيًا رَسُولاً منهم. هو سيدُنا صالح عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وإلى نَبْذِ ما هم فيه من الشرك، وإلى تَرْك الطُّغْيانِ والفساد في الأرض، ودعاهم إلى أن يتَّقُوا رَبَّهُمْ، وأن يُطيعُوهُ في دَعْوَتِهِ، وأبَانَ لهم أَنَّهُ رَسُولٌ أمين.

(٦) فكذَّبُوه، وكذَّبوا بما جاءهم به من ذكْرٍ وهو كتابٌ من عند اللَّهِ، وقالُوا عنه: كذَّابٌ أشِرٌ، أي: مُسْتَكبر بَطِرٌ يَمْرَحُ ويَفْرَحُ بصِنَاعَةِ الأكاذيب لِيَكُونَ لَهُ الْعُلُوُّ في الأرض.

(٧) واعْتَرَضُوا على كونه إنْسَاناً بشراً، وقالُوا: لَوْ شاء اللَّهُ أن يَبْعَثَ رَسُولاً، لأرْسَلَ إليهم ملَكاً أَوْ عَدداً من الملائكة.

(٨) وَتابع «صالحٌ» عليه السلام دعْوتَهُ لَهُمْ، وذَكَّرَهُمْ بِنِعَم الله عليهم، وأبان لهم أنَّ الله عزّ وجلّ استخلَفَهُمْ في الأرض من بَعْدِ عادٍ الَّذِين أهْلَكَهُمْ بسبب شركهم وفسادهم وطغيانِهِمْ في الأرض، وتكذيبهم رسُولَ ربّهم، وتكذِيبهم بما جاءهم به، وعدم اتباعهم ما أُنْزِلَ إليهم من ربّهم، وأقام لهم الأدِلَّةَ على التوحيد، وقال لهم: إنَّ اللَّهَ هُوَ الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها، ودعاهم عليه السلام إلى أن يستغفروا رَبّهم ويتوبُوا إلَيْه راجين أن يرحمهم.

وقال عليه السلام لهم: إنَّكُمْ لاَ تُتْرَكُونَ آمِنِينَ فيما وهَبَكُمْ رَبُّكُمْ منْ نِعَم، إذَا لَمْ تُؤْمِنُوا وَلم تُطِيعُوا، ولم تَتَّبِعُوا الذِّكْرَ الَّذِي جاءكم من ربّكُمْ.

ونهاهم رسُولُهم صالح عليه السلام عن أن يُطِيعوا أمْرَ المُسرِفين، الَّذِين يُفْسِدُون في الأرض وَلاَ يُصْلِحُون، ونَهَاهُمْ عن أنْ يَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدِين، وأنْذَرَهُمْ بعِقاب اللَّهِ عزّ وجلّ، وضربَ لهم الأمْثَالَ بالْمُهْلَكِينَ السَّابقين.

وأعْلَنَ لهم عليه السلام تبرُّؤَهُ من المصلحة الشخصيَّة عِنْدهم، وقال لهم: إنْ أجْرِيَ إلاَّ على الله.

(٩) اتَّهَمَهُ قومُهُ بأنَّهُ مسْحُورٌ بسِحْرٍ شدِيدٍ أثَّرَ فيه، واستكْبَروا عن الإيمان به واتّباعه، وقالوا له: يا صالِحُ قد كُنْتَ فينا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذا، أتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا كانَ يَعْبُدُ آباؤنا؟!!.

(١٠) آمَنَ به فريقٌ مِنْ قومه، وكفَرَ به الأكثرون منهم، فَأَخَذَ الفريقان يَخْتَصِمُون ويتجادَلُون.

قالَ المستكْبرونَ من الكافرين به، للمستضعَفِين من الذين آمَنُوا به، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّه؟!!.

قال المستضعفون المؤمنون به: إنَّا بِمَا أُرْسِلَ به مُؤْمنون، فَمَا جَاءَ به حَقٌّ، وهذا يَدُلُّ علىٰ أَنَّهُ رَسُولٌ من رَبِّه.

قال المسْتَكْبِرون الّذين كفَرُوا به: إنّا بالّذي آمنتُمْ بِه ورَأَيْتُمُوهُ حَقًّا كَافِرون.

لقد هداهم الله هدَايةَ دَلاَلَةٍ وإرشادٍ وبيانٍ مقرون بالحجَّة، فاستَحَبُّوا الْعَمىٰ الّذي أوْصَلَهُمْ إلَىٰ الكُفر، على الْبَصَر الذي يكشف لهم سبيل الْهُدَى، لأنّ الْعَمَىٰ قد كان مُزَيَّناً بالأهواء والشهوات وزُخْرُفِ الحياة الدُّنيا.

(١١) تَعَرَّضَتْ «ثَمود» لعوارض من الْبَلاَءِ الرَّبَّانيّ بالمكاره، تذكيراً لهم، فقالوا لرسولهم صالح عليه السلام: اطَّيَّرْنَا بِكَ وبمَنْ آمَنَ بك، فأنْتُمْ شُؤْمٌ علينا وَعلى أرْضِنَا.

فأجابهم عليه السلام بقوله لهم: طائركُمْ عنْدَ اللَّهِ، أي: مقاديركُمْ بيَدِ الله، وليْسَ لغير الله تأثيرٌ فيها، وما نَزَلَ بكم من بلاءٍ ليْسَ من شُؤْم أَحَدٍ بَلِ اللَّهُ يمْتَحِنُكُمْ، ويُنْزِلُ بكم بعْضَ ما تكْرَهُونَ، عُقُوبَةً لكم على كُفْرِكم، وإنْذَاراً لَكُمْ بما هو أشَدُّ وأَقْسَىٰ.

(١٢) وأمْلَىٰ اللَّهُ لَهُمْ وأمْهَلَهُمْ، كَسُنَّتِهِ في سائر الأمم.

(١٣) جادلَتْ «ثَمودُ» رَسُولَهُمْ في الحقّ الذي جاءهم به من ربِّه، واتَّهَمُوهُ بأَنَّ له غَرَضاً خاصًا لديهم، يرجوه من دعوته، وقالوا له: إنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ، أي: تَجعلُنَا نَرْتَابُ بأمْرِك، ونَتَّهِمُكَ بالمصْلَحَةِ الشخصِيَّةِ عندنا.

فقال لهم: أَرَأَيْتُمْ إنْ كُنتُ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبّي قَدْ أَثْبَتَتْ لي الحقّ، وكُنْتُ أيضاً خائفاً من عذابِ رَبّي إِنْ تَرَكْتُ بَيِّنَتَهُ، أو عَصَيْتُ أَمْرَه في عَدَم القيام بِوَظائف رِسالتي، فَمَنْ يَنْصُرُني ومَنْ يُنْجيني مِنْ عَذاب الله؟؟.

وقال لهم بشأنِ مَضْمُونِ ما جاءهم به: أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاواتِ والأرض؟!!

وعَجَزُوا عن رَدّ حُجَجِه البرهانيَّة العقليَّة.

(١٤) فَطَلَبُوا مِنْهُ آيَةً حِسِّيَّة مُعْجِزَةً تُثْبِتُ صِحَّةَ رِسَالَتِه ونُبُّوتِهِ. وهَدَّدُوه هو والذين آمَنُوا به بالإخراج من أرضهم، أو العودة إلى مِلَّتِهِمْ والاستقرار والثبات فيها، وقالوا لهم: لنُخرِجنَّكَمْ مِنْ أَرْضِنَا، أَوْ لتَعُودُنَّ في مِلّتِنَا. وهي الشّرك ولوازِمُه في السُّلُوك.

(١٥) فاستجاب رَسُولُهم صالح عليه السلام بإذْنٍ من ربّه لطلبهم المعجزة الحسّيَّة على ما يُحَدِّدُون.

وأشارت الدّلائل الضّمنيَّة إلى أنّه عرَضَ عليهم ما يختارون من آيَةٍ معجزة، وَكانُوا مَعْجَبِينَ بالإبل.

فَطَلَبُوا أَنْ يُخْرِجَ لهم من صَخْرةٍ عظيمَةٍ عَيَّنُوها نَاقَةً ذَاتَ أوصافٍ معيَّنَة، فقال لهم عليه السلام: نعم. ودعا ربَّهُ فأخرج الله لهم الناقة كما طلبوا، فآمن بعضهم وأصَرّ أكثرهم على الكفر.

وأبان لهم عليه السلام مسْؤولياتهم وواجباتهم نَحْوها، وقال لهم: يكون لهذه الناقة يوْمٌ تَشْرَبُ فيه الماء الذي تَشْرَبُونَ منْهُ، والْيَوْمُ الثاني يكون لكم، فالماء قِسْمَةٌ بينكم وبَيْنها على التّنَاوُب.

وقالَ لَهُم: يجب عليكم أن تَذَرُوها تأكُلُ من أرض اللَّهِ مَا تَشاءُ، وأنْ لاَ تَمَسُّوها بسوء، وأنّ لا تَمَسّوا الماء المخصّصَ لها في يَوْمها بسوء، وإلاّ نَزَلَ بكم عذابُ يَوْمٍ عظيم.

وشَدَّدَ صالحٌ عليه السلام في تَحذِيرهم، وقال لهُم: احْذَرُوا ناقَةَ اللَّهِ وسُقْياها أَنْ تَمَسُّوا شيئاً من ذلك بسُوءٍ فَقَدْ أَخْرَجها اللَّهُ لكم، كما طلبتم، وعلى الأوصافِ الّتي حَدَّدْتم، ومن الصخرة التي عَيَّنْتُم، فَمَعْصِيتُكُمْ بَعْدَ كلّ هذا معصية عنادٍ ومكابرة، دُونَ أن يكون لكمْ فيها شبْهةُ عُذْرٍ ما.

(١٦) والْتَزمْتْ قبيلة ثمود خوفاً، بالواجبات الّتي كانت صعْبَةً عليهم مدَّةً من الزمن، ثُمَّ تَأَثَّرتْ مَصَالِحُ كثيرةٌ لهم بالتزامهم بواجبات الناقة الَّتي أخْرَجَها اللَّهُ لهم من الصخرة على وفْق ما طَلَبُوا، فَعَزَمُوا عَلَىٰ أنْ يتخلَّصُوا مِنها بِعَقْرِها وذَبْحِها، واسْتَهَانُوا بمَا كانَ قَدْ أَنْذَرَهُمْ به رسُولُهم صالحٌ عليه السلام، واتَّفَقُوا على عَقْرِ النّاقة، فَحَرَّضُوا أشقاهم على قتلها، فأخذ سِلاَحه، وتَطَاولَ مستَكْبِراً، وقال لهم رسُولُهم: حذَارِ نَاقَةَ اللَّهِ وسُقْيَاها.

فَلَمْ يكْتَرثُوا للتحذير، وعَثَوْا في الأرض مُسْتنِكفِينَ عن طاعَة أمْر ربّهم فانْبَعَثَ أشْقَاهم، فَعقَرَ نَاقَةَ اللَّهِ.

(١٧) وكـانَ فـي مـدينَتِهـم تِسْعَـةُ رهْـطٍ يُـفْسِـدُونَ فـي الأرض ولاَ يُصْلِحُونَ، فَقَرَّرُوا أَنْ يَقْتُلُوا صالحاً وأَهْلَ بَيْتِه ليْلاً، ويتخلّصُوا منْهُ، كَمَا تخلَّصُوا من الناقة، وأن يتظاهروا بأنهم بُرَءَاءُ من قتْله، ويُنْكِرُوا أمام عَشِيرتهِ أَنَّهُمْ قَتَلُوهُ إِذَا وُجِّهَ لهم الاتّهام.

فأهلك اللَّهُ المتآمِرين.

(١٨) وَتأزَّم الموفق بين جمهور قبيلة ثَمود، وبين رسُولِهِمْ عليه السَّلام والَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه، ويَظْهَرُ أنَّ القوم قد عزمُوا على التخلُّصِ منْهم بالقوّة، إلاّ أنّهم تَرَيَّثُوا قليلاً لِحمَايَةِ عَشِيرَةِ صالح له بالحميَّة القَبَلِيَّة.

فقال لهم صالحٌ عليه السلام: تَمَتَّعوا في دارِكُمْ ثلاثَةَ أيّام، وَهَذا وعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ، وفي صباح اليوم الرابع يُنْزِلُ اللَّهُ عزّ وجلّ بِكُمْ عذاباً يُهلِكُكُمْ بِه جَمِيعاً.

(١٩) ولمّا اقترب الموعد أمَرَ اللَّهُ عزّ وجل صالحاً والَّذِين آمَنُوا واتَّقوا بالانْحِيَازِ عن مكان نزول العذاب، وجاء أَمْرُ اللَّهِ بإهْلاكهم، فَصبَّ عَلَيْهم سَوْطَ عذابٍ، وبَعَثَ إليهم صيحةً واحدةً مُهْلِكَةً، مضْحُوبَةً بصاعِقَةٍ طاغِيَة لا تُبْقِي ولا تَذَر.

وحين جاءتهم الصَّاعِقَةُ جاءَتْهُمْ وهُمْ يَنْظُرُون عاجزينَ عن أَنْ يَرُدُّوا عن أنفسهم شيئاً من عذاب اللَّهِ، وأسْبَابِ الإهلاكِ الَّتي سلَّطها علَيْهم بعزّتِه وقَهْرِه.

وبُهِتُوا عنْدَئذٍ نادِمِين، إذْ لا يَنْفَعُهم النَّدَم، وأخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ زِلْزَالاً مُدَمّراً، فَأَصْبَحُوا في دَارِهِمْ جاثِمينَ هَلْكىٰ.

(٢٠) وبَقِيَتْ قِصَّتُهم تُرْوى، ومساكِنُهُمْ تَدُلُّ عليهم، وقَدْ ذَكَّرَ بها مُؤْمِنُ آل فِرْعَونَ حِينَ أَرَادُوا بموسَىٰ وهارونَ شرًّا.

حكايات تاريخيَّة بشأن ثمود وإهلاك الله لهم:

كان القصّاصُون من العرب قبل الإسلام يتداولون حكاياتٍ تاريخيَّة تتعلَّقُ بقبيلة «ثمود» قوم النبي الرسول صالح عليه السلام، وكيف أهْلَكَهُمُ اللَّهُ جلّ جلاله.

ويطالع الناظر في مُدَوَّنات التاريخ حَوْلَ قبيلةِ ثمود وكيف أهلكَهُمُ الله، فَيَجد عدَّةَ حكايات مقبولات بوَجْهٍ عامّ، ويَحْسُنُ أن أَسْتَعرض خلاصَةً عَنْها لمَا فيها من تفصيلاتٍ تُتَمِّم مَا جاء في القرآن عنهم، ولا تتعارض معه.

فمن هذه الحكايات ما ذكَرَهُ ابْنُ إسْحَاق، والسُّدّي، وأبو الطُّفَيْل، وغيرهم.

وأَخْتَارُ فيما يلي لقطات من حكاياتهم المذكوراتِ في كتب التاريخ، والمنقولاَتِ في بعض كتب التفسير.

(١) أهْلَكَ اللَّهُ عزّ وجلّ «عاداً» إلاَّ مَنْ آمن بالرسول «هُود» عليه السّلام منهم، وارْتَحَلَ «هود» والّذين آمَنُوا به عن أرْض الأحقاف في الجنوب التي كان فيها هَلاَكُ «عاد».

(٢) ونَشَأَتْ بعد قبيلة «عاد» قبيلَةُ «ثمود» في الشمال، في أَرْضِ «الحِجْر» واسْتُخْلِفُوا في الأرض، وانْتَشَرُوا، ورُبَّما كان كثيرٌ منْهُم من سُلاَلَةِ من آمن بالرسول «هود» عليه السلام، فَهُمْ قوْمٌ من العرب.

(٣) ثُمَّ ظهر فيهم الفساد، وعَبَدُوا آلِهَةً اتَّخَذُوها من دُون الله، ونَسُوا مَا كان آباؤهم قَدْ ذُكِّروا به منذ عهد «هُودٍ» عليه السلام، فما تَلاهُ من قُرُون.

(٤) فبَعثَ اللهُ إليهم نبيًّا رَسُولاً منهم، وهو «صالح» عليه السّلام، وهو من أوْسَطِهم نَسَباً، وأفضَلِهم مكانة.

وكانَ قبل أن يبعثه الله عزّ وجلّ رسولاً رَجُلاً فاضِلاً، حسَنَ الْخُلُق، حَسَن السِّيرَة، مَرْجُوّاً لكلّ خَيْرٍ وفضيلَةٍ وعَمَلِ برٍّ وإحسان.

(٥) فدعاهم «صالح» عليه السّلام إلى التوحيد ونَبْذِ الشّرْك بالله، ودَعاهم إلى عبادة الله وحْدَه، وترك السَّيِّئاتِ وفِعْل الصّالحات، واجتنابِ الظُّلْم والعُدْوان والفساد في الأرض.

وصبَرَ «صالح» عليه السلام علَيْهم، متابعاً دَعْوَته إلى سبيل رَبّه، وبَشَّرَهم بالجنَّةِ إن استجابوا لدعوته، يَدْخُلونَها يَوْم الدّين، وحَذَّرَهُم وأنْذَرهُمْ بعِقَاب اللَّهِ المعَجّلِ في الدُّنيا، والمُوجَّل إلى يوم الدّين إذا أَبَوْا.

واتَّخَذَ عَلَيْه السَّلام مختَلِفَ الوسائل المتاحَةِ لهِدَايَتهم، من إقناع بالحجج والبراهين، وجِدالٍ بالّتي هي أَحْسَنُ، وتَرْغيبٍ وترهيب في مواعظ حسَنَةٍ، مع صَبْرٍ وحِلْمٍ وتلَطُّفٍ وَأناةٍ، شأنُهُ في هذا كَشَأنِ سائر المرسَلِين.

(٦) فلَمَّا ألَحَّ عليهم في دعوته طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً من الخوارق، يَشْهَدُ الله له بها بأنَّهُ صَادِقٌ في ادّعاء أنَّهُ نبيٌّ أرْسَلَهُ إليهم، ليُبَلِّغَهُمْ دِينَهُ، والكتابَ الذي أنزلَهُ إليهم ليتّبعُوه.

فقال لهم «صالح» عليه السلام: ماذا تَطْلُبُونَ من آيَةٍ خارقة؟

قالوا: تَخْرُجُ معنا إلى عِيدنا هذا، وكان لهم عِيدٌ يَخْرُجُونَ إليه بأصْنَامهم وما يَعْبُدونَ من دون الله، في يومٍ معلُوم من السَّنَةِ فَتَدْعُو إلَهَك، ونَدْعُوا آلِهَتَنَا، فإنِ اسْتُجِيب لكَ اتَّبَعْنَاكَ، وإنِ اسْتُجِيبَ لَنَا اتَّبَعْتَنَا.

فقال لهم «صالح» عليه السلام: نَعَمْ، وقَبِلَ عَرْضَهُمْ.

(٧) فَخَرَجُوا بِأَوْثَانِهِمْ إلى عِيدِهم ذَاك، وخَرَجَ مَعَهُمْ «صالحٌ» عليه السلام، متوكِّلاً على الله، ومُلْتَجِئاً إليه، داعِياً إلى سَبِيله لحضُورِ مباراة الدُّعاء.

أمّا «ثَمُودُ» فَدَعَوْ أَوْثَانَهُمْ، وسَأَلُوها أنْ لاَ يُسْتَجَاب لصالحِ عليه السَّلاَمُ، إذا دَعَا رَبَّهُ في شيءٍ ممَّا يَدْعُو به.

ثُمَّ قال أحد سادَاتِ «ثَمود» وعُظَمائِهِمْ يومَئِذٍ، وهو رجُلٌ يُقَالُ له: «جُنْدُع»: أَخْرِجْ لَنَا مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، وعَيَّنَهَا له، نَاقَةً مُخْتَرِجَةً (أي: تُشْبِهُ الْبُخْتَ مِنَ الإبل)[1] جَوْفَاءَ (أي: عظيمة الْجَوْف) وَبْرَاءَ (أي: ذَاتَ وَبَرٍ كثير) فإنْ فَعَلْتَ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ في رسالَتِك، وشَهِدْنَا بِأَنَّ ما جِئْتَ بِهِ هو حَقٌّ، ووافَقَ سائر أفراد «ثمود» على هذا الطَّلَبِ.

(٨) وأخذ رسُولهم «صالح» عليهم المواثيق قائلاً: لَئِنْ دَعَوْتُ اللَّهَ فاسْتَجابَ لي، وأخْرَجَ لَكُمْ النَّاقة الَّتي وصَفْتُمْ، من هٰذِهِ الصَّخْرَةِ نَفْسِها الَّتي ذَكَرْتُم، لَتُصَدِّقُنِّي، ولَتُؤْمِنُنَّ بي.

---

(١) الْبُخت من الإبلِ هِيَ الإبل الخراسانية، وكانت ذوات صفات متميزة.

قالوا: نعم، وأعْطَوْهُ على ذلِكَ عُهُودَهُمْ وَمَواثِيقَهُمْ.

(٩) فَدَعَا «صالحٌ» عليه السلام رَبَّهُ، بأنْ يُخْرِجَ لهم النّاقة الّتي طَلَبُوها، من الصّخرة الّتي ذكَرُوها وعيَّنُوها، وقَوْمُهُ يَنْظُرُون إليه وإلى الصَّخْرة.

فَلَمْ يَلْبَثُوا حتّىٰ رأَوُا الصَّخْرَةَ تتمخَّضُ بالنَّاقةِ المطْلُوبَة، تَمَخُّضَ النَّاقةِ النَّتُوجِ بوَلَدِها.

وتَحَرَّكَتِ الصَّخْرَةُ العظيمَةُ فَانصَدَعَتْ، ثُمَّ أسْقَطَتْ من باطِنِها نَاقَةً علىٰ الوصْفِ الّذِي طَلَبَهُ القوم.

(١٠) فَآمَنَ بِهِ «جُنْدُع» ومَنْ كانَ معَهُ على أَمْرِهِ من رِهْطِه.

وأَرَادَ بعْض أشرافِ ثمودَ مِنْ بَعْدِهِ أَن يُؤْمِنُوا بِهِ ويُصَدِّقُوه، فنَهَاهُمْ «ذُؤَابُ بنُ عَمْرو بنِ لبيد» و«الْحُبَابُ» صاحب أوثانهم، و«رَبَابُ بْنُ صَمْعَر» وَكانُوا من أشراف ثمود، واستطاعُوا أن يُؤَثِّرُوا على سَادَةِ ثَمُود وأشْرافها.

فقال أحد الذين آمَنُوا بصالحٍ عليه السَّلام واتَّبَعُوه، وهو رجُلٌ يُقَال له: «مُهَوِسُ بْنُ عَنَمَة» شِعْراً بِشَأْنِ «شِهَابِ» عَزِيز «ثَمُود» جاء فيه قوله:

وَكَانَتْ عُصْبَةٌ مِنْ آلِ عَمْرٍو ... إلَىٰ دِينِ النَّبِيِّ دَعَوْا شِهَابا
عَزِيزَ ثَمُودَ كُلَّهُمْ جَمِيعاً ... فَهَمَّ بِأَنْ يُجِيبَ وَلَوْ أَجَابا
لأَصْبَحَ صَالِحٌ فِينَا عَزِيزاً ... وَمَا عَدَلُوا بِصَاحِبِهِمْ ذُؤَابا
ولَكِنَّ الْغُوَاةَ مِنَ آلِ حِجْرٍ ... تَوَلَّوْا بَعْدَ رُشْدِهِمُ ذُئَابا

(١١) قالوا: ووَلَدَتِ النَّاقةُ المعجزَةُ سَقباً (أي: وَلَداً ذَكَراً) ثُمَّ لمّا أَنْهَىٰ مُدَّة رَضَاعِهِ فُصِلَ عَنْ أُمِّهِ فصَارَ فَصِيلاً.

(١٢) وامْتَحَنَ اللَّهُ ثَمُوداً بِهٰذِهِ النَّاقَةِ امْتِحاناً صعْباً، فقال لهم نبيُّهم صالحٌ عليه السلام: هٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَة، فَذَرُوها تأكُلْ في أَرْضِ الله،

ولاَ تَمَسُّوها بسُوءٍ، فيأخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وقال لهم: إنَّ اللَّهَ رَبَّكُمُ الَّذِي أَخْرَجَ هذه الناقة لكم آيَةً كما طَلَبْتُمْ، أَمَرَ بأن يكون الماء الَّذِي تَشربُونَ مِنْهُ قِسْمَةً بَيْنَكُمْ، وَبَيْنَها مناصَفةً، لها يَوْمٌ مَعْلُومٌ تَحْضُرُ فيه، وَتَشْرَبُ الماء، ولَكُمْ يَوْمٌ مَعْلُومٌ تَحْضُرُونَ فيه، فَتَشْرَبُونَ وتَمْلَؤُون آنِيتَكُمْ وأَوْعِيَتَكُمْ.

(١٣) وَكانَتْ هٰذه الناقَةُ تَرْعَىٰ على ما تَشَاءُ يَوْماً، وتأتي إلى مَاءِ ثمود في اليوم التالي، فتنفَرِدُ بِشُرْبِ الماء، وتَفرُجُ لَهُمْ رِجْلَيْها يَوْمَ قُدُومِها حتَّىٰ يَحْلُبُوا مَا شَاءُوا لبناً من ضَرْعِهَا، وكانوا يَشْرَبُون من لَبَنِهَا قَدْرَ وُسْعِهِمْ، ويَدَّخِرُونَ مِنْهُ، حتَّىٰ يَمْلَؤُوا آنيَتَهُمْ، ثُمَّ تَصْدُرُ مِنْ فَجٍّ غَيْرِ الفَجِّ[1] الَّذِي قَدِمَتْ مِنه.

فإذَا كانَ الْغَدُ كَانَ الْيَوْمُ يَوْم شُرْبِهِمْ مِنَ الماء، فَيَشْرَبُونَ ما شَاءُوا، ويَدَّخِرُون ما شَاءُوا لِلْيَوْم الَّذِي هُوَ يَوْمُ النَّاقَة.

(١٤) قالوا: وكانت النَّاقَةُ إِذَا اشتَدَّ الحرُّ ارْتَقَتْ إلى المرتَفَعَاتِ في أَرْضِ ثمود، فتخافُ مِنها أنعَامُ القَوْم، فَتَهْرُبُ إلى بَطْنِ الوادي حَيْثُ الحرُّ والجدْبُ، وكانَتْ إِذَا أَقْبَلَ الْبَرْدُ هبَطَتْ إلى بَطْنِ الوادي، فخافت منها أنعامهم فهربت إلى المرتفعات حيث البرد والجدب فأضَرَّ ذَلِكَ بمواشيهم

(١٥) وصَعُبَتْ على ثمود معيشتُهُمْ مع هٰذهِ النَاقَةِ، بالشُروط الَّتي وُضِعتْ لها، وضاقت صدورهم منها، فاتَّفَقَ الَّذِين كَفَرُوا مِنْهُمْ على عَقْرِها.

(١٦) وكان في الْقَوْمِ امْرَأَتَانِ ذَوَاتَا شَرٍّ:

الأولى: امْرَأَةُ «ذُؤابِ بْنِ عَمرو» وهي «أُمُّ غُنم عُنَيْزَةُ بِنْتُ غُنمٍ» وقد كانت امرأةً عجوزاً ذاتَ بناتٍ حِسَان، وَمالٍ من إبلٍ وبقَرٍ وَغَنَم.

الأخرىٰ: «صَدُوفُ بِنْتُ الْمُحَبَّا» حَفِيدَةُ صاحِبِ أوْثانِ بَنِي عُبَيْد، وكانت ذاتَ جَمالٍ وَمَالٍ مِنْ إبلٍ وبقرٍ وغنم.

---

(١) **الفَجُّ**: الطريق الواسِعُ البعيد، جَمْعُ «فِجَاجٍ» وأَفِجَّة».

وكانتا من أشدّ امْرَأَتَيْن في ثَمُود عداوةً للنبيّ الرسُول صالح عليه السَّلام، وأعظم النساءِ كُفْراً به.

وإِذْ أَضَرَّتِ النَّاقَةُ في طَرِيقَةِ حياتها بأنْعَامِهِمَا، فَقَدْ حَرِصَتَا علَىٰ التخلّصِ من النَّاقَةِ بِعَقْرِها، وعَمِلَتَا عَلَىٰ ذَلِكَ بِمَكْرٍ وخُبْثٍ.

أمّا «صَدُوفُ» فَدَعَتْ رَجُلاً من ثَمُود يُقَالُ له: «الْحُبَاب» وَعَرَضَتْ علَيْهِ أَنْ تُسَلِّمَهُ نفْسَها، مُقَابلَ عَقْرِ الناقَةِ، فَأَبَىٰ.

فَدَعَتِ ابْنَ عَمٍّ لَهَا يُقَالُ لَهُ «مِصْدَع» وعَرَضَتْ عَلَيْه نَفْسَها مُقَابلَ أن يَعْقِرَ النَّاقَة، فَقَبلَ ذلك.

وأمّا «أُمُّ غُنْم عُنَيْزَةُ بنتُ غُنْم» فَدَعَتْ «قُدَارَ بْنَ سَالِفٍ» وكان رَجُلاً أَحْمَرَ أَزْرَقَ قَصِيراً ذَا شَرّ، فَعَرَضَتْ عليه أَنْ تُعْطِيَهُ ما شاءَ من بناتِها الحِسَان، على أَنْ يَعْقِرَ النَّاقة، وكان «قُدَارٌ» هٰذا عَزِيزاً مَنِيعاً في قَوْمه.

(١٧) فَانْطَلَقَ «قُدَارُ» و«مِصْدَع» فاسْتَنْفَرا غُوَاةً مِنْ ثَمُود، فاتَّبَعَهُما سبْعَةُ نَفر، فَرَصَدُوا النَّاقَة حِينَ صَدَرَتْ عَنِ الماء، وقَدْ كَمَنَ لَهَا «قُدَار» في أصْلِ صَخْرَةٍ على طريقها، وكمن لها «مصدع» في أصل صخرة أُخرىٰ، فَمَرَّت علىٰ «مِصْدَع» فرَمَاها بِسَهْم، فَانْتَظَمَ بِهِ عضَلَةَ سَاقِها، وأقبلَتْ «عُنَيْزَة» ومَعَها إحْدَىٰ بناتِها الْحِسَان، فَأَمَرَتْها بأَنْ تُسْفِرَ عَنْ وَجْهِها عِنْد «قُدار» لإغْرَائه بعَقْرِ النَاقَة، ففتَنَهُ حُسْنُ وَجْهِها، وحرّضَتْه أُمُّها علىٰ عَقْرِ النَّاقَةَ، فَشَدَّ علىٰ النَّاقةِ بالسّيف، فَكَشَفَ عُرْقوبها، ثُمّ طَعَنَ في لَبَّتِها فَنَحَرَها.

ثُمّ اتَّبَعُوا فَصِيلَهَا فَعَقَرُوه.

(١٨) فلَمّا عَقَرُوا النَّاقَةَ قال لهم رسولُهم صالح عليه السلام: أَبْشِرُوا بِعَذَابِ اللّهِ ونِقْمَتِه.

وَكان عَقْرُهُمْ للنَّاقةِ يَوْمَ الأربعاء.

قالوا له وهُمْ يَهْزَؤُون: وَمَتَىٰ ذَلِكَ يَا صَالِح؟ وما آيَةُ ذَلِك؟

قال لهم: تُصْبِحُونَ غَدَاةَ يَوْم الْخمِيسِ وَوُجوهُكُمْ مصْفَرَّة، ثُمَّ تُصْبِحُونَ يَوْمَ الْجُمْعَةِ وَوُجُوهكُمْ مُحْمَرَّة، ثُمَّ تُصْبحُونَ يَوْمَ السَّبْتِ وَوُجُوهكُمْ مُسْوَدَّةً، ثُمَّ يَنْزِلُ بِكُمْ عَذابُ اللَّهِ صَبَاحَ يَوْمِ الأَحَد.

(١٩) فلَمَّا قَال لهم رسُولُهم صالح عليه السَّلام مَا قَالَ: مُحَدِّداً مَوْعِدَ عذابِهم، قالَ النَّفَرُ التِّسْعَةُ الْمُفسِدُونَ، الَّذِين تَواطَؤُوا على المشاركة في عَقْرِ ناقَةِ الله، هَلُمُّوا فَلْنَقْتُلْ صَالحاً، فإِنَّهُ إنْ كان صادقاً عجَّلْنَاهُ قَبْلَنَا، وإِنْ كانَ كاذِباً أَلْحَقْنَاهُ بِنَاقَتِه.

فَأَتَوْهُ لَيْلاً لِيَقْتُلُوهُ، فَدَفَعَتْهُمُ الملائِكَةُ بالحجارة فَأَهْلَكَتْهُمْ، فلَمَّا أَبْطَؤُوا عَنْ أَصْحَابِهِمْ أَتَوْا مَنْزِلَ «صالحٍ»، فَوجَدُوهُمْ قَتْلَىٰ.

فقالوا لصالحٍ عليه السلام: أَنْتَ قَتَلْتَهُمْ.

(٢٠) ثمّ هَمَّ الْقَوْمُ بقَتْلِه، فحَمتْهُ عَشِيرَتُه، ولَبِسُوا السِّلاح، وقالوا لهم: واللَّهِ لاَ تَقْتُلُونَهُ، فَقَدْ وعَدَكم أَنَّ الْعَذاب نازِلٌ بكُمْ في ثلاث، فإِنْ كان صَادقاً لم تَزِيدُوا رَبَّكُمْ عَلَيْكُمْ إلاَّ غَضباً.

وإِنْ كان كاذِباً فأَنْتُم من وراء مَا تُرِيدون.

فانْصَرفُوا عَنهُمْ لَيلَتَهُمْ تِلْكَ، فَأَصْبَحُوا وُجُوهُهُمْ مُصْفَرَّةً، فَأَيْقَنُوا بالعذاب، وعَرَفُوا أَنَّ صالحاً قَدْ صَدَقهم، فطَلَبُوهُ لِيَقْتُلُوهُ فلَمْ يَتمكَّنُوا مِنْ ذلِكَ، وشَغَلَهُمْ عن ملاحقَتِه ما أَنْزَل اللَّهُ بِهِمْ من أماراتٍ ذَكَرَها لهم.

(٢١) وفي لَيْلَةِ اليوم الموعود لإِهْلاكهم، خَرَجَ صالحٌ عليه السلام، هو والَّذِينَ آمَنُوا بِه، وانحَازُوا إلى مكانٍ قَرِيبٍ لاَ يَنْزِلُ فيه العذاب، ثُمَّ تَوَجَّهُوا مُرتَحِلِينَ من أَرْضِهِمْ وَدِيارِهم جِهَةَ أَرْضِ الشَّام، حتَّىٰ نَزَلُوا رَمْلَةَ فِلَسْطين.

وكان ذلك بعْدَ أن تَمَّ إهلاَكُ كُفَّارِ ثَمُود.

(٢٢) لقد أرْسَل الله العزيز المنتقم الجبّار على ثمود الصيحةَ صبيحة يومِ الأحد، كما ذكر لهم رَسُولهم صالح عليه السّلام، وَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ، فلَمْ يَبْقَ مِنهُمْ كبيرٌ ولا صغيرٌ إلاَّ هَلَكَ.

وكذلك يفعل الله جلَّتْ حِكْمَتُهُ وعظُمَ سلطانُه بكُلّ المجرمين، متى صارَ صلاحُهُم أو صلاح بَعْضِهم مَيْؤوساً منه تماماً.

تِلْكَ سُنَّةُ الله في عباده في دار الابتلاء، ولَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً، ولَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ الله تَحْويلاً.

التدبّر:

● قول الله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ . . .﴿٧٣﴾﴾: أي: ولَقَدْ أرْسَلْنا إلى قبيلة «ثَمُودَ» أو القوم المعروفين باسم «ثَمُودَ» النبيّ الرَّسُول «صالحاً» وقد كان مِنْهُمْ نسَباً ولُغَةً ومَوْطِناً.

ودَلَّ على أنَّهُ عليه السَّلام مِنهم قولُ الله تَعالَىٰ: ﴿أَخَاهُمْ﴾ وقد سبَقَ بيان هذا لدىٰ تَدَبُّر قصَّة «هود» عليه السلام، عند قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ . . ﴿٦٥﴾﴾.

● قول الله تَعالى:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

نُلاحِظُ في هاتين الآيَتَيْن أنَّ الله تَبارَكَ وتَعَالَىٰ قَدْ لَخَّص مَقَالاَتِ «صالح» عليه السلام لقومه بثماني فِقْرات.

وهٰذِهِ الفِقَرَاتُ الثمانُ. قَدْ دَلَّتْ على ثماني مَقَالاَتٍ مفصَّلاَتٍ مُسْتَفِيضَاتٍ، شَرَحَ «صالحٌ» علَيْهِ السَّلاَم بها لقَوْمِه ما تَحْتَاجُ دعْوَتُهُ الحكيمَةُ إلَىٰ شَرْحٍ، ضِمْنَ عَنَاوِين هٰذهِ الفِقَرَات.

المقالة الأولى: دلَّتْ علَيْها عبارة: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾. هذه هي فَاتِحَةُ المقالاَتِ الّتي قَالَها نُوحٌ وهودٌ عليهما السَّلام لأقوامِهِمَا.

وقد بَدَأَ بِهَا صالحٌ عَلَيْهِ السلام في دَعْوَتِه قَوْمَه إلى سبيل ربّه: كما بدأ بها نوح وهودٌ عليهما السلام، وَشُعَيب (على ما سيأْتي بيانُه إن شاء الله) عليه السلام، وكُلُّ رَسُولٍ وَجَدَ قَوْمَهُ يَعْبدُونَ آلهةً من دون الله.

ومن المعلوم أنَّ الأمْرَ بعبادَة اللّهِ عزّ وجلّ إنّما يكُونُ بَعْدَ تَثْبِيت الإيمان بِرُبُوبيَّةِ اللّهِ جلّ جلالُهُ في قُلُوبِ المدْعُوِّين، وبَعْدَ تَثْبيت الإيمانِ بحَقِّ الرَّبِّ الْخالِقِ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدوه.

فإذا كان الإيمانُ بالرَّبّ الخالِقِ مُوْجُوداً لدى المدعُوّ إلى سبيلِ ربّه، فإنَّ البدْءَ يكُونُ بالدَّعْوَةِ إلى عبادَةِ اللّهِ الرَّبّ الخالق، والإقناعِ بِحَقّهِ علىٰ عِبَادِهِ فِي أَنْ يَعْبُدُوه.

وَيَظْهَرُ أنّ هؤلاء الأقوام كَانُوا يُؤْمِنُونَ باللّهِ خَالِقاً للسَّمَاواتِ والأرض، إلاَّ أَنَّهُمْ قَدِ اتَّخَذُوا من دُونه آلهةً يَعْبدُونهم من دون الله، لاعتقادهم أنْ آلِهَتَهُمْ تُشَارِكُ اللّهِ في بَعْضِ عناصِرِ رُبُوبِيّتِهِ، ولا سيّمَا ما يتعلَّقُ مِنْهَا بمصالحهم الدُّنيويَّة، كالرِّزْقِ والنّصْر والصّحَّةِ، والتوفيق في الأمور، وهِبَةِ الذُّرِّيَّةِ الصالحة، ونحو ذلك.

فهُمْ لا يَقُومون بما يجب عليهم تجاه ربّهم من عبادَةٍ على ما شَرَعَ لهم، وطاعَةٍ فيما أمَرَ عبادَه به أو نَهَاهم عنه.

فاقتضىٰ وَاقِعُ حَالِ هؤلاء الأقوام، أَنْ تَبْدَأَ دَعْوَةُ رسُلِهِمْ لهم بالأَمْرِ بعبادة اللَّهِ، الشَّاملة لمختلِفِ وجُوه الطَّاعَة، والتَّقرُّبِ إلىٰ اللَّهِ بما يُحِبُّ، وعلى الوجْهِ الذي يُحِبُّ ويَرْضَىٰ.

المقالة الثانية: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾: أي: مَالَكُمْ مِنْ مَعْبُودٍ يَصِحُّ أنْ تَعْبُدوه لحقّ رُبُوبيّته لكُمْ غَيْره إذ لا ربَّ في الوجود كله غيره.

﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ «منْ» حَرْف جَرٍ زِيد للتّنصيص على عُمُوم النفي في: ﴿مَا لَكُم﴾.

وقد دَلَّت هذه المقالَةُ علىٰ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ، اتَّخَذُوا آلِهَةً يَعْبُدُونها من دُونِ الله، فاقتضىٰ واقِعُ حالهم إقْنَاعَهُمْ بأَنَّهُ لاَ إِلَه يستَحِقُّ أن يُعْبَدَ بحَقٍّ إلاَّ اللَّهُ وحده لا شريك له، إذْ لاَ رَبَّ في الْوُجُودِ غَيْرُهُ، فلاَ يجُوزُ عقلاً، ولا يجُوزُ فيما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ رسَالاَتٍ لِعبادِه، أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُ الله الرَّبّ الخالق، بلْ يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له.

وتَوْجِيهُ مِثْلِ هٰذِهِ المقالَةِ لِقَوْمٍ مُشْرِكين، يَدُلُّ عن طَرِيق اللُّوازم الفكريَّةِ، مع الاسْتِنَادِ إلى مَعْرفَةِ طبائع النَّاس واخلاقهم، علىٰ أنَّ هَذا التوجيه لا بُدَّ أن يَجُرَّ إلى مجادلاَتٍ ومُنَاظراتٍ ذواتِ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ، لإثْبَاتِ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجَلَّ واحِدٌ فِي رُبُوبِيَّتِه، ووَاحِدٌ في إلَٰهيَّتهِ.

وقد قام «صالحٌ» عليه السّلامُ، وسَائِرُ رُسُلِ اللَّهِ بَوظيفَةِ اتَّخاذ مخْتَلِفِ الوسائل، لإقْنَاعِ أُمَمِهم بهٰذِهِ الحقيقَةِ الدِّينِيَّةِ الكُبْرَىٰ.

إنَّه إذَا لم يكُنْ في الوجُود رَبٌّ خالقٌ غَيْرُ الله، جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُهُ، فلا يجوزُ عَقْلاً أَنْ يُتَّخَذَ إلَٰهٌ يُعْبَدُ غَيْرُ اللَّهِ، سواءٌ أكان مع عبادة الله تبارك وتعالى، أم من دون ذلك.

المقالة الثالثة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

الْبَيِّنة: هي الواضِحَةُ الظَّاهِرَة الّتي لاَ شَكَّ فيها ولاَ غُمُوضَ ولاَ غَبَشَ عليها. من «**بَانَ الشَّيْءُ يَبِينُ بَيَاناً**» أي: اتَضَحَ، فَهُوَ «**بَيِّنٌ**» وهي «**بَيِّنَةٌ**».

وقَدْ أُطْلِقَت الْبَيِّنَةُ في القرآن، على الرِّسَالة الرَّبَّانيَّة الواضِحَة، وعلى الرَّسُول، وعلى الصُّحُفِ والكُتُبِ المنزَّلَةِ مِنْ عند الله عزّ وجلّ، وعلى الأيَاتِ والمعجزات الواضحاتِ الجلِيَّات.

ولفظ «بَيِّنَة» أو الْبَيِّنَة» قد يَأتي صفةً لموصُوفٍ محذوف ويُقَدَّرُ في كُلّ مَوْضُوعٍ بما يلائِمُهُ.

فمن إطلاق «البيِّنَة» على الرَّسُول والقرآن، قَوْلُ اللّهِ عزّ وجلَّ في سورة (الْبَيِّنَة/ ٩٨ مصحف/ ١٠٠ نزول):

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾.

والأَوْلَىٰ فيما أرَىٰ حَمْلُ لفظ [بَيِّنَة] في مَقَالةِ صالح عليْهِ السَّلامُ لقَوْمِهِ على معنى الرَّسُولِ والكِتَابِ الذِّكْرِ المنزَّلِ عَلَيْهِ، لأنَّ آيَةَ النَّاقةِ الْبَيِّنَةَ بإعجازِهَا، سيَأتي الحديثُ عنها في مقالة خَاصَّةٍ، فالأَوْلَىٰ حَمْلُ الْجُمَلِ المتفاصِلَةِ علَىٰ تأسِيسِ مَفْهُوماتٍ لم تُذْكَرْ سَابقاً، لاَ على تكمِيلِ مَفْهُومَاتٍ فَرْعِيَّة، لأنَّ المفهوماتِ الفرعيَّةَ يُمْكِنُ إدْرَاكُهَا عن طريق اللَّوازم الذِّهْنِيَّة.

فقَوْلُ «صالحٍ» عليه السلام لقومه: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يتَضَمَّنُ إيجازاً لمقالَةٍ طَوِيلَةٍ، أبان لهم فيها أنّهُ نَبِيٌّ رَسُولٌ مُرْسَلٌ من عِنْدِ الله ربّهم، ويَحْمِلُ لهم رِسالَةً واضحةً بَيِّنَةً مِنْ رَبِّهِمْ، وكتاباً بيّناً واضحاً.

وهذا الوضوح إنّما هو وضُوحُ الحقّ والْخَيْر والْهُدَىٰ، إمَّا من براهين الفكر، أو من دَلائل الفِطْرَة، أو من دلائل الاختبار والتجربَةِ وما تقدِّمه من حقائق عِلميَّة، أو مِنْ آيات الله في كَوْنه.

المقالة الرابعة: دلَّت عليها عبارة: ﴿... هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾﴾:

أي: هٰذِهِ نَاقَةٌ أَخْرَجها الله عزّ وجلّ لكم كما طَلَبْتُمْ، من الصخرة الَّتي عيَّنتُمْ، وطِبقَ الصِّفاتِ الّتي بَيَّنتُمْ وحَدَّدْتم حالَةَ كَوْنِها آيَةً معجزةً خارقَةً، تَشْهَدُ لي بأنّي رسُول الله إليكم.

ولمّا كانت هذه الناقَةُ آيَةً من الله لَهُمْ، سَمّاها صالحٌ عليه السلام: «نَاقَةَ الله» أي: ناقَة آيَةِ الله الخارقة، كما يُقالُ: «بَيْتُ الله» أي: بيْتُ عبادة الله، على حذْفِ مضاف.

أمّا الإضافة بمعنَىٰ الْمِلْك فلَيْس لهذه النّاقة خصوصِيَّةٌ في ملكيَّةِ الله لها، لأنّ كُلَّ ما في السماواتِ والأرض مِلْكٌ لله، وكلَّ مَنْ في السماواتِ والأرض عبيدٌ لله، ومِلْكٌ له وحده لا شريك له.

وإذْ أخْرَجَ اللَّهُ عزّ وجلّ لهم هٰذه الناقة طبقاً لطَلَبهم، فقد أَلزمَهُمْ بواجبات تجَاهها، سواءٌ آمَنُوا بِرَسُولهم أم كفَرُوا به، وقَدْ جعل الله عزّ وجلّ هٰذه التكاليف مادَّةً من موادّ ابتلائهم وفِتْنَتِهِمْ بما يَسُوؤُهم ويُضَايقُهم، لأنّهمْ هم الّذين عيَّنُوا الآية، ولم يُفوضُوا لله بأن يأتيهم بآيَةٍ مَا، تَشْهَدُ لهم بأنّ صالحاً رسُولُ الله حقًّا.

وقد جاء في النصّ هنا في سورة (الأعراف) من البيان حول هذه الآية المعجزة، أن يتركُوا ناقة الله تأكُلُ في أرْضِ الله كما تشاء، وعلى ما تشاء، وأن لا يمَسُّوها بسُوءٍ ما، في حُرِّيَّةِ مرعاها، فإذا مَسُّوها بسُوءٍ ما أَخَذَهُمْ عَذَابٌ أليم، أي أخَذَهُمْ من الحياة بالاستئصال، ما يَنْزِلُ بِهِمْ من عذاب يُؤْلِمُهُمْ ألماً شديداً.

ولم يكُنْ من المترقّب أن يمَسَّهَا المؤمِنُون بسُوء بل الّذِين سَيمَسُّونَها بسُوءٍ إذا آذاهم بقاؤها على ما فرَضَ اللَّهُ عليهم، هُمُ الَّذِينَ أصَرُّوا على

الكُفرِ برَسُولِ رَبّهم، بَعْدَ مَا شاهَدُوا بأعْيُنِهِمْ آيَةَ اللّهِ يُخرِجُها لهم علىٰ وفْقِ مَا طَلَبُوا.

وجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بيان أن العذاب الّذِي يأخُذُهم إذا مَسُّوها بسُوءٍ هو عذابٌ قريب، أي: يكون قَرِيب الأجل من عُدْوانهم عليها، فقال الله عزّ وجلّ فيها حكايَةً لمقالة صالح عليه السلام لقومه:

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾﴾:

أمّا الواجب الآخَرُ تُجاهُ هذه الآيَةِ المعجزة، فهو أنّ مَاءَ شُرْبِهِمْ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنها، فلَهُمْ يَوْمٌ خاصٌ بهم يَشْرَبُون فيه من الماء، ويتزوَّدُون فيه ما شاءُوا، وللنّاقة يومٌ خاصٌ بها، تأتي فيها فتنفَرِدُ بالشُّرْب من الماء، ويجب عليهم أن لا يَمَسُّوها بسُوءٍ بالنّسْبَةِ إلىٰ حَقّها في الْيَوْمِ المخَصَّصِ لشُرْبها مُنْفَرِدةً بالماء، فإذا مَسُّوها بسُوءٍ ما، لمنْعِها من هٰذا الحقّ أخَذَهُمْ من اللّهِ عذَابُ يَوْمٍ عظيم، وقَدْ دَلَّ على هذا قول الله عزّ وجلَّ في سُورةِ (الشُّعَراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية لمقالة صالحِ عليه السلام لقومه:

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥٦﴾﴾:

الشِّرْبُ: الحظُّ والنَّصِيبُ من الماء، وقِيلَ: وَقْتُ الشُّرْبِ ونَوْبَةُ الاسْتِقَاء.

أي: للنّاقة شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ من مائِكُم تَنفَرِدُ به، ولَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ آخَرَ مَعْلُومٍ، يكونُ لَكُمْ، لاَ تَأتي هِيَ إلى الماء فيه.

ولا تَمَسُّوها بسُوءٍ ما، بالنِّسْبَةِ إلَىٰ حَقّها من الماء في الْيَوْم المخصَّصِ لها، فإذَا فَعَلْتُمْ مَا نُهِيتُمْ عنه، أخَذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عظيم مِنْ رَبّكُمْ.

فتكامَلَتْ دَلَالاتُ النُّصُوصِ بالنِّسْبَةِ إلىٰ طعام النَّاقَةِ وشرابها، وكذلِكَ بالنِّسْبَةِ إلى العذابِ الَّذِي يأخُذُهم إذا مَسُّوها بسُوءٍ، للتخلُّصِ من حُرِّيَّةِ مَرْعَاها، أو للتخلّص من حَقِّها في اليوم المخصّصِ لشُرْبها، فجاء في النصوص: [فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ـ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ـ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ].

إِنّها نُصُوص متكامِلَاتُ الدَّلَالَات، لا مُتَطَابقات.

ودَلَّ النَّصُّ الَّذِي في سورَةِ (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) علىٰ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ أبَانَ خُطَّتَه لرسُوله «صالح» عليه السلام، قَبْلَ أنْ يُخرِجَ لَهُمْ الناقَة من الصَّخْرَةِ، ويُبَيِّنَ لهُمْ وَاجباتِهم في تَعَامُلِهم معها، فقال تعالى له:

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨)﴾.

﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾: أي: ابْتِلَاءً لَهُمُ بشَيْءٍ شَدِيدٍ علىٰ نُفُوسِهِمْ، تَضِيقُ به صُدُرُهم، حتَّىٰ إِذَا عَصَوْا نَزَلَ بِهِمُ العذاب.

المقالة الخامسة: دَلَّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ .. (٧٤)﴾:

أي: وضَعُوا في ذَاكِرَاتِكُمْ دواماً أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجَلَّ جعَلَكُمْ خلَفَاءَ في أرْضِ الْعَرَب، من بَعْدِ ما أهْلَكَ عَاداً أسَلَافَكُمْ، لِأَنَّهُمْ وصَلُوا إلى مِثْلِ الْحَالَةِ الَّتِي أنْتُمْ عَلَيْهَا الْيَوْم، من شِرْكٍ بِرَبِّكُمْ، وَعِبَادَةِ آلِهَةٍ مِنْ دُونه، وإفْسَادٍ في الأرض.

وأذْكُرُوا أَنَّ الَّذِين نَجَوْا من الهلاك الذي نزَلَ بعادٍ هُمُ الَّذِين آمَنُوا بِرَسُولِهِمْ «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلَام، وَنَبَذُوا شِرْكَهُمْ وأوْثَانَهُمْ، واتَّبَعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهم.

إنّ وضعَ هٰذِهِ الحقيقة في ذَاكِراتهم، واسْتَخْرَاجَها إلى ساحاتِ تَصَوُّراتِهِمْ وَقْتاً فَوَقْتاً، عنْدَ كُلّ مناسبة داعيَة، يَجْعلُ احْتِمالَ اعتبارهم واتّعَاظِهِمْ أرْجَىٰ، وأَسْرَعَ زَمَناً، وأيْسَرَ للاسْتِجَابَةِ وقَبُولِ النُّصْحِ، وَتَرْك سُبُلِ الشَّيْطانِ، واتّباع صراط اللّهِ المستقيم، صراط الرحْمٰنِ الرحيم، الّذي يَدْعُوهم إليه رسُولُ رَبّهم صالحٌ علَيْهِ السَّلام.

تأثير ذِكْرَيات التاريخ في النفوس:

إنّ ذكْرَيات التاريخ الإنْسَانيّ، تُثِيرُ لدَىٰ مَن وَعَاهَا وتَدَبَّرَهَا وأَدْرَكَ سُنَّةَ اللّهِ في أحْداثها، المطامِعَ والمخاوف.

فالمهْلَكُونَ من أهْلِ الْقُرُونِ الأُولى، بما كانَ مِنْهُمْ من أسْبابٍ اكْتَسَبُوها بإراداتهم الحرَّة، يُثِيرُ اسْتِذْكارُ قِصَصِهِم المخاوِفَ من اكتسَاب مِثْلِ ما اكْتَسَبُوا، لاتِّقاء مِثْلِ الْهَلاَكِ الشّامِلِ أوِ الجزئيّ الّذي نزَلَ بهم.

والنَّاجُونَ والمؤيَّدُونَ بتَأْييد الله، بما كان منهم من أعمال صالحةٍ وخَيْراتٍ تحلَّوْا بها، والْتَزَمُوها في حياتهم، يُثِيرُ اسْتِذْكارُ قصَصِهم المطامِعَ باتّباع طَرِيقَتِهم، والْعَمَل بمْثْلِ ما عَمِلُوا للظفر بمثْلِ مَا ظَفِرُوا به.

ففي نُفُوسِ الناسِ اقتناعٌ مُشْتَرَكٌ عامٌ بأنَّ سُنَنَ الكَوْن ثابتَةٌ، أمَّا المؤمِنُونَ بالله فيَعْلَمُونَ أنّها سُنَنُ الله، وأمَّا الأخَرُونَ فَيجِدُون أنَّهَا طبيعَةٌ ثَابِتَةٌ، فيَنْتَفِعُونَ بها.

وأمَّا الحمقَىٰ المتَعَجّلُونَ فيُغَامِرُونَ رَجَاءَ الاستِفَادَة من خوارِقِ السُّنَن الّتي قَدْ تَحْدُثُ نَادِراً، لحِكْمَةٍ مِنْ حِكَم اللّهِ الْجَلِيلَةِ، فَيُهْلِكُونَ أنْفُسَهم، أوْ يُضَيّعُونَ أعْمَارَهُمْ سُدىً، وهُمْ يَتّبعُونَ الأوْهام، ثُمّ لاَ يَقْبِضُونَ مِنْ مَطَامِعِهِمْ إلاّ كَمَا يَقْبِضُونَ مِنَ الرّيح بأكُفِّهِمْ.

المقولَةُ السادسة: دَلَّت عَلَيْهَا عبارَة: ﴿.. وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ... ﴿٧٤﴾﴾:

﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾: أي: وأنزلكم، وأعدَّ لكم وهيَّأ المكانَ والمنزلَ الملائم لكم. يُقَالُ لغة: بَوَّأَهُ المكانَ، أي: أنْزَلَهُ فيه. وبَوَّأَ المنزلَ له، أي: أعَدَّهُ وهَيَّأَهُ له، وأبَاءَ فُلَاناً مَنْزِلاً، أي: هيَّأَهُ لَهُ وأنْزَلَهُ فِيه. ويُقَالُ: تَبَوَّأَ المكَانَ، وتَبَوَّأَ بِهِ، أي: نَزَلَهُ وأقَامَ به.

فمَعْنَى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ هَيأ لَكُمْ في الأرض منازل تَسْكُنُونَها، ومَكَّنَ لكُمْ فيها، وجَعَلَكُمْ قادرين على أن تَتَّخِذُوا لَكُمْ فيها الْبُيُوتَ والقُصُورَ وسَائِرَ المسَاكِنِ والمنازِلِ المناسِبَةِ لمطالبكم وحَاجاتكم.

أي: وإذْ مكَّنَكُمْ في الأَرْضِ هَذا التمكينَ بمَا وضَعَ وهيّأ لكُمْ من أسباب، وبما أقْدَرَكُمْ على استخدامِها والانْتِفَاعِ بها، حتَّىٰ صِرْتُمْ تَتَّخِذُون مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً، فتقْطَعُونَ الصُّخُورَ مِن الجبال، وتَبْنُونَ بها القُصُورَ الفخمة، وصِرْتُمْ تَنحتُون الجبال، فَتُجَوِّفُونَ غُرَفاً في باطِنها، حتَّىٰ تكون الجبالُ لَكُمْ بُيُوتاً، تَبِيتُونَ فيها، فَتَحْتَمون بها من مُدَاهَماتِ أَعْدَائِكُمْ.

فاذْكُرُوا هٰذِهِ النِّعَمَ الجليلَةَ الَّتي أنْعَمَ الله بِها عليكم في أرْضِكُمْ، فآمِنُوا بِهِ، واعْبُدُوه وحْدَهُ، ولاَ تُشْرِكُوا بِعِبادَتِه شيئاً، وآمِنُوا بِرَسُوله الَّذِي أرْسَلَهُ إليكم، واتّبِعُوا ما أُنزِلَ إليكم من رَبّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا من دُونِه أولياء.

إنّ من أحْيَا في نَفْسِه تَذَكُّرَ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْه، ولَمْ تَصْرِفْهُ الغفلاتُ، أو المفْهُومَاتُ الباطلاتُ الصارفاتُ عن الرَّبّ الخالق، الّذي بِيَدِهِ مَقالِيدُ كُلِّ شيْءٍ وَهُو السَّمِيعُ البصير، كانَ أَقْرَبَ إلىٰ القيام بما يجِبُ عليه من حَمْدٍ للّهِ وَشُكْرٍ لَه، بالأعمال الصالحات الّتي تُقَرّبُهُ إليه وَتُكْسِبُهُ رِضْوَانه، وكانَ أسْرَعَ إلىٰ العمل بمَراضيه، ليفُوز بالنجاة من العذاب، ويَظْفَرَ بالسَّعَادة الخالِدَة الأَبَدِيَّة في جنَّاتِ النعيم يوْمَ الدّين، مَعَ مَا يُصِيبُ مِنْ حياةٍ طَيّبَةٍ مطْمئِنَّةٍ في الحياة الدُّنيا.

المقالة السَّابعة: دلَّت عليها عبارة: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾: أي: فإذا

ذَكَرْتُمْ ما أنعم اللَّهُ بِهِ عليكُمْ من كَوْنِهِ بَوَّأَكُمْ في الأرض تتَّخِذُونَ من سُهولِها قُصوراً، وَتَنْحتُونَ الجبالَ بُيُوتاً، استَطَعْتُم أنْ تَنتقلُوا بَعْدَ ذَلِكَ مُبَاشَرَةً إلى تَذَكُّرِ آلاَءِ اللَّهِ الكثيرة، الَّتي تَتَقَلَّبُونَ فِي نَعْمَائِها، في أجْسَادِكم، وفي مزارعكُمْ، وفِي أنعامِكم، وفي طَعَامِكُمْ وشرابكم، وفي أمْنِكُمْ، وفي كُلّ ما يُفيضُهُ عليكم من نِعَم فأنْتُمْ مطالَبُونَ بوضْعِها في سَاحَاتِ تذكُّرِكُم المتلاحِقِ حيناً فحِيناً، لتَحْمَدُوا اللَّهَ عليها وتَشْكُرُوه، ولتَعْبُدوه وحْدَهُ وَلاَ تُشرِكُوا به شيْئاً، ولتُطِيعُوهُ وتَعْمَلُوا بمراضيه، ولِتتَّبعوا رَسُوله، ومَا أُنزِل إليكم من رَبّكُمْ.

الآلاء: هي النِّعَم، واحِدُها «أَلْيٌ» و«إِلْيٌ» و«إِلَىٰ».

المقالة الثامنة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿..وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٧٤﴾:

أي: ولا تُفْسِدُوا في الأرض إفْسَاداً شدِيداً مُنْكراً.

العُثُوُّ: أشَدُّ الفساد، يُقَالُ لُغَةً: عَثِيَ يَعْثَىٰ عُثُوّاً وَعُثِيًّا وَعَثَيَاناً، أي: أفْسَد إفساداً شديداً مُنْكراً.

ويقال: عَثَا في الأَرْضِ يَعْثُو، أي: أفْسَدَ.

والإفساد: ضدُّ الإصلاح، ويكون الإفسادُ بِجَعْلِ الشَّيْءِ الصالح لِمَا هُوَ المقصودُ به غَيْرَ صالح له.

فقطْعُ الأشجار على سَبيلِ التَّخْريب، هو من الإفساد في الأرض وإلْقَاءُ القاذُورَاتِ والنجاسَاتِ والميكْرُوباتِ الضارَّةِ في مياه الشّرْب أو بالْقُرْب منها، أو في أماكِنِ سَكَنِ الناس، أو في مجالِسِهِم هُوَ من الإفْسَادِ في الأَرْض، وتَخريبُ الْعُمْرانِ لا لبناء ما هو خَيْرٌ منه، هو من الإفْسَادِ في الأَرْض، وقَتْلُ الأَبْرِيَاء وَظُلْمُ النّاسِ في أَنْفُسِهِمْ أَوْ أموالهم أو أعراضِهِمْ، هو من الإفساد في الأرض.

إلى غير ذلك من صُورٍ وأعمال لا تُحْصَىٰ وَلاَ تُسْتَقْصَىٰ.

وَدَلَّتْ مقالَةُ صالح عليه السّلاَمُ هٰذه لقومه على أنَّ ثَمُوداً قَدْ وَصَلُوا إلى دَرَكَةٍ من السُّوءِ كانُوا فيها يَعيثُونَ في الأرْضِ فَسَاداً بوجْهٍ عامّ، إلاّ قليلاً منهم.

﴿مُفْسِدِينَ ﴾: حالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِعَامِلِها، أي: ولا تُفْسِدُوا حالَةَ كَونِكُمْ قَاصِدِين الإفسادَ وبَاغِينَ الإضرار، وفاعلين لهما.

❁ ❁ ❁

● قول الله عزّ وجل:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ٱلْمَلَأُ ﴾: هم كُبَرَاء القوم وأعْيَانُهُمْ وذَوُو الوجاهة فيهم، الّذين يَمْلَؤُونَ عُيُونَ الجمهور الأعظم من العامّة.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾: أي: الّذين اسْتَكْبَرُوا من ثمود عن الإيمان بصالح عليه السلام، وعَنِ اتباعِهِ واتِّباعِ ما أُنْزِل إلَيْهِمْ من رَبّهم، إذْ رَأَوْا أنْفُسَهُمْ أَكْبَرَ وأعْلَىٰ من أن يَتَّبِعُوا صالحاً، ويكُونُوا مَعَ الّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، ورُبَّما كانُوا هم ذوي السُّلْطان والأمْر النّافذ في قومهم.

لقد رَفَضَ هؤلاء دَعْوَتَه ومَعَهُمْ أتباعُهُمْ من عامَّةِ ثمود، ولم يَسْتَجِيبُوا له، ولم يُؤْمِنُوا به وَلاَ بما جاءهم به من عند الله من حقٍّ وَهُدَى.

ولم يَقْتَصِرْ هؤلاء المستكبِرُونَ علىٰ الكُفْرِ ورَفْضِ الاستجابَةِ لِدَعْوَة الحقّ، بَلْ تَوَجَّهُوا للْمُسْتَضْعَفِينَ من قومهم الذين آمنوا بصالح عليه السَّلاَمُ واتَّبَعُوه، ليفتِنُوهم عن دينِهِمْ، ويَرُدُّوهُمْ عمَّا آمَنُوا به، ويُعِيدُوهم في مِلَّتِهِمْ،

ولِيُسْمِعُوا جَمَاهِيرَهُمُ الَّذِين لم يُؤْمِنُوا بَعْدُ بِرَسُولهم، بُغْيَة التَّأْثِيرِ عليهم، حتَّىٰ يَتَوَقَّفُوا عن اتّباعِ نُظَرائِهم الذين آمَنُوا واسْتَجابُوا لِدَعْوَةِ الحق، فَمِنْ شَأْنِ النُّظَرَاءِ أَنْ يَجُرَّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، ويُؤَثر بعضُهم على بعض.

واختيار عِبارة: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾ يُشْعِرُ بأن الكَفَرَةَ المستَكْبِرِين، قَدْ جَمَعُوا جَمَاهِيرَ المسْتَضْعَفِين، من آمَنَ مِنهُمْ ومَنْ لم يُؤْمِنْ، وخَاطَبُوا الذين آمَنُوا ليُسْمِعُوا الآخَرِين.

هٰذِهِ الْمَرْحَلَةُ وأمْثَالُها تكُونُ عادَةً عِنْدَ تَخَوُّفِ كُبَرَاء الكافِرِين، من أنْ يُؤْمِنَ المستضْعَفُونَ الَّذِين هُمْ أَتْبَاعُهُمْ وأنْصَارُهم، فَيَخْرُجُوا عن سُلْطَانِهِمْ، ويَكُونُوا قُوَّةً للمُؤْمِنِينَ، وقُوَّة للرَّسُول الَّذي كذَّبُوهُ، وخَالَفُوه، ونَاصَبُوهُ العِداء.

وكانَ أُسْلُوبُ هَؤلاء المضِلِّينَ، يَعْتَمِدُ على الابْتِعَادِ عَنِ المجادَلَةِ حَوْلَ مَفْهُومَاتِ الدّينِ، الَّذِي آمَنَ بِهِ فَرِيقٌ من الْمُسْتَضْعَفِينَ، لِأَنَّ حُجَّتَهُمْ حَوْلَهَا قَوِيَّةٌ وَدَامِغَةٌ. فَاخْتَارُوا أَنْ يَسْأَلُوهم عَنْ شَخْصِ «صالحٍ» عليه السَّلامُ، نَبِيِّهِمْ وَرَسُولِهم، لِيَجِدوا فِي شخصِهِ شيئاً يُعْطِيهِم فُرْصَةً للتَّشْكِيكِ في كونِهِ نَبِيًّا رَسُولاً من رَبِّهِ، فقالوا:

● ﴿.. أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ .. ٧٥﴾.

أي: هل لَدَيْكُمْ أدِلَّةٌ قَوِيَّةٌ تُثْبِتُ أنَّ صالحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ حقًّا وصِدْقاً.

فأدْرَكَ المسؤولونَ المكِيدَةَ الجدَلِيَّةَ، فَلَمْ يُجِيبُوهم عمَّا سألُوا عنه، بَلْ رَدُّوا عليهم بأنَّ مَضْمُونَ رِسَالَتِه الَّتِي جاءَ بِهَا حقٌّ وصِدْق، وتَشْهَدُ لَهُ البراهِينُ، فَهُمْ يُؤْمِنُونَ بما أُرْسِلَ به:

● ﴿.. قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٧٥﴾.

أي: لا تجادِلُونا في شَخْصِ النبيّ الرَّسُول «صالح» عليه السلام، ولَكِنْ نَحْنُ مُسْتَعِدُّون لمجادلتِكُمْ حَوْلَ مَا أُرْسِلَ به، فَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ به، وإذا كان كُلُّ ما جاء بِهِ حقًّا يجب الإيمانُ به، فَمِنَ الزَّيْغِ عَنْ جَوْهَرِ قَضِيَّةِ الدِّين التَّشاغُلُ بالبحْثِ في شَخْصِ مُبَلِّغِهِ عَنْ رَبّه، وكَوْنُ مَا جاءَ به حقًّا وَصِدْقاً دَلِيلٌ كافٍ لإثبات أنّهُ نبيٌّ مُرْسَلٌ مِنْ رَبّه.

وطَرِيقَةُ هؤلاءِ المؤمِنينَ في هذا الردِّ من الحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ فِي أساليب الجدَلِ حَوْلَ قَضَايا الحقّ.

عندئذٍ لم يَجِدِ المستكْبِرُونَ حُجَجاً يُبْطِلُونَ بها مضْمُونَ الرِّسَالة الَّتي أُرْسِلَ بها «صالحٌ» عليه السلام، فَلَجَؤوا إلَىٰ أسْلُوب إصْرَارِ الْمُسْتَكْبِرِ المعانِدِ بوَقَاحَةٍ، مغلِنين كُفْرَهُمْ بما آمَنَ بِهِ المؤمِنُونَ مِنْ حَقّ، دُونَ أَنْ يُقَدِّمُوا حُجَّةً ما، اعْتِمَاداً على أَنَّهُمْ أصْحَابُ الْقُوَّةِ والسُّلْطَانِ في قَوْمِهِمْ، دَلَّ على مَوْقِفِهِمْ هَذَا قَوْلُ الله تَعَالى:

- ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

وَلاَ بُدَّ أنْ يَتَوَقَّفَ الجدالُ عنْدَ هَذِهِ المكابَرَةِ بالْبَاطل، والإصْرارِ على رَفْضِ الحقّ.

لكِنَّ المكابَرَة تَتَضَمَّنُ في الحقيقة هزيمةَ المكابِرِ، وإدَانَتَهُ لَدَىَ الْعُقَلاَءِ، ولَدَىٰ كُلّ ذِي فِكْرٍ سَلِيم.

❁ ❁ ❁

- قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

دلّت الآية الأولىٰ (٧٧) من هذه الآيات الثلاث، على أنَّ كُفَّار «ثمود» قَدْ فَعَلُوا ثَلاَثَةَ تَحدِّيَاتٍ، تَحَدَّوْا بِهَا رَسُول رَبِّهِمْ، بَعْدَ إمهالٍ كافٍ من الله عز وجل لهم، وبلوغهم حالةً ميؤوساً منها، استكباراً وعِناداً وَإصراراً على الباطل، وكانت تَحَدِّيَاتُهُمْ تَحدِّيَاتٍ للّهِ رَبِّهِمْ جَلَّ جلالُه في حقيقة الأمر.

فقضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ بإهْلاَكهم جَمِيعاً، كَمَا جاء في الآية الثانية (٧٨) من هذا النص، وقضَتْ أيْضاً بنجاة «صالح» عليه السّلاَمُ والَّذِين آمَنُوا به، أخْذاً من دَلاَلَة الآية الثالثةِ (٧٩) مِنْ هذا النصّ.

التحدّي الأول: دَلَّتْ عليه عبارة ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ ..﴿٧٧﴾﴾. إنَّهُمْ لَمْ يُبَالُوا بإنْذَارِ «صالح» عليه السّلامُ لهم بأنْ يأخُذَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ أَلِيم، وقَرِيبٍ، في يَوْمٍ عظيم، إذَا مَسُّوا نَاقَةَ اللَّهِ بِسُوءٍ ما، فَكَانَ مِنْهُمْ عَقْرُهَا ونَحْرُها، بجريمَةٍ كُبْرىٰ، وهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا آيَةُ اللَّهِ لَهُمْ، إذْ أَخْرَجَها لهُم من الصَّخْرَةِ الَّتِي عَيَّنُوها،، وعلى الوصْفِ الَّذِي حَدَّدُوه، وهٰذِهِ حماقَةٌ لاَ يَفْعَلُها إلاَّ جَبَّارٌ مَغْرُورٌ مُسْتَكْبر.

التَّحدِّي الثاني: دَلَّتْ عَلَيْهِ عبارة: ﴿.. وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ..﴿٧٧﴾﴾.

لَقَدْ وَجَّهَ «صالحٌ» عليه السَّلامُ لهم أوَامِرَ من الله لهم تَتعلَّقُ بالإيمان، وبالعِبَادَة، وبأنواعٍ من السّلُوك. والأَمْرُ يَشْمَلُ مَا يَجِبُ فِعْلُه، وما يَجِبُ تَرْكُه، فالأَمْرُ بالشيءِ نَهْيٌ عن ضِدِّه، والنَّهْيُ عَنِ الشيْءَ أَمْرٌ بِضِدِّه.

فيَدْخُلُ في عُمُومِ عُتُوِّهِمْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ تماديهم في الإفساد في الأرض، الَّذِي نَهاهُمْ عنْهُ رَسُولُهُمْ بِقَوْلِهِ لهم: ﴿.. وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

[عَتَوْا]: أي: اسْتَكْبَرُوا وَتَجاوَزُوا حُدُودَ المعاصِي المعتادة في الناس، وتجاوزوا حُدُودَ الإفساد الذي توجَدُ نِسْبَةٌ ما مِنْه في كُلّ أُمّة، وغَلَوْا غُلُواً

فاحشاً في ذلِكَ كَمّا وكَيْفاً، حتّىٰ بَلَغُوا إلى حَضِيضٍ تَقْتَضِي حِكْمَةُ اللَّهِ مَعَهُ أَنْ يُنْزِل بهم عقاباً صَارِماً حازماً شامِلاً.

يُقَال لُغَةً: عَتَا فُلَانٌ يَعْتُو عُتُوّاً وعُتِيًّا وَعِتِيًّا، أي: تجاوزَ الحدَّ المحتَمَلَ الَّذِي قَدْ يُصْبَرُ عليه، إلى ما لا يُحْتَمَل ولا يُصْبَرُ عليه، من اسْتِكْبَارٍ وَمُعَانَدَةٍ وَعِصْيان.

والعَاتِي: هو الطَّاغي الجبّارُ الْمُفْسِد.

وقد ضُمِّنَ فِعْلُ [عَتَوْا] في العبارة مغنَىٰ فعل «ابْتَعَدُوا» أَوْ فِعْلِ «تَوَلَّوْا» فَعُدِّيَ تَعْدِيتَه، فقال تعالَىٰ: ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: فَعَتَوْا مُبْتَعِدِين ومُتَوَلِّينَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهم، فأكْثَرُوا الْفَسَادَ والإفسادَ في الأَرْض.

وقَدْ جاءَ في بيان أسْبَاب إهلاكهم الشَّامِلِ المعجَّلِ في الدُّنيا في سورة (الْفَجْرِ/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) أَنَّهُمْ طَغَوْا في الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فيها الفساد، كما فَعَلَتْ «عاد» وكما فَعَلَ فِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَاد.

إنَّ الطُّغْيَانَ وَكَثْرَةَ الْفَسَادِ في الأَرْضِ مِنْ قِبَلِ أُمَّةٍ ما، مِنَ الأَسْباب الَّتي تقتضي حكْمَةُ اللَّهِ العزيز الجبار الْقَهَّارِ معها إهْلَاكها إهلاكاً شاملاً، أو قريباً من الإهلاك الشامل.

التحدِّي الثالث: دَلَّتْ عليه عبارة: ﴿. . وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

لقد اسْتَمَرُّوا على اعتقاد أنّه كذَّابٌ وَلَيْسَ رَسُولاً مِنَ الْمُرْسَلِين، على الرَّغْمِ من آيَةِ النَّاقَةِ الَّتي أَخْرَجَها اللَّهُ لهم من الصَّخْرَةِ وهُمْ شُهُودٌ يَنْظُرُونَ.

ويظهَرُ أنَّ الَّذِي غرَّهم فأعْلَنُوا هٰذَا التَّحدِّي، هو إمْهَالُ اللَّهِ لَهُمْ زمَناً طَويلاً على كُفرِهِمْ وَعُتُوِّهم وإفسادهم في الأَرْضِ، وقُدْرَتُهُمْ على عَقْرِ نَاقَةِ اللَّه دُونَ إنْزَال العِقَابِ الْفَوْرِيّ بِهِمْ على عَقْرِهم لها.

ولَعِبَتْ الأوْهَامُ في نُفوسِهِمْ فأبْعَدَتْهُمْ عن استِبْصَارِ الحق، ورُبَّما تَصَوَّرُوا أَمْرَ النَّاقَةِ نَوْعاً من السِّحْرِ.

من البَدَهِيِّ أنَّهم لم يُرِيدُوا فِعْلاً أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ بِهِمْ عذاباً بِإهْلاَكٍ عامٍّ شامِلٍ، وإنَّما تَوَهَّمُوا أنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتجيب لصالح، إذْ هُوَ في اعتقادهم القائم على الغرور ليس رَسُولاً، وقَدْ دَلَّ على هذا قَوْلُهُم له: ﴿..إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ فقد جاءت العبارة معلَّقَةً على «إِنْ» الشَّرْطية، الَّتي تُسْتَعْمَلُ في الأَمْرِ المشكوكِ في وُجُودِه، أو المجزوم بعَدَمِ وُجوده.

وعقِبَ هٰذه التحدِّيَاتِ أنْزَلَ اللَّهُ بهم عِقَابَهُ وعذابَهُ فَأَهْلَكَهُمْ جَمِيعاً.

● قولُ الله تعالى:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾:

[فَأَخَذَتْهُمُ]: أي: فأهْلكَتْهُمْ وَأَمَاتَتْهُمْ، وقَدْ جَاءَ التعبير في القرآنِ المجيد بالأَخْذِ، للدَّلاَلَةِ على معْنَىٰ الإهْلاَكِ والإِمَاتَةِ مع التَّعْذِيب.

لِأَنَّ أَخْذَ النَّاسِ أفراداً أو جماعَاتٍ أو أُمَّةً كاملَةً مِنْ قِبَلِ اللَّهِ عز وجلّ خالِقِهِمْ، يكُونُ بأَخْذِهم من الحياة الدُّنيا، وَذَلِكَ يَكُونُ بأَخْذِ حيَاتِهِمْ، ولو بقيت أجْسَادُهم، لأنَّهَا عِنْدَئذٍ تَبْقَىٰ سَاكِنَةً هَامِدَةً، أو مُمَزَّقَةً مُحطَّمَةً مُهَشَّمَةً مُشَوَّهَةَ المنظر.

الرَّجْفَة: الزلْزَلة، يُقال لغة: رَجَفَتِ الأرْض تَرْجُف رَجْفاً، إذا حَصَلَتْ فيها زَلْزَلَة.

وحين تكون الزلْزَلَةُ في الأَرْضِ شَدِيدَةً فإنَّهَا تُدَمِّرُ كُلَّ مَا عَلَيْهَا من أشياء، وتُهْلِكُ النَّاسَ وكثيراً ممَّا عَلَيْهَا مِنْ أحياء.

وإهلاك كُفَّار «ثمود» لم يَحْتَجْ أكْثَرَ مِنْ زَلْزَلَةٍ واحِدَةٍ شَدِيدَة، رافَقَتْها صَيْحَةٌ شديدَةٌ واحدة، دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾.

﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾: **الهشيمُ**: ما يَبِسَ من النباتاتِ وتكسَّر ونحوها. **والمُحْتَظِر**: مَنْ يُرِيد أَنْ يَصْنَعَ حظيرَةً لدَوَابّه، فَيُعِدُّ أكواماً من الهشيم ليُقِيم مِنها السِّياج.

أي: صاروا هَلْكَىٰ مُمْتَهَنِينَ كَأَكْوامِ الهشيم.

فَدَلَّ النَّصَّان على أنَّ الزَّلْزَلَة الَّتي حصَلَتْ في أرضهم لإهلاكهم، قد كانت مصحوبَةً بِصَيْحَةٍ، أي: بصَوْتٍ عظيم جدًّا يَقْتُلُ عن طريق السَّمْع.

لقَدْ تَعَوَّدْنَا أَنْ نَسْمَعَ أصْوات الرُّعُود، لكنّ صَوْت الرَّعْدِ إذا اشْتَدَّ أَكْثَر من احتمال الناسِ قَتَلَهُمْ، وقد أشار إلى هذا قول الله عزَّ وجَلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشَأْنِ المنافقين.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾.

وكانت الصيْحَةُ الّتي أهلك الله بِهَا «ثَموداً» مصحوبَةً أيضاً بصاعقة، دَلَّ على هذا قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلَّ في سُورَةِ (الذَّارِيَاتِ/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) بشأن ثمود قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام:

﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

وكانت هٰذِه الصَّاعقةُ مصْحُوبةً بالْعَذَاب الْهُونِ، أي: بالعذاب الذي هو ذُلٌّ ومَهَانَةٌ وخِزْيٌ، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلَّ في سُورَةِ (فُصِّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

فَتَكامَلَتِ النُّصوصُ في الدَّلاَلَةِ عى المعاني المراد بَيَانُها.

وإذْ أخذَتِ الرَّجْفَةُ المصحوبَةُ بالصَّيْحَةِ، المصْحُوبَةِ بِصَاعِقَةِ الْعَذَاب الْهُونِ، ثَمُوداً أَخْذَ تَعْذِيبٍ وإهْلاَكٍ، أصْبَحُوا في صَبَاحِ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ في دَارِهِمْ جَاثِمِين.

[جَاثِمِينَ]: أي: لاَصقين بالأرضِ على رُكَبِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ مُلازِمينَ أمْكِنَتَهُمْ وهُمْ هَلْكىٰ.

وسبَق بيان أنّ الله عزّ وجلّ شبَّهَ جُثُومَهُمْ وهم هَلْكَىٰ بأنَّهُمْ كهَشِيمِ الْمُحْتَظر، أي: كأعْوادِ الأشجار والأحْطابِ والأَشْواكِ الَّتِي يَجْمَعُها من يُرِيد أن يَبْنِيَ حظيرة لدوابّه، ويُحِيطها بسياجٍ من هذا الهشيم.

● قوله تعالى بشأن صالح عليه السَّلامُ بَعْدَ أَنْ أَهْلَكَ كُفَّارَ قَوْمِهِ ونَجَّاهُ ونَجَّىٰ الَّذينَ آمَنُوا مِنْ قَوْمِهِ وَكانوا يَتَّقون في الآية (٧٩) من سورة (الأعراف):

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾: أي: فانصَرَفَ عن أَرْضِ ثَمُود مهاجراً بالَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبعُوه وأنجاهم الله، إلى أرْضٍ أُخْرَى.

ودلَّ العطف بالفاء على أنّ هذا التولّي قَدْ كانَ عَقِبَ إهلاك كُفَّار قومه.

ويَظْهَرُ أن «صالحاً» عليه السلام قَدْ أَمَرَهُ الله بأن ينحَاز مع الذين آمنوا به واتبعوه إلى مكان آمن بتقدير الله، غَيْرِ بَعِيدٍ عن مساكِنِ ثمود، وبَعْدَ إهلاك كُفَّارِ قَوْمه أَمَرَهُ اللّهُ بِأَنْ يُهاجِرَ عن كُلِّ أَرْضِ ثَمُود.

وعنْدَ تَوَلِّيهِ بمَنْ مَعَهُ، خَاطَبَ كُفَّارَ قَوْمِهِ وهُمْ هَلْكَىٰ بِعبَارَاتٍ ثَلاث:

العبارة الأولى: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾: أي: أَدَّيْتُ الأَمَانَةَ الَّتِي كَلَّفَنِي رَبِّي أَنْ أَبلِّغَكُمْ إيَّاها، وقُمْتُ بواجبي تُجاهَكُمْ، لَمْ أَزِدْ على ما أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ أُبلِّغَكُمْ إِيَّاهُ شيئاً، ولم أَنْقُصْ مِنْهُ شيئاً.

من الملاحظ أنَّ «صَالحاً» علَيْهِ السَّلاَمُ لَمْ يَقُلْ رِسَالاَتِ رَبِيّ بالجمع، كما قال «نوح» عليه السلام لقومه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ وكما قال: «هود» عليه السلام أيْضاً: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾. وكَمَا قَالَ «شعَيْبٌ» عليه السلام لقومه، بَعْدَ أنْ أُهْلِكُوا: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾.

ويَظْهَرُ أنَّ هذا الاختيار البيانيّ فيهِ دَلاَلَةٌ ضِمْنِيَّةٌ عَلَىٰ أنَّ الله عَزَّ وَجلَّ قَدْ أنْزَلَ على «صَالح» علَيْهِ السَّلاَمُ، الرِّسَالَةَ جُمْلَةً وَاحِدَةً، ولَمْ يَجْعَلْهَا بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ مُنَجَّمَةً مُجَزَّأَةً، لحكْمَةٍ خَاصَّةٍ بِقَوْمِه.

وقَدْ يُؤَكِّدُ هذا الفَهْمُ مَا جاء في سُورةِ (الْقَمَر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) حكايَةً لمقالة قَوْمِهِ بشأنه:

﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾.

فجاء التعبيرُ بإلْقَاءِ الذِّكْرِ لاَ بإنْزَاله وَلاَ بتَنْزيله، والإِلْقَاءُ يُشْعِرُ بأنَّهُ كانَ باسْلُوب الدُّفعَةِ الواحدة، لا بأسْلُوب التَّنْزيل المنجّم.

العبارة الثانية: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾: أي: وَبَذَلْتُ مِنْ أجْلِكُمْ كُلَّ مَا أَسْتَطِيعُ مِنْ نُصْحٍ، بالإقناع، والموعِظَةِ الحسَنَةِ بالترغيب والترهيب، والمجادلَةِ بالَّتي هي أحْسَن، مع الصَّبْر، وسَعَةِ الصَّدْرِ، والْحِلْم، وتَحمُّلِ الأذى. يقال لغةً: نَصَحَهُ ونَصَحَ لهُ.

فدلّت هذه العبارة على أنَّ صالحاً عليه السلام قد دَلّ قومَه على ما فيه خيرهم، ورَغَّبَهُم فيه، وأخْلَصَ لهم بتقديم الحقّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ خَالِصَةً من كلّ شائبة، وبَرِيئاً من أيَّةِ مصلَحَةٍ شخصيَّةٍ لَهُ عِنْدَهُمْ، إنَّما يَرْجُو أجْرَهُ عليه السَّلاَمُ عنْدَ رَبّه.

العبارة الثالثة: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾: أي: ولَكِنْ كُنتُمْ حتَّىٰ نَزَلَ بكُمْ العذابُ والْهلاَكُ، لا تُحِبُّونَ في الحال ولا في الاستقبال، النَّاصِحِينَ الَّذِينَ تَرَوْنَ فِي نُصْحِهِمْ أَنَّهُمْ يَبْعِدُونكم عن أهوائكم وشهواتكم وَرَغباتِكُمْ، في الْفُجور، مَعَ أنَّها سَتَكُونَ أسباب شَقَائِكُمْ، وسَخَطِ اللَّهِ عليكم، وأنْتُمْ مُتَشبِّثُونَ بِها، وَتَرَونَ في تَعَلُّقِكُمْ بها سعادتكُم.

ويُشْعِر الفعل المضارع في: ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ أنَّهم لَوْ لَمْ يُهْلِكْهُمُ اللَّهِ، واسْتَمَرُّوا بَاقِين في الحياة الدُّنيا، لا سْتَمَرُّوا على هٰذا الوصْفِ لاَ يُحِبُّونَ النَّاصِحِين.

❁ ❁ ❁

الفصل الرابع
التدبُّر التحليليّ للّقطاتِ المختارات
في هذه السورة من قصة لوط عليه السلام وقومه
الآيات من (٨٠ ـ ٨٤)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

القراءات:

● قرأ ورْشٌ وأَبو جَعْفر: [إِنَّكُمْ لَتاتُونَ] بالإِثبات، وبالأَلِفِ اللّينة بعد التاء.

وقرأ قالون وحفص: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ بالإثبات، وبالهمْزَةِ الساكنة بعد التاء.

وقرأ السُّوسي: [أإِنَّكُمْ لَتَاتُونَ] بزيادة همزة الاستفهام، وبالألِفِ اللّينة بعد التاء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ] بزيادة همزة الإستفهام وبالهمزة السّاكنة بعد التاء.

أما إبدال الهمزة ألفاً ليّنة فهي من اللّهجَات العربية.

وأمّا القراءتان: ﴿إِنَّكُمْ﴾ و[أَإِنَّكُمْ] فبينهما تكامل في الأداء البياني، فدلّت قراءة: ﴿إِنَّكُمْ﴾ على أنَّ لوطاً عليه السَّلامُ خاطبهم أوّلاً مثبتاً، ودلَّتَ قراءة: [أإِنَّكُمْ] على أَنَّه صار يخاطِبُهم بعد ذلك مسْتَنْكِراً ما يمَارَسُونه من فاحشَةٍ شنيعة، فاقُوا بها كُلَّ أهل الفواحِش، بأسْلوب الأستفهام الإنكاري، التشنيعيّ.

- وقرأ حمزة، ويعقوب: [عَلَيهُمْ] بضمّ هاء الضمير.

وقرأ باقي القراء العشرة: [عَلَيهِمْ] بكَسْرهاء الضمير.

والقراءتان وجهان عربيان في النطق.

موجز عن لوط عليه السّلام وقومه عند المؤرخين:

هو «لوط» ابن أخي «إبراهيم» عليه السلام «هاران بن تارح» وهو «آزر» بن ناحور، وهكذا إلى آخر نسب إبراهيم عليه السلام، على ما ذكر المؤرخون، والله أعلم.

آمن «لوط» بعَمِّه «إبراهيم» عليهما السلام، وهاجَر معه من أرض ما بين النهرين (العراق) إلى كَنْعان (فلسطين) متابعاً له في هجرته، وأرسله الله في حياة عمِّه «إبراهيم» إلى أهل «سَدُوم»، وكانوا يعيشون في مكان البَحْرِ الميّتِ المعْرُوفِ الآن في الأُرْدُن.

ذكر المؤرّخون أنّ أهْلَ «سدوم» كانوا نحواً من أربعمائة ألف، وأنّ لهم خمسَ قرى، هي «صبغة ـ عَمْرة ـ أَدَمَا ـ صَبُويم ـ بالع» ورُبَّما كانت «سَدُوم» المركز الرّئيس لهذه القرىٰ، واسماً عَامًّا لكلّ أرضهم.

وقد جاءَتْ تَسْمِيَتُهم في القرآن بقوم لوط، وكانت دعوة «لُوطٍ» عليه السلام لقومه على مثل دعوة سائر الرُّسل عليهم السلام.

وكان هؤلاء القوم أهْلَ شُذُوذ جنسيٍّ، يأْتُونَ الرّجال شَهْوَةً من دُونِ النّساء، وكانُوا يجاهِرُون بفواحِشِهم، فيفْعَلُونها وهُمْ مُجْتمعون ينْظُرُ بعضُهم إلى بعْض، وكانُوا يأْتونَ المنكَرَ في نواديهم، وكانُوا يقْطَعُونَ السبيل، فَلا يَدَعُونَ مسافراً أو تاجراً يَمُرُّ في طَرِيقهم إلاَّ آذَوْهُ، واعْتَدَوا عليه، ورُبَّما سَلَبُوهُ مالَهُ.

ولمَّا أكْثَرَ «لوطٌ» عليه السلام في نَهْيِهِمْ عن فواحِشِهِمْ ومُنْكَراتهم، لم يكن من قومه إلاّ أن قالوا: أخرِجُوا لوطاً وأهْلَه من قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يتَطَهَّرُونَ.

ويُعجِبُني إطلاق كلمة «السَّدُوميَّة» على فاحِشَةِ إتْيَانِ الذكور، وإماتَةُ كلمة «اللُّوطيَّة» لأنَّ أهْلَ سَدُومَ هم أقبح الناس في ممارَسَةِ هذه الفاحشة، وكان رَسُولهم «لوط» عليه السَّلام هو المؤنّب لهم والمنذر لهم بإهلاك شامل.

ولمّا صَارَ أهل سَدُوم قَوماً مَيْؤُوساً من إصلاحهم بالدّعوةِ والنصح والترغيب والترهيب، والإنْذَارِ بعقاب اللَّهِ المعجَّلِ الّذِي يَسْتَأْصِلُهُمْ بعَذَابِ وإهلاك شامل، وأصَرُّوا على تكذِيبِ رسُولِ رَبّهم إليهم، وعلى ممارسَاتِهِمْ لفَوَاحِشِهم ومُنْكراتهم، بعَثَ اللَّهُ لهم ملائِكَةً فقلَبُوا أرْضَهُمْ كُلَّهَا عالِيَهَا سَافِلَها، وأمْطَرَ اللَّهُ عليهم حجارَةً من سجيلٍ، وكان بذلك استئصالُهُم.

وأنْجَىٰ الله عزّ وجلّ «لُوطاً» عليه السلام وأهْلَهُ إلاَّ امرَأَتَهُ، فقد كانت

كافرةً هَوَاهَا مَعَ قَوْمِها، خائنةً لزوجها تنقُل لقومها أخْبَارَ زَوْجها، وتَنْصُرُهم ضِدَّه، فأهْلكَها اللَّهُ مَعَ قَوْمِها، فكانت من الغابرين.

التدبّر:

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾.

تمهيد:

سبَقَ هذا النصّ الذي جاء في سورة (الأعراف) تَدبُّر ثلاثة نصوص جاءت في سُور (قَ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) و(القَمَر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) و(صَ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

فهذا هو النّصّ الرابع بحسب ترتيب النزول من أصل خمسة عشر نصاً، عرضَتْ لَقَطاتٍ مُوزَّعات على خمس عشرة سُورَة، من قصّة «لوط» عليه السلام، وقومه.

● ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾:

جاء في بدْءِ ذكر موجز قصة «نوح» عليه السلام وقومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ .. ﴿٥٩﴾﴾.

وجاء في بَدْءِ ذكر موجز قصة «هود» عليه السلام وقومه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ... ﴿٦٥﴾﴾.

وجاء في بَدْءِ ذكر موجز قصة «صالح» عليه السلام وقومه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ... ﴿٧٣﴾﴾.

فيظهر من هذا أنَّ قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾ هو على تقدير: ولقد أَرْسَلْنَا لُوطاً إلى قومه، فبهذا التقدير ينكشف لنا اتّساقُ البيانِ القرآني في هٰذِهِ الموجزات. ويُؤَكِّدُ هذا الفهم ما جاء بَعْدَ هذه الموجزات من ذكر موجز قصة «شعيب» عليه السلام وقومه، فقد جاء في بَدْئِه أيضاً: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ... ﴿٨٥﴾﴾ فكُلُّها على تقدير: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا» كَمَا جاء في أَوَّلها.

● ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾: أي: اذكر أَيُّها المتَلَقِّي الممتَحَنُ المكلَّف ما نُبَيِّنُ لَكَ من قصّة لوطٍ مع قومه حينَ قال لقومه... وهكذا إلى آخر القصّة، بمعنىٰ: ضَعْ هذا في ذَاكِرَتكَ ليكُونَ هادياً وَواعظاً ومُنْذِراً، وحجَّةً علَيْكَ إذا لَمْ تستَجِبْ لِدَعْوَةِ الحقّ الّتي جاء بها الرَّسُول محمد ﷺ، والّتي اشتمل عليها القرآنُ كِتَابُ رَبّكَ للنّاسِ أجمعين.

● ﴿... أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾:

الفاحِشَةُ: هي عند أهل اللّغة كُلُّ شيءٍ جاوز قَدْرَهُ وحَدَّه. وتُطْلَقُ هذه اللفظة على القبيح من القول والفِعل، وعلى كُلِّ خَصْلَةٍ قبيحة.

وقد نظرتُ في الاستعمالات القرآنيّةِ لهذه المادّة، فوجَدْتُ أنَّهَا تَدُور حول الكبائر المتعلّقَةِ بشهوات الفروج، فهذا اصطلاحٌ قرآنيٌّ قائم على تخصيص الكلمة ببعض دَلاَلاَتها اللُّغوية.

ولوطٌ عليه السلام أنكر على قومه بشدَّة، ما يمارسونه بوقاحة من إتيان الرّجالِ في أدبارهِمْ شَهْوَةً من دُون النساء، وإسرافهم في القَبيحَةِ الشّنيعة إسْرافاً لَمْ يَفْقَهُمْ فيها أَحَدٌ من العالمين.

والاستفهامُ في عبارة: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾؟! استفهامٌ إنكاريٌّ، فلُوطٌ عليه السلام وجّهَ لقومه عبارَةَ الإنكار عليهم مع النَّهي والتلْويم، بأسْلوب استِفْهامِ المتعجّب المنكر عليهم كبيرتَهم الفاحِشَةَ، الّتي تواطَؤُوا علَيْها

بوقاحةٍ وشناعَةٍ وإعلانٍ دُونَ اسْتخفاء، فَهُمْ يمارِسُونَها مُمَارسَةَ العاداتِ الَّتي لا يتَحرَّجُ منها الناس، ويُطَالِبُونَ بِها، ويَسْعَوْنَ إليها كما يَسْعَىٰ الجائعُونَ إلى طعَامِهم، والظَّامِئُون إلى شرابهم.

فعل «أتَىٰ» بمعنىٰ «جاء»، وحصَلَ تَوسُّعٌ لُغَوِيٌّ في دلالة فعل «أتَى» فصار يُقَالُ: أتَىٰ الْعَمَل، أي: فعَلَه. واستُعْمِل هٰذا الفِعْلُ كِنَايَةً عن الجماع، في قوله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ...﴿٢٢٣﴾﴾ أي: في موطِنِ الحرْثِ الَّذِي تخْرُجُ مِنْهُ الأَجِنَّة.

● ﴿.. مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾:

﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: من النّاسِ، فالمراد بالعالمين هنا النّاس، هذا ما تدلُّ عليه القرائن[1].

السَّبْقُ: يُسْتعمل بمَعْنَيين: السَّبْق الزّمانيّ، والسَّبْق بمقدار كميَّةِ الْعَمَل أوْ كيفِيَّتِه. وما أظُنُّ أنَّ مُمَارَسَة فاحِشَةِ إتْيان الذكُور لم تَكُنْ معروفَةً في تاريخ البشريَّةِ قَبْلَ قَوْمِ لوط، لكِنْ لَمْ تَصِلْ أُمَّةٌ من الأُمَمَ الفاجِرَةِ إلى مثْلِ ما وصَلَ إلَيْه قوم لوط، فيما مضى من أهل القرون السّابقة لهم، ولم تَزِدْ عَلَيْهم في كَمّ الْفُحْشِ ولا في كَيْفِيَّتِهِ أُمَّةٌ غابِرَة ولا مُعَاصِرَةٌ لهم، فقد كان قوم لوطٍ في هذه القبيحة مُسْرِفين جدّاً، فَاقُوا به جميع معاصريهم والسّالفين من الأمم.

وأرى أن المراد بالسَّبْق المعنى الثاني، لا السَّبْقُ الزَّمَاني، وعبارة ﴿مَا سَبَقَكُم﴾ تُشْعِر بأنَّهم أكْثَرُ وأشْنَعُ وأفْحشُ مُعَاصِريهم ومن مضَىٰ من فُسَّاق الأقوام والشعوب في ارتكاب الفواحش، ولا سيما الشَّاذَّة منها.

---

(١) لفظ «العالمين» قد يراد به ما سوى الله عزّ وجل، وقد يراد به الإنس والجنّ والملائكة، وقد يراد به الإنس والجنّ فقط، وقد يراد به الإنْسُ فقط.

وتبادر لأذهان المفسرين المعنى الأوّل، ولسْتُ أراه المعنى المراد، والله أعلم.

و«مِنْ» في عبارة ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ حرف جرٍّ زائدٍ جيءَ به لتوكيد عموم النفي، وهو داخل على الفاعل بعد النفي.

● ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ . . . ﴿٨١﴾﴾:

بهذا أبَانَ لهم «لوطٌ» عليه السلام، أنَّهُ يَعْلَمُ مِنْ أَمْرِ فواحِشِهِمْ الّتي سَبقُوا بها غَيْرَهُمْ من العالمين، أنَّهُمْ يأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً من دُونِ النساء، وتعْتَبر هذه الجملة تفسيراً للجملة السابقة لها: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿شَهْوَةً﴾ هذا اللفظ منصوبٌ على أنه نائب مفعول مُطْلق لبيان نوع الإتيان، أو على أنّه مفعُولٌ لأجله. **الشّهْوة**: الرغبة في الشيء لما فيه للنفس من لذّة جَسَدِيَّةٍ أو نَفْسِيّةٍ.

﴿مِّن دُونِ النِّسَآءِ﴾: أي: حالة كوْنِ إتيان الرّجال لأجْلِ الشهوة، هو دُون إتْيَانِ النساء لتحقيق هذه الرَّغبة، إذِ النّساءُ أطْهَرُ، ولهُنَّ المكان الصالح للحرث والبذر، أمّا الأدبارُ فبؤْرَةٌ جُرْثوميَّة قَذِرَة، جالَبةٌ للأمْرَاضِ والأوجاع، والفطرة السّويَّةُ تجْعَلُ الذّكُور ذوي ميل طبيعيّ لقضاء شهوات الفروج في فروج النساء، مع الاستمتاع بلين أجسادِهِنَّ ونُعُومَتِهن، ومختَلِفِ مظاهر أنوثتِهِنَّ. أمّا مَيْلُ الذكور إلى الذكور لقضاء شهواتِ الفروج فَشُذُوذٌ عَنْ أَصْلِ الفِطْرة.

وقد جعل الله عزّ وجلّ إتيان الذكور للذكور لقضاء شهوةِ الفرج، عملاً مُحَرَّماً في كُلِّ مَا أَنْزَلَ لعباده من رسالاتِ على رُسُلِه.

وجَاءَ في القراءة الأُخرى: ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ بأسلوب الاستفهام الإنكاريّ، فدلَّ هذا على أن «لُوطاً» عليه السّلام

خَاطَبَهُم أوّلاً مُبيّناً قَبِيحَتَهُمْ هٰذه، ثُم خَاطَبَهُمْ مُسْتَنْكِراً بأسلوب الاستفهام، بَعْد أَنْ وجَدَهُمْ غَيْر مُبَالِين بإثْبَاتِ أنّهم يمارسُون هٰذهِ الفاحشَة، ورُبَّما ذكَرُوا له أنّهم لا يَجدُون مانعاً من الاجتماع عَلَيْها والاستعلان بها، فالْقِراءَتَان مُتَكامِلَتَان في أداء الْمُرادِ بَيانُه من المعاني.

● ﴿..بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝٨١﴾: تفصح هذه العبارة عن مطويٍّ لم يُصَرّحْ به في اللّفظ، ولكِنْ يمكِنُ استخراجُه بالتدبّر.

إنّ «لوطاً» عليه السلام لما شدَّد الإنكار عليهم بشأن قبيحة إتيانهم الرّجال شَهْوَةً من دُون النساء، لا بُدَّ أن يكونوا قد قالُوا له: لَسْنَا الْوَحيدين بين الأمم والشَّعُوب الَّذِين يُمَارِسُون إتْيَان الرِّجال لقضاء شهواتنا، فغَيْرُنا يُمَارِسُ هذا العمل أيضاً.

فقال لهم «لوطٌ» عليه السَّلاَمُ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝٨١﴾ أي: في ممارسة هذه الفاحِشَةِ القبيحة، حتّىٰ تفوَّقْتُمْ فيها على مَنْ سواكم من مَاضِين ومُعَاصرين، وتجاوزْتُم الحدودَ التي وصلت إليها أكثر الأقوام فُجوراً.

الإسراف: تجاوز الحدّ المحتَمَل، فإذا كانت المعصِيَةُ الشّاذّة موجودَةً في أُمَّةٍ بنسبة عشرين في المئة من أفرادها، إلى ثلاثين في المئة، فإنّ الأُمَّةَ بمجموعها لا تعتبر مُسْرِفةً، أمّا إذا كانت موجودة بنسبة ستين في المئة من أفرادها إلى سَبْعين في المئة، فإنّ الأمّةَ بمجموعها أمّةٌ مُسْرِفَةٌ في هٰذِه المعصِيَة الشّاذَة، فإذا زَادَتْ هٰذه النسبة كانَتْ أكْثَرَ إسْرافاً وأشْنَع وأقْبَح بَيْنَ الأُمَم، ولا سيمَا إذا وصَلَتْ إلى حَدِّ المجاهرة العلنيَّة بقبيحَتها.

❁ ❁ ❁

● قول الله عزّ وجل:

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٨٢﴾:

«الواو» في أوّل هذه الآية عاطفة على محذوف يمكن بالتأمّل إدْراكه، أي: فاسْتَهانَ كُبَراء قَوْمِهِ بنصائحه، وبتثريباته لهم على فواحشِهِم الشّاذة، ومَا كانَ جوابُهم إلاَّ أن وجَّهُوا الأمْرَ لعامَّتِهِم وأتْباعهم قائلين لَهُمْ: أَخْرِجوا «لوطاً» وآلَهُ من قَرْيتِكُمْ، لأنَّهُمْ أُنَاسٌ يتَشدَّدُونَ في البُعْدِ عن مواطِنِ القذاراتِ الّتي تَجِدُونَ لذَّاتِكُمْ واستمتاعات فروجكم فيها، ويتَشَدَّدُون في التورُّع عن فِعْلِ المنكراتِ الّتي يَرَونَها خَبائِثَ، فهُمْ على خلاف طريقَتِكُم، وَوُجودُهُمْ بيْنَكُمْ مع إنكارِهم عليكُم يُنَغِّصُ عليكم عيْشَكُمْ، ويَعَكِّرُ علَيْكُمْ صَفْوَكُمْ.

إنَّ عمليَّة إخراج المُوَاطِنِ منْ وَطَنِهِ هي ما يُعْرَفُ بعقوبَةِ النَّفْي، أو سَحْبِ الجنسيَّة من مكتَسِبها مع الطَّرْدِ من الْبلاد.

وقد كان «لوطٌ» عليه السَّلام قد اكتسب حقَّ المواطنة في أَرْضِ سَدُوم منذُ سِنين، وصارَ بها وربَّما بالمصاهرة مِنْ إخوانهم.

❁ ❁ ❁

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

دلَّتْ عبارَةُ: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ على أنَّهُ صَدَرَ الأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ بإهلاك قومه كلهم ومعهم امرأته التي كانت على هوى قَوْمِهَا، وبِمَا أنَّهُ عليه السَّلام هو وأَهْلُهُ المؤمِنُونَ، قَدْ كانوا ما زالُوا ضِمْنَ أرْضِ سَدُوم فقد كان لا بُدَّ من اتّخاذ وسيلةٍ لنجاتِهِمْ من وَسَائِلِ الإِهلاك الشامل الّتي سَيُنْزِلُهَا الله جلَّ جلالُه في كُلّ أَرْضِهم.

وجاء بيان إنجائهم في نَصٍّ آخر، أبان أنّ الرُّسُلَ من الملائكة المأمورين بإهلاك قومه قالوا له: لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إنَّا مُنَجُوكَ وأَهْلَكَ إلاَّ امْرَأَتَكَ، ثُمَّ قَالُوا له عند اقتراب الصُّبحْ: فَأَسْرِ بأَهْلِكَ بقِطْعٍ من اللَّيْلِ وَلاَ يلْتَفِتْ مِنكُمْ أحَدٌ إلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها مَا أَصَابَهُمْ إنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصَّبْحُ بِقَرِيبٍ؟.

● ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾: أي: كانت من الباقين مع قومها في

أرْضِ الدَّمار، ومَضَتْ مع الهالِكين المعذبين من قومِها حينَ أنزل اللَّهُ بهم وسائل التعذيب والهلاك.

الغابر: يأتي في اللُّغة بمعْنَيَيْن:

المعنى الأوَّل: الماكث في موضعه الّذي لا يتحوَّل.

المعنى الثاني: الذاهِبُ الماضي الذي لم يَبْقَ له وجود.

وكلٌّ من هٰذين المعنيين ينطبقان على قوم لوط وامرأته معهم، فقد مَكَثوا في الموضع الّذي نَزلَتْ فيه وسائل التعذيب والإهلاك، ولم يسْتطيعُوا أن يتحوَّلُوا عنه، وبَعْدَ إهلاكِهِم ذَهَبُوا إلى فَنَاءِ أَجْسَادهم مع الذّاهبين، ومَضُوْا مع الماضين، فلا وُجُود لَهُمْ في الحياة الدُّنيا.

واستعمال اللّفظ في مَعْنَيَيْهِ أو في مَعَانيه الّتي لا تناقُضَ بَيْنَها وَلاَ تضادّ، من الإيجاز البديعِ في القرآن المجيد.

❁ ❁ ❁

● قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾: **المَطَرُ:** هو الماء الذي يَنزِلُ من جهة السَّمَاءِ على شَكْلِ قطراتٍ صغيراتٍ أوْ كبيراتٍ، وقد ينصبُّ انْصِبَاباً شَدِيداً كالماء الّذي ينْصَبُّ من أفواه القِرَب، وهذه الجملة معطوفة على جملة: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾.

وقد يُطْلَقُ لفظ «المطَرِ» وفِعْلُ «أَمْطَرَ»، على ما يَنْزِلُ من جِهَةِ السَّمَاءِ مِن حَصْبَاءَ أو حجارةٍ، أو وسائلِ تَعْذِيبِ أُخرَىٰ، مُشَابِهَةٍ في نُزُولِها لأنواع مطَرِ الماء الذي يَنْزِلُ من جهةِ السَّمَاء، وهذا على سبيل الاستعارة القائمة على التَّشبيه، وقد أمْطَر الله على قوم «لوطٍ» عليه السلام هذا النوع من الحجارة الذي نزل عليهم كالمطر.

فقد دلّت نُصُوصٍ أخرىٰ على أنّ المطرَ الّذِي أنْزَله اللّهُ على قَوْم «لوط» عليه السلام قد كان «مَطَرَ السَّوْءِ» أي: مَطَر العذاب، وأنَّهُ كان «حِجَارَةً من سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ» أي: من طينٍ مُتحجِّرٍ مُتَمَاثل مُتسِقٍ متقاربٍ بعضُهُ من بعضٍ، ورُبَّما كان للنار أثرٌ في جَعْلِه متَحَجِّراً.

فكان هذا المطر وسيلةً من وسائل تعْذِيبهم وإهلاكهم، إضافةً إلى قَلْب بلادهم عاليَها سَافِلَها، كما جاء في بعض النصوص الأخرى.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾: أي: فانْظُرْ نَظَرَ تَفَكُّرٍ واعْتِبَارٍ بِسُنَّةِ اللّهِ في عبادِهِ المجرمِين، كَيْفَ كانَتْ عاقِبَتُهُمُ الْوَخيمَةُ الَّتِي عَاقَبَهُمُ اللَّهُ بِها، بمُقْتَضىٰ عَدْلِهِ الَّذِي هُوَ مَظْهَرٌ من مظاهِرِ حِكْمَتِهِ جلَّ جلاله.

والْخِطَابُ مُوجَّهٌ على سبيل الخطاب الإفراديّ لكلِّ مُؤَهَّلٍ لأنْ يَسْمَعَ الْخِطَابَ ويَفْهَمَه، وذُو الْعَقْل والرُّشْدِ هُوَ الَّذِي يتَّعِظُ فلا يكون من المجرمين، حتَّىٰ لاَ يُعَاقَبَ بعقابٍ يكونُ فيه عذابُه وهلاكُهُ في الدُّنيا، مع عقابٍ آخرَ مُدَّخرٍ إلى يَوْمِ الدِّين للمجرِمين.



الفصل الخامس
التدبّر التحليلي للقطَاتِ المختارات
في هذه السورة من قصة شعيب عليه السلام وقومه
الآيات من (٨٥ ـ ٩٣)

قال اللّهُ عزَّ وجل:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟

ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

القراءات:

(٨٥) • قرأ الْكِسَائِي، وأَبُو جَعْفَر: [مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ] بجرّ الراء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ] بِرَفْعِ الراء.

جرُّ الرَّاءِ رُوعِيَ فيه لَفْظُ [إِلَهٍ] إذْ هُوَ صِفَةٌ له.

ورفْعُ الرَّاءِ رُوعِيَ فِيه مَحَلُّ لَفْظِ [إِلَهٍ] إذْ هو مَرْفُوعٌ مَحلاً عَلَىٰ أَنَّهُ مُبْتَدأٌ مَجْرُورٌ لَفظاً بِحَرْفِ الجرّ الزّائدِ الّذي جيء به لتأكيد عُمُومِ النفي والتّنصِيصِ عَلَيْهِ.

(٨٦) • قَرَأَ قُنْبُلٌ، وَرُوَيْس: [سِرَاطٍ] بالسّين، وقرأ بالاشْمَامِ خَلَفٌ عَنْ حَمْزَةٍ.

وقرأ باقي القرَّاءِ العشرة: [صِرَاطٍ] بالصَّادِ.

هَذِهِ القراءات وجُوهٌ عَرَبِيَّةٌ لِنُطْقِ الْكَلِمَة.

موجز عن شُعَيْبٍ وَقَوْمِهِ عِنْدَ الْمُؤَرِّخِين:

أَهْلُ مَدْينَ قَوْمُ النبيّ الرَّسُولِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلامُ كَانُوا قَوْماً عَرَباً، وكانت مَوَاطِنُهُمْ ما بَيْنَ الحجازِ وَخَلِيجِ الْعَقَبَةِ بِقُرْبِ سَاحِلِ الْبَحْرِ الأَحْمَرِ، شَمَالِيّ الْحِجَازِ، وجَنُوب فِلِسْطِينَ، وَقَاعِدَةُ أَرْضِهِمْ تَقَعُ مَا بَيْنَ مَعَان إلى الْعَقَبَةِ فَتَبُوك، وتمتَدُّ جِبَالُ مَدْيَنَ فِي الْحِجَازِ امْتِدَاداً طَوِيلاً.

ومَدْيَنُ «المدينة» هي الآن مَدِينَةٌ خرَابٌ على بَحْرِ الْقَلْزَمِ[1] (= البحرُ الأحمر) مُحَاذِيَة لِتَبُوك من بلاد الشّام، على نحو سِتّ مَرَاحِلَ مِنها، والأرضُ التي تقعُ شرقيَّ خليج العقبة تسمَّى الآن «مَدْيان».

وقد سمِّيَ هؤلاء القوْم باسم جَدِّهم «مَدْيَنَ» بْن إبراهيمَ الخَلِيلِ عليه السّلام، من زَوْجَتِهِ «قَطُورَةَ» الَّتي تَزَوَّجها بَعْدَ موتِ زَوْجَتِهِ «سَارَة».

قَالُوا: وَتَزَوَّجَ «مَدْيَنُ» ابْنَةَ «لُوطٍ» عليه السَّلاَم، ورزَقَهُ اللَّهُ مِنْها خمسة بنين، وَذَكَرُوا أنَّ إبراهيم عليه السلام أَسْكَنَ مَدْيَنَ وَذُرِّيَّتَهُ في دِيارِهم الواقعة وسَطاً بَيْنَ مَساكنِ ابْنِهِ إسماعيل وذرِّيَّتِهِ في الحجاز، ومساكِنِ ابْنِهِ إسْحَاقَ وَذُرِّيَّتِهِ في فِلِسْطِين.

ويُسَمِّي أَهْلُ الكِتَابِ «مَدْيَنَ» باسْمِ «مَدْيَان».

وظَهر النبيُّ الرَّسُولُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مِنْ ذُرِّيَّةِ مَدْيَنَ بْنِ إبراهيم عليه السلام، وكانَ لِسَانُهُ وَلِسَانُ قَوْمِهِ الْعَرَبِيَّة، وفي نسبه إلى مِدينَ عدّة أقوال أعْرَضت عن ذكرها.

---

(١) الْقَلْزَم: كان ميناءً حُرّاً، وكانت فُرْضَة مصر والشام على البحر الأحمر، وكانت أشبه بسوقٍ دَوْلية. (انظر: أطلس تَارِيخَ الإسلام. د. حُسَيْن مُؤنس).

ويُطْلَقُ علىٰ هؤلاء القوم «أَهْلُ مَدْين» لأَنَّ أَرْضَهُمْ سُمِيَتْ باسْمِ جدِّهِم «مَدْين».

ويُطْلَقُ عليهم أَوْ عَلَىٰ بَعْضِهِمْ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ، إِذْ كانَتْ لَهُمْ أَيْكَةٌ مُتَمَيِّزَةٌ تُقْصد «الأَيْكَةُ: هي غَيْضَةٌ ذَاتُ أشجارٍ كثيرَةٍ مُلْتَفَّة، تُنبِتُ نَاعِمَ الشَّجَر» وكانَ فيها شَجَرَةٌ يَعْبُدُها بَعْضُهُم مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وكان إِرسالُ «شُعَيْبٍ» عليه السَّلاَمُ إلىٰ قَوْمِهِ قَبْلَ بِعْثَةِ مُوسَىٰ عليه السَّلاَمُ بِزَمَنٍ غَيْرِ بَعِيدٍ.

ومِمَّا يُؤَكِّدُ أَنَّ شُعَيْباً وَقَوْمَهُ كَانُوا عَرَباً، ما جاء في صحيح ابْنِ حِبَّانِ عَن أَبي ذَرٍّ في ذِكْرِ الأنبياء والرُّسُلِ عليهم السَّلاَمُ، أَنَّ الرَّسُولِ ﷺ قَال:

«أَرْبَعَةٌ مِنَ الْعَرَب: هُودٌ، وصَالِحٌ، وشُعَيْبٌ، وَنَبِيُّكَ يَا أَبَا ذَرٍّ».

وَرُوِيَ عن ابن عبَّاسٍ قال: كانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَكَرَ شُعَيْباً قالَ: «ذَاكَ خَطِيبُ الأَنْبِيَاءِ».

ويُقَالُ: إِنَّ الْفَتَاةَ الَّتِي تَزَوَّجَ بِهَا مُوسَىٰ عليه السّلامُ حِينَ قَدِمَ أَرْضَ مَدْيَنَ فارّاً مِنْ مِصْرَ، هِيَ بِنْتُ الرَّسُولِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلاَمُ. بَعْدَ إِهْلاَكِ قَوْمِهِ، ونَجَاتِهِ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ.

أَمَّا أَهْلُ مَدْيَنَ فَقَدْ وَرِثُوا الدِّينَ الْحَقَّ عن إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، الّذي كان دِينَ جَدِّهم مَدْيَنَ بن إبراهيم، وكانوا يُتاجِرُونَ مع أهل فلسطين ولبنان ومصر.

ولكِنْ لم يَطُلْ بِهِمُ الْعَهْدُ حَتَّىٰ هَجَرُوا دِينَهُمْ الّذِي كَانُوا عَلَيْهِ، ودَخَلَتْ فيهم الوثَنِيَّةِ، فَأَشْرَكُوا باللَّهِ وَعَبَدُوا غَيْرَه، وانحَرَفُوا عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ المستقيم، وانْتَشَرَ فيهِمُ الظُّلْمُ والْعُدْوانُ عَلَىٰ الحقوقِ، وجَعَلُوا يُفسدُونَ في الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِها، وَيُطَفِّفُون في المكاييلِ والموازينِ، ويَبْخَسُونَ النَّاسَ

أَشْيَاءَهُمْ، وَيَصُدُّونَ عن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَيَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ، إذْ كانُوا يَفْرِضُونَ على النّاسِ المكُوس، ويَتَهَدَّدُونَ النَّاسَ وَيَتَوَعَّدُونَهُم، ويُجادِلُونَ بالْبَاطل.

فبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ رُسُلاً، فكذَّبُوهم، ولَمْ يَرْتَدِعُوا عَنْ قَبَائِحِهِمْ، وكَانَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلامُ آخِرَهم، فكذَّبُوهُ وَهَدَّدُوهُ بأنْ يُخْرِجُوهُ هُوَ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ مِنْ قَرْيَتِهِمْ حَاضِرَةِ مَسَاكِنِهِمْ، إِذَا لم يَعُودُوا عن الدّينَ الَّذِي جاءَهُمْ به، ولَمْ يدخُلُوا في مِلَّتِهِمْ حتَّىٰ يَكُونُوا مِثْلَهُمْ عَقِيدَةً وسُلُوكاً، ثُمَّ هَدَّدُوا الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ قَائِلِينَ لهم: لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ.

ولمَّا عَلِمَ اللَّهُ عَزّ وجلَّ أَنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا إِلَىٰ حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْهَا، وَأَنَّهُمْ لَنْ يَتْرُكُوا مَا هُمْ فِيهِ عَنْ طَرِيقِ إرَادَاتِهِمْ الحرَّة، وَتَحدَّوْا نُذُرَ الْعَذَاب، وقالُوا لِرَسُولهم شُعَيْبٍ عليه السَّلام:

(١) إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسَحَّرِين.

(٢) وَمَا أَنتَ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا.

(٣) وَإِنْ نَظُنُّكَ لِمَنَ الْكَاذِبِين.

(٤) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً[١] مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِين.

كان من الحكمة أنْ يُنْجِيَ اللَّهُ عزّ وجلَّ رسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ منه، وأنْ يُنْزِل بالذين كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما يُعَذّبهم به، ويُهْلِكَهُمْ إهلاكاً شاملاً.

ونَفَّذَ اللَّهُ عَزّ وجلَّ إرادتَه الَّتِي اقْتَضَتْهَا حِكْمَتُهُ، فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ[٢].

---

(١) كِسَفاً: أي: قِطَعا فيها إهلاكٌ وتَعْذِيب.

(٢) الظُّلَّة: في اللغة، هي كلّ شيءٍ أَظَلَّ وستَرَ مِنْ فَوْق، وما أَطْبَق على الشيءِ مِنْ فَوْقِه.

قالوا: وكانت الظُّلَّةُ الَّتِي أَهْلَكَ اللَّهُ عزّ وجلّ بها الكَفَرَة المجرمين من أهل مدْيَن أصْحَابِ الأَيْكَةِ غَمَامَةً حَارَّةً تَحْتَهَا سَمُومٌ أَطْبَقَتْ عليهم، فَعَذَّبَتْهُمْ بالْحَرَارَةِ والاخْتِنَاق، وأجْهَزَتْ عَلَيْهِم رجفةٌ في الأَرْضِ بِزَلْزَلَةٍ عظيمة، وتَبِعَتْها صَيْحَةٌ فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقِهِم، فصَارُوا في ديارِهم هَلْكَىٰ جَاثِمِينَ.

هذا مُوجزُ ما ذكَرَ المؤرّخُونَ بشَأْنِ النبيّ الرَّسُولِ شُعَيْبِ عليه السلام، وقَوْمِهِ أَهْلِ مَدْينَ أصْحَابِ الأَيْكَة.

التدبّر:

قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

تمهيد:

هذا هو النصّ الثالث بحسب ترتيب النزول من النصوص العشرة الَّتي جاءت في القرآن المجيد بشأن هَؤُلاء القوم[1].

وقد جاء قبله نصٌّ في سورة (ق/ ٣٤ نزول) ونصٌّ في سورة (ص/

---

(١) انظر الدراسة التكاملية لهذه النصوص في الملحق السادس من ملاحقِ هذه السورة.

٣٨ نزول) وإيراد هذا النّص في سورة الأعراف دَعَتْ إليه مناسبة إنْذَارِ الذين كذّبوا بآياتِ اللَّهِ المنزّلات على رسوله، واسْتَكْبَرُوا عن اتّباع مَا جَاءَ فيها من شرائع وأحكام، وهذا الإنذار يتضمَّن أنّهم إِذَا أَصَرُّوا على موقفِهِم من التكذيب بآيات الله المنزَّلاتِ على رسُولِهِ محمّد ﷺ في كتابِهِ، والاستكبار عنها فإنَّهُمْ يُعَرِّضُون أنفسهم للإهلاك، كما أَهْلَكَ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ الَّذين فَعَلُوا مِثْلَ هذا من أهل القرون الأولى.

وفي هذه الآيات من هذا النص إيجازٌ لمعظم عناصر دعْوةِ شعيب عليه السلام لقومه، وهي تشتمل على ثلاث عشرة قضيّة، بَعْدَ بيان أنّ اللّهَ عزّ وجلّ أرْسَلهُ نبيّاً وَرسُولاً إلى مَدْين.

● قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: أي: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى الْقَوْمِ المعْرُوفين باسْم «مَدْينَ» النبيَّ الرَّسُولَ «شُعَيْباً» وقَدْ كان مِنْهُمْ نَسَباً ولُغَةً وَمَوْطِناً، وَوَصَفَهُ اللَّه بأنَّهُ أُخُوهُمْ وبدأ النصّ مصدّراً بحرف العطف «الواو» لأنّ قصة شعيب معطوفة على ما سبقها في السورة بدءاً من قصة نوحٍ عليه السلام.

أَمَّا القضايا «الثلاث عَشرة» التي اشتملَتْ عَلَيْها دَعْوَةُ شُعَيب لقومه والّتي جاء بيانُ عُنوَانَاتِهَا في هذا النَّصّ، فأُتابِعُ تَدَبُّرها فيما يلي إنْ شَاءَ اللَّهُ:

القضيّةُ الأُولى: دلّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾:

نُلاَحِظُ أنّهُ عليه السلام نَادَىٰ أَهْلَ مَدْينَ نِداء تكريم واسْتعطاف بقوله لهم ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أصْلُهَا «يا قَوْمِي» حُذِفَتْ يَاءُ المتكلّم وَبَقِيَتِ الكَسْرَةُ دَلِيلاً عليها، وهذا قياس مُطّرد في المنادى غير المعتل وغير الوصف المشبه للفعل.

﴿ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾: بَدأَهُمْ بالأَمْرِ بعبادَةِ اللَّهِ، لأنَّ عبادَةَ اللَّهِ عزّ وجَلَّ

هي الواجبُ الأوّلُ بَعْدَ الإيمان به، وإعلان الإسلام له، وإعلان الحرص علَىٰ طاعَته. وأوّل خُطُواتِ العبادة تكونُ بطاعة اللّهِ في تأدِيَةِ ما أمَرَ بِهِ، واجْتِنَاب مَا نَهَىٰ عَنه، وتكُونُ بِدُعائِهِ، ثُمّ بالتَّقَرُّب إلَيْهِ بمحَابّه.

ويظهَر أنّ هؤلاء القوم كانوا بَعِيدين تماما عن عبادة الله، مستغرقين في أُمور دنياهم.

القضيَّة الثانية: دلَّتْ عليها عبارَةُ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾: بَعْدَ خُطُوة الأمْرِ بِعِبَادَةِ الله، تأتي خُطْوَة أَمْرِهِمْ بإفراد اللّهِ بِالعبادة، دُون أنْ يَدْخُلَ فِيها أيُّ شِرْك.

والمعنى ما لَكُمْ في الوجودِ كُلِّهِ مِنْ مَعْبُودٍ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ إلاّ الله وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له. لأنّهُ لاَ رَبَّ في الوجود غَيْرُهُ جَلَّ جلالُه، فَلاَ إلَـهَ يُعْبَدُ بِحَقٍّ سِوَاه، وَكُلُّ إلَـهٍ يُتخَذُ من دُونِ اللّهِ بَاطِلٌ لاَ حَقِيقَةَ لإلَـهِيَّتِهِ، إنّما هي أسْمَاءٌ سمَّاهَا المشركون، ولَيْسَ شيْءٌ مِنْهَا لَهُ مِنَ الإلَـهِيَّةِ شيْءٌ ما.

وعبارة: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ تَدُلُّ عن طريق اللُّزُومِ الذهْنِيّ على مطويّ في اللّفْظِ مُلاَحَظٍ في الذّهن، بعد عبارة: ﴿ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾ أي: اَعْبُدوا اللّهَ وَوَحِّدُوه بالعبادة، ولاَ تُشرِكُوا بِهِ شيئاً ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ وقَدْ سبَقَ تحليل عبارتي هاتين القضيّتَيْن لَدَى تَدَبُّر موجز قصة نوح وقومه، وموجز قصة هود وقومه، وموجز قصة صالح وقومه.

القضيّةُ الثالثة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: لقد ظهر لي أن المراد بكلمة: ﴿بَيِّنَةٌ﴾ هُنَا مَا أَنْزَلَ الله عزّ وجلّ على شعيب عليه السّلامُ من آيات الكتاب الّذي اشتمل على رسالات الله التي كانَ يُبَلِّغُهُمْ إيَّاها تِبَاعاً، وما آتاه من آيات تَدُلُّ على أنّه رسول مِنْ رَبِّهِ لهم مؤيّدٌ بما يثبت نبوته ورسالته.

البيّنَة: في اللّغة هي الواضحةُ الظاهرة الّتي لا شكَّ فيها ولا غُمُوض،

وَلاَ غَبَشَ عَلَيْهَا، من «بَانَ الشَّيْءُ يَبِينُ بَيَاناً» إذا اتَّضح، فهو «بَيِّنٌ» وهي «بَيِّنَة».

وقد أُطْلِقَت الْبَيِّنَة في القرآنِ على الرّسَالةِ الرَّبَّانِيّة الواضحة، وعلىٰ الرَّسُول، وعلى الصُّحُف والكتب المنزَّلَةِ من عنْد الله عزّ وجلّ، وعلى الآيات والمعجزات الواضحات الجليّات.

ولفظ «بَيّنَة» أو «الْبَيّنة» قد يأتي صفة لموصوف محذوف، ويُقَدَّرُ في كُلّ مَوْضوع ما يلائمه.

ومن إطلاق لفظ «البيّنة» في القرآن على الرَّسُول والقرآن، قول الله عزّ وجلّ في سورة (البيّنة/ ٩٨ مصحف/ ١٠٠ نزول):

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾.

وأرى حَمْلَ لفظ ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ الذي جاء في مقالة شعيب عليه السلام لقومه، على معنى الذّكْرِ المنزَّل عليه مِنْ رَبِّهِ، وعلى كونه رَسُولاً لهم من رَبّهم مُؤَيّداً بالآيات الدَّالاَت عَلَىٰ نبوَّته ورسالته.

وقد يشمل هذا اللّفظ ما آتاه الله من آياتٍ دالأّتٍ على أنّه رَسُولُ الله حقًّا وصِدْقاً، وعلى ما آتاه الله من حُجَج بُرْهانِيّةٍ دامغة.

على أنَّ المقصود الأوّل فيما أرى آياتُ الكِتاب الّذي كان يُوحَي بِهِ إليه مُنَجماً، لأنَّ خطَّ السُّورة الأعْظم مرتبط بقول الله عزّ وجلّ في صدر السُّورَة:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾.

وفي اختيار عبارة: ﴿رَّبِّكُمْ﴾ إشعارٌ لَهُمْ بما يجب عليهم عقلاً تُجاهَ عطاءات رُبوبيَّتِهِ لكلّ واحدٍ منهُمْ، والَّتي لاَ تنْقَطِعُ عنهُ أقَلَّ مُدَّةٍ زَمَنِيَّةٍ تَمرُّ عَلَيْهِ، ما دام في الوجود.

القضية الرابعة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾: أي فَكِيلُوا إِذَا كِلْتُمْ، وزِنُوا إذا وَزَنْتُمْ للنَّاس، كيلاً أو وَزْناً وافِياً تامًّا غَيْرَ مَنْقُوصٍ، فَلا تَهْضِمُوا حُقُوقَ الناس إِذَا كِلْتُمْ أَوْ وَزَنْتُمْ لهم.

يُقَالُ لغة: أَوْفَىٰ فُلانٌ الشَّيْءَ يُوفِيهِ إيفاءً، أي: أَتَمَّهُ وافياً كاملاً غير منقُوصٍ، وكذلِكَ «وَفَّىٰ». ويُقال: وَفَّىٰ وأوفَىٰ الْمَدِينُ الدَّائِنَ حَقَّهُ، أي: أعْطَاهُ إيَّاه وافياً تَامًّا غَيْرَ منقوص. ومنه الوفاء بالوعد والعهد.

الكيل: مصْدَرُ «كَالَ»: **تقولُ لغة**: كَالَ الحبَّ كيلاً وَمَكَالاً، إذَا تَعَرَّفَ على مقداره بالمكيال. وهو وعاءٌ مَعْروف بين الناسِ مقدارُ مَا يَسْتَوعب، تُكالُ بِهِ الأشياء التي توضع فيه، من حبوب أَوْ سوائل أو غيرها.

الميزان: هو الآلة الَّتي توزن بها الأشياء لِتُعْرَفَ مقاديرُها، ويُطْلَقُ أَيْضاً على المثاقيل ذَاتِ المقادير المعلومة، الَّتي توضع في إحدى كِفَّتَي الميزان، لتُوزَنَ بها الأَشْياء ذَاتُ المقادير المجهولة.

ويُطْلَقُ لفظ «الميزان» ويرادُ به عمليّة الوزن، وهذا من إطلاق أداة الشيء على المصْدَرِ الَّذِي يَدُلُّ على الحدَث.

ونُلاحظ في عبارة ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ أنّه ذُكِرَ الكَيْلُ الَّذِي هو المصْدَر الدَّالُّ على الحدث، لِيَدُلَّ على إلْزَامِهِمْ بأَنْ يُوفُوا المكْيَالَ حَقَّهُ إِذَا كَالُوا، فلا يَحْتَالوا بأيَّةِ حيلَةٍ للنَّقْصِ ممَّا يكيلُونه للنّاس، كتَرْكِ فراغاتٍ في المكيالِ لاَ تُمْلَأُ بالشَّيْءِ الَّذِي يُرادُ تَقْدِيرُهُ بِهِ من ذَواتِ القيمة.

ويُفْهَمُ ذِهْناً مِنْ وُجُوبِ إيفاءِ الكيل أَنْ يكُونَ المكيال صَحِيحَ المقادير، وَافِيَ الفراغ فيه حسبَ التحديدات المتعارف عليها في أمْثَاله.

أَمَّا في الوزن فقد ذَكَر اسْمَ آلَتِهِ، فأَلْزَمَهُمْ بأنْ تكُونَ آلَةُ الوزنِ وافِيَةَ الأداء لوظيفتها، لا تنقُصُ شيئاً من مِقْدار الموزُون بها، ويُفْهَمُ باللُّزُوم الذِّهنِيّ وُجُوبُ إيفاء عَمَلِيَّةِ الْوَزْنِ، وعَدَمُ التحايل فيها للنقص من الموزون بها للناس.

فصارَت دَلاَلَةُ الكلام بصريح اللَّفظ ولوازمه الذهنيَّة بقُوَّة ما لَوْ قَالَ لهم: فاوْفُوا الكَيْلَ والمكيال، والوزْنَ والميزان، وهذا الأمْرُ يسْتَلْزِمُ عقلاً النهي عن ضدّ الإيفاء، وهو النقص.

ويَدُلُّ أَمْرُ شعيب عليه السّلام لقومه بأن يُوفُوا الكيلَ والميزان أنَّهم محتالون على الناس مُخْسِرُون، فيأكُلُون بذلك أموال الناس بالباطل.

القضية الخامسة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾: أي: وَلاَ تنقُصُوا الناسَ أشياءَهُمْ، سَواءٌ أكانَ ذلك عن طريق الكَيْلِ والْوَزْنِ، أَمْ عَنْ طَرِيقٍ آخر.

هذه القضية جاءت على طريقة التعميم بَعْدَ التخصيص، فَبَخْسُ أشياءِ النَّاسِ أعَمُّ من عَدَم إيفاء الكَيْلِ والميزان.

الْبَخْسُ: هو النقص، وفعْلُ «بَخسَ» مِثْلُ فِعْلِ «نقَصَ» يَتَعَدّى إلَىٰ مَفْعُولَيْن.

وظاهِرٌ أنَّ النقْصَ عنِ الحقّ مع الْعِلْم لاَ يَكُونُ إلاَّ بظُلْم، وقَدْ تُسْتَخْدَمُ فيه وسائل الاحتيالِ والكذِب والمخادَعَة.

ويَدُلُّ تَدَبُّرُ مُوجَزَاتِ مقالات شعَيْبٍ عليه السّلام، علىٰ أنّه كان من فصاحَتِهِ وقُدْرَتِهِ على الخطابَة يُنوّعُ في الكلمات، وفي الأَسَالِيب، علىٰ ويأتي إلى المعنَىٰ الواحِدِ مِنْ وُجُوهٍ مخْتَلِفة، فمرَّةً يأتي من جهة الإيجاب، ومَرةً يأتي مِنْ جهة السَّلْب، ومَرَّةً يُخْتَارُ تَعْيينَ القضيَّة، وأخْرَى يختار إدْخالَها ضِمْنَ قَضِيَّةٍ عامّة، وهكَذَا تَكُونُ بَرَاعَةُ الْخُطَبَاء.

إنَّ التَّلاعُبَ في الكيل والْوَزْنِ، والمكاييلِ والموازينِ، هو من أكْلِ أَمْوالِ الناسِ بالباطل، وأَكْلُ أموال الناس بالباطلِ يَدْخُلُ في عُمُوم بَخْسِ النَّاسِ أشياءهم، وكلُّ ذَلِكَ من الظُّلم، وقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عزّ وجلّ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِهِ، ونَهَىٰ عبادَهُ جَمِيعاً عن الظُّلْم، وجعلَهُ بَيْنَهُمْ مُحَرَّماً.

القضيَّةُ السَّادِسة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾:

لقد كان شُعَيْبٌ عليه السّلاَمُ يَنْهَىٰ قَوْمَهُ عن الإفساد في الأرضِ بَعْدَ إصْلاَحِهَا، إذْ كَانت هٰذِهِ الْجَرِيمةُ مِن الكَبَائر والمنكرات الّتي يمارسُونها عُدواناً وظُلْماً.

والإفسادُ يَشْمَلُ إفساد الأحياء والأشياء الصالحة، وإفساد العمران الحضاريّ، وإفساد المدُن، وإفسَادَ النباتات والأشجار والجنّات، وإفساد أخْلاقِ النّاس، وإفسادَ سُلُوكِهِم، وإفسادَ أفكارهم ومَفْهُومَاتهم.

ويَدْخُلُ في عُموم الإفساد إفسادُ الجوّ، وإفساد الْبَرّ والْبَحْرِ بالأَوْبِئَةِ، والأرْجاسِ والأَنْجاسِ والْقَاذُورات.

ويظهر أنَّ قوم شعيب علي السلام، كانوا في عدوانهم على عباد الله لإخضاعهم لأوامرهم ونواهيهم وسلْبهم أموالهم يُخَرّبُون بيوتهم، ويُتْلِفُون مزارِعَهُمْ وبساتينهم، ويَجْعَلُون مصانعهم وطُرُقاتهم وجُسُورَهُم غيْرَ صَالِحةٍ للانتفاعِ بها.

الفساد في اللّغة: التّلفُ والْعَطَبُ، وتَحوُّلُ الشَّيء من كونه صالحاً نافِعاً، إلَىٰ كَوْنِهِ غَيْرَ صَالحٍ وَلاَ نَافِع، بل رُبَّما يَصِيرُ ضَارّاً كَرِيهاً مُفْسِداً للأشياء الصالحة.

والإفْسَاد: الإتْلاف، وتحويلُ الشيء عَنْ صلاحه، وقد يَصِلُ إلى جَعْلِ الشيء ضاراً كريهاً مُفْسِداً للأشياء الصالحة.

ومن آثار الإفساد في الأرض، ونَشْرِ المنكرات والمعاصي في المجتمع البشري، انتشارُ المُهلِكات، وانتشارُ الأوجاع والأمراض والأسقام، كمَرضِ «الإيْدز» وفَسَادِ طَبَقَةِ الأُوزون في الجوّ، من جرّاء سُوءِ اسْتِخْدام الناس للموادّ الكيمائية والغازات الْقَواتِلِ للحياة.

ولمّا كانَ الإفساد في الأرض من أخْطَر أنْواعِ السُّلُوكِ الإنساني، ذِي النتائِجِ والآثارِ الخبيثةِ، نَهَىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ عنهُ في كلّ الرّسَالاَتِ الّتِي كَلَّفَ رُسُلَهُ أنْ يُبَلّغُوها للناس.

ولمّا كانَ أهْلُ مَدْينَ مِنَ الْمُفسِدينَ في الأَرْضِ، شَدَّدَ عَلَيْهِمْ رَسُولُهُمْ شَعَيْبٌ عَلَيْه السّلام، في النَّهْي عن الإفساد في الأرْضِ، وشَدَّد علَيْهم في تحذِيرهم منه ومن عواقبه.

القضية السَّابعة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

المشار إليه باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الأَوَامِرُ والنواهي التي جاءت في سوابق هذه الجملة من النصّ.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: أي: أَعْظَمُ وأَكْبَرُ في جَلْبِ الْخَيْر والسَّعَادةِ لكُمْ، وتحقيق مَا تُحِبُّونَ في عَاجلِ أمْرِكم وآجلِهِ، إنْ كُنْتُمْ سَتُؤْمِنُونَ بي نَبِيًا وَرَسُولاً وتُؤْمِنُونَ بما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبّكُمْ فَتَعْمَلُونَ به، وتُطِيعُونَهُ بالعمل بما يأْمُركم به، وباجتناب ما يَنْهَاكُمْ عَنْه.

أَمَّا مَا تَتَصَوَّرُونَ أَنَّكم تَحْصُلُونَ عليه من خَيْرٍ، كزِيَادَةِ أَرْبَاحٍ ومَكاسِبَ عاجِلَةٍ، واسْتِمتاعَاتٍ تَسْتمتعون بها بمَعْصِيَة اللَّهِ في أوامِره ونَواهيه، فهي قليلَةٌ ضَئيلَةٌ في عاجلِ حياتِكُمْ، وتَجْلُبُ لكُمْ شرّاً عظيماً وعذَاباً أليماً في آخِرَتِكُمْ، ورُبّما في دُنْياكُمْ أيضاً، إذا اقتضت حِكْمَةُ الله ذلِكَ.

القضيّة الثامنة: دلّت عليها عبارة: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾: في هذا النَّهي من شُعَيْبٍ عليه السلام لِقَوْمِهِ دلالَةٌ على أنَّهُ قَدْ كانَ من قبائِحِهم الْعُدْوانِيَّةِ الظَّالِمَةِ الآثِمَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا يُرَابطُونَ فِي الطُّرُقَاتِ العامَّة الواسِعَة، الَّتي تجتازُها السَّابلَة، ويمُرُّ مِنها الْمُسَافِرُونَ، فَيَقْطَعُونَ عَلَيْهم الطَّريق، ويُلْزِمُونَهُمْ بِدَفْعِ إِتَاواتٍ ومُكُوسٍ ظالمة، حتَّىٰ يَسْمَحُوا لهم

بالاجْتِيَاز والْمُرُور، وإلاَّ كانُوا عُرْضَةً لما يكْرَهُون في أجسادهم أو مُمْتَلكاتِهِم من ضُرٍّ وَأذىً، وسَلْبٍ ونَهْبٍ ومُصَادَراتٍ ونَحْوِ ذَلِكَ، ويتَهَدَّدُونَهُم وَيَتَوَعَّدُونَهُمْ ظُلْماً وَعُدْواناً.

فنهاهُمْ رَسُولُهُمْ شُعَيْبٌ علَيْهِ السَّلاَمُ عَنْ هٰذه الأعْمال الإجراميَّة الظّالمة لعباد اللّه، الَّتِي يَتَّخِذُونَها وَسِيلَةً لِأكل أموال الناس بالباطل، والإثراء غَيْرِ الْمَشْرُوعِ مِنْ أَمْوال أهْلِ الْجَهْدِ والكَدِّ وَالْعَمَلِ، الَّذِينَ لاَ يَقْدِرُون أنْ يُدَافِعُوا عنْ أنْفُسِهم وأموالهم، تُجَاهَ عِصَابَاتِ الإجرام من أهل مَدْين أصْحابِ الأَيْكة، المتواطئينَ على الشّرّ وأكْلِ أموالِ النّاس ظُلْما وَعُدْواناً.

المراد بالقعود الذي نهاهم عنه شعيبٌ عليه السَّلام المرابَطَةُ والتَّرَبُّصُ، لِقَطْع الطَّرِيق على المارِّين من المجتازين والْمُسَافِرِين، وربَّما من ضعفاء قومهم.

وقد كان زبانية هؤلاء القوم يقْعُدُون مُتَرَبصين بِكُلّ صِرَاطٍ، فلا يَدَعُونَ طَرِيقاً عامًّا من طُرُقَاتِ أَرْضِهم وبلادهم، إلاَّ رَابَطَ فريقٌ مِنْهُمْ فيه، حتَّىٰ لاَ يَجِدَ المجتاز عَنْ طريق أَرْضِهِم مهرباً مِنْ عِصَابَاتهم، عِصَاباتِ السَّلْبِ والنَّهْب الْقَاطِعِين لطُرُقَاتِ الناس.

الصراط والسِّراط: الطريق الواضح، وقيل: سُمّي «سِرَاطاً» لأنَّه يَسْتَرِطُ المارَّة، أي يَبْتَلِعُهُمْ بيسرٍ وسهولةٍ دون تزاحم.

﴿**تُوعِدُونَ**﴾: أي: تَتَهَدَّدُون وتَتَوَعَّدُون باسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ المسلَّحَةِ للإكْراهِ وإنْزَال البلاء، وهذه الجملة حَاليَّة.

القضيَّة التاسعة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾:

﴿**وَتَصُدُّونَ**﴾: هذا الفعلُ معطوفٌ علَىٰ فعل ﴿تُوعِدُونَ﴾ فَهُوَ مِنْ توابع ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: حَالَةَ كَوْنِكُمْ تَتَهَدَّدُون

وتَتَوَعَّدُونَ النَّاسَ بالشرّ، وتَصُدُّون عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ.

تَصُدُّون: أي: تمنعُون وتَصْرِفون.

﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: عَنْ طَرِيق الله الْجَلِيّ الواضِح المسْتَقِيم الَّذِي لاَ يتزاحَمُ فيه سَالِكُوه، ولَيْسَ فيه عِوَجٌ، ولَيْسَ فيه أَمْتٌ، أي: هُوَ مُسْتَوٍ لَيْسَ فيه اختلافٌ في الارتفاعِ والانخفاض، والرِّقَّةِ والصَّلاَبَةِ، والحزونة والسُّهُولَة، وسَبِيلُ اللَّهِ هو دِينه الَّذِي اصطفاه لعباده.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾: أي: منْ آمَنَ بِسَبِيلِ الله، وَلاَ يَكُونُ هٰذَا الإيمانُ إلاَّ عَلَىٰ أَسَاسِ الإيمانِ باللَّهِ وبِرَسُوله، وبالآيَاتِ المنَزَّلاَتِ المشتملات على بيانِ سبيلِ الله.

إعَادَةُ الضمير في: ﴿بِهِۦ﴾ على: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أولَىٰ فيما أرى من اعتباره عَائداً على لفظ الْجَلالَة: ﴿ٱللَّهِ﴾ لأنَّ الإيمان بسبيل الله يقتضي عقلاً الإيمان بسائر أركان الإيمان، بخلاف الإيمان باللَّهِ فَقَد لاَ يَسْتَلْزِمُ ذلِكَ.

أمّا من لم يُؤْمِنْ بَعْدُ به منهم، فهو على طريقتهم ومِلَّتِهِمْ، وصار مَيْؤوساً من إيمانه في هذه المرحلة من مراحل دعوة شعيب عليه السلام لقومه.

القضيَّةُ الْعَاشِرَةُ: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: أي: وتَبْغُونَ السَّبيلَ الَّتِي تَسْلُكُونَها سبيلاً عِوَجاً، على وَفْقِ أهوائِكُمْ، وشَهَواتِكُمْ، وَرَغَبَاتِكُمْ الَّتِي لاَ تتحقَّقُ إلاَّ بالظُّلْم والْعُدْوانِ، والْفِسْقِ والْفُجُورِ والْعِصْيَانِ، للرَّبِّ الملِكِ الدَّيَّان.

والسَّبيلُ العِوَجُ لاَ بُدَّ أَنْ يَنحَرِفَ سَالِكُوها إِلَىٰ مُتَّعَرِّجَاتِ السُّبُلِ الهَابِطَةِ إلى حَضِيضِ الْفَسَادِ والظُّلْم الاجتماعيّ، وسَخَطِ اللَّهِ وغضَبِهِ وَعَذَابه.

والسّبيلُ العِوَجُ إنّما هي سبيلُ الشيطان، وحِينئذٍ لا تكُونَ سبيلاً واحِدَةً، وإنّما تَكُونُ سبُلاً عَوْجاء شَتّى، بَعِيدَةً في المهاوي عنْ سبيل الله بُعْداً فاحِشاً.

الْعِوَجُ: بِكَسْرِ الْعَيْنِ عَدم الاستقامة في الأشياء المعنوية، كالفكريّات، والنَّفسِيَّاتِ، والأقوال والمذاهب، ومناهِج السُّلُوك.

أَمّا عَدَمُ الاستقامة في الأشياء المرئيَّةِ بالْبَصَرِ، فيُقَالُ فِيه: «عَوَجٌ» بفَتْح الْعَيْن، وهو مصْدَرُ فعل «عَوِجَ يَعْوَجُ» فَهُوَ أَعْوَج.

وقد يُطْلَقُ العِوَجُ بِكَسْرِ الْعَيْن على عَدَمِ الاسْتِواء في الأرض.

القضيّة الحادية عشرة: دَلَّت عليها عبارة: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾:

أفادَتْ هٰذِهِ العبارة أَنَّ شعيباً عليه السَّلام قَدْ ذَكَّر قَوْمَهُ بِنعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِتَكْثِيرِ أعدادهم في مُدَّةٍ وَجِيزَة، وقَدْ كانوا قلَّةً ضُعَفَاءَ بين المصْرِيين، والفلسطينيّين، وعَرَبِ الحجاز.

وأبَانَ لهم أنَّ هٰذِهِ النّعْمةَ تَسْتَدْعي مِنهُمْ أَنْ يَشْكُرُوا فَضلَ اللَّهِ عَلَيْهِم، بالْإيمان بِهِ إيماناً صَحِيحاً صادقاً، وبعبَادَتِهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له، وبطاعَتِهِ في إقامَةِ الْعَدْل، والالْتِزَامِ بالحقّ، ونَبْذِ الظلم، واجْتِنَابِ الإفساد في الأَرْضِ، واجْتِنَاب قَطْعِ طُرُقِ مجتازي أَرْضِهِم، واجْتِنَابِ الصَّدّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، والتخلّي عن ابتغاء سبيلهم الّتي يَسْلُكُونَها في حياتهم سبيلاً عِوَجاً مُلْتَوِيَةً، لِيُحَقِّقُوا لأنفسهم بِعِوَجها والْتِوَائها مَا يَشْتَهُونَ، وَمَا يَهْوَوْنَ من ظُلْم وَعُدْوانٍ، وَأَكْلٍ لِأَمْوالِ الناس بالباطل، وفِسْقٍ وَفُجُورٍ، وتفاخُرٍ وتكاثرٍ، ومَا يَبْتَغُونَ مِنْ مصالح ومَنَافِعَ خَاصَّةٍ عن طريق الإفساد في الأرض.

ونُدْرك ذهْناً من تذكير شُعَيْبٍ عليه السّلام قومَهُ بتكثير الله أعدادهم في مُدَّةٍ وَجِيزة، أنَّ الله عزّ وجلَّ قَدْ جَعَلَ رجالَهُمْ ونساءهم مخْصِبين

ومخصِبَاتٍ في التناسُل، وحَمَىٰ نَاشئيهم وأجيالهم من العوارض الْمُمِيتَة، حتّى صَاروا ذوي قُوّةٍ في أرْضهم، وصاروا قادِرينَ على أنْ يَفرِضُوا مُكُوسَهُمْ وإتاواتهم على مُجْتازي أرضهم مِنْ غَيْر قبيلتهم.

﴿قَلِيلًا ﴾: بمعنى قليلين، لأنّ صيغة «فَعِيل» إذَا كانَتْ بمعنىٰ «مَفْعُول» اسْتوىٰ فيها المذكّر والمؤنّث، والمفرد والمثنّىٰ والجمْعُ قياساً مطّرِداً، وإذا كانت بمعنى «فاعل» فقد تُعامَلُ أيْضاً المعاملة نَفْسها، وقَدْ تكَرَّر هذا الإجراء في القرآن في كلَماتِ «كثير» و«قليل» و«ظَهِير» و«رفيق» وربما نجد غيرها أيضاً.

القضيّة الثانية عشرة: دلّتْ عليها عبارة: ﴿وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: وتفكّروا وانْظُرُوا نظراً عقْلِيًا واعياً مُسْتَبْصراً بتأمُّل أحوال الأُمَم السَّابقة الّتي طَغَتْ وبغَتْ وأفْسَدَتْ في الأرض، وكَذّبَتْ رُسُلَ رَبِّها، وكذّبَتْ بآيَاتِه المنَزَّلاَت، واسْتكْبَرَتْ عن اتّباعِهَا والْعَمَلِ بما جاء فيها، كيْف جعل اللّهُ عزّ وجلّ بِعَدْلِهِ عَاقِبَتَهَا هلاكاً لِأَحْيَائِها، ودَمَاراً لِمَسَاكِنِها وَمُمْتَلَكاتها، أمارةً على ما ستلقاه من عذابِ يوم الدين.

وكأني بشُعَيبٍ عليه السلام ضِمْنَ عبارَته العامّةِ هٰذِه، يُشِيرُ إلى ما حَصَلَ لِقَوْمِ لُوطٍ على وجْهِ الْخُصُوصِ، لِقُرْبِ زَمانهم وأرضهم من زَمَانِ قوْمِ شُعَيب وأرْضهم، ويُؤَكِّدُ هذا الفهم قولُهُ الصريح لهم الذي جاءَ بيانه في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿...وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾.

القضيّة الثالِثَة عَشْرَة: دَلّت عليها عبارة: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

الطّائفة: تُطْلَقُ في اللُّغَة على الواحد فَأَكْثر من الجماعة، أو القوم، أو الأمّة، وتُطْلَقُ عَلىٰ الجماعة، والفِرْقة.

تدلُّ هذه العبارة على أنّ أهل مدين قد وصلوا بعد أطوارٍ متصاعدة في الشِّدَّة، إلى طَوْر إيقاف انتشار دَعْوة رسولهم شعيب عليه السّلام بالْقُوَّة، ومواجهةِ مَنْ آمَنَ به واتَّبَعَهُ مِنْهُمْ بِالْقَمْعِ والاضطهاد.

ويَظْهَرُ أَنَّهُمْ تَذَعوا للقيامِ بأعْمالِ الْقَمْعِ بذرائع تَعْتَمِد على خداعٍ ديني، زاعِمِينَ أَنَّ مِنْ حَقِّهم لِحمَايَةِ دينهم الموروث عن آبائِهِمْ إلى جدّهم إبراهيم عليه السلام، متجاهلين التحريفات الباطلات الدخيلات والشّركيّات التي يمارسُونها، ويَزْعُمُونَ أنّها من دِين اللّٰهِ، أَنْ يَمْنَعُوا بالْقُوَّةِ الّذِينَ آمَنُوا بشُعَيْبٍ عن اتّباعِه، والدَّعْوَةِ إلىٰ دينه.

فقال لهم شُعَيبٌ عليه السَّلاَم: إنْ كُنْتُمْ كَمَا تَزْعَمُونَ حَرِيصينَ على حِمَايَةِ دِين اللّٰهِ، فَاتْرُكُوا أَمْرَ نُصْرَةِ الدِّينِ للّٰهِ، وَلاَ تَجْعَلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْصِيَاءَ علَيه، واللّٰهُ عزَّ وجلَّ قَادِرٌ عَلىٰ أَنْ يَنْتَصِرَ لدينِهِ.

فإنْ كَانَ الدِّينُ الحقُّ هو مَا نَدْعُو نَحْنُ إليه، أو ما تَتَمسَّكُونَ أَنْتُم به، فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللّٰهُ بَيْنَنَا وَيُنَفِّذَ حُكْمَهُ الْقَضَائِيَّ لَنَا أو عَلَيْنَا، ولَكُمْ أَوْ عَلَيْكُمْ، ولا تَتَعَجَّلُوا مَنْعَ دَعْوَتِنا من الانتشار بالْقُوَّة، ولاَ تَقْمَعُوا الّذِينَ آمَنُوا بها وَهُمْ مِنكُمْ، واللّٰهُ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، فإنْ كُنَا نَحْنُ على الحقّ الّذي يَرْضَاه، حَكَمَ لَنَا فَنَصَرَنَا وَأَيَّدَنَا، وإنْ كُنتُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ هم على الحق نصَرَكم وأيّدكم.

إذا تفكَّرْنا في قَوْل شُعَيْبٍ عليه السَّلام لَهُمْ ﴿فَٱصۡبِرُواْ﴾ وَحَلَّلْنَا مُقْتَضِيَاتِ مَوْقف المواجهة بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ، طائفةٍ مُؤْمِنَةٍ قَلِيلَةٍ لاَ تَسْتَطِيع الدِّفاع عَنْ نَفْسِها بقُواها المادّيّة، وطائفةٍ غَيْرِ مؤمنةٍ تَمْلِكُ من أدوات القوّة ما تَسْتَطِيعُ به مُعَاقَبَةَ الطَّائِفَةِ المؤمِنَةِ من أجْلِ إيمانها.

وإذا تفكَّرْنَا في الذَّرائِع الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَتَّخِذَهَا الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا، وَالَّتِي يُلائِمُهَا أَنْ يَقُولَ لهم شُعَيْبٌ عليه السَّلاَمُ: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ وَجَدْنَا أَنَّ الْقَوْمَ أرادوا أَنْ يُعَاقِبُوا المؤْمِنِينَ بِذَرِيعَةِ الانتصار لدين اللَّهِ الْمَوْرُوث، وهو دين مُحَرَّفٌ دَخَلَتْ فِيهِ شركياتٌ كثيرات، فقال لهم شُعَيْبٌ عليه السلام: إنْ كانَ أَمْرُكُمْ كَذلِكَ فاتْرُكُوا الدِّينَ لِلَّهِ، فَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ بَيْنَ عباده، ولَسْتُمْ أَوْصِيَاءَ على دينِه، والَّذِينَ آمَنُوا بي واتَّبَعُوني يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ رِسَالَةَ دَعْوَةٍ إِلَىٰ الدِّينِ الحق، وَلاَ يُؤْذُونَكُمْ في دُنْيَاكُمْ، وَلاَ يَقِفُون في طَرِيقِ مَصَالِحِكُمْ، إِنَّمَا يُقَدِّمُونَ لَكُمُ النُّصْحَ فقط.

إنَّ هذا الحِوَارَ الجدليَّ حوارٌ بارعٌ جدًّا من شُعَيْبٍ عليه السّلام، وهُوَ في غايَةِ الْقُوَّةِ والإلْزَامِ بالحجَّةِ الدَّامغة.

ولا بُدَّ أَنْ يكُونَ الْمَوْقِفُ بين شعيب عليه السلام وبين قومه قد تأزم بعد أن عجزوا عن مقابلة حُجَجِهِ بِمِثْلِهَا حَتَّىٰ وَصَلُوا إلى طَوْرِ تَهْدِيده بالإخراج من أرضهم، هو والّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه، وهو الآتي بيانه.

❁ ❁ ❁

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾:

تمهيد:

يُعَبِّر هذا المقطع عن المراحلِ الأخيرة من قصّة شُعيب عليه السّلام مع قومه، والّتي تمّ في خاتمتِها إهلاكُ الّذِين كذّبوه من قومه، ونجاةُ شُعَيْب والذين آمنوا به واتَّبعُوه، وانصرافُه عن أرضِ هلاكهم غَيْرَ حَزِينٍ عليهم، بعد أَنْ أبْلَغهُم رِسَالاَت ربِّه ونَصَحَ لَهُمْ، فقَرَّرُوا إخراجه، وتوَّعدُوا الّذين اتَّبعُوه بالقتل أو بالتعذيب الشديد.

التدبر:

● ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ.. ﴿٨٨﴾﴾:

﴿ٱلْمَلَأُ﴾: كُبَرَاءُ القوم وسَرَاتُهُمُ الَّذِينَ يملَؤُون عُيونَ العامّة.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: أي: الَّذِينَ احتَلُّوا في قومهم مراكز السُّلطَةِ الإدارية، فهم الذين يُصَدِّرُون قرارات الطرد والإبعاد، والحرمان من الإقامة في البلاد. وكان هؤلاء من الملأ الذين كَفَرُوا به وبما جاءهم به عن رَبّه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ﴾: أي: لَنُخرِجنَّكَ يا شُعيبُ وَلَنُخرِجَنَّ مَعَكَ الَّذِينَ آمَنُوا بِك وبما جئت به.

﴿مِن قَرْيَتِنَآ﴾: أي: من مُجَمَّعاتنا السَّكنِية، تُطْلَقُ الْقَرْيَة في اللغة على كُلّ أرْضٍ فيها بُيوتٌ ومَساكِنُ مُجْتَمِعةٌ قَلَّتْ أم كَثُرت، ولو بَلَغَتْ مَدِينَةً عظيمة جدًّا.

لقد أصْدَر أصحاب السُّلْطَةِ في البلاد، قراراً بإكراهِ شُعَيْبٍ والذين آمَنُوا بدينه معه على الخروج والابْتِعادِ عَنْ قُراهم وكلّ بلادهِم وكُلّ شَعْبِهِمْ، أو إكْراهِهِمْ على العودَة عن دينهم والدُّخولِ في مِلَّة قَوْمِهِمْ، حتَّىٰ يكُونوا مُشاركين لهم في ملّتهم عقيدةً وسُلوكاً.

والإخراجُ هُوَ مَا يُعْرَفُ في أَنْظِمَةِ الدُّوَلِ بِالنَّفْي والإبعاد، والطَّرْدِ من البلاد.

اللاّم في: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ وفي ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ واقعة في جواب قَسَم مَنْوِيٍّ ملاحظٍ ذهناً، كما قال الخليل في مثل هذا الاستعمال، فالْفِعلُ في كلٍّ من العبارتَيْنِ مُؤَكَّدٌ بقَسَمٍ مُقَدَّرٍ ذهناً، وبنون التوكيد الثقيلة.

لقد انْهَزَمَ كُبَرَاءُ قَوْمِ شُعَيْبٍ عليه السّلام، تُجَاهَ مُنَاظَرَاتِهِ وبَيَاناته وَجَدَلِيَّاتِهِ هَزَائِمَ فكْرِيَّةً مُنْكَرَة، فلَجَؤُوا إلى قرار استعمال القوّة الماديّة المسلَّحة الْعَسْكرِية، للتَّخْيير بَيْنَ تَرْكِ الدّين الجدِيدِ، والعودَةِ إلى ملّة قومهم، وبين الطرْدِ والإبعاد من البلاد.

لَقَدْ وَجَّهُوا قرارهم بصيغَةٍ مُؤَكَّدَةٍ بالْقَسَمِ وبنون التوكيد الثقيلة الملازمة له، فهو قرار لاَ رَجْعَةَ فِيهِ بحَسَبِ تَصَوُّرهم.

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾: أي: أو لتَعُودُنَّ عَنْ دِينِكُمُ الجديد الّذي آمَنْتُمْ به، وتَتَّبعُون تَعْليماتِهِ، ولَتَدْخُلُنَّ في مِلَّتِنا.

ولا بُدَّ أن يصطَنِعُوا لهذا تَعِلاَّتٍ من وُجُوبِ اتِّباع الدِّينِ الموروث، ومن فكْرةِ الوحْدَةِ الْقَوْمِيَّة.

لَقَدْ كانوا يَرَوْن شعيباً عليه السلام قَبْلَ نبوَّتِهِ ورسالَتِهِ إِنْسَاناً ساكتاً عَن شرْكياتهم وجرائمهم، فَرُبّما ظَنُّوا أنَّه كان يَدِين بدينهم، ثم تركَ دينَهُمْ وابتكَرَ الدِّين الجديد، لذلِكَ صَحَّ من وجْهةِ نظَرهم أَنْ يطالِبُوه هو ومن آمَنَ مَعَهُ بأنْ يعودوا عَنْ مِلَّتِهِمْ الجديدة، ويَدْخُلوا في مِلَّةِ قَوْمِهِم.

• ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ (٨٨) قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ (٨٩)﴾.

استفاد شعيبٌ عليه السَّلام من إصْدَار ذوي السُّلطان في قومه قرارهم التخييريَّ بين الإخراج بالقُوَّةِ من أرْضِ مَدْيَنَ، وبيْنَ الْعَوْدَةِ في ملَّتِهم، فأخذَ جانِبَ الإكْرَاه على الْعَوْدَةِ عَنْ دِينِهِ الحقّ والدُّخولِ في مِلَّتِهِمْ، لِيُنَاظِرَهُمْ وَلِقِيمَ الحجَّةَ عَلَيْهم، بأنَّهُ لاَ يَصِحُّ في الْعَقْلِ، وَلاَ فِي الْوِجْدَانِ، وَلاَ في أَعْرَافِ الحرِّيَّةِ الإنسانيَّةِ الشخْصِيَّة، إكْرَاهُ الإنسانِ على اعْتِقَادِ واعْتِنَاقِ دِينٍ وَالإيمانِ به، وهو مُقْتَنِعٌ فِكْرِيًّا بالبرهان القاطع أنَّه باطل، وبسبَبِ بُطْلاَنه يكْرَهُ أن يَعْتَنِقَهُ وَيَلْتَزِم لوازِمَهُ.

فَنَاظَرَ كُبَرَاءَ قَوْمِهِ مُنَاظَرَةً جَدَلِيَّةً مُفْحِمَةً، حول هٰذِهِ القضيَّة، واشتملَتْ مُنَاظَرَتُهُ على ثلاث مقولاتٍ جَدَلِيَّة، وأَعْقَبَها ببيان ثَبَاتِه على مَوْقِفِه من دينِهِ، متوكِّلا على الله، مهما كانتِ النَّتَائِجُ والتَّدْبيرات الّتي يُدَبّرُونها ضِدَّهُ وضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَه، وبدُعَاءٍ سأل الله عَزَّ وجلَّ فيه أَنْ يفتح بَيْنَهُ وبيْنَ قومِهِ بالحقّ، مثنياً عَلَيْهِ بأَنَّهُ خَيْرُ الْفَاتحين.

المقولة الجدليّة الأولى: دلَّتْ عليها بإيجاز عبارة: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ ﴾: أي: أَتُكْرِهُونَنَا عَلَىٰ الْعَوْدَةِ عَنْ مِلَّتَنَا والدُّخولِ في مِلَّتِكُمْ وَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ تَرْكَ دِينِنَا والدُّخولَ في مِلَّتِكُمْ؟!

إنَّ الكَارِهَ لِتَرْكِ الإيمان بقَضِيَّةٍ يُؤْمِنُ بها بقَلْبه، لا يُمْكِنُ أَنْ يَتْرُكَه، إذ الإيمان إرادةٌ داخليَّةٌ لاَ يَعْرِفُها أَحَدٌ من الناس إلاَّ صاحِبُها. وإنَّ الإكْرَاه على الإيمان بقَضِيَّةٍ يَعْلَمُ المكْرَهُ عليها أَنَّها قضيةٌ باطِلَةٌ، لاَ يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ إيماناً بها، إذِ الإيمان إرادةٌ داخِليَّةٌ لاَ يعرِفُها أَحَدٌ من النّاسَ إلاَّ صَاحِبُها.

لكِنْ قَدْ يُكْرَهُ الإنسانُ على إعْلانِ الكُفْرِ بما هو مُؤْمِنٌ بِهِ، فَيُعْلِنُ ذلِكَ وَهُوَ كاذب، وقَدْ يُكْرَهُ على إعْلانِ الإيمان بما هو كافِرٌ به، فَيُعْلِنُ ذَلِكَ وَهُوَ كاذِبٌ.

فعبارة: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ ﴾ مَعَ مَا فيها مِنْ إيجاز بالغ تَدُلُّ عَلىٰ

حقيقةٍ من حَقَائِقِ السُّلُوكِ الإنسَانيّ الدَّاخليّ، وهيَ اسْتِحَالَةُ إكْرَاهِ ذي الإرادة الحرَّةِ على أنْ يَكْفُرَ بقضيَّةٍ فِكْرِيَّةٍ يَرَىٰ أنها حَقٌّ، وَيُؤْمِنُ بأَنَّها حَقٌّ، أَوْ عَلَىٰ أَنْ يُؤْمِنَ بِفِكْرَةٍ لم يقتَنِعْ بها ولا يُرِيدُ أن يُؤْمِنَ بها.

فَمِنَ الحقائِقِ الثابتَةِ الَّتي لا تَتَغيَّر ما دام الإنسانُ على ما فَطَرَهُ اللَّهُ عليه ذا إرادة حُرَّةٍ، أَنَّهُ لاَ إكْرَاهَ في الدِّينِ، إذْ قَاعِدَةُ الدِّين الحقّ جَوْهَرُها الإيمانُ بمبادئِه، والإيمانُ إرادَةٌ داخِليَّةٌ، لا يُمْكِنُ إكْرَاهُ الإنسان على إيجادِه أَوْ نَسْخِه، ما دام ذا فِكْرٍ خاصٍّ به، وإرادةٍ حُرَّة.

بهذا المنطق العقلي ذي الحجة الدامغة ناقش شعيب عليه السلام قومه.

قد يُكْرَهُ الإنسَانُ على العَمَل بسُلُوكٍ ظاهِريّ مُعَيَّن، وهو لاَ يُؤْمِنُ بصِحَّتِهِ وَلاَ بِجَدْواه، فَيُنَافِقُ في سُلُوكه الَّذِي أُكْرِهَ عَلَيْه، لكنَّهُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يُكْرَهَ على الإيمان بفِكْرَةٍ يراها باطلةً، أو لا يُرِيدُ الإيمان بها، لئلا يلْتَزِمَ مقْتَضَيَاتِها في السُّلُوك.

إنَّ الإيمان إرادَةٌ قلبيَّة تتضَمَّنُ اعترافاً بِفِكْرَةٍ ما، ويَنْتُجُ عَنْهُ اسْتِسْلاَمٌ نَفْسِيٌّ لها، ثُمَّ تَحَرُّكٌ للعمل بمقتضاها.

كذلك سائر العواطف القلبيَّة والنفسيَّة.

ومن أجْلِ هذه الحقيقة لَمْ يَكُنْ رُسُلُ اللَّهِ يُكْرِهُونَ الناسَ على الإيمان بالدِّين الرَّبَّانِيّ، الّذي يدْعُونَ الناس إلى تَفَهُّم مَبَادِئِهِ الاعتقاديّة والإيمانِ بها باختيارهم الحرّ، ولَيْسَ في أَيَّةِ رِسَالَةٍ رَبَّانِيَّةٍ صَحِيحَةِ النِّسْبَةِ إلىٰ اللَّهِ مَا يقتضي إكراهَ الناسِ على الإيمان بما جَاءَ فيها.

إنَّ الإكراه على الإيمان أو علىٰ الكُفر بقضيَّةٍ من القضايا الفكريَّةِ من الأمور المرْفُوضَة عقلاً وَواقعاً، وكُلُّ فَهْمٍ علىٰ خلافِ هذا فَهْمٌ غَيْرُ صحيح.

وإنَّ تاريخ البشريَّة لم يُسجّل على أُمَّةٍ مُؤمِنَةٍ برسالَةٍ رَبَّانِيَّةٍ حقٍّ، فاهِمَة لمضمونِ دينِ رَبّها وَحقيقتِهِ، أنَّها كانَتْ تُكْرِهُ المخالِفِينَ لها في الدِّين، على الإيمان بالدِّين الَّذِي آمَنَتْ به.

لَكِنَّ تَاريخ البشريَّة مَلِيءٌ بالشواهد الدالّة على أَنَّ أَصْحَاب المذاهب والأديان التَّي هي من أوضاع البشر، أو من تحريفات المحرِّفين لدين ربَّانيّ صحيح الأصل، وكذلك سائر قَادَةِ مِلَلِ الكُفرِ، كانُوا هُمُ الَّذِينَ يُكْرِهُونَ مخالِفيهم على تَرْكِ أديانهم ومبادئهم ومذاهبهم، والْإيمانِ والْعَمل بدِينِ الْمُكْرِهين، وإلاَّ كان الْعَذَابُ الشديدُ حتَّىٰ الموتِ مَصِيرَهُمْ.

إنّ مِنْ مبادىء الرّسَالاَت الرّبّانِيّة كلّها أنَّ الدّين لِلَّهِ، وأنّه لا إِكْرَاهَ في الدِّين، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ، ولكِنْ من اخْتَار لنفسه أَنْ يكْفُرَ فعلَيْه أَنْ يتحمَّل تُجاه رَبّه مَسْؤُوليَّة اختياره الحرّ، وعليه أَنْ يَترَقَّبَ عَذَابَ اللَّهِ المعجَّلَ في الدّنيا، إذا اقتضتْ حكمَتُهُ جَلَّ جَلاَلُهُ أَنْ يُذِيقَهُ شيئاً من العذاب المعجّل، وعَلَيْهِ أَنْ يَتَرَقَّبَ عَذَابَ اللَّهِ المؤجلَ إلىٰ يوْمِ الدّينِ، وهَـٰذَا الْعَذَابُ سَوْفَ يلَقَاهُ حَتْماً في جَهَنَّمَ دَارِ العذابِ الأَكْبَرِ، خالِداً فيها مُخَلّداً. وقد أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ.

المقولة الجدلية الثانية: دَلَّتْ عليها بإيجاز عبارة: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾

لمَّا كَانَتْ مِلَّةُ قَوْمِهِ فيها شِرْكِيَّاتٌ، وفيها استباحَةُ ما حَرَّمَ الله عَزّ وجلَّ في كُلِّ مَا أَنْزَلَ مِنْ دِينٍ عَلَىٰ رُسُلِهِ، كَقَطع الطُّرُقِ وظُلْم النّاس، والعدوانِ عليهم، وأَكْلِ أَموالِهم بالباطل، مع ادّعاء أَنَّ ذلِكَ من الدِّين الَّذِي وَرِثُوه عن جَدِّهم «مَدْين» عن أبيه إبراهيم الْخَلِيلِ علَيْه السَّلام النبيّ الرَّسُولِ حقًّا وصِدْقاً.

فإن عَوْدَة شُعَيْبِ عليه السَّلاَمُ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه عن دينِهِمْ،

ودُخُولَهُمْ في مِلَّةِ قَوْمِهِمْ، يَجْعَلُهُم مِثْلَ قَوْمِهِمْ مُفْتَرِينَ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِباً.

الافتراء: اختلاقُ الكَذِبِ عَمْداً مَعَ الْعِلْم بأَنَّهُ كَذِبٌ.

الملَّة: الدّين، والشريعة، صحيحةً كانت أم باطلة.

﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾: «إذْ» ظَرْفٌ للزّمان الماضي، وهُوَ مضاف إلى جملَةِ ﴿نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾: أي: بَعْد حينِ تَنْجِيَةِ اللَّهِ لنا منها، والمرادُ تَنْجيتُهُمْ من الخُلود في عذاب جهنَّمَ المقرَّرِ عند اللَّهِ عزّ وجلّ عقاباً لِمَنْ افْتَرىٰ على اللَّهِ كَذِباً، كَافِراً بِمَا جاء به رسُلُ اللَّه المبلِّغُونَ عن ربِّهم دينَه الذي اصطفاه لعباده.

﴿كَذِبًا﴾ مفعول مطْلَق مُؤَكِّد لعامله: ﴿ٱفْتَرَيْنَا﴾ إذْ هو مرادف للْمَصْدَر الذي هو «افْتِراءً».

المقولة الجدليّة الثالثة: دَلَّتْ عليها بإيجازٍ عبارة: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾:

صيغة: «وَمَا يَكُونُ لَنا أَنْ نَفْعَلَ كَذا» وأشباهِها يُؤتى بها لتأكيد النفي بأبْلَغِ تعبير، إذْ جاء فيها كَوْنٌ منفيٌّ وبَعْدَهُ لاَمُ الْجُحود، كما يَقُولُ النَّحْوِيُّون.

والمعنى: إنَّ عَوْدَنا عَنْ دِينِ رَبِّنَا وَدُخُولَنا في ملَّتِكُمْ أَمْرٌ نَرْفُضُهُ رَفْضاً قَطْعِيًّا، ولِشِدَّةِ إصْرارِنا على رَفْضِهِ نُخْبِرُكُمْ من الآن بأنّه ما يكونُ لنا في المستقبل مِثْلُ هَذا الَّذِي تَطْلُبُونَهُ مِنَّا، فَهُوَ لَنْ يُوجَدَ إلاَّ إذا أَرَدْنَا إيجادَه ما دامَ اللَّهُ جلَّ جلالُهُ يَمِدُّنا بإرَادَةٍ حُرَّةٍ غَيْرِ مَجْبُورَة، إذْ إنَّنا نَخْشَىٰ عقابَ اللَّهِ وَعذَابَهُ، وَهُو الْخُلودُ في جهنَّمَ دَارِ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّينِ.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾: أي: إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنا أَنْ نُظْهِرَ لَكُمْ بأَلْسِنَتِنا وَبَعْضِ تَصَرُّفاتِنا ما يُرْضِيكُمْ، لحكْمَةِ حِمَايَتِنا مِنْكُمْ مُؤَقَّتاً، حتَّىٰ

يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، أَمَّا قُلُوبُنَا فَسَتَظَلُّ مُطْمَئِنَّةً بالإيمان، وأَمَّا أَعْمَالُنا في السِّرّ فَسَتَبْقَىٰ على وفْقِ دِينِ اللَّهِ الحقّ.

هذا ما فتح اللَّهُ به عليَّ في فَهْم هذا الاستثناء من كلاَم شُعَيْبِ عليه السَّلاَم. وهذا الفهم مطابقٌ لما جاء في الإسلام بشأن مَنْ أُكْرِهَ على إعلانِ الكُفْر وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بالإيمان.

قال الله عزّ وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾﴾.

وقد أشكلَت عبارة الاستثناء ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ في كلام شُعيبِ عليه السلام على المفسّرين:

- فقال بعضهم: ذكَر شعيبٌ عليه السَّلام هذا تأدُّباً مع ربّه، إذْ لِلَّهِ المشيئة المطلقة، وعلى المؤمِنِ أَنْ يُعْلِنَ خُضُوعَهُ لَها دائماً، وإِنْ كانَ مُتَيَقِّناً من أَنَّ الله لَنْ يَشاءَ لِعِبادِهِ أَنْ يَعُودُوا عن الإيمان بالحقّ، والدُّخول في مِلَّةِ الكافرين.

- وفَهِمَ الْجَبْرِيُّون مِنْ هٰذا الاسْتِثْناء: إلاَّ أَنْ يَشاء اللَّهُ أَنْ يجعلَنا مَجْبُورِينَ على أن نَعُودَ عن الإيمان بالحق، والدُّخُولِ في ملَّةِ الْكافِرِين، وهذا الفهم مَرْفُوضٌ حتماً.

وما فتح اللَّهُ به عليَّ في فهم هذه العبارة، هو الحقُّ المطابق لقَواعِدِ الإيمان، فاللَّهُ عزّ وجلّ لاَ يَرْضَىٰ لعباده الكُفْرَ فلاَ يُجْبِرُهم عليه حتماً، ولا يَأْذَنُ لهم به حتماً، إلاَّ أَنْ يكُونَ تَقِيَّةً لِسَانِيَّةً وَبِبَعْضِ التصرُّفاتِ الظاهرات، لدَفْع شُرُور الْمُكْرِهِين.

مقولة ثبات شعيب على موقفه متوكّلاً على الله: دلَّت عليها بإيجازٍ عبارة: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ﴾:

﴿عِلْمًاۚ﴾ تَمْييز مُحَوّل عن الفاعل، والتقدير: وَسِعَ عِلْمُ اللّهِ فاسْتوعَبَ كُلَّ شيءٍ، سواءٌ أكانَ مَوْجُوداً أَمْ مَعْدُوماً، ففي جملة: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ﴾ ثَنَاءٌ على اللّهِ عزّ وجلّ بعِلْمِهِ الشّامِلِ لكلِّ شيءٍ، والمحيط بكلِّ شيء.

والغرض من إيراد هذا الثناء التوطِئَةُ لِجمْلَةِ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ﴾.

أي: يا قومِ إذا قَرَّرْتُم إخْرَاجي من أرضِكُمْ وإخْرَاجَ الّذِينَ آمَنُوا مَعِي، إذا لَمْ نَعُدْ عَنْ دِينِنَا وَنَدْخُلْ في مِلَّتِكُمْ، فإنَّنَا نُعْلِنُ لَكُمْ ثباتَنَا على دِيننا، ورَفْضَنَا الدُّخُولَ في مِلَّتِكُمْ، وبَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللّهُ الّذي وسِعَ عِلْمُهُ كُلَّ شيء، وأحاطَتْ قُدْرَتُهُ بكلِّ شيءٍ، فَهُو الّذي يَحْكُمُ بينَنَا، فإنْ مكَّنكُمْ مِنْ إخراجنا وهو الْعَلِيمُ بِنَا وبكُمْ، فَلِحكْمَةٍ يَفْعَلُ ذلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُمَكِّنكُمْ فَهُوَ لَنَا مِنْهُ نَصْرٌ عليكم، فَدَبِّرُوا مَا شِئْتُمْ وافْعَلُوا مَا شِئْتُمْ فَإِنَّنَا عَلَيْه وَحْدَهُ تَوَكَّلْنَا.

التَّوَكُّلُ على اللّه: الاسْتِسْلامُ إليه، وتَفْوِيضُ تَدْبِير الأمْر وتحقيق ما يَرْجُو المتوكِّلُ إليه، مع قيامه بالأسباب المستطاعة المادّيّةِ والمعنويّةِ طَاعَةً لأمْرِه.

أفاد تَقْدِيمُ المعمولِ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على عامِلِهِ: ﴿تَوَكَّلْنَاۚ﴾ في الجملة الْقَصْرَ والحصر، أي: عَلَىٰ اللّهِ وحْدَهُ توكَّلْنَا، فهو القادر على حمايَتِنا ونَصْرِنَا وتَدْبير أُمُورِ نجاتنا وَتَنْفِيذِها بِحِكْمَتِهِ.

مقولة دُعاء شعيب أنْ يفتح اللّهُ بينه وبَيْنَ قَوْمه: دَلَّت عليها عبارة: ﴿..رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

﴿رَبَّنَا﴾: أي: يَا رَبَّنَا، حُذِفَتْ أداة النداءِ بالدُّعَاء، وهُوَ الأَكْثَرُ استعمالاً في دُعَاءِ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ، وفي حَذْفها معنى عَدَم

الحاجَةِ إلى ذكْرِها في اللَّفظِ، لأنَّ اللَّهَ تَعالَى قَرِيبٌ من عِبادِهِ، يُجيبُ دَعْوَةَ الداعِي إذَا دَعَاه.

﴿ٱفْتَحْ﴾: الفتح بين الخَصْمَيْنِ هو القضاء والحكْم، ويلْزَمُ من قضاء اللَّهِ وحُكْمِهِ نَصْرُ أوْلِيَائِهِ عَلَىٰ خُصُومهم وأعدائهم، وقد يراد بالفتح النَّصْر والتأييد.

﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾: أي: اقْضِ واحْكُمْ بيننا وبَيْنَ قَوْمِنَا الَّذِين هَدَّدُونا بالإخراج، قَضَاءً بالْحَقّ.

إنَّ شعيباً عَلَيْهِ السَّلامُ يَعْلَمُ عِلْمَ اليقين، أنَّ الحقَّ هو ما عَلَيْهِ هُو والَّذِينَ آمنوا بِهِ، وأنَّ قضاء اللَّه جلّ جلالُهُ لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ بنجاتهم ونَصْرِهِمْ عَلَىٰ قومهم، لأنّ الحقّ بجانبهم، لكنَّ الأدبَ مع اللَّهِ في الدُّعاء بالفتح يقتضي تقييده بالحقّ، مع ما في هذا التَّقْيِيد من إشعارٍ لِلْخَصْم بأنَّ الدَّاعِيَ لا يَدْعُو رَبَّهُ بأنْ يَنصُرَ الباطِلَ عَلَىٰ الحق، بل يَدعوهُ بأن يَنْصُرَ الْحَقّ علَىٰ الباطل، ولَوْ كان الحقُّ بجانب خَصْمِهِ.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾: أي: وَأَنْتَ خَيْرُ الحاكِمِينَ، والنَّاصِرِين، وفي هذا ثناءٌ عَلَىٰ اللَّهِ فيه معنَىٰ الاستعطاف لاستجابَةِ الدُّعاء.

ويظهر أنَّ شعيباً عليه السَّلامُ أسْمَعَ قَوْمَهُ دُعاءَهُ لِرَبِّهِ فألْقَىٰ الرُّعْبَ في قُلوبهم.

● ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

لقد ألْقَىٰ دُعاءُ شُعَيْب عليه السَّلام الرُّعبَ في قُلُوب المَلأ الَّذِين كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ، وخَافُوا أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ بِهِم مِثْلَمَا أنْزَلَ بالْمُهْلَكِينَ من قبلهم، قوم نوحٍ، وعادٍ، وثمودَ، وقَوْم لُوط، وكان قَدْ حَذَّرَهُمْ شُعَيْبٌ عليه السَّلام من ذلك، فَصَرَفُوا النَّظَرَ عَنْ تَنفِيذِ قرارِ إخراجِه، وتَوَجَّهُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه مُهَدِّدِينَ وَمُتَوَعِّدِين بالاضطهادِ والتعذيبِ حتَّىٰ الْمَوْت.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي: وَقال الّذِين كَفَرُوا من مَلأِ قومِهِ وهُمُ الكُبَراءُ والأَعْيَانُ الّذين يَمْلَؤُون عُيُونَ العَامَّةِ، سَوَاءٌ أَكَانُوا ذوي سُلْطَةٍ إداريَّة، أمْ من مستشاريهم وأَهْلِ الحلِّ والعَقْدِ فيهم، أمَّا أصحاب السلطة الإدارية فقد سبق وصفهم بأنهم الذين استكبروا.

ويظهر أن: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وَصْفٌ تَقْيِيدي يُشْعِرُ بأنَّ بَعْضَ مَلأِ قَوْمِهِ هم من الّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه.

وطَوَىٰ النَّصُّ الْمُوَاجِهِينَ بهذا الْخِطَابِ، لِلْعِلْمِ بِهِمْ مِنْ مَضْمُونِ ما خُوطِبُوا به، فَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِشُعَيب عليه السَّلامُ واتَّبَعُوه.

﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾: أي: نُقْسِمُ: لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيباً في إصْرارِهِ عَلَىٰ مَوْقِفِهِ الَّذي أعْلَنَهُ، إنَّكُمْ إذاً لَخَاسِرُون، أي: إنَّكُم إذاً لَتَكُونُونَ خاسِرِين، إذْ سَنُسَلِّطُ عليكم مِنْ رِجالنا من يُعَذِّبُكم ويضطهِدكُم ويَسْلُبُكُمْ ممتلكاتِكُمْ، حتَّىٰ تَصِيرُوا خاسِرِينَ كُلَّ شيءٍ، وقَدْ تُقْتَلُونَ فتخْسَرُونَ الحياةَ، وقَدْ تَخْسَرُونَ أهليكم وأولادَكم بالتعذيب والتشريد والقتل.

أَكَّدُوا تَهْدِيدَهُمْ بالْقَسَم، فاللامُ في: ﴿لَئِنِ﴾ مُوَطِّئَةٌ للقسم المنوي ذهناً، وجملة: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ الواقعة في جواب القسم مُؤَكَّدَةٌ أيضاً بالمؤكدات: «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحلقة للخبر ـ وأُعْتَبِرُ «إذاً» هُنَا من المؤكِّدَاتِ أيضاً لأنَّ ما قبلَها مُفتقِرٌ لِمَا بَعْدَها فهي زائدةٌ للتأكيد».

● ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾: **الرَّجْفَةُ**: الزَّلْزَلَة، والمعنى: فَتَنَاوَلَتْهُمُ الزَّلْزَلَةُ بَحَرَكَاتِها العنيفةِ، ذَاتِ الْخُطُوطِ الممتَدَّةِ في كُلِّ أَبْعَادِ أَرْضِهِمْ، فَجَعَلَتْ كُلَّ واحِدٍ منهم صَرِيعاً هَالكاً، جَاثِماً لاصقاً بالأرض على رُكْبَتَيْهِ وَوَجْهِهِ. **أَخْذُ الشيء**: تناولُهُ والقَبضُ عليه.

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾: أي: فَدَخَلُوا في صباحِ يَوْمِ الرَّجفة الَّتِي أَخَذَتْهُمْ، حَالَةَ كَوْنِهِمْ جَاثِمين.

﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي: لاصقين بالأرض على رُكَبِهِمْ وَوُجُوههم، مُلاَزمين أَمْكِنَتَهُمْ هَلْكَىٰ مَيِّتين لاَ يَبْرَحُون.

وجاء في نُصُوصٍ أُخْرَىٰ بَيَانُ أَنَّهم قد أَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّة، وأَنَّهُمْ قَدْ أَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَة، وهي صَوْتٌ عظيم مُمِيت، ومن الجمع بين النصوص نفهم أنّهم قد اجتمعت عليهم وسائل تَعْذيب وإهلاكٍ ثلاث: (الظُّلَّةُ الحارّة الخانقة المهلكة ـ الزُّلْزَلَةُ المهلكة ـ الصَّيْحَةُ الْمُمِيتة).

وجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بيانُ أَنَّ اللَّهُ عزّ وجلّ نَجَّىٰ شُعَيْباً والَّذِينَ آمَنُوا معه «انظر الآية (٩٤) منها».

● ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾: أي: كَأن لَمْ يَسْبِقْ لَهُمْ أَنْ أَقَامُوا في أَرْضهم، وهذا يَدُلُّ على استئصالهم، وطَمْسِ كُلِّ آثارهم.

يُقَالُ لغة: غَنِيَ بالْمَكَانِ يَغْنَىٰ، مثل: رَضِيَ يَرْضَىٰ، أي: أَقَامَ فيه. وغَنِيَ الْقَوْمُ بالمكانِ، أيْ: طَال مقامُهُمْ فِيه.

والْمَغْنَىٰ: المنزِلُ الَّذِي غَنِيَ بِهِ أَهْلُه، وجَمْعُه «مَغَانٍ».

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: جاء هذا الْبَيَانُ التعقبيُّ الرَّبَّانِيّ، في مُقَابل تَهْدِيد هؤلاء المكذّبين للّذين آمَنُوا بِشُعَيْب عليه السَّلاَم، إذْ قَالُوا لهم: ﴿.. لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ في هذه العبارة قَصْرٌ دَلَّ عليه تَعْرِيف طَرَفِي الإِسْناد في ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أو ضَمِير الْفَصْل، إذا اعتَبَرْنا «هُمْ» ضَمير

فصل، وهذا القصر هو من قَبِيل الْقَصْرِ الإضَافِي، أي: كان المكذّبُونَ هم وحْدَهم الْخَاسِرِينَ لاَ الَّذِينَ آمَنُوا بِشُعَيْبٍ واتَّبَعُوه.

لَقَدْ خَسِرَ المكَذّبُونَ دُنياهُمْ، فكَانُوا جميعاً هلْكىٰ، وخَسِرُوا أنفسهم في آخِرَتهم، إذْ سَوْف يكونُ مَصِيرُهُمْ إلى الْخُلُودِ في عَذَابِ الْحَرِيق في جهنَّمَ دَارِ عَذَاب المجرمين يوم الدين.

● ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾:

أي: فَانْصَرَفَ شُعَيْبٌ عليه السَّلام مُدْبراً عن دار إهْلاكِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمه، وَنَادَاهُمْ وهُمْ هَالِكُونَ قَائلاً لَهُمْ:

﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ أي: ما كَانَ يَنْزِلُ عليَّ من صُحُفٍ أو كتاب تَنْزِيلاً منجماً، وَمَا كَانَ يُوحَىٰ به إليّ لأبَلّغَكُمْ إيَّاه من معَانٍ وَبيانات، دلَّتْ صيغة الجمع ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ على التنزيل المنجّم.

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾: أي وقَدَّمْتُ لَكُمْ مَا فِيهِ خَيْرُكُمْ وسَعادَتكُمْ خَالِصاً مِن الشوائب. فَلَمْ آل جَهداً في نُصحي لَكُمْ، وصَبْرِي عَلَيكم، وتحمَّلي لأذاكم، لكنّكم لم تَسْتَجِيبوا لِدَعْوتي، مَعَ شِدَّةِ حِرْصي على نجاتِكُمْ، وَلم تَعْبَؤُوا بِنُصْحي، بَلْ كَذَّبْتُموني وكذَّبْتُمْ بما جِئْتُكُمْ بِهِ عَنْ رَبّي، وَكَفَرْتُم مَعَ عِلْمِكُمْ بِأَنَّ مَا جِئتُكُمْ به هو الحقُّ من رَبّكُمْ.

﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾:

أي: فكيف أَحْزَنُ على هَلاكِ قوم كافِرِينَ، وَكَيْفَ أَحْزَنُ مِنْ أَجْلِهِمْ إذْ نزل فيهم عذاب رَبّهم المعجَّلَ، وسَوْفَ يُعذَّبُون عَذَاباً خالداً في جهنَّمَ يَوْمَ الدّين؟!.

يُقالُ لُغَة: أَسِيَ عَلَيْه، وَأَسِيَ لَهُ يَأْسَىٰ أَسَى، أي: حَزِنَ، فَهُوَ «آسٍ، وأسِيٌّ، وأَسْوَان، وأَسْيَان».

أصْلَ: «آسَىٰ» أأسَىٰ.

والمرادُ بالاستفهامِ عَنِ الكَيْفِيَّة بيانُ أَنَّهُ لاَ تُوجَدُ كَيْفِيَّةٌ يَصِحُّ معها أَنْ أحْزَنَ عليهم، فَقَدَ اخْتَارُوا بإراداتِهِمْ الحرَّة أَنْ يَكْفُرُوا، مع عِلْمِهِمْ بأنَّ ما جئتهم به هو الحقّ من ربّهم، ولَكِنْ غَلَبَتْ شَهواتُ نفوسهم، وأهواؤُهم، عقُولَهُمْ، وإراداتِهم الحرَّة، فاستحبُّوا العمَىٰ على الهدى، وآثَرُوا المتاعَ الزائل الفاني، على النعيم الخالِدِ الباقي، وَجَعَلُوا أَعِنَّتَهُمْ في أيدي الشياطين، فَمَا نَزَلَ بِهِمْ هُوَ نتيجة اختياراتهم وهم عَالِمُونَ، فلا يَصحُّ أن أحْزَنَ عليهم في كيفيّة من الكيفيات، ولو كانوا قومي، وفيهم عشيرتي الأقْرَبون.

❋ ❋ ❋

الفصل السادس
التدبُّر التَّحْليليّ لبيانٍ مجملٍ عن أقوام ورُسُلٍ لم تُذْكَرْ أسمَاؤُهم مع تعقيب ختامي
الآيات من (٩٤ ـ ١٠٢)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا

يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

القراءات:

(٩٤) ● قرأ نَافِعٌ: [مِنۡ نَبِيءٍ] بالهمزة بعد الياء مع المدّ المتصل.

وقرأ باقي الْقُرَّاءِ العشرَةِ: [مِنۡ نَبِيٍّ] بالياء المشدّدَةِ دون همْزَة.

والقراءتَان لغتان للكلمة. والمعنى فيهما مُنَبّأٌ من رَبّه عن طريق الوحي إلَيْه.

● وقرأ السُّوسي وأبو جعفر: [بِالْبَاسَاءِ] بالألف بعد الباء دون همز، في الوصْلِ والوقف، وقرأها حمزة كذلك في الوقف فقط، وهو وجه عربي في نطق الكلمة.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [بِالْبَأْسَاءِ] بالهمزة الساكنة بعد الباء.

(٩٦) ● قرأ ابنُ عامر، وأبو جعفر، ورُوَيس، [لَفَتَّحْنَا] بتَشْديد التّاء المفتوحة.

وقرأ باقي القراء العشرة: [لَفَتَحْنَا] بفتْح التاء دون تَشْديد.

والقراءتان متكامِلتَان في دَلالَتَيْهما، فـ«فَتَحْنَا» دون تَشْدِيد تَدُلُّ عَلَىٰ أحوال الفتح المعتاد دُونَ سَعَةٍ كثيرة فيه، و«فَتَّحْنَا» بالتشديد تَدُلُّ علىٰ أحوال الفتح الزّائِدِ على المعتاد، بسَعَةٍ كثيرة فيه.

(٩٧) و(٩٨) ● وقرأ أبو جعفر والسُّوسي: [بَاسَنَا] بالألف بعد الباء في الموضعين، وصلاً ووقفاً، وقرأها حمزة كذلك في الوقف.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [بَأْسَنَا] بالهمزة بعد الباء.

والقراءتان من اللَّهجَات العربيَّة.

(٩٧) ● قَرَأَ نافع، وابْنُ كثير، وابْنُ عَامِرٍ، وأَبُو جَعْفَر: [أَوْ أَمِنَ] بإسْكَانِ الواو، فحرْف العطف هو «أَوْ».

وقرأ باقي القراء العشرة: [أَوَ أَمِنَ] بهَمْزَةِ استفهامٍ وَواو العطف.

والقراءتان من التفنُّن في البيان، والمؤدَّىٰ واحد.

(١٠١) ● قرأَ أَبو عَمْرو: [رُسْلُهُمْ] بإسْكان السّين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [رُسُلُهُمْ] بضمّ السّين.

والقراءتان لُغتان عَرَبيَّتان.

تمهيد:

اشتملت آيات هذا الفصل السادس على بيان مجْمَلٍ عَنْ أقوام ورسُلٍ لم يَذْكُرِ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ أسماءَهم، وقد جرىٰ لهم نَظِيرُ ما جَرَىٰ للذين ذكرهم بأسمائهم، وعَرَضَ لقطَاتٍ مِنْ قصَصِ حيَوَاتهم، وما جرى لمكذِّبي الرسُلِ من عاقبةٍ وخِيْمةٍ مُخْزِيَةٍ يتَّعظ بها أولُو النُّهىٰ، أَهْلُ الْعَقْلِ والبصِيرَة، الَّذِينَ يُقَدِّرون الأمورَ حقَّ قَدْرِها، ولاَ يُجَازِفُونَ بمصايرهم.

واشتملَتْ أيضاً على توجيه النُّصْح، والموعظَة، والتَّحْذِير، والإنْذار، لكُلِّ مَتَلَقٍّ لآيَاتِ الْقُرْآنِ المجيد حَتَّىٰ آخِرِ مُمْتَحَنٍ في الحياة الدُّنيا. بأَنْ يَتَّبِعُوا ويَعْمَلُوا بما أُنزِل إليهم من رَبّهم، ويَحْذَروا عَاقِبة الْكُفْرِ والْعِصْيَانِ، والظُّلْمِ والْعُدْوان.

وجاء في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بَعْدَ ذِكْرِ لقَطَاتٍ من قصة نوحٍ عليه السلام وقومه، ولقطاتٍ من قصّةِ هودٍ عليه السلام وقومه، دون ذكْرِ اسْمَيْهِما، قولُ اللَّهِ عَزَّ وجل بشأن رُسُلٍ وأقوامٍ لَمْ تُذْكَرْ أَسْمَاؤهم.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾: الْقَرْنُ من الناس، أهل زمانٍ واحِدٍ، سُمُّوا في اللُّغَةِ قَرْناً، لأنَّهُمْ اقْتَرنُوا معاً في الوجود بذلك الزَّمان. وكُلُّ أُمَّةٍ لرسُولٍ عاشُوا في زمانِه هُمْ قَرْنُه.

﴿تَتْرَا﴾: أي: يتْبَعُ بعْضُهُمْ بعضاً مع وجود فاصل زَمَنِي بيْنَ كُلّ واحِدٍ منهم وآخر. قال الأصْمَعِيُّ: وَاتَرْتُ كُتُبِي عليه، أي اتْبَعْتُ بعضَها بعضاً، إلاَّ أَنّ بين كُلّ واحِدٍ منها وبين الآخر مُهْلة.

فيظْهَرُ أَنَّ هذا النّصّ من سُورَة (المؤمنون) يتحدَّث عن الرُّسُلِ والأقوام الَّذِينَ جاء كَلامٌ مُجْملٌ عنهم في هٰذا النّص الموضوع للتدبر من سورة (الأعراف).

فبَعْدَ النّصّ الذي من سورة (الأعراف) جاء قول اللّه عزّ وجل: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ . . . ﴿١٠٣﴾﴾.

وبَعْدَ النصّ الذي من سورة (المؤمنون) جاء قول اللّه عزّ وجل: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

التدبّر:

قول الله عز وجلّ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾: دلَّت هٰذه العبارة علَىٰ أنَّ كُلَّ

رَسُولٍ لا بُدَّ أَنْ يكونَ نبيًا، فالنبوّةُ سابقَةٌ، فإذا شاء الله كَلَّفَ من اصطفاه بالنبوّة أن يكون رسولاً يُبلّغ الناس رسالات ربّه، ضمن حدُودِ رسالته، ولا يُشْتَرَطُ في كلّ نبيٍّ أن يكون رسولاً، لكِنْ لا يكونُ رسولٌ ما لَمْ يَصْطَفِه اللّهُ قبل ذلك بالنُّبوة.

والمرادُ بالقرية كُلُّ مُجَمّع سَكَنِي صغيراً كان أمْ كبيراً، ولو بلغ مدينةً عظمَىٰ، ويُلْحَقُ بهذا المجمع السُّكَنِيّ كُلُّ توابعه مَهْمَا كثُرَتْ وامتدَّتْ.

والرِّسالاتُ العظْمَى تَكُونُ ذاتَ امتدادٍ عالميّ، مَحْدُودِ الزَّمن كرِسالة موسى، ورسالة عيسىٰ عليهما السلام، قبل الرسالة العالميّة الخاتمة.

أمّا رسالة محمّد ﷺ فهي عالميَّةٌ للناس جَمِيعاً، لا يَحُدُّها زمَانٌ ولا مَكانٌ، لأنّها الرّسَالةُ الخاتِمة، الّتي كان بها خَتْمُ النبوّات.

«مِنْ» في ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ حرف جرٍّ زيد للتنصيص علىٰ العُموم.

﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾:

﴿أَخَذْنَآ أَهْلَهَا﴾: أصل الأَخْذِ هو القبض على الشيء، وبالتوسُّعِ في المعنىٰ صَارَ يُطْلَقُ على حيازةِ الشيء والحصول عليه، ولو دُون قَبْضٍ عليه، ثُمَّ صَارَ يُطْلَقُ الأخْذُ على معنى ما يُؤخَذُ له الشيء، فأخْذُ المذْنِبِ يدلُّ على معنى معاقبته بذنبه، ولو لم يحْصُلْ أخْذٌ جَسَدِيّ، وأَخْذُهُ بالعذاب، يدلُّ على مَعْنَىٰ إنزالِ العذاب به، كأنَّ الْعَذَابَ قد كان السَّبَب الذي تحقَّقَ به الْقَبْضُ عليه، بدَلَ قبْضِ الْيَدِ.

إرْسالُ النبيّ رسولاً لقوم مَا، يَدُلُّ على أنّ هَؤُلاء القومَ يحتاجون علاجاً من الدَّرجَةِ الْقُصْوَىٰ، لكُفْرِهِم وكثْرَةِ شُرُورهم وفسادهم وإفسادهم في الأرض، ومع إرْسَال النبيّ رسولاً إليهم تتدخَّلُ الْعِنَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ لمعالجتِهم بوسائل التربية والتَّأديب.

﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾:

الْبَأْسَاءُ: الجوعُ والمشقة والفقر وضَنْكُ العيش، والحرب.

الضَّرَّاء: الشِّدَّةُ، وكُلُّ حَالَةٍ تَضُرُّ في الأموال والأنْفُس.

والغرضُ من هذا الأَخْذِ بالبأساء والضّراء تذكيرُهُمْ بربّهم ليَدْعُوه مُتَضرعينَ إليه، سائِلِينَ أن يكْشِفَ ما نزلَ بهم مما يَكْرَهُون.

﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾: أي: رَغْبَةً في أن يَتَذَكَّرُوا رَبَّهم فيتضَرَّعُوا له داعين سائلين معترفين بذنوبهم.

لعَلَّ: أصْلُ معناها الترجّي، وتُحْمَلُ بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ على معنَىٰ الرَّغْبَةِ والرِّضَىٰ، فالمرجُوُّ مِنَ الأشياء الحسَنَةِ مَرْغُوبٌ فيه، ويُسْتَقْبَلُ بالرضا، واللَّهُ عزّ وجلّ يَرْضَىٰ لعبادِهِ الإيمانَ والعملَ الصالح، ولا يَرْضَىٰ لهم الكُفْرَ والْعَمَلَ السَّيِّىءَ.

يَضَّرَّعُونَ: أي: يَتَضَرَّعُون، أدغِمَتِ التاء في الضاد فصارتا ضاداً مشدَّدة.

التضرُّع: هو التَّذلُّل والخضوع، وهو مَأْخُوذٌ مِنْ خُضُوعِ ولَدِ البهيمة الرَّضِيع، ليمتَصَّ حليب أُمِّه من ضَرْعِها.

دلَّتْ هٰذِهِ الآية على سُنَّةٍ من سُنَنِ اللَّهَ عزّ وجلّ التَّذْكِيريَّةِ التَّأديبيَّة. التي يُعَالِجُ الله عزّ وجلّ بها عباده، وقد أجراها جلَّتْ حِكْمَتُهُ في كلّ الأمم الذين كَفَرُوا، أو أَسْرَفُوا في الانحراف عن صراط الله المستقيم، بالمعاصي والمخالفات، وكثرةِ الفساد والإفساد في الأرض.

والغرض من إنزال المكارِه في هذه الأمَم، ابتلاؤُهُمْ بما يُثِيرُ فِطْرَتَهُمُ الإيمانيَّة الَّتي فطَرَهُمُ اللَّهُ عليها، والَّتي يوقظُها في الناس غالباً ـ وإنْ كانوا من أهل الكُفْر والشُّرْكِ باللَّهِ ـ مَسُّ آلاَمَ الشَّدَائِد والمصائب، وفَقْدُ

الضَّرُورِيَّاتِ للحياة، فيتَضَرَّعُون للَّهِ خاضعِين مُتَذَلِّلِينَ داعينَ أَنْ يكْشِفَ عَنهُمْ ما هم فيه من مصائب وشدائد ومكاره.

أَمَّا النِّعَمُ والمسَرَّاتُ وتوالي أَسْبَابِ الرَّخَاء، وسَعَةِ الرِّزْقِ، مع العافِية والقوة والنشاط، فإنَّها تجعَلُهَا تَغِطُّ في نَوْمٍ عَمِيقٍ، وَتَصْرِفُها عن تَذَكُّرِ مَحَامِدِ رَبِّها وشُكْرِ نِعَمِهِ، وتُنسِيهَا اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ وَعَدْلَهُ، وقَوارِعَ عِقَابِهِ ونِقْمَتِه، وأنَّه الَّذِي بِيَدِهِ مَقاليدُ كلِّ شيءٍ، وهو على كلِّ شَيْءٍ قدير، فتَنْطَلِقُ بَطِرَةً مُسْتَكْبِرَةً أَشِرَةً فَاجِرَةً مُفْسِدَةً في الأرض.

ومن سُنَّةِ اللَّهِ في الأمم أنهم إذا تَضَرَّعُوا لربّهم خاضعين داعين مُسْتَغفرين، بعْدَ أَنْ يُنزِلَ بهم المصائبَ لِيَتَذَكَّرُوا فيتضرّعوا، أن يكْشَفَ عنهم ما ابْتَلاهم به من المصائب والمكاره، وأَنْ يجْعَلَ بَدَلَ المصائب التي ساءتْهُمْ نِعَماً تَسُرُّهُم.

● ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾: أي: وبَعْدَ مُدَّةٍ مُتراخِيَةٍ اسْتَمرَّتْ خلالَها الْبَأْسَاءُ والضَّرَّاء الَّتِي هي سَيِّئَةٌ غيْرُ حَسَنَةٍ، وهي من المكارِهِ الَّتي تَسُوءُ المبتَلَيْن بها، بَدَّلْنا مَوَادَّ الابتلاءِ، فجعَلْنَا الحسَنَةَ في مَكَانِ السَّيِّئة، فَكَشَفْنَا الجوعَ، والمشَقَّةَ، والفقرَ وضَنْكَ العيش، وويْلاتِ الحرْب، والمكارِهَ في الأموال والأنفس، وجَعَلْنَا مكانَها وَفْرَةَ الأرزاقِ، والرّاحَةَ، والغِنىٰ، وسَعَةَ العيْش، والأمْنَ، والرَّخاءَ، والمُمْتِعَاتِ السَّارَّاتِ، وكَلِمَةُ «الحَسَنَةِ» عنوانٌ عامٌّ يشْمَلُ كُلَّ هٰذِهِ وأشباهَهَا.

ويظهر أنَّ كشف البأْسَاء والضَّراء عنهم قد كانَ استجابةً لتضَرُّعَاتِهم لرَبّهم.

وتحليل العبارة: ثمّ بَدَّلْنا جاعِلين في مَكَانِ السَّيِّئةِ الحسَنَةَ.

﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾: أي: حتى كثروا بالمواليد والذّرية، وهم أهل القرية الّذين ابتلاهُمْ الله أوّلاً بالسَّيّئةِ، ثُمَّ رَفَعَها وَكَشَفَها عنهم، وابْتَلاهُمْ بالحَسَنة.

يُقَالُ لغة: عَفَا الْقَوْمُ، أي: كَثُرُوا. وعَفَا النبتُ أو الشَّعَرُ، يَعْفُو فهو «عَافٍ» أيْ: كَثُرَ وَطَالَ.

● ﴿وَقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾:

طوىٰ النَّصُّ في مَثَانية ذكْرَ إعَادَة ابْتِلاَءِ الْخُلُوفِ بالْبَأْسَاءِ والضَّرَاء، وأنَّهم لم يَتَضَرَّعُوا لِرَبّهم كَمَا فعلَ آباؤهم، بل تَوَهَّمُوا أَنَّ ما نزلَ بهم هو أَحَدُ مظاهرِ التقلُّبَاتِ الطبيعيَّةِ في الدَّهر، وقالوا: هٰذِهِ ظاهِراتٌ طبيعيَّةٌ ليس من ورائها قَصْدُ تأدِيبٍ أَوْ تَذْكِيرٍ أو تَرْبِيةٍ.

عَبَّرُوا بالْمَسّ، لتَهْوين الأمْرِ على أنفهسم، وعلى جماهيرهم من الأتْباع، وليَصْرِفُوا عن أذهانهم فِكْرَةَ تأديبِ الله عزّ وجلّ لهم، فلم يُعَبّروا عمّا نَزَلَ بهم بالْإِصَابة البالغة العُمْق.

واسْتَمرُّوا على ما هم فيه من كُفْرٍ، وانْطلاَقٍ فَاجرٍ في كبائر الإثم والظُّلْمِ والْعُدْوان، دون خَوْفٍ من عِقَابِ اللّهِ الجبّارِ الْقَهَّارِ الملِكِ الدَّيَّانِ.

السَّرَّاء: النِّعْمَةُ والرَّخاء والمسَرَّة.

● ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

أي: فأَخَذْنَاهم أَخْذَ تَعْذِيب وإهْلاك شامِلَيْنِ مُبَاغِتَيْنِ، دُونَ إشعارٍ لهم بمقدّماتٍ فيها إنْذارٌ، لأَنَّهُمْ قَدْ وصَلُوا إلى قَاع الحضِيض، كُفْراً وإسْرَافاً في الفجور وارْتكابِ الآثام، مَعَ تَفْسِيرهِمْ ظواهر حِكْمَةِ اللّهِ في تصاريف كونه، بأنها ظواهر طبيعيّة، لَيْسَ مِنْ وَرَائِها قَصْدٌ رَبَّانِيّ.

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فَجْأَةً. يقال لُغَةً: بَغَتَهُ يَبْغَتُهُ بَغْتاً وبَغْتَةً، أي: فَجأَهُ وبَهَتَهُ. والكلمة على تقدير: أخذاً بَغتَةً، أو على تقدير مباغِتين، باستعمال المصدر بمعنى اسم الفاعل.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: أي: والحالُ أنَّهم لاَ يَشعُرُون كَيْفَ نَزَلَ بهم هذا الْعَذَابُ والهلاكُ المبَاغِت.

الشُّعور بالشيء: هو العلم به ولو مِنْ أدْنَىٰ دَرَجات الإحساس به.

المعنى العام للآيتين (٩٤ ـ ٩٥):

كان من سُنَنِ اللّه فِي عباده أن يُرْسِلَ رُسُلاً من الَّذِينَ اصطفاهم بالنُّبوَّة، لهداية الضَّالين الغاوينَ من الأقوام، قبل ختم النُّبُوَّاتِ والرِّسَالات بمُحَمَّدِ بن عبد الله ﷺ.

ولقد أرسل الله جلَّ جلالُه رسُلاً متَعَدِّدين، إلَىٰ أقوامٍ متعدِّدينَ، في حواضِرَ ذوات توابع من القُرىٰ والبوادي، لأنَّهم قد وصَلُوا إلى حالاتٍ من الضلالِ والغيِّ والفساد والإفساد، تَسْتَدْعي أن يُرْسِلَ اللَّهُ لَهُمْ رُسُلاً.

فكان هؤلاء الرُّسُلُ يُبَلِّغُونَ أقوامهم دينَ اللّهِ الّذِي اصْطَفَاهُ لعباده، ويُبَشِّرُون مَنْ آمن واتَّقَىٰ بالأمن والرَّخاء، وبالسعادة الخالدة يوم الدين، ويُنْذِرُونَ مَنْ كَفَرَ وفجر بعذاب النار يوم الدين، وبعذاب دون ذلك في الدُّنيا، على وفق حكمة الله فيهم، وبعذاب لنفوسهم بين الموت والبعث.

وكان هؤلاء الأقوامُ يقاومُون دعَواتِ رُسُلِ رَبّهم، ويعانِدُون الحقّ الذي جاءوهم به، فلا يُرغِّبُهم تبشير، ولا يُرَهِّبُهم إنْذار.

وكان من سُنَّة اللّه أن يُعالج تأديبهم وتذكيرهم بأخْذِهِمْ بالبأسَاء والضَّرَّاءِ، رغْبَةً في أن تَصْحُو فيهم فِطْرَةُ الإيمان بربّهم، فيتضرَّعُوا لَهُ داعِين تائبين، فإذا فَعَلُوا ذلِكَ رفَعَ اللّه عنهم البأساء والضرّاء، وبَدَّلَ أحوالهم، فجعَلَ ما يُحِبُّون من الحسنة، في مكان ما كَرِهُوا من السَّيِّئَةِ، وتَجْرِي أُمُورُ امْتحانِ أفرادِهم في الحياة الدُّنيا بصُورَةٍ كافيةٍ لكَشْفِ ما في نَفْسِ كُلّ مِنْهُمْ.

حتَّىٰ إذا طالَ عليهم الأمَدُ، وكثُرَتْ أعدادهم وأنسالهم، ونَمَتْ أموالُهم وزُرُوعهم وثمارهم، طَغَوْا وبَغَوْا وكَفَرُوا، وقضَتْ حِكْمَةُ اللّه أَنْ يَأْخُذَهُمْ بالمصَائِبِ من البأسَاء والضَّرَّاء، ليتَضَرَّعُوا كما فَعَلَ آباؤهم من قَبْلُ وليُعْلِنُوا تَوبتهم، فيرفَعَ اللّه عنهم ما أَنْزَلَ بهم.

لكنّ هؤلاء الْخَلائِفَ كانُوا يُفَسِّرُونَ مَا نزلَ بهم تفسيراً مَقْطُوعاً عن قَصْدِ حكيم، من ربّ عظيم، فيقولُونَ: إنَّها عوارِضُ الدَّهر وتَقَلُّبَاتُه، وظواهِرُ طبيعيَّةٌ مُتكَرِّرَة، فمن ظواهر الطبيعة أنْ تأتي فيها البأسَاءُ والضَّرَّاءُ أَحْيَاناً، ومن ظواهرها أن تأتي فيها النِّعَمُ والمسَرَّاتُ وأسْبابُ الرَّفاهية والرَّخاء، وهذه الظواهر المتضادَّة تَتَعاقَبُ على الناس تَعَاقُباً لا يَدُلُّ علي تَدْبيرِ وقَصْدِ من رَبٍّ عَلِيمِ حَكِيمِ قَدِير، يَفْعَلُ مَا يشاءُ ويَخْتَار.

فإذَا بَلَغُوا هذا الحضيضَ المنحطَّ من الكُفْر الذي لا تَردعُهُمْ معَهُ الشدائد والمصائب، وَلاَ تُوقظُ في أعماقِ قلوبهم ونفوسهم فِطْرَةَ الإيمانِ، ولا تحييها من سُبَاتِها، رَد اللَّه عَلَيْهِمْ أسْبابَ النِّعَمِ الْوَفِيرَة، وتركَهُمْ كذَلِكَ مُدَّةً من الزَّمَنِ، حتَّى إذا زَادُوا في الطغيان والبغي، ولم يَسْتَجِيبوا لنُصْحِ ناصِحٍ، ولا لِتَذْكِير مُذَكِّر، فَاجَأَهُمْ اللَّه بعذابٍ شامل مُهْلِك، قَصَمَ بِهِ ظُهورَهُمْ، وقطع به دابِرَهُمْ في الحياة الدّنيا، ثُمَّ يُرَدُّون إلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ يَوْمَ الدِّين.

هذه السُّنَةُ من سُنَنِ اللَّه عزّ وجلّ في عبادِه سُنَّةٌ مُسْتَمِرَّةٌ، وتَكُونُ غَفْلَةُ الناسِ عَنْهَا بِسَبَبِ طُولِ الأَمَدِ في النِّعْمَة، وبسبب رَبْطِ الظواهِرِ الكَوْنِيَّة بأسْبَابِها الطبيعيَّة القريبة المادّيَّة، دون النظر الْعَمِيق إلَىٰ أسْبابها الحقيقيَّةِ الّتي تَسْتَنِدُ إلى حِكْمَةِ الرَّبِّ الخالِقِ في تصاريف الكون.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾: أي: ولو أنَّ أهل المجمّعاتِ السكنيَّةِ للنَّاسِ، صغيرةً كانت أمْ كبيرة، ولو بَلَغَتْ مُدُناً عظيمةً جِدًّا، مَعَ لواحِقِها وتَوابعها.

فَقَدْ سَبَقَ بيانُ أَنَّهُ يُلَحَقُ بالقرىٰ توابِعُها من سُكَّان البوادي، فهم في معظم أَحْوال التَّجمُّعَات البشريّة مُلْحَقُونَ إداريًا وسياسيًا واجتماعيًا بحَواضِر المجمَّعَات السكنية، ومعظم البشر تكون لهم مجمَعاتٌ سكنيّةٌ يتَعاونون فيها على تبادل المعرفة والأعمال ونواتجها، وتبادُلِ المنَافِع والمصالح، وأن تكون لهم مؤسسات مشتركة يتعاونون على إقامتها، وهذه إنّما تكون غالباً في الحواضر لا في البوادي.

«لو» هنا حرفُ شرطٍ يَدُلُّ على عدَم وجود جواب الشرط، لعدم وجود الشرط.

● ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾: هذا هو الشرط، وهو مؤلف من عنصرين هما: الإيمان والتقوىٰ، أي: الإيمان الصّحيح بعناصر القاعدة الإيمانيَّةِ الَّتي أَمَرَ اللّه بالإيمان بها فيما أَنْزَل عَلَى رُسُلِهِ.

واتقاءُ عِقَابِ اللّه بأَدَاءِ الواجباتِ الّتِي أَوْجَبَها عليهم، وبِتَرْكِ المحرَّمَاتِ الّتي حرَّمَها عليهم، في أحكام الدّين الّذي اصطفاه لهم.

﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾: وفي القراءة الأُخْرَىٰ:

﴿لَفَتَّحْنَا﴾ بِتَشْدِيدِ التّاء، وهذه القراءة تَدُلُّ على الزّيادة في الفتح، فالقِراءتانِ مُتَكامِلَتان في أداء المعنَىٰ المراد، أي: فَمَنْ كان إيمانُهم وكانت تَقْواهم من دَرَجَةِ المقبول، أو من دَرَجَةِ الجيّد، فَتَحْنَا، أَمّا من بَلَغُوا في ذلِكَ دَرَجَة الجيّد جِدًّا، أو الممتاز فَتَّحْنَا تفتيحاً زائداً مُضَاعفاً.

﴿بَرَكَٰتٍ﴾: أي: زياداتٍ كَثِيرات، جمع «بَرَكَة» وهي الزّيَادة من الخير، سواءٌ أكانت مادِّيَّةً تُدْرَكُ بالحواس الظاهرة، أَمْ غَيْرَ مادّيّة، ممّا يُدْرَكُ بالحواسّ الباطنة.

قال الزّجاج: البركة، هي الكَثْرَةُ مِنْ كلِّ خير.

أقول: البَرَكَةُ وكلُّ تصريفات هذه المادّة في نُصُوصِ القرآن والسُّنَّةِ، تَدُلُّ علىٰ الزيادات الّتي تأتي من وراء المنظور، دون أَنْ تُدْرَكَ لها حُدُود، فَهِيَ فَيْضٌ مِنْ عالَم الْغَيْبِ إلى عالَم الشهادة، أو زيادات في عالَمِ الغيب بلا حَدٍّ.

والمرادُ بفتح البركات فتحُ أبوابِها المعْنَوِيَّةِ والمادّيَّةِ، حتَّىٰ تَتَدَفَّقَ نِعَمُ اللّٰه الزائدة، وخيراتُه الحِسَانُ، على الَّذِينَ آمَنُوا واتَّقَوا.

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: أي: لفَتَحْنَا عليهم أبوابَ بركاتٍ تأتيهم من جِهَةِ السَّمَاءِ، وتأتيهم من جهة الأرض.

فَمِنْ جِهَةِ السَّمَاءِ تأتيهم الطَّاقَةُ الضَّوْئِيَّةُ والحراريّة، وأشياءُ أخرىٰ تُمِدُّهم لِغِذَائِهِمْ ومَنَافِعِهِمْ الكَثِيرة، ومِنْها ما يَنْزِلُ عليهم من السُّحُب الّتي هي بالنسبة إليهم سماءٌ لهم، بحَسَب مفهوم كلمة السَّماء في اللّغة.

ومِنْ جهة الأرض يُخْرِجُ اللّٰه لهم أنواع النباتات ونواتجها من ثمراتٍ ومَطاعِمَ ومشارب وحيَوانَاتٍ لَهُمْ فيها منافع كثيرة، إلى سائر ما يسْتَخْرِجُونَ من الأرض من بَرَكاتٍ كَثِيراتٍ لِمَنافِعِهم المتعدّدة الكَثِيرَة التي لاَ تُحْصَىٰ من قبيل المحْصِينَ من الناس، منها المعادِنُ وأشْبَاهُها، والعضويّات وأشباهُها، وعناصر الطاقة المختلفة.

فإذا مَنَحَ اللّٰه جلّت حكمته النَّاسَ زياداتٍ من فيوض عطاءاتِه، فهي بَرَكاتٌ منْهُ يُنْزِلُها لَهُمْ من السّماء، أو يُخْرِجُها لَهم من الأرض.

والمؤمنُ يُدْرِكُ بِبَصِيرَتِهِ، ويَعْلَمُ من دلالات النصوص الدِّينيَّةِ الإسلاميّة، أنَّ كُلَّ مَا يَنَاله الناسُ من نِعَمٍ، هيَ من عطاءات الرَّبِّ الخالق لعباده، يتفضَّلُ بها عليهم.

وظاهِرٌ ما في العبارة من حذف للإيجاز، واستعارة قائمة على تشبيه عطاء اللّٰه الكثير بفتح الأبواب.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

أي: ولكِنْ لم يُحَقِّقُوا الشَّرطَ بِالإيمان والتقوىٰ، فلَمْ نَفْتَحْ عَلَيْهِمْ برَكاتٍ من السَّمَاءِ والأَرْض دَوماً دُونَ انقطاع، ودونَ أن نَأْخُذَهُم بالبأْسَاءِ والضَّرَّاءِ، رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَضَرَّعُوا، ودون أَنْ نَأْخُذَهُمْ أخيراً بالتَّعْذِيبِ والإهلاك الشامل العامّ. بل كذَّبوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، وكَذَّبُوا بما جاءُوهم به عن رَبِّهم، فلم يُؤْمِنُوا ولم يَتَّقُوا، والمرادُ معظَمُ أَهْلِ القرىٰ لاَ كُلُّهُم.

لهذا استحقُّوا أَنْ نَأْخُذَهُمْ بِسَبَبِ مَا كانوا يَكْسِبُون.

وأَخْذُ اللَّه لهم يَكُونُ على وفْقِ سُنَّتِه، وهي ذات مرحلتين:

المرحلة الأولى: أَنْ يَأْخُذَهُمْ بالبأسَاءِ والضَّرَّاءِ، تذكيراً لهم برَبِّهم وتأديباً، وهذا لا يكون معه إهلاك شامل.

ويَتْبَعُ هذا رَفْعُ قَوارِعِ التذكير والتأديب عنهم، حتَّىٰ إذا تَمَادَوْا فِي غَيِّهِم، واسْتَعْمَلُوا نِعَمَ اللَّه في الطغيان والفساد والإفساد في الأرض، جاء دَوْرُ تنفِيذِ المرْحَلَةِ الثانية إذا اقتضت حكمة اللَّه ذلك فيهم، بِبُلُوغهم دَرَكَةً من الكفرِ والفسادِ والإفسادِ، مَيْؤُوساً معها أَنْ يَصْلُحَ منهم بإراتِه الحُرَّة عَدَدٌ كافٍ لإمْهَالِهِم، أَكْثَرَ مِمَّا أُمْهِلُوا.

المرحلة الثانية: أَنْ يَأْخُذَهُمْ اللَّه بعذابٍ وإهْلاكٍ شامِلَيْنِ بَغْتَةً، فَيُفَاجِئَهُمْ بِهِ لَيْلاً وهُم نَائِمُونَ، أو ضُحَى وهم يَلْعَبُون، ويَنْزِلَ بِهِمْ دُونَ أن يكونُوا في حالَةِ شُعُورٍ بمقَدِّمَاتٍ مُنْذِرَةٍ بالعذاب الذي سَيَنْزِل بِهِمْ، ولا بالْهَلاَكِ الذي يَسْتَأْصِلُهم.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾: أي: بما كانُوا يَفْعلُون، أصل الكَسْبِ العملُ للحصول على مَرْغُوبٍ فيه، كالرِّزق والمالِ، واللَّذَّة، والاستمتاع بشيءٍ ممّا هو محبوبٌ للنفوس. يقال لغة: كَسَبَ المالَ يَكْسِبُهُ كَسْباً، أي: رَبِحَهُ. وكَسَبَ الشيءَ، أي: جمعه، وكَسَبَ الإثم، أي: فَعَلَهُ وتَحَمَّلَهُ باخْتِيارِهِ الحرّ.

❁ ❁ ❁

قول اللّه عزّ وجلّ:

• ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾:

﴿أَفَأَمِنَ﴾: همزة استفهامٍ، وبعدها «الفاء» الْعَاطِفَة، وهي هنا الفاء الفصيحة الّتي تَعْطِفُ على محذُوفٍ يمكن إدْرَاكُهُ بالتدبّر.

أَمِنَ: أي: اطْمَأَنَّ ولَمْ يَخَفْ فهو «آمِنٌ» و«أَمِنٌ» و«أَمِينٌ».

﴿أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾: أي: أَهْلُ المجمَّعَات السكنيّة مهما عظمت، ومَنْ هُم مُلْحَقُونَ بهم من أهل البوادي.

﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾: أي: أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُنا ومَا يُلْقِي في قُلُوبِهُمُ الخوفَ والذعْرَ الشديدَيْن. **البأس** في اللّغة: العذابُ الشَّدِيد، والشدَّةُ في الْحَرْبِ، والحربُ، والخُوفُ.

ولا يخفَىٰ ما في استعمال ضَمِير المتكلّم العظيم من إثارة المهابة والخوف في نفوسِ أولي الألباب.

﴿بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾: **بَيَاتاً**: مَصْدَرُ «بَاتَ» بمعنى أَدْرَكَهُ اللّيل، سواءٌ أكان نَائماً أَمْ غَيْرَ نَائم، فجاءت جملة ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ قيداً لاَزماً لعموم البياتِ، وهذه الجملة حالية، أي: حالة كوْنِهِمْ نَائِمين.

والمعنى: أَلَدَىٰ أَهْلِ القرىٰ الكافرين عِلْمٌ بأنّ اللّه عزّ وجلّ لَنْ يُنْزِلَ بِهِمْ عَذَابَهُ على ما يَكْسِبُونَ من آثام، فَأَمِنُوا واطْمَأَنُّوا ولم يَخَافُوا أَنْ يَأْتِيَهُمْ، بأسُ رَبِّهم في اللّيْلِ وهُمْ نَائِمُونَ، فيُبَاغِتَهُمْ وهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ بِمُقَدِّمَاتِ الْعَذابِ الَّذِي سيكون به إهلاكُهم.

والاستِفْهَامُ في الآية استفهامٌ إنكاريٌّ، تعْجِيبيٌّ من أَمْرِ اسْتِغْرَاقِهِمْ في

آثامِهِم، الْجَالب لسخَطِ رَبّهم عليهم، وإنْزَالِهِ العذابَ الشَّدِيدَ بهم، وإهلاكِهِمْ إهلاكاً شاملاً إذا اقتضت حكمتُه ذَلِكَ بعد إمْهَالِهِم الإمهالَ الكافيَ القاطع لأعذارهم.

﴿أَوَ أَمِنَ ﴾ وفي القراءة الأُخْرَىٰ: ﴿أَوْ أَمِنَ ﴾ بإسكان الواو، فتكُون «أَوْ» كُلُّها حَرْفَ عَطْفٍ علَىٰ ما جاء في الآيةِ السابقة. وأَمّا القراءة الَّتي بفتح الواو، فالْهَمْزَة همزة اسْتِفْهَام والواو حرف عَطْفٍ على ما جاء في الآية السّابقة، والمؤدَّى واحد، والقراءتان من التَّفَنُّنِ في أسْلُوبِ الأداء البياني.

﴿ضُحًى ﴾: **الضُحَىٰ**: هو أَوَّلُ النهار، مُنْذُ ارتفاع الشَّمْس إلى الزَّوال، وهذا الوقت هو الوقت المفضَّل الذي كان الناسُ يُقِيمُونَ فيه مُنَاسَباتِ الألْعاب ومبارياتها، فيجتمِعُون في ملاعبهم غافلين عن كلّ شيءٍ يجري خارج ساحات اللّعب.

أو المرادُ أنَّه الوقت الذي يكون الناس فيه بحسَب العادة مُنْتَشِرينَ في الأرض، يمارسُونُ أعمالهم لمصالح الحياة الدُّنيا وسمَّىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ اشْتِغَال الكافِرينَ بأَعْمَالِهِمْ في مصالح الحياة الدُّنيا لَعِباً، لأنَّهُمْ لاَ يَسْتَغِلُّونَها فيما يَجْلُبُ لهم سعادةً خالدةً يوم الدِّين، ولا فيما يكونُ سببَ سَعادتهم الحقيقيَّةِ في الحياة الدنيا، لأنّ تحقيق هاتين السعادَتَيْنِ إنَّما يكونُ حينما يحقّق الإنسان في ذاتِه شرْطاً مؤلَّفا من عُنْصُرَين:

العنصر الأول: الإيمان الصحيح الصادقُ بأركان القاعدة الإيمانية وفروعها.

العنصر الثاني: الالتزام بتقوى اللَّه بفِعْل ما أَمَرَ به، وتَرْك ما نَهَىٰ عنه.

والكافرون لم يُؤْمِنُوا ولم يَتَّقُوا عَذَابَ رَبّهم، فأعْمَالُهُمْ في الحياة الدُّنيا جَديرَةٌ بأنْ تُسَمَّىٰ لَعِباً.

والمعنى: أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ الكافرون بسبب ما لديهم من عِلْم، فاطْمَأَنُّوا ولم يَخافُوا أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُ رَبِّهِمْ في وقْتِ الضُّحَى، وهُمْ غارِقُونَ في أعمالهم غَافِلُون عَمَّا يُمْكِنُ أَنْ يُفَاجِئَهُمْ من عذاب رَبِّهم.

والاستفهام فيه معنَىٰ استثارَة التَّعَجُّبِ مِن حالةِ عَدم اكْتِرَاثِهِم لِمُفَاجآتِ عَذَابِ رَبِّهم، وفيه معنَىٰ الإنكار على تَمادِيهم في غَيِّهِمْ، وعَدَم اعتبارهم بالَّذِينَ سَبَقُوا مِمَّنْ كانَ مِنْ أَمْرِهِمْ أَنْ أَخَذَهُمُ اللَّه بالْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ أَوَّلاً لِيَتَضَرَّعُوا، فَلَمْ يُؤْمِنُوا ولم يتَّقُوا رَبَّهم، فأمَدَّهُمْ بأنْواعِ النِّعَم مُدَّةً من الزَّمَنِ، ثُمَّ أَخَذَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ مُنْتَقِمٍ، فَعَذَّبَهُمْ عَذاباً عَامّاً شاملاً، وأهلكهم إهلاكاً مُسْتَأْصِلاً.

فَمَا الَّذِي جَعَلَ المكَذِّبِينَ فِي الأَجْيالِ المتَتَابِعَةِ غَيْرَ عَابِئِينَ بِسُنَّةِ اللَّه الَّتِي جَرَتْ في أَسْلافِهِمْ، ولا مُكْتَرِثين لها، ولاَ خائِفِينَ مِنْ أَنْ يُجْرِيَ اللَّه فِيهِم سُنَّتَهُ الَّتِي أَجْراهَا في المكذِّبين الأَوَّلين لِرُسُلِ رَبِّهم، وبما جَاءُوا به لهداية الناس من عند ربهم، وَلبَيَانِ واجِبَاتِهم تُجاهَه في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدنيا.

أَأَمِنُوا احْتِمَالَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ أَنْواعُ العذاب الشَّدِيدِ والْمُهْلِكَاتُ الْقَاصِمَاتُ بَيَاتاً وهُمْ نَائِمُونَ، أَوْ ضُحًى وهُمْ يَلْعَبُون؟!!

ما الَّذِي يَجْعَلُهُمْ يَأْمَنُونَ هذا الأَمْنَ، مَعَ أَنَّ سُنَّةَ اللَّه في عِبَادِهِ الموضوعين موضِعَ الامْتِحَانِ في الحياة الدُّنيا واحِدَةٌ، لاَ تبديلَ فيها ولا تَحْويلَ لَها؟!!

إنّ طرح هذا السؤال يفتح بابَ مُنَاظَرَةٍ بَيْنَ المؤمنين المتقين، وبين الكافرين الفاجِرين، غيرِ المكْتَرثين لِنُذُرِ الإهلال الشامل، فهؤلاء الكافرون:

● إمَّا أن يقولُوا كما قَالَ خَلْفُ المهلَكِينَ الأوَّلِين، الَّذِينَ نزلَ بهم الإهلاكُ الشامل أيضاً من بَعْدِ أسلافهم، إِذْ قالُوا:

إنّ إهْلاَكَ السَّابقين قد كان بتأثير ظواهِرَ طبيعيَّة في الكَوْن، وَلَمْ يَكُنْ أَثَرَ قَصْدٍ حكيم، وعقابٍ وانتقامٍ مِنْ رَبٍّ قاهِرٍ جَبَّارٍ مُهَيْمنٍ عَلَىٰ كُلِّ صغيرةٍ وكبيرَةٍ في الكَوْنِ وأَحْدَاثِهِ عَلِيم قَديرٍ، لاَ يَجْرِي شيءٌ في الكَوْنِ إلاَّ بقَضَائِهِ وقَدَرِهِ وأمْرِهِ، أَوْ إِذْنِه وتَمْكِينِهِ.

فهم إذَنْ يَجْحَدُونَ رُبُوبِيَّةَ الرَّبِّ الخالق، أو يَجْحَدُونَ بَعْضَ صفاتِ رُبُوبيَّته، فَمُنَاظَرَتُهُمْ تَنْتَقِلُ إِلَىٰ إثْبَاتِ مَا يَجْحَدُونَهُ من رُبوبِيَّةِ اللَّه جلَّ جلاله.

● وإمَّا أن يَقُولُوا: لَقَدْ غَيَّرَ اللَّه سُنَّتَهُ، بَعْدَ أنْ أصْبَحَتِ الأُمَمُ أُمَماً حَضَارِيَّةً ذَواتَ عِلْمٍ بِقَوانِينِ الطبيعة، وقُدْرَةٍ علىٰ تَنْظِيم أُمُورِهِمُ المعَاشِيَّةِ، ومُكَافَحَةِ الأمْرَاضِ وأسبْابها، وهي الَّتي كَانَتْ تَنْجُمُ عمَّا كان يُسَمَّىٰ مُحَرَّمَاتٍ ومحظوراتٍ في الأديانِ القديمة، ولَمْ يَبْقَ حَالُها كَأحْوالِ الأُمَمِ الْبِدَائِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، الَّتي كانت تأْتِيها الكَوارِثُ والْمُهْلِكَات العامَّات الشَّاملات.

والرَّدُّ على هٰذا يكونُ بإثباتِ أَنَّ سُنَنَ اللَّه جَلّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُهُ في عباده ثابتَةٌ، لاَ تَبْديل لها وَلا تَحويل، وأنَّ الأُمم الحضاريَّةَ تَتَعَرَّضُ دَواماً لأنْ تُطَبَّقَ فيها سُنَنُ اللَّه عزّ وجلّ، ولَوْ على أيْدِي الناس، كما حصَل في الحرْب العالِميَّةِ الأُولىٰ، والحرْب العالِميَّةِ الثانية، والحروبِ القارِّيَّةِ والإقْليمِيَّةِ غَيْر الشَّامِلَة، والكوارِثِ الَّتِي تَحْدُثُ حِيناً فحِيناً، والأَمْرَاضِ وَالأَوْجاعِ الَّتِي لم تَكُنْ في الْقُرون السَّالفة، وتَحارُ الدُّوَلُ الحضارِيَّةُ في أَنْ تَجِدَ وَسِيلَةً لِلْقَضَاءِ عَلَيْها، فلا تَجِدُ إلاَّ بالْتِزَامِ أَحْكامِ دينِ اللَّه للناس.

على أنَّ تاريخَ البَشَرِيَّة في حِكْمَةِ اللَّه وسُنَنِهِ الدَّائِمَةِ لاَ يُقَاسُ بعَشَراتِ السنين، ولا بِمئاتِها أحْياناً، وذَلِكَ لأنَّ اليوم في حساب الإمْهالِ والْحِلْمِ الرَّبَّانِي، قَدْ يكونُ بِنَحْوِ أَلْفِ سَنَةٍ ممَّا يَعُدُّ الناسُ بحسب نظام الأرْض، فالسَّاعة من هذا اليوم تُقَدَّرُ بنحو أرْبَعِينَ سَنَةً.

وإذا كان إهْلاكُ قوم نوح عليه السَّلامُ، قد حصَل بَعْدَ إمْهالِهم مع

نوح يَوْماً من أيّام الإمْهَالِ الرَّبّاني، المعادِلِ لنحو ألف سنة ممّا يَعُدُّ الناس، فَقَدْ جرَىٰ إهلاكُ أقْوامٍ من بَعْدِهم بعْدَ إمْهالهم ساعاتٍ من هذا اليوم الرَّبَّاني.

وقد أسْقَطَ اللَّه عزّ وجلّ الدَّوْلَةَ الشُّيُوعيَّةَ الرُّوسِيَّةَ العظمىٰ، بَعْدَ أَنْ أَمْهَلَها قُرابَةَ أَقَلَّ من سَاعَتَيْن من سَاعاتِ أيَّامه التي يُعامل بمُقْتَضَاها عِبادَه.

● وإمَّا أن يَقُولوا أَقوالاً أُخرىٰ، ولكُلِّ قَوْلٍ من أَقْوالِ أَهْلِ الكُفْرِ رَدٌّ يُسْقِطُه ويُظْهِرُ بُطْلانَه.

فَمِنَ الغباء، وقِلَّةِ العَقل، مَعَ انْطماسِ الْبَصِيرةِ باتّباع الأهواء والشهواتِ ووساوسِ شياطين الإنْسِ والجنّ، أَنْ يَكُونَ النَّاسُ بسبب إمْهال اللَّه لهم، في أَمْنٍ مِنْ أَنْ يُجْرِيَ فيهم سُنَّتَهُ التذكيريَّة التأديبية أوَّلاً، ثُمَّ الإهلاكيَّة الشاملة المقرونَةَ بِعَذابٍ شَدِيد، كما أَجْرَاهَا في أهل القرون السالفة.

إنَّ سُلُوكَ الكافرين هذا سُلوكٌ يُسْتَثَارُ حولَهُ الْعَجَبُ الشديد، ويُوَجَّهُ له الاسْتنْكار والتأْنِيب، قَبْلَ تسليط عصَا التأديب، فقوارِعِ الإهْلاكِ الشَّاملِ المقرونِ والمَسْبُوقِ بعَنِيفٍ مِنَ التعْذِيبِ.

● ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾؟!

هذا الاسْتِفْهامُ نظير الاسْتِفْهَامَيْنِ في الآيَتَيْن السابقتَيْن في دلالَته، إلاّ أنَّهُ يَلْفِتُ النظر إلى قَضِيَّةِ الْمَكْرِ الرَّبَّانِي، الَّذِي منْ عَنَاصِره أَنْ يُمْهِلَ اللَّهُ عزّ وجلّ عبادَه، وأنْ يَزِيدَهم منْ عطاءاتِ النِّعَمِ الْوَفِيرَة، بَعْدَ أَنْ يُذَكِّرَهُمْ بِعَوَارِضِ البأسَاءِ والضَّرَّاءِ رَغْبَةً في أَنْ يَتَضرَّعوا ويَتُوبُوا إِلَىٰ بَارئهم، فإذا لم يَفْعَلُوا رفَعَ اللَّهُ عزَّ وجلّ عنهم بحكْمَتِهِ هذه العوارضَ وأملَىٰ لهم، وأمَدَّهم بوافِرِ النِّعَمِ، حتَّىٰ إذا تمادَوْا في غَيِّهِمْ وَإِفْسادِهِمْ في الأرض أَخَذَهُمْ بَغْتَةً بِالعذاب الشديد، وبالْمُهْلِكاتِ الشّاملات، فقطَعَ دابِرَهُمْ.

لَقَدْ أمِنُوا بغبائهم وَعَدَمِ إيمانهم باللَّهِ وَرُسُلِه مَكْرَ اللَّهِ إِذْ أَمْهَلَهُمْ وأَمْلَىٰ لهم، ووسَّعَ عليهم حتّىٰ صاروا مُتْرَفين، مُسْرِفين في غَيِّهِمْ وفسادهم وإفسادهم في الأرض، فباغَتَهُمْ بالعذاب الشَّدِيد، والإهلاكِ الشامل، فصاروا من الخاسِرِينَ لكلّ شيء، خَسِرُوا دُنياهم وحَيَواتِهِمْ وأنْفُسَهم، وسَيَكُونون خاسِرِين أنفسهم يذقون عذاب الحريقِ يوم الدِّين، في جهنم وبئسَ المصير، خالدين فيها لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمُ العذاب.

المكْرُ: هو تدبير أَمْرٍ في خفاء، ويكونُ مَكْراً في الخير، واللَّهُ خَيْرُ الماكرين، وتَدْبِيرُ عُقُوبَاتِ المجرمين بِسِرِّيَّةٍ وَخَفَاءٍ هُوَ من الْخَيْرِ حَتْماً.

وقد يكون المكْرُ فِي الشَّرِّ والإِثْم والْعُدْوَانِ، وهو مكْرُ المجرمين والعصاةِ والْفَاسِقِين، ولا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إلاَّ بأَهْلِهِ.

فلفظَ المكْرِ عامٌّ يَشْمَلُ المكْرَ في الْخَيْرِ، والمكْرَ في الشَّرّ.

ويَمْكُرُونَ ويَمْكُرُ اللَّهُ واللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ.

❁ ❁ ❁

قول اللَّه عزّ وجلّ:

● ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

● ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ جُمْلَةٌ مُصَدَّرَةٌ باستفهامٍ يَحْمِلُ معنىٰ استثارة التعجُّب والاستنكار، وهي مَعْطُوفَةٌ بحرف العطف «الواو» على الجُمَل الاستفهامية في الآيات السابقات: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ ـ ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ﴾.

كلمة ﴿لَمْ﴾ حرفٌ يجزم الفِعْلَ المضارع ويَقْلِبُ زَمَنَهُ إلى الماضي، فالمعنىٰ: أَوَ مَا هدى؟. وفعل «يَهْدِي» في العبارة ضُمِّنَ فِعْلَ «يُبَيِّن» فَعُدِّيَ

تَغْدِيَته، فحَمَلت العبارةُ دَلاَلَتِي الفعلَيْن معاً، والتقديرُ أو مَا هَدَىٰ حالُ الأُمَم السَّالفةِ مُبيّناً للأُمَمِ الوارثَةِ لَهَا في سُكْنَىٰ الأرض، سُنَّةَ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ الثّابتَةَ، الَّتي لا تَبْدِيلَ لها ولاَ تَحْويل.

إنَّ تَكْرارَ إجراء هذه السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ في الأُمم السَّالفة، مع التَّذْكِير بها فيما جاء به المرسَلُون، ثُمَّ فيما نَزَلَ في القرآن المجيد، مع التَّنْبيه عليها بصريح العبارة في مُناسَبَاتٍ كثيراتٍ، من شأنه أَنْ تَحْصُلَ به قناعَةٌ تَامَةٌ بثبات هذه السُّنَّةِ، لَدىٰ الأمم الحاضرة إبَّان تنزيل القرآن، والأُمَم الَّتِي سَتَأتي بَعْدَها، باعتبارهم من الذين وَرِثُوا الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا السَّابِقِينَ الْمُهْلَكِينَ بسَبَب كُفرهم، وتكْذِيبهِمْ رُسُلَ رَبِّهم، وَتَكْذِيبهم بما أُنْزِلَ إليهم من ربّهم، وعَدَمِ اتِّبَاعِه، وبسبَب إسْرافهم في الظلم والطغيان، والْبَغْي والفجور والعصيان، وتَمادِيهِمْ في الْغَيّ والفسادِ والإفْسَاد في الأرض.

• ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾: أي: لكُلِّ سَاكِني الأَرْضِ مِنْ بَعْدِ الَّذِينَ سَكَنُوها قَبْلَهُمْ مِنَ الأُمَم والأَقْوام والشُّعُوبِ السَّالِفَةِ، الَّذِينَ أجْرِيَتْ عليهم سُنَّةُ اللَّهِ الثابتة، الخاضِعَةُ لِمَشِيئَةِ اللَّه الَّتي لا تُفارِقُ حِكْمَتَهُ.

• ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾: أي: أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا ويَقْتَنِعُوا اقتِناعاً تاماً، أنْ لَوْ نَشاءُ ـ إذَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُنَا ـ لأَجْرَيْنَا عَلَيْهِمْ سُنّتنا الّتي أَجْرَيْنَاها على الأُمَمِ السَّابِقَةِ الَّتي عَذَّبْنَاها وَأَهْلَكْنَاهَا إهلاكاً عاماً شاملاً، فَأَصَبْنَاهُمْ بسِهَام التَّعْذِيبِ والإهلاك الْعَامّ الَّتي أصَبْنَا بمِثْلِهَا الَّذِينَ سَلَفُوا من الأُمَمِ الَّتِي أَهْلَكْنَاها.

جاء التَّعْبير بالإصابة للدّلالة على أنَّ وَسَائل التعذيب الَّتي يمكِنُ أَنْ يُعَذّبَهُمْ بها تَدْخُلُ إلى أَعْماقِهِمْ، ولاَ تَكْتَفِي بِمَسّ جُلُودِهِمْ.

ولا يخفىٰ ما في استعمال ضمير المتكلّم العظيم هنا من ضغْطٍ قويّ علىٰ مِحْوَرِ الْخَوْفِ في نُفُوسِ أُولي الأَلْباب.

الذَّنْبُ: يُطلَقُ على كُلِّ ما يَسْتَحِقُ فاعِلُهُ العِقَابَ من أشَدِّ الذُّنُوبِ وأكْبَرِهَا حتَّىٰ أخفِّها وأصْغَرِها.

«لَوْ» حَرْفٌ شَرْطِيٌّ للتعليق في المستقبل، فهو يرادف «إنْ» الشرطيّة، وإذا وليهَا فِعْلٌ مَاضٍ، قَلَبَتْ دَلاَلَتَهُ من الماضي إلى المستقبل، وإذَا وَلِيهَا فِعْلٌ مضارعٌ كما في العبارة هنا تَخلَّصَ من دَلاَلَتِهِ على الحال، وصارَ يَدُلُّ على الاستقبال.

وجاء في الآيَةِ بيان قانونٍ رَبَّانِيٍّ مُؤَلَّفٍ من ثلاث موادَّ:

المادّة الأولى: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾: أي: أَنَّ الشأن العظيمَ الّذِي هو من سُنَّتِنَا الثابِتَة: لو نَشَاءُ مُسْتَقْبلاً إصَابَتَهُمْ بِذُنوبهم ضِمْنَ مُقْتَضَيَاتِ حِكْمَتِنَا، فإنَّنَا نُصِيبُهُمْ بِذُنُوبهِم.

وهٰذِهِ الإصَابَةُ تَبدأ بأَخْذِهِمْ بالبأسَاء والضَّرَّاءِ، كَمَا فَعَلْنَا في الأُمَم السَّابِقَةِ رَغْبَةً في أَنْ يَتَضَرَّعُوا ويَتُوبوا.

فإنْ لم يفْعَلُوا فَلَمْ يَسْتَغْفِرُوا ولم يَتُوبوا، ولم يَتَّقُوا عِقَابَنَا، رفَعْنَا عَنْهُم البأسَاءَ والضَّرَّاءَ، ووسَّعْنَا عَلَيْهم أسْبَابَ النِّعَمِ الْوَفِيرَة، لِتَقُومَ الحجَّةُ عَلَيْهِمْ في التَّمَادِي في الْغَيّ والفسادِ والإفسادِ في الأرْض.

المادّة الثانية: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: أيْ: وإذا تَمَادَوْا فِي غَيِّهِمْ وَظُلْمِهِمْ وَكُفْرِهُمْ وَإِفْسَادِهِمْ في الأرض بَعْدَ رفْعِ الْبأسَاءِ والضَّرَّاءِ عَنْهُمْ، وإمْدَادِهِمْ بأسْبَاب النِّعَم الْوَفِيرَة، فإنَّ قَانُونَ التكْوِينِ الْقَدَرِيّ العامّ سيَنْطَبقُ عليهم، فَيَتِمُّ بمُقْتَضَاهُ الطَّبْعُ على قُلُوبِهِمْ، أيْ: إقْفالُهَا إقْفالاً تَامًّا فَلا تَدْخُلُها مؤثِّراتُ الهداية.

الطَّبْعُ في المادّيّات الّتي تُدْرَكُ بالحواسّ الظاهرة، خَتْمٌ يُطْبَعُ على طِينٍ خاص، يُوضَعُ عِنْدَ مَكانِ إقْفَال الرَّسَائل، أو إقْفَال الأبْواب، لضَمَانِ عَدَمِ فَتْحِها.

ثُمَّ جَرَىٰ التوسُّعُ في التعبير فَصَارَ يُسْتَعْمَلُ في المعنويات، ومِنْهُ الطَّبْعُ على القلوب، للدَّلاَلَة على أنَّها صَارَتْ مَحْجُوبَةً عن إدْرَاكِ أيِّ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ بِمَا هِيَ مَحْجُوبَةٌ عَنْهُ.

وطَبْعُ اللَّهِ عزّ وجلّ على قُلُوب النَّاسِ يكُونُ نَتِيجةً قَدَرِيَّةً لِمَا يَكْسِبُهُ النَّاسُ بإراداتِهِمُ الحرَّةِ، كَمَنْ يَشْرَبُ بإرادَتِه الحرّةِ السُّمَّ الْقَاتِلَ، فإنّ اللَّهَ جلَّ جلالُهُ، وعظُمَتْ حِكْمَتُه، يَقْتُلُهُ بِسُمِّهِ ضِمْنَ قانُونِهِ الْقَدَرِيّ العامّ، وَكَمَنْ يُدْخِلُ يَدَهُ في النَّار، فإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلّ يُحْرِقُهَا لَهُ ضِمْنَ قَانُونِهِ الْقَدَرِيّ العامّ.

وكذلِكَ فإنّ مَنْ يُمْعِنُ في إعراضِهِ عن آيات اللَّهِ المذكّرات له، ويَسْتَهِينُ بها، ولا يَعْبَأُ بالمذَكِّرِينَ، ولا بالدُّعَاةِ الرَّبَّانِيّين الْمُبَشِّرِينَ والْمُنْذِرين، ولاَ يَسْتَمِع للْبَراهِين والْحُجَج الإقْنَاعِيَّة الدامِغَة، ويُسَلِّمُ عِنَان إرادتِه لأهوائه وشهواته ورَغَبَاتِهِ من الحياة الدُّنيا، فإنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ يَطْبَعُ على قَلْبِهِ ضِمْنَ قانُونِهِ الْقَدَرِيّ العامّ، إذْ صارَ مَيْؤُوساً من اسْتِقْبالِهِ باخْتِيارِهِ والْحُرّ لِأَنْوار الهداية الرَّبَّانِيَّة.

المادّة الثالثة: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾: أي: فَهُمْ بَعْدَ الطَّبْعِ عَلَىٰ قُلُوبهم الذي كان بأَسْبَابٍ مِنْهم، لا يَسْمَعُونَ مَوْعِظَة وَاعِظٍ، ولاَ تَذْكير مُذَكِّر، وَلاَ نَصِيحَةَ نَاصِح.

فإذا بَلَغُوا هٰذِهِ الدَّرَكَةَ العميقَةَ في الانحِطَاطِ، فإنَّهُم حينَئذٍ يَسْتَحِقُّون إنْزَال عَذَابٍ فِيهم، وإهْلاَكٍ شَامِلٍ لَهُم، تَطْبيقاً لسُنَّتِهِ الَّتي لاَ تَبْديلَ لَها ولاَ تَحْوِيلَ لمجْرَاهَا.

مراحل سنن اللَّه في الأمم الأربع:

وقد جاء ترتيب هذه الآيةِ بَعْدَ بَيَان أَحْوَال الأُمَم السَّالفة، وبَيَانِ سُنَّةِ اللَّهِ عزّ وجلّ فيهم، وهٰذِهِ السُّنَّةُ قَدْ كانَتْ تَشْتَمِلُ دواماً على أرْبَعَةِ مراحلٍ:

المرْحَلَةُ الأولى: أَنْ يُعْلِمَ اللَّهُ مُجْتمعاً بَشَرِيًا عن طَرِيقِ رُسُلِهِ، أو عن طَرِيق المبلّغين لرسَالاَتِه من أتباعهم الّذين آمَنُوا بهم واتَّبَعُوهم، ما يجب عليهم في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، من إيمانٍ وعَمَلٍ، عَلَىٰ ما جاء فيما أُنْزَلَ لعبادِه من آياتٍ بيّنَاتٍ، تُبَيّنُ لَهُمُ الدِّينَ الّذِي ارْتَضَاهُ لهم، الشامِلَ لِشَرِيعَتِهِ لهم، ومِنهاجِه الَّذِي أمرَهُمْ أَنْ يلتزمُوه في سُلُوكهم في حياتهم.

فإنْ آمَنُوا واتَّقَوْا فَتَحَ رَبُّهُمْ عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ من السَّماء والأرض، وجَعَلَ لهم أمْناً واسْتِقْراراً، وَإلاَّ فَإِنَّهُ يجيء دَوْرُ الْمَرْحَلَةِ الثانية.

المرحلة الثانية: أَنْ يأْخُذَهُمُ اللَّهُ عزَّ وجلّ بالبأساء والضَّرَّاء إِذا كَذَّبوا رُسُلَ رَبّهم، وكذَّبُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ من شَرِيعَةٍ ومِنْهاج لحياتهم، تأدِيباً وتَذْكِيراً، رَغْبَةً في أَنْ يَتَضَرَّعوا إلىٰ بارِئهم، ويَتُوبوا، ويَتَّقُوا عقابَه، بِفِعْلِ ما أَمَرَهُمْ بِهِ، وترك مَا نَهاهُمْ عنه.

فإنِ اتَّعَظُوا فتضَرَّعُوا وتابُوا واتَّقوْا، رفَعَ اللَّهُ عَنهُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ من بأساءٍ وضَرَّاءٍ، وفَتَحَ عليهم أبوابَ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ، وَبَرَكَاتٍ تَخْرُوجُ من الأرْضِ، وَإِلاَّ فإنه يجيءُ دَوْرُ المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة: أَنْ يَرْفَعَ اللَّهُ عَنهم ما أَنْزَلَ بِهِمْ مِنْ بَأْسَاءٍ وضَرَّاءٍ، وأَنْ يُمْهِلَهُمْ ويُمْلِيَ لهم، ويَفْتَحَ عليهم أبْوابَ النِّعَمِ الدُّنيَوِيَّة المختلفة، حَتَّىٰ إِذَا طَغَوْا وَبَغَوْا وَأَفْسَدُوا في الأَرْض، وصارَ صَلاحُهُمْ عَنْ طَرِيق إراداتهم الحرَّةِ مَيْؤُوساً مِنْهُ، فإِنَّهُ يجيء دَوْرُ المرحَلَةِ الرابعة.

المرحلة الرابعة: أَنْ يُبَاغِتَهُمُ اللَّهُ بياتاً وهُمْ نَائمونَ، أو ضُحىً وهم يَلْعَبُونَ، أو في وسط النهارِ وهم قائِلُون، بالْمُعَذِّبَاتِ المهلكات، فيَقْطَعَ دَابِرَهم، ويُدَمِّرَ عَلَيْهِم مَسَاكِنَهُمْ، ويُنْهِيَ وُجُودَهم في الْحَياة الدُّنيا، إذ قد انتهىٰ دَوْرُ امْتِحانهم.

وقد ضَربَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ أَمْثِلَةً مُتَعَدِّدَةً من تحقيقِ سُنَّتِهِ في إهْلاَكِ الذين وَصَلُوا إلى المرحلَة الرَّابعة.

وهذه الأمْثِلَةُ كَافِيَةٌ لأنْ تُقدِّمَ هِدَايَةً لِلأُمَم اللاحِقَةِ، الَّتي أوْرَثَها اللَّهُ أَرْضَ الأُمَم السابقَةِ الَّتي أَهْلَكَها، وأَنْ تُقدِّمَ لهم بياناً إقْناعيًّا لا يَسْتَهِينُ به إلاَّ الَّذِينَ لا عُقُولَ لهم، ولا يُعْرِضُ عَنْهُ إلاَّ المجرمون الَّذِينَ يَسْتَحِقُّون أن يُجْرِيَ اللَّهُ فيهم سُنَّتَه الَّتي أجراها في المهلكين السَّابقين.

ولمّا كان في الناسِ مِنْ بَعْدِ تنزيل القرآن واشْتِماله على هذه البيانات، جَمَاعاتٌ كثِيرُونَ لم يُؤْمِنُوا ولَمْ يَتَّقُوا كَانَ حالُهُمْ مُشْبهاً حالَ من لم تأْتِه هذه الهداية، ولَمْ تَأْتِه هذه البيانات، فكان من أسلوب البيان الرفيع طرحُ السُّؤالِ التالي:

أَلَمْ يَأْتِ هؤلاء الناس ما يَهْدِيهم ويُبَيِّنُ لهم سُنَّةَ اللَّهِ، حَتَّىٰ كان منهم هذا الإهمالُ وعَدَمُ الاكتراث، وحتَّىٰ سَلَكُوا السُّبُلَ المؤدِّيَةَ بحَسَبِ سُنَّةِ اللَّهِ إلَىٰ تَعْذِيبِهِمْ فإهْلاكهم، كما حصَلَ للّذين من قَبْلِهِمْ، وجاء التعبير القرآنيُ عَنْ هذا السؤال بقول الله تعالى:

• ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

جاء تقديم ﴿أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ لِأنَّه هُو النتيجة. وهنا يأتي سؤال لماذَا يَسْتَحقُّون هذه الإصابة؟ والجواب: لأنهم لم يَسْتَفِيدُوا ممَّا جاءهم من هِدَايَةٍ وبَيَانٍ عَمَّا جرىٰ من تَعْذِيبٍ وهلاكٍ للذين من قَبْلِهِمْ من مُكَذِّبي الْقُرونِ السَّابِقَةِ بما جاءهم عَنْ رَبِّهم. وهُنَا يأتي سُؤَال: لماذَا لم يَسْتَفِيدوا من ذلِكَ؟ والجواب: لأَنَّهُمْ مَطْبُوعٌ علَىٰ قُلُوبهم فَهُمْ لاَ يَسْمَعُون بَيَانَ مُبَيِّنٍ ولا تَذْكيرَ مُذكِّر. وهُنَا يأتي سؤال: لماذَا طُبِعَ على قلوبهم؟ وهَنَا يُجِيبُ التَّدَبُّر الفِكْرِيّ المستَنِدُ إلى بيانَاتٍ قرآنِيَّةٍ مُتَعَدِّدَةٍ في غَيْرِ هذا النَّصّ، مع التَّحْلِيل النفسِيّ لظاهراتِ السُّلوكِ الإِنساني، فيقول: لأنَّهم اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهم وشَهَواتِهم ورَغَبَاتِهِمْ من الحياة الدُّنيا، فانْطَلَقُوا يَكْدَحُون لِتَحْقِيقِ لذَّاتِهم،

مُعْرِضين ومُدْبِرينَ عن كلِّ منطِقٍ عَقْلِيّ، وطَالَ عليهم الزَّمَنُ، وهُمْ مُسْتَغْرِقُون لاَ يُفكِّرونَ إلاّ فيما يُحقِّقُ لَهُمْ مَتاعَاتِ الحياةِ الدُّنيا ولَذَّاتِها، ويَكْدَحُون لاهِثينَ لتَحْقيقِهَا، فَجَرَىٰ عَلَيْهِمْ قانُونُ الطَّبْع على قُلُوبهم، أحَد أنظِمَةِ التكوين العامّ للأسْباب والمسبَّباتِ، ومَنْ أُقْفِلَ قَلْبُه عن اسْتِقْبَال بياناتِ الهداية بعَقْلٍ وَرُشْدٍ، فإنَّ مَراكزَ سَمْعِهِ في دمَاغِهِ لا يَصِلُ إليها ما تتلَقَاهُ أُذُناه من هذِه البيانات، وكذلك مراكزُ إبصارِهِ لا تَرىٰ ما تُشَاهِدُهُ عَيْنَاهُ من آيَاتِ اللّٰهِ في آثار الـمُهلَكينَ السابقين، ومن آيَاتِ اللّٰهِ في السَّمَاوات والأَرْض.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

تمهيد:

يتحدّث رَبُّنا جلَّ جلاله في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ بتَعْقِيب خِتَامِيٍّ عَنْ أهل القُرَىٰ الغابرَةِ، وهُمْ سُكَّانُ كُلِّ مُجمَّعٍ سَكَنِيٍّ وتوابِعِهِ من أهل البوادي، الَّذِين قَصَّ اللّٰهُ عزَّ وجلَّ عَلَينا بَعْضَ أَنْبَائِهم، في سُورَةِ (الأعراف) وفيمَا نَزَل قَبْلَها من سُور، سواءٌ منْهم الَّذين ذكَرَ أسْمَاءَهم وأسماءَ رُسُلهم، أم الَّذِينَ تَحدَّثَ عنهم بِعِبَارَاتٍ عامَّاتٍ مُجْمَلاَتٍ، دون ذكرِ أسمائهم وأَسْماءِ رُسُلهم، أم الَّذِينَ قَصَّ عَلَيْنا أيضاً بَعْض أنبائِهم بالتَّدَرُّجِ التكْمِيلِيّ فيما أَنْزَلَ بَعْدَ هذا النَّصِّ في نجوم التَّنْزِيل القرآنيّ على الرَّسُول محمّد ﷺ.

وقد جاء في هذا التعقيب الختاميّ لهذا الفَصْل السَّادس، من الدَّرْس

السادس من دُرُوس سورة (الأعراف) بَيَانُ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ الغابِرَةِ وتوابِعها كَانُوا فريقين:

أَمَّا الفريقُ الْأَوَّلُ مِنهُمْ: فقد كذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، وكذَّبوا ما جاءُوهُمْ بِهِ عنه جلّ جلاله، فأمْهَلَهُم اللَّهُ إمهالاً طَوِيلاً كافِياً لإقامَةِ الحجَّةِ عَلَيْهم، ووَصَلَ كثير مِنهُمْ إلَىٰ حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ معها من إيمانِهِمْ وإعْلانِهم إسْلامَهُم، عن طَرِيقِ إراداتِهِمُ الحرَّةِ، وعَلِمَ اللَّهُ ذلِكَ مِنهُمْ، فقَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يُهْلِكَهُمْ إهْلاكاً عَامًّا بالْمُهلِكاتِ المصْحُوبَاتِ، بأنْواعٍ من العذاب بالعدل على ما كَان مِنهم من كُفْر وفُجُورٍ، وبغي وعدوان، وفسادٍ وإفساد فِي الأرض، إذِ انْتَهَى دورُ امْتِحانِهِم في الحياة الدنيا، وغدا بَقاؤهم فيها غَيْرَ ذي جَدْوىٰ للغاية الَّتِي خُلِقُوا من أَجْلِها، وهي الابتلاء.

باستثناء قِلَّةٍ قَلِيلَةٍ منهم كانَ من الممْكِن لو أُمْهِلُوا أَنْ يُؤْمِنُوا وَيتَّبِعُوا الْهُدَىٰ، ولَكِنْ قَضَىٰ النظامُ العامّ بأن يشْمَلَهُمُ الإهلاك. وهؤلاء سوْفَ يَرْحَمُهُم اللَّهُ يوْمَ الدّين على مَقادِيرِ مَا فِي قَلْبِ كلِّ واحِدٍ منْهُمْ من خَيْرٍ، ولاَ نَعْلَمُ كيْفَ تكُونُ رَحْمَةُ الله لهم، وهٰذه الرَّحْمَةُ مِنَ اللَّهِ تَشمَلُهُمْ إذْ لَمْ تَنْتَهِ بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ جلَّ جلالُهُ مُدَّةُ امْتِحَانِهِمْ، ولَكِنْ قَضَىٰ نِظَامُ الإهْلاكِ الْعَامّ لمجْمُوعِ قَوْمِهِمْ إهلاكَهم مَعَهُمْ، وقَدْ جَاءَتِ الإشارات الْقُرْآنِيَّةُ لهذا في عبارات: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ في سورة (الشعراء) في الآيات (٦٨ ـ ١٠٤ ـ ١٢٢ ـ ١٤٠ ـ ١٥٩ ـ ١٧٥ ـ ١٩١) فقد جاء قبلها بَعْدَ بيانِ إهلاك المكَذِّبين من السابقين قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾: أي وما كَانَ أَكْثَرَهُمْ مُسْتَعِدّاً لأنْ يُؤْمِنَ مُسْتَقبلاً مهما أمْهِل، فالله يُعَامِلُهُمْ بمقتضىٰ اسْمه، «الْعَزِيز» أَمَّا من كان لِدَيْهِ اسْتِعْدادٌ لأنْ يُؤْمِنَ مستقبلاً فيما لَوْ أُمْهِلَ، فإنَّ اللَّهَ جلَّتْ حِكْمَتُهُ، وعَظُمَ سُلْطَانُه، وَعَمَّتْ رحْمَتُه، سَوْفَ يُعَامِلُهُ بمقتضىٰ اسمه: «الرَّحِيم».

■ **وَأَمّا الْفَرِيقُ الثَّانِي مِنهُمْ**: فَقَدْ أَنجَاهُمُ اللَّهُ عزّ وجَلَّ بِأَلْطَافِهِ من الْعَذَاب ومن الإهلاكِ الَّذِي شَمِلَ أقوامَهُمْ، لأنّهم آمَنُوا بِرُسُلِ رَبّهم، واتَّبَعُوهم، وعاهَدُوا على الإسلام لِلَّهِ ولِلرَّسُولِ الَّذِي جاءهم، وعلى طَاعَةِ الأَوَامر والنواهي، مع تفاضُلٍ كَثِيرٍ فيما بَيْنَهُمْ في الإيمان والإِسْلامِ والطَّاعَة.

ثُمَّ تَكَاثَرَ فَرِيقُ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَعْلَنُوا إسلامَهُمْ وطاعَتَهُمْ بَعْدَ فَرِيق الْمُهْلَكِينَ، ووَرِثَ الأَوْلادُ والأَحْفَادُ الدِّينَ عن آبائِهِم، ولكِنَّ أَكْثَرَ الْخَلائِفِ لم يَفُوا بِعُهُودِهم وَمَواثِيقِهِمْ على الإسلام والطَّاعَةِ، بَلْ ظَهَرَ بَعْدَ اخْتِبَارِ كُلّ واحِدٍ منهم في الحيَاةِ المقَدَّرَةِ لامْتِحَانِهِ، أَنَّ أَكْثَرَهم كَانُوا فَاسِقِينَ، أي: خَارِجينَ بالمعاصِي والمُخَالَفَاتِ عن طَاعَةِ اللَّهِ وطَاعَةِ رَسُولِهِ.

وخَتَمَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ ببَيَانِ هٰذِهِ القضايا آيَاتِ هذا الْفَصْل السادس، من فُصُول الدّرْسِ السَّادِسِ من دُروس سورة (الأعراف).

التدبر:

● قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾: أي: تِلْكَ الْقُرَىٰ السَّالِفَة وتوابِعُها نَقُصُّ بأحَادِيث تَتَبُّعِيَّةٍ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّد، ويَا كُلَّ مُتَلَقٍّ أو قَارِىءٍ للقرآن، بَعْضَ أنبَائِها، فيما أَنزَلْنا عَلَيْكَ وفيما سَنُنْزِلُ في نجوم التنزيل، لِيَكُونَ ما نقُصُّهُ عَلَيْكَ عِظَةً وَعِبْرَةً، لمن يتَّعِظُ وَيَعْتَبِرُ بِمَا جَرَىٰ للأُمَمِ السَّالِفَةِ، من تَطْبِيقِ مُقْتَضَياتِ سُنَّتِنَا في عبادنا الموضوعينَ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامتحان.

يُقَالُ لغة: قَصَّ الشيْءَ يَقُصُّه قَصًّا وَقَصَصاً، أي: تَتَبَّعَ أَثَرَهُ شيئاً فَشَيْئاً. وقَصَّ عَلَيْهِ الخبَرَ، أي: حَدَّثَهُ بِهِ عَلَىٰ وَجْهِه الحقّ.

● قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: يُؤَكِّدُ رَبُّنا تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ بهذِهِ العبارة، أَنَّ المُهْلَكِينَ من الأُمَمِ السَّالِفَةِ، لم يُعَذِّبْهُمْ عذاباً مُهْلِكاً لَهُمْ إهلاكاً شاملاً، إلاّ بَعْدَ أَنْ جاءَتْهُمْ بإِرْسَالٍ مِنْهُ رُسُلُهُمْ بالْبَيِّنَاتِ.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: أي: بالوَضِحاتِ الجَلِيَّاتِ، وهِيَ تَشمَلُ بِعُمُوم اللَّفظِ الآياتِ المعجِزاتِ الَّتي تُثبِتُ أَنَّهُمْ أَنبِيَاءُ اللَّهِ وَرُسُلُهُ حقًّا وَصِدْقاً، وتَشمَلُ الآيَاتِ البَيِّنَاتِ المنَزَّلاَتِ صُحُفاً تُتْلَىٰ، أو كِتَاباً كَبِيراً يُتْلَىٰ، وهي تَدُلُّ الناسَ علىٰ شِرْعَةِ اللَّهِ، ومِنْهاجِه لهم، في الدِّين الَّذِي اصْطفَاهُ لعباده، وتَشمَلُ الْحُجَجَ والبراهينَ الواضحاتِ اللَّوَاتي تُثْبتُ مبادىءَ الدِّين، وأرْكَانَ الإيمان، وأَرْكانَ الإسلام، وفَضَائِلَ السُّلُوكِ الَّذِي يُطَالِبُ اللَّهُ بِهِ عباده.

فَدَلَّ هذا على أنَّ اللَّهَ لم يُنْزِل الإهلاكَ الشامل بالمهلَكِينَ السابقين، إلاَّ بَعْدَ أَنْ رَفَضُوا البيِّنَاتِ الَّتي جاءتْهَمْ بِها رُسُلُهُمْ الْمُرْسَلُونَ إليهم من ربّهم، وقَطَعَ بالبيّناتِ احْتِمَالَ اعتِذَارِهِمْ بالْجَهْل.

● قول الله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُۚ﴾: أي: إنَّ الَّذِينَ أُهْلِكُوا بَعْدَ أَنْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبيِّناتِ، قد أُمْهِلُوا إمْهَالاً طويلاً كافِياً لِقَطْعِ كُلِّ أَعْذَارِهم الَّتي يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَذِروا بها، فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بما كذَّبوا به مِنْ قَبْلِ إهلاَكِهم، مَهْما تُرِكُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم في الحياة الدُّنيا، ومهما أُمْهِلُوا.

ولهذا كان إهلاكُهم، وإِنْهَاءُ رِحْلَةِ امْتِحَانهم، هَوُ الْأَمْرَ الْحَكِيمَ، إذْ إِنَّ إِبْقَاءَهُمْ في الحياة أَمْرٌ غَيْرُ ذِي جَدْوىٰ، فهو لا يُعْطِيهِمْ في الحقيقة فُرْصَةً لِكَيْ يُؤْمِنُوا عَنْ طَرِيقِ إراداتهم الحرَّة.

فَلَقَدْ وَصَلُوا إلَىٰ حالة ميْؤُوسٍ مِنها، فَطَبَعَ اللَّهُ علىٰ قُلُوبِهِمْ، بقانُونه القدَرِيِّ العامّ، الَّذي كانُوا هم السبَبَ في الوصول إليه، وتحقُّقِهِ فيهم.

اللاَّمُ في: ﴿لِيُؤْمِنُوا۟﴾: هي لام الجحود لمجيئها بَعْدَ كَوْنٍ مَنفِيّ، ومِثْلُ هٰذا التعبير هو من أَبْلَغِ أَسَاليب النَّفْي في العربيَّة.

● قول اللَّهِ تَعالى:

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أي: كذلِكَ الطَّبْعِ الَّذِي

طُبعَ علىٰ قُلُوبِ المُهلَكِينَ من أَهْلِ الْقُرُون السَّالِفَةِ، بِسَبَبِ كُفرِهم الّذي تَمكَّنَ مِنْ أفئِدَتِهم، فَحجَبَ قُلُوبَهُمْ عَنْ كُلّ أنوارِ الهداية، يَطْبَعُ اللَّهُ عزّ وجلّ بقَانُونِهِ الْقَدَرِيّ العامّ على قُلُوبِ سائِرِ الكافرين، الّذِينَ تَصِلُ أحوالُهم إلى مِثْلِ أحْوالِ المعذّبين المهلَكِين السابقين، الّذين طبَعَ اللّهُ على قُلوبهم، فقَانُونُ اللّهِ في عباده وَاحِدٌ، وسُنَّتُهُ ثَابِتَةٌ لا تتبَدَّل.

الممتحنُون الآخِرون من النَّاسِ، كالمُمتَحَنِين الأوّلين منهم، وسُنَّةُ اللّهِ في عبادِهِ الآخِرِينَ، كسُنَّتِهِ في عباده الأوّلِينَ، ولَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تبديلاً، ولَنْ تَجِدَ لسُنَّةِ اللّهِ تَحْويلاً.

● قول الله تعالى:

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾: أي وما وَجَدْنا لِأكْثرِ الْفَرِيق الّذِينَ آمَنُوا واتّبَعُوا الرُّسُل، والّذِين ورِثُوا الدِّينَ عَنهم وَكَانُوا خُلَفَاءَهم، وعاهَدُوا على الإسلام والطّاعَةِ، ما وَجَدْنَا لِأكْثَرِهِمْ من وفاءٍ والْتِزَام بِعَهْدِهِمْ الّذِي عاهَدُوا اللّهَ عَلَيْه، بإعلانِهِمُ الإسلامَ والطَّاعة.

ونُؤَكِّدُ أنّنَا وَجَدنا بالاختبارِ والامتحانِ الطويلِ أنّ أكْثَرَ هَؤلاء فاسِقُون، أي: خارجون عن الطاعةِ، عَاصُونَ مُذْنِبُون، إذْ لم يلْتَزِمُوا بِالْوَفَاء بما عَاهَدُوا اللّهَ عليه.

[إنْ] من ﴿وَإِن وَجَدْنَآ﴾ هي المخفَّفَةُ من الثقيلة، وتفيدُ التوكيد، والتحقيق، كما تفيد «قد». واللاّم في: ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾ هي اللاّم المزحلَقَةُ والفارقَةُ بين «إنْ» النافية، وبينَ «إنْ» المخفَّفةِ من الثقيلة، وهذه اللاّمُ تُفِيدُ التوكيد أيضاً.

والتعبير بنَفْي الوجُودِ في عبارة: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ﴾ يُفِيدُ أَنّهُمْ لم يَكُنْ مِنهُمْ وَفَاءٌ بما عاهَدُوا اللّهَ عليه، لأنَّ اللّهَ جلَّ جلالُه مُحِيطٌ بكلِّ شيءٍ عِلْماً، ولَوْ كانَ هذا الْوَفَاءُ بالْعَهْدِ مِنهُمْ موجوداً لَوَجَدَهُ اللّهُ وعَلِمَه، فَعَدَمُ عِلْمِ اللّهِ بِهِ دَليلٌ قَطْعِيٌّ علىٰ عَدَمِ وجُودِهِ لَدَيْهم.

وقاعِدَةُ: «عَدَمُ الْوِجْدَانِ لاَ يَسْتَلْزِمُ عَدَمُ الْوُجُودِ» خَاصّةٌ بالمخلُوقَاتِ الّذِينَ لا يُحِيطُونَ عِلْماً بِمَا تَوَجَّهَتْ لَهُ حَوَاسُّهُمْ، أو أدَواتُ إدْراكاتهم. أمَّا اللَّهُ جلَّ جلالَهُ فلا تَنْطَبِقُ عليه هٰذه القاعِدَة، بَلْ هو سبحانه إذَا لَمْ يَجِدْ شيئاً لزِمَ عَقْلاً أنْ يكونَ هٰذا الشيْء غَيْر مَوْجُودٍ حَتْماً.

و«مِنْ» في ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ زيدَتْ للدَّلالَةِ على اسْتِغْرَاقِ العموم والتنصيص عليه.

وأطْلِقَ لفظ «عَهْدٍ» وأُرِيدَ الْوَفَاءُ به، لأنَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ وفَاءٌ بِعَهْدِهِ، يكون كَمَنْ لا عَهْدَ لَهُ أصْلاً، وهذا من نَفْيِ السَّبَبِ وإرادَةِ نَفْيِ المسَبَّب، فهو من قبيل المجازِ المرْسَلِ.



الفصل السابع
التدبّر التحليلي للقَطَاتِ المختارات
من قصة موسى وقومه عليه السلام في سورة الأعراف
الآيات من (١٠٣ ـ ١٧١)

فهو فصل طويل يمكن تقسيمه إلى (١٢) فقرة

الفقرة الأولى
الآيات من (١٠٣ ـ ١٢٦)

بَعْثُ الله موسَىٰ إلى فرعون وملَئِم بآيتي الْعَصَا واليد

قال الله عزّ وجلّ:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن

رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾:

القراءات:

(١٠٥) • قَرَأَ جُمهورُ القرآء العَشَرَة: [حَقِيقٌ عَلَىٰ].

وقرأ نَافِعٌ: [حَقِيقٌ عَلَيَّ].

• وقرأ جمهورُ القراء العشرة: [مَعِيْ] باسْكَان ياء المتكلّم.

وقرأ حفْصٌ: [مَعِيَ] بفتح ياء المتكلم.

والقراءتان وجهان عَرَبيان لنُطْقِ ياء المتكلم.

(١١١) • كلمة [أَرْجِهْ] فيها عِدَّةُ قراءات تَرْجِعُ إلى اخْتِلاَف الأداءِ في النُّطق.

(١١٢) ● قرأ جمهور القرّاء العشرة [سَاحِرٍ] على وزن «فاعل» اسم فاعل.

وقرأ حَمْزَةُ، والكِسَائيّ، وخَلَفٌ: [سَحَّارٍ] على وزن «فَعَّال».

وبين القراءتَيْنِ تَكامُلٌ في أداء المعنى المراد، إذْ كان المطلوب حَشْرَ كلِّ ساحِرٍ عادِيّ، وكُلِّ سَحَّارٍ من أئِمَّةِ السَّحَرَةِ ورُؤَسَائِهِمْ في قُوَّةِ السِّحر والمهارَة فيه.

(١١٣) ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وحفْصٌ، وأبُو جَعْفر: [إنَّ لَنَا لأَجْرا] دُون ذِكْرِ همزة الاستفهام قبل «إنَّ» مع ملاحظتها في المعنى.

وقرأ باقي القراء العشرة: [أئِنّ لنا لأجراً] بذكر همزة الاستفهام.

(١١٤) ● قرأ الكِسَائي: [نَعِمْ] بِكَسْر الْعَيْن، وهي لغَةٌ في «نَعَمْ».

وقرأ باقي القراء العشرة: [نَعَمْ] بفَتْح العين.

(١١٧) ● قرأ حَفْصٌ: [فَإذا هِيَ تَلْقَفُ] بفتح التاء وإسكان اللاّم وفتح القاف دون تشديد.

وقرأ جمهور القرّاء العشرة: [فإذا هِيَ تَلَقَّفُ] أصْلُهَا «تتَلَقَّفَ».

وقرأ الْبَزّي: [فَإذَا هِيَ تّلَقَّفُ].

تخفيف القاف في قراءة التخفيف، وتشديدُها في قراء التَّشْديد، يُعَبِّرَانِ عن حَرَكَتَيْن ظَهَرتَا في عصَا موسى عليه السَّلام بعد أنْ انْقَلَبَتْ حَيَّة.

إحداهُمَا: فِيهَا سُرْعَةُ حَرَكَةِ الابْتلاع، ورُبَّما كانت هٰذه هي الحركة الأولى.

والأخرَىٰ: فِيها ابتَلاعٌ بتَمهُّل، ويظهر أنّ هذه قد كانت الحركة الثانية.

❁ ❁ ❁

التدبّر التحليلي:

قال اللّه عزّ وجل:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾:

جاء العطف في صَدْرِ هذه الآية بحرْف العطف [ثُمَّ] الَّذِي يَدُلُّ على التَّرتيب مع التراخي، للدَّلاَلَةِ على أَنَّهُ مَرَّتْ مُدَّةٌ من الزَّمَنِ مُتَرَاخِيَةٌ بالنِّسْبَةِ إلى تَقْدِيرَاتِ الناس، بيْنَ آخرِ الرُّسُلِ المذكورين سَابِقاً في السُّورَةِ، وهُوَ شُعَيْبٌ علَيْه السّلام، وبَيْنَ إرسَالِ موسَىٰ ومعَهُ أُخُوهُ هارون عَلَيْهِما السّلام إلى المصْريّين ومَنْ حَوْلَهُمْ بِوَجْهٍ عامٍّ، وإلىٰ بَنِي إسْرائيل على وَجْهِ الخصوص.

﴿بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾: أي: أرسَلْنَا مِنْ بَعْدِ الرُّسُلِ الّذين سَبَقَ في السُّورَة الحديث عنهم وعَنْ أقوامِهم.

البعثُ: في اللّغة، الإرسال: بَعَثَهُ يَبْعَثُهُ بَعْثاً وَبِعْثَةً، يقال: بَعَثَهُ إليه، وبعثَهُ لَهُ.

﴿مُوسَىٰ﴾: هو الرَّسُولُ مُوسَىٰ عليه السلام، بن عمران (عمرام بالعبري) بن قاهت (قَهات بالعبري) بن لاوي، بن يعْقُوب، بن إسحاق، بن إبراهيم خليل الرحمن.

وهارون عليه السلام شقيقه، وهو أسْبَقُ ميلاداً من موسى بثلاث سنين.

قالوا: معنى كلمة «مُوسى» المنْتَشَلُ من الماء، أصل الكلمة في اللُّغَةِ المصْرِيَّة القديمة «موريس» أخْذاً من لفظ «مُو» بمعنى «ماء» و«أوريس» بمَعْنَىٰ «مُنْتَشل». فسمَّاه الَّذِينَ التقطُوه طفلاً من الْيَمّ في قصر «فِرْعَوْن» «مُوريس» بمعنى: منتَشَل ماء، ثُمَّ درج اسْمُهُ بلَفْظِ مُوسَىٰ.

﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾: أي: أرسَلْنا موسَىٰ مصْحُوباً بآيَاتِنا. وآيَاتُ اللّهِ الّتي أرسلَ الله موسَىٰ مَصْحُوباً بها نوعان:

النوع الأول: آيات اللّه الْبَيَانِيَّةُ المنزَّلَةُ، التّي فيها بيان دينهِ عَقِيدَةً وعملاً، وهو الدّين الذي اصْطَفعاه ربُّ العِبادِ، لعبادِه الّذين وضعهم موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وفيها عَرْضُ الحجَجِ والبراهين ذات الإقناع الكافي.

النوع الثاني: آيَاتُ اللّهِ الإعجازيّة، وهي: العلامات المعجزاتُ الباهرات، ومن معجزات موسىٰ معجزة العصا الّتي تنقّلب ثُعْباناً مخيفاً، ومعجزة الْيَد، الّتِي تصيرُ بيْضَاء مُتلألئة من غير سوء.

الآية في اللّغَةِ: الْعَلامَةُ والأمَارة الدَّالَّة. وأُطْلِقَتْ على المعْجزَة الباهرة الخارقة للعادة، وعلىٰ فِقَرَةٍ من كتاب الله، مفْصُولَةٍ عن فِقَرَةٍ سابقة لها، وفِقَرَة آتيةٍ بَعْدَهَا في السُّورَة، إذا وُجِدَت.

والباء الجارّة في ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ معناها المصَاحَبَة، أي: أَرْسَلْنَا مُوسىٰ مَصْحُوباً بآياتنا.

وجاء في العبارة استعمال ضمير المتكلّم العظيم، لتربية المهابَةِ من عظَمَةِ رُبُوبيَّتهِ جَلَّ جَلالُهُ، وعَظُمَ سُلْطَانه، وسَمَتْ حِكْمَتُه.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: لفظ «فِرْعونَ» كان يُطْلَقُ على كلّ مَنْ ملَكَ مِصْرَ قديماً، قبل أن يسْتَوْلي عليها اليونان.

قالوا: وكان يطْلَقُ لفظ «كِسْرَىٰ» على مَلِكِ مُلُوكِ الفرس، وكان يُطْلَقُ لفظ «قَيْصَر» علىٰ مَلِكِ الرُّوم، وكان يُطْلَقُ لفْظُ «النَّجَاشي» على مَلِك الحبشة، وكان يُطْلَقُ لفظُ «تُبَّع» علىٰ مَلِكِ مُلُوكِ الْيَمَن، وكان يُطْلَقُ لفظ «خان» علىٰ مَلِك التُّرك.

﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾: الملأ، هم عِلْيَةُ الْقَوْم ورؤساؤهم، وأهل الحلّ والعقد فيهم، وهم في العادة ذَوو السُّلْطَةِ الإدَارِيَة، والهالة الاجتماعية المحيطَةُ بهم من الأثرياء المترفين.

ويُطْلَقُ عليهم لفظ «مَلأ» لأنَّهُمْ يمْلَؤُون عُيُون العامّة.

ويُلْحَقُ بفرْعَوْنَ وملَئِهِ جماهيرُ الشّعب المصريّ كُلُّهم، وخُصَّ بِالذّكر فِرْعَوْنُ ومَلَؤُه، لأنّ مِنْ سُنّة اللّهِ أنْ يَبْدأ لدى تبليغ رسالاته للناس بأصْحَابِ السُّلطة الإداريَّة والمتْرَفين من حَوْلِهِم، باعْتِبَارِ أَنَّ جَمَاهير الشَّعْب الَّذِين هم مِنْهُ، تابِعُون لَهُمْ ومُطِيعُونَ لأوامرهم، ويَسِيرُونَ مَسِيرَتَهُمْ، ويَدِيْنُونَ بِدِينهِم.

﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۖ﴾: أي: فَظَلَمُوا كافِرينَ بها، ضُمِّنَ فعْلُ «ظَلَمُوا» معنىٰ فعْلِ «كَفَرُوا» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَه، فأغنتِ الجملَة الواحدة عن جُمْلَتين، إحداهُما ذُكِرَ فِعْلُها فقط، والأُخْرَىٰ ذُكِرَ مَعْمُولُ الْعَامِلِ فيها فقط، ونظائر هذا كثيرة في القرآن المجيد.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾: أي: فَانْظُرْ نظراً تفكُّرِيًّا تَأَمُّلِيًّا لاسْتِخْراج الْعِبَرِ ولِلاتّعَاظِ بها. والأَمْرُ بالنظر موجَّهٌ لكُلِّ صالحٍ للخطاب تقتضي حالَتُهُ أَنْ يَنْظُرَ وَيَتَفكَّرَ ليَعْرِفَ سُنَّةً من سُنَنِ الله في عباده، وليَتَّعِظَ بها، فلا يكون من المفسِدِين، كما كان فرعَوْنُ ومَلَؤُه مُفْسِدين.

عَاقِبَةُ عَمَلِ الْعامل: جزاؤه الَّذِي يكون بَعْدَ عَمَله، ويأتي عَقبَهُ مباشرةً، أو بَعْدَ فَاصل زمَنِيّ، والأَصْلُ فِيه ما يأتي عَقِبهُ مُبَاشرة، لأنَّ العاقبة آخِرُ كُلِّ شيءٍ أَوْ خاتِمَتُه.

الْمُفسِدُون: أي: فاعلوا الفساد. الْفَسَادَ: التَّلَفُ والْعَطَبُ. وتَحوُّل الشيء من كونه صالحاً نافعاً، إلى كونه غير صالح ولا نافع، بل ربما يَصِيرُ ضاراً كريهاً مُفْسِداً لما هو صالح. والإفسادُ إتلاف الأشياء، أو تحويلها إلى أشياء ضارّة.

والمراد بالْمُفْسِدينَ هُنَا فِرْعَونُ ومَلَؤُهُ وجنُودُهُمْ، وُضِعَ الاسم الوصفيُّ الظاهِرُ مَوْضِعَ الضَّمِير هنا، للدَّلالَة على أنَّ عَاقِبَتَهُمُ الإهْلاكِيَّةَ بالإغراق، قد كانت بسَبَبِ إفْسَادِهم في الأرض.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾:

العطف بالواو لهذه الفقرة يتبادَرُ أنَّه مِنْ قبيلِ عطْفِها على الْجُمَلِ الّتي قَبْلها.

لكن يظْهَرُ لي أنَّ الغَرض من هذا العطْفِ الإشارة إلى كلام مَطْويّ جرَىٰ بين مُوسَىٰ عليه السلام وبين فِرْعَون، ومِنْ هَذَا الكلام المطوي ما يَدُلُّ عليه قول اللَّه عزّ وجل في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾:

فعبارة: ﴿فَقُلْ هَل﴾ معطوفةٌ بالفاء التي تَدُلُّ على الترتيب مع التعقيب، فِيهَا تعليمٌ مِن اللَّه عزّ وجلّ لموسىٰ عليه السَّلامُ، بأنْ يَبْدَأَ فِرْعَونَ بهٰذِهِ العبارة اللّيّنَة المشتملة على مُقَدِّمَةِ عَرْضٍ طَوِيلٍ دلَّتْ عليه عبارة: ﴿لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ قبل أن يَذْكُرَ لَهُ المطلوبَ وهو التزكية، والهدايَة إلى ربّه.

وإذا جمعْنَا مَا جاء في هذا النصّ مع ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

فإنَّهُ يظْهَرُ لنا أنّ أوّلَ مَا بَدَأ بِهِ مُوسَىٰ خطابَهُ لفرعَوْنَ وملَئِه، هو قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لِيُعَرِّفَ بالْمُهِمّة الّتي دخَلَ على فِرْعَوْن ومَلَئِهِ من أجلها، بدليل «الفاء» في: ﴿فَقَالَ﴾.

ويدُلُّ الترتيبُ الطبيعيُّ على أنّ التعليم الذي جاء في سورة (النازعات) قد كان عَقِب بيانه أنّه رَسُولُ رَبّ العالمين.

إنَّ النَّظْرَةَ التكامُلِيّة في النصوص القرآنيّة الموزّعة في السُّور، يجب أن لا تفارق المتدبّر لكتاب الله المجيد.

﴿يَٰفِرْعَوْنُ﴾: خاطب موسى عليه السّلامُ فِرْعَوْنَ بلَقَبهِ التكريميّ الْمَلِكِيّ، وناداه بنداء البعيد تكريماً له أيضاً، فكأنّه قالَ لَه: يا مَلِك، أو يَا سُلْطان، أو يا عظيم.

﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: دلَّ النَّصُّ الذي جاء في سورة الزُّخْرُف الآنف الذكر على أَنَّهُ عَرَّف أَوّلاً بِنَفْسِهِ وبالْمُهِمَّةِ التي حضر من أجلها بقوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: إنّي حَامِلُ رسالَةٍ أَرْسلَنِي بها رَبُّ العالمينَ ويَجبُ عليَّ تبليغها، والإضافة على معنى اللاّم، أي: رسولٌ لِرَبّ العالمين، وبعد ذلك دعَاهُ إلى أن يتَزَكّى، ويَهْدِيَهُ إلى رَبِّهِ فَيَخْشَىٰ عقابَهُ طامعاً بثوابه مُجلاً، وبَعْدَ ذلِكَ قال: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فأضاف في العِبارَة حرْفَ «مِنْ» لِلتَّنْبِيهِ عَلَىٰ عِظَم مسْؤُوليَّتِهِ، وأنّ رسالَتَهُ الّتي يَحْمِلُها ليسَتْ رسالةً من مَلِكٍ من مُلُوك الأرْضِ، ولا سُلْطانٍ مِنْ ذَوِي السُّلْطان فيها، وإنَّما هِي رسالةٌ له ولملَئِه ولِقَوْمِهِ مِنْ رَبّ العالمين، خالِقِ السّمَاواتِ والأرض، وما فيهما ومَنْ فيهما، والمتصرِّف فيهما بصِفَاتِ رُبُوبيّته دواماً، في كلّ أصْغَرِ وَحْدَةٍ زَمَنِيَّة.

والمعنى: إنّي نبيٌّ أحْمِلُ رِسالةً كُلّفتُ أَنْ أُبلّغها مِنْ قِبَلِ رَبّ العالَمِين، الخالق لكلّ الموجوداتِ الكونيّة، والْمُمِدّ لَهَا دواماً بعطاءاتِ رُبوبيته.

والمراد بالعالَمين هُنَا كلُّ ما سِوَى اللَّه عزّ وجلّ.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وفي قراءة نافعٍ: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾:

كلمة ﴿حَقِيقٌ﴾ على صيغة «فَعِيل» صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ باسم الفاعل، أو باسم المفعول، أو صيغة مبالغة، وهذه الصيغة مشتقَّةٌ من فعل «حَقَّ يَحِقُّ حَقًّا» بمعنَىٰ ثَبَتَ واسْتَقَرَّ، فحقيقٌ هو بمعنى ثابت.

ويُقَالُ لُغَةً: حَقَّ عليه أنْ يفعَلَ كذا، أي: وجبَ عليه.

فالعبارة على قراءة نافع: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ﴾ ظاهرة الدّلالة، والمعْنَىٰ: واجبٌ عليَّ وُجُوباً إلزاميًا مُؤكّداً، أَنْ لاَ أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إلاَّ الحقَّ، فأنَا لا أستطيعُ أن أكْذِبَ علىٰ رَبِّي وأنَا رَسُولُهُ المؤيَّد بالآياتِ الباهراتِ منه، كَيْفَ يُجْرِي لِيَ جلَّ جلالُهُ الآيَاتِ الخوارقَ إنْ كذَبْتُ علَيْه؟!

وكلمةُ «حَقِيقٍ» على هذه القراءة هي بمعنىٰ اسم الفاعل.

وأمّا العبارة على قِراءَةِ جُمْهور القرّاء العشرة: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ﴾... فقد ذكر لها المفسّرون تخريجاتٍ متكلّفَاتٍ دعَاهُمْ إليها وجود حرف الجرّ «عَلَىٰ» دون ياء المتكلّم.

والَّذِي ظهر لي أنّ كلمة «حَقِيقٌ» في قراءة الجمهور هي بمعنى اسم المفعول، كالفعل المبني للمجهول، وهي خَبَرٌ ثانٍ لحرف «إنَّ» المشبَّهِ بالفعل من عبارة ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: إنّي رسُولٌ مَحْقُوقٌ، وعبارَةُ: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ نائب فاعل، أي: إنّي رسُولٌ مُثْبَتٌ إثْبَاتَ إلْزَامٍ، فأنَا مُلْزَمٌ إلْزاماً لا خيارَ لي فيه، علَىٰ أَنْ لاَ أَقُولَ على اللَّهِ إلاَّ الحقَّ، إذْ إنّي معصومٌ بِعِصْمَةِ اللَّهِ من أنْ أفْتَرِي عليه.

وهكذا شأنُ كلّ الرُّسُلِ عليهم الصلاةُ والسلام، وقد قال الله عزّ وجلّ

بشأن سيّدنا محمد ﷺ، في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

الْوَتِين: هو الشريان الرئيس الذي يُمِدُّ الجسْمَ بالدَّم النَّقِيّ الخارجِ من القلْب.

أي: لقتَلْنَاهُ بسُرعَةٍ فائقة، ولمْ نمكِّنْهُ من الكذب علينا.

وهذه الحجّة الّتي قدَّمَها موسَىٰ عليه السّلام من الحجج العقلية القويّة الدامغة.

وبهذا الْفَهْمِ ظهر لَنَا تَكامُلُ القراءتَيْنِ في دَلالَتَيْهِما.

فقراءة نافع قال فيها: واجبٌ عليَّ بِإلْزَامٍ شَديدٍ أَنْ لا أقولَ على اللَّهِ إلاَّ الحقَّ، فأنَا لا أَخْرُجُ عن طاعَةِ رَبِّي بحالٍ من الأحوال.

وقراءة الجمهور دلَّت على أنّه قال: أَنَا مُثْبَتٌ بعِصْمَةٍ من رَبِّي إثباتاً لاَ خِيارَ لي مَعَهُ، على أَنْ لاَ أَقُولَ على اللَّهِ إلاَّ الحقّ.

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: المرادُ بالْبَيِّنَةِ هُنَا ما أَمَرَهُ اللَّهُ بِتَبْلِغِهِ من أُمُورِ الدِّينِ إيماناً وعملاً.

أمّا البيّنَةُ بمعنىٰ الآيَةِ المعجزَةِ الخارقة للعادَة، فَسَيأتي في الآية التالية بيانُ أَنَّ فِرْعَوْنَ طالبَهُ بأَنْ يأتِي بِهَا إنْ كانَ مِنَ الصَّادقين فيما يُبلِّغُ عن رَبّه من أمور الدّين.

... ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي فاستجب لدعوتي، واسْمَحْ لِبَنِي إسْرائِيلَ أَنْ يَخْرُجُوا مَعِي إلى أرْضِ فِلَسْطين، الّتي جاءُوا مِنْها في عَهْدِ

يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام، الفاء في [فَأرْسِلْ] فاء فصيحةٌ تعطف على محذوف تقديره: فاستجب لدعوتي.

فكان لموسىٰ عليه السلام مطلبان:

المطلَبُ الأوّل: دَعْوَة المصْرِيّين وَمَنْ حَوْلَهُمْ إلى دين الله الحق.

المطلَبُ الثاني: الخروج ببني إسرائيل من مصر إلى فلسطين، لإقامَةِ دولة الإسلام لله فيها، عن طريق التبليغ، فإنْ لم يُجْدِ التبليغُ، فَعنْ طريق القتال في سبيل الله.

❁ ❁ ❁

قول اللَّهِ عزّ وجل:

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾:

يَحكي اللَّهُ عزّ وجلّ في هذِهِ الآية مضْمُونَ مَا قَالَ فِرْعَوْنَ لموسَىٰ عَلَيْهِ السلام، عَقِبَ دَعْوَته فِرْعَوْنَ وملأه إلى دين الله الحق، وطَلَبِهِ بأن يَسْمَحَ لبني إسرائيل أنْ يَخْرُجوا معه من مِصْرَ إلى فلسْطِين.

جاء في هذه العبارة اختيار حرف الشرط «إنْ» للإشعار بأنّه من المستَبْعَد أنْ يكون قد جاء بآيَةٍ معجزة من ربّه، ومن المستَبْعَدِ أَنْ يكون من الصادقين، فهذا الحرف يستعمل غالباً في القضايا المشكوك في حصولها، أو في صِدْقها، بخلاف حرف الشرط «إذا».

﴿جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾: أي: بعلامةٍ خارقةٍ للعادة مُعْجِزَةٍ، تَشْهَدُ لَكَ بأنّكَ رسُولُ اللَّه حَقًّا وصِدْقاً، إذْ لاَ بُدَّ لكلّ رسُولٍ من آيَةٍ خَارقَةٍ تكون بمثابة الشهادة له من الله بصِدْقه.

﴿فَأْتِ بِهَآ﴾: أي: فَقَدِّمْهَا، وأَظْهِرْهَا لَنا، وأَحْضِرْها أَمَامنا، لِنَرَاهَا، وَنُشَاهِدَ مَبْلَغَ قَوّتِها في إثبات ما تدّعيه.

يقال لغة: جاءَ بالشَّيء، وأتى بالشَّيءِ، أي: أحْضَرَهُ معه.

﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: أي: إنْ كُنْتَ من الأنبياء والرُّسُلِ الصّادقين.

❁ ❁ ❁

قول اللّهِ عزّ وجل:

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾:

أي: فأسرَعَ مُوسىٰ علَيْه السلام إسراعَ الواثق بما آتاه ربُّهُ من آيَتَي الْعَصَا والْيَد، فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ الّتي في يَدِهِ يَتَوَكَّأُ عَلَيْها.

دلَّ على هٰذه السُّرْعَةِ الْعَطْفُ بالفاء الّتِي تَدُلُّ على الترتيب مع التعقيب، فإذا هي قَدْ فَاجَأتْهُمْ بأن تحوّلَتْ ثُعْبَاناً واضحاً حَقِيقيًا، لا أمْراً تَخْييليًا إيهاميًا.

وأَسْرَع فأدخل يَدَهُ السَّمْراءَ في جَيْبِ قميصه، فنزَعَها بسُرْعَةٍ وشِدَّةٍ، فإذَا هِي قَدْ فَاجَأَتْهُمْ بأن تَحوَّلَتْ بيضَاءَ بياضاً باهراً رائِعاً، لا بياضَ بَرَصٍ كما للمرضىٰ به، ولهذا قال الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام، حين أعْطَاهُ آيَتَيْ صِدْق نبوْتهِ ورسالتِهِ ما أَبانه الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ... ﴿١٢﴾﴾.

وما جاء بيانه في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ... ﴿٣٢﴾﴾.

قال المفسرون: المرادُ مِنْ «بيْضاءَ» أنّها تَخرُجُ كاللُّؤلُؤةِ البيْضاء تَتوهَّجُ نوراً يَظْهَرُ للمبْصِرين.

ورُوي عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّ الثُّعْبَانَ الَّذِي تحوَّلَ عن عصا موسى في مجلس فرعَوْن، فتَحَ فَمَهُ فكانَ فَكُّهُ الأسْفَلُ في الأرض، وفَكُّهُ الأعْلَىٰ في السَّقْف، فإنْ كان كذلك، فَقَدْ كانَ ثُعْبَاناً رَهيباً جدًّا.

الثُّعْبَانُ: هو الذكر من الحيّات.

● ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾: [إذا]: فُجَائِيَّة ومعناها الحال. فتُؤَوَّل باسْم فاعل يُمْكِنُ أنْ يَعْمَلَ عمَل الفعل. والمعنَىٰ فَهِي بيْضَاءُ حالةَ كوْنِها مُفاجِئَةً للناظرين.

عندئذٍ حصَلَتْ دَهْشَةٌ لِفِرْعَوْن ولمَلأِ قَوْمِهِ الحاضِرين مَجْلِسَهُ الفرعونيّ السُّلْطانيّ ممَّا شَهِدُوا.

مَلأُ قَوْمِ فِرْعَونَ هُمْ وُزَراؤُه ومُسْتَشَارُوهُ وآلُهُ المالِكُون لِمصْرَ يومئذٍ.

وعلى الرُّغم ممَّا حصَلَ لهم من دهشة فقد رأوْا أن ما جاء به موسَىٰ مِنْ جنْسِ ما يفْعَلُه سَحرةُ مِصْرَ يَوْمَئِذٍ.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجل:

● ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾:

دلّت هذه الآياتُ على حِوارٍ تَشَاوُرِيٍّ جَرَىٰ بَيْنَ فِرْعَوْنَ ومَلَئِه الحاضِرِينَ مَجْلِسَهُ سَاعَتَئِذٍ.

ولا بُدّ أَنْ يكُونَ فرعَوْنُ قد بدأ الحديث، قائلاً لحاضري مجْلِسه مِنْ مَلأِ قومه: ما تَقُولُون في هذا الذي عَرَضَهُ مُوسَىٰ، إلاّ أن النَّصَّ قد طواه لإمكان استخراجه من قبل أهل التَّدبّر، إذْ من التقاليد المتَّبَعَة لحاضري

مجالِسِ الملُوك، لاَ يَتكَلَّمُوا ولا يُبْدُوا آراءَهُمْ في مثلِ هذه المواقفِ حتَّىٰ يَسْأَلَهُمُ الْمَلِك.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾:

لَمْ يَذكُرُوا مُوسَىٰ عليه السّلام باسْمِه، وإنَّما أَشَارُوا إِلَيْهِ باسْم الإشارة «هَذَا» للإشعار بأنّه ليس مِنْ عِلْيَةِ القوم الَّذِين تُذْكَرُ أسماؤُهم أَوْ أَلْقَابُهم.

ووَصَفُوا الآيَتَيْن اللَّتَيْن أذهَشَتاهم، بأنَّهما مِن قَبيلِ السِّحْرِ المعروف والمنتَشِر في أيَّامهم بِمِصْرَ، ولدَهْشَتِهِمْ بِعِظَم الآيَتَيْنِ قَالُوا: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾: أي: كثير الْعِلْم بالسِّحر.

وجاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾.

أي: يريد أن يخرج ببني إسرائيل من مصر، ويُكَوِّنَ منهم جيشاً ويَعُودَ بِهِمْ مقاتلين طالِبين مُلْك مصر.

ومن الجمْع بيْنَ النَّصَّيْن نُدرِكُ أنَّ الملأ سَكَتُوا فلَمْ يجيبوا فِرْعَوْن على سؤاله، خَشْيَة أَنْ يَطْرَحُوا رأياً لا يُوَافِقُ هواه، فترَيَّثُوا حتَّىٰ يتَحَسَّسُوا رأيَه.

عندئذٍ قَال فِرْعَوْنُ لِلْمَلأ حَوْلَه: إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بسِحْرِه، كما جاء في سورة (الشعراء).

فَرَدَّدَ المَلأُ قَائِلينَ بإجماع: إنَّ هٰذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أن يُخْرِجَكُمْ من أَرْضِكُمْ، كما جاء في سورة (الأعراف).

قَال فِرْعَوْنُ للملأ حَوْله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟ أي: فما هِيَ المشُورَةُ الَّتِي تَقْتَرِحُونَها تُجاهَ هذا السَّاحِرِ الْعَلِيم؟

والأمْر هنا مستَعْمَلٌ للدَّلاَلَة على عُمُومِ الطَّلَبِ وتقديم المشورة المناسبة، ولَيْسَ مسْتَعْملاً بمعنَىٰ التكليف، لأنَّ مثْلَ فِرْعَون لا يقْبَلُ ممَّنْ هم دُونه أوامِرَ التكليف، إنَّما يقبل طلباتِ الاستجداء والالْتِماسِ وتقديمَ المقترحاتِ الشُّورِيَّة الَّتي يَطْلُب هو منهم إبداءها.

فتشاوَرَ الملأ فيما بيْنَهم، واسْتَقَرَّ رَأْيُهُمْ عَلَىٰ أن يعْقِدَ فِرْعَوْنُ مُباراةَ بين مُوسَىٰ علَيْهِ السلام، وبين كلِّ سَحَرَةِ مِصْر، مُتَوَهِّمِينَ أنَّ اجتماعَ سَحَرَةِ مصْرَ كافٍ لإبْطال سِحْرِ مُوسَىٰ والتَّغَلُّب عليه مهما كان سحراً عظيماً.

● ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ كَمَا جاء في سورة (الأعراف).

وفي القراءة الأخرىٰ: [سَحَّارٍ] بصيغَةِ المبالغة.

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ كما جاء في سورة (الشعراء).

في نُطْقِ [أَرْجِهْ] خَمْسُ قراءات مُتَواتِرات: «أَرْجِه» بإسكان هاء الضمير. «أَرْجِهِ» بكسر هاء الضمير من غير صلة لها بِمَدّ. «أَرْجِهِي» بكسر هاء الضمير مع صلة لها بمدّ. «أَرْجِئْهُ» بذكر الهمزة الساكنة بعد الجيم، وضَمّ هَاءِ الضمير. «أَرْجِئْهِ» بذكر الهمزة الساكنة بعد الجيم، وكَسْرِ هاء الضمير. يقالُ لغة: أَرْجَأَهُ، أي: أَخَّرَهُ، أَوْ جَعَلَ له أجلاً.

والمعنى: أَخِّرْهُ وأَجِّلْه، أي: اجْعَلْ لموسىٰ وأخيه أجَلاً تُقِيمُ فيه مباراةً بَيْنَ مُوسَىٰ وبَيْنَ سَحَرَةِ مصر، تَشْهَدُها الجماهيرُ في مكان جامع، فإذا تَغَلَّبُوا علَيْه بالسِّحْر انْتَهتِ المشْكِلَةُ معهما، وسَقطَتْ دَعْوَتُهما، وأمكن التخلُّصُ منهما.

﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾.

و﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ في القراءة الأخرى. (الأعراف).

﴿وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ (الشعراء).

[ابْعَثْ] مرادف [أَرسِلْ].

[الْمَدائِنِ]: جَمْعُ مدينة، وهي المصْرُ الجامع، والقياس أن يُقال مَدَاين.

[حَاشِرِينَ]: أي: سَائقين وجامِعِين، اسْتُغْنِي بالوصْفِ عن الموصوف، والمراد: وأرْسِلْ في المدائن جُنُوداً حَاشِرين.

الحشْرُ في اللُّغة: الجمْعُ والسَّوْق.

والمعنى: وأرْسِلْ جُنْداً من جُنْدِك الموجُودِين في كُلّ مدئن مِصْر، مكلَّفِينَ بأن ينطَلِقُوا بَاحِثين عن كلّ سَحّارٍ عَلِيمٍ بالسِّحْر مَاهِرٍ فيه، وعن كلّ سَاحرٍ ولو لم يكُنْ عليماً شديد المهارَةِ والمكْرِ فيه، فَيَجْمَعُوهُمْ ويَسُوقُوهم، ويَأْتُوا بِهِم إِليك.

ووجَّهَ فِرْعُونُ أَمْرَهُ، وقامَ الجندُ في المدائِن باحثين عن كلِّ سحَّارٍ وساحر، فَحَشَرُوا جامِعِين سائقين مَنْ وَجَدُوا في المدائِنِ المصريَّة من سَحَرة، وكان عَصْرُهم عصْرَ ازْدِهار السِّحْرِ التَّخْيِيليّ، وجاءُوا بِهِم إلى فِرْعَونَ.

فَلمَّا حضَرُوا عِنْد فرعَوْن عَرَض عليهم الْمُهِمَّةَ الَّتِي حَشَرَهُمْ مِنْ أَجْلِها، وهي مُبَارَاةُ سَاحرٍ كبيرٍ مِنْ بَنِي إسْرَائيل اسْمُهُ مُوسَىٰ، ومَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ.

❋ ❋ ❋

قول اللهِ عزَّ وجل:

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

وَفِي القراءة الأخرى: [أَإِنَّ لَنَا لأجراً إنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِين] بإثباتِ هَمْزَةِ الاسْتِفْهَام، والمعنَىٰ في القراءتَيْنِ عَلَىٰ الاسْتِفْهام، إذْ يجوز حذْفُ همزة الاستفهام من اللَّفظ، وتبقىٰ مُقَدَّرَةً ذِهْناً.

بين ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ وبين: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ كلامٌ مطْوِيٌّ في مثاني النَّصّ، ومن السَّهْل على المتدبر أن يُدْرِك مَعْنَىٰ الكلام المطوي، أي: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ فَعَرَضَ عَلَيْهِم المهِمَّةَ الَّتي حَشَرَهَمْ مِنْ أَجْلها بالتفصيل، وهيَ مُبَارَاةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَاحِرٍ كَبيرٍ من بني إسرائيل اسْمُه مُوسَىٰ ومَعَهُ أَخُوهُ هارون، فقَبِلُوا أَنْ يَدْخُلُوا هٰذِهِ المبارة على شرْطِ أَنْ يَجْعَل لهم فِرْعَوْنُ أجراً كبيراً إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ وَجَاء التصريحُ بهَمْزَة الاستفهام في القراءة الأخرىٰ، وأجابَهُمْ فرْعَوْنُ بالإيجاب ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ وزادهمْ على طَلَبِهِمْ قائلاً: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

«نَعَمْ» حَرْف جواب، يأتي للتَّصْدِيق، ويأتي لِلْوَعْدِ، ويأتي للإعلام، والمعنى هُنَا علىٰ الوعْدِ والإعلام، أي: إنَّ لكُمْ لأجراً كبيراً كما تَرْغَبُون.

جاءَتْ عبارَةُ الاستفهام الَّتي قَدَّمَها السَّحَرَةُ مؤكَّدَة بالمؤكدات: «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزحلقة للخبر» وفي تقديم «لَنَا» علَىٰ «لأَجْراً» إشعارٌ باستفهام عَنْ أجْرٍ يَخُصُّهُمْ به.

فجاء الجواب بعبارة «نَعَم» مُتَضمِّناً كُلَّ هٰذِهِ المؤكدات.

وزَادَهُمْ على الْوَعْدِ المالي الَّذي استَفْهَمُوا عنه، فَوَعَدَهم بأَنْ يكونوا عنده من المقرّبين الَّذِين يَدْعَمُ بهم سُلْطانه، ويَسْتجيبُ لمطالبهم كما يَسْتَجيبُ لمطالِب وُزرائه وأهْلِ الشورىٰ ومَلأِ قَوْمِهِ مِنْ حَوْله.

وقال فِرْعونُ لِمُوسىٰ عليه السلام كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾.

● ﴿مَوْعِدًا﴾: يطلق الـمَوْعِد على «الوَعْدِ» وعلى «زَمَانِهِ» وعلى «مَكَانِه» فهو مصدر ميمي، ويصلُحُ أنْ يكون «اسم زمان» و«اسْمَ مَكَان».

ويظهر أنّ هذه المعاني الثلاثَة مرادَةٌ معاً هنا.

أي: أعْط وعداً حَدِّد فيه زمَانَ ومَكانَ إجراءِ المباراة بَيْنَكَ وَبَيْنَ سَحَرتِنَا، ونَحْنُ نعْطيك هذا الوعْدَ وفْق الزّمان والمكان اللّذَيْنِ تُحَدِّدُهُما، فَلاَ نُخْلِفُه نَحْنُ وَلاَ أَنْتَ.

● ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ وقُرِىء «سِوًى» وهما لغتان والمعنى فيهما واحد، أي: واجْعَلِ المكان الذي تُحَدِّدُه عَدْلاً، يكون فيه المتباريان مُتَعَادِلَيْن في كلِّ شيءٍ.

● ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾: يوم الزينةِ هذا كَانَ يوم عيدٍ معروفٍ لهم زَمَانُهُ ومكانُه، وكَانُوا يَتَزيَّنُونَ فيه، ويَجْتَمِعُ فيه عامَّةُ النّاس وخاصَّتُهُمْ بحَسَبِ العادة.

● ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾: أي: وأنْ يُجْمع النَّاسُ ويُسَاقُوا إليه حتَّى يكونُوا حاضِرِينَ فيه وقْتَ الضُّحىٰ، وهو الوقْتُ ما بَعْدَ ارْتِفاع الشمس حتَّى الزّوال، وهذا هو الوقْتُ المفضّل لحضورِ الناس في المكان الجامِعِ لأعيادهم واستعراضاتهم.

فوافق فرعون على هذا الموعد الذي وعَدَهُ موسى عليه السّلام، وحدَّدَ

زمَانَه ومَكَانه، وانْصَرَفَ وأعَدَّ لهذه المبارات كلّ ما يَلْزَمُ من تدابير كيْدِيَّة رَجاءَ أَنْ يكون سِحْرُ سَحَرَته أقوىٰ من سِحْرِ مُوسىٰ فيما تَوهَّمَ أنَّ الَّذِي جاء بِه مُوسَى هو من قبيل السّحر، ولَيْسَ آيَةً مُعْجِزَةً من الله رَبّ العالمين، وأتَىٰ هُوَ وَمَلؤُهُ بحسب الموعد إلى المكان الجامع، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾.

وكانت الدَّعَواتُ غَيْرُ الإلْزَمِيَّةِ قَدْ وُجِّهَتْ للجماهير المصريَّة بحضُور هٰذِه المبارات، رَجاءَ أن يَتَّبِعُوا ما يَدْعُو إليه سَحَرَةُ فِرعون إنْ كانُوا هُمُ الغالبين، كَمَا قال الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وجاء السَّحَرَةُ لمكان المباراة في الوقت المحدّد وهو يومُ الزّينَةِ ومَعَهُمْ أدواتُهم السِّحْرِيَّة.

واجْتَمع الْفَرِيقان للمباراة، فَرِيقُ السَّحَرَةِ الَّذِينَ جُمِعُوا من المدائن المصْرِيَّة، والفريقُ الآخَرُ مُوسَىٰ وحْدَهُ عليه السَّلام، تُؤَيِّدُهُ الْقُوَّةُ الرَّبّانِيَّةُ الغيبية، ويَقِفُ إلى جانبه أخوه هارون عليه السلام.

وقبل أن تَبْدَأ المباراة تَوجَّهُ مُوسَىٰ للسَّحَرَة، فَحَذَّرَهُمْ من عذاب الله، وقال لهم: لاَ تَفْتَرُوا عَلَىٰ الله كَذِباً، فإذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ اسْتَأْصَلَكُمْ بعَذَابٍ من عنده، وأبَانَ لهم موسَىٰ عليه السَّلام أنَّ من افترى عَلَىٰ الله خَابَ، دَلَّ على هذا الإعداد النَّفْسِيّ من مُوسَىٰ عليه السلام للسَّحَرَةِ، قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَيْلَكُمْ﴾: أيْ: عذابٌ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ أُحَذِّرُكُمْ مِنْه.

﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾: أي: فَيَسْتَأْصِلَكُمْ اسْتِئْصَالاً بعَذَاب.

فَلَمَّا سَمِعَ السَّحَرة هذا من موسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ، دَبَّ الْخِلاَفُ بَيْنَهُمْ، فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ مُتَنَاجِينَ في السِّرّ، ثُمَّ أَقْنَعَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً قائلين: إنَّ مُوسَىٰ وهَارُون ساحِرَانِ، يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما، لِتكُونَ خالِصَةً لِبَني إسْرَائيل، ويُريدان أن يَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ الَّتِي يَحْكُمُ بها فِرْعَوْنُ أَرْضَ مِصْر، فَأَجْمِعُوا كُلَّ مَا لَدَيْكُمْ مِنْ كَيْدٍ سِحْرِيّ، ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا واحِداً غَيْرَ مُتَنَازِعِينَ، وقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ.

دلَّ على هذا قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾: أي: بطريقتكُمُ المفَضَّلَةِ على سائر الطرائق.

﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾: أي: فَقُومُوا بعملِكُمْ الكيدِيّ مجتمِعينَ غيْرَ مُتفَرِّقين.

الكيد: التَّدْبير، والحيلة، وكلّ ما يحقّقِ للمَدبِّر النّصر أو النجاة ضِدَّ خَصْمِه.

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾: أي: وقَدْ ظَفِرَ وفازَ من كان هو الغالِب.

ووقف الفريقان للمباراة، وبدأ السَّحَرَةُ بالْعَرْضِ التخْيِيرِيّ حوْلَ من يكون البادىء، كما جاء بيانُه في سُورة (الأعراف) وهو:

قَوْلُ الله عزّ وجلّ:

● ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾.

● ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾: أي: نَحْنُ الملْقِينَ أَدَوَاتِ سِحْرِنَا أوّلاً، كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾.

فاخْتَار موسَىٰ عليه السَّلام أنْ يكُونُوا هُمُ البادئين بإلْقَاءِ أَدواتِ سِحْرِهِمْ والقيامِ بأعْمَالهم.

فقال لهم: ﴿أَلْقُوا۟﴾ كما جاء في سورة الأعراف) وقالَ لهم أيْضاً مُنْتَهينا بأدواتهم وبكلّ أعمالهم السّحْرِية ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ كما جاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول).

عندئذٍ ألقى السَّحَرَةُ حِبَالَهُمْ وعِصِيَّهُمْ مُستعينين بعِزَّةِ فِرْعَوْن، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

فكان لِسَحْرِهِم تأثير تخييليٌ في أعين الناس، وإحْدَاثُ رُعب في قلوبهم، كما قال تعالى في سورة (الأعراف):

﴿قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: أي: لم يقلب سحرهم حقائق الحِبال والعِصي، بل كان في حدود رؤية العيون فقط، وبهذا الخداع البصري أوقعوا الرعب في قلوب الناس ممّا رأوا من ثعابين كثيرة منتشرة في ساحة المباراة.

وجاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ ونزول):

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾: أي: لاَ أُلْقِي أنا أوّلاً، بل أنتم أَلْقُوا أوّلاً. فألْقَوا حبالَهُم وعِصِيَّهُمْ، وقامُوا بِسِحْرِهم.

﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾: أي: يُصْنَعُ في خَيالِهِ صُورٌ تخَيُّلِيَّة وطُيوفٌ ليس لها حقيقَةٌ فِي الواقع، وإنّما هي تأثيراتٌ سِحْرِيَّةٌ على الْعَيْنِ، تجعلها ترى خيالاَتِ أشياءَ لا وجود لها، فتنقلها الْعَيْنُ إلى المخيّلة كَمَا رَأَتْها بالتأثير السّحري.

﴿مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾: أي: يُخَيَّلُ إليه من تَأْثِيرِ سِحْرِهم للْعُيون أنّها ثَعَابِينُ تَسْعَىٰ.

﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾: أي: فأحسَّ مُوسىٰ عليه السَّلامُ في نَفْسِهِ خِيفَةً ما لَيْسَتْ بالقويّة، من أنْ يكون سِحْرُهُم قَلْبَ الحبال والعصِيِّ إلَىٰ ثَعَابِينَ حَقِيقَةً، فيُكافِئُوا بها أو يَغْلِبُوا آيتَهُ.

عِنْدَئذٍ ثَبَّتَهُ اللَّهُ وَشَدَّ عَزِيمته، فأوحَىٰ إليه مُثَبّتاً. ما جاء بيانُه في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾.

وأوحَىٰ إلَيْه آمِراً وَمطَمْئِناً:

﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾.

● قرأ حفصٌ: ﴿تَلْقَفْ﴾ من فعل: «لَقِفَ الشيءَ يلْقَفُهُ لَقْفاً ولَقَفَاناً» أي: تَنَاوَلَهُ بِسُرْعَةٍ، وأخَذَهُ بِفَمِهِ فَابْتَلَعَهُ.

وقرأ جمهور القراء العشرة [تَلَقَّفْ] أصْل الكلمة «تَتَلَقَّفْ» حُذِفَتْ

إحدى التاءين تخفيفاً، من فعل: «تَلَقَّفَ الشَّيْءَ يَتَلَقَّفُهُ تَلَقُّفاً» وفي هذه الصيغة دلالةٌ على شدّة السُّرْعَةِ في التناول، والأخذ بالفم والابتلاع.

وبين القراءتين تكامل في الدلالة على المعنى المراد، فصِيغَةُ: [تَلَقَّفْ] بفتح اللّام وتَشْدِيد القَاف، تَدَلُّ عَلَىٰ حَرَكَة ثُعْبَانِ عَصَىٰ مُوسىٰ الفائقة السُّرْعَة عَقِبَ التَحوُّل، وصيغَةُ: [تلْقَفْ] بإسكان اللّام وفتح القاف من غير تشديد، تَدُلُّ حركة الثعبان بَعْدَ أن ابْتَلَع القِسْم الأعظم من أدوات سِحْرِ السَّحَرَةِ بِسُرْعَتِهِ المذهلة، وأخَذَ يَبْتَلِعُ بِهُدُوءٍ البقايَا المتناثِرَة.

وجاء في سورة (الأعراف) الّتي نتَدَبَّرُها:

• ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾.

فلَمَّا تَلَقَّىٰ موسى من رَبّه هذا الوحي الذي شدّ عزائمه، قال للسَّحَرَة ما جاء بَيَانُه في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾: أي: فَلَمَّا قَدَّمُوا كُلَّ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ كَيْدٍ سِحْرِيّ، واسْتَنْفَدُوا كلّ طاقاتهم، وأشْعَرُوا بأنَّهُمْ قَد انْتَهَوْا.

﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾: أي: للسَّحَرَة.

﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾: أي: كلّ ما جئْتُمْ به هو من قَبيل السِّحْر الّذِي سَحَرْتُم به أَعْيُنَ النَّاس، فَجَعَلْتُوهُمْ يرَوْن بأعينهم خيالات لا حقيقة لها في الواقع.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾: أي: سيكْشِفُ أَنَّهُ باطلٌ بِآيَةٍ مِنْ عِنْدِه آتانيها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: أي: إنَّ اللّٰه لا يَقْضِي بإبْقاء عَمَل الْمُفْسِدين صالحاً في آثاره، حتّى لا يَفْتَتِنَ بِه النَّاسُ فتنة تُغْطيه مَشْرُوعِيَّة أَنَّهُ حقٌّ.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾: أي: ويُبَيِّنُ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ الحقَّ ويُثَبِّتُه، ويُظْهِرُ ثَبَاتَه بِكَلِمَاتِهِ التكوينيّة، وبِكَلِمَاتِهِ الْبَيَانِيَّة، وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ إحْقاقَ الحقّ وإبطالَ الباطل.

ومن إحقاف الحقّ بكلِمَاتِ اللَّهِ التكوينيَّة، ابتلاعُ الثُّعْبان الْمُنْقَلِب عن عصَا موسَىٰ كلَّ أدَوات سِحْر سَحَرَةِ فِرْعَوْن، فانكشف أنَّ سِحْرَهُمْ قد كانَ عملاً باطلاً، لا حقيقة له تَدُلُّ على مكافأته للآيَةِ الرَّبَّانِيَّة الّتي آتاها اللَّه عزّ وجلّ نبيَّهُ ورسوله موسَىٰ عليه السلام.

وبَعْدَ أَنْ وَجَّهَ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ للسَّحَرَة هذا البيانَ الدَّعَوِيَّ القويَّ، الصّادر عن قَلْبِ مُؤْمِنٍ واثقٍ بربّه، أَلْقَىٰ عَصَاهُ، فَكَانَ مِنْ شأنِها ما أبانَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

● ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾:

أي: فألقى موسى عليه السلام عصَاهُ فإذَا هي تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُون.

وجاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

● قرأ حفصٌ: [تَلْقَفُ] بإسكان اللام، وفَتْحِ القاف دون تَشْدِيد، في النَّصّيْن السابقين.

وقرأ باقي القراء العشرة: [تَلَقَّفُ] بفتح اللام وفتح القاف المشدّدة، في النَّصّيْنِ السابقَيْن.

وقد سبَق بيان التكامل بين القراءتين في الدّلالة على المعنى المراد.

• **[فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفُ «تلقف» مَا يَأْفِكُونَ]**: أي: وألقىٰ موسى عصاهُ فانقلبَتْ حَيَّةً رَهِيبَةً عَظِيمة، وفاجأتِ الجماهير المحتَشِدَة لشهود المباراة، بأنّها صارتْ تَتَناوَلُ بِفَمِهَا وَتَبْتَلِعُ بِسُرْعَةٍ عجيبَةٍ كلَّ أَدَواتِ السَّحَرَةِ، وهُمْ يَعْمَلُونَ أعمالَهُمُ السّحْرِيَّة، لإيهام المشاهِدِينَ وإرَاءَةِ أَعْيُنِهم أنَّ حِبالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ حيَّاتٌ تَسْعَىٰ في ساحة المباراة.

جاء استعمال الفعلِ المضارع في «تَلَقَّفُ» وفي «يَأْفِكُونَ» للدَّلاَلَة عَلَىٰ حَرَكَةِ المتابَعَةِ المتجدّدة في عَمَلِ حَيَّةِ مُوسَىٰ، وفيما كانَ السَّحَرَة يأفِكُونَهُ، حتَّىٰ ابْتَلعَتْ كلَّ ما لديهم من وسائل كانوا يُتَابِعُون تقديمها.

يَأْفِكُون: أي: يكْذِبُونَ بِهِ على الحقيقة، إذْ كانوا بِسِحْرِهم يُرُون أعْيُنَ النَّاسِ أخْيِلَةَ حيَّاتٍ وَثعَابينَ تَسْعَىٰ، وهي في الحقيقة حبالٌ وعصيٌّ تتحرَّكُ ولَكِنْ لاَ حياة لها، ولم تَنْقَلِبْ إلى حيَّاتٍ وثعابينَ حَقِيقِيَّة.

بخلاف عصا موسى عليه السلام فقد كانت آيَةً معجزةً من آيات الله، وانقَلَبَتْ حيَّة عظيمة بخَلْق اللَّهِ جَلَّ جَلاَلُهُ وعظُمَ سلطانه، لأنّما أَمْرُهُ إذا أَرَادَ شيئاً فإنَّما يَقُولُ لَهُ: كن فيكون.

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾: أي: فثَبَتَ الحقُ الّذي جاء به مُوسَىٰ عليه السلام، لَدَىٰ الّذِينَ شَهِدُوا المباراةَ، وعَلِمُوا أنَّ آيَتَهُ مُعْجزةٌ رَبَّانِيَة، ولَيْسَتْ من قبيل سِحْرِ السَّحَرَة. فالمراد بوقوع الحقّ ظهورُه وانْكِشَافُهُ وإدْرَاكُه بالجبر.

﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: أي: وظهر للجمهور الذين كانُوا يَشْهَدُونَ المبَارَاة، أنَّ مَا كان يَعْمَلُهُ السَّحَرَةُ بَاطِلٌ لاَ حَقِيقَةَ له، إنَّما كان إيهاماً وخداعاً لِلأَعْيُنِ فقط.

﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ (الأعراف).

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (الشعراء).

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا... ﴿٧٠﴾﴾ (طه).

جاء التعبيرُ بالْبِنَاءِ للمَجْهُولِ في فعلِ «أُلْقِيَ» للإشعار بأن السَّحَرَة وَجَدُوا أنفُسَهُمْ بَعْدَ مُشَاهدة آيَة اللَّهِ المعجزة، مَدْفُوعِينَ ذاتِيًا لِلْإيمان باللَّهِ والسُّجُودِ له، بتلْقَائِيَّةٍ اخْتِيَارِيَّةٍ تُشْبِهُ بحَسَب الظَّاهِرِ مَنْ يُلْقَىٰ مُكْرَهاً.

ولدى المقارنة بين النصوص التي جاءت في (يونس وطه والشعراء والأعراف).

نجد أنّ النصّ الّذي جاء في سورة (الأعراف) قد أضاف التصريح بأفكار لم يأتِ التصريحُ بها في النُّصُوص الأُخْرَىٰ.

الفكرة الأولى: دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾ وقَدْ سبق بيان هذه الفكرة.

الفكرة الثانية: دلَّ عليها قولُ الله تعالى: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾:

أي: وظهر بُطْلاَنُ مَا كانَ السَّحَرَةُ يَصْنَعُونَهُ مِنْ حِيَلٍ سِحْرِيَّةٍ يخْدَعُونَ بها أعْيُنَ الناس، وظهَرَ لكلِّ حاضِرِي مشْهَدِ المبَارَاة أنَّ مَا جاء بِهِ موسَىٰ عليه السَّلام حقٌّ، إذْ هو آيةٌ من آيات الله رَبِّ العالَمين.

الفكرة الثالثة: دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ ﴾: أي: فَغُلِبَ هُنَالِكَ في ساحة المباراة سَحَرَةُ فِرْعَوْن، ومعْلُومٌ أَنَّ ما حصل لهؤلاء السَّحَرَة هو في الحقيقة قد حصَلَ لِفِرْعَوْن، فالمغْلُوبُ في الحقيقة هو فِرْعَوْنُ وملَؤُهُ وطَرِيقَتُهُمُ الكافرَةُ بالله عزَّ وجلَّ وبرُسُلِه، وبما جاءَهُمْ عن الله، ومن لَوَازِمِها اتّباعُهُم غَيْرَ مَا أنزل الله إليهم، واتّخاذُهم من دونه أولياء.

الفكرة الرابعة: دلّ عَلَيْها قول الله تعالى: ﴿وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴾: أي: وانْقَلَبُوا انْقِلاباً معنويًا، مِنْ مَكانِهم العَالي الَّذِي كَانُوا مستكْبِرين فيه، حالةَ كونهم أذِلاَّء، يشْعُرُونَ بصِغَرِ مكانَتِهم، وضآلة قيمَةِ نُفُوسهم، وبُطْلاَنِ طَرِيقَتِهم، أمَامَ عظَمَةِ الحقّ الرَّبَّانِيّ الَّذِي أجْراهُ اللَّهُ جلّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُهُ، آيَةً لنَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مُوسَىٰ عليه السّلام.

وأضافَ النصُّ الّذِي في سورة (الشُّعَرَاء) والنَّصُّ الذي في سُورَةِ (طه) ما دَلّ علَىٰ أنَّ سُجُود السَّحَرَة قد كان عَقِبَ ابتلاع آيَةِ مُوسَىٰ الرَّبَّانِيَّةِ أدوات سِحْرِهِم مُبَاشَرَةً، بدَليل الفاء في النَّصين:

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (الشعراء).

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا. ﴿٧٠﴾﴾ (طه).

مع ما في هٰذَيْنِ النَّصَّيْنِ اللّذين من سُورَةِ (طه) ومن سورة (الشعراء) من تفنُّن في التعبير لملأَمَة رُؤُوسِ الآي في كلٍّ منهما.

- ففي سورة (طه): ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾.
- وفي سورة (الشعراء): ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وفي هذا النصّ إضافة عبارة: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ويظهر أنَّ هٰذِهِ العبارة أضافوها حينما كَرَّرُوا إعلان إيمانِهِم، بَعْدَ أنْ هَدَأَتْ نفوسهم من هَوْل المفاجأة، وأدْرَكُوا أنَّ رَبَّ هارونَ ومُوسَىٰ، هو رَبُّ العالَمِين جَمِيعاً، والمراد بالْعَالَمِين هُنَا كُلُّ ما سِوَىٰ الله عزّ وجلّ.

أَمّا النَّصُّ الذي جاء في سُورَة (يُونس) فقد طَوَىٰ ذِكْرَ كُلِّ الأَحْدَاث بَدْأً من إلقاء مُوسَىٰ عصاه، وانتقل إلى بيان أنّه ما آمَنَ بموسَىٰ بعد ذَلِكَ إلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِن قومه بني إسرائيل، ضمن المنهج القرآني في التكامل بين النصوص حول موضوعٍ واحد.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ في (الأعراف) الّتي نتدبَّرُها:

- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

وقولُ اللّهِ عزّ وجلّ في سُورَة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾.

وقولُ اللّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

هذه النصوصُ الثلاثَة تُعبّرُ عَنْ ثَلاثَةِ مُواقِف بين فِرْعَونَ والسَّحرةِ، وهي مواقف مُحاسَبَةٍ وَتقْرير عِقاب.

لمّا رأىٰ فِرعَوْن مبادَرَة السَّحرة بإعلانهم إيمانهم بربّ العالَمِينَ رَبّ مُوسىٰ وَهَارُون، عَقِبَ انتصارِ موسَىٰ بالآيَة المعْجزة الّتي آتاه الله إيَّاها، غضبَ غَضباً شدِيداً، إذْ كان إعلانُ إيمانهم في الحقيقة إعلاناً مِنهُمْ أنَّ مُوسَىٰ انْتَصرَ عَلَىٰ سَيِّدِهِمْ فِرْعَوْن وَمَلئِهِ، وانتصرَ ما يَدْعُو إليه على ملّتهم وطريقتهم الباطلة، فأعْلَنَ إتّهامَهُمْ بالتآمُرِ مَعَ مُوسَىٰ، لتنفيذ مُخطَّطِ تَمْليكِ الإسْرائيليّينَ حُكْمَ مِصْرَ، وإخراجِ الأسْرَة المالِكَةِ وسَائِرِ الْقِبْط مِنْها، وَتوَعَّدَهُمْ بأَنْ يُقَطِّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْ خِلاَفٍ وَبأَنْ يُصلِّبَهُمْ أَجْمَعِينَ.

لقد أراد بهذا الإعْلانِ أَنْ يُغَطّيَ هَزيمتَهُ الحقيقيّةَ، بأنّها ليْسَتِ انتصاراً لما جاء به مُوسَىٰ على سِحْرِ السَّحَرَة، بَلْ هِيَ مُؤَامَرَةٌ مُدَبَّرَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُوسَىٰ.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾: أي: قالَ فِرْعَوْنَ حِينَ اشتَدّ غضبُهُ من إعلان سَحَرتِهِ إيمَانَهُمْ بنُبُوَّة مُوسَىٰ ورِسَالَتِه: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؟: أي: آآمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لكم بذلكَ، كيف تَفْعَلُونَ هذا وتَعْصُونني؟! استفهامٌ إنكاريٌّ يُشَنِّعُ به عليهم، إذْ يَعْتَبِرُهم من المجرمينَ الكبار بذلك.

والمعنىٰ: كَيفَ آمنتُم بنُبوّة موسَىٰ وبرسالته، وبدعْوَته، قبل أَنْ آذَنَ لَكُمْ بأنْ تُؤمِنوا به، والقانُونُ الفِرعَوْنيُّ يمنَعُ من الإيمان بعقيدةٍ تُخالِفُ الدِّينَ العامّ المسْمُوحَ به قانوناً، والَّذي يَجْعَلُ فِرْعَوْنَ هو الإلٓه المعبود في مِصْر، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى... ﴿٣٨﴾﴾.

وفي جَلْسَتَيْن أُخْرَيَيْن قالَ لهم ما جاء بيانُه في سُورَتي (الشُّعَراء) و(طه):

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾: أي آمنتُم به مُسْلمين له، على طريقة التَّضمِين ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؟ وهو أيْضاً استفهامٌ إنكاريٌّ تَشْنيعيٌّ، يُشَنِّعُ به عليهم ارتكابهم الجريمة العظمىٰ الّتِي يَسْتَحِقُّونَ علَيْها أشدّ العقاب حتَّىٰ الموت.

وفي الجلسة الأولى التي جاء بيانها في سورة (الأعراف) اتَّهَمَهُمْ بالتآمُرِ مع موسَىٰ فِي المدِينَةِ قبل حضور المباراة لإسقاط الحكم الفرعوني، وتسليم السُّلْطَةِ لبني إسرائيل، إذْ قَال لهم فيها:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

المكر: تدبير آمْرٍ في خَفَاء. ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: أي قبل الخروج إلى المكان المختارِ للمباراة.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: تَهْدِيدٌ من فِرْعَونَ لَهُمْ بما سَوْف يُنْزِلُهُ بِهِمْ من عِقَاب، وأعْلَنَ أنَّه غَيْرُ مُسْتَعْجِلٍ لإنزال العقاب الشَّدِيد بهم، بدليل استعمال حرف التسويف «سَوْف».

والوعيد الذي أعْلَنَهُ فِرْعَوْنَ هُو «قَطْعُ أَيْدِي السَّحَرَةِ وأَرْجُلِهِمْ من

خلاَف» وهذا الوعيد مقرونٌ بقَسَمٍ مَنْوِيٍّ، وجاءَت اللاَّم ونون التوكيد الثقيلة دليلاً عليه، كما قال الخليل.

﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾: أي: إذا قطع اليد الْيُمْنَىٰ قطَعَ معَها الرّجل اليسْرَىٰ، وإذا قطَعَ الْيَدَ الْيُسْرَىٰ قطع معها الرجْلَ اليمنى.

﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: أي: وبعْدَ مُدَّة أَدَعُكُمْ تَتَعذَّبُون فيها بقَطْعِ الأيدي والأرْجُل من خلاف أقْسِمُ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِين في مكانٍ واحِدٍ ووَقْتٍ واحدٍ، لتكونوا عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِر.

الصَّلْبُ: شَدُّ أطراف الْجِسْم وتَعْلِيقُهُ علىٰ خَشَبَةٍ قَائمة، أوْ على جِذْع شجرة ذاتِ ساقٍ مُرْتَفَعَةٍ كالنخلة وشجر السَّرْو.

الجِذْعُ: ساق الشجرة، وهو ما بَيْنَ جَذْرِها ومَا تفرَّع من فورعها.

وفي الجلْسَتَيْنِ الأخْرَيَيْنِ اتَّهَمَهُمْ بأَنَّهُمْ تَلامِيذ مُوسَىٰ، فهو كبيرهم الَّذِي علَّمَهُمُ السِّحْر.

وفي الجلسة الثالثة التي جاء بيانُها في سورة (طه) أَبَانَ لَهُمْ أنَّ صَلْبَهُمْ سَيَكُونُ في جُذُوع النَّخْلِ، إذْ يَجْعَلُ المسامير الطّوال تُضْرَبُ فِي أطرافِهِمْ وتُثَبَّتُ دَاخِلَ جُذُوع النَّخْلِ، حتَّىٰ يَمُوتُوا وهُمْ مَصْلُوبُونَ، يَذُوقون عذَابَ آلاَمَ أَجْسَامِهِم، وعذابَ التشهير بهم، إذْ يُشَاهِدُهُم القاصِدُونَ، والمارُّونَ إلى جانب مجمع نخيل الصَّلْب.

وأبانَ لهم أيضاً أنَّهُمْ ليَعْلَمُنَّ حينئذٍ أنَّ عذَابَهُ أشَدُّ وأبقىٰ من عذابِ إله موسَىٰ الَّذي خافوا منه فآمَنُوا بموسَىٰ، وأسْلَمُوا له، واتَّبَعُوا دينه، فقال لَهُمْ: ﴿... وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾.

وهكذا جاء في النصوص توزيعٌ للمعاني المرادِ بيانُها، حتَّىٰ تتكامَلَ الدِّلالاَتُ فيما بيْنَها، بطريقةٍ إعجازيَّةٍ عَجِيبَةٍ وتُوجَدُ دَقائق أخرى يَكْشِفُهَا التَّدَبُّر المتأنّي.

رَدُّ السَّحرَةِ عَلَىٰ اتِّهَامَاتِ فرعونَ لَهُمْ وَوَعِيدِه

(١) جاء في سورة «الأعراف» الّتي نتدبَّرُها قول الله عزّ وجلّ بشأن رَدّهم:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾: أي: ومَا تعيبُ علينا، وتُبْغِضُ منا، وتُريدُ مُعَاقَبَتْنا علَيه. يقالُ لغة: «نَقَمَ يَنْقِمُ» و«نَقِمَ يَنْقَمُ» أي: عَابَ وأبغض وعاقب.

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾: أي: رَبَّنا املأ لَنا مِكْيَالاً من الصَّبرِ بمقدار ما نحتاج لتحَمُّل العذاب، وأَفرِغه كلَّهُ علينا، حتَّىٰ لا نتَشكىٰ، ولا نَتَذَمَّر، ولا نَتراجَع عَنْ مَوْقِفِ الإيمان والإسلام الّذي هَدَيْتَنا إليه.

(٢) وجاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشأن ردهم أيضاً:

﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿لَا ضَيْرَۖ﴾: أَيْ: لاَ يُؤَثِّرُ عَلَيْنَا تَعْذِيبُكَ لَنا بِمَا يَضِيرُنَا. يُقَال لغة: ضَارَهُ يَضِيرُهُ ضَيْراً، أيْ: أضرَّبه.

﴿مُنقَلِبُونَ﴾: أي: راجِعُونَ.

﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: لأجل أنْ كُنَّا أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بموسى وبما جاء به عن ربّه.

(٣) وَجاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بشأن ردّهم أيضاً:

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾: أي: لَنْ نُفضِّلَكَ.

﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾: أي: لَنْ نُفضِّلَكَ على ما جاءنا من الآيَاتِ الواضِحَاتِ الإعجازيَّة والبيانيَّة المبيِّنات لِلْحَقّ، ولَنْ نُفضِّلَكَ على رَبّنا الَّذي فَطَرنا.

﴿فَطَرَنَا﴾: أي: أَوْجَدَنا وخَلَقَنا على نِظَامِ الْفَطْر، بعد أن لم نكن شيئاً مذكوراً. الْفَطْرُ: الشَّقُّ. وخلْقُ الله عزّ وجلَّ قائمٌ على نظام الْفَطْرِ والْفَلْقِ، لأن نُقْطَةَ الْعُمْق مِنْ كلِّ شيء هيَ الْعَدَم، فالله هو الموجِدُ من العدم، جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾: أي: فامْضِ مَا أَنْتَ مُمْضِيهِ من أحكامِكَ الانتقاميّة، فإنّنا مُسْتَعِدُّونَ لتَحَمُّلِ تعذِيبكَ لنا بِصَبْرٍ. إنَّك لاَ تَسْتطِيع أَنْ تفعلَ أَكْثَر مِنْ تَعْذِيبٍ تُنْهِي به هٰذه الحياة الدُّنيا. وهي مُنْتَهِيَةٌ لاَ مَحالَةَ في آجالِنا.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾

أي: إنّنا آمَنَّا بِربِّنا، فَلاَ تطْمَعْ في أَنْ نَرْجِعَ إلى مِلَّتِكَ وطَرِيقتك، مَهْمَا تَوَعَّدْتَنا بالعذاب الأليم، وإنّنا واثِقُونَ من أنّ إيمانَنا سَبَبٌ يَغْفِرُ بِهِ ربُّنا خطايانا، فالإيمان يَجُبُّ ما قبله، ويَغْفِرُ به ما أَكْرَهْتَنَا عليه من السِّحْرِ في المباراة الَّتِي عَقَدْتَها بَيْننا وَبَيْنَ نبيّ اللّهِ ورسُوله موسَىٰ عليه السّلام.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾: أي: واللّهُ خَيْرٌ مِنْكَ وَمِنْ كُلِّ ما سِواه، وفَضْلُهُ وعَطَاؤُهُ أبْقَىٰ، أي: لأنَّهُ الحيُّ الباقي الأزليُّ الأَبَدِيُّ القيوم.

❁ ❁ ❁

هذه النصوص الثلاثة تُعَبِّرُ عَنْ مواقف ثلاثةٍ واجَهَ بِهَا السَّحَرَةُ فرعون، في مقابل مواقف ثلاثةٍ وجَّهَ فيها فِرْعَوْنُ لهم التَّثْرِيب والتعنيف والتجريم، والوعيد بمعاقبتهم عقاباً أليماً حتَّىٰ الموت.

ويظهر أنَّ فرعون كان حريصاً على أنْ لا يخْسَرَ سَحَرَتَه، على شَرْطِ أن يَعُودُوا إلى مِلَّتِه وطَرِيقَتِه، ويكونوا بالسّحر قُوَّةً لسُلْطانه، تَدْعَمُ في نفوسِ جماهير العامَّة من شَعْب مصْرَ قُوّاتِه العسكرية.

ولهذا كان يُمْهلهم، ويُراوِضُهُمْ ويُرَاجِعُهُمْ بالْوَعِيد، ويُشَدِّدُ فيه مرَّة بَعْدَ مَرَّة، عَسىٰ أنْ يراجِعُوا أَنْفُسَهم، ويَكْفُروا بمُوسَىٰ وهارون، وبما جاءا به عن الله، ويُجَدِّدُوا وَلاَءَهم للْبَلاَطِ الفرعَوْني.

ويظهر أنّهم بَدَؤوا بالتَّلْمَذةِ الدينيَّة على موسى وهارون، حتَّى صارت أَلْسِنَتُهم في مواجهة فرعَوْن أَلْسِنَةَ دُعاةٍ إلىٰ الإيمان بالله وبِيَوْمِ الدين، وإلى الإسلام لله بالعمل الصالح، على ما جاء به موسىٰ عن رَبّه.

● ويظهر أنّ أوّل رُدودهم على فرعون هو ما جاء بيانه في سورة (الأعراف) فقد رَدُّوا فيه على وعيد فرعون لهم بعبارات إيمان، وتبرُّىءٍ ممَّا يُوجبُ عقابَهُمْ قانوناً، ودُعاءٍ لِرَبِّهِمْ أَنْ يُصَبِّرَهُمْ وَيَتَوَفَّاهم مُسْلِمين.

قالوا له: إذا قتلْتَنا بأيّة وسيلَةٍ فإنّنا راجِعُون إلىٰ رَبّنا، الَّذِي سوف يُثِيبنا على أنَّنا قُتِلْنا من أجله، فَنَحْنُ شهداء في سبيله، على أَنَّنا في كُلّ الأحوال سَنَرْجِعُ إليه، إذْ يَبْعَثُنا بَعْدَ الموت إلى يوم الدّين، يوم الحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

وقالوا له: إنَّكَ مَا تُعَاقبنا إذا فَعَلْتَ ما تَوَعَّدْتَنا به إلاَّ عَلى أَمْرٍ لا يسْتَحِقُّ في قواعد العدْلِ والجزاء العقابَ، إنَّك تُريدُ أَنْ تُعاقِبَنا لأنَّنا آمَنَّا بآياتِ رَبِّنَا الإعجازيَّة والبيانيَّة لمَّا جَاءَتْنَا، والآيَاتُ البيانيَّةُ قَدْ بَلَّغَنا إيَّاها رُسُولٌ أَيَّدَهُ رَبُّنا بمُعْجِزَة باهِرَةٍ حقيقيَّة، لَيسَتْ مِنْ قبيلِ السِّحْرِ الَّذِي نَصْنَعُهُ ونَخْدَع به أعْيُنَ الناس.

وَدَعَوْا رَبَّهُمْ أَمَام فِرْعَوْن بأن يُفْرِغ عليهم مِكْيالاً من الصَّبْر بقَدْرِ حاجتهم، حتَّىٰ يتحمَّلُوا ما توعَّدَهم به فرعون من عذاب وقتل، وبأن يَتَوفَّاهُمْ مسلمين.

وغرضهم من إعلان هذا الدّعاء إعْلانُ ثَباتِهم على إيمانهم، وعدم تأثُّرهم بالعقاب الذي توعّدَهم به فِرْعَونُ، وأنَّهُمْ سيتَلقّوْن عقابَه لهم بالصَّبْر، وأنَّهُمْ يسْأَلُونَ رَبَّهُمْ أَنْ يَتَوَفَّاهُمْ مُسْلِمين، أي: مؤمنين مسلمين، لأنَّ الإسْلاَمَ الحقيقيَّ عند الله، لاَ بُدَّ أن يكون مبنيًا على قَاعِدَةِ الإيمان الصحيح.

● أمَّا ثَاني رُدُودِهِمْ على مَواقف الوعيد الّتي وجَّهها فِرْعونُ لهم، فَيَظْهَرُ أَنَّهُ الرَّدُّ الَّذِي جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول).

فبَعْدَ أَنْ سَمِعُوا تأكيد وعيده لهم بتقطيع أيديهم وأَرْجُلهم من خِلاَفٍ، وجَعْلِهِمْ مُصَلَّبِين يموتُون صَبْراً، رَدُّوا عَلَيْهِ بما يَدُلُّ على عَدَمِ اكْتِرَاثِهِمْ له، وعلى اسْتِعْدَادِهم لتَحمُّلِ تَعْذِيبه بصَبْر، إذْ هُوَ هَيِّنٌ بجَانِب مَا يَطْمَعُونَ أَنْ يَنَالُوهُ عنْدَ اللَّهِ من مَغْفِرَةٍ وَكرامَةٍ وأجْرٍ عظيم، بسبب أنهم كانوا أوَّلَ من آمَنَ مِنَ المصْرِيِّين بدَعْوَة الرَّسُولَيْن مُوسَىٰ وهَارُون.

● وأَمَّا ثالث رُدُودهمْ على مَواقف الوعيد الّتي وجَّهَها فرْعَوْن لهم، فَيَظْهَرُ أَنَّهُ الرَّدُّ الَّذِي جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول).

إنَّ فِرْعَوْنَ لمَّا تَوعَّدَهُمْ بِقَطْعِ أَيْدِيهم وأرْجُلِهم من خلاف، وقال لهم: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾. رَدُّوا عَلَيْهِ بِجُرْأَةِ الصَّامِدِينَ الدُّعَاةِ إلَىٰ الله، دُونَ اكْتِرَاثٍ لِوَعِيدِهِ، وَلا تراجُعٍ عن الموقفِ الإيمانيِّ الإسلاميِّ الذي سبَقَ أن واجَهُوهُ به.

لَقَدْ أَيْأَسُوهُ من أن يُؤَثِّر عليهم بِوَعِيدِهِ الشَّدِيدِ لهم، فقالوا له: لَنْ نُؤْثِرَ بَاطِلَكَ على الحقِّ الذي جَاءَنَا من رَبِّنا، ولَنْ نُؤْثِرَكَ علىٰ رَبِّنَا الّذي فَطَرنا، فَلاَ تَطْمَعْ بتهديداتِك، وَوَعِيدك لنا، في أن نتراجَعَ عن مَوْقِفِنا، فَأَمْضِ مَا أَنتَ مُمْضِيهِ مِنْ أوامِرَ يُنَفِّذُها جُنُودُكَ، وَلاَ تُفَاوِضْنَا بِشَأنِ إيماننا وإسْلامِنَا، إنَّ غَايَةَ ما تُمْضِيه بوسائلك، أَنْ تُنْهِيَ مِنْ ذَواتِنا هٰذِهِ الحياة الدُّنيا الَّتي

نَعِيشُها، وأن تكونَ سَبباً في مَوْتِنا، ونَحْنُ مُسْتَعِدُّونَ لتَحمُّلِ ذَلِكَ ابْتِغاءَ مَرْضَاةِ رَبّنا.

وسكت البيان القرآنيُّ عن مَصِير هؤلاء السَّحَرَة، ويظهر أن فرعَوْنَ قد نَفَّذَ فِيهِم وعيدَه.



الفقرة الثانية

الآيات من (١٢٧ ـ ١٣٧)

تمرُّدُ فرعون وملئه وعنادُهم واستكبارُهُم حتَّى إغراقهم

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ

ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

القراءات:

(١٢٧) ● قرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأَبُو جَعْفر: **[سَنَقْتُلُ]** من الفعل غير المضعّف.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[سَنُقَتِّلُ]** من الفِعْلِ المضعّف.

وبين القراءتين تكاملٌ في أدَاء المعنَىٰ المراد، فَالظَّاهِرُ أَنَّ فِرْعَوْنَ قالَ أَوّلاً قَبْلَ أَنْ تَشْتَدَّ ثَوْرَةُ غَضبه: **[سَنَقْتُلُ]** من غير تَشْدِيد.

ثُمَّ لمَّا اشْتَدَّ غَضَبُه قال: **[سَنُقَتِّلُ]** بالتَّشْدِيد، أي: سَنقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ بِشِدَّةٍ وعُنْفٍ وقَسْوَةٍ.

(١٣٣) و**(١٣٤)** ● في لفظ **[عَلَيْهِمْ]** في الآيتَيْن ثلاثُ قِراءات:

قرأ أبو عمرو: بِكَسْرِ الهاء والميم. وقرأ حمزةُ، والكسائي، ويعْقُوبُ وخَلَفٌ: بِضَمّ الهاءِ والميم. وقرأ باقي القرّاءِ العشرة: بكَسْرِ الهاء وضمّ الميم.

وهي وجوه عَرَبيَّةٌ في النُّطْق.

(١٣٧) ● قرأ ابن عامر، وشُعْبة: **[يَعْرُشُونَ]** بِضَمّ الرَّاء.

وقرأ باقي القرّاء الْعَشَرَةِ: **[يَعْرِشُونَ]** بِكَسْرِ الراء.

وهما وَجْهَانِ عَرَبيّان لِنُطْقِ الكلمة.

التدبّر التحليلي:

قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ

وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾:

تمهيد:

بعد خيبة فرعون وملَئِه في المباراة التي أجْرَوْها بين موسى عليه السلام، وصفوة السَّحَرة الَّذِين حَشَرُوهم من مدائن مصر كلّها، إذِ انقلبت المباراة ضدّ السُّلْطَةِ الفرعَوْنية، وآمن وأَسْلَم السَّحَرَةُ الَّذِين جاءُوا بهم، وكانت المباراةُ لمصلحة دعْوَةِ موسى، وانتصاراً لها أَمَام الحشود الغفيرة من القبط.

عندئذٍ لم يبْقَ أمام الجبْهَةِ الفرعَوْنيَّة إلاّ أَنْ يقْمَعُوا دَعْوَة موسىٰ وأخيه هارون عليهما السَّلام بالْقُوَّة، وأنْ يَزِيدُوا اضطهاد بَنِي إسرائيل باستخدام الأسلحة العسكريَّة، وبما لَدَيْهِمْ من جُنودٍ يَنَفِّذُون أومِرَهُم بالطَّاعَةِ الْعَمْيَاء، وهذا ما دَلَّتْ عليه هذه الآية:

ويَرِدُ هنا سؤال: ما الدّاعي لأنْ يُحَرِّضَ الملأُ مِنْ قوم فِرْعَوْنَ، سَيِّدَهُمْ ومليكَهُمْ على التخلّص من موسى وهارون، وعلى قَمْع قوْمِهِ بني إسرائيلَ واضطهادِهم، أكْثَر ممَّا هُمْ فيه من اضطهادٍ وتَسْخِير، مَعَ أَنَّ فرْعَونَ مَلِكٌ طاغيَةٌ مستَبِدٌ جبَّارٌ، لا يتساهل مع خصومه، ولاَ مَع من يَرَاهُمْ يُنَازِعُون سلْطَانَهُ وجَبَرُوته؟!

ويمكن أنْ نجيب بأنّ آية عصا موسى قَدْ خلَعَتْ قلْبه، وجعَلَتْهُ شديد الْحَذَر من أن يمَسَّ موسىٰ عليه السّلام بسُوءٍ، فيُسَلِّطِ عليه العصا الّتِي تنقلب ثُعْباناً فتَبْتَلِعه، ولا سيما بعد أن ابتَلَعَ هذا الثُّعْبانُ حبالَ سَحَرتِه وعصيَّهُمْ وجَميعَ أَدَواتهم السّحريّة، فجعَلَ يُطاولُ ويَأْخُذُ الأَمْرَ بالحكمة والرَّوِيَّة.

إنَّ فِرْعَوْنَ لَمْ يَشَأْ أن يُتَابع موسَىٰ، فيُؤْمِنَ به ويُسْلِمَ له، خوفاً من أنْ

يَخسَرَ بِذَلِكَ سُلْطانَهُ وجَبرُوته، ولم يَشَأْ أَنْ يستثيرَهُ الغضبُ فيتعرَّضَ لموسَىٰ بسُوءٍ فيخْسَرَ بذلك سلْطَانَهُ وَحَيَاتَهُ أيْضاً، إذْ أَدْرَكَ في قرارة نفسه أَنَّ ما جاء به موسَىٰ شيءٌ هو فوق قُدْراتِ الناس، ويَغْلِبُ على الظنّ أنّ فرعَوْنَ أَدْرَكَ أَنَّ مُوسَىٰ على حقٍّ، ولكن صَعُبَ عليه أن يُؤمن به ويُعْلِنَ إسْلامَهُ له.

فلَمَّا طَالَ تريثُهُ دُونَ أَنْ يُصدِرَ أوامِرَهُ القمِيعيَّةَ المعتادةَ بالنسبة إلى كلّ مَنْ تَبْدُرُ منْهُمْ بَوادِرُ الخروج على طاعتِه ونظام مُلكه، وأخذ موسَىٰ يَنْشُرُ دَعْوَتَه مع أخيه هارون، وبدأ بعض الإسرائيلِّيين يعْتَزُّون بموسى وهارون، ويُفَاخِرُونَ بدينهم ودِين آبائهم، ويَدْعُونَ القبْط لاعتناقه، لكنّ المصريين كانوا يخافون من سطْوَة فِرْعَوْن وَبطْشِه، إذا هَجَرُوا دينه، واعْتَنَقُوا الدّين الذي يدعُو إليه موسى وهارون والمؤمنون الدُّعاة من بني إسرائيل.

لمّا حصَلَتْ هٰذه الأمور وخاف الملأ من قوم فرعون أن يَنْتَشِرَ في مصر الدّين الجديد، ويقْوَىٰ الإسرائيليُّونَ على القبط، أهل مِصْرَ الأصلِّيين، فَيُسْقِطُوا الْحُكْمَ الفرعوني، وكُلَّ أنْصَاره المستفيدين منه، وقد اعتبروا هذا إفساداً في الأرض، ولم يكن لديْهم الحَذَرُ الَّذِي ألْجَمَ فِرْعَوْنَ عَنْ أَنْ يُمَارِسَ جَبَرُوتَه المعرُوف، عندئذٍ أَخَذُوا يحرِّضون فرعَون على قمع موسى وقومه.

التدبر:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾!.

استفهامٌ فيه معْنَىٰ التعجُّب مِنْ أناة فِرْعَوْنَ وَتَريُّثِه، ومُطَاوَلَتِه لموسَىٰ وهارون على خلاف عادتِه، من انتقامه الشديد من مخالِفِي طريقته وأوامره ونواهيه، وفيه معنى التحريض على أنْ يسْتَخْدِمَ وسيلة العنف والْبَطْش، قبل أن يسْتَفْحِلَ الأمر، ويُفْلِتَ الزّمامُ من أيديهم.

لقد رَأَوْا أَنَّ انطِلاقَ موسىٰ وهارون عليهما السلام، ومَعَهُمَا قِسْمٌ من بني إسرائيل، يَدْعُونَ إلى الدِّين المخالف للدِّين الَّذي عليه فِرْعَوْنُ ومَلَؤُهُ وقَوْمُه هو من الإفساد في الأرض، فقالوا لسيّدِهم فِرْعَوْن:

﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟! أَتَذَرُ: أَتتْرُكُ.

أي: أَتتْرُكُ مُوسَىٰ وقَوْمَهُ يَعْمَلُونَ بِحُرِّيَّةٍ في الدَّعْوَةِ إلى دِينهم، حتَّىٰ يُشَوِّشُوا أفكار النّاسِ، ويَجْعَلُوهم شِيَعاً وأحْزاباً، ويُفسِدُوا وحْدَتَهُم الفكرية والاعتقادية المؤتَلِفَة على عبادة آلِهَتِهم، وعلى جَعْلِكَ في مِصْرَ أَنْتَ الإلَه والرَّبَّ الأعلَىٰ، إذْ حَلَّتْ فيك روح الرَّبِّ الأعْلَىٰ باعتبارك من سُلاَلَتِه، إنَّ هٰذَا إفْسَادٌ في الأرض لا يُحْتَمل، فمِنْ شأنِهِ أنْ يُسْقِط نظام الدَّوْلَة الفرعَوْنِيَّة، ويَسْلُبَنا سُلْطَانَنا وَأَمْلاَكَنا في أرْض مصر.

اللام في ﴿لِيُفْسِدُوا۟﴾: هي لامُ العاقبة، أي: حتى تكون عاقبةُ أمْرِهم الإفسادَ في الأرض.

﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾: أي: وليَنبِذَكَ مُوسَىٰ مَعَ آلِهَتِكَ مغزُولين، فَلا تَجِدُونَ مُطِيعينَ عَابِدينَ لَكُمْ، ولا أَنْصاراً يَنْصُرُونَكُمْ.

وسيأتي قريباً إن شاء الله بَعْضُ بيانٍ عن مُعْتقدات الفراعِنَة في الآلِهةِ، وعن تطوُّرِ هٰذِهِ المعتقداتِ كما ذَكَرَ مُؤَرِّخُو معتقداتهم، وهم بوجه عامٍّ يَرَوْنَ أَنَّ الإلَه هو العظيم المُطَاعَ، الَّذِي تَجِبُ طَاعَتُهُ والخُضُوعُ لَهُ في حُدُودِ إلَهِيَّتِهِ، وَلَهُ حقُّ الأَمْرِ والنَّهْي والتَّصرُّفِ ضِمْنَ دَائِرَتِها.

مادّةُ «يَذَرُ» فيها معنى الترك والإهمال، وقَدْ تَدُلُّ على معنى النَّبْذِ والإبْعَادِ، كوَذْرَةِ اللَّحم، وهي القِطْعَةُ الصغيرة الَّتي يَقْطَعُها الجزار وَيَنْبِذُهَا كراهِيَةً لها.

هذا القَوْل التحريضيُّ من ملأ قَوْمِ فِرْعَوْنَ اسْتَحَثَّهُ علىٰ أَنْ يُصْدِرَ أمْراً بالنِّسْبَةِ إلى بني إسْرائيل، دُونَ مُوسَىٰ وهَارُونَ عليهما السلام، فقال لمَّا اسْتُثِيرَ غَضَبُهُ:

﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾:

بَعْدَ أَنْ قَال: [سَنقْتُلُ. . .] من غَيْر تَشْدِيد.

ويظهر أنَّه عُرِضَ على فِرْعَوْنَ اقتراحٌ تَعْدِيليٌّ، بالاقتصار على قَتْلِ أبناء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَ مُوسَىٰ، واستثناء الَّذِينَ لم يُؤْمِنُوا به ولم يَتَّبعُوهُ مِنْ بَنِي إسْرَائيل، فَأَصْدَرَ أمْرَهُ بذلِكَ، كَمَا جَاءَ في سورة (غَافِر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أمَّا الأَمْرُ بقَتْلِ المواليد الذكور، فالغاية مِنْهُ إيقَافُ الْقُدْرَاتِ القتاليَّةِ عن التكاثُر لدىٰ مَنْ يُؤْمِنُ من بني إسْرائيل، ولَقَدْ كان هذا إجراءً مَعْرُوفاً لدى الفراعنة، لإيقاف تكاثر الأقليّات غير القبطية. ولولا عناية الله لقتل موسى مع من قتل من مواليد بني إسرائيل الذكور أيام ميلاده.

وأمَّا الأمْرُ باسْتِبْقاء المواليد الإناث أحياءً منهم، فالغاية مِنْهُ اتخاذُهُنَّ مَتَىٰ كَبِرْنَ مُسَخَّرَاتٍ في الْخِدْمَةِ والاسْتِمتاع، إذْ لَسْنَ مُؤَهَّلاتٍ لِتَكْوِينِ جَيْشٍ يُقَاتِلُ جُنودَ السُّلْطَةِ الفِرْعَوْنيّة.

وقول فِرْعَوْنَ: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ يَتَضَمَّنُ تَهْوِيناً مِنْ أَمْرِ إفْسَادِ بني إسْرَائيل في الأَرْض.

أي: لاَ تخافوا من إفسادهم في الأرض، فإنَّنَا لا نُمَكِّنُهُمْ مِنْ ذَلِكَ، لأنَّنَا فَوْقَهُمْ قُوَّةً وسُلْطاناً، ونَحْنُ قَاهِرُونَ لهم، نَسُوقُهُمْ بالْقُوىٰ الْقَاهِرَةِ كما نَشَاءُ، ولا نَدَعُ لهُمْ إمْكَانِيَّاتِ عَمَلَ وتحرّكٍ تَجْعَلُهُمْ يُفْسِدُونَ في الأرض.

القَهْرُ: الغلَبَة، يقال: «قَهَرهُ يَقْهَرُهُ قَهراً» أي: غَلبَه، والقاهِرُ، الغالب، ومبالغَتُهُ القَهّار، ويقالُ أخَذَهُمْ قهراً، أي: بالغلبة من غير رضاهم، ففي القَهْر معنىٰ الجبْرِ ضدّ الاختيار.

وبهذا الإجراء رأىٰ فرعَوْنُ أنّه حلّ مُشْكِلتَهُ حلاً يَضْمَنُ فيه سَلاَمَتَهُ، وسَلاَمَة نظام دولَتِهِ.

عقيدَة القِبط في عُهُود الفراعنَة:

أمّا عقيدة القبط في عُهُودِ الفراعنة، فقد كانت عقيدة شِركيَّة، وكانت عقيدتُهم بالرَّبّ الأعلىٰ عقيدة حُلُولِيَّة.

كانت لَهُمْ آلهةٌ مُتَنَوِّعَةٌ مِنَ الكواكب ومن العناصر، وقد صَوَّرُوا لها صُوراً عَدِيدَةً مختلفة باخْتِلاَفِ العصور والأقطار.

وكانت العقيدة الرَّسميَّةُ عِنْدَ قُدَماء المصريّين تَعْتَمِدُ علىٰ أُسْطُورَة عَرِيقَةٍ في القِدَم بالنسبة إليهم، وهذه الأسطورة الخرافية تزعم أن إله الإنباتِ والخصُوبَة، أو إله النّيل، واسْمُهُ: «أُوزِيرِيس» قد عَمِلَ على تأسيس مملكةٍ إلَهِيَّة، مِنْهُ ومن زَوْجَتِهِ الّتي هي أخْتُه، إلَهَةِ الحِكْمَةِ والتَّشْرِيع والسِّحْر، واسْمُها: «إيزيس» ومِنْ وزِيرِهِ إلَهِ التَّدْبِير والْعِلْم، واسْمُه: «تُوت» ومِنْ غَيْرِهم مِنَ الآلِهَة.

ثمّ ظهر أَخُو «أُوزِيرِيس» إلَهاً للشّرّ والْقَحْط، واسمه: «سِيت» وقام بين الأخَوَيْن الصِّرَاعُ، وَقَتَلَ إلَهُ الشّرِّ والْقَحْط أخاه «أُوزِيرِيس» ثمّ قام الصّراعُ بيْنَ الْعَمّ وابْنِ أخيهِ الإله: «هُورُوس» وصار الإلهُ بعْدَ ذَلِكَ ثالُوثاً من الأَب والأُمّ والابْن.

ثمّ نَشَأَتْ لَدَيْهم عقيدةُ أنّ رُوح الإله: «هُورُوس» ذَاتُ ثلاثِ شُعَب:

- شعبةٍ دُنيا تَحُلُّ في فِرْعَوْنِ الزّمَان.

● وشُعْبَةٍ عُلْيَا تَحكُمُ في السَّماواتِ والأرض.

● وشُعْبَةٍ تَبْقَىٰ في جَسَدِ فِرْعَوْن الميّتِ، وتَقُومُ بالنُّصْحِ لِفَرْعَوْنَ الحيّ، ولا تَبْقَىٰ هٰذِهِ الشُّعْبَةُ في فرعون الميّت إلاَّ إذا بقي جِسْمُهُ مُتَماسِكاً.

ثمّ صار فِرْعَوْنُ في عقيدتِهِمْ تَحُلُّ فيه رُوحُ «رَعْ» وهو كبيرُ الآلِهَةِ، ثُمَّ تَحَوَّلَتِ العقيدة عندَهم مِنْ إلٰهٍ مُثَلَّثٍ، إلى إلٰهٍ ذي تِسْعِ عَناصر، وهي: (الشمس ـ الهواء ـ الماء ـ الفراغ ـ الأرْض ـ السَّمَاء ـ الأرض الخصبة ـ الصحراء ـ الأرض القاحِلَة).

وقَدَّسُوا مجموعةً من الحيوانات في خُرافَاتٍ مختلفات.

وكانت «الطواطم» شائعةً لدى قبائلهم ومُدُنِهم، وهي في بداياتها شعاراتُ جماعاتهم، ثمَّ صارَتْ بَعْدَ أزمانٍ مُقَدَّسَةً لديهم.

ويظهر أنّ فرعون موسى كَانَ في مرحلَةِ اعتقاد المصريين حُلُولَ رُوحِ الإلّه الأَعْلَىٰ، أو الرَّبّ الأَعْلَىٰ في سلالَةِ الفراعِنَة، ولهذا قال لَمَلئِهِ كَمَا جاء في سُورَة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى... ﴿٣٨﴾﴾.

وقال كما جاء في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) بَعْدَ أَنْ حَشَرَ جماهير المصريين:

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾.



قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

علم موسَىٰ وهارونُ عليهما السّلام وبَنُوا إسْرائيل بالأَمْرِ الفِرْعَوْني، الّذي صَدَرَ بقتل المواليد الذكور للّذِين آمَنُوا مَعَ مُوسَىٰ منهم، وباتّخاذِ سياسة القَهْرِ ضدّ كُلّ مَنْ يَتحرَّكُ منهم لِنَشْرِ دِين الله الّذي جاء بِه موسَىٰ في مِصْر، وعظُمَ هذا الأمْرُ على مَنْ آمن معه من بني إسرائيل، فوجَّهَ لهم مُوسىٰ عليه السَّلامُ وصيَّتَيْن، ومَقُولَتَيْنِ أبانَ لهم بِهِما سُنَّتَيْنِ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ عزّ وجلّ في عباده:

● **أمّا الوصِيّتَان فهما:**

الوصيّة الأولى: دَلَّ عليها: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾.

أي: اطلُبُوا الْعَوْنَ مِنَ اللَّهِ رَبّكُمْ في كلّ أُمُورِكم، سواءٌ ما كان منها لصَرْفِ أذَىٰ عَدُوّكُمْ عَنكُمْ، أمْ مَا كان مِنْها لجلْبِ المنافع لَكُمْ في دنياكم وفي آخِرَتِكم، فاللَّهُ عزَّ وجلّ هو الممدُّ بالقوى المسخَّرَةِ لعباده، ما كانَ منها داخِلَ أَجْسَادِهِمْ ونُفُوسِهِمْ وأَفْكَارِهِمْ وقلوبهم، وما كان مِنْها خارجَ أَجْسَادِهِمْ، فإذا شاء اللَّهُ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُهُ زادَ في عطاءاتِ الإِمْدَادِ، وَإذا شاءَ نَقَصَ مِنها، وإذَا شَاءَ سَلَبها.

وقد تَعَلَّمَ النَّاسُ الآنَ من قانُونِ الطَّاقَةِ الكهربَائِيَّة، أَنَّ بالإمكان إقافَهَا عَنْ مجاريها في الأسلاك، فَتَقِفُ كلُّ حَرَكَةٍ للأجهزَةِ الّتِي تَعْملُ بها، ويُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ مِنْ هٰذا بِصُورَةٍ تَقْرِيبيَّةٍ كَيْفَ يُمِدُّ اللَّهُ عزَّ وجلَّ كلَّ ذِي طَاقَةٍ في الوجود بالطَّاقَةِ، ولِلَّهِ الْمَثَلُ الأعْلَىٰ.

والاستعانةُ باللَّهِ من التعبيرات الإيمانيَّة العظمىٰ، الّتي تَسْتَدِرّ نَفَحاتِ عطْفِ اللَّهِ وحَنَانِهِ ورَحْمَتِه، وإمْدَاداتِ عَطاءاتِهِ الفيضيَّة.

الوصيّة الثانية: دَلَّ عليها: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾.

لقد أمَرَ مُوسَىٰ عليه السلام مَنْ آمَنَ معه من قومه الإسرائيليّين، بأنْ يَصْبِرُوا، لأنَّ الصَّبْرَ مع الإيمان بالله والثّقة بِهِ، مفتاح الفرج، وعُدَّةُ النّصر،

وقاعِدَةُ التوفيق في الأعمال، ومَرْكَبَةُ الظَّفَرِ بالغايَات، والوصُولِ إلىٰ بَعِيدِ الآمَال.

ولا حيلَةَ عِنْد الشدائد إلاَّ الصَّبْر، واللَّهُ مَعَ الصَّابِرِين، يَتَوَلاَّهُمْ ويَرْعَاهم، ويُؤَيِّدُهُمْ بِعَوْنِهِ وَتَوفِيقِهِ وَتَسْدِيدِهِ وَنَصْرِهِ.

والصَّبْرُ أَحَدُ مَجَالَي الامتحانِ في الحياة الدُّنيا، أَمَّا المجالُ الآخَرُ فَهُوَ الشُّكْر. وبَيْنَ الصَّبْرِ والشُّكْرِ تُبْتَلَىٰ النَّفْسُ الإنسانيّة، فَتَدُورُ عَلَىٰ مِحْوَرَيهما دَواليبُ الامْتِحَان وَدَوَائِرهُ المختلفة، والمتحركة مع مَسِيرَةِ الزَّمَن.

● **وأَمَّا السُّنَّتَانِ الرَّبَّانِيَّتَانِ فهما:**

السُّنَّةُ الأولى: دَلَّ عليها: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾:

أي: إنَّ الأَرْضَ كُلَّها هِيَ مِلْكٌ لِلَّهِ رَبِّها الَّذِي خَلَقَها، فالأَقَالِيمُ والبلْدَانُ، والقِطَعُ مِنْهَا كَبُرَتْ أَمْ صَغُرَتْ هِيَ مِلْكٌ لَهُ سُبْحَانَهُ، فَهُوَ يَهَبُهَا مَنْ يشاءُ من عباده، لِيَمْتَحِنَهُمْ بامْتِلاكها امْتِلاكاً مُؤَقَّتاً صُورِيًّا، أَوْ بالتَّسَلُّطِ عليها، فإذا أَفْسَدُوا فيها وانْتَهَىٰ دَوْرُ امتحانِهم بمَا وَهَبَهُمْ مِنها، نَزَعَها مِنْهُمْ، أَوْ نَزَعَهُمْ مِنها، وجَعَلَها مِنْ بَعْدِهِمْ ميراثاً مِنْ فَضْلِه لآخَرِينَ مِنْ عباده، لِيَبْلُوَهُمْ بِها أَيْضاً.

وأَلْمَحَ مُوسَىٰ عليه السّلام بعبارتِهِ هٰذِهِ إلىٰ أَنَّ فرعَوْنَ وَآلَهُ ومَلأَهُ وجُنُودَهُمْ قَدْ طَغَوْا في أَرْضِ مِصْرَ وَبَغَوْا، وآذَنَتْ أَيَّامُ امْتِلاكِهِمْ لأرض مصْرَ بالزَّوال، بمقتضىٰ سُنَّةِ اللَّهِ في عباده، وأَشْرَفَتْ دَوْلَتُهُمْ على الانهيار، فإذَا ضَرَبَهُم بسَوْطِ عذابه جعَلَ أَرْض مِصْرَ مِنْ فَضْلِه ميراثاً لمنْ يَشَاءُ من عِبادِه من بَعْدِهِمْ.

السُّنَّةُ الثانية: دلَّ عليها: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾:

أي: وَإِذَا قامَ صراعٌ بيْنَ فَرِيقَيْنِ من الناس، أَوْ بَغَىٰ جبَّارُونَ ظالِمُونَ علىٰ مُسْتَضْعَفِينَ في الأرْضِ، فالعاقِبَةُ في آخِرِ مُدَّةِ امْتِحَانِ اللَّهِ لِلْفَرِيقَيْنِ، سَتَكُونُ بمُقْتَضَىٰ سُنَّةِ اللَّهِ فِي عِبادِهِ للمتقين، أي: لمصْلَحَةِ المتقين ونَصْرِهِمْ علَىٰ عَدُوِّهِمْ، فَهِيَ إذاً لاَ تَكونُ إلاَّ خيراً للمتقين.

المتَّقُون: هُمُ المؤمِنُونَ باللَّهِ وبِرُسُله، والمسْلِمُون له، المجتَهِدُونَ في العمل بأحكام دين اللَّهِ لعباده، الَّذِينَ يُؤَدُّونَ مَا فَرَضَ اللَّهُ عليهم، ويَنْتَهُونَ عمَّا نَهَاهُمُ اللَّهُ عَنْه.

وللتقوىٰ دَرَجاتٌ أعْلاَهَا فِعْلُ كُلِّ ما أَمَرَ اللَّهُ بفِعْلِهِ، وتَرْكُ كلِّ مَا نَهَىٰ اللَّهُ عن فعله. وادْنَاها الْقِيَامُ بما يقي من الخلُودِ في عَذَابِ النار.

ولكِنَّ العاقبة الحسنة في الدنيا تكُونُ للمرتَقِينَ في دَرَجات مرتَبَةِ التقوىٰ إرتقاءً يُقَرِّبُهُمْ من الدَّرَجَةِ العلْيَا فيها، مع الاستغفار عن التقصيرات والمخالفات، والعزم على الالْتِزَامِ بكلّ حقوق مرتبة التقوىٰ.

بعد هذا البيان الذي قَدَّمه مُوسَىٰ عليه السلام لِقَوْمِهِ الَّذِين آمَنُوا، قَالُوا له كما جاء في قول الله تعالى:

● ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾

من بديع الاختيار في بدائل الكلمات المترادفات، أن العبارة هُنَا جيء فيها: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ لا «ومِنْ بَعْدِما أتَيْتَنا» فالمجيء والاتْيان مترادفان، لكن التنويع هنا في البدائل أعْذَب في السَّمْع وألْيَنُ في النطق.

أي: آذانَا فِرْعَوْنُ ودَوْلَتُه وقَوْمُهُ من القبط من قَبْلِ أَنْ تأتِينا نبيًّا رسُولاً، فكانوا في مُدَّةٍ من الزّمنِ يُذَبِّحُونَ أبناءنا من المواليد، ويُبْقُون مولوداتنا من البنات فلا يقتلونَهُنَّ، وكانوا يضطّهِدوننا، ويكلّفوننا الأعمال الشّاقة، ويعْتَبِرُونَنَا بمثابَةِ العبيد لهم. وما زالُوا بَعْدَ ما جئتَنا يُؤْذُونَنَا، فقد صَدَر القرار الْفِرْعَونيُّ بِتَقْتِيل الذكور من مواليدنا، إضافة إلى إيذائهم لنَا بالتسخير والاضطهاد.

وتتضمَّنُ هٰذه الشكْوىٰ حَثَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام على سُؤَالِ رَبّه أنْ يَرْفَعَ عَنْهُمْ ما هم يُعانونه من الأذى، وهذا المعنى يُفْهَمُ من لازِمِ عبارة الشَّكْوى.

الأذى: نَوْعٌ من الضَّرَرِ لا يَصِلُ إلى الدَّرَكَاتِ السُّفْلَىٰ منه.

فأجابهم موسى عليه السلام بما يُطْمِعُهم بأنَّ الْمَرْجُوَّ أَنْ يَتَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْهم بتحقيق أَمْرَين:

الأمر الأول: أن يُهْلِكَ عَدُوَّهُمْ.

الأَمْرُ الثاني: أن يجْعَلَهُم خُلَفَاءَ في الأرض لِقَوْمٍ هُمُ الآنَ أَهْلُ الْمُلْكِ والسُّلْطَانِ فيها.

وأَطْلَقَ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ لفظ الأرض، ولَمْ يُعَيِّن أَرْضَ مِصْرَ، لأنَّ الْخُطَّةَ تقضي بأنْ يَخْرُجَ بهم من مِصْر، ويَدخلُوا فِلَسطِينَ مقَاتِلِينَ، ليَجْعَلَهُمُ الله فيها خُلَفَاءَ مُلُوكها القائمين، ويُؤَسِّسُوا فيها الدَّوْلة الدِّينيَّة الرَّبَّانِيَّة، فهي الأرض الَّتي جعَلَها اللَّهُ مُقَدَّسة، ووعَدَ عبادَهُ المؤمنين الصّادِقِين المتَّقِين أنْ تكُونَ لهم، ما دامُوا متحقِّقينَ بشُرُوط الاستخلاف فيها، فإذا أَخَلُّوا بِشُرُوطِ الاستِخْلاَفِ نَزَعَهَا مِنهم، فقال لهم كما جاء في النّصّ:

● ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

أطمعهم موسىٰ عليه السّلام، وفتح لهم باب الرَّجاء دون جزمٍ منْهُ، بتحقُّق الأمْرين الآنِفي الذِّكر.

[عَسَىٰ] فعل غير مُتَصرّف، معناه المقارَبَةُ على سبيل الترجّيّ والتوقُّع دون جزمٍ ولا قطع.

أي: أرْجُو متوقِّعاً أَنْ يُهْلِكَ رَبُّكُمْ عَدُوَّكم فِرْعَوْنَ وآله وملأَهُ وجُنُودَهُ الكافِرِينَ، ويُخلِّصَ أرض مِصْرَ من ظُلْمِهِمْ وبَغْيِهِمْ وطُغْيَانِهِم، ويَجْعَلَها مِنْ بَعْدِهِمْ مِيراثاً لِقَوْمٍ آخَرِينَ.

ولم يجزم عليه السلام لقومه بهذا المرجوّ، مع احْتِمالِ أَنْ يكُونَ لدَيْهِ عِلْمٌ من اللَّهِ عزّ وجل به، لئلاً يَتَّكِلُوا، وتَفْسُدَ نُفُوسُهُمْ، ويَتَصرَّفُوا تَصرُّفاتٍ هَوْجاءَ حمقاء، ولِيَسْتَمِرُّوا في دائرة الابتلاَءِ بما يَكْرَهُون طَوال مُدَّةِ إمْهَالِ اللَّهِ لِعَدُوّهم.

وأرْجُو متوقّعاً أَنْ يَسْتخِلفَكُمُ اللَّهُ جلّ جلاله في الأرض، فيجعلَكُمْ في بَعْضِ الأرْضِ خُلَفَاءَ الذين هُمُ الآنَ فيها أهْلُ المُلْكِ والسُّلْطان. ويتحقَّقُ هذا بأنْ يجْعَلَهُمْ خُلَفَاءَ في الأرض الَّتِي كان قد وعَدَ بِهَا جَدَّهم إبراهيم عليه السلام وهي الأرضُ المقدَّسَةُ فِي فِلِسطين، وعلى هذا فالألف واللاّم في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ لِلْعَهْد.

ولَكِنْ لاَ يَسْتَخْلِفُكُمْ فِيها لمُجَرَّدِ تَكْرِيمكُمْ بِأَنْ يَمْنَحكُمْ إيَّاهَا لكَوْنِكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ إبراهيم الخليل، إنَّما يَسْتَخْلِفُكُمْ فيها لِيَبْلُوكُمْ في هٰذا الاستخلاف ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيُحَاسِبَكُمْ بِحَسَبِ أعْمَالِكُم.

أَتُقِيمُونَ دِينَ اللَّهِ كَمَا أَمَرَ؟ أم تُفْسِدُونَ في الأرض، وتَبْغُونَ فيها بغَيْر الحقّ، وتُكَرِّرُونَ سُنَنَ الأُمَمِ الظَّالِمَةِ الباغِيةِ من قبلِكُمْ، فإذا فَعَلْتُمْ ذٰلِكَ نَزَعَ اللَّهُ مِنْكُمْ الاستخلاَفَ، وجَعَلَ الأَرْضَ ميراثاً لِقَوْمٍ آخرِينَ، تحقيقاً لسُنَّتِهِ فِي عِبادِهِ في حياة الابتلاء.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن

مَعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

بعْد إصْدارِ فرعَونَ قرارَه باضطهاد الإسرائيليّن، الذين يُؤْمِنُون بموسَىٰ وبما جاء به عن رَبّه، وبقَتْلِ مواليدهم الذكور، حتَّىٰ لا يَكْثُرَ رِجالُهُمْ المقاتلون، قضَتْ حكمةُ الله جَلَّتْ قُدْرتُهُ وعظُمَ سلطانُه، بأنْ يأْخُذَ آلَ فِرْعَوْنَ بالبأْسَاء والضَّرَّاء، وفْقَ سُنَّتِهِ في معامَلَةِ أهْلِ الْقُرَىٰ الّذِين يُكَذِّبُون رُسُلَ رَبّهم، ويكذِّبُونَ بما جَاءُوهم به عن الله مِنْ آياتٍ إعْجَازِيَّة ذواتِ دَلاَلاَتٍ برهانيّة، وآيات مُنَزَّلاَت فيها شرائع الله وَبَيَانُ مِنْهَاجِه لعِبَادِه.

ومِنْ تَطْبيقات هٰذ السُّنَّة ما أبانه اللّهُ عزّ وجلّ بقوله:

• ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

أي: ولَقَدْ قبضنَا عَلَىٰ آلِ فِرْعَوْنَ قَبْضَةً مُوجِعَةً بالسِّنينَ الَّتي أنْزَلْنَاهَا بِهِم، وهي سَنَواتُ القَحْط والجذْبِ، ليتَذَكَّرُوا سُنَّتَنَا في عبادِنَا، فيتَضَرَّعُوا وَيَسْتَغْفِرُوا ويُراجِعُوا أنْفُسَهُمْ، فيتوبُوا إلَىٰ بَارِئهم مُؤْمِنين به وبرسوله وَبآياته.

﴿بِٱلسِّنِينَ﴾: يُقَالُ لُغةً: أصابت القومَ السَّنَة، أيْ: سَنَةُ الْقَحْط والْجَذْبِ في الزِّراعَاتِ الأرْضِيَّةِ السَّنَوِيَّةِ، ودَلَّ الجمْعُ على أنَّ مَصَائِبَ الْقَحْط والْجَذْبِ في الزّراعَاتِ الأرْضِيَّة قَدْ نَزَلَتْ بهم عِدَّة سِنِين.

ولمَّا كَانَ آلُ فِرْعَوْنَ هُمْ مُلاَّكَ معظم الأراضي الزراعية في مِصْرَ كانُوا أعظم المتضرّرِين بسَنَواتِ القحط الّتي أنْزَلَها اللّهُ في أَرْضِ مِصْر آنَئِذٍ.

• ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: أي: ونقصٍ من ثَمراتِ الأشجار المزروعَةِ فِي الجنَّاتِ والحدائق والبَسَاتِينِ الَّتِي يَمْلِكُهَا فِرْعَوْنُ وآلُه.

• ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾: أي: لأجل أَنْ نُهَيِّىءَ لهم ما يكُونُ باعِثاً لَهُمْ لِيَتَذَكَّرُوا إنْ شَاءُوا أَنْ يَتَذَكَّرُوا، مع رَغْبَتِنا في أَنْ يَتَذَكَّرُوا، والمرادُ من

التذكُّر لازِمُهُ الفِكْرِيّ، وهو الاستجابَةُ للمذكِّرَاتِ، والْعَمَلُ بِمُقْتَضَاها.

ولَكِنْ هَلْ أفَادهمْ هٰذا المذكّر، فردّ فِرْعَوْنَ وآلَهُ عن غيِّهِمْ، وجَعَلَهُمْ يُؤْمِنُونَ بموسَىٰ وبما جاء به عَنْ رَبّه؟

دَلَّ النَّصُّ علىٰ أنَّ مَوْقِفَهُمْ كَانَ كَمَا يلي:

- ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ﴾:

أي: فإذَا جاءَتِ الْبِلاَدَ المصْرِيَّةَ الْعَطَايا الرَّبَّانِيَّة الحَسَنَةُ، من النِّعَم والخيرات والخصْبِ والأرْزاقِ وإقبالٍ من الدنيا لامتحانهم بها، قالُوا: هٰذِه لَنَا، جاءَتْ مِنْ أجْلِ إكرامِنَا من آلِهَتِنا، إذْ نَحْنُ أهْلُهَا ومُسْتَحِقُّوها، لأنَّنا مُسْتَمْسِكُونَ بعقَائِدنا فيها، وَقرابيننا لها.

وإنْ تُصِبْهُمْ ولو نادراً نَوازِل رَبَّانِيَّةٌ سيّئَةٌ، مِنْ شأنِها أنْ تُذكِّرَهُمْ بِرَبِهِمْ وبواجباتهم تُجاهه، كجَدْبٍ وقَحْطٍ وأمْرَاضٍ، ونحوها، قالوا: لسْنَا المقصُودين بها، إنَّما المقْصُودُ بها مُوسَىٰ ومَنْ معه، فيطَّيَّرُونَ بِمُوسَىٰ وبِمَنْ مَعَهُ من مؤمني بني إسرائيل. ويُرَوّجُونَ في جماهير الشَّعْب المصريّ أنَّ هٰذِهِ النوازِلَ السَّيِّئَةَ إنَّما جاءَتْ بسَبَب موسَىٰ ومن معه ودعوتهم الدينيَّة، فهم المقصُودون بِها أساساً وإنْ جَاءَتْ عامَّة.

أي: إنَّ شُؤم دعْوَة موسى وهارون، وشُؤم أعْمال الذين آمَنُوا معهما من بني إسرائيل، هُو الذي جلَبَ هٰذه السَّيّئة، إذْ أغْضَبَتْ آلِهَةَ آل فرعون، فأنزلَتْ بهم هٰذِهِ النَّوازِلَ السّيّئَةَ العامّة.

لَقَدْ عَكَسُوا عَنْ قَصْدِ دلالَةَ المذكِّرات الرَّبَّانِيَّة، فجَعَلُوا مَا يجيئُهُمْ من حَسَنَات، إنَّما كان بفضل رضىٰ آلهتهم عنهم، وجَعَلُوا ما يَنْزل بهم من نَوازِلَ سيّئاتِ، إنَّما كان بسَبَب سَخطِ آلهتهم على موسَىٰ ومن معه، ودعوتهم المخالفة لعقائد آل فِرْعَوْن.

ومثْلُ هٰذِهِ التعليلات الَّتي تُقْلَبُ بها حقائقُ الأُمُورِ، تُوجَدُ دواماً لَدَىٰ الكافِرِينَ والفاسقين في كُلِّ أُمَّة، ليُبْعِدُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ تَصَوُّرَ أَنَّهم هُمُ السَّبَبُ فيما يُنْزِلُ اللَّهُ من سيِّئاتٍ يكْرَهُونها.

﴿يَطَّيَّرُوا﴾: أي: يَتَطَيَّرُوا، أدْغِمَتِ التَّاءُ بالطَّاء فصَارَتَا طَاءً مشَدَّدَة.

التَّطَيُّرُ بالشيء: هو التَّشَاؤُم منه، على تصَوُّرِ أنَّه بسَبَبِ شُؤْمِهِ وسُوئِه نَزَلَتِ السَّيِّئَةُ المكْرُوهُ نُزُولُها.

ويُسْتَعْمَلُ التَّطَيُّرُ أَيْضاً في التفاؤل، ولكنَّهُ مستَعْمَلٌ في النصّ هنا بمَعْنَىٰ التَّشَاؤم.

وجاء التعقيبُ الرَّبَّانيُّ على تَطَيُّرِهِمْ، بموسَىٰ وَمَنْ معه، بقول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

﴿أَلَآ﴾: للتَّنْبِيه. ﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حَصْرٍ، معناها النفي والاسْتِثْناء.

﴿طَٰٓئِرُهُمْ﴾: أي: عَمَلُهُمْ الَّذِي إذا عَمِلُوهُ انْطَلَقَ طائِراً فلم يَسْتَطيعوا رَدّه، وإذا طار كان عند الله علماً وتسجيلاً وحِسَاباً، فاللَّهُ هو الذي يحاسِبُ عليه ويجازي. أمّا آلِهَةُ المشركين فلا تَدْرِي عن أعمال الناس شيئاً.

وكُلُّ طائِرِ عَمَلٍ من أعمالِ الإنسان مرتَبِطٌ بعُنُقِهِ لمحاسبته ومجازاته عليه. وخُصَّ العنق لأنَّ المرتَهَنَ بحقّ كان يُغَلُّ عُنُقُهُ بغُلٍّ ويُقادُ بِهِ، حتَّىٰ يُؤَدِّيَهُ أو يُجَازَىٰ علَيْه.

أي: فَما نزل بهم هو من إجراءات الله فيهم رَغبةً في أن يَتَضَرَّعُوا له، ويَتَذَكَّرُوا سنَّتَهُ في عبادِه، ويَتَّعِظُوا بها، فيتُوبوا من شركهم وكُفْرِهم، ويُؤْمِنُوا برُسُلِ ربّهم، ويَتَّبِعُوا آيات اللَّهِ المنزَّلاَتِ إليهم.

ومن قبْلِ هؤلاء تَطَيَّرَتْ ثَمُودُ بِرَسُولهم صالح عليه السَّلام، وبمَنْ مَعَهُ

من الَّذِين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، فكَان بينهم وبَيْنَهُ الحوار الذي جاء بيانُه في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بقول الله تعالى فيها:

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: لَيْسَ أمر مَا نَزَلَ بكُمْ من بأساءَ وضرّاء من شُؤمِنَا وشُؤم دَعْوَتنا، بل هو بسبب أعْمَالِكُمْ وكُفْرِكم وشِرْكِكُمْ وتكْذِيبِكُمْ رَسُولَ رَبِّكُمْ وعَدَمِ اتباع آيات الله المنَزَّلاَتِ إليكم.

لكِنَّكُمْ عَكَسْتُمْ دَلاَلَتَها، وجَعَلْتُموها على غَيْرِ وجْهِها تَزْيفاً وتَزْويراً، فزعَمْتُم رَسُولَكُمْ ومن آمن به واتَّبَعَهُ وسَارَ مَعَهُ مَسِيرَتَهُ الإيمانيَّة الإسلاميّة، سبَباً في نزول ما نزل بكم من بأساء وضرّاء، وزعَمْتُمْ أنَّ آلِهَتَكُمْ التَّي لَيْسَ لَهَا تَأْثِيرٌ في شيءٍ، قد غَضِبَتْ من دعْوَةِ رَسُولِكُمْ فأنزَلَتْ ما نَزَلَ بكُمْ ممَّا تَكْرَهُونَ، مع أنَّ أعمالَكُمْ هي في الحقيقة سَبَبُها، لأنَّهَا عِنْدَ اللَّهِ علماً وتَسْجِيلاً وحِساباً.

وكرَّر هذا التَّشَاؤمَ من بَعْدِ عَصْرِ فِرْعَوْنَ وحاشيته المجرمين، أصحابُ الْقَرْيَة التي أرْسَلَ اللَّه لها رُسُلاً ثَلاثَةً (وذُكِرَ أنَّها أنْطَاكية) إذْ قالوا لِرُسُلِهم ما جاء بيانُهُ في سورَةِ (يسٓ/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿قَالُوٓا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: عَمَلُكُمُ الَّذِي سَبَّبَ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ما أَنْزَلَ بِكُمْ هو معَكُمْ مُلازِمٌ لَكُمْ.

وقد دلَّ علىٰ ملازمَةِ عَمَلِ الإنْسَان له قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

أَمَّا قول الله عزّ وجلّ بِشَأْن فِرْعَوْنَ وآلِهِ وأتْبَاعِهِم: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فإِنَّهُ يَدُلُّ على أن الْقَلِيلِينَ مِنهُمْ يَعْلَمُونَ بأنّ مَا نَزَل بهم ممّا يَكْرَهُونَ مِنْ سَيِّئَةٍ، هو بسبب أعمالهم الإجراميَّةِ الّتي يُعَانِدُونَ بها الحقَّ الّذِي جاء به مُوسَىٰ وهارون عليهما السَّلام، إلاّ أنَّهُمْ يكابِرُون، ويُحَاوِلُون بالتضليل وتزيينِ الأقْوَالِ الدِّعَائِيَّة تغطِيَةَ الحقّ على جماهيرهم، وهؤلاء الجماهير يُقَلِّدُونهم بتأثير ثِقَتِهِم السَّابقةِ بِهِم، ويُسَلِّمُون لهم ما يَقُولون ثُمَّ يُرَدِّدُونَ أقوالهم تَرْدِيداً ببغاويًّا، فلا ينفردون عنهم بقول يعلنونه، ولا يخالفونهم في رأي.

وهؤلاء القليلون هُمُ الملأ من حول فرعون وأهل مشورته الّذين إذا قالوا قولاً تبعهم فيه الجماهير فقالُوا مِثْلَ مقالتهم، ولا بُدّ أن يكون هؤلاء هُمُ الَّذِينَ وجّهُوا لموسَىٰ عليه السَّلاَمُ المقولَة الّتي دَلَّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ في الآية التَّالِية من سورة (الأعراف):

- ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

هذه المقولة منهم لموسَىٰ، تَدُلُّ على اعْترافِهِمْ بأنَّ الأحْدَاثَ الّتي تَجْرِي في مصر، هي من الآيات الّتي يُؤَيِّدُ اللَّهُ بها رَسُولَهُ مُوسَىٰ عليه السلام، وعلى أنّهم لا يَسْتَطِيعُون معارضَتَها أوْ إيقافها، مَا لَمْ يَرْجعوا إليه ويَطْلُبُوا مِنْهُ أَنْ يَرْفَعَها إلٰهُهُ عنهُم.

وتَدُلُّ أيضاً على أنّهم مسْتيْقِنُون في أنفُسِهِم أنّها آياتٌ بيّناتٌ كَافِيَاتٌ لأنْ يُؤْمِنُوا بمُوسَىٰ نبيًّا ورسُولاً، ولأنْ يُسْلِمُوا لِلَّهِ ويَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إليهم مِنْ رَبّهم، إلاَّ أنَّهُمْ أظْهَرُوا تَعَنُّتَهُمْ، واعتبروا الآيَاتِ مَظَاهِرَ لأعْمَالِهِ السِّحْرِيَّة، فقالوا له:

مَهْمَا تَأْتِنَا به من آيَةٍ مَهْما بَلَغَتْ في دَلاَلَتِها الْبُرْهَانِيَّة فَنَحْنُ لا نَعْتَبِرُهَا إلاّ عَمَلاً سِحْرِيًّا، وما نَحْنُ بمُؤْمِنِينَ بِكَ، وَلاَ بِمُسْلِمِينَ لَكَ.

وأرادوا بهذا أَنْ يَتَوَقَّفَ عن إجراء الآيات، إذْ لَنْ تَكُونَ لها فائدةٌ في إيمانهم ولاَ في إسلامهم.

لكنَّهُ لم يَنْتَهِ دَوْر إمْهالِهِمْ، ومَا زَالَتْ لَدَىٰ مُوسَىٰ عليه السَّلاَمُ آياتٌ لم يُجْرِها اللَّهُ له.

فقال الله عزّ وجلّ:

● ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾:

﴿فَأَرْسَلْنَا﴾: الإرسَالُ التوجيه لأداء مُهِمَّةٍ ما بِتُؤَدَةٍ وأناةٍ وحِكْمَة، وفيه معنى توجيه الأحداث المرْسَلَةِ حدَثاً بَعْدَ حَدَثٍ مع فواصل زمنية، كَتَوْجِيه القطعان من الإبل أو الْغَنَم قطيعاً فقطيعاً أَوْ ثُمَّ قطِيعاً.

﴿ءَايَٰتٍ﴾: أي: عَلاماتٍ كُبْرَيات ذَوات دَلاَلاتٍ مُذَكِّراتٍ بِسُنَّةِ الله في عباده المذنبين، ومُذَكِّرَاتٍ بسُلْطَانِ الْبَارِىء العظيم الّذي إذا شاء أن يَسْتَأْصِلَهُمْ أهلكهم بصيحَةٍ واحدة، إذْ هي من أحداثِ البأسَاء والضّراء لِيَتَضَرَّعُوا.

﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾: أي: مبيَّنات، ومُتَتَابِعَاتٍ مع فواصل زمَنيَّةٍ بَيْنَ كُلّ آيَةٍ وبَيْنَ الَّتي قبلَها وبَيْنَ الَّتي بَعْدها.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: أي: فاشتَدَّ في نفوسهم الكِبْرُ، فعانَدُوا دَلاَلاَتِ آياتِ اللَّهِ المذكِّرَاتِ، فَلَمْ يَتَضَرَّعُوا لِلَّهِ ولم يَتُوبُوا مِنْ كُفْرِهِمْ، ولَمْ يُؤْمِنُوا برسُولِ رَبّهم، وكبُرَ في نُفُوسِهِمْ أَنْ يُسْلِمُوا له، ويَتَّبِعُوا ما جاءهم به عن الله.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾: أي: وكانُوا في تَصَرُّفاتِهِمُ النفسيَّةِ والسُّلُوكِيَّةِ قَوْماً عُصَاة من أَخسِّ الدَّرَكَاتِ، طَوال مُدَّة ابتلائهم بأنواعٍ من البأسَاءِ والضّراء.

المجرم: في اللّغة هو المتعدّي بِذَنْبٍ كبير، واستُعْمِل لفظ «المجرمين» في القرآن وصْفاً لمستَحِقّي الخلُودِ في عذاب النار يوم الدين.

لقد كانوا في كلّ واحِدَةٍ من الآيَاتِ الّتي أرسلها الله إليهم يُعْطُونَ الْعَهْدَ لموسَىٰ عليه السّلامُ، لَئِنْ دَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنهُمْ ما أَنْزَلَ بِهِم لَيُؤْمِنُنَّ به، فإذَا دَعَا مُوسَىٰ رَبَّهُ حسبَ طلبهم، مُحَدِّداً لَهُمْ الزَمَنَ الّذِي يَرْتَفِعُ فيه الضُّرُّ النازل بهم، واستجابَ الله له عادَتْ قلوبُهم إلى قَسْوَتِها، واسْتكْبَروا ونَكَثُوا عَهْدَهُمْ.

شَرْحُ الآيَاتِ المفَصَّلات:

آيَةُ الطُّوفان: هي آيَةٌ أغْرَق اللَّهُ عزّ وجلّ بها أَرْضَهُمْ، بحُقولها ومَزَارِعها، وجَنَّاتِها وبَسَاتِينها، بمياهٍ زائدة فَاضَتْ كثيراً عن حاجَةِ الزَرْعِ والضَّرْع فَأَتْلَفَتْ وأغْرَقَتْ وجَرَفَتْ.

الطُّوفان: اسم جنس جمعيّ، واحِدُه «طوفانة» وقيل هو مصدر. صيغتُه كصيغةِ الرُّجحان والنقصان.

وقد جاء لفظ الطوفان في القرآن مَرَّتين:

الأولى: مَا جاء في هذا النصّ من سورة (الأعراف).

والأخرى: ما جاء في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) في الآية (١٤) بشأن الطُّوفان الذي أغْرَق الله به قوم نوح.

«جاء عند اليهود في الإصحاح التاسع من سِفْر الخروج. أنّ الربّ قَال لموسىٰ مدَّ يَدَكَ نحو السّماءِ ليكون بَرَدٌ في كُلّ أرْضِ مصْرَ على الناس والبهائم وعلَىٰ كلّ عُشْب الحقل في أرْض مصر. فمدَّ مُوسَىٰ عصاه نحو السَّماء فأرْسَلَ الله رَعْداً شديداً متواصلاً، وبرقاً شَدِيداً، ونَاراً وصواعق، وأمْطَرَتِ السَّمَاءُ بَرَداً على أرْض مصر لم تَشْهَدْ مِصْرُ قبْلَ ذلِكَ مثْله،

وضَرَبَ البَردُ الناسَ والبهائِمَ والزُّرُوعَ والأَشجار في كُلّ أَرْضِ مصر، باستثناء أرْضِ جَاسَانَ الَّتي كانَ يُقِيمُ فيها بَنُو إسرائيل.

فَدَعَا فِرعَوْنُ موسىٰ وهارون إليه، وسَأَلَهُما أَنْ يُصَلِّيَا لرَبّهما وَيَدْعُواهُ لِيَرْفَعَ عنهم ما نزل بهم، ووعدهما أن يستجيب لطلبهما، وحَدَّد موسَىٰ لفِرْعَونَ مَوْعِدَ رَفْعِ مَا نَزَلَ بهم».

آيَةُ الجراد: هي آيَةٌ أَنْذَرَ مُوسَىٰ عليه السّلام بها فِرْعَوْنَ وآله. فلم يَعْبَؤُوا بإنْذَارِه، فسَأَلَ مُوسَىٰ رَبَّهُ، فأرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِم جُنْدَهُ مِنَ الجراد المجلِّلِ المطْبِقِ، فكَانَ لا يَدَعُ شَيْئاً يَقْضِمُهُ بحنَكِهِ إلاّ أكله.

«جاء عند اليهود في الإصحاح العاشر من سفر الخروج: أنَّ موسَىٰ مَدَّ عَصَاهُ على أرض مصر، فجلَبَ الرَّبُّ على الأرْضِ ريحاً شَرْقِيَّةً كُلَّ ذَلِكَ النَّهَارِ وكُلَّ اللَّيْل. ولمّا كان الصَّباحُ حَمَلَتِ الرّيحُ الشرقيّة الجراد، فَصَعِدَ الجراد علىٰ كلّ أَرْضِ مِصْرَ... وغَطَّىٰ وَجْهَ كُلّ الأرض حتَّىٰ أظْلَمَتِ الأَرْضُ، وَأَكَلَ جَمِيعَ عُشْبِ الأَرْضِ، وجَمِيعَ ثَمَرِ الشَّجَرِ.

فَدَعَا فِرْعَوْنُ موسَىٰ وهَارُونَ إلَيْهِ ـ وسأَلَهُما كما سَأَلَهُما في آية الطوفان، ووعَدَهما بأن يسْتجِيب لطَلَبِهما.

فدعا مُوسَىٰ رَبَّهُ أَنْ يَرْفَعَ عن المصريين ما نَزَلَ بهم، فأرْسَلَ اللَّهُ ريحاً غَرْبِيَّةً شَدِيدَةً، فحملَتِ الجراد وطَرَحَتْهُ في بَحْرِ سُوف».

آيَةُ الْقُمّل: قيل: هو نَوعٌ من الحشرات تَأْكُلُ السَّنَابِلَ وهي غَضَّة، وهي ذاتُ رَائِحَةٍ خَبِيثَةٍ، وهي لا تأكُلُ أكْلَ الجراد، ولكن تمْتَصُّ مَا في الحبِّ مِنْ غذاء، فَتُذْهِبُ قُوَّتَهُ وخَيْرَه. وقيل: هو نوعٌ من الحشراتِ مِنْ جِنْسِ الْقِرْدَان، واحِدُهَا «قُرَادَة» واسْمُ الجنس «قُراد» وهٰذِهِ الحشَرَةُ مُتَطَفِّلَة، ذَاتُ أَرْجُلٍ كثيرةٍ تُدْخِلُهَا فِي جلْدِ الحيوان، ثمّ تمْتَصُّ مِنْ دَمِه، وهي أنواع.

«جاء عند اليهود في الاصْحَاح الثامِنِ من سِفْر الخروج، أنَّ اللَّهَ آتَىٰ مُوسَىٰ وهارونَ آيَةَ الْبَعُوض وآيَةَ الذُّباب، فأَقَضّ الْبَعُوضُ والذُّبابُ مضاجِعَ المصْرِيين، وجَرَىٰ بيْنَ فرعونَ وبين موسى وهارون نظير ما سبَقَ بيانه في آيتي الطوفان والجراد».

والقرآن ذكَرَ الْقُمَّل، ولعَلَّهُ يَشملُ كُلَّ الْحَشَرَاتِ المؤذِيات المتطفِّلاَتِ على الإنسان والحيوان، واللَّهُ أعلم.

آيَةُ الضَّفَادع: هي آيَةٌ أَنْذَرَ بِهَا مُوسَىٰ عليه السلام فِرْعَوْنَ وآلَه، مبيناً أنّ الضَّفادعَ الكثيرة جدًّا ستنغِّصُ عَلَيْهم وعَلَىٰ المصْرِيّين معيشتَهم، مُؤَكّداً دَعْوَتَهُ الإيمانية، ومطلَبَهُ بالسَّماحِ لبني إسرائيل بأن يَخْرُجُوا مَعَهُ إلَىٰ أرض غُرْبَتِهِمُ الأولى فِلِسْطين.

جاء عند اليهود في الإصحاح الثامن من سفر الخروج:

«فقال الرَّبُّ لموسىٰ قُلْ لهارُونَ مُدَّ يَدَكَ بِعَصَاكَ على الأَنْهَارِ والسَّواقي والآجام[١]. وأصْعِدِ الضَّفَادِعَ على أَرْضِ مِصْرَ، فَمَدَّ هَارُونُ يَدَهُ عَلَىٰ مِيَاهِ مِصْرَ، فَصَعِدَتِ الضَّفادِعُ وغَطَّتْ أَرْضَ مِصْر».

وجرَىٰ في هٰذه الآية نَظِيرُ مَا جَرَى في الآيَاتِ السابقات، ونَكَثَ فرعون وآله بعهودهم ووعودهم.

آية الدَّم: قيل: سلّط الله عليهم الرُّعَاف، وقيل: سال النيل عليهم دماً.

«وجاء عند اليهود في الاصحاح السابع من سفر الخروج: أنّ موسَىٰ توعَّدَ فرعَوْنَ بأن يضْرِبَ بعصَاهُ الماءَ فيتَحَولَ دَماً، ويموت السَّمَكَ الّذي في النّهر وَيُنْتِن، إذَا لَمْ يَسْتَجبِ لطَلَبه، فأبَىٰ فِرْعَوْن.

---

(١) **الآجام**: جمع أَجَمَة، وهي الشجر الكثير الملْتَفّ.

فأجرىٰ الله الآية لموسىٰ، فتحوَّلَ كُلُّ الماء الّذي في النهر دماً، ومَاتَ السَّمَكُ فِيهِ، وأنْتَنَ النَّهرُ، وكانَ الدَّمُ في كُلّ أرض مِصْر، وحفَر المصريون حوالي النهر لأجْلِ ماءٍ لِيَشْرَبُوا».

وَاسْتَكْبَرُوا أنْ يُؤْمِنُوا بموسى وهارون ويسْتَجيبوا لطلبهما، وكانُوا قَوْماً مجرمين، على الرُّغْمِ مِنْ كُلّ الآيات السّابقات اللاتّي ذكرهن الله عز وجل في الآية (١٣٣) من السورة، فَاستحقُّوا أنْ يُنزِلَ اللّهِ بِهِمْ رِجْزاً أشَدَّ عَلَيْهم من كلّ ذلِك، دلَّ على هذا:

قولُ اللّهُ عَزَّ وجلّ:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾.

[**الرِّجْزُ**]: العذاب. وأرَىٰ أنّه كان عذاباً أشَدَّ من الضَّرَّاءِ الَّتي نَزَلَتْ فيهم، بسبب الآيَات الْخَمْسِ التي سبَقَ شَرْحها، فهو آيَةٌ سادسة أشَدُّ ممّا وقَعَ عليهم قَبْلها.

● روي ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابْنِ عباس، قال:

«كُلُّ شَيْءٍ في كِتَاب اللّهِ من الرِّجز يَعْنِي بِهِ الْعَذَابَ».

أقول: ويمكن أن يكون هذا العذاب بأيِّ وسيلَة، كالطاعون، والْجُدَري وغيرهما.

● وروى مُسْلم وغَيْرُهُ مِنْ حديث أُسَامَةَ بن زيْد، وسَعْدِ بن مالك، وخزيمة بن ثَابت، قالوا: قال رسُولُ الله ﷺ.

«إنَّ هَٰذَا الطَّاعُونَ رِجْزٌ، وبقَيَّةُ عَذَابِ عُذِّبَ بِهِ أُنَاسٌ مِنْ قَبْلِكُمْ».

● ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾: يَقْتَضِي عَطْفُ هٰذِهِ الجملة بالواو تَأْسِيسَ بَيَانٍ جَدِيدٍ، غيرِ البيانِ الذي جاء في الآيَة السَّابِقَةِ، الَّتِي ذُكِرَتْ فِيها

الآيات الخمس، يُضاف إلى هذا أنَّ الآيات الْخَمس (الطوفان والجراد والْقُمَّل والضَّفَادع والدَّم) قَدْ ذَكَرَ الله عزّ وجلَّ بِشَأْنِها أَنَّهُ أَرْسَلَها. أي: وجَّهَها حَامِلَةَ رِسَالَةَ رَبَّانِيَّةَ إنذاريه، فَهِي تُؤَدِّي وَظائِفَها بِتُؤَدَةٍ وَأَنَاةٍ وَتَمَهُّل.

أَمَّا الرِّجْزُ فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ بِشَأْنه أنَّهُ وَقَعَ عَلَيْهِم، فهو بمَثَابَةِ عَصاً قَوِيَّةٍ غَلِيظَةٍ عِقَابِيَّةٍ وَتَأْدِيبيَّةٍ، وقَعَتْ ضَرْباً على رؤوسِهِمْ وظُهُورِهِمْ والأمْكِنَةِ الَّتي تَتألَّمُ مِنْ أَجْسَادِهِمْ، بِلاَ أَنَاةٍ وَلاَ تمهُّل.

وهَـٰذَا مَا أَلْـجَأَ فِرْعَوْنَ وآلَهُ ومَلأَ قَوْمِهِ أَنْ يَلْجَؤُوا إلى مُوسَىٰ عليه السلام، يَرْجُونَهُ أنْ يَدْعُوَ رَبَّهُ لِيَكْشِفَ عنهم الرِّجز، وأقْسَمُوا لَهُ وأكَّدُوا له بِأَشَدِّ عباراتِ التأكيد، أَنَّهُ إذ كَشَفَ عنهم الرِّجْزَ بِدُعائه لِرَبِّه، أنْ يُؤْمِنُوا به ويُسْلِمُوا، وَيأْذَنُوا لبني إسرائيل أنْ يَخْرُجُوا مَعَهُ من الدِّيار المصْرِيَّةِ مُتَوَجِّهِينَ إلى فِلِسْطِينَ مَكَانِ غُرْبَتِهِمْ الأُولى.

• ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ﴾: أي: بالدُّعَاءِ الّذِي عَلَّمَكَ إيَّاهُ رَبُّكَ، وأوْصَاكَ بأنْ تَدْعُوَ بِهِ عِنْدَ المِلمَّات، وخَصَّكَ بِهِ فَجَعَلَهُ عِنْدَكَ، إذَا دَعَوْتَهُ به أجابك.

يُقَالُ لُغَةً: عَهِدَ فُلاَنٌ إلى فُلاَنٍ بالأَمْر، أي: أوصَاهُ بحِفْظِهِ، **والْعَهْدُ:** كلّ ما بين الناس من مواثِيق، وكلُّ ما أمر الله به أو نهى عنه، والوصيَّةُ، والْمَوْثِق، واليَمين، والْوَفَاءُ، والْحِفَاظُ، ورِعايةُ الْحُرْمَة، والأمان.

فعبارة: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ﴾ نفهم منها من خلال المعاني اللّغويّة ما يلي: بِمَا عَهِدَ بِهِ إليكَ وأوصَاكَ بِهِ وجَعَلَهُ عِنْدَك.

وبما أَنَّ المطلوب أَنْ يَدْعُو لهم رَبَّه، فلا بُدَّ أن يكُونَ المرادُ بالذي عَهِدَ به إليه وأوصاه به، صيغَةَ دُعاءٍ خاصَّة، أو اسْماً من أسماء الله الحسْنَىٰ، أَوِ اسْمَ الله الأعظم، أو نَحْوَ ذَلِكَ، والله أعلم.

• ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾: أي: نُقْسِمُ لَكَ لَئِنْ أزَلْتَ عَنَّا بدُعائِكَ رَبَّكَ الْعَذَابَ الَّذِي وَقَعَ علينا. «اللاّمَ في ﴿لَئِنِ﴾ موطِّئَةٌ للقسم المحذوف والملاحظ ذهناً.

• ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾: أي: لَنُؤْمِنَّنَ بِكَ وَلَنُسْلِمَنَّ لَكَ. ضُمِّنُ فِعْل: «نُؤْمِن» معنى فِعْلِ «نُسْلِم» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ، فَأَغْنَتِ الجُمْلَةُ عَنْ جُمْلَتَيْن. «اللاّم في ﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾ واقعة في جواب القسم».

﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إذْ نَسْمَحُ لهم بالخروج مَعكَ إلى الأرض المقدّسة، وهذه الجملة معطوفة على جُمْلَة جواب القسم السابقة.

فَلَمَّا كَشَفَ الله عنهُمُ الرِّجزَ بِدُعاء مُوسَىٰ عليه السَّلام نَقَضُوا عَهْدَهم، وَنكثُوا أَيْمَانَهُمْ، فاسْتَحقُّوا بِحِكْمَةِ اللّهِ وَتَدْبيراتِه الإهلاكَ الشَّاملَ بالْغرق.

أصل الكَشْف رَفْعُ الغطاء الْمُجَلِّل عَن الشيء، ثم اسْتُعْمِل بمعنى الإزالة، مع ملاحظة أنّ الشيء المزَالَ قد كان من قبْلُ مُجَلِّلاً عامّاً، حسّيًا أو معْنويًا.

قال اللّهُ تعالى:

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾:

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾: أي: فَلَمَّا أَزَلْنا عَنهُمْ الْعَذَابَ الَّذِي أَوْقَعْنَاهُ عليهم، وقَضَيْنا أنْ يَكُونَ رفْعُ العذاب عَنهُمْ مُحَدَّداً بأَجَلٍ قَدَّرْنَاهُ وَقَضَيْنا به، فإذَا جَاءَ الأجَلُ واسْتَمَرُّوا علىٰ كُفْرِهِمْ وعِنَادِهم وطُغْيَانِهِمْ، فَلَنَا مَعَهُمْ أمْرٌ عِقَابِيٌّ آخر..

﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾: أي: إذَا هُمْ يُفَاجِئُونَ بِمَا لاَ يُتَوَقَّعُ من أهل الرأي والْعَقْل، وهو نكْثُ عُهُودِهِمْ وأيمانهم الَّتي أقْسَمُوها، أيْ: نَقْضُهَا وعَدَمُ الْوَفاء بها.

بعد ذَلِكَ اسْتَحَقُّوا أنْ يُغْرِقَّهُم الله إغْراقاً شاملاً، إذْ أَمَرَ اللّهُ عزّ وجلَّ مُوسَىٰ بأنْ يَخْرُجَ بني إسرائيل لَيلاً علىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه وجنُودهم من مِصْرَ، وَيتَّجِهَ بِهِمْ شَطْرَ سيناءَ.

فلَمَّا عَلِمَ فِرْعَوْنُ بأمْرِ خُرُوجهم قرّرَ اتِّبَاعَهُمْ ومُقَاتَلَتَهُمْ، واستعادة من يَبْقَىٰ مِنْهُمْ أحياءَ أسْرَىٰ، فأَرْسَلَ في المدائن مَنْ يحْشُرُ الجنود، لتكْوِينِ جَيْشٍ يُتَابِعُ بني إسرائيل لِقِتَالهم، فسَار الجيش الفرعوني مُتَابعاً بني إسرائيل بقيادة موسى وهارون، فلما تراءَىٰ الْجمعانِ قَالَ أصْحَابُ مُوسَىٰ إنَّا لَمُدْرَكُونَ، فَطَمْأَنَهُمْ مُوسَىٰ عليه السّلام، وكان الْبَحْرُ أمَامَهُمْ والْعَدُوُّ وراءهم، فأوحَىٰ اللّهُ إلَى مُوسَىٰ أَن اضْرِبْ بعَصَاكَ البحر، ففلَقَ اللّهُ الْبَحْر، ومشَىٰ بَنُو إسرائيل على اليابسة، ولَحِقَهُمْ فِرْعَوْنُ وجُنُودُه، ودَخَلُوا مكانَ فَلْقِ الْبَحْر، ولمّا انْتَهَىٰ خُرُوجُ بني إسْرائيل من مكان البحر، ضَمَّ اللّهُ عزَّ وجلَّ الماء الْمُنْفَلِقَ بعضَهُ على بَعْضٍ، فأغْرَقَ جَيْشَ الْمِصْرِيّين بِقِيَادَةِ فِرْعَون، وانْتَقَمَ اللّهُ عَزَّ وجلَّ مِنهم.

وقَدْ أوْجز اللّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف) التعبيرَ عن هذا الحدث، بقوله:

- ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦﴾.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾: أي: فَعَاقَبْنَاهُمْ عِقَاباً مُعَجَّلاً بإهْلاكِهِمْ إغراقاً فِي الْبَحْر. وكان ذلك بآيَة عظمى آتاها اللّهُ رَسُولَهُ مُوسَىٰ عليه السّلام.

﴿فِي ٱلۡيَمِّ﴾: الْيَمُّ اسم من أسماء البحر لا يُثَنَّىٰ ولا يُجْمَع، ويُطْلَقُ على النَّهر العظيم ولو كان مَاؤه عَذْباً.

﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: بِسَبَبِ تَكْذِيبهم بالآياتِ الإعجازيّة ذَوات الدّلالات البرهانية، وتكذيبهم بالآيات البيانيّة المنزلات لبيان الدِّين إيماناً وعَملاً.

﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾: أي: وكانُوا عن دلالات آياتِنَا في غَفْلَةٍ، لأنَّهُمْ كانوا مشغولين بأسْبَاب مجْدِهم وسُلْطَانِهِم واستِعْلائهم في الأرض.

وهٰذا الموجز قد جاء بعض تفصيل له في عدة سور من القرآن المجيد، ودراسَتُها دِراسةً تكامليَّةً، ضِمْنَ دراسَةِ قصَّةِ موسى وهارون، وفرعون وقومه، وبني إسرائيل، في القرآن، تحتاج في ظنّي قُرابَةَ سِفْرٍ أو سِفْرَيْن كامِلَيْن وعَسَىٰ أنْ يَقْضِيَ اللَّهُ لِي بذلك في المستقبل، واللَّهُ هو الموفّقُ والمسدِّدُ والمعين، وهو جلَّ جلاله على كلِّ شيءٍ قَدِير.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجل:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾:

في هٰذه الآية قَفْزَةٌ في البيان القرآني، إلى زَمَنِ دُخُولِ بَنِي إسرائيلَ الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ في عَهْدِ طَالُوت، وإِقَامَةِ دَوْلَةٍ رَبَّانِيَّةٍ في عَهْد طَالُوت، وعَهْدَي داوُدَ وسُلَيْمَانَ عليهما السّلام، وتحقيق الوعْدِ الّذي كَانَ وَعَدَهُ اللَّهُ تَبَارَك وتَعَالَىٰ إبراهيمَ عليه السّلام، المشْرُوطَ بإقامَةِ مَنْهَجِ اللَّهِ في الأَرْضِ، واتِّبَاعِ آياتِه المنَزَّلاَتِ عَلَىٰ رُسُله.

والحكْمَةُ البيانِيَّةُ من هٰذَا الْقَفْزِ فِي القِصَّةِ هُنَا المحافَظَةُ فِي البيان القرآنيّ على التَّقابُلِ بَيْنَ الجزاءِ بالْعقَابِ والجزاءِ بالثوابِ في المواقف، لِئَلاَّ يَطُولَ الْفَصْل لدىٰ اتِّباع التَّسَلْسُلِ التَّارِيخيّ، فَتَغْفُلَ أذهانُ المتَدَبّرين عن ملاحظَةِ أن الجزاء بالثواب والجزاء بالعقاب يَسِيران علىٰ خَطَّيْنِ مُتوازِيَيْن دَواماً، في سُنَّةِ اللَّهِ الثابِتَةِ التي يُعَامِلُ بها عبادَه.

وتأَخُّرُ زَمَنِ الجزاء بالثواب قد تقتضيه أُمورٌ من الموعُودينَ بِهِ أنفُسِهم،

كَعَدَم تحقيقَ مَا طُلِبَ مِنهُمْ مِنْ شروطٍ، ومن أمْثِلَتِهِ رفْضُ بني إسرائيل أَنْ يَدْخلوا الأرض المقدَّسَةَ مُقَاتِلِينَ بِقيادة موسىٰ وهارون عليهما السلام.

وزمن تأخُر الجزاء بالعقاب قد تقتضيه حكْمَةُ الامْهَالِ الَّذِي يقْطَعُ اللَّهُ به كُلَّ عُذْرٍ يُمْكِنُ أن يَعْتَذِر بِهِ مُسْتَحِقُّوا العقاب.

● ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ﴾: أي: مَلَّكْناهُمْ بوسِيلَةِ الميراثِ، إذْ أَهْلَكَ اللَّه الْمُلُوكَ الكَفَرَة الجبارِينَ بأيْدِيهم، فَصارَتِ الأرْضُ الَّتِي كَانَ الجبارُونَ يحكمونَها ميراثاً من اللَّهِ لِلقَوْمِ الَّذِينَ كَانُوا مُسْتَعْبَدِينَ في مِصْرَ.

﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾: أي: الَّذِينَ كَانُوا يُرَوْن ضُعَفَاءَ غَيْرَ قَادِرِينَ على المقَاومَة، فَيُذَلُّون، ويُضْطَهَدُونَ، ويُسْتَعْبَدُونَ.

﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾: أي: مَشَارِقَ أَرْضِ الشَّامِ وَمَغَارِبَهَا الَّتي بَارَكْنَا فيها، إذْ زِدْنَا فِي خيراتها الماديَّة والمعنويَّة.

المشارِقُ وَالمَغَاربُ، هي المواضِعُ التي تُشرقُ الشَّمْسُ عليها وتَغْرُبُ عنها، والمعنى: وأَورَثْنَاهُمْ كُلَّ أَرْضِ الشَّام الّتي بَارَكْنَا فيها، لأنَّهُ ما من سَطْح أَرْضٍ فيها إلاّ واقِعٌ إلى جِهَةِ شُرُوقِ الشَّمْس أوْ إلىٰ جِهَةِ غُرُوبها.

وَقَدْ حصَلَ هٰذا في عَهْدَيْ داوُدَ وابْنِهِ سُلَيْمان عَلَيْهما السَّلاَمُ.

والمعنىٰ: وأَوْرَثْنَا بني إسرائيل الّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ في مِصْرَ، على تَعَاقُبِ أَزْمَانٍ وعُهُودٍ مُتَعَدِّدَةٍ، باعْتِبَارِهِم غُرَبَاءَ عن أَهْلِهَا من القبط، إذْ كَانُوا قَدِمُوا إليها في عَهْدِ يُوسُفَ عليه السلام، الَّذِي كان ذَا حُظْوَةٍ عَظِيمَةٍ عند فِرْعَوْنِ زَمَانِهِ، في قِصَّةٍ جاء بعض تفصيلِهَا في سورة (يوسف).

فلمَّا صَارَتْ لهم أمْوالٌ وصناعات ومزارِعُ وثَرَواتٌ، انْقَلَب عليهم

الفراعِنَةُ والقِبْطُ سُكَّانُ مصر الأصْلِيُّونَ، فصاروا يضطهدونهم ويُسَخِّرُونهم في الأعمال كالْعَبيد.

• ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾

أي: وقضَىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ الذي هو ربُّكَ أيُّها المتلقِّي أيًّا كنتَ، بِكَلِمَتِهِ الْقَدرِيَّة الْحُسْنَىٰ على بني إسرائيل، أَنْ يُورِثَهُمْ الأرضَ الَّتي بارَكَ فيها، وهِيَ الْقُدْسُ وَمَا حَوْله من بلاد الشَّام، إذَا حَقَّقُوا بأنْفُسِهم شُرُوط اسْتِحْقَاقِ هذا الميراث.

فلَمَّا حقَّقُوهُ بدْءاً من عَهْدِ طَالُوت، ومُروراً بِعَهْدَيْ دَاوُد وسُلَيْمَان عليهما السَّلام، أَوْرَثَهُمُ اللَّهُ هٰذِهِ الأَرْضَ فِعلاً، وتَمَّتْ بِذَلِكَ في الواقِع التَّنفِيذي كَلِمَةُ رَبِّكَ الحسْنَىٰ علىٰ بَني إسْرَائيل.

إذْ كان من آثارِهَا مُكَافَأَةُ مَنْ أَحْسَنَ حينَئِذٍ مِنْ بَنِي إسْرَائيل، وظَهَرَ إحْسَانُهُمْ بِصَبْرِهِمْ على ما تَعَرَّضُوا له مِنْ أَذَى، دلَّ على هذا قولُ الله عزّ وجلّ في النَّصّ: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾: أي: بسبب صَبْرِهِمْ.

﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي: تَفَضُّلاً من الله على بني إسْرَائيل.

قول الله تعالى:

• ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾:

﴿وَدَمَّرْنَا﴾: التدمير، الإهلاك باستئصال، ومَحْوُ المباني وآثارِها حتَّىٰ لاَ يُرَىٰ مِنْها شيء.

وأصْلُ التدمير، تَحْطِيمُ الشيء على وجْهٍ لا يُرْجَىٰ بَعْدَهُ إصْلاحه، ويكُونُ تدمِيرُ كُلِّ شيءٍ بِحَسَبِ مَا يُلائِمُه.

﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾: أي: ما كانوا يَصْنَعُونَ مِنْ مَبَانٍ وَأَدَواتِ سَطْوٍ وتَسَلُّطٍ، ومنها عَرَبَاتُهُمْ وأَسْلِحَتُهم، فَقَدْ دمَّرَهَا اللَّهُ عزّ وجلّ في الْبَحْر.

﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾: يُقَالُ لُغَةً: عَرَشَ يَعْرِشُ وَيَعْرُشُ، أي: بَنَى بناءً من خَشَبٍ، أَوْ مِنْ حَجرٍ، أو من طينٍ، أو من آجُرٍّ، وجعَلَ لَهُ سَقْفاً من خَشَبٍ.

وَيُقَال: عَرَشَ الكَرْمَ، أي: صنَعَ له عَرْشاً أو عَرِيشاً من خَشَبٍ لتمتدَّ فروعُهُ عليه.

أمّا كيف حصل هذا التدمير لما كان يصْنَعُ فِرْعَوْنُ وقَوْمُهُ وما كانُوا يَعْرِشُونه، فلم يأتِ في القرآنِ المجيد بيان تفصِيليٌّ عَنْه.

ولعلّ الجماهير المصريَّة بَعْدَ هلاك فرعون وآله وجُنُودِهِ غَرَقاً في البحر، قد عَمِلَتْ على تَدْمِيرِ ذلِكَ بمختلف الوسائل.

وقد يسألُ سَائل: لم اعتَبَرْتَ الأَرْضَ الَّتِي أَوْرَثَها اللَّهُ بَنِي إسرائيل، هي مكان مُلْكِ داود وسليمانَ عليهما السلام من بلاد الشام؟!

والجواب: أنّ دليلي على ما ذكَرْت من وجهَيْن:

الوجه الأوّل: نظرْتُ في التاريخ لمعرفة ما هي الأَرْضُ التي أورثها الله عزّ وجلّ بَنِي إسرائيل عن سُكّانِها الأصْلِيينَ، فرأيت أنّ المؤرخين يذكرون أن بني إسرائيلَ دخَلُوا فِلسطِينَ مُنْتَصِرينَ في عَهْدِ طالوت، وأنّهم اسْتَوْلَوْا على مُلْكِ القدس ومَا حَوْلَهُ من بلاد الشّام، في عَهْدَي داود وسُلَيْمانَ عليهما السلام.

ثم انقَسَمَتْ مَمْلَكَتُهُمْ، ثُمَّ فَسَدُوا فَسَلَبَهُمُ اللَّهُ الملْكَ، وتَعَرَّضُوا لأنواعٍ من الاضطهاد والشَّتَاتِ، بِسَبَبِ ظُلْمِهِم، وفِسْقِهِمْ، وإفْسَادِهِمْ في الأرض، ونَبْذِهم اتّباع آيات اللَّهِ المنَزَّلاَتِ، وتَحْرِيفِهِمْ فيها، وافترائهم على اللَّهِ الكذِب.

الوجه الثاني: نظرت في النصوص القرآنيَّة فوجدْت أنّه قَدْ جاء فيها

بيانُ أنّ الأرض التي بارك اللّهُ فيها، هي المسجد الأقصىٰ وما حولَهُ من بلاد الشام:

(١) ففي سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) وصَفَ اللّه عزّ وجلّ المسْجِدَ الأقْصَىٰ بِأنَّهُ المسجد الذي بارك حَوْله، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ... (١)﴾.

(٢) وفي سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) أبان الله عزّ وجلّ أنَّهُ أنْجَىٰ إبراهيم ولُوطاً عليهما السلام من طُغْيان نمرود وقومه، وأوْصَلَهُ إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، وجَعَلَها مَهْجَرَهُ، وقد كان إبراهيمُ عليه السَّلام في أُورِ العراق، وبَعْدَ أن تعرَّضَ لإلقائه في النار، وتسليمه منها إذْ جعَلَها بَرْداً وسلاماً عليه، هاجَرَ مع أُسْرَتِه، وهاجَرَ مَعَهُ ابن أخيه لُوطٌ مؤمِناً به، إلى بلاد الشَّام، وأقامَا في فِلِسْطِين، فقال اللّهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١)﴾.

(٣) وفي سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) أيضاً أَبَان اللّهُ عَزَّ وجَلَّ أَنَّهُ سَخر لسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجرِي بِأمْرِهِ إلَىٰ الأرض الَّتي بَارَكَ فيها، وهِيَ أَرْضُ الشَّام، الْقُدْسُ وَمَا حولَهُ، فقال تعالَىٰ فيها:

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١)﴾.

(٤) وفي سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) في معرضِ الحديث عن أَهْلِ سَبأٍ في اليمن قال اللّهُ عزَّ وجلّ:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

والقُرَىٰ الَّتي بَارَكَ اللَّهُ فِيها هي مِنْ قُرَىٰ بِلاد الشَّامِ باتّفاقٍ.

هذا كُلُّ مَا جاء في القرآن عَنْ أَرْضٍ بَارَكَ اللَّهُ فيها، فَتَعَيَّنَ من دلالاَتِ هٰذِهِ النصوص أنّ الأرض الَّتِي أورَثَها اللَّهُ بَنِي إسرائيل، بَعْدِ إهْلاَكِ فِرْعَوْنَ وجُنُودِهِ هِيَ مِنْ بِلاَدِ الشّامِ، وكان ذَلِكَ بَدْءاً من عَهْدِ طَالوت إِلَىٰ آخِرِ عهد سليمان عليه السلام.

وبهذا الفهم تنْحَلُّ إشكَالاَتٌ سَبَبُها تَصَوُّر أَنَّهم وَرِثُوا أَرْضَ الفراعِنَةِ، مع أنّهم لم يرجِعُوا إلى مِصْرَ، ولم يَكُنْ لهم فيها سُلْطانٌ بَعْد إهْلاكِ فرعونِ مُوسىٰ وجُنُودِه.



الفقرة الثالثة

الآيات من (١٣٨ ـ ١٤١)

عبور بني إسرائيل البحر وقولهم لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

القراءات:

(١٣٨) ● قرأ حمْزَة، والكِسَائِي، وخَلَف: [يَعْكِفُونَ] بِكَسْرِ الكاف.

وقرأ باقي القرّاء العشَرَةِ: [يَعْكُفُونَ] بضَمّ الكاف.

والقراءتان وجْهَانِ عَرَبيان لنطق كلمة «يَعْكِفُون».

(١٤١) ● قرأ ابنُ عَامر: [وَإِذْ أَنجَاكُمْ] على أن الفاعل ضمير مستتر يعود على الله.

وقرأ باقي القرّاء العشرة [وَإِذْ أَنجَيْنَاكُمْ] على أن الفاعل ضمير المتكلّم العظيم.

وبَيْن القراءتَيْنِ تكامُلٌ في التعبير عن الواقع وفي التعبير عَمَّا يُرادُ توجيهه لبني إسرائيل بعد نزول القرآن، فَمُوسَىٰ قال لنبي إسرائيل: واذْكُروا إذْ أنجاكم اللَّهُ من آل فِرْعونَ... والله عزّ وجَلّ خاطَبَهُمْ بِمَا أَنزل على موسىٰ بما مَعْناه: واذْكُرُوا إِذْ أَنجَيْنَاكم مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وخاطَب كلَّ بني إسرائيل بَعْدَ نزول القرآن ليؤمِنُوا بمحمد ﷺ وبما جاء به عن رَبّه.

(١٤١) ● قرأ نافع [يقتلون] من الفعل الثلاثي.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [يُقَتِّلُونَ] من الفعل الربّاعيّ مضعَّفِ التّاء.

وبين القراءتَيْنِ تَكامُلٌ في الدَّلاَلة على الواقع، إِذْ في أوّل الأمر كانُوا يُقَتِّلُونَ بِشِدَّةٍ وعُنف، ثُمَّ بَرَدَت الحّدة شيئاً فشيئاً فصاروا يَقْتُلُون دون شِدَّة ولا عُنف.

التدّبر التحليلي:

قول اللَّهِ تعالى:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾.

﴿وَجَٰوَزْنَا﴾: فعْل: «جَاوَز» مثل فعل: «جَاز» يَتَعَدَّىٰ إلى مفعول واحد. تقول لغة: جُزْتُ الطريقَ وجاوَزْتُه، إذا سَلَكْتَهُ ومشيتَ فيه حتَّىٰ انْتَهيتَ مِنْهُ، وابْتَعَدْتَ عن آخِر جِزْءٍ مِنْه.

﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: الباء الجارَّةُ هُنَا مَعْنَاهَا المصاحَبَة.

يُحَدِّثُ الله جَلَّ جلالُهُ عن نَفْسِهِ بضمير المتكلّم العظيم، فيبيّنُ لَنَا أَنَّهُ كان مصاحِباً بَنِي إسرائيل بِقُدْرَتِهِ العظيمة الجليلة، حينَ أَمَرَهُمْ بِعُبُورِ البحر حتَّىٰ جعَلَهُمْ يُجاوِزُونَ مَكَانَ الفَلْقِ مِنَ الْبَحْرِ، ويَصِلُونَ إلى الْبَرِّ بعيداً عن ساحِلِ الْبَحْرِ.

أَسْنَد اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ إِلَىٰ نَفْسِه المجاوزة مصاحباً معَهُ بني إسرائيل بقيادة موسىٰ عليه السلام، والمراد أنّه كان يجْتَازُ مَعَهُم بعِنَايَتِهِ، ومَعُونَتِه، وحفظه لهم، مع كُلّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا كُلُّ فَرْدٍ مِنْهُمْ، هُو وَرَكَائِبُهُ وَمَاشِيتُه.

أي: وسرْنا بالعنايةِ والحفظِ والمعونة مُصَاحِبين بني إسرائيلَ الطريقَ الْيَبَسَ الَّذِي فَلَقْنَا الْبَحْرَ عَنْهُ، حَتَّىٰ قَطَعْنَاهُ، وخَرَجْنَا مِنْهُ إلىٰ الْبَرّ، وأوصَلْناهم إليه آمِنِين.

هذا التعبير البديع دلَّ على أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ، منَحَ بني إسرائيل بِقيادَةِ مُوسَى ووزيرِه هارون علَيْهما السلام، حين عُبور الطَّرِيق في البحر، شَرَفَ الْمَعِيَّةِ الرَّبَّانيَّة لهم، مُعْتَنِياً بهم، وحَافظاً ومُعِيناً لهم.

قول اللَّهِ تَعَالى:

﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ... ﴿١٣٨﴾﴾.

أي: وعَقِب أن انْتَهىٰ بنو إسرائيل من عُبُورِ الْبَحْر، واطْمَأَنُّوا عَلَىٰ الأرض خارِجَ مَكانِ الْبَحْر، وفَرِحُوا بأن اللَّهَ أَنْجَاهُمْ وأَهْلَكَ عَدُوَّهم، سارَ موسىٰ عليه السّلام قائداً لهم باتّجاه سيناء، فَلَمْ يُبْعِدُوا كثيراً في سَيْرِهم، إذْ أَتَوْا على قَوْمٍ يعكُفُونَ على أَصْنَامٍ لهم.

﴿يَعۡكُفُونَ﴾: أي: يُلازِمُونَ مُلاَزَمَة المقِيم الّذِي أعْطَىٰ كُلَّ نَفْسِه وحَواسِه لمَا هُوَ عاكِفٌ عليه.

وهٰذا الْعُكُوفُ بِسُكُونٍ ومُلازَمَةٍ وصَمْتٍ وَتَوَجُّهٍ قَلْبِيٍّ وَنَفْسِيٍّ وحِسِّي، هو لَوْنٌ من أَلْوانِ عِبَادةِ العاكِفِ للمعكُوف عليه.

﴿عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾: أي: على أَصْنَامٍ ذات صِفَاتٍ خَاصَّةٍ، فهي لَهُمْ يؤمِنُونَ بِنَفْعِ الْعُكُوفِ عليها، سواءٌ أشارَكَهُمْ في الإيمان بها غيرهم أم كانُوا مُنْفَرِدين في عبادتها.

قيل: كان هؤلاء الْقَوْمُ من الكنْعَانيين، وكانَتْ أَصْنامُهُم على صُوَرِ الْبَقَر. قال قتادة: هُمْ لَخْمٌ وجُذَام، ورُوي عن ابْنِ جُرَيجٍ قال: تماثيل بَقَرٍ مِنْ نُحَاسٍ، واللَّهُ أعلم.

فاستَثَارَ عُكُوفُ هؤلاء القَوْم على أَصْنَامٍ لهم إعجابَ جُمْهُورِ بني إسرائيل. عندئذٍ:

● ﴿.. قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ... ﴿١٣٨﴾﴾:

أي: اجْعَلْ لَنَا مَعْبُوداً واحداً نَعْكُفُ عَلَيْه، كما لهٰؤُلاء الْقَوْمِ آلِهَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ يَعْكُفُونَ عليها عابِدِين لها.

تَصَوَّرَ أصحابُ هذه المقالة من بني إسرائيل، أَنّ هؤلاء القَوْم لَمَّا كانُوا يؤمِنُونَ بأرْبَابٍ متعدِّدِين، اتَّخذُوا لَهُمْ صُوراً مِنَ الأصْنَام مُتَعَدِّدةً يَعْبُدونها، فهي آلِهَةٌ لَهُم، أي: معْبُوداتٌ يَعْبُدونَها باعتبارِهَا رُمُوزا لأرْبَابهم.

ولمّا كانَ رَبُّ موسَىٰ وَهارونَ وبني إسرائيل رَبًّا واحداً، فلْيَتَّخِذْ موسَىٰ لَهُ رَمْزاً مادِّيًّا من الحجَارَةِ أَوْ غَيْرِها، لِيكُونَ لَهُمْ إِلَهاً، أي: معْبُوداً يَعْبُدونه وهم يُشَاهِدُونه بأَعْيُنِهِم.

وهٰذِهِ أُولَىٰ الحِيَلِ الشيطانيَّةِ لإدْخالِ الشِّرْكِ باللَّهِ في النَّاسِ، وهي اتِّخاذُ الرُّمُوزِ المادّيَّة للَّهِ الرَّبِّ الخالِقِ سبحانَه وتعالىٰ.

يُضافُ إلى هذا أنَّ بني إسرائيل عَاشُوا في استِعْبَادِ المصْرِيّين الوثنيّين

لهم زمناً طويلاً، ولعَلَّ عبادة الأوثَانِ صَارَتْ مألُوفَةً لهم، وغَيْرَ مُسْتنكَرة، إنَّما المسْتَنكَرُ مِنها تَعَدُّدُها، وكوْنُها لاَ تُمَثِّلُ في نظرِهِمْ الرَّبَّ الّذي يُؤْمِنُ به أنبياؤهُمْ ورُسُلُهم، منْذُ عُهود إبراهيمَ وإسْحَاقَ ويَعْقُوب.

ولهذا رَدَّ عليهم موسَىٰ عليه السَّلاَمُ بقَوْلِهِ لهم، كما جاء في قول الله جَلَّ جلالُهُ في الآية.

﴿... قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨)﴾:

أي: إنَّكُمْ مَا زِلْتُمْ تَجْهَلُونَ حَقِيقَةَ دِين اللَّهِ لعباده، الّذي لا يَسْمَحُ بحالٍ من الأحوال أَنْ يُرْمَزَ لذاتِ اللَّهِ الرَّبِّ الخالِقِ بِجَسَدٍ مِنَ الأَجْسَادِ المحَسَّةِ الملْمُوسَة، ولا يَسْمَحُ بأنْ يُتَّخَذَ هٰذا الرَّمْزُ إلَهاً يُعْبَدُ، ولو كان المقْصُودُ مِنْ عبادتِهِ بِأيِّ لَوْن من أَلْوانِ العباداتِ عبادة اللَّهِ الرَّبِّ من خِلاَله.

فعبادة اللَّه يَجِبُ أن تكون تَوَجُّهاً لَهُ وحْدَهُ، وهو غَيْبٌ عَنَ كلّ الحواسّ، كمَا كان الإيمانُ به وبوجودِهِ بالدليلِ الفكرِيّ، وهو غيبٌ عن كُلّ الحواسّ الظاهرة والباطنة.

أمّا القبْلَةُ فهيَ المكانُ المخصَّص لتوحِيد توجُّهِ العابدينَ في الصّلوات، وتحديد مكان الطواف لدى عبادة الله به.

وأمّا المساجِدُ وبُيُوتُ اللَّهِ فَهِيَ الأمْكِنَةُ الّتِي تُخَصَّصُ لتَكُونَ مِلْكاً عامًّا يَعْبُد فيه أتْبَاعُ الدّين ربَّهُمْ بِحُرِّيَّةٍ تَامَّة، فلا يمْنَعُهُمْ عَنْها مانع.

ولتَحْذير بني إسرائيل من اتّخاذ رُمُوزٍ من التماثيلِ والصُّوَرِ يَتَوَجَّهُونَ لها بالعبادة، أنزل اللَّهُ عزّ وجلّ إليهم بياناً مُفَصَّلاً دَوَّنَهُ كُتَابُهُمْ في سِفر الخروج، خاطب الله فيه موسَىٰ عليه السّلام وهو يتضمّن خطاب كلّ شعب بني إسرائيل، فجاء في الإصحاح العشرين منه:

«٢ أَنَا الرَّبُّ إِلٰهُكَ الّذِي أَخْرَجَكَ من أَرْضِ مصْرَ من بيت العبودية ٣

لاَ يَكُنْ آلهةٌ أُخرَىٰ أَمَامِي ٤ لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنحُوتاً وَلاَ صُورَةً مَا مِمَّا في السَّمَاءِ مِنْ فَوْق وَمَا في الأرْضِ مِنْ تَحتُ وَمَا في الْمَاءِ من تَحْتِ الأَرْضِ ٥ لا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ لِأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ إِلَهٌ غَيُور...».

وبَعْدَ أَنْ قالَ موسىٰ عليه السَّلامُ ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ للّذِين قَالُوا له من قَوْمِهِ بني إسرائيل: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ أتبَعَ بَيَانَهُ فَقَالَ لَهُمْ مَا دَلَّ عليه قَوْلُ اللّهِ تعالى:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾:

﴿مُتَبَّرٌ﴾: أيْ: مُكَسَّرٌ محطَّمٌ حتَّىٰ يكُونَ فُتاتاً صغيرة هالكَةً.

التَّتْبِيرُ: في اللّغة هو التكْسِيرُ الشديد للشَّيْءِ حتَّىٰ يكون فُتَاتاً صُغْرَىٰ، فهو بمعْنَىٰ التّحطِيم والتَّفْتِيتِ والإهْلاَك.

أي: إن هؤلاَء الْقَومَ العاكِفِينَ على أصْنَام لَهُم لاَ يسْتَحِقُّ ما هُمْ فيه إلاَّ التَّكْسِيرَ والتَّحْطيم والإبادة، لأنّ اللّه عَزّ وجَلّ يَشْتَدُّ غَضَبُهُ على فاعليه.

هذا بالنسبة إلى الحالة القائمة الآن، ولو كُنَّا مَأْذونين الآن بقتالهم، لحطَّمْنَا كُلَّ أَوْثَانِهِمْ وأصْنَامِهِمْ غضباً لِلّهِ، وسَحقاً للأعْمَالِ الشركيّة.

أمَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنْ قَبْلُ مِنْ هٰذِهِ العباداتِ الشركيّة، فَقَدْ كَانَ عَمَلاً بَاطِلاً لَمْ يَنْتَفِعُوا مِنْهُ بشَيْءٍ، لأنّ أصنامهم لا تَجْلُبُ لَهُمْ نفعاً، ولاَ تَدْفَعُ عنهم ضَرّاً، ولا يُمْكِنُ أنْ تَنْفَعُهُمْ عباداتُهُمْ لَهَا بِنَافِعَة.

ولاَحظ موسَىٰ علَيْهِ السّلاَمُ احْتِمَالَ أَنْ يَقَعَ في تَصَوُّرِ بَعْضِ قَوْمِهِ وُجُودُ آلِهَةٍ تُعْبَدُ مَعَ اللّهِ، ويَكُونُ لَهَا نَفْعٌ مَا لعابديها، فقال لهم ما دَلَّ عليه قول اللّهِ عزَّ وجلّ في الآية التالية من السورة:

● ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾؟!

أَبْغِي: أي: أطْلُب، يُقالُ لُغَةً: بَغَىٰ الشيءَ إذَا طَلَبه.

﴿أَبْغِيكُمْ﴾: أي: أبغي لكم، فهو على حذفِ حرْفِ الجرّ وإيْصَالِ مَعْمولِهِ بالفعلِ مُبَاشَرَةً.

والاستفهام في الْجُمْلَةِ استفهام تَعَجُّبيٌّ إنكاريّ، أي: أغيْرَ اللَّهِ أطْلُبُ إلَهاً تَعْبُدُونه؟! إنّ هذا أَمْرٌ شَنِيعٌ مُسْتَنْكَرٌ.

﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: أي: وهو جلّ جلالُهُ فَضَّلَكُمْ بِعَقِيدَةِ التوحِيد الّتي حافَظْتُمْ عَلَيْها علىٰ الْعَالَمِينَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِكُمْ الَّذِينَ عَبَدُوا غَيْرَ اللَّهِ، واتَّخذُوا أوثاناً وأصْنَاماً وآلِهَةً يَعْبُدُونَها مِنْ دُون الله افتراءً على الحقّ، وكُفْراً باللَّهِ خالِقِهم وبَارِئِهم، وكُفْراً بِمَا أنزَل على رُسُلِهِ من آياتٍ بيانيَّة، كلَّفَهُمْ فيها أَنْ يُؤْمِنُوا به رَبًا لا شَرِيك له، ويَعْبُدُوه وَحْدَهُ إلَهاً لاَ يُشْرِكُونَ بعبادته شيئاً.

ويَحْسُنُ بهذه المناسبة أنْ أُورد حَديثاً تَضَمَّنَ أنّ بعض أصحاب الرسول محمد ﷺ طَلَبَ مِنه طَلَباً مُشَابهاً لِطَلَب بعض بني إسرائيل من موسَىٰ عليه السَّلام، فاسْتَعْظَم الرَّسُولُ ﷺ طَلَبَهُمْ، وقال: هَذَا كما قالَتْ بَنُوا إسرائيلَ لموسَىٰ اجْعَلْ لنا إلَهاً كمَا لهم آلِهَةٌ.

روى ابْنُ أبي شَيْبَةَ، وأحْمَدُ، والترمَذِيُّ وصحَّحَهُ، والنسائي، وابْنُ جَرِيرٍ، وابْنُ المنذر، وابْنُ أبي حَاتِم، والطَّبَرَاني، وأَبُو الشَّيْخ، وابْنُ مَرْدَوَيْهِ، عَنْ أبي واقدٍ اللَّيْثِيّ قال:

خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ قِبَلَ حُنَيْنٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله اجْعَلْ لَنَا هٰذِهِ السِّدْرَة ذَاتَ أنْوَاطٍ، كما لِلْكُفَّارِ ذَاتُ أنواطٍ، وكَانَ الكُفَّارُ يَنُوطُونَ[1] سِلاَحَهُمْ بِسِدْرَةٍ، ويَعْكُفُونَ حَوْلَهَا، فقال النبيُّ ﷺ:

---

(١) يَنُطُون: أي: يُعَلِّقُونَ، يُقَال لغة: نَاطَ الشَّيْءَ بالشَّيْء، ونَاطَهُ عَلَيْهِ نَوطاً، إذا علَّقَهُ به. فالنَّوط: التعليق، وذات أنواط: أي: ذاتُ تعليقات بها.

«اللَّهُ أَكْبَرُ، هٰذا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ: اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ».

❁ ❁ ❁

قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾:

تمهيد:

وفي قراءة ابْنِ عامر: ﴿وَإِذْ أَنْجَاكُمْ﴾ ويُمْكِنُ أَنْ تكونَ هذه القراءة دالَّةً على أنّ مُوسَىٰ قال لبني إسْرائيلَ مضْمُونَ مَا جاء في هذه الآية.

أمّا على قراءة جمهور القرّاء العشرة فيحمل دَلالَتَيْن:

الدلالة الأولى: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ أَنْزَلَ على مُوسىٰ عليه السَّلامُ بياناً خاطَبَ به بني إسرائيل بمعاني ما جاء في هذه الآية.

الدلالَةُ الثانية: أَنَّ اللَّهَ عَزّ وجَلَّ يخاطِبُ بني إسرائيل بَعْدَ نُزُول القرآن، خطابا يُذَكِّرُهم فيه بواجبهم تجاه رَبّهم، الّذِي سَبَق أَنْ فَضَّلَهُمْ على العالَمين، أَيَّامَ مُحَافَظَتِهِمْ على الإيمان الصحيح بالرَّبّ الخالِقِ عزّ وجلّ، وعَدَمِ الإشْراكِ به واتّباعهم ما أنزل إليهم من ربّهم من شرائع وأحكام، ويُذَكِّرُهُمْ فيه بنِعَمِهِ عليهم، إذْ أَنْجَاهُمْ من آل فرعون بآيَةٍ عظيمة خارقة، هيَ آيَةُ فَلْقِ البَحْرِ لهم، وإغراقِ فِرْعَوْنَ وآلِهِ وجُنُودِهِ الّذين تابَعُوهم لِيُدْرِكُوهُمْ، فكَانَتِ الوسِيلَةُ الّتِي أنجاهم اللَّهُ عز وجلّ بها هِيَ الفَخَّ الّذي اسْتَدْرَجَ بِهَا فِرْعَوْنَ والَّذِينَ معه ليُهْلِكَهُمْ غَرَقاً.

والغَرض من هذا التذكير تَحْذِيرُهُمْ منْ معانَدَةِ رسولِ الله محمّد ﷺ، ومن الكُفرِ بِهِ ورَفْضِ اتّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عليه من شرائع وأحكامٍ، في آياتِ

القرآن المجيد، فهم أكْثَرُ النَّاسِ معرفِةً بسُلْطَانِ اللّهِ وَجَبرُوتِه، وإمْهالِه لعبادِه الجاحِدِين، ثُمَّ بَطْشِهِ بهم، إذْ هُمْ يَتْلُونَ في كُتُبِهِمْ كيْفَ أهْلَكَ اللّهَ عزّ وجلَّ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ، انْتِصَاراً لموسَىٰ وَهَارُونَ ومَنِ اتَّبَعهما مِنْ بَنِي إسْرَائيل.

ومن أُسْلُوب اللّه جَلَّتْ حِكْمَتُه في البيانِ أنْ يُخَاطِبَ الأجْيَالَ اللاَّحِقَةَ من الأمَّة، بالتَّعْبِير الَّذِي تُخَاطَبُ به الأَجْيَالُ السَّالِفَةُ، كَأَنَّهُمْ هُمْ أَنْفُسُهُمْ، إذَا كَانَتِ الأجيالُ اللاَّحِقَةُ تَرَىٰ أنَّها امْتِدادٌ للأجْيَال السالِفَةِ في عَقَائِدِها، ومَفْهُومَاتها، وَشَرَائِعِهَا، وكُلِّ مَا لَهَا وَمَا عَلَيْها.

وقد تكرَّرَ في القرآن المجيدِ خِطَابُ أجْيَالِ بني إسرائيل بَعْدَ نُزُول القرآن، كأَنَّهُمْ هُمُ الّذِين جَرَتْ لهُمُ الأحْدَاثُ الَّتي جَرَتْ لأسْلاَفِهم، مثل ما جاء في الآيات التاليات من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ... ﴿٦١﴾﴾
- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ... ﴿٦٣﴾﴾
- ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا... ﴿٧٢﴾﴾
- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ... ﴿٨٤﴾﴾

والسَّبَبُ في هذا أنَّ بني إسرائيل اللاّحقين الذين لم يُسْلِمُوا ولَمْ يَتَّبِعُوا رسُولَ اللّه محمّداً صلى الله عليهم، قَدْ صَارَ وَلاَؤُهم لِلْقَوْمِيَّةِ الإسْرَائِيلِيَّةِ، وللحِزْبِ الإسْرائيليّ، لاَ لِلّهِ ولِرُسُلِهِ وآيَاتِه المنَزَّلاَتِ عَلَىٰ رُسُلِهِ المتَلاَحِقِينَ، حتَّىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد ﷺ، فجَعَلَهُمْ هٰذَا الْوَلاَءُ الْقَوْمِيُّ الحزْبِيُّ التَّعَصُّبِيُّ يَرْفُضُونَ مَا يَبْعَثُ اللّهُ لَهُمْ من رَسُولٍ، وَمَا يُنْزِلُ عَلَىٰ رُسُلِهِ مِنْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فيها شرائع وأحْكَامٌ. لِذَلِكَ كَانَ من الحكْمَةِ في تَوْجِيه الخِطَاب أنْ يُخَاطِبَ اللّهُ اللاَّحِقِينَ كأَنَّهُمْ هُمْ أعْيَانُ السَّابِقين.

التدبر:

قول الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾:

● ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾: أي: وضَعُوا في ذَاكِرَاتِكُمْ دَوَاماً وَقْتَ تَخْلِيصِنَا إِيَّاكُمْ. **النَّجاةُ في اللُّغَة**: الخلاص من المكروه.

وعلى أنَّ الخطابَ مُوجَّهٌ لِبَنِي إسرائيل بَعْدَ نُزُول القرآن، فالْمُرَادُ: وَإِذْ أَنْجَيْنَا أُصولَكُمْ، وَهُمْ أَجْدَادُكُمُ الَّذِينَ تُفَاخِرُونَ بِهِمْ، وتَرَوْنَ أَنَّكُمْ مَعَهُمْ كَجَسَدٍ وَاحِدٍ، فما كَانَ لهمْ من تفضيل هو لَكُمْ أيْضاً، لأنَّكُمْ أحفادُهم. فَلْيَكُنْ تَخْلِيصُ اللَّهِ لَهُمْ ذِكْرَىٰ لَكُمْ دافِعَةً لالْتِزَامِ طَاعَةِ اللَّهِ ورضوانه. واتّباع رَسُوله مُحَمَّدٍ خَاتم أنبياء الله ورُسُلِهِ.

● ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: أي: منْ فِرْعَوْنَ وآلِه الَّذِينَ كَانُوا حُكَّامَ مِصْر، والمسَيْطِرِينَ سَيْطَرَةً عظمَىٰ على كُلِّ شيءٍ فيها، مع امْتِلاكِهِمْ مُعْظَم مُقَدَّراتِ مِصْر وأمْوالِها.

● ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: أي: يُكلِّفُونكم ويُحَمِّلُونَكُمْ المشقَّات والمتاعِبَ الَّتِي فيها عذابٌ سَيِّءٌ لكم.

يقال لغة: سَامَهُ الأمْرَ، أي: كلَّفَهُ إيَّاه، وحمَّلَهُ إيَّاه. **السَّوْمُ**: تَجْشِيمُ إنْسَانٍ مَشَقَّةً، أَوْ سُوءاً أَوْ ظُلْماً.

وسُوءُ الْعَذَابِ شدِيدُهُ وشَاقُّهُ ومُؤْلِمُه، وأصْلُ الكَلام العذابُ السُّوء، فأضِيفَ الوصْفُ إلى الموصُف به، فصار التعبيرُ: ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾. وجملة: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: حالية.

● ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾: أي: يُقَتِّلُونَ مواليدَكُم مِنَ الذُّكُور، لئلاً يكْثَرَ رِجالُكُم فَيكُونُوا خَطَراً علىٰ قُوَّةِ آلِ فِرْعَوْنَ العسكريَّة.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾: أي: وَيَسْتَبْقُونَ مَواليدَكُمْ من البنَاتِ اللّواتي سيكونُ مصيرهنَّ أَنْ يَكُنَّ نِساءَ أحياءَ، فلا يَقْتُلونَهُنَّ.

يُقالُ لغة: اسْتَحْيَا الأَمِيرُ الأَسِيرَ، أي: استَبْقَاهُ حيًّا فَلَمْ يَقْتُلْهُ.

والْغَرض من استحيائِهِنَّ اسْتِعْبَادُهُنَّ، وتَكْلِيفُهُنَّ الْخَدَماتِ، وغَيْرَ ذَلِكَ، وَكَثْرَةُ النِّسَاءِ لا تُشَكِّلُ خطراً على قُوَّةِ آل فِرْعَوْنَ الْعَسْكَرِيَّة في مصر.

إطلاقُ كلمة «نِسَاء» على المواليد من البنات، هو من المجاز المرسَل، وهو من إطْلاقِ اللَّفْظِ علىٰ الشَّيْءِ باعْتِبَارِ ما سَيؤُولُ إليه، مِثْلُ قوله تَعالَىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾: أي: سَيؤُول أَمْرُهُ إلى الفناء بَعْدَ موته.

وعبارة: . . ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾. . .: بَدَلٌ من عبارة: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ وهو بَدَل بَعْضٍ مِنْ كُلّ.

● . . ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾: أي: وفي ذَلِكُمُ الَّذِي كَانَ يَجْرِي لأجْدَادِكُمْ في مِصرَ امْتِحَانٌ لَكُمْ عَظِيمٌ من رَبِّكُمْ، الَّذِي كافَأَكُمْ على الصَّبْرِ عَلَيْهِ بِأَنْ فَضَّلَكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ تِلك القُرون، وأَنْجاكُمْ بالْمُعْجِزَة الْخارِقَةِ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْكُمْ رُسُلاً وأَنْبِياء ومُلُوكاً، كما جاء بيانُه في نُصُوصٍ قُرْآنِيَّةٍ أُنْزِلَتْ بَعْدَ هذا النَّص.



الفقرة الرابعة

الآيات من (١٤٢ ـ ١٤٧)

ميعاد الميقات الأول وهو ميقات كِتَابَةِ الأَلْوَاح

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي

وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

القراءات:

(١٤٢) ● قرأ أبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقُوب: **[وَوَعَدْنا]** من الفعل الثلاثي المجرّد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[وَوَاعَدْنَا]**: على وزن «فَاعَلَ» الدَّال على المشاركة.

وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنىٰ المراد، إذْ يدُلُّ هذا الإجراء على أنّ الله عزّ وجلّ وَعَدَ مُوسىٰ أوّلاً، وبَعْدَ ذَلِكَ أكَّدَ لَهُ هذا الوَعْدَ، وأعْلَنَ مُوسَىٰ طَاعَتَهُ لِتَنفِيذِ الحضور في الميقات المحدّد، فكانت بَيْنَهُ وبَيْنَ رَبّه مُواعَدَةٌ، حُدِّدَ فيها الميقاتُ الزّمَاني والميقات المكاني، فجاءت القراءتان للدلالة على الحالتين، الوعْدِ من اللّهِ أوّلاً، والوعْدِ التأكيدي المقرون بإعلان موسى طاعته أن يحضر.

(١٤٣) ● قرأ ابن كثير، والسُّوسي، ويَعْقُوب: **[أَرْني]** بإسْكان الراء.

وقرأ الدُّورِي باخْتِلاَسِ كَسْرَةِ الراء.

وقرأ باقي القرّاء العشَرَةِ: [أَرِنِي] بِكَسْرِ الرَّاء.

وهي وجُوهٌ عَرَبيَّةٌ لنُطْقِ الكلمة.

(١٤٣) ● قرأ حمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [دَكَّاءَ].

وقرأ باقي القرّاءِ العشرةِ: [دَكّاً].

وبين القراتَيْنِ تَفَنُّنٌ في الأداء البياني:

فمعنىٰ: [دكًّا] مَدْكُوكاً، من فِعْل دَكَّ الشيْءَ دَكًّا، أي: دقَّهُ وَدَفَعَهُ، فَسَاخ الجبَلُ في الأرض، وصار مكانُهُ مُسَاوياً لَمَا حَوْلَهُ مِنَ الأرْضِ المنْبَسِطة.

ومعنىٰ: [دَكَّاءَ]: أرْض مُسْتَوية، أو كنَاقة لاَسَنَام لها، على تَشْبيه الجبَلِ بالسَّنام، وتَشْبيه الموقع بِظَهْرِ الناقة. **فالدَّكَّاءُ** في اللُّغَةِ الناقةُ الَّتي لا سَنَامَ لها. أي: صار مكان الجبَلِ كَنَاقَةٍ لاَ سَنَامَ لها، والدَّكَّاءُ في اللّغَة الأرض المستوية.

(١٤٣) ● قَرَأَ نافِعٌ، وأبو جَعْفر: [وَأَنَآ أَوَّلُ] بألفِ ذات مَدّ بعد نون «أنَا».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَأَنَ أَوَّلُ] بنُونٍ مَفْتُوحَةٍ فقط دون ألف بعدها.

والقراءتان وجْهَانِ عربيَّانِ لنُطْقِ ضَمِير المتكلم «أنَا».

(١٤٤) ● قرأ ابْنُ كثير وَأبو عَمْرو: [إِنِّيَ اصْطَفَيتُكَ] بفَتْحِ ياء المتكلّم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [إنّي اصطَفَيْتُكَ] بإسْكان ياء المتكلّم.

والقراءتان وجهان عرَبيان لنُطْقِ ياء المتكلّم.

(١٤٤) ● قرأ نَافع، وابن كثير، وأبو جَعْفر، ورَوْح: [بِرِسَالَتِي] بالإفراد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [بِرِسَالاَتِي] بالْجَمْع.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، فالإفراد لوحظ فيه مجموع الرسالة، والجمْعُ لُوحِظَ فيه ما كان ينزلُ على مُوسىٰ من رِسَالاَت آنًا فآنًا.

(١٤٦) ● قرأ ابن عامر، وحمزة: [آيَاتِي الّذِينَ] بإسْكان ياء المتكلّم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [آيَاتِيَ الَّذِينَ] بفتح ياء المتكلّم.

وهما وجهان عَرَبيان كَما سَبَقَ بيانه لنطق ياء المتكلّم.

(١٤٦) ● قَرَأَ حَمْزة، والكِسَائي، وخَلَفٌ: [الرَّشَدُ] بفَتْح الراء المَشَّددة وفتح الشين.

وقرأ باقي القرَّاء العشرة: [الرُّشْدُ] بضمّ الراء المشدّدة وإسْكان الشين.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق كلمة: «الرّشد».

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾.

● ﴿وَوَٰعَدۡنَا﴾ وفي القراءة الأخرى: [وَوَعَدْنَا] هاتان القراءتان «وَاعَدْنا» و«وَعَدْنا» جاءتا أيضاً في الآية (٥١) من سورة (البقرة)، وفي الآية (٨٠) من سورة (طَه).

الْوَعْدُ: هو الإخبار بما تَمَّ الْعَزْمُ على فعله في المستقبل، يقالُ لغة: وَعَدَهُ الْأَمْرَ، وَوَعَدَهُ بالأمْرِ، عِدَةً، وَوَعْداً، ومَوْعِداً، ومَوْعِدَةً.

ويكون الوعْدُ بالخير وبالشرّ، أمّا الْوَعِيدُ والإيعاد فهما في الشّرّ خاصّةً.

والمواعَدَةُ مُشَارَكَةٌ في الْوَعْدِ، ويكونُ فيها كُلٌّ من الطَّرَفَيْنِ وَاعِداً ومَوْعُوداً.

• ﴿مُوسَىٰ﴾: أيْ: وأن يكون بنو إسْرائيل معه أخذاً ممّا جاء في سورة (طه) وخصّ الله موسىٰ بهذا الوعد التكريميّ التشريفيّ، لِيُكَلِّمَهُ ويُنَاجِيهُ، ويَكْتُبَ له في الألواحِ الوصايا التعليميّة، في الوادي المقدّس طُوىٰ، عِنْدَ جَبَلِ الطُّور.

• ﴿ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةً﴾: يتخلَّلُها تِسْعَةٌ وعِشْرُونَ يَوْماً، رُوِي عَنِ ابن عبّاس أنّها شَهْرُ ذِي الحِجّة، أي: بَعْدَ أَحَدَ عَشَرَ شهراً إلاّ عَشَرَةَ أيامٍ مِن يوم النجاة، إذا كان هذا في السَّنَةِ نَفْسِها الّتي تَمّتْ فيها النجاة.

• ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٍ﴾: أي: وأتْمَمْنَا الثّلاثين ليْلَةً بِعشْرِ ليَالٍ أُخْرَىٰ.

﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾: روي عن ابن عبّاسٍ قولُه في هذه الآية: إنَّ مُوسَىٰ قَالَ لِقَوْمِهِ: «إنَّ رَبّي وَعَدَنِي ثَلاثِينَ ليلَةً أَنْ أَلْقَاهُ وأُخلِّفَ هارونَ فيكم، فَلَمّا فَصَلَ مُوسَىٰ إلىٰ رَبّه زَادَهُ اللّهُ عَشْراً، فَكَانَتْ فِتْنَتُهُمْ في الْعَشْرِ الّتِي زَادَهَا الله».

أي: فَكانت زيادَةُ الْعَشْرِ لِيَخْتَبِرَ اللّهُ جلّ جلالُهُ بَنِي إسرائيل، إذَا لم يَعُدْ مُوسَىٰ إليهم، عَقِبَ انْتِهَاءِ اللّيالِي الثّلاثين مباشرةً، مَاذَا يَفْعَلُون، وكَيْفَ يَتَصرَّفُونَ، وهم بقيادة هارونَ عليه السّلام نَبِيّ الله وَرَسُولِهِ، وَوَزِيرِ مُوسَىٰ من أهله.

وبإضَافَةَ اللَّيَالي الْعَشرِ إلى اللَّيَالي الثَّلاثين كَانَ الميقاتُ أَرْبَعِينَ ليْلَةً. والله يُعْطِينا بهذا البيان مِفْتَاح ضَبْطِ الحساب بالْجَمْعْ.

الميقات: هو الوقْتُ المحدَّدُ لأمْرٍ مَا، فِعلاً كان أَمْ تَرْكاً، والْمَوْعِدُ الَّذِي حُدِّدَ وَقْتٌ لَهُ بدايَةٌ وَلَهُ نِهَاية، هذا هو الميقَاتُ الزَّمَاني.

ويُطْلَقُ: «الميقاتُ» أَيْضا على المكان المخصَّص لأمْرِ ما، فِعْلاً كان أَمْ تَرْكاً، وهذا هو الميقاتُ المكاني.

• ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾:

كان مقتضىٰ الوعد لموسَىٰ ولقومِه الحضورُ جَمِيعاً إِلَىٰ جانب الطور، ولكن موسَىٰ عليه السَّلام رَغِبَ أن يَسْبِقَ قَوْمَهُ ابتغاءَ مَرْضاةِ رَبّه، فَوَلَّىٰ عليهم أخَاهُ هَارُونَ، عَلىٰ أَنْ يَسِيروا إلى جهة الطور مُتَابعين له وَسَائرينَ على أثره، وجاء في سورة (طه) أنّ الله سأَلَهُ عن سَبَب تَعَجّله، فقالَ لَهُ: ﴿هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾.

وقد دَلَّ قول موسَىٰ لأخيه، على أنَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام أصْدَرَ أَمْرَ استخلافِ لأخيه هارون، ليَتَوَلَّىٰ أُمُورَ بَنِي إِسْرَائيلَ قَائِداً رشيداً حَكِيماً، سائراً بهم على أثره، إذِ انْطَلَقَ إلىٰ لِقَاءِ رَبّه في الميقاتِ الزماني، والميقات المكانيّ، اللَّذَيْنِ واعَدَهُ اللَّهُ فيهما.

وقد اشتمل أَمْرُ الاستخلاف هذا على ثلاث موادّ:

المادّة الأولى: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾:

أي: كُنْ وَلِيَ أَمْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُدَّةَ غيابي عنهم، في رِحْلَتي للِقَاءِ رَبِّي حَسْبَ الْوَعْدِ الَّذِي وعَدَنيه.

المادة الثانية: دلَّتْ عليها عِبَارة: ﴿وَأَصْلِحْ﴾:

فعل: «أَصْلَحَ» يسْتَعْمَلُ لازماً، ويستعمل متعدّياً.

يُقال لغة: أصْلَحَ الرَّجُلُ في عَمَله، أو في أمْرِه وشأنه، أي: أَتَىٰ بِمَا هو صالحٌ نافع.

ويُقَالُ أيضاً: أَصْلَحَ الرَّجُلُ الشَّيءَ، أيْ: أزالَ فسَادَه، ويُقالُ: أصْلَح بَيْنَ الخصْمَيْن، أو أصْلَحَ ذَاتَ بَيْنِهما، أي: أزال ما بينهما من عداوة وشقاق، أو أزَالَ ما بينهما من خلاف.

ويَنْبَغِي أن يُحْمَلَ تكْلِيفُ موسَىٰ أخَاه هارون بأن يُصْلح على المعْنَيَيْن، أي: اعْمَل الأعمال الصالِحَةَ في إدَارَتِكَ وسياسَتِك لِبَني إسرائيل، إذْ تتولّىٰ قيادتَهُمْ مُدَّةَ غِيَابي، وأصْلِحْ ما يُفْسِدُ المفْسِدُونَ إنْ حَصَل شيءٌ من ذلك، بِحُسْنِ السّياسة، وبإيقَافِ انْتِشَارِ الْفَسَادِ، والأخْذِ على أيْدِي المفْسِدِين، وبإعَادَةِ الأمْرِ إلى الصَّلاحِ ما وَجَدْتَ إلى ذَلِكَ سبيلاً، ولا تَدَعِ المفسدين يعْبَثُونَ دُونَ زَجْرٍ أو عِقاب.

ومن الإصلاح الأخْذُ بالحزْمِ أحْيَاناً، والأخْذُ بالرّفق والتسامُحِ أحْيَاناً أُخْرَىٰ.

ومن الإصْلاح عِقَابُ مُسْتَحِقِّي الْعِقَاب، ومُكَافَأَةُ مُسْتَحِقِّي الثواب، وإكرامُ مستحقّي الإكرام.

إلى غير ذلك من أمُورٍ تَدْخُلُ في حُسْنِ الإدارة والسِّياسة.

المادّة الثالثة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾:

أي: وإذا كَوَّنَ المفسِدُونَ تَجمُّعاً كثيراً ضَاغِطاً، حتّىٰ صارَتْ قُوَّتُهم هي القُوَّة المسَيْطِرَة في جُمْهورِ بَنِي إسرائيل، فَلاَ تَلِنْ لهم، ولاَ تُسَايِرْهُمْ، ولا تُدَارِهِمْ، مُتَصَوِّراً أَنّ اتباعَ سَبِيلهم قد يكونُ هو الأحْكَم في السِّياسة، محافظة على وَحْدَةِ الْقَوْم، وعَدَمِ التفريق بَيْنَ صُفُوفِهِمْ.

فالأخذُ بالحزمِ في مِثلِ هذا الوضعِ هُوَ واجبُ قَائِدِ الأُمَّةِ وَوَليِّ أمرِها، أَمَّا مُدَارَاةُ المفسِدِينَ، واتّبَاعُ سبيلهم، فَهُو أمْرٌ يُفْضِي إلىٰ شرٍّ مُسْتَطِيرٍ، وعواقبَ وَخِيمةٍ، وينْتَهِي بالأمَّةِ إلى ما انْتَهتْ إِلَيْهِ الأُمَمُ قَبْلَها، فَتَسْتَحِقُّ عذابَ اللّهِ، وربّما استحقَّت الإِهلاكَ الشّامِلَ إذا تَمادَتْ في غَيِّهَا وفَسَادِهَا وإِفسَادِها.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾:

● ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾: أي: ولـمَّا جاءَ مُوسَىٰ لأجل مُقَابَلتِنَا فِي مِيقَاتِنا المكانيّ والزّمَاني، وكلَّمَهُ رَبُّه، والمعنىٰ: لمَّا حصل هٰذانِ الأمران.

يتحدَّثُ الله عزَّ وجلّ عن نَفْسِهِ بضَمِير المتكلّم العظيم، إشعاراً بقيمةِ هٰذِهِ المقابلَةِ الْجَلِيلة الَّتي كرَّمَ اللّهُ بها مُوسَىٰ فكلَّمهُ فيها تكليماً مُبَاشراً دُونَ وَاسِطَةِ رَسُولٍ من الملائكةِ يَنْقُلُ له كلام رَبّه.

وجاء في العبارة وضْعُ الاسم الظّاهِر في ﴿رَبُّهُۥ﴾ موضع الضمير، إذْ كان الظاهر أن يأتي في العبارة: «وكلَّمْنَاهُ» فَعُدِلَ عنه للدَّلالَة علىٰ أنَّ هٰذا التكليمَ يَتَعَلَّقُ بخَصَائِصِ صِفَات رُبُوبيَّة الله لعباده، التّي تَسْتَدْعي أن يَعبُدوه وحْدَهُ إلّهاً لاَ شَرِيكَ له، في حُدُودِ شرائعه وأحْكامه ووَصَاياه وبيانَاتِه الَّتِي يُنْزِلُها إليهم.

«لَمَّا»: ظرف زمانٍ بمعنى «الحين» وتختصّ بالدُّخول على الماضي،

ويكُونُ جوابُها فِعلاً ماضياً، أو جملةً اسميَّةً مقرونة بالفاء، أو بـ «إذا» الفجائية.

● ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾: أي: لمَّا حَصَلَ الأمْرَان اللَّذان سَبَقَ بيانُهما، قالَ مُوسَىٰ رَبِّ أرِني أَنْظُرْ إِلَيْكَ، هذا جواب «لَمَّا».

لَقَدْ تَجَرَّأَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بَعْدَ التَّكْلِيم الإيناسِيِّ الَّذِي كلَّمَهُ إِيَّاهُ رَبُّهُ دُونَ أَنْ يُرِيَهُ ذَاتَهُ جَلَّ جَلالُه، فَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُمَكِّنَهُ مِنْ رُؤْيَةِ ذَاتِهِ بِبَصَرِه.

أي: رَبِّ ارْفَعْ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ ذَاتِكَ الْحِجَابَ ومَكِّنِّي مِنْ رُؤْيَتِكَ أَنْظُرْ إليكَ.

فَفِعْل: «أَرِني» سأل به موسَىٰ عليه السّلامُ شيئاً يَفْعَلُه رَبُّهُ له، وهو رفْعُ الحجاب، وتَمْكِينُهُ مِنْ رُؤْيَةِ ذَاتِهِ العليَّةِ.

وفِعْل: «أَنْظُرْ» دلَّ على عمَلٍ يقُومُ بِهِ مُوسَىٰ عليه السَّلام، بمَعُونَةِ اللَّهِ له، بَعْدَ أَنْ يُحَقِّقَ اللَّهُ له مَطْلُوبه، فَهُو جَوَابُ الطَّلَب في «أَرِني».

والمعنى: رَبِّ إنْ رَفَعْتَ الحجابَ وَمَكَّنْتَنِي وأَعَنْتنِي على النظر إليكَ، فأنَا انْظُر إليك.

● ﴿...قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ... ١٤٣﴾.

دلَّتْ هذِهِ العبارة على أنَّ اللَّهَ جلَّ جلالُهُ، قَدْ أَبَان لموسَى عليه السَّلام، عَجْزَ تَكْوِينِهِ الْبَشَرِيِّ في الحيَاةِ الدُّنيا عن رؤيَة رَبِّهِ، فقال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾.

ولئَلاَّ يتصوَّرَ عليه السَّلامُ، أَنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ لَمْ يشَأْ أَنْ يمْنَحَهُ فَضلَ هذه الرُّؤيَة، مع وُجُودِ الاستعداد التكوينيّ لدَيْه الَّذِي يُؤَهِّلُهُ لرُؤية ربّه، اسْتَدرَكَ فوضَعَهُ في تَجْرِبَةٍ عَمَلِيَّة، أظْهَرَ لَهُ فيها عَجْزَهُ بحَسَبِ تكوينه

البشريّ عَنْ مُشاهَدَةِ بَعْضِ تَجلِّي اللّهِ عزّ وجَلّ لِلْجبل، وأَخْبَرَهُ أنّ الجبَلَ إنِ اسْتَقَرَّ في مَكانِهِ فَسَيكُونُ لدَىٰ موسَىٰ في المستقبل البعيد قُدْرَةٌ على رُؤْيَةِ رَبِّه في الحيَاةِ الدنيا، وسَوْف يَرَىٰ رَبَّهُ ولَوْ عِنْدَ آخِرِ حَيَاتِهِ، وهذا الوعْدُ مُعَلَّقٌ بِشَرْطِ اسْتِقْرَارِ الْجَبَلِ في مَكَانِهِ، لَكِنِ التَّجْرِبَةُ أَثْبَتَتْ أنّ الْجَبل لم يَسْتَقِرَّ في مَكانِه، وأنَّ مُوسَىٰ لَمْ يَقْوَ على رُؤْيَةِ مُنْعكِسِ التَّجَلّي الرَّبَانِيّ على الجبَلِ، إذْ صَعِقَ فَخرَّ مَغْشِيًّا عليه، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ:

● ﴿. . فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ. . . ﴿١٤٣﴾﴾:

● ﴿فَلَمَّا﴾: أي: فحِين: ﴿تَجَلَّىٰ﴾: أي: أزالَ الرَّبُّ بَعْضَ ما بَيْنَ ذَاتِهِ الْعَلِيّة الجليلَةِ وَمَا بين الجبل ـ وهو جَبَلُ الطّور ـ من حُجُب، لَمْ يَقْوَ الجبَلُ على تحمُّلِ هذا التَّجَلّي، بلْ جَعَلَهُ هذا التجلّي دَكًّا، أي: مَدْكُوكاً، مَدْفُوعاً، سائخاً في الأرض، حتَّىٰ لَمْ يَبْقَ له أثر مرتَفِعٌ عمَّا حوله من الأرض. أقيم الْمَصْدَر «دكًّا» مقام اسْمِ المفْعُول، وهذا على قراءة الجمهور.

وأمَّا على قراءة: [دَكَّاءَ] على التأنيث، فلَها في اللُّغَة معنيان:

المعنى الأوّل: جعَلَهُ أرْضاً مُستويَةً، يُقَالُ: أَرْضٌ دَكَّاءُ، أي: مُسْتَوِيَة، وجَمْعُها دَكَّاوات، كَحَمْرَاء وحَمْرَاوات، أورده المفسّرون.

المعنى الثاني: جعَلَهُ غير ذي وجودٍ ظاهر، كالنَّاقَةِ الدَّكَّاء، وهِيَ التي لاَ سَنَامَ لها، يُقَالُ لُغَةً: دَكَّ الْبَعِيرُ يَدَكُّ دَكَكاً، إِذَا ذَهَبَ سَنَامُهُ، فَهُوَ أَدَكُّ، والنَّاقَةُ دَكَّاء.

ولا بُدَّ أن نَعْلَم أنّ اللّهَ عزّ وجلَّ قَدْ أَبْقَىٰ الْحُجُبَ دُونَ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ عَنْ تَجلّيه.

روى الإمام أحمد والترمذيُّ والحاكم عن أَنَسِ بن مالِكٍ رضي اللّهُ عنه، أنّ رسول الله ﷺ قَرأ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قَالَ:

«هَكَذَا بِأُصْبَعِهِ، ووضَعَ النبيُّ ﷺ الإبْهَامَ عَلَىٰ المِفْصَل الأعْلَىٰ من الْخِنْصَرِ فَسَاخَ الْجَبَلُ» قال الترمذي: حسنٌ صحيح غريب، وقال الحاكم: حديثٌ صحيح على شرط مسلم.

أي: كان مقدارُ التجلّي قليلاً جدّاً، بمِقْدَارِ وضع الإبْهَامِ علىٰ شيءٍ ما.

● ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾: أي: وسَقَطَ مُوسَىٰ عليه السّلام بدُون تَوَقّفٍ على الأرض، من أثَرِ مُشَاهَدَتِهِ للْجَبَلِ وهو ينْدَكُّ، إذْ لَمْ يتحمّل أثَرَ انْعِكَاسِ النُّور الرَّبَّانِيّ عن الْجَبَلِ المنْدَكّ، ويظهر أنّه خرَّ في اتّجاه وجهه.

﴿صَعِقًا ﴾: أي: مَغْشِيًا عَلَيْه في حالَةِ إغْمَاءٍ، وقيل: مَيّتاً، ولعَلَّ الأوّل أرْجَح.

يُقَالُ لغة: صَعِقَ الرَّجُلُ يَصْعَقُ صَعَقاً، وصَعْقاً، وصُعَاقاً، أي: غُشِيَ علَيْه، ويأتي بمعنَىٰ هَلَك، فهو صَعِقٌ، وهي صَعِقَةٌ.

وثبَتَ في صحيحَي البخاري ومُسْلِم، عن أبي سَعِيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«لاَ تُخَيّرُونِي مِنْ بَيْنِ الأنْبِيَاءِ، فإنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يوْمَ الْقِيَامَة، فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أوّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإذَا أنَا بِمُوسَىٰ آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قوائِمِ الْعَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ».

«لاَ تُخَيّرُونِي»: أي: لا تَجْعَلُوني الأَخْيَرَ مِنْ بَيْنِ الأنبِيَاء عَلَىٰ سبيل المنافسة.

«فَإنَّ النَاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»: أي: حينَ يتجلّىٰ اللّٰهُ لَهُمْ في موقف الحساب.

وقد دَلَّ هذا الحديث على أنّ الرسول محمّداً ﷺ قد أعطىٰ لموسَىٰ

فَضلَ السَّبْقِ للإمْسَاكِ بقَائمة من قوائم العَرشِ، إمَّا لأنَّهُ يُفِيقُ من الصَّعْقَةِ قَبْله، وإمَّا لأنَّهُ لم يَصْعَقْ مُكَافَأَةً له، إذْ سَبَقَ أن ذَاق هٰذِهِ الصَّعْقَة في الدُّنيا عنْدَ جَبَلِ الطُّور.

• ﴿... فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾:

أي: فَحِينَ أَفَاقَ مُوسَىٰ عَلَيْه السَّلامُ مِنْ صَعْقَتِه، قَالَ يُخَاطِبُ رَبَّهُ، مُنَزّهاً إيّاهُ عن كُلِّ ما لا يَلِيقُ بجلالِهِ، وعظيم سُلْطانه، وعُلوّ شأنه، قائلاً: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ أي: أُنَزّهُكَ تَنْزِيهاً تامًّا عنْ كلّ مَا لاَ يَلِيقُ بك.

وقائلاً: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾: أي: رَجَعْتُ إليكَ تائباً من أَنْ أَسْأَلَكَ مِثْلَ هٰذا السُّؤَالِ الَّذِي لا يَلِيقُ بِمِثْلِي أنْ يَسْأَله.

أقول: إنَّ تَوْبَة الرُّسُل هي تَوْبَةٌ عمَّا لاَ يَحْسُنُ أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُمْ، لأنَّهم في أَعْلَىٰ دَرَجَاتِ مَرْتَبَةِ المحسنين.

وقَائِلاً: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: وأنا أوّل الْمُؤْمِنِينَ بِكَ إِيماناً بالغيب عن حواسّي الظاهرة، ولَمْ أَطْلُبْ رُؤْيَةَ ذَاتِكَ لْلإيمان بك إيماناً كامِلاً، فَأَنا أَوَّلُ المؤمنين بِكَ مِنْ قَوْمِي، وَلَوْ لَمْ أَشْهَدْ ذَاتَكَ بِعَيْنَيّ.

❁ ❁ ❁

قول اللّهِ عزّ وجلّ:

• ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾:

بعد إعلان موسى عليه السلام تنزيهه لربّه، وتوبَتَه من سؤاله ربَّه مَا لا يليق بمِثْلِه، وأنّه أَوّلُ المؤمنين:

• ﴿قَالَ﴾ اللّهُ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُه:

• ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى﴾:

نَادَى اللَّهُ مُوسَىٰ بنداء البَعيد ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ مَع كَمَالِ الْقُرْبِ، للاشْعَارِ بِبُعْدِ المسافة المعنويةِ بَيْن الرَّبِّ وبَيْنَ الْعَبْدِ، مَهْمَا قَرَّبَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ نَجِيًا، أي: مُنَاجِياً له من دون سائر الناس.

● ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: أي: إنّـي اخْـتَـرْتُـكَ، وانْـتَـقَـيْـتُـكَ، وفَضَّلْتُكَ على النَّاسِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِك، ويَحْمِلُ الاصْطِفَاءُ معنى انْتِقَاء صَفْوَةِ العباد.

جاء في هذه الجملَةِ تأكيد اصطفاء الله له وامتنانه عليه بـ «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ وجعل الخبر جملة فيها ضَمِير المتكلّم» ليسْتَحِثَّهُ اللَّهُ جلَّ جلالُهُ عَلَىٰ المطْلُوب مِنه.

● ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: أي: مُؤْثِراً وَمُفَضِّلا إِيَّاكَ عَلَىٰ جميع الناسِ من أهل زمانِك بمزيَّتَيْن:

الْمَزِيَّةُ الأُولى: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ بالجمع مُرَاعَةً لِمَا كانَ يُكلّفُهُ إِيَّاهُ آناً فآناً، حَامِلاً بِهِ رِسَالاَتٍ للناس بصُورَة مُنَجَّمَة. أَمَّا على القراءَة الأُخْرَى: [بِرِسَالَتِي] بالإفْرَاد، فَقَدْ رُعِيَ فيها عُمُومُ رِسَالَتِهِ مُنْذُ بِعْثَتِهِ حَتَّىٰ وَفَاتِه عَلَيْهِ السّلام.

المزيَّة الثَّانية: دلَّتْ عليها عبارة: [وَبِكَلامِي] أي: وبكلامي المباشِرِ لَكَ مِنْ وَرَاءِ حجابٍ، دُونَ وَسَاطَةِ رَسُولٍ من الملائكة يَنْقُلُ إِلَيْكَ كَلاَمي، والمراد مُنَاجَاتُهُ لَهُ في الأوقاتِ الّتي ناجاه فيها، أَمَّا في سائِرِ الأوقَات فَقَدْ كان جِبْرِيلُ عليه السَّلامُ هو السّفير الرَّبَّانيّ الَّذِي كان ينْقُلُ مَا يُوحِي اللَّهُ بِهِ إليه.

ونُلاحظُ في رسالة موسَىٰ الجامعة لرسالاتِ متعدّدات مُتَفَرّقَاتٍ، أنَّها امتازَتْ عن سائِرِ رسالاتِ الرُّسُلِ بعدَّة ميزات:

● أنَّها حَمَلَتْ مُهِمَّةَ مُعَالَجَةِ فِرْعَوْنَ وقَوْمِهِ من القبط.

● ومُهِمَّةَ قيادة بني إسرائيل وتَرْبِيَتِهِم ومعالجتهم بالصَّبْرِ والتثبيت، وشَحْنِ القوى، لاستخراج مَشاعِرِهم من الخنوع والرضا بالمذلَّةِ والعبوديَّة لآل فرعون، ورَبْطِهم بدين اللَّه الحق.

● ومُهِمَّةَ تَبْلِيغ دِين اللَّهِ للمصرّيين ولبني إسرائيل.

● والآيَاتِ التِّسع الَّتِي آتاه اللَّهُ إياها، وكيف يتعامل معها في معالجة المعاندين المجرمين، ذوي الجبروت والسُّلْطان، والدولة الاستبدادِيَّة الظَّالمة المستَعْبِدَة.

ومعلُومٌ أَنَّ معالجةَ فرْعَوْن وآلِه وسائر المصْرِيين، مع معالجة بني إسرائيل المنفصلين أعراقاً وأنْساباً وَعَقَائِدَ ومَفْهومات عن المصريين، والمتشابِكِينَ معهم في بيئة اجتماعيّة واحدة، والمستَعْبَدينَ لَهُم، تتطَلَّبُ خصائصَ نَفسِيَّةً عالية، وإرادَةً قويَّةً حازمة، وحِكْمَةً رفيعة في تَصْرِيف الأمور، وقدراتٍ جسَدِيَّة تتحمّل المشقات، ومُؤَهّلاتٍ إدَاريّة فَذَّة.

كلُّ هٰذِهِ الرّسالات، قد كانت ذوات ميزات تحتاج أن يَصْطَفِيَ اللَّهُ لَهَا إنْسَاناً من أولي الْعَزْم، يتمَتَّع بخصائص وميزاتٍ تُؤَهِّلُهُ لحملها.

وأُؤَكّد أنّ التميُّزَ بِبَعْضِ الْخَصَائص لا يَقْتَضِي التَّفْضِيل الْعَامَّ على جميع الرُّسل، فالاصطفاء لحمْلِ مُهِمَّاتٍ تَتَطَلَّبُ ميزاتٍ خاصَّة قَدْ يَنْفَرِدُ بِه مُصْطَفىً بعينِه، وقَدْ تُوجَدُ مهِمَّاتٌ أُخرَىٰ يصْطَفِي الله عزّ وجلّ لَهَا مصْطَفَى آخَرَ، لَهُ ميزاتٌ يَنْفَرِدُ بِها عَنْ غَيْرِهِ.

وقد أعْلَمَنَا اللَّهُ جلَّ جلالُه أنّه فَضَّلَ بَعْضَ الرُّسل على بَعْضٍ، فقال تبارك وَتعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ... ﴿٢٥٣﴾﴾.

ومع أن محمّداً ﷺ قَدْ فضَّلَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ على جَمِيع المرسَلِين، فإنّ الرّسُول لم يَسْمَح لِأُمّتِه بأَنْ يُفَاخِرُوا برسُولهم، ويُخَيِّرُوهُ على سائر الرُّسل، لمَا في هٰذِهِ المفاخَرَةِ من تنافُسٍ دافِعُهُ الأنانيّةُ في دوائر الأُمَم والشُّعُوب، والرَّغْبَةُ في الاستعلاء في الأرض، مع أنَّ الأَمْرَ يَرْجِعُ إلى فَضْلِ اللَّهِ بقضائِهِ وقَدَرِه، لا إلى المكْتَسَبَاتِ الإراديَّةِ الّتي قَدْ يُسْمَحُ فيها بالتّنَافُس.

إنّ التنافُسَ بالرُّسُلِ هو نظير التنافُسِ بالأعراق، وبالأقاليم، وبالهِبَاتِ الرَّبَّانِيّةِ الّتي لا كَسْبَ للنّاس فيها، فَنَهْيُ الرّسُول محمّد ﷺ يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ على هذا المعنىٰ.

ويَعْدَ أنْ أبان الله لموسى عليه السَّلامُ أنّهُ اصطفاه على الناسِ برِسَالاَتِه وبكلامه، قال له:

● ﴿.. فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾:

أي: فَازِعَ يا مُوسَىٰ حُقُوقَ هذا الاصطفاء، فَخُذْ ما آتيتُكَ من تعليمات، وبيانَاتٍ، وما آتيْتُكَ في الألواحِ الّتي كتَبْتُها لك بأمْري من شرائع وأحكامِ وَوَصَايَا، والمراد بأخْذِها المحافَظَةُ عليها، وتَذَكُّرها، والْعَمَلُ بما جاء فيها، وعَدَمُ إهمالها.

وكُنْ من الشّاكِرِينَ لمَا أنْعَمْنَا بِهِ عَلَيْكَ، ولمَا فَضَّلْنَاكَ بِهِ، ولِمَا اصْطَفَيْنَاكَ لَهُ.

والمعنى: وكُنْ شَاكِراً مِنَ الشَّاكِرِينَ الَّذِينَ اصطفَيْنَاهم مِن المرسَلين، وفي هذا إلْمَاحٌ لَهُ بأنْ يقتَدِيَ بالشّاكِرين من قَبْلِهِ، كإبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.

الشُّكْرُ: مُقَابَلَةُ إنعام المنعِم بما يُرْضِيه، من فِعْلٍ أو تَرْك، أوْ أيّ شيءٍ مادّيّ يَسُرُّه، وقد يشملُ القولَ الذي فيه ما يُرْضَى المنعِم، إلاّ أَنَّ بَعْضَ الْقَوْلِ يَخْتَصُّ بعنوان الحمْدِ والثناء.

إنّ زيادة المنَحِ والْعَطَايا الرُّبَّانِيّة في حياة الابتلاء، ولو كانت للمصْطَفَيْنَ الأخيار مِنَ الأنبياء والمرسَلِين، تَقْتَضي زيادة التَّكاليف، وتحميل الأعْبَاء الثقال، ولهذا كان أكْثَرُ الناس بلاءً الأنبياء علَيْهم السّلام، ثُمّ الأمثَلُ فالأمْثَل، أي: الأشبه فالأشبه.

فأكثر الأَنْبِياءِ والمرسلين بلاءً (أي: امتحاناً بالتكاليف الشَّاقة) هُمْ أَكْثَرُهُمْ اصطفاءً وتفضيلاً، وتمييزاً بالعطايا والهبات الرَّبَّانية، من خصائص النبوّة والرّسالة، لمَا تَسْتَتْبِعُ مِن تفضيل عظيمٍ يوْمَ الدِّين في موقف الحسَاب، وفي جنَّاتِ النعيم.

وهٰذِهِ إحدى السُّنَنِ الرَّبّانية الحكيمة في التفاضُلِ بين العباد، القائم على القوانين القدريَّةِ الجبْرِيَّة.

دَلَّنا على هذه المفاهيم من الآية هُنَا تَرتيب التكليف على الامتِنَان بالاصطفاء الخاص، وتدلُّ عليها أيضاً نُصوص أُخرى موزعةٌ في القرآن المجيد.

وبعدها جاء قول الله عزّ وجلّ في السورة:

● ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

يُحَدّث الله عزّ وجلّ عن نَفْسِه بضَمِير المتكلّم العظيم، أنّه كتَب لموسَىٰ في الألواح من كلّ شيءٍ مَوْعَظَةً، وكتَبَ له تفصيلاً لكلّ شيء، وكتابَةُ الله في الألواح تَتِمُّ بأمْرِ التكوين.

اللَّوْح: كُلُّ صفيحة عَرِيضَةٍ من خَشَبٍ أو عظم أو غير ذلِكَ، كصفائح الحجَارة.

جاء في سِفْر الخروج عند أهل الكتاب أنّهما كَانَا لَوْحَيْن من حجارة.

أقول: ولا يَبْعُد أنّ موسَىٰ عليه السّلام كان قد أعَدَّ اللَّوحَيْن من الحجارة، ليَكْتُبَ الله له عليهما ما كان قد وعَدَهُ، من أن يسجّل له ولقومه من الذّين مَا يأتُونَهُ وَمَا يَذَرُونه، ولهذا عرَّفَ الله في الآية الألواحَ بأداة التعريف الّتي تفيد التعيين، إذْ هي «ال» الّتي للعهد.

وجاء في سفر الخروج أيضاً أنّ اللّهَ كتب له اللّوْحَيْن بأُصْبَعِهِ علَىٰ الوجْهَيْن من كلّ لوحٍ منهما.

أقول: فتكون بذلك أربعة ألواح باعتبار وجوه الكتابة.

قال ابْنُ كثير: «ففي الصحيح أنَّ الله كتَبَ له التوراة بِيَدِهِ، وفيهَا مواعظ عن الآثام، وتفصيلٌ لكلّ ما يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ من الْحَلالِ والحرام».

• ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً﴾ أي: كَتَبَ لَهُ مَوْعظةً من كلّ شيءٍ هو من مَطْلُوبَاتِ الدّين الّذي اصطفاه لهم يومئذٍ، ويظهر أنّ المراد أنّه كَتَب له مَوعظةً من كلّ نوعٍ، أو قِسْمٍ من أقسام المواعظ، الّتي من شأنها أن تدفع المستجيب، للاستمساك بالدّين وتعليماته.

الموعظة: ما يكون به الوعْظُ من قولٍ أو فعلٍ. **والوعْظُ**: هو النُّصْحُ بالفعل أو بالتّرْك، المقرون بما يُثِيرُ الرَّغْبَة أو الرَّهْبَةَ في النفس، للانْتِفَاع بالنُّصح، واتّبَاع ما هَدَىٰ إليه فِعلاً أو تركاً.

• ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: وَتبْييناً مُفَصَّلَ الْعَناصِر بعْضَها عن بَعْض، لكُلِّ شَيْءٍ من شرائع الدّين وأحْكامه، ممّا هو مطلوبٌ منْهُمْ أن يأتُوه أو يتركوه، فالقرائن الفكرية، وقرائن السِّبَاق والسِّيَاق، تدلُّ على أنّ العموم في عبارة: ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ مُرادٌ به ما يَشْمَلُ الأحكام الدّينيّة، الّتي قَضَىٰ اللّهُ جلّ جلاله أن يُنْزِلها إليهم ويُبَيِّنَها لهم في ذلك الوقْت.

جاء في الآية تَقْدِيم: ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ على: ﴿مَّوْعِظَةً﴾ وتَأْخِيرُ: ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ عَنْ: ﴿وَتَفْصِيلًا﴾ لإحكام الْفَصْل بيْنَ القضيّتَين.

● ﴿.. فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

هذه العبارة من الآية جاءَتْ كلاماً مقْتَطَعاً من الحدَثِ إبَّانَ حُدُوثه في إبداعٍ فَنِّيّ أَلِفْنَاهُ في كثيرٍ من نُصُوص القرآن المجيد، فالكلامُ المقتَطَعُ من الحدثِ إبَّانَ حُدُوثه، والمقَدَّمُ في أثناء البيان الخبريّ بصيغَتِه الإنشَائِيّة من الإبداعات البيانيَّةِ الّتي اشتمل عليها القرآن في كثير من نُصوصه.

وقد تكون هذه العبارة مرتَّبةً على كلامٍ مطويٍّ يُمْكن إدْرَاكُ مَعْنَاهُ بالتأمّل، مثل: وهٰذِهِ الألواحُ كتَبْنَاها لك، فيها من كلِّ شيءٍ مَوعظة، وتفصيلٌ لكلّ شيء، فَخُذْها بِقوّة....

● ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾: أي: فَخُذِ الألواحَ، واحْمِلْها إلى قَوْمِكَ، وبلّغْهُمْ ما اشْتَمَلَتْ عليه، واسْتَمْسِكْ بما جاء فيها من أوامر ونواهي وتكاليف وبيانات وتعليماتٍ، بقُوَّةٍ تكافِىءُ المطلوبَ الرَّبَّانيَّ مِنْكَ فيها، بحَسَب نَوْعِ التكليف، ولاَ تأخُذْهَا بضَعْفٍ وتكاسُلٍ وتهاونٍ وقِلَّةِ مُبَالاتٍ، فالأمْرُ جِدٌّ وليس بالْهَزْل، فقد اصطفيناك وآثَرْنَاكَ بهذا الاصطفاء العظيم، لتَحْمِل رسالاتِ ربّك، وأوامِرَهُ وَنواهيَهُ بِقُوَّةٍ تُكافِىءُ المهِمَّةَ العظيمة الّتي كُلِّفْتَها.

أي: إنَّكَ لَسْتَ كآحاد النّاس حتَّى تضْعُفَ أَوْ تُقَصِّر تُجَاهَ واجبات رسالتِك، إنّك الْقُدْوَةُ والأسْوَةُ الحسنَة في قومِك، فَيجبُ أن تكون النموذَجَ الأعلى في تطبيقِ تَعْلِيمات رَبّك، ويجب أَنْ تَكُونَ الْمُسْلِمَ الأوّلَ المنفّذَ لها.

والقوَّةُ ذاتُ أنواعٍ متعدِّدة فمنها ما يلي:

(١) قوة الجسْم على تحمّل المشقاتِ الجسَدِيّة.

(٢) وقوة الإرادة في التوجُّهِ لتنفِيذِ الأُمُور الكبار وتَحَمُّلِ مصاعِبِها.

(٣) وقوة الهِمَّةِ والْعَزْمِ.

(٤) وقوّةُ الصَّبْرِ والصُّمودِ على تحمُّلِ المشقَّاتِ الماديَّةِ والمعنويَّة.

(٥) وقوة المغامَرَةِ الحكيمَةِ جهاداً في سبيل اللّهِ.

(٦) وقوة الحجَّةِ وبيان الحقّ والدّفاعِ عنه.

(٧) وقوة ضَبْطِ العواطف، وعَدَم التأثر بها والاستجابة لها، إذا كانت سائِرَة في اتّجاهِ مُعَاكِسٍ للمطْلُوب الرَّبَّانِي.

● ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾:

أي: وأمُرْ يا موسَىٰ قَوْمَكَ لِيَأْخُذُوا بأَحْسَنِ مَا كَتَبْنَا لَكَ في الألواح.

والمرادُ بالأخْذِ المحافَظَة على الأحْسَن، وَتَذَكُّرُهُ، والعمل به.

وقد يشكل على المتدبّر التَّعْبيرُ بعبارة: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ الدّالَّة علىٰ أنّ فيها حسناً، وأنّ فيها ما هو أَحْسَن، وأَنَّهم مُكَلَّفُونَ إلزاماً بأنْ يأْخُذُوا بما هو الأَحْسَنُ منها.

وقد جاء نظير هذا التعبير في القرآن المجيد بالنّسبَةِ إلى مَا جاء في القرآن نفسه.

● فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

● وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾.

فكيف نفهم أنّ بعض ما جاء في الألواح الّتي كَتَبها الله لموسَىٰ أحْسَنُ من بَعْضٍ، وأنّ بعض مَا جَاء في القرآن المجيد أحْسَنُ منْ بعض؟

أقُول: تَتَوارَدُ على أذهانِنا في الإجابة على هذا السؤال عدَّةُ احتمالات، أوْلاَها بالاعتبار أنَّ الأوامِرَ والنواهِيَ الدِّينيَّة في القرآن، وفيما كَتَب الله عزّ وجَلّ في الألواح لموسَى عَلَيْهِ السَّلامُ، قِسْمان بالنسْبَةِ إلى المطلوب فيها:

القِسْمُ الأوَّل: هو الأحْسَنُ، وقَدْ أَمَرَ اللّهُ به أَمْرَ إيجاب وإلْزَام فعلاً كانَ أمْ تركاً، فأحَبُّ الأعمال إلَىٰ الله أنْ يُطيعُوهُ فيما فرض عليهم أنْ يَفْعَلُوه، وفيما فرض عليهم أن يتركوه، فهي الأحْسَن.

القسم الثاني: هو الحَسَن، وقد أَمَرَ الله به أمْرَ نَدْبٍ وتَرْغيب، دون إيجاب وإلْزَام، فِعلاً كان أمْ تركاً.

فهذه نوافِلُ حَسَنَةٌ يَتَقَرَّبُ بها الْعَبْدُ إلى رَبّه، وفي هذا القِسْم يتَسَابقُ ويتَنَافَسُ طالِبُو المراتب العليّة عند ربّهم من الأبْرارِ والمحسنين.

وعلى هذا فَمَعْنَىٰ قول الله عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السلام: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَاۚ﴾ وأمُرْ قَوْمَكَ أَمْرَ إلزامٍ وإيجابٍ لِيَأْخُذُوا بأحْسَنِهَا، وهي الفرائض الَّتِي ألْزَمَهُمُ الله بفِعْلِها، والمحرَّمات الَّتِي ألْزَمَهُمْ بِتَرْكها.

أَمَّا الأشياءُ الحسنة الأُخْرَىٰ، فادْعُهُمْ إلى الأخْذِ بها تَرْغيباً ونَدْباً، ليتسابق المتَسَابقُونَ منهم في الخيرات على اختلاف رَغباتهم وهِمَّاتِهِم، وتطَلُّعَاتهم بشَوْقٍ إلى المراتب العليّة عند الله.

أمّا مُوسَىٰ عليه السّلام فقدكان مُكلَّفا إلْزاماً بأنْ يأخُذَ بالأحْسَنِ وبالحَسن، لأنّ اللّهَ عزّ وجلّ قال له: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: فَخُذْهَا جَمِيعاً بِقُوَّة.

● ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾: أي: سأريكم أرْضَ الشَّام، إذْ كانت يومئذٍ دار الفاسقين، فقد كان يمْلِكُها مُلُوكٌ مُتَعَدِّدُونَ كَافِرونَ فاسِقُون، وشُعُوبٌ وثنيَّةٌ فاسِقَة.

جاء في سفر الخروج أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ كشَفَها لموسى عليه السلام فأراه إيَّاها، دون أنْ يَدْخُلَها.

أَمَّا مَنْ بقي من بني إسرائيل بعد أن تاهوا في الأرض أربعين سنَة، فقد أدخلهم الله إياها فاتحين بعد أن توفَّى اللَّهُ عزّ وجلّ هارون وموسى.

وجاء التعبير بفعل: ﴿سَأُرِيكُمْ﴾ كِنَايَةً عن دُخُولهم بلاد الشّام، وانتصارهم على أهل البِلاد الفاسقين، والاستيلاء عليها بنَصْرِ اللَّهِ لهم، وتمكينهم من طَرْدِ الكفرة، ولكن فيه إشعارٌ بأنهم لَنْ يَسْتَقِرُّوا فيها طويلاً، إذْ سَتَنْزِلُ في أجيالهم عقوبة الله بسبب انحرافهم عن دين الله، وفِسْقِهِم وفسادِهم وإفسادهم في الأرض، وهذا ما حصل لهم فعلاً.

وجاء عند أهل الكتاب في الاصحاح الثالث والعشرين، من سفر الخروج، أَنَّ الله عزّ وجلّ بَشَّرَ بَنِي إسرائيل، بأنّه سَيَنْصُرهم على جميع الشعوب الذين سيقاتلونهم في الأرض الَّتي وعَدَهُمْ أَنْ يُرِيَهُمْ إيَّاها، فقد جاء فيه خطاباً لشَعْبِ إسرائيل:

«٢٧ أُرْسِلُ هَيْبَتِي أَمَامَكَ وأُزْعِجُ جَمِيعَ الشُّعُوب الَّذِينَ تَأْتِي عَلَيْهِمْ وأُعْطِيكَ جَمِيعَ أَعْدَائِكَ مُدْبِرِينَ ٢٨ وأُرْسِلُ أَمَامَكَ الزَّنَابيرَ فَتَطْرُدُ الْحِوِّيِّينَ والْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ مِنْ أَمَامِكَ».

وجاء فيه أيضاً:

«فَإِنِّي أَرْفَعُ إِلَىٰ أَيْدِيكُمْ سُكَّانَ الْأَرْضِ فَتَطْرُدُهُمْ مِنْ أَمَامِكَ ٣٢ لاَ تَقْطَعْ مَعَهُمْ وَلاَ مَعَ آلهتهم عَهْداً ٣٣ لاَ يَسْكُنُوا في أَرْضِكَ لئلاَّ يَجْعَلُوكَ تُخطِيءُ إليَّ. إِذَا عَبَدْتَ آلِهَتَهُمْ فَإِنَّهُ يَكُونُ لَكَ فَخًا».

ونحو ذلِكَ جاءَ في الإصحاح الرابع والثلاثين.

لكِنَّ أجيالَ بني إسرائيل لم يحفَظُوا وَصَايا الرَّبّ، لمَّا سَلَّطهُمْ على بلاد الشّام، فأجرىٰ فيهم سُنَّتَهُ الَّتِي أجْرَاهَا في الأمم من قَبْلِهِم، وشَتَّتَهُمْ، واسْتَذلّهمْ، وقَضَىٰ عَلَيْهم بأن يَبْعَثَ عَلَيْهِمْ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إلَىٰ يَوْمِ القيامة، مهما علَوْا في الأرض، لأنَّهم كَذَّبُوا رُسُل اللَّهِ اللاّحِقِينَ، وكَفَرُوا بما أَنْزَلَ الله من كُتُب بَعْدَ التوراةِ، إذَا لم تُوافِقْ هواهم، وَغَيَّرُوا وبَدَّلُوا في الكُتُب الّتي اعْتَرَفُوا بِها.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾:

الذي يظهر أَنَّ هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ مِنْ تَوابعَ خِطَابِ الله عزّ وجلَّ لموسىٰ عليه السّلام، في رحلة لقائه رَبَّهُ بجانب جبل الطّور كَمَا واعَدَهُ.

• ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾:

هذه العبارة تَدلُّ على سُنَّةٍ من سُنَنِ اللَّهِ الدَّائمة في عباده، وهي إحدَىٰ أنظَمةِ التكوين للنَّفسِ الإنسَانيَّة.

أي: سَأُحَوِّلُ وَأَرُدُّ عن إدْرَاكِ آياتي، أو عن الاستجابَة لِما تُوَجّه له، الّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ مُتَعَاظِمِينَ علىٰ نُظَرَائِهم من خَلْقِ اللَّهِ تَكَبُّراً بِدَوافعَ نَفْسِيَّةٍ باطِلَةٍ، لاحَقَّ فيها يُسَوِّغُ لهم أَنْ يَتَكَبَّرُوا، إذْ لَيْسَ لهم كِبرٌ حَقِيقِيٌّ يُثْبِتُونَهُ

لأنفُسِهِمْ، بل هم مُدَّعُونَ ادِّعاءً كاذباً في أقوالهم وأعْمَالِهِمْ أنَّهُمْ كُبراء، مع أنَّهُمْ صِغارٌ ضَئِيلُونَ في ذوات أنفسهم.

● ﴿عَنْ ءَايَتِيَ﴾: الآيَةُ في اللُّغَةِ العلامَةُ ذَاتُ الدَّلاَلَةِ على أمْرٍ مَا، بتكوينها وصِفَاتِها الذّاتِيّة، أو بالوضع الاصطلاحي، ومِنْهُ الكلامُ ذو الدّلاَلاَتِ الحقيقيّة والمجازيَّة.

وآياتُ الله عزّ وجلّ تنقسم إلى أربعة أنواع.

النوع الأول: الآياتُ الكلاميَّةُ المنزلَةُ على رُسُلِ الله، كآيات التوراة، وآيات الإنجيل، وآيات القرآن المجيد.

وهذا النوع يشتمل على بَيانِ الحجج والبراهين العقليّة، والأخْبَارِ عَمَّا كان أو هو كائن أو سيكون أو سوف يكون، وعلىٰ بيان مَطْلُوبِ الله من عباده في رحلة امتحانهم في ظروف الحياة الدنيا.

النوع الثاني: الآياتُ الإعجازية التي يجريها الله عزّ وجلّ لِرُسُلِهِ عجائبَ وخوارِقَ للعَادَاتِ، ليشهد الله لهم عن طريق دَلاَلَتِها أنّهم صادقون في نُبُوَّاتهم ورسالاتهم، وأنّ ما جاءُوا به مُبَلِّغِينَ إيَّاهُ عن اللّٰهِ هو من عند الله حقًّا وَصِدْقاً، كعصَا موسَىٰ عليه السلام، وآية يَدِهِ، إلى سائر الآيات التِّسْع الّتي أجراها له، وكآيَةِ إحياءِ الموْتَىٰ لِعِيسَىٰ عليه السّلام، وكآيَةِ إخراج الناقة من صَخْرَةٍ عَيَّنَها قوم النبيّ الرسُول صالح عليه السّلام، وَكالمعجزات الّتي آتاهَا الله محمّداً ﷺ، ومنها معجزة انْشِقَاق القمر.

النوع الثالث: الآيَاتُ الجزائية، وهي الآيات الّتي تَأْتي عِقَاباً للظَّالِمين على مَا كَان منهم من ظلم، أو بغي وفساد وإفساد في الأرض. والآيَاتُ الّتي تَأْتِي ثَواباً للمؤمنين الَّذِينَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وصَبَرُوا ابتغاء مرضاة الله، كالنصر الذي يحقّقُهُ الله عزّ وجل، للفئة المؤمِنَةِ القليلَةِ المجاهدة في سبيله، على الفِئَةِ الكافرة الكثيرة، المتفوقة في أعداد مُقَاتِليها وفي أَسْلِحَتِهم.

النوع الرابع: الآيات الكونيَّةُ الدّالأت على صِفَاتِ اللَّهِ الرَّبِّ خالِقِها، والمتصرِّفِ في أحداثها وَتغيّراتها، وهي كلُّ ما خَلَقَ اللَّهُ من شيءٍ في هذا الكون الفسيح، والإنسُ والجنُّ بأجْسَادِهم وأنْفُسِهِمْ جزءٌ من هٰذِهِ الآيات الجليلات.

وقد يأتي التعبير بالآيات في القرآن شاملاً لكلّ هذه الأنواع الأربعة، وقد يأتي خاصًّا أحْيَاناً بِبعضها، وقد يُعَادُ الضمير على الآيات مُراداً بها نوعٌ آخَرَ غير النوع الّذِي أُرِيدُ بها عند ذِكْرِها بالاسم الظاهر، باعتبار أن اللّفظ شامل بدلالَتِه العامَّةِ كُلَّ الأنواع، وعلى متدبّر كلام الله عزّ وجلّ أنْ يكون لمّاح الإدْرَاكِ يُعطِي كُلَّ تعبيرٍ ما يُلائِمُهُ من المعنى.

قَدْ يقول قائل: لماذَا يَصْرِفُ الله عزّ وجلّ عن إدْراكِ دَلالاتِ آياته، أو عن الاستجابة لما تُوَجَّهُ له، الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحقّ؟! أَلَيْسَ هذا من أسْبَاب الْجَبْرِ على الضَّلال؟!

والجواب: أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ نظم كَوْنَه تَنْظِيماً محكماً في أسْبَابِه ومُسَبَّبَاته، وجعل له قوانين ثابِتَةً لاَ تَتَغيّر إلاَّ إذا أَرَادَ هو تغييرَهَا لأمْر اقْتَضَتْه حِكْمَتُهُ، وهذه القوانينُ تَعْمَلُ بقضاء الله وقَدَرِه وخَلْقِه، وهٰذه القوانين ذوات مفاتيح من اهتدَىٰ إليها من ذوي الإراداتِ الحرَّةِ، وجَدَ القوانين مُسَخَّرَةً له، تُطِيعُهُ وفْقَ أنْظَمِتِها الّتي جعَلَهَا الله لها، مع أنَّها لا تَعْمَلُ إلاَّ بقضاءِ الله وقَدَرِهِ وخَلْقِهِ.

إنّ الآلَةَ الّتِي تتحرَّكُ بالطَّاقَة الكهربائية، إذا فَتَحْتَ مفْتاحَها فَدَخَلَتْ إليها الطَّاقَةُ الكَهْربائية أَخَذَتْ تَعْمَل وَفْقَ قُوَّتِها ونِظَامها، ولا تَسْتطيعُ إيقافَ حَرَكَتِها إلاَّ ضِمْنَ قَانُون إيقافها، ومن وسائل إيقافها بحَسَب قانونِها أَنْ تَفْصِلَ عَنها الكهرباء.

إنّ مَدينَةً عظيمةً تُحَرِّكُ آلاتِها وَمَعَامِلَها الكَهْربائية بِوَصْلِ الكهرباء، وتُوقِفُها بِفَصْلِه.

وصَارُوخٌ عابِرٌ لِلْقَارَّاتِ، إذَا ضَغَطَ الْقَائِمُ علىٰ أَمْرِهِ، والعالِمُ بنِظامِه علىٰ الزّرّ الخاصّ بدفْعِه ضَغْطَةً بِأُصْبَعِهِ، انْطَلَقَ ضِمْنَ قانونِه الرَّبّانِيّ وضِمْنَ نظامه، ولم يَسْتَطِعْ رَدَّهُ ولاَ إيقافَه، إلاَّ إذا اهْتَدَىٰ إلى مَفَاتيح رَدّه أو إيقافه، الَّتِي جُعِلَتْ له، ضِمْنَ قوانين الله وأنظمته العامّة.

وهَكَذَا لِكُلِّ عَمَلٍ ولِكُلّ نَتِيجَةٍ في قوانين اللّهِ وأنْظَمَتِهِ أسْبابٌ ومَفَاتيح، جعَلَهَا الله عزّ وجلّ مُسَخَّرَةً لِمَنِ اهْتَدَىٰ إليها، من ذوي الإرادات الحرّة، الَّذِينَ لَمْ يجعَلْهُمْ مجْبُورِينَ على طاعته، ولم يجعَلْهم مجْبُورِينَ علىٰ معصيَتِه، بل جعَلَهُم مخيَّرِينَ ليَبْلُوَهُمْ ويَخْتَبِرَهُمْ في ظروف الحياة الدنيا.

ومن أمْثِلَةِ المفاتيح الْعَادِيَّةِ الّتي ينْتُجُ عَنِ استعمالها باخْتِيَارِ الإنْسَان، أُمُورٌ تَحْجُبُهُ عن الخير أو الهداية، أو تجلُب لَهُ شَرّاً، ضِمْنَ أنْظِمَةِ اللّهِ وقوانينه العامّةِ في مجاري مقاديره، ما يلي:

- من أغْمَضَ عَيْنَيْهِ أَوْ جَعَلَ عليهما عِصَابَةً سَوْداءَ، فاللّهُ جلَّتْ حِكْمَتُه يَحْجُبُ عَنْهُ الرُّؤْيَة، ضِمْنَ قوانينه وأنْظِمَتِهِ الْقَدَرِيَّة.

- ومَنْ شَرِبَ بإرادتِه سُمًّا قَاتِلاً، قَتَلَهُ اللّهُ جلَّتْ حكْمَتُه، بالسُّمّ الذي شَرِبَهُ، ضِمْنَ قوانِينِه وأنظِمَتِه الْقَدَرِيَّة العامَّة.

- ومن أَلْقَى جَسَدهُ من شَاهِقٍ على أَرْضٍ بَعِيدَة صُلْبَة، فيها صُخُورٌ وقِطَعٌ من الْحَدِيدِ الجارح القاتل، فإنّ اللّهَ جلَّتْ حكْمَتُه يُحَطِّمُه ويُمَزِّقُ جَسَدَهُ، بالصُّخُور وبِقِطَعِ الحديد التي رمَىٰ ذاتَه من شاهِقٍ عليها، ضِمْنَ قوانِينِه وأنظِمَتِه الْقَدَرِيَّة العامة.

- ومن لم يُؤْمِنْ باللّهِ واليوم الآخِرِ كِبْراً أَوْ عِناداً أَوْ رَغْبَةً في الفُجور، لَمْ يُحرّك اللّه قَلْبَهُ للطاعة، ولم يَشْرَحْ صَدْرَهُ للأعمال الإسلاميّة، ولَمْ يُثِر عَاطِفَتَهُ لِفعْلِ الخير، ضِمْنَ قوانينه وأنظِمَتِه القدَرِيَّةِ الْعَامَّة.

- ومَنْ يتكبَّر في الأرْضِ بغَيْرِ الحقّ، لظُلْمِ النَّاسِ واستِعْبَادِهِمْ،

والاسْتِئثارِ الشَّرِهِ بمَتَاعِ الحياة الدنيا وزينتها، واستغلال سُلْطانِه لشهوات نفسه وأهوائها، انطَمَسَتْ أَدَواتُ الإدْراكِ فيه عن إدراك آيات الله، أو فَقَدَتْ مراكزُ اسْتِجابَتِه النفسيَّة قُدْرَتَها على الاستجابَة لما توجَّهُ له آياتُ الله، ضِمْنَ قوانين اللَّهِ وأَنْظِمَتِهِ القَدَرِيَّة العامّة.

فإذا كانت الآيات من نوع الآيات الكلاميَّة المنَزَّلَةِ على رُسُلِ الله، لم يَلْتَفِتْ إليها، ولم يَتَوجَّهْ لتَدَبُّر معانيها، وفهم دَلالاَتها، ولَئِنْ فَهِمَ معانِيها لَمْ يَسْتَجِبْ لما تُوَجِّهُ له.

وإذا كانت الآياتُ من نوع الأيات الإعجازيّة، اعْتَبَرَهَا ضَرْباً من السِّحْر الذي يمارسُه السَّحَرَة، كما حَصَلَ لِفِرْعَوْن وآله، بالنسْبَةِ إلى الآيات الّتي آتاها الله موسَىٰ عليه السلام.

وَإذَا كانت الآياتُ من نَوْعِ الآيات الجزائية، اعْتَبَرَها من قبيل التقلُّبَاتِ الكونِيَّة الطَّبِيعيَّة، أو مِنَ المصادفات الّتي هي جُزْءٌ من الْعَوارِضِ العامّةِ، الَّتِي لم تأتِ عَنْ قَصْدٍ وإرادة رَبَّانِيَّةٍ، للجزاء بالعقاب أو بالثواب.

وإذا كانت الآيات من نوع الآيات الكونية الْعُظْمَىٰ، ذواتِ الدَّلاَلاَتِ على طائفةٍ كثيرة، من صفات الله الجليلة، وأسْمَائه الحسْنَىٰ، كان غَافلاً عَنْها، غَيْرَ مُبَالٍ بها، وكانَ مَشْغُولاً بما يُهِمُّهُ من أمُور شهواتِهِ وأهوائه وَلذَّاتِه من مَتَاعِ الحياة الدنيا وزينتها وزُخْرفِها.

فقول الله عزّ وجل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ يُصْرَفُونَ عنها ضِمْنَ القانون الرَّبَّانِيّ العامّ، الَّذي يكون سببُه الإنسانُ الَّذِي اسْتَعْمَل ما سَخَّرَ اللَّهُ للناس في كونِه من مَفَاتِيح وأسْباب، فجلَبَ لِنَفْسِه باختياره الحرّ المسَبَّبات.

وبِسَبَب الانْصِرَافِ عن آياتِ الله بعامِلِ التكبُّرِ في الأرْضِ بِغَيْرِ الحقّ، تَحْدُثُ لَدَىٰ المصْرُوفين عَنْهَا عِدَّةُ ظواهِرَ ضِمْنَ قوانِينَ الله وأَنْظِمَتِهِ العامّة، وهذه الظواهر دَلَّ عَلَيْها قول الله تعالَىٰ في الآية:

• ﴿... وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا... ﴿١٤٦﴾﴾.

الظاهرة الأولى: دلّت عليها عبارة: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾:

أي: وإنْ وَجّهُوا أَبْصَارهم على سَبِيل الندرة لرُؤيَةِ كُلّ آيَةٍ من آيات اللّهِ الّتي تُرَىٰ، الإعجازية، أو التكوينيّةِ الكُبْرَىٰ، لاَ يُؤْمِنُوا بها.

أمّا الآياتُ الإعجازيَّةُ الّتي يُجْرِيها الله لرُسُلِهِ، فلا يعتَبِرُونَها آياتِ خوارق، وإنّمَا يَنْتَحِلُونَ لَهَا تَفْسِيراتٍ أخرى، كادّعاء أنّها من قبيل السّحر.

وأمّا الآيات الكونيَّةُ الكُبْرَىٰ في أنفسهم وفي السّموات والأرض، فيَعْتَبِرُونَها أشياءَ طبيعيَّةً، لاَ دَلالَةَ فيها على صفاتِ خالِقها.

الظّاهرة الثانية: دلّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾:

الرُّشْدُ والرَّشَدُ: السلوك الفكريُّ والنَّفسِيُّ والْعَمَلِيُّ والْخُلُقِي الموافق للحقّ والصّواب، أو الموافق لما هو الأفضَلُ والأحْسَنُ والأَكْثَرُ نَفعاً، والأبْعَدُ عَن الضَّرَر، وأصْلُ الرَّشَد في اللّغة أن يظْفَرَ الإنْسَانُ بما يُرِيد، وهو ضّد الخيبة.

والمعنى: وإنْ يُوجّهُوا أبْصَارَهم على سبيل النُّدْرَة لِرُؤيَةِ سبيلِ الرّشد، لاَ يَتَّخِذُوه سبيلاً لهم، لأنّ سبيل الرشد مُبَاينٌ لسُبُلِ أهوائهم وشهواتهم ونزعاتهم ونزغاتهم وتكبّرِهم في الأرض بغير الحق، واسْتِئْثارِهِمْ بمتاع الحياة الدنيا وزينتها وزُخْرفها.

الظّاهرة الثالثة: دلّت عليها عبارة: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾:

الغيّ: الضلال، والخيبة، والفساد.

والمعنى: وإن يَرَوْا ولَوْ على سبيل النُّدْرَة سبيلاً من سُبُلِ الْغَيِّ المشتَمِل على الضلال والفساد والعاقبة الوخيمة يَتَّخِذُوه سبيلاً، لأنَّه يُحَقِّقُ لهم رَغباتِ أهوائهم، وشهواتهم، ونزعاتهم، الضَّالَة البعيدة عن الحقّ، وعن صراط الله المستقيم.

هذه الظواهر الثلاث تُوجَدُ فيهم بسَبِب انْصِرافِهم عن آيات اللّهِ، الذي كانُوا هم السبب في حُدُوثه، إذْ تَكَبَّرُوا في الأرض بغير الحقّ، كما حَصَلَ لِفِرْعَوْن وآله.

• ﴿... ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾:

دلَّت هٰذه العبارة على أنَّهم لمَّا اسْتَكْبَرُوا في الأرض بغير الحقّ، كَذَّبُوا بآياتِ الله، وكانُوا عَنْ إدراكِ دَلالاتِها غافلين، فكانَ من آثار ذٰلِكَ الظَّاهرات الثلاث الّتي سَبَقَ شَرْحُها.

الغفلَة: انصرافُ الذهْنِ عن مَلاحظة الشيء ومراقَبَتِه، مع وجوده في مجال الإدْراك، أو وُجُود أدلَّته، وإمكان إدْراكه، لولا وُجُودُ الصَّارِفِ، أو السّهو الذي هو بمثابة إطباقِ الجفنَيْن على الْعَيْنَين.

يقالُ لغة: غَفَلَ عن الشيء يَغْفُلُ غُفُولاً وغَفْلَةً.

• ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾:

جاءت هذه الآية رَدّاً على سُؤَال مطويٍّ لم يُصَرَّحْ به في اللَّفْظ، لكِنَّهُ وارِدٌ ومُلاَحَظٌ ذِهْنَنا، وهو: قَدْ يَعْمَلُ الْكَافِرُونَ المكذِّبُونَ بآيَاتِ اللّهِ، والمكَذِّبُون بِيَوْم الدِّينِ، أعمالاً صالِحَةً فيها نَفْعٌ وخَيْر، وهي من جِنْسٍ أوْ نوع الأعمال الصالحة الّتِي يثيبُ اللّهُ عَلَيْها المؤمنين ثواباً جَزِيلاً يَوْمَ الدِّين

فِي جنَّاتِ النَّعِيم، أفَلاَ يُثيبُ اللَّهُ الْكَافِرِين على أعمالهم الصالحة يَوْمَ الدِّين كما يُثيبُ المؤمنِينَ؟؟

والجوابُ: هؤلاَء لم يَعْمَلُوا أعمالهم الصَّالِحَةَ ابْتِغَاء مَرْضَاةِ اللَّهِ، وطَلَباً لثواب الآخِرَة، بل عَمِلُوها لتحقيق مصالح لهم في الحياة الدنيا، ومنها ستر جرائمهم، أوْ عملوها لتجميع الأنصار والأعوان، أو لكسْب الشُّهْرَةِ والمدْحِ والثناء بين الناس، فهي بالنِّسْبَةِ إلَىٰ الآخِرَةِ أَعْمَالٌ باطِلَةٌ لاَ قِيمَةَ لها، لأنَّها غَيْرُ قَائِمةٍ على القاعِدَةِ الإيمانية، وثوابُ الآخِرَة لا يتحقَّقُ إلاّ على أسَاسٍ من القاعِدَةِ الإيمانية التي منها الإيمانُ باللَّهِ، والتَّصْدِيقُ بآيَاتِهِ، والْعَمَلُ بوصايا اللَّهِ فيها، والإيمانُ بلِقَاء اللَّهِ يَوْمَ الدِّينِ لِلحسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَحْقِيق الجزاء.

أمّا الحياةُ الدُّنْيا فَلِلَّهِ فيها سُنَنٌ حَكِيمَةٌ، فَمَنْ عَمِلَ فيها صالحاً بِقَصْدِ تَحقِيق مصالح له فيها، أجْرَىٰ اللَّهُ له من سُنَنِه ما يُحَقِّقُ لَهُ من المصالح على مقدار ما قَدَّمَ من عَمَلٍ صالح. ومَنْ عَمِلَ فيها عملاً صالحاً، بقَصْدِ أن يَنَالَ الشُّهْرَةَ والْمَدْحَ والثَّناء بين الناس، أجْرَىٰ الله له من سُنَنِهِ، مَا يُحَقِّقُ له من الشُّهْرَةِ والْمَدْحِ والثناء، على مقدار مَا قَدَّم مِنْ عَمَلٍ صالحٍ نافع، وهذا خاضع لسُنَن الأسْبَاب والمسَّبَاتِ في الدنيا.

والآية الَّتي نتدبَّرُهَا تُبيِّن، أنَّ الَّذينَ كَذَّبُوا بآيَاتِ الله، وكَذَّبُوا بِلِقَائِهِ يَوْم الدِّين، تكُونُ أعمالُهُمْ الصالِحَةُ الَّتي كانوا قد عَمِلُوها في الحياة الدنيا، بَاطلةً لا قيمَةَ لَهَا عِنْدَ اللَّهِ يَوْم الدِّين، إذْ لم تَكُنْ غايتهم نَيْلَ ثوابَ الآخرة، بَلْ نَيْلَ ثواب الدّنيا، ولَوْ كانت غايتُهُمْ نَيْلَ ثواب الآخِرَة لَحَقَّقُوا فِي أَنْفُسِهم الشَّرْطَ اللاَّزم لنواله، وهو الإيمان بآيات الله، والإيمانُ بلقاءِ رَبِّهم يوْمَ الدين، ومعلومٌ أنَّ هذا الإيمان يدفع إلى العمل الصالح ابتغاء مَرْضاة الله، والظفر بثوابه العظيم يوم الدين.

ولمّا كان الكافرون مُكذّبين بآيات الله، ومُكذّبين بلقاء الله في الآخرة للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، كانَ من الْعدل الواضح أن تكون أعمالُهُمُ الصالحة الّتي عَمِلُوها في الدنيا لاَغِيَةً لا قيمة لها عند الله مُطْلقاً يَوْمَ الدّين.

● ﴿حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾: أي: بَطَلَتْ أعْمَالُهُمْ الصالحة الّتي كانوا قَدْ عَمِلُوها في الحياة الدنيا، مَهْمَا عظُمَتْ وكَثُرَتْ.

﴿.. هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾؟!

هذا بيان بأسلوب الاستفهام الذي ليس له إلاّ جوابٌ واحد، وهو: لاَ يُجْزَون إلاّ جزاءَ ما كانوا يعملون في الحياة الدنيا للآخرة من صالحات الأعمال.

لكنّهم كانوا غير عَابئين بيوم الدّين، ولا بلقَاءِ اللّهِ فيه، فكانُوا يَسْلكون سُبُلَ الْغيّ، الّتي أنْذَرَهم رَبُّهم بالمعاقبة عليها يَوْمَ الدّين، وكانُوا يكْفُرون ويُكذّبون بآيات اللّهِ، وقَدْ أنذرهم ربُّهُمْ بالعقاب الأبدي في عذاب النار يَوْمَ الدِّين، إذا كَفَرُوا بما يجب عليهم الإيمان به في الدين الذي اصطفاه لعباده.

فكُفْرُهُمْ وعِصْيَانُهُمْ مُرَادٌ بهما تَمَرُّدُهُمْ على طاعَة الله ربّهم، ومُعَانَدَةٌ لِأَوَامِره وَنواهِيهِ الّتي رَتَّبَ عليها العقابَ يَوْمَ الدِّينِ، فَمنَ الْعَدْلَ أَنْ يُجازِيَهُمْ في الآخرة عَلَىٰ ذلِكَ، بِالْعِقَاب الّذي أبانَهُ في الوعيد الذي أوعَدَهُمْ به في الدنيا دار الامتحان.

وبهذا تنتهي هذه الفقرة الرابعة من قصة موسى وهارون في سورة (الأعراف).

❁ ❁ ❁

الفقرة الخامسة
اتّخاذ بني إسرائيل العجل
الآيات من (١٤٨ ـ ١٥٤)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)﴾.

القراءات:

(١٤٨) • قرأ حَمْزَةُ، والكِسَائِيُّ: [مِنْ حِلِيّهِمْ] بِكَسْرِ الحاء واللاَّم وتشديد الياء المكسورة، وهو جمع «حِلْيَة».

وقرأ يَعْقوب: [مِنْ حَلْيِهِمْ] بفتح الحاء وإسْكان اللاّم وكسر الياء، وهو اسم جنْسٍ لِمَا يُتَزَيَّنُ به من مَصُوغ الذهب وغيره.

وقرأ باقي القراء العشرة: [مِنْ حُلِيِّهِمْ] بضمّ الحاء وكسر اللام وتشديد الياء المكسورة، وهو جَمْعُ «حَلْيٍ».

ومُؤدّى القراءات واحد، وهي من التفنُّن في الوجوه اللُّغويّة ذاتِ المؤدّي الواحد.

(١٤٨ ـ ١٤٩) ● قرأ يَعْقُوب بضم هاء الضمير في: [لاَ يَهْدِيهُمْ] و[فِي أَيْدِيهُمْ].

وقرأ باقي القرّاء العشرة بكسر هاء الضمير فيهما.

والقراءتان وجّهان من الأداء في اللّسان العربي.

(١٤٩) ● قرأ حمزة، والكسائي وخَلفٌ: [لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا رَبَّنَا وَتَغْفِرْ لَنَا] عَلَىٰ أَنَّه خطابٌ مِنْهُمْ ونداءٌ لِرَبِّهِمْ داعِينَ بالرَّحْمَةِ والغفران.

وقَرأ باقي القراء والْعَشْرَةِ: [لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا] بضمير الغائب.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، فهم قالُوا في أنفسهم كما جاء في قراءة جمهور القراء، ودَعَوُا الله رَبَّهم كما جاء في القراءة الأخرى.

(١٥٠) ● قَرأ ورْشٌ، والسُّوسِي، وأبو جَعْفر: [بِيسَمَا] بإبدال الهمزة ياءً في الوصل والوقف. وقرأها كذلك حمزة في الوقف فقط.

وقرأها جمهور القراء العشرة: [بِئْسَمَا] في الوصْلِ والوقف.

وإبدال الهمزة ياءً وجْهُ من وجوه النطق العربي لهذه الكلمة.

● وفتحَ يَاءَ المتكلّم من: [بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ] نافع، وابن كثير، وأَبُو عَمْرو، وأبو جعْفَر. أمّا باقي القراء العشرة فقرؤوها بالاسْكان مع المدّ في الوصل.

● وقرأ السوسي، وأبو جَعْفَر: [بِرَاسِ أَخِيهِ] بإبدال همزة «رأس» ألفاً وصلاً ووقفاً، وقرأها كذلِكَ حمزة في الوقفِ، أما باقي القراء العشرة فأثبتُوا همزة «بِرَأْسِ» دون إبدال، والإبدال وجْهٌ في النطق العربي.

● وقرأ ابن عامر، وشُعبَةُ، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: [ابْنَ أُمِّ]

بالميم المشدَّدة المكسورة. وقرأها الباقون بالميم المشدّدة المفتوحة.

وهما وجهان عربيّان لنُطق الكلمة، وأصلها: ابْنَ أُمِّي، أي: يا ابْنَ أمي، حذفت أداة النداء لفظاً، وهي منويةٌ ذهناً.

تمهيد:

ذهب موسى عليه السّلام لمناجاة رَبّه وتَلَقِّي الألواح، وتولَّىٰ أخوه هارونُ عليه السّلام قيادةَ بني إسرائيل مُدَّة غِيابه، وزاد الله عزّ وجلّ مُوسَىٰ عليه السلام عشر ليالٍ على الثلاثين الّتي كانت في الوعد الذي أخبر به موسَىٰ قومه، دون إعلام بني إسرائيل بها، لأنّها حصلت بعد ابتعاده عن قومه في رحلة المناجاة، وقد جعلها الله عزّ وجَلّ كذلِكَ ليَمْتَحِنَ بني إسرائيل في قضيّة الإيمان بالغيب، بعد أن كان ما كان منهم من مطالبتهم موسىٰ بأنْ يجْعَلَ لهم وَثناً إلَهاً يعْبُدونه كما لِلْوَثَنِيّين آلهة.

إنّ الجمهور الأعظم من بني إسرائيل، لَمْ يَتَحرَّرُوا حتَّىٰ ذَلِكَ الحين من التعلُّق بأنْ يكون لَهُمْ إلَه مَعْبُودٌ وَثَنٌ، يشاهِدُونَهُ ويَلْمَسُونه ويَعْبُدونه.

وكانت صُورة العجل من البقر صُورةً شائعةً في أَصْنام أَهْل الأوثان، ومنهم المصريُّون والشامِيُّون الوثنِيُّون، وعِجْلُ المصْرِيّين الّذي كانُوا يَعْبُدونَه أيّامَ الفراعنة يُدْعَىٰ «إيبيس».

فلمَّا انتهت اللّيالي الثلاثون ولم يَعُدْ إليهم موسَى عليه السلام، لأنَّ الله جلَّتْ حِكْمَتُه أَتَمَّ مِيعَادَهُ إلىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَة، كَمَا هو في أصْل الخطّة المقدَّرَة المكتومة، لابتلاء بني إسرائيل وتربيتهم، استَبْطَأَ جُمْهُورُ بَني إسرائيلَ عودةَ مُوسَىٰ عليه السلام، ولَعِبَتْ بهم الظُّنُونُ والشُّكُوكُ، وكَثُرَ بينهم اللّغَطُ خِلاَلَ اللّيالِي العشرِ الأخيرة المضافَة.

وكان بينهم رجُلٌ مِنهم لقَبُهُ «السَّامِرِيّ» وهذا الرَّجُلُ قد لاحظ أنّ

المَلَكَ الذي هو جبريلُ عليه السَّلام، على ما جاء عنْدَ المفسّرين روايَةً عن الحسَن، كانَ إذا وقَعَ حافِرُ فرسِهِ على الأرض بقي منْه أثَرٌ في تراب الأرض، ذو طَبيعةٍ مخْتَلِفَةٍ عن طبيعة سائر الأرض، فقَبضَ قبضَةً مِنْ هذا الأثر، واحْتَفَظ بها عنده.

فَسَوَّلَتْ له نفسه أن يُجْرِيَ تَجْرِبَةً، فيصْنَع لبني إسرائيل صنماً عِجْلاً، ويُلْقِيَ فِي باطِنِه شيئاً من الْقَبْضَةِ الَّتي احْتَفَظَ بها من أَثَرِ الرسُول جِبْرِيل، فَعَسَىٰ أَنْ تُحْدِثَ أمْراً غريباً.

فجَمَعَ مِنْ عامَّتِهِمْ جمعاً، وقال لهم: ألاَ أَصْنَعُ لكُمْ صَنماً على صورة الْعِجْل من ذهب؟.

وكانَ فيهم ماهِرُون في صَهْرِ الذَّهَب وصياغته، إذْ كانت هٰذِهِ الصنعة مَهْنَةَ بعْضِهِمْ في مصر.

قالوا: من أيْنَ تأتي بالذَّهب؟

ثم رَأَوْا أَنْ يَجْمَعُوا ما لدَىٰ بني إسرائيل من حُلِيٍّ كَانُوا قَدِ اسْتَعاروه من المصريين ليلَةَ خُرُوجِهِمْ من مصر، وأوهموا كُلَّ من لدَيْه شيءٌ من ذلِكَ أَنَّه يجب عليه أن يتخلَّص منه، إذْ لَيْسَ لهم به حقٌّ، باعْتِبَارِ أَنَّهُ كَانَ مُسْتَعاراً فلْيَكُنْ لإلَٰهِهِم.

فألْقَىٰ الْقَوْمُ ما كان لدَيْهم من حُلِيِّ المصْرِيّين المستعار، واجتمع الصُّنَّاع بقيادة السَّامِرِيّ، وصَهَرُوا ما اجْتَمَعَ لَدَيْهِمْ من حُلِيّ الذهب، وصَبُّوهُ في قوالبَ على صُورَةِ عِجْلٍ من البقر، فلَمَّا أَتَمُّوا صنْعَتَه بمهارة صائغي الذهب، أقبل السَّامِرِيُّ فألْقَىٰ في جَوْفِ الْعِجْلِ الذَّهَبِيِّ ما لَدَيْه من القبضة الّتي كان قد احتفظ بها مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ جبريل عليه السلام، فصار يَصْدُرُ عن الْعِجْل الذهَبِيّ بخَلْقِ اللّهِ خُوارٌ كخُوار الْعُجُولِ.

وعَجِبَ جُمْهُورُ بَنِي إسرائيلَ من هٰذِهِ الظَّاهرة، وانْطَلَقَتْ بينهم شائِعَةٌ

راجَتْ عِنْدَ معظمهم قائلين: هذا إلَهكُمْ وإلَه مُوسَىٰ، وإنَّ مُوسَىٰ لمَّا ذَهَبَ لمُنَاجاتِه نَسِي مكانه، فَهُوَ تائِهٌ عنه، فاجْتَمَعُوا يَعْكُفُونَ عليْه ويَرْقُصُونَ حولَه.

فنهاهُمْ هارونُ عليه السّلام، وقال لهم: يَا قَوْمِ إنَّمَا فُتِنتُمْ به، وإنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمٰنُ، فاتَّبِعُوني وأَطِيعُوا أمْرِي.

فقالوا له: لَنْ نَبْرَحَ عليه عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِع إلينا مُوسَىٰ، فشَدَّدَ عَلَيْهم، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، ودَفَعُوهُ عَنهُمْ بالقوَّة، وكادُوا يقتُلُونه.

وأعْلَمَ الله عزّ وجلّ مُوسَىٰ عليه السّلام بما فَعَل قومه من بَعْدِه، في غيابه عنهُمْ، من اتّخاذِهم العجْلَ الذهبيَّ إلَهاً وَثَناً يَعْبُدُونه، فَغَضِب في نفسه منْهم ومِمّا صَنَعُوا.

ولمّا رَجَعَ إليهم ورأىٰ بعيْنَيْه الْعِجْل الذهبيّ الّذي اتَّخَذُوه، اسْتَشاط غضباً وحُزناً، وقال لقومه: بئْسَما خَلَفْتُموني من بعدي، أمِنْ أجل عَشرِ ليالٍ زادَتْ في ميقاتِ رَبّي لَعِبتْ بِكُمُ الظُّنُونُ، واتَّخَذْتُمْ وَثَناً إلَهاً، وألْقى الألْواح، وأخَذَ عَلَيْهِ السَّلامُ يحاسِبُ أخاه بعُنْفٍ إذْ لم يكن قويًّا حَازِماً معهم، فاعْتَذَرَ هَارُونُ بأعْذَارٍ صَحِيحَةٍ أبان له فيها أنَّه لم يَسْتَطِعْ أن يَرُدَّهُمْ عمّا فَعَلُوا، فَقَبِلَ مُوسَىٰ عُذْرَ أخِيه دُونَ أنْ يكون على قناعةٍ تَامَّةٍ، ودَعَا رَبَّهُ أنْ يَغْفِرَ لَهُ وَلأَخِيهِ وأنْ يُدْخِلَهُما في رحْمَتِهِ، وأثْنَى عليه بأنَّه أرْحم الراحِمِين.

ولمّا هَدَأَ غَضَبُهُ أخَذَ الألواح بعد أن كان ألقاها في الأرْضِ عند شِدَّةِ غضبِه، وقام بِتَحْرِيق الْعِجل ونَسْفِهِ في الْيم، وطَرْدِ السّامِرِيّ من بين قومه، وتَرْتيب رِحلة الاعْتِذَارِ والتوبَةِ مع سبعين رجلاً اختارهم من قومه إلى المكان الذي ناجىٰ به ربَّهُ في الرحلة السابقة الّتي كتب الله له فيها الألواح.

❁ ❁ ❁

التدبّر:

قول الله تعالى:

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾.

الواو العاطفة في صَدْرِ هٰذا البيان تَعْطِفُ هذا الحدث على الأحداث التي سبق بيانها من قصة موسى عليه السلام وقومه من بني إسرائيل في السّورة.

● ﴿وَٱتَّخَذَ﴾: على وزن «افْتَعل» من الأخذ، ومن معاني هذه الصّيغَة التّكلُّفُ والتّصَنُّع على خلافِ الحقّ، أو طبيعة الأمْرِ السّوِيّ.

● ﴿قَوۡمُ مُوسَىٰ﴾: المراد بهِمْ جُمهور بني إسرائيل الّذِين كانوا معه، وخَرَجُوا بقيادته من مصر.

﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾: أي: من بَعْدِ غِيابه عنهم في مُدَّةِ رِحْلَتِهِ إِلَىٰ جانِب الطّورِ لمناجاة ربّه، وتَلَقِّي مَا كَتَبَ له في الألواح.

هٰذه القُيُود تُفْهَمُ من قرائن السِّبَاقِ والسِّيَاق.

وليس المُرَادُ بقَوْمِ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ جَمِيعَ أفرادهم، إذْ كان فيهم مَنْ لم يَرْضَ مَا اتَّخَذَهُ الْقَوْمُ، وكان فيهم من أنكرَ عليهم ما فَعَلُوا، واشْتَدَّ في مخاصَمَتِهِمْ كهَارُونَ أخيه ووزيره عليه السّلام.

● ﴿مِنۡ حُلِيِّهِمۡ﴾: أي: من مَصُوغَاتِ الذَّهب التي كانَتْ مَعَهُمْ يتحلّونَ بها، وهِيَ مصُوغاتٌ استَعَارُوها مِنْ المصريِّين قُبَيْل سَاعَاتِ خُرُوجهم ليلاً من مصر.

﴿عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾: أي: وصَيَّرُوا المسبُوكَ من ذهَبِ الحليّ على صورة عِجْلٍ ذِي جَسَدٍ مَرْئي مَلْمُوس له صَوْتٌ يُشبهُ صَوْت عجُولِ البقر.

وكذَبَ كُتّابُ سِفرِ الخروج على هارون عليه السَّلام، وزَعمُوا أنَّهُ هو الّذي صَنَعَ لَهُمُ الْعِجْلَ الذَّهَبِيَّ مَسْبُوكاً.

جاء في الإصْحَاحِ الثاني والثلاثين من سِفرِ الخروج عند أهْلِ الكتاب ما يلي:

«١ ـ ولمّا رأىٰ الشَّعْبُ أنّ مُوسَىٰ أبْطَأَ فِي النُّزُول مِنَ الْجَبَلِ اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَىٰ هَارُونَ وَقَالُوا له قم اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا لأنَّ هذا مُوسَىٰ الرَّجُلَ الّذِي أصْعَدَنَا مِنْ مِصْرَ لاَ نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ. ٢ ـ فَقَالَ لَهُمْ هَارُونَ انْزِعُوا أَقْرَاطَ الذَّهَب الّذِي في آذَانِ نِسَائِكُمْ وبَنِيكُمْ وبَنَاتِكُمْ وَأْتُوني بها. ٣ ـ فَنَزَعَ كُلُّ الشَّعْب أَقْرَاطَ الذَّهَبِ الّتِي في آذَانِهِمْ وَأَتَوْا بها إِلَىٰ هَارُونَ. ٤ ـ فأخَذَ ذَلِكَ مِنْ أيْدِيهِمْ وصَوَّرَهُ بالإزْمِيل وصَنَعَهُ عِجْلاً مَسْبُوكاً فَقَالُوا هٰذِهِ آلِهَتُكَ يا إسْرَائِيلُ الّتِي أصْعَدَتْكَ مِنْ أرْضِ مِصْر...».

هكذا كَذَبُوا على هَارُون عليه السلام، وما جاء في القرآن يُنَاقِضُ ذلِك. وحاول بعضُ المفسِّرينَ أن يجعل هارون هذا الاسم الْعَلَمَ للسّامِرِيّ، لَكِنَّ مَا جاء في مَكْتُوبات التوراتيّينَ في إصْحَاحَاتِهِمْ لاَ يُسَاعِدُ عَلَىٰ هذا الفهم، لأنّهم يتحدَّثُونَ عن هارون أخي موسىٰ عليهما السَّلام، لاَ عَنْ شخْصٍ آخر.

وجاء بشَأْنِ إعلام الله عزّ وجل مُوسى عليه السّلام، بما صَنَعَ قَوْمُهُ في غيابه عنهم، بعد أن سأله عن سبَبِ تَعجُّلِه عن قومه، قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: فَإِنَّا قد امْتَحَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِ مُفَارَقَتِكَ لهم، وغيابك عنهم، وأنَّ الّذي أضَلَّهُمْ السَّامِرِيّ.

فغضب موسى عليه السّلام وحَزِنَ بسَبَب ما جرىٰ.

وجاء عند أهل الكتاب، في الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج ما يلي:

«٧ ـ فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَىٰ أذْهَبِ انْزِلْ لِأَنَّهُ قَدْ فَسَدَ شَعْبُكَ الَّذِي أَصْعَدْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. ٨ ـ زَاغُوا سَرِيعاً عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي أَوْصَيْتَهُمْ بِهِ. صَنَعُوا لَهُمْ عِجْلاً مَسْبُوكاً وسَجَدُوا له وذَبَحُوا له وقالوا: هٰذِهِ آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلَ الَّتِي أَصْعَدَتْكَ من أرض مصر. ٩ ـ وقال الرَّبُّ لموسَىٰ رَأَيْتُ هٰذا الشَّعْبَ وَإِذَا هُوَ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَةِ».

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

● ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

هٰذِهِ المقولَةُ الرَّبَّانِيَّةُ تَعْلِيقٌ تَوْجيهيٌّ لِكُلِّ ذِي فِكْرٍ يَتْلُو القرآنَ، أوْ يَسْتَمِعُ إِلَيْه، يَكْشِفُ سَفَاهَةَ الَّذِين يَتَعَلَّقُونَ بالأوثان والأصْنَام، ويتَّخِذُونها مَعْبُوداتٍ لَهُمْ، يتقرَّبُونَ إليها بما يَزْعُمونَ أنَّهُ يُرْضي هٰذه الآلِهَةَ الوثَنِيَّة، فَتَجْلُبُ لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضَرّاً.

● ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾: أي: أَلَمْ يرَوْا أنّ هذا الْعِجْل الذَّهَبِيّ الَّذِي صَنَعُوهُ بِأَيْدِيهم لاَ يُكَلِّمُهُم.

الرُّؤْيَةُ هُنَا رُؤْيَةٌ عَقْلِيَّةٌ فكريَّة، لا رُؤْيَةٌ بَصَرِيَّة، لأَنَّ الكلامَ يُسْمَعُ بالآذانِ وَلاَ يُرَىٰ بالأَبْصار، وعدَمُ ذلِكَ يكُونُ عن طَرِيقِ الإدْراك الفكريّ.

● ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾: أي: وألم يَرَوا أنه لا يُبَيِّنُ لَهُمْ سبيلاً يَهْدِيهم إليه، لاَ من السُّبُل الماديّة، ولاَ من السُّبُل المعنويّة.

والرُّؤية هُنا أَيضاً رُؤْيَةٌ فِكْرِيَّةٌ عَقْلِيَّة.

وهذا البيانُ مُوجَّهٌ أيضاً لكُلّ مُتّخِذِي الأَوْثَانِ، في كلّ العصورِ والأزمان. وقد اسْتُغِلَّتِ المناسَبَةُ لِتَقْدِيمه، حتَّىٰ تكون القِصَصُ القرآنيَّةُ ذَاتَ هدَفٍ تَوجيهي لكُلّ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْها.

﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾: أي: اتَّخذُوا الْعِجْلَ إلٰهاً مُشْرِكينَ ظَالِمِين، وَكَانُوا قَبْلَ اتِّخَاذِهِ ظالمين في أَعْمَاقِ نُفُوسهم، لأَنَّهُمْ لَمْ يكُونُوا قد تحرَّرُوا بَعْدُ من مَفْهوماتِ الشِّرْك والتعلُّق بالأوثانِ، على الرغم من كلّ ما شَهِدُوهُ من معجزاتٍ وخَوارِقِ عادات، ضِدَّ شِرْكيَّاتِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمه، وعلى الرُّغم من نَهْي مُوسَىٰ المشدَّدِ لَهُمْ عن اتّخاذ آلِهَةٍ من الأَصْنَام.

❋ ❋ ❋

قول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾:

● ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾: قَالَ المفسّرُون: أي: وحين نَدِمُوا وَتَحَيَّرُوا. قال الزَّجّاج: هُو نَظْمٌ لَمْ يُسْمَعْ قَبْلَ القرآن ولَمْ تَعْرِفْهُ الْعَرَب. وقال عبْدُ الملِك بن سِرَاج: هذا الْقَوْلُ ممَّا أَعْيَانِي مَعْنَاهُ[1].

أقول: هذه العبارةُ كنايَةٌ بَدِيعَةٌ عن نَدَمِهِمْ وشِدَّة خَوْفهم، وأَصْلُها أَنَّ الّذِي يُسْقَطُ في أيْدِي المجرمين بِسُرْعَةٍ وعُنفٍ، هي الأغلالُ والأصْفَادُ والقيودُ الّتي يُساقُونَ بها لمُعَاقَبَتِهِمْ، وحينَ تَكُونُ هذه من الحديد الثقيلِ فإنَّهَا قد تُسْقِطُهم إلى الأرض، فيكُونُون بذلِكَ نَادِمينَ سَاكِنِين، لا يَمْلِكُون إلاّ الاعترافَ بجرائمهم.

---

(١) كذا نقل ابن عاشور في تفسير: «التحرير والتنوير».

وكان جُمْهُورُ بني إسرائيل قَدْ تمرَّدُوا على هَارُونَ وقِيَادَتِهِ عليه السلام، إذ اسْتَضْعَفُوهُ، فَلَمْ يُوافِقُوا على التوجُّهِ مُرتَحِلِينَ لجهةِ جَبَلِ الطُّور، حَيْثُ الميقات الّذِي حَدَّدَهُ اللَّهُ عزّ وجَلَّ لموسَىٰ عليه السلام، وخَشِيَ هارون عليه السَّلامُ أَنْ يَكْتَفِيَ بِمَنْ وَافَقَهُ على الارْتحال على أَثَرِ مُوسَىٰ، أَنْ يَقُولَ له مُوسَىٰ: فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إسرائيل.

ولمَّا رَأى هؤلاء الجمهور من بني إسرائيل أن مُوسَىٰ عليه السّلامُ قد أبْطأَ عَلَيْهِمْ بسَبَبِ إكْمالِ اللَّهِ ميعَادَهُ إلى أرْبَعِينَ ليلَةً، بَعْدَ أن كان ثلاثين ليلَة، وهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا بهٰذِهِ الزّيادة، قالُوا: لاَ نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَ مُوسَىٰ في رِحْلَتِهِ لِمُنَاجَاة رَبّه، فَصَنَعُوا بقيادة السَّامِرِيّ العجْلَ الذّهبيّ إلَهاً لهم يَعْبُدُونه، ويَسِيرُ أَمَامَهُمْ حامِياً ورَاعِياً لَهُمْ، تَحْمِلُهُ كَهَنَتُهُمْ أيْنَما سَارُوا.

ثُمَّ رَأَوْا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلاَمُ قادِماً إلَيْهم من بَعِيدٍ، بَعْدَ أربَعِينَ لَيْلَةً، بتَأَخُرِ عَشْرِ لَيَالٍ عَمَّا كَانَ أصْلُ الموعد، ورَأوْهُ يَحْمِلُ أَلْواحاً، فَأَخَذَتِ المخاوفُ من سَطْوَتِهِ تَدِبُّ إلَىٰ قُلُوبهم، وحِينَ اقْتَرَبَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ رأوا علامات الغضب والحزن باديَةً عليه، وكانُوا يَهابُونَهُ مَهَابَة عظيمة، فقد سَبَقَ أنْ شاهَدُوا أنّ الله عزّ وجلّ قد أعطَاهُ قُوىٰ فَلْقِ الْبَحْرِ بعصَاه، وَأَغْرَق له فِرْعَوْنَ وآلَهُ وجُنُودَه.

فعَظُمَ الأمر عليهم، وأدْرَكُوا أنهم عَصَوْا بتَمَرُّدِهم علَىٰ أخيه هَارُونَ، إذْ أبَوا أَنْ يَرْتَحِلُوا على أَثَرِ مُوسَىٰ إلى جهة جبل الطور، فأخْلَفُوا الْمَوْعِدَ الّذِي وعَدُوه مُوسَىٰ، أَخْذاً ممَّا جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بقول الله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ . . . ﴿٨٠﴾﴾.

وقول موسى لهم كما جاء فيها أيضاً: ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾.

وأَدْرَكُوا أَنَّهُمْ قَدْ أجْرَمُوا باتّخاذِهِمْ الْعِجْلَ، وأَنَّ مُوسَى عليه السّلام، سيُعَاقِبهُمْ على ذلك لا محالة، فقد نَهَاهُمْ سَابقاً عن اتّخاذِ إِلَهٍ مِنَ المحسَّاتِ المادّية، وحَذَّرَهُمْ من اتخاذ إِلَهٍ أَوْ آلِهَةٍ مِنَ الأَوْثَانِ يَعْبُدونَها، وشَدَّد عليهم فِي ذلِكَ، وأخذ منهم الْوَعْدَ أَنْ لاَ يُغَيّروا ولا يُبَدِّلُوا في الدّين شيئاً.

عندئذٍ سُقِطَ بأشْيَاءَ مَعْنَوِيّةٍ في أَيْدِيهم، وهذه الأشياء المعنوية هي بمثابَة قُيودٍ وأصْفَادٍ وأغْلالٍ ثقيلَةٍ من حَدِيدٍ، تَجْعَلُ قُواهُمْ عَاجزَةً عَنِ الدّفَاعِ عن أنفسهم، كالْمُجْرِمِ القاتل أو السّارقِ أو الخائن خيانةً عظْمَىٰ، إِذَا رَأَىٰ أَنَّهُ محاطٌ بالجنودِ الَّذِينَ سيقْبِضُونَ عليه لاَ محالَةَ، فلا مَهْرَبَ لَهُ مِنْهُم، فإنه تَنْحَلُّ قواه من الرُّعْب، وتَرتَخِي أعْصَابُه، وتتَدَلَّىٰ يَداه، وتَسْقُط على الأرض رِجْلاه، كأنَّ حَدِيداً ثقيلاً قَدْ أُسْقِطَ بسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ غُلاً أَوْ صَفداً أَوْ قيداً في يَدَيْه، فكانتا مَشْدُودَتَيْن نَحو الأرْضِ منْ ثِقَلِ مَا سَقَطَ عليهما، لإثْبَاتِهِ، فَهُو لا يستَطِيعُ حراكاً.

● ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾: أي: ورَأَوْا رُؤْيَةً عِلْمِيَّةً بَعْدَ شهودِهِمْ مُوسَىٰ عليه السلام قادماً إليهم، أنّهم قَدْ تَسَرَّعُوا باسْتِبْطَائِهِمْ عَوْدَته، وأنّهم قَدْ ضَلُّوا باتّخاذِهم الْعِجْل الذهَبِيَّ إِلَهاً يَعْبُدُونه، فقالوا:

● ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾:

لقد جَعَلُوا يُرَدِّدُونَ نظير هذه المقالة فيما بَيْنَهم قبل أَنْ يَصِلَ مُوسَىٰ عليه السَّلام إلى حَيْثُ يَنْزِلُونَ، وَقَبْلَ أَنْ يواجههم بالمحاسبة على ما فَعَلُوا.

وجعلوا يَدْعُونَ رَبَّهم كما جاء في القراءة الأخرى، قائلين: [**لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا رَبَّنَا وَتَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾**].

وهذا اعْترافٌ منهم لربّهم بكبِيرَتِهِم الشِّرْكيّة الّتي ارتَكَبُوها، طَامِعِينَ بأنْ يَرْحَمَهُمْ وَيَغْفِرَ لهم.

الرَّحْمَةُ: صِفَةٌ من صِفَاتِ اللّهِ الجليلة، وهيَ صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ، نُثْبِتُها للّهِ عزَّ وجلَّ عَلَىٰ ما يليق بجلاله، ومن آثارها العطاء، والمعونة، والتَّوْفِيقُ،

وإزَالَةُ البؤس، والغفران، والتجاوُزُ عن السّيئات، والعفو والصّفح.

المغفرة: مَصْدَرُ غَفَر الشَّيْءَ، أي: سَتَرَه، يُقَالُ لُغَةً: غَفَرَ يَغْفِرُ غَفْراً وغُفْراناً ومَغْفِرَةَ الشَّيْءَ، أي: سَتَرَه.

والمراد بسَتْرِ الذنْبِ عَدَمُ المؤاخَذَةِ عليْه.

كُلُّ هذا كان قَبْلَ وُصُولِ مُوسَىٰ عليه السَّلامُ إلى منازل قَوْمِهِ بني إسْرَائيل.

❁ ❁ ❁

قول اللَّهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ ... ﴿١٥٠﴾﴾؟!:

أي: وحينَ وَصَلَ مُوسَىٰ عليه السّلام، إلى مَنَازِل قَوْمِهِ، حالَةَ كَوْنِهِ غَضْبَانَ مِمَّا فَعَلَ قَوْمُه، وحَالَةَ كَوْنِهِ حَزِيناً بسَبَبِ ظُهُور نزغَاتِ الشِّرْكِ الشَّيْطَانية فيهم بهٰذِهِ السُّرْعَةِ، إذْ لَمْ يَزِدْ غيابُهُ عن الموعِدِ الَّذِي كانوا عالِمِينَ به إلاَّ عشرَ لَيالٍ، ولا بُدَّ أَنْ تكونَ هٰذِهِ النزغات الخبيثات قَدْ ظهرت في أوائلها، بَعْدَ انتهاء اللّيالي الثلاثين.

الْغَضَبُ: انْفِعَالٌ نَفْسِيٌّ من الكراهية مصْحُوبٌ بإرادة الانتقام.

يقال لغة: غَضِبَ عَلَيْهِ يَغْضَبُ غَضَباً، أي: سخط عليه من أجْلِ مَعْصِيَة أو مخالفةٍ أَوْ أَمرٍ يَكْرَهُهُ منه، وأَرَاد الانتقام منه، فَهُو غَضِبٌ وغَضْبَان، وصيغَةُ «غَضْبَان» تدلُّ على حركة في النفس تُشْبِهُ غَلَيَانَ ما في القِدْرِ بالنار.

الأَسَفُ: الحزنُ، يقالُ لُغةً، أَسِفَ علَيْهِ يأسَفُ أَسَفاً، أي: حَزِنَ مِنْ أجله، فهو آسِفٌ، وأَسِفٌ، وأسِيفٌ، وهاتان صيغَتَا مُبَالَغَة.

فعبارة: ﴿أَسِفًا﴾ تَدُلُّ علىٰ أنَّ موسَىٰ عليه السَّلام كان شدِيد الحُزن، بسبب انْحِراف جمهور قومه عن صراط اللّهِ المستقيم.

● ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْۢ بَعْدِيٓ﴾ يظْهَرُ أنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام منْذُ وَصَلَ إلَىٰ مَنَازِلَ قومِهِ، وأقْبَلَ عَلَيْهِ كُبْراؤُهم، قالَ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَسْتَقِرَّ جالِساً، وقَبْلَ أَنْ يُحدِّثَهُمْ بشيءٍ، هٰذه المقالَة التَّثْرِيبيَّة، وقال لَهُمْ أيضاً:

﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؟!: فَهُمَا مَقَالَتَانِ وَاجَهَ مُوسَىٰ عليه السَّلام بهما قومَهُ، في أوَّلِ خطابٍ خاطَبَهُمْ بِهِ، مُنْذُ وُصُولِهِ إليهم.

الجملة الأولى: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْۢ بَعْدِيٓ﴾: أي: بِئْسَتْ خِلاَفَةً خَلَفْتُمونِيهَا مِنْ بَعْدي خِلاَفَتُكُمْ.

«مَا» مِنْ «بِئْسَمَا» تمييزٌ مَنْصُوبٌ، والعَائِد مَحْذُوفٌ في «خَلَفْتُموني» والتَّقْدِير: خَلَفْتُمُونِيها، والمخصوصُ بالذَّمّ محذوفٌ تقديره: خِلاَفَتُكُمْ.

هذا أَحَدُ وُجُوه إعراب هذا الاستعمال، وهو الذي عليه النحاةُ المتأخِّرُون.

لقَدْ ذَمَّ عليه السَّلام ذَمّاً شديداً ما صَنَعَ قَوْمُهُ مِنْ بَعْدِهِ، وفي هذا الذّمّ شتيمةٌ لَهُمْ، وتَقْبِيحٌ لِمَا فَعَلُوا من كبيرة الشرك.

يقال لغة: خلَفَ فُلانٌ فلاناً، وخلَفَ قومٌ قوماً، خلَفاً، وخِلاَفَةً، إذا أقامُوا بَعْدَهُمْ في المكان أو في الزمان أو في الأشياء، فَهُمْ خُلَفَاءُ، والواحِد خليفة، ولا يَجْتَمع الْخَلِيفَةُ والمخْلُوفُ فيما حَصَلَتِ الخلافَةُ فيه.

● ﴿مِنْۢ بَعْدِيٓ﴾: أي: من بَعْدِ مُفارَقتي لكم لمناجاة ربي.

قد يُقال: هٰذِهِ الْبَعْدِيَةُ مفهُومَةٌ من مضْمُونِ معنى الخلافة، فما الحاجَةُ لأنْ يُصَرّح بها.

أقول: في هذا التصريح إشارةٌ إلى أنَّ قيادتَهُ لهم وهو بَيْنَهم، قَدْ

كانت هي السَّبَب في ضَبْطِهِمْ عن الانحرافِ والتغيير في الدين، وهذا يَدُلُّ على أنَّهم لم يَصِلُوا بَعْدُ إلَىٰ مُسْتَوىٰ تَرْكِهم لأنفُسِهم يُقِيمون دين الله، فالإيمانُ الحقُّ لَمَّا يَدْخُلْ في قُلُوبِهم، إنَّما هم كقَطِيعٍ يَتْبَعُ راعياً ضابطاً حَازِماً قَوِيًّا يَرْهُبُونه.

الجملة الثانية: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؟!: قال الفرّاء: تقول: عَجِلْتُ الشَّيءَ، أي: سبقته. فالمعنى على هذا: أَسَبَقْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ. والْمُرَادُ: أَتَجاوَزْتُمْ حُدُودَ أَمْر ربّكم، إذْ أَمَرَكُمْ أَنْ لاَ تَتَّخِذُوا آلِهَةً أوْثاناً تَعْبُدُونها من دُونه، وهذا التجاوُزُ الّذي سبَقْتُمْ به مَسِيرَةَ أَمْرِ رَبكم يُعرِّضُكُمْ لَعِقَابٍ شديدٍ من لَدُنْه.

فالاستفهامُ في العبارة استفهامٌ إنكاريٌّ توبيخيٌّ علَىٰ ما كان منهم من اتّخاذِهِمْ العِجْل.



قول الله تعالى:

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾:

• ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾: أي: وأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عليه السّلام الألواح التي كان يَحْمِلُها من شِدَّةِ انْفِعَالِهِ الغضبيّ، إذ شَاهَدَ قَوْمَهُ قَد اتَّخَذُوا الْعِجل، وكان هذا عِنْدَ وُصُولِهِ إلى قومه غَضْبَانَ أسِفاً، وقوله لهم: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؟!

وليس في القرآن بيانُ أنَّها انْكَسَرَتْ عِنْدَ إلقائه لَهَا، لكِنْ ثبت في الحديثِ النبويّ أنَّها انْكَسَرت.

وأهل الكتاب من بني إسْرائيلَ يذْكُرُونَ أنَّهُ كَسَّرَهَا، وأعَادَ اللَّهُ لَهُ كِتَابَة

أَلْوَاحٍ أُخْرَىٰ بدَلَها، نَحَتَها مُوسَىٰ عليه السّلام من الحجارة، ويذكُرُونَ أَنَّهما لَوْحَانِ كَتَبَهُمَا اللَّهُ لَهُ علىٰ وُجُوهِهما الأربعة، واللَّهُ أعلم.

وجاء في بيان الرسول محمدٍ ﷺ، تَعْليلُ كَوْن موسَىٰ علَيْهِ السَّلاَمُ لَمْ يُلْقِ الألْوَاحَ مِنْ يَدِهِ، حينما أَخْبَرَهُ الله عزّ وجلّ بأنّ قومَه اتخذُوا عِجْلاً وَعَبدُوه، لكِنَّهُ لمَّا قَدِمَ إلَىٰ قَوْمِهِ وشاهَدَ الأَمْرَ بِبَصَرِه، أَخَذَتْهُ الحِدَّةُ، فلَمْ يَتَمالَكْ نَفْسه، فَأَلْقَىٰ الأَلْوَاح، فقال الرسُولُ ﷺ: «لَيْسَ الْخَبَرُ كالْمُعَايَنَة».

روى الإمام أحْمَد، والحاكم وصَحَّحَهُ على شرط الشيخَيْن، وابْنُ حِبَّانَ في صَحِيحِه، عن ابْنِ عبَّاسٍ رضي الله عنه، أنّ الرَّسُول ﷺ قال:

«لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَة، إِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ مُوسَىٰ بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ، فَلَمْ يُلْقِ الأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ ما صَنَعُوا أَلْقَىٰ الأَلْوَاحَ فَانْكَسَرَتْ».

• ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾:

كان موسَىٰ عليه السّلام شدِيداً قَوِيًّا ذَا حدّه، لا تأخُذُهُ في اللَّهِ لَوْمَةُ لائِمٍ، وقد وقَعَ في ظَنِّهِ أَنَّ أَخَاهُ هارون عليه السلام لانَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، ولَمْ يَنْزِعَ ما يَجبُ عليه من حَزمٍ وشِدَّة، حِينَ رآهُمْ انحَرَفُوا عَنْ أَصْلِ الدِّين، فبدأ بِهِ يُريدُ مؤاخَذَته ومُعَاقَبَته على تهاونه، وقد جعَلَهُ خليفته في قومه، وأوْصَاه بأن يُصْلِحَ ولا يَتَّبِعَ سبيل المفسدين، فقَبضَ علىٰ شَعْرِ رأسِهِ، وجَعَلَ يَجُرُّهُ.

فأخذ هارُون علَيِ السَّلام يدافع عن نفسه، ويَعْتَذِرُ بمالَهُ بِه عُذْرٌ حقيقةً، ضِمْن حُدودِ اسْتِطَاعَتِه، وطَبِيعَةِ نفسه.

• ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾:

لقد اشْتَمَلَ اعْتِذَارُ هارُونَ علَيْه السَّلاَمُ، عمَّا دَلَّ عَلَيْهِ فِعْلُ مُوسَىٰ

عليه السّلام، إذْ أخَذَ برأسِهِ يَجُرُّهُ إليه، من اتّهامِهِ بالتقصير والتهاون، على ثلاثِ مقولاتٍ، مصْحُوباتٍ بهُدُوءٍ، وحِلْمٍ، وصَبْرٍ، وتَحَمُّلٍ، تُناسِبُ طبيعَتَهُ، إِذْ هو ليِّنٌ، حَلِيم، هادِئٌ، وصَبُورٌ، لا تأخُذُهُ الحدّة.

المقولة الأولى: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي﴾:

بدأ أخاه في هٰذه المقولَة باسْتِعْطَافِهِ بأُمّه الّتي هي أُمُّهما، مَعَ أَنَّهُمَا شقِيقَانِ، ولكِنَّ حياتَهُمَا كانَتْ برعايَةِ أُمِّهما الّتي كانت تَرْعَاهُمَا بالحنان والشفقة دواماً.

[ٱبۡنَ أُمَّ]: أَصْلُ الكلام: يا ٱبْنَ أُمِّي، ومِثْلُ هذا الاستعمالِ تُحْذَفُ منه يَاءُ المتكلّم، فإذا حُذِفَتْ جاز في العربيَّةِ وجْهَانِ: إبقاءُ الكَسْرَةِ على آخر الكلمة، فيقال: يا ٱبْنَ أُمِّ. وفَتْحُ آخر الكلمة، فيقالُ: يَا ٱبْنَ أُمَّ. وحُذِفَ حَرْفُ النداء، وهو جائزٌ في العربيَّة إذا كان نداءً بـ«يَا».

وسبَق بيانُ أنَّهُ قُرِئَ بكَسْرِ الميم وفتحها من «ٱبْنَ أُمَّ».

- ﴿إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي﴾:

﴿ٱسۡتَضۡعَفُونِي﴾: أي: وَجَدُوني ضَعِيفاً لاَ أَمْلِكُ قُوَّةً أَغْلِبُهُمْ بها.

وتدلّ هذه العبارة بلوازمها الفكريّة، على أنّ هارونَ عليه السلام قد نَهَىٰ بَنِي إسْرَائيل عن اتّخاذ الْعِجْل فَلَمْ يسْتَجيبوا له، ثُمَّ حَذَّرَهُمْ وَأَنْذَرَهُمْ فَلَمْ يُبَالُوا، وقَدْ جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) أنّه قَالَ لهم بِشأن الْعِجْل ما جاء في قول الله تعالى:

﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ٩٠﴾.

أي: إنَّمَا امْتُحِنتُمْ بخُوارِ هذا الْعِجْلِ الذّهبي، ليَكْشِفَ اللّٰهُ عزّ وجلّ

أنّ الإيمان الصّحيح لم يَصِلْ إلى قُلوبكم، ولم يسْتَقِرَّ فيها، وأنّ المفهومات الوثنيّة ما زالَتْ عالقَةً فِي نفوسكم.

فاتّبِعُونِي ولاَ تَتَّبِعوا السّامِرِيَّ الّذِي أضلَّكُمْ، وأَطِيعُوا أمْرِي، فإنّي خَلِيفَةُ أَخي مُوسَىٰ المسؤولُ عنكُمْ، فقد جَعَلَنِي بأمْرِ الاستخلاف خَلِيفَةً عَنْهُ عليكم.

فما كان من جمهور بني إسرائيل إلاّ العِنَادُ والإصْرَارُ على ما هم فيه، دلَّ على هذا الآية التالية من سورة (طه) أيضاً:

﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾:

﴿لَن نَّبْرَحَ﴾ أي: لَنْ نَزُول، ولَنْ نَتْرُكَ الْعِجْلَ كَمَا تطلُبُ منّا، وسَنَبْقَىٰ مُحَافِظين عليه، حالَةَ كونِنَا عَاكِفينَ عَلَيْهِ، حتَّىٰ يَرْجِعَ إلينا موسَىٰ.

عندئذٍ أقبل هَارونُ عليه السّلام عازماً علىٰ أَنْ يُنْكر المنْكَر بِيَدِهِ، ويأْخُذَ الْعِجْل ويُحطّمَهُ، ويمْنَعَ عبَادَتَهُ بالقوة، فتكاثَرَ عَلَيْهِ الْغَوغَاءُ من بني إسرائيل، ودَفَعُوهُ عن عِجْلِهِمْ بالْقُوّة، وكادُوا يقْتُلُونَهُ دِفاعاً عنه، يُفْهَمُ هذا من عبارة: ﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ الواردة في النصّ الذي في سورة (الأعراف). أي: وكادُوا يقْتُلونَنِي دفاعاً عن عِجْلهم لأنّني أَرَدْت أَنْ أُنكر المنكر بِيَدِي، وأن أسْتَعْمِلَ الْقُوَّةَ لتحطِيم الْعِجْل، ومنْعِهِمْ ودفْعِهِمْ عن عبادته.

المقولة الثانية: دلَّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾:

ذكّر هارون مُوسَىٰ عليهما السّلام بأنّ لَهُ فِي بَنِي إسْرائيلَ أعداءً، يَحْسُدُونه على اختياره نبيًا ورَسُولاً مع أخيه موسىٰ صاحِبِ الرّسَالة الأول، ويَحْسُدُونه على مكانته في بني إسرائيل، إذْ يَحْتَلُّ مَقَامَ الْوَزِير الأوّل لموسَى، فإذا غابَ مُوسَىٰ كَانَ هُوَ خَلِيفَتَهُ في قَوْمه.

ويُشْعِرُ هارون أخاه عليهما السّلام، بأنَّهُ إذَا حَاسَبَهُ حِسَاباً شديداً عَسِيراً كانُوا بِهِ شَامِتِين.

والمعنى: فلا تجعلهم يشْمَتُون بي.

الشَّمَاتَة: فَرَحُ الْعَدُوِّ بما يُصِيبُ عَدُوَّهُ مِنْ مَكْرُوه، وقد تكون بين المتنافسين والمتخاصِمين، ولو لم يكونوا أعداءً.

المقولة الثالثة: دلّت عليها عبارة: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾:

أي: وإنَّكَ إنْ آخَذْتَني علىٰ ما فَعَلَ الظَّالِمُونَ من بني إسرائيل الذين اتَّخَذُوا الْعِجْلَ، فَقَدْ جَعَلْتَنِي مَعَهُمْ في الإثم والعقوبة، مَع أنّي لم أكُنْ آثماً، ولا مقصّراً أوْ مُتَهاوِناً، فَمُؤَاخَذتي مَعَهُمْ أَمْرٌ مُنَافٍ للعدْلِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ به، ولا يخفىٰ ما في عبارة هارون عليه السّلام من رِقَّةٍ وتلَطُّفٍ في عَرْضِ هٰذه القضيّة.

معترضة حول مَا جاء في سورة (طه) بشأن هذا الموضوع:

يَدُلُّ مَا جَاءَ في سُورَةِ (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) على أَنَّ مُوسَىٰ عليه السلام، كان له موقف آخر مع قومه وأخيه هارون، إذْ كَان هادئاً غير ثائر الغضب، فَقَدَ جاء فيها قول الله عزّ وجل:

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾.

- ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ۚ﴾: سَبَقَ تَدَبُّر نظير هذه العبارة في النصّ الذي من سورة (الأعراف).

- ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ﴾؟!: أي: ألم أُبلّغكُمْ

وعْدَ رَبِّكُمْ أَنْ تَحضُرُوا إلَىٰ جانِبِ الطُّور الأيْمَنِ، وتَسْمَعُوا كلامَ اللَّهِ لي، وهٰذا وعْد حَسَنٌ، فِيهِ تَكْرِيمٌ لَكُمْ، وَتَشْرِيفٌ، وإقناعٌ لَكُمْ بالغيب، وتَثْبِيتٌ على الإيمان الصحيح، فَمَا اسْتَجَبْتُمْ لأَخِي هَارُونَ حينَ أَمَرَكُمْ بِأَنْ تَسِيرُوا على أَثَرِي، وعَصَيْتُمْ وأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي إِذْ كُنْتُمْ وَعَدْتُمُوني أَنْ تَلْحَقُوا بي إلى جانب الطُّور.

وقد سَبَقَ أن وَعَدَهم الله أن ينجيهم من فرعون وآله، وَوَفَّىٰ وعده بمعجزة خارقة.

● ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾؟! أي: أمَرَّ عليكم زَمَنٌ طويل يُعَدُّ بالقرون فطال عليكم العهد، أي: الزَمَنُ، فلفظ «الْعَهْدِ» يُطْلَقُ على الزَمَن، وهذا المعنى هو المناسب هنا.

وفي هذا الاستفهام إنكارٌ شديدٌ عليهم، إذْ لَمْ يَطُلْ عَلَيْهِمُ الزَمَنُ، حتَّى يَدِبَّ إليهم داءُ نِسْيَانِ قضَايا الدِينِ الكُبْرَىٰ، وحَتَّىٰ تَتَسَلَّلَ إليهم المفْهُومَاتُ الشِّرْكِيَّة، ويَتَخِذُوا الأوثانَ آلِهَةً يَعْبُدونها، كَما حَصَلَ لأُمَمِ الرُسُل من قبلهم الذين دَخَلَتْ إليهم الشركيَّات الوثَنِيَّة، بَعْدَ أن طَالَ عليهم الزَّمَنُ قُروناً بيْنَهُمْ وبَيْنَ رُسُلِهِمْ، وجاءت أجيالٌ فيهم مُتَتَابعةٌ لم يُشاهِدُوا الرُّسُلَ ولا الّذين عَاصَرُوهم من المؤمنين، وأَخَذَت الوصايا الدِّينيَّة تنْمَحِي آثارُها بطُول الزمن.

ومعلومٌ أنّ بني إسرائيل يومئذٍ ما زالوا في عَصْرِ الرِّسالة، وقَدْ شاهَدُوا المعجزات الْعظام، ويَقُودُهُمْ رَسُولٌ، فَأَمْرُ دخُولِ الشركِ الوثنيّ فيهم أمْرٌ بَالِغُ الاسْتِنْكَارِ، وبالِغُ العَجَب فِي سُلوك الأمم.

● ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: أي: بل أَرَدْتُمْ أنْ تَعْصُوا، وَتُخَالِفُوا أوامِرَ الله لَكُمْ، اتّباعاً لأهوائِكُمْ ومَفْهُومَاتِكُمُ الْبَاطِلاَت، الَّتِي هِي أَسْبَاب حُلُولِ غَضَبِ رَبّكُمْ عَليكُمْ، الَّذِي يَسْتَدْعِي انْتِقَامَهُ مِنْكُمْ، وعِقَابَهُ وعَذَابَهُ لَكُمْ.

﴿أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ﴾: أي: أَنْ يَنزِل عَليكم غضبٌ من ربّكُمْ حَالاً بِكُمْ حُلُول النازِلِ بالمكانِ حُلُول إقامَةٍ واسْتقرار.

يُقَال لغة: حَلَّ المكانَ، وحلَّ بِهِ يَحِلُّ حُلولاً، أي: نَزَل به.

ويُقال: حَلَلْتُ الْقَوْمَ، وحَلَلْتُ بِهِمْ، وحَلَلْتُ عَلَيْهم.

أُطْلِقَ حُلُولُ الغضب، والمرادُ حُلُولُ ما يُسَبِّبُهُ، وهو العصيان واتّباع الهوى على سبيل المجاز المرسَلِ، وهو من إطلاق المسَبَّب وإرادة السَّبَب.

وجاء التعبير أيضاً بِحُلُولِ الغضب كنايَةً عَنْ حُلُولِ عقابِ اللَّهِ وانتقامه. فالعبارةُ فيها مجازٌ مُرْسَلٌ وكِنَايَةٌ معاً.

● ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾: يشْمَلُ الْمَوْعِدُ هُنَا مَوْعِدَ اللَّحَاق بموسَىٰ على أثره، لشُهُودِ مكالَمَةِ اللَّهِ له، إذْ يكونُونَ في جانب الطُّورِ الأيمن. ومَوْعِدَ الثباتِ على الإيمان الصحيح الصادق، وعدم اتّخاذ إلَهٍ يعبدونه من دون الله.

إخلاَف الوعد: عَدَمُ الوفاء به.

﴿مَّوْعِدِى﴾: أي: مَوْعِدَكُمْ إيَّاي، فهو من إضافة المصْدَرِ إلى المفعول به.

الموعد: مَصْدَرٌ من مصادر فعل: «وَعَد». يقال لغة: وعَدَهُ يَعِدهُ وعْداً، وعِدَةً، ومَوعِداً، ومَوْعِدَة.

والاستفهام الذي جاء في هذه العبارة كان غاية في الحصار الفكرّي الذي حاصرهم فيه موسى عليه السلام بأسئلته لهم.

● ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾: تجاهَلُوا إخلاَفَهم موْعِدَ اللّحَاق به على أثره بقيادة هارون، إذْ لم يكن لديهم ما يوهمون بأنّه عُذْرٌ يَعْتَذِرُون به. وأمّا إخلافُهُمْ مَوْعِدِ الثّباتِ على الدّين الذي تركهم عليه موسى

عليه السّلام، وعَدَمِ اتّخاذ إلَهٍ يَعْبُدُونه من دون الله، فقد وجَدُوا لدَيْهم ما يُلَفِّقُونَ مِنْهُ كلاما يوهِمُونَ أنّه عُذْرٌ.

﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾: لفظ: ﴿بِمَلْكِنَا﴾ فيه ثلاثُ قراءات:

- بفتح الميم، وهي قراءة نافع، وأبي جعفر، وعاصم.
- وبضمّ الميم، وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلَف.
- وبكَسْر الميم، هي قراءة ابن كثير، وأبي عَمْرو، وابْن عامر، ويعقوب. وهي وجوه عربيّة لنطق الكلمة، والمعنى فيها واحد.

أي: ما أخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ الّذِي وعَدْناك إيّاه بإرادتنا واختيارنا، لكنّهم في الحقيقة كانوا كاذبين فيما ادَّعَوْهُ من أنّهم كانُوا مُكْرَهِين، أو كانوا قَدْ عَمِلُوا بما يجبُ عَلَيْهِم ديناً.

فَمَا هو هذا الأمْرُ الدّينيّ الذي جَعَلَهُمْ يَفْعَلُونَ مَا فعلوا؟!

قالوا كما جاء في النّصّ:

- ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا﴾:

وقرأ شعْبَةُ عن عاصم، وحمزة، وأبو عَمْرو، والكسَائي، ورَوْحٌ عن يَعْقُوب: [حَمَلْنَا] بفتح الحاء والميم غير المشدّدة.

﴿أَوْزَارًا﴾: أي: أَحْمَالاً لاحَقَّ لنا بها.

﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾: أي: من حُلِيِّ المصريين استعاروها ليلَة خروجهم من مصر، فأخَذُوها بِحيلَةِ الاستعارة، فكُلُّ شخص منهم استعار من معارفه وجيرانه من المصرين قطعةً أو أكْثَر من الْحُلِيّ الذهبيَّة النفيسة، فاسْتَلَبُوها، وخرجُوا بها.

جاء في الإصحاح الثاني عشر من سفر الخروج:

«أنّ الشيطان وَسْوَسَ لَهُمْ في غَيْبَةِ مُوسَىٰ لميقاتِ رَبّه، أَنَّ هٰذِهِ الْحُلِيَّ لَيْسَتْ مِلْكَهُمْ، وأَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يتخلَّصُوا مِنْهَا بأَنْ يُلقُوهَا فِي النّار، وأَنْ يَجْعَلُوهَا كُتْلَةً واحِدَةً مُنْصَهِرَةً».

ولعلّ ذَلِكَ كان بتزيينٍ من السّامريّ، فلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ جاء السَّامِرِيُّ فألْقَىٰ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْحُلِيّ، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النّصّ:

- ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾﴾:

فَفَعَل مِثْلَما فَعَلُوا ليُوهِمَهُمْ أَنَّهُ يُرِيد التخلُّص ممَّا لَيْسَ لَهُ بِهِ حَقٌّ ممَّا اسْتَعَارَ من المصْرِيين من حُلِيّ الذهب.

ويظهر أنّ السَّامِرِيَّ صاغَ المسْبُوكَ بِمُعَاوَنَةِ خُبَراء صِيَاغَةِ الذهَبِ من بني إسرائيل الْعِجْلَ.

قيل: وكان السامِرِيُّ من قومٍ يَعْبُدونَ البقر، فأعلن إيمانه بموسى وهارون، ودخل في بني إسرائيل.

ولمّا تَمّتْ صياغَة العجل الذهبيّ على ما زيَّنَ لهم السَّامِرِيُّ، أَلْقَىٰ فِي جوفه القبضة الّتي كان قَدْ قبَضَها مِنْ أثَرِ حافِرِ فَرَس جبرِيلَ عليه السلام، فصار العِجْلُ الذَّهَبِيُّ يُخرِجُ مِنْ فَمِهِ صَوْتاً كصَوْتِ عُجُولِ البقر، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

- ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾:

فَلَمَّا رأىٰ جمهورٌ بني إسرائيل هذا العجْلَ الذَّهَبِيَّ لَهُ خُوارٌ، تحقَّقَ لَهُمْ مطْلُوبُهُمْ الذي كانُوا قَدْ طَالَبُوا بِهِ مُوسَىٰ عليه السلام، إذْ قالوا له: اجْعَل لنا إلَهاً كَما لهم آلِهة. عندئذٍ قالوا بإيحاء من السامري على ما يظهر كما جاء في النصّ:

- ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾:

أي: نَسِي مُوسَىٰ أنّ إلَهَهُ الذي ذهب لمناجاته موجودٌ بينهم، في المكان الذي تَرَكه، لذَلِكَ ضلَّ عَنْهُ فهُو يفتِّشُ عنه باحثاً في جبل الطُّورِ فلَمْ يَجدْهُ، فأبْطأ بالرُّجُوع إلينا.

ويَظْهر أنّ مرادَهم روح الإلَه الذي دخَلَ في العجْل، ودلَّ عليه خُوارُهُ العجيب.

هكذا كانت تصَوُّراتُهُمْ عن الإلَه الذي يستحقُّ أن يُعْبَد تصوُّراتٍ بدائيَّة ساذجة، نظير تصَوُّرات عُبَّادِ الأوثان.

وجاء التعليق الرّبانيُّ الحكيم الذي يبيّنُ سفاهتهم، وفساد مفهوماتهم عن الإلَه الرَّبّ المعبود، فقال الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾: أي: أانطَمَسَتْ بصَائِرُهم فلا يَرَوْن بأفكارهم وعقولِهِم، فالمراد بالرُّؤية الرُّؤية الفكريَّةُ العلميّة.

﴿أَنْ لاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً﴾: «أنْ» هي المخففة من الثقيلة، واسْمُها ضمير الشأن، وهو محذوف وجوباً كما يقول النحاة.

والمعنى: أفلا يَرَوْنَ أَنَّ الْعِجْلَ الّذي صَنَعُوه من الذهب لاَ يَرْجِعُ إليهم قولاً، أي: لاَ يَرُدُّ عليهم جواباً إذا سألُوهُ سُؤَالاً ما.

﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾: أي: وأفلا يَرَوْن أنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أنْ يَدْفَعَ عَنْهم ضراً، ولاَ أنْ يجلب لهم نَفْعاً، لأنَّهُ لاَ يَمْلِكُ مَا يدفَعُ به عنهم الضُّرّ، أو يجلُبُ به النفع.

وجاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) أيضاً بيان مُسَاءَلَةِ مُوسَىٰ لأخيه هارون، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾

قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾.

لقد ذهبَتْ فورَةُ الغضب الأولى، الّتي دَفَعَتْ موسَىٰ عليه السَّلامُ إلى أَنْ يأخُذ برأسِ أَخِيه يجُرُّهُ إِلَيْه، وبَدأَ دَوْرُ المحَاسَبَةِ الَّتِي فيها هدوءٌ ما، ولعَلَّ ذَلِكَ كانَ وهم جلُوسٌ، وهارون عليه السلام على يمين موسَىٰ، وموسَىٰ عليه السَّلام يَقْبِضُ علىٰ لِحْيَةِ أَخِيه يُسَائِلُهُ، وقَدْ يقْبِضُ علىٰ شَعرِ رأسِهِ يَهُزُّهُ أَحْيَاناً.

﴿قَالَ يَهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ ﴾:

أي: مَا مَنَعَك مِنْ أَنْ تَتْرُكَهم وتَتبعَنِي إِذْ رَأَيْتَ جماهيرهم ضَلُّوا، وَمَعَكَ أَهْلُ الثباتِ على الحقِّ؟!

ومَا حَملكَ عَلَىٰ أَنْ لاَ تتَّبِعَنِي في هٰذِهِ الحالة؟!

لقد سأل مُوسَىٰ أخاهُ هارون عَنِ المانِعِ له من اتّبَاعِهِ إلى جانب الطور، إذا كان في الواقع أَمْرٌ مانع. وسأَلَهُ أيضاً عن الحامل لَهُ على عَدَمِ اتِّباعه إِذَا كانَ يوجَدُ في الواقع أَمْرٌ حامل.

واختصاراً في التعبير ضُمِّنَ فِعْلُ «مَنَعَ» معنىٰ فِعْل «حَمَلَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيتَهُ، فأغْنَتِ الجملة عن جملتين، والتقدير: مَا مَنَعَكَ عن اتّبَاعِي، ومَا حَمَلَكَ علىٰ عَدَمِ اتّباعي.

﴿تَتَّبِعَنِ﴾: أصلُها: تَتبِعَنِي، حذفت ياء المتكلِّم إيجازاً في اللفظ، ونظير هذا الحذف كثير في اللّسَانِ العربي.

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾؟!: أي: الّذي أمَرْتُك بِهِ إذا اسْتَخْلَفْتُك عَلَىٰ بَني إسْرَائِيل.

● ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾.

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾: أضافَ هارُونُ في هذهِ الإجابَة حَرْف النداء، للتشديد على استعطافه وتَنْبيهه.

﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾: دلَّتْ هٰذِهِ العبارة على أنَّ موسَىٰ عليه السّلام في مَجْلِس المساءلَةِ الثاني، كَانَ يَقْبِضُ على لِحْيَةِ أخِيه هارُون، وقد يأخذ برأسِهِ فَيَهُزُّه، وهٰذا مِنْ حِدَّة موسَىٰ في مُسَاءَلَتِهِ.

﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾

اقتصر هارون في هٰذِهِ الإجابَة على القضيَّةِ الّتي سَأَلَهُ مُوسَىٰ عنها، ولَمْ يُشِرْ إلى مَا سَبَقَ أَنْ اعْتَذَرَ به في مُسَاءَلَتِهِ الأولى.

أي: إنِّي خَشِيتُ إِذَا اتَّبَعْتُكَ مع الَّذِينَ اسْتَجابُوا لي من بني إسْرَائيل، أن تقولَ لي: فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إسْرَائيل، وخَشِيتُ أَنْ تُحَاسِبَنِي وَتُؤَاخِذَنِي على هٰذَا التفريق، فتعارضَ لديَّ أمْرَان، وقد اجْتَهَدْتُ فَتَرَجَّحَ لَدَيَّ أَنْ أَبْقَىٰ فيهم مُنْتَظِراً عَوْدَتك، ولا أترك الظالِمينَ وَحْدَهُمْ، وكُنْتُ لا أَرَىٰ أَنَّ غَيْبَتَكَ سَتَطول. وخشيتُ أيْضاً أَنْ تَقُول لي:

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾: أي: لَمْ تَحفَظْ ولَمْ تُرَاعِ قَوْلي الّذِي قلْتُهُ لكَ حين اسْتَخْلَفْتُكَ، إِذْ قُلْتَ لي: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فقد اجتهَدْتُ أَنْ أُصْلِحَ بِقَدْرِ اسْتِطاعَتِي، ولَمْ أَتَّبعْ سَبِيلَ المفسِدين.

فقَدَّمَ هارونُ عليه السلام بما أبَانَهُ لأخيه عُذْرَهُ كامِلاً، وأوضَحَ له أنَّهُ لَمْ يألُ جُهْداً واجْتِهاداً في رِعَايَةِ الأصْلَحِ الّذِي رآه.

وجاء في سُورَة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بيان مُحَاسبة موسى عليه السلام للسَّامِرِيّ فقال اللّهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ

فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾:

تضمّنَتْ هذه الآيات بيان محاكمة مُوسَىٰ عليه السَّلام للسّامِرِيّ، صاحب فتْنَةِ الْعِجْلِ الذهبيّ الَّذِي له خوار، وما أثْبَتَهُ مُوسَىٰ مِنْ تعليقٍ حولَ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلاّ اللَّهِ.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾﴾؟: أي: قال موسَىٰ عليه السّلام للسامِرِيّ مَا شَأْنك وَمَا حَالُكَ يَا سَامِرِيُّ، والمعنى: ما الذي حَمَلَكَ عَلَىٰ أن تَقُوم بهٰذِهِ الفِتْنَةِ الّتِي أفسَدت بها جمهور بني إسرائيل، وجَعَلْتَهُمْ يَعْبُدُون وَثناً ذهبيّاً على صورة عِجْلٍ؟ وما الّذي جَعَلَكَ تَفْتَرِي هٰذه الفِرْية العظيمة على الله؟

الْخَطْبُ في اللّغة: الأَمْرُ والشأنُ والحال الذي تقع فيه المخاطبة.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴿٩٦﴾﴾ وفي قراءة أُخرىٰ لحمزة، والكسائي، وخلَفْ، [**بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا به**] بتاء المخاطَبين.

والمعنى: أدْرَكْتُ أَمْراً عجيباً إدْركاً جَلِيًّا صَارَ لَدَيّ عِلْماً ثابتاً، وهذا الأَمْرُ الّذِي عَلِمْتُهُ لم تَعْلَمُوا بِهِ، ولَمْ يَعْلَمْ بِهِ سَائِرُ بني إسرائيل.

ذكر المفسّرونَ أنّهُ رَأىٰ جبْرِيلَ عليه السّلام على فَرَسِ الحياة، فوقَعَ في نفسِه أنّ الأثَرَ الَّذِي يبقىٰ في الأرض من حافِرِ فَرَسِ جبريل لاَ يُلْقَىٰ عَلَىٰ غير حيّ إلاّ صار حيًّا. **أقول**: ولعلَّ السّامِرِيَّ أجْرَىٰ تجربة مُصغَّرَةً بَيْنَهُ وبَيْنَ نفسه، قبل أن يَدْعُو بني إسْرائيل لِصُنْع العِجْل من الذهب.

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ. . . ﴿٩٦﴾﴾ ظاهر هذه العبارة يَدُلُّ عَلَىٰ أنه قبَضَ قَبْضةَ تُرابٍ مِنْ مَوْطِىءِ قَدِم جبْرِيلَ رَسُول الوحي إِلَىٰ موسى عليهما السّلام. **القَبْضَةُ**: مَا أَخذْتَ بِجُمْعِ كفِّكَ كلّه.

وعلى ما ذكر المفسّرون تحتاج العبارة إلى تقدير مضافٍ محذوف، أي: من أثر فَرَسِ الرَّسُولِ، أو من أثر حافر فَرَسِ الرَّسُول، والله أعلم.

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾: أي: فَطَرَحْتُ هذه القبضة كما تُنْبَذُ النَّوَاةُ بِسُرْعَةٍ وخفَّةٍ، في جَوْف الذهب المسْبُوك على صورة عِجْلٍ، فصارَ لَهُ خُوارٌ كخُوَارِ الْعُجُولِ من البقر.

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾: **التَّسْوِيل**: التحسين والتزيين، والتحبيبُ بالشيء.

يقال لغة: سَوَّلَ لَهُ يَسُوِّلُ تَسْوِيلاً، أي: حسَّنَ لَهُ وَزَيَّنَ، وحبَّبَ لَهُ الأمْرَ الذي دَعَاهُ إليه، وأغْرَاه بِهِ، وسهَّلَهُ له.

والمعنى: وكان ذلك الَّذي فَعَلْتُه في جَسَدِ الْعِجْل مُمَاثِلاً للَّذِي سَوَّلَته لِي نَفْسِي، فاعْتَرَفَ السَّامِرِيُّ على نَفْسِه بجَريمته، ورُبَّما سَوَّلَتْ له نَفسُه أن يكوّن مُقَدَّماً في بني إسرائيل، ذا مكانة ورياسَةٍ دينيّة.

﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ . . . ﴿٩٧﴾﴾:

تضمَّنْت هٰذِهِ العبارة حُكْمَ مُوسَىٰ عليه بالطَّرْدِ مِنْ مجتمع بني إسرائيل، وإعْلامَهُ ببلاءٍ يَبْتَلِيهِ اللَّهُ بِه، لاَ يَسْتَطِيع مَعَهُ أنْ يمسَّ أحدا أو أنْ يَمَسَّهُ أَحَدٌ من الناسِ طَوَال حياته، وإعْلاَمَهُ بمَوْعِدٍ يَوْم الدّين الذي يُلاقي فيه عند اللَّهِ جزاءه، ويَظْهرُ أنّ اللَّه عزّ وجلّ قد أفْتَىٰ مُوسَىٰ بهذا العقاب.

ولا بُدّ أنْ يكون قد انْطَلَقَ هَائماً لا يَسْتَطِيع أن يقترب من أحد من الناس.

﴿فَٱذْهَبْ﴾: هذه عبارة الطَّرْدِ من مجتمع بني إسْرَائيل.

﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾: هذه عبارةُ إعْلاَمِهِ بأنَّ الله

سَيَبْتَليه بِدَاءٍ لا يَسْتَطِيع مَعَهُ أن يمَسَّ أَحداً، أو أن يَمَسَّهُ أحد، وهذا عقابٌ بعُزْلَة جَبْرِيَّة عن كُلِّ النّاس، فإن اقترب منْهُ أحدٌ من الناس اشتدّت به أوجاعٌ وآلامٌ لا يَطيقها.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾: هو مَوْعِدُ يَوْمِ الدّين، للحسَابِ وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء.

وبعد إصدار الحكم على السامريّ أراد موسَىٰ عليه السّلام أنْ يُرِيَ السَّامِرِيَّ، ويُرِيَ عُبأد الْعِجْلِ من بني إسرائيل مَهَانَةَ وضَعْفَ إلَهِهِمْ الْعِجل، فقال للسَّامِرِيّ:

● ﴿وَانظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾:

أي: وانْظُرْ إلى عِجْلِكَ الَّذِي اتَّخَذْتَهُ إلَهاً، وأَقَمْتَ عِنْدَهُ، ملازماً عبادته، ودَعَوْتَ بَنِي إسْرَائيل إلى عبادته، انظر بعَيْنَيْك ماذا سنَفْعل به.

﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾: أي: بَقِيت ملازماً لعِبَادَتِه كُلَّ نَهَارٍ مضَىٰ عَلَيْكَ من يوم صُنْعِه أنْتَ ومَنْ عَبَدَهُ مَعَك من بني إسرائيل، لأنهم كانوا يتركُونه لَيْلا.

يُقَالُ لُغَةً: ظَلَّ نَهارَهُ يَفْعَلُ كذا، وَظَلِلْتُ، وَظَلْتُ، وظِلْتُ، لا يُقَالُ ذَلِكَ إلاَّ في النهار.

عَاكِفاً: أي مُقِيماً مُلاَزِماً ملازمة عبادةٍ له.

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾: أي: حَتَّىٰ يَنْصَهِرَ، ويَرَى بَنُو إسْرَائيلَ أنْ هذا الإلَه الذي عَبَدُوهُ لم يَسْتَطِعْ أنْ يُدَافِعَ عَنْ نَفْسِه.

﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ أَنْ نُفَتِّتَهُ إلى أجْزَاءٍ صُغْرَىٰ كَذَرَّاتِ الرَّمل، لَنَنسِفَنَّهُ مُتَفَرِّقَ الذَّرَاتِ في الْبَحْر.

يقال لغة: نَسَفَ فُلاَنُ الشيءَ، أي: فَرَّقَهُ وَأَذْراه، ونَسَفَتِ الريح الترابَ، أي: حملَتْ أجزاءَهُ الصُّغرىٰ وفَرَّقَتْهُ حيْثُ اتجهت.

ويظهر أنّ موسَىٰ عليه السلام أمَرَ بإيقادِ نارٍ شديدة، أَمَام السَّامِرِيّ، وأمام جماهير بني إسْرائيل، حَوْل هذا الإلّه المصنوع المفترى به على الله، فلمَّا حَرَّقَهُ وانطَفَأَتِ النّار حولَه وبَرَد، أَمَرَ بِتَفْتِيتِه إلَىٰ أجزاء صُغرى دقيقة.

جاء في الإِصْحَاحِ الثاني والثلاثين من سِفْرِ الخرُوج، ما يلي:

«٢٠ ـ ثمّ أَخَذَ الْعِجْلَ الَّذِي صَنَعُوهُ وأحْرَقَهُ بالنار وطَحَنَهُ حَتَّىٰ صار ناعِماً وذَرَّاهُ علَىٰ وَجْهِ الْمَاءِ وسَقَىٰ بَنِي إسْرَائيل».

لكنَّ القرآن أبان أن موسَىٰ عليه السلام تَوَعَّدَ بني إسْرائيل بأَنْ يَنْسِفَهُ في الْيَمّ نَسْفاً، أيْ: في الْبَحْر، وذكْرُ اليَمّ يُبْعِدُ أنْ يَكُونَ ذَرَّاهُ على وجْهِ الماء وسَقَاهُ مع الماء بني إسرائيل.

ولعل نُسَّاخ السِّفْرِ، وجَدُوا في الأصل أَنَّ بني إسْرَائيل أشْرِبُوا فِي قُلُوبهم حُبَّ الْعِجْلِ، كَمَا جاء في القرآن، فَفَسَّرُوا ذَلِكَ من عندهم أنَّ مُوسَىٰ عليه السَّلام سَقَىٰ ذَرَّاتِ الْعِجْلِ مَعَ الماء بني إسرائيل.

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

بَعْد أنْ أبانَ مُوسَىٰ عليه السَّلاَمُ، بالتطبيق الْعَمَلِيّ، أَنَّ الْعِجْلَ الَّذِي أَحَبُوهُ وَعَبَدُوهُ لَيْسَ لَهُ من الإلَهِيَّةِ شيءٌ، وأَنَّهُ صُورَةٌ مَصْنُوعَةٌ مِنْ مَادَّةٍ من مواد الأرض الَّتِي خَلَقَها اللَّهُ، وأَنَّ خُوَارَهُ لَمْ يَكُنْ أَكْثَرَ مِنْ ظَاهِرَة مِنْ ظواهِر تَأْثِيرات الأشياء في الأشياء، كتأثير مُرُور الرِّيح في بُوقٍ إذْ يُحْدِثُ صَوْتاً ناعماً رقيقاً أو غليظاً خَشِناً.

بعد ذلك أبان لَهُمْ أنّه لاَ إلَه بحَقّ في الوجُود إلاَّ اللَّهُ الرَّبُّ الَّذِي وسِعَ كُلَّ شَيْءٍ علماً.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حَصْرٍ، تَدلُّ على ما يَدُلُّ عليه النفْيُ والاستثناء.

﴿إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي: هو الذي لا يُعْبَدُ في الوجود بحقٍّ إلاّ هو.

﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾: أي: لا بُدّ أن يكون من صِفَاتِ الإلَـهِ المعبود، أَنْ يكون قد وَسِعَ كُلَّ شيءٍ عِلماً، وفي هذا إِلْمَاحٌ لهم إلى أنَّهُ مُطَّلِعُ على ما في قلوبهم من إيمان أو شرك، عليم بأعمالهم ما ظهر منها وما بطن، لذلِكَ فهو يجازيهم بِحِكْمَتِهِ وعَدْلِه.

وبهذا قطع موسَىٰ دابِر التطلُّع لاتخاذ إلَهٍ وثَنٍ من نفوس بني إسْرَائيل يَوْمَئِذٍ.

* * *

عَوْد إلى استِكْمَال تَدَبُّر الْفَقرة الْخَامِسَةِ من قصة موسى وهارون من سورة (الأعراف).

قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾.

جاء هذا التعليق الرَّبَّانِيُّ بياناً بِشَأْنِ الّذِينَ اتّخَذُوا الْعِجْلَ من بَنِي إسْرائيل، مُتَضَمِّناً الْحُكْمَ الجزائِيَّ بِشَأْنِهِمْ، لإعطاء الْحَدَثِ الفائدةَ الدّينيَّةَ من ذكر، والموعظَةَ لكُلّ مَنْ يتْلو القرآن أو يسْتَمِعُ إليه، حتَّىٰ آخِرِ مُمْتَحَنٍ في ظُرُوف هٰذه الحياة الدنيا.

أبانَ الله عزّ وجلّ في هٰذا التعْلِيق حُكْمَهُ الجزائيَّ الَّذِي حَكَمَ بِهِ عَقِبَ حَدَثِ اتّخَاذِ بَني إسْرائيل العجْلَ، وَأَبَانَ فيه أيضاً حُكْمَهُ بالنِّسْبَةِ إلى التَّائبين.

ويظْهَرُ أَنَّ الله جلَّتْ حِكْمَتُه قَدْ أوحَىٰ بِهِ إلى موسىٰ عليه السَّلام، وأنَّ مُوسَىٰ قد بلَّغَهُ لِقَوْمِه، وهو بيانٌ له مع ذلِكَ صِفَةُ الحكْمِ المستَمِرّ، لكُلِّ مَنْ يُشْرِكُ باللَّهِ وَثَناً أَوْ غَيْرَه، ولِكُلِّ مَنْ يَفْتَرِي علَىٰ اللَّهِ الكَذِب في الدِّين، ما دامَ في الأرضِ مُمْتَحنُون مُكَلَّفُونَ، ولِكُلِّ مَنْ يَتُوبُ من كُفرِهِ ويُؤْمِنُ فإنَّهُ يَلْقَىٰ اللَّهَ غَفُوراً رحِيماً ما دام في رحلة الامتحان، ولَمْ يُقْفَلْ بَابُ التوبَة.

إنَّ الْعُقُوبَة المعجَّلَةَ في الدُّنيا الَّتي قضَىٰ اللَّهُ عزَّ وَجَلَّ بها على الَّذين اتَّخذُوا الْعِجْلَ مِنْ بني إسرائيل ذاتُ أثَرَيْن:

الأثَرُ الأول: أَنَّهُمْ سَينالُهُمْ غَضَبٌ من اللَّهِ في الحياة الدنيا.

الأثَرُ الثاني: أَنَّهُمْ سَتَنَالُهُمْ ذِلَّةٌ بقَضَاءِ اللَّهِ وقَدَرِه، في الحياة الدنيا أيضاً.

دلَّ على هٰذَين الأثرين قول الله تعالىٰ في النصّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا... ﴿١٥٢﴾﴾:

أي: سَيَصِلُهُمْ حتَّىٰ يَمْسِكَ بِهِمْ غَضَبٌ من ربّهم وذِلَّةٌ في الحياة الدُّنيا.

يُقَال لغة: نَالَ الشيءُ فُلاَناً، أي: وصَلَ إليه، فإذا كان هذا الشيءُ ممّا يُمْسِكُ ويَعْلَقُ أَمْسَكَ به وعَلِق.

الغَضَب: صفة من صفات النفْس من آثارها الانتقامُ والعقوبة.

الذلّة: الضَّعْفُ والهوان.

وقد أنْزل الله عزّ وجلّ بالَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجْلَ من بَنِي إسرائيلَ فِي عَهْدِ مُوسَىٰ العقوبَةَ الشّدِيدَة، وهي القتل، وأنْزَلَ بِهِمُ الضَّعْفَ والهوانَ.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾:

دلّت هٰذِهِ الجملَةُ على سُنَّةٍ ثابِتَةٍ من سُنَنِ اللّٰهِ في الجزاء، فهذه العقوبة المعجَّلَةُ الّتي نالَتْ مُتَّخِذِي الْعِجْلِ من بَنِي إسْرَائيلَ في عَهْدِ مُوسَىٰ عليه السَّلام، ستَنَالُ أمْثَالَهُمْ من الَّذِينَ يَفْتَرُونَ في دِين الله شِرْكاً، وَيَتَّخِذُونَ أوثاناً.

أيْ: وكذلكَ الجزاء سنَجْزِي كلَّ المفترينَ على الله في أُصُولِ الدِّين وأَحْكَامِهِ، فَسَيَنَالُهُمْ فِي الحياة الدُّنْيا غَضَبٌ من رَبّهم وَذِلَّة.

وهذا العقابُ المعجَّلُ غَيْرُ الْعِقَابِ المؤجَّلِ إلىٰ يَوْمِ الدّين، إذَا مَاتُوا وهُمْ كافرون مُشْرِكون، ولَمْ يَتُوبُوا إلى رَبِّهم، مؤمنين إيماناً صَحِيحاً صَادِقاً.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾:

لَمْ يَتْرُكِ اللَّهُ جلَّتْ حكمَتُه الّذِين أَجْرَمُوا باتِّخَاذِ الْعِجْلِ دون إطْماعِ لهم بالتوبة، ما دَامَتْ مُدَّةُ امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدنيا لَمْ تَنْتَه، لِيُنْقِذُوا أنْفُسَهُمْ مِنْ عذاب الآخرة.

بَلْ فَتَحَ اللَّهُ عزّ وجلّ لهم بابَ التوبَة، كَشَأْنِهِ مع كُلّ الْعُصَاة والكفَرَةِ المجْرِمين في كلّ أُمَّةٍ، وفي كلّ حادثة.

السَّيِّئَات: جَمْعُ السّيِّئَة، وهي في اللُّغة مؤنَّثُ السَّيِّء بِمَعْنَىٰ القبيح والشَّيْء المكروه، فالسَّيِّئَة كُلُّ فَعْلَةٍ أو خَصْلَةٍ أو عادَةٍ قبيحةٍ مَكْرُوهة، وكذلِكَ كُلُّ نَازِلَةٍ مَكْرُوهةٍ تَسُوءُ مَنْ نزلَتْ به، ولو كانت من العقوبَاتِ والْبَلاَيَا الرَّبَّانِيَّة.

وأُطْلِقَتِ السَّيِّئَةُ في القرآن على كلّ ذَنْبٍ من الكَبائر فما دُونَ ذَلِكَ حتّىٰ الصَّغائر. وأُطْلِقَتْ على النوازل والعقوبات الّتي تَسُوءُ من نزلَتْ بِهِ.

﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي ثُمَّ رَجَعُوا عن سيّئاتهم إلى صراط الله وطاعته مستغفرين ربّهم.

فالَّذِينَ عَمِلُوا السّيّئاتِ ولَوْ كانت من الكبائر كالكُفْرِ باللَّهِ والإشراكِ بِه، ثُمَّ تَابُوا من بَعْدِها، ولو أبطَأَتْ تَوْبتهم، بدلالة حرف العطف «ثُمَّ» ما داموا في مُدَّةِ امتحانهم في الحياة الدُّنيا، لم يُقْفَلْ دُونَهُمْ باب التوبة، ولَمْ يَقْتَصِروا على التوبة السلبيَّة كَتَرْك عبادة الأوثان، بلْ قَامُوا بعَمَلٍ إيجابِيٍّ صالح، وهو الإيمان الصحيح الخالي من أي شرك، لأنّه الشرط الأسَاسُ للنَّجاةِ عند اللَّهِ يوم الدِّين، فإنّ الله عزّ وجَلّ يَغْفِرُ لهم برَحْمَته.

دلَّ على هذا المطويّ في مثاني الآية، الثناء على اللَّهِ بجُمْلَةِ:

... ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

أي: إنّ رَبّكَ أيُها المخاطبُ أيًا كُنتَ، إذَا اتْبَعْتَ سَيِّئَتك بحَسَنَةِ التوبَةِ والإيمان الصحيح، لغفُورٌ للّذِين سَبَقَ أنْ عَمِلُوا السَّيّئات، رَحِيمٌ بهم، كما هو غَفُورٌ رَحيم دواماً.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾.

بعد التعليق الرَّبّانيّ بشأن الَّذِين اتَّخذُوا الْعِجْل، أبان اللَّهُ عزّ وجلّ أنَّ موسَىٰ عليه السَّلاَم هَدأ غَضَبُه، فأخَذَ الألواحَ من الأرض، وكان قد ألقاها من شدّة غَضِبه كما سَبَقَ بيانه.

● ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَ... ١٥٤﴾:

شبَّهَ اللَّهُ عزّ وجلَّ لنا حَرَكَةَ الغضَبَ في نَفْسِ مُوسَىٰ بثائرٍ ذي مطالِبَ يُطَالِبُ بها، ويَصِيحُ مُتَحَدِّثاً بها، ومن آثار هذه المطالِبِ الغضبيَّة توجِيهُ التَّلْويم والتثريب وعبارات التَّذَمُّر، ومن آثارِها تحرُّكَ الجُمْلَةِ العصَبيَّةِ للمعاقبَةِ والانتقام:

فإذا هدَأَتْ ثَوْرَةُ الْغَضَبِ كان من أَثَرِ هدوئها السُّكُوتُ النَّفْسِي عَنْ تِلْكَ المطالب، ولَوْ بصُورَةٍ مؤقَّتة، فكان هُدُوءُ الغضب بمثابَةِ سكوته.

وهذه من الاستعارات البديعة، الَّتي تُصَوِّرُ فيها الحركات النفسيَّةُ الداخِلِيَّةُ بأمْثِلَةٍ تُدْرَكُ بالحسّ الظاهر.

أي: وحين هدأَتْ نَفْسُ موسَىٰ، وذهبَتْ عنها ثورة الْغَضَب الشّديد، أخذَ الأَلْواح التي كتَبَ اللَّهُ له فيها بعض تعليمات الدين، ومِنْهَا الوصايا العشر.

﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾: أي: وَفِي المكتوب فيها. **النَّسْخُ**[1] في اللُّغَة: يأتي بمعنىٰ أَنْ تكْتُبَ كِتاباً عن كتاب حَرْفاً بِحَرْف. **والنُّسْخَةُ**: الشَّيءُ المكتوبُ فيه، المنْسُوخُ عن مكْتُوبٍ آخر. ويُطْلَقَ على المنْسُوخِ عنه نُسْخَةٌ أيضاً.

وقَدْ دَلَّت عبارة: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ على أنَّ مَا كُتِبَ في الألواح الحجريَّة لموسَىٰ عليه السَّلام، مُسْتَنْسَخٌ عمَّا هو مكتوبٌ في اللَّوْحِ المحْفُوظِ عنْدَ الله.

﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾: أي: وفيما كتبَ اللَّهُ عزّ وجلّ في الألواح لموسى مُسْتَنسخاً عمَّا عند الله عزّ وجلّ في اللَّوْحِ المحفوظ أمران مُمْتزجانِ مُخْتَلطان:

الأمْرُ الأول: هُدىً.

والأمْرُ الثاني: رَحْمَةٌ.

● أَمَّا كوْنُه هُدىً فلِأنّه يشْتَمِلُ على أحْكامٍ تَهْدِي الناسَ إلى سبيلِ سعادَتِهم في الدُّنيا وفي الآخرة، ويشتمل على مَواعِظ تَسْتَثِيرُ فيهم الرَّغبَ والرَّهب، فتَجْعَلُهُمْ يسْلُكونَ سبيلَ هِدَايَتِهِم إلَىٰ سعادتهم، ويشتمل على

---

(١) والنّسخ يأتي بمعنى الإزالة.

معارف وبيانَاتٍ تُخرِجُهُمْ من ظُلُمات الأهواء والشَّهوات والضَّلاَلاَت ووساوِسِ الشياطين، وتَضَعُهُمْ في طريق النور والحق والخيْرِ والفضيلَة والرَّشاد.

● وأَمَّا كَوْنُهُ رَحْمَةً، فلأَنَّ هِدَايَةَ الضَّالِّ إنَّما تَكُونُ أثراً مِنْ آثار الرَّحْمَةِ به، وكذَلِكَ إرْشَادُهُ وتَعْلِيمُهُ، ودَلاَلَتُهُ علَىٰ صِرَاطِ سَعادَتِه ونجاتِه وفَلاَحِه.

ولأنَّه يشْتَمِلُ علَىٰ بشارة للمؤمنين المتقين بجنَّاتِ النّعيم، المغمورات برَحْمَةِ اللَّهِ يَوْمَ الدّين. ويشتمل على بشارة للعصاة المذنبين بالمغفرة والعفو، إذا تابُوا إلى بارئهم واسْتَغْفَرُوه، وكِلاَهُمَا من آثارِ صفة الرَّحْمَة.

ويشتمل على تَحْذِيرٍ من شقاء الدُّنيا وعذابِ الآخِرَة، اللَّذَيْن يُسَبّبُهما الكُفْر والشركُ بالله، وارْتِكَابُ كبائر الإثم، وهذا أيضاً من رحمة اللَّهِ بعباده.

﴿... هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾:

هذه العبارة تُبَيّنُ الّذين يَنْتَفِعُونَ ويَسْتَفِيدُونَ ممّا في نُسْخَةِ الألْوَاحِ من هدِىً ورحمة، وهم الّذِين يَرْهَبُونَ عَذَابَ رَبّهم، ومَن رَهِبَ عَذَابَ الله اتَّقاه، فالمستفيدونَ هُمُ المتقون.

ودَخَلَت اللام على لفظ ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ لِتَقْوِية عَمَلِ فِعْل ﴿يَرْهَبُونَ﴾ إذْ تَقَدَّمَ المفْعُولُ بِهِ على الفِعْل للتخصيص، ولمراعة رُؤوس الآي.

❁ ❁ ❁

الفقرة السادسة

ميعاد الميقات الثاني ميقات التوبة والاعتذار والشفاعة

الآيات من (١٥٥ ـ ١٥٧).

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

﴿ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

القراءات:

(١٥٦) ● قرأ نافع، وأبو جعفر: ﴿عَذَابِيَ أُصِيبُ﴾: بفتح ياء المتكلم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**عَذَابِي أُصِيبُ**]: بإسْكان يَاء المتكلم مع المدّ في الوصل. وفتح ياء المتكلم وإسكانُهَا وَجْهَانِ عَربيان في النطق.

(١٥٧) ● قرأ نافع: [**النَّبِيءَ**] مع المدّ المتصل.

وقرأ باقي القرّاء العَشَرَةِ ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ بِتَشْدِيدِ الياء.

والقراءتان لُغَتَانِ في لِسَانِ العرب لهذه الكلمة.

(١٥٧) ● قرأ ابن عامر: [**ءَاصَارَهُمْ**]: بالجمع، وهو جمع «إِصْر».

وقرأ باقي الْقُرّاءِ العشرَةِ ﴿إِصْرَهُمْ﴾: بالإفراد، وهو اسم جنس. ومؤدّى القراءتين واحد، لأنّ اسْم الجنس المضاف إلى المعرفة يعُمُّ، فيكون بمثابة الجمع.

تمهيد:

ترجّح لدَيَّ أَنَّ الميقاتَ الواردَ في هذا النصّ هو ميقاتٌ آخر، بَعْدَ

ميقاتِ كتابَةِ الألواح لموسىٰ عَليْه السّلام، ويُمْكِنُ أنْ نَعْتَبِرَهُ ميقاتَ التَّوبة والاعْتِذَارِ، والشفاعَةِ للّذِينَ أجْرَمُوا باتّخذا الْعِجْلِ وعبادتِه من جماهير بني إسرائيل.

ويظْهَرُ مِنْ دَلائِلِ النُّصُوصِ وإشاراتها، أنَّ مُوسَىٰ عليه السّلام سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَأْتِي لِمُنَاجاتِهِ عِنْدَ جَبَلِ الطُّور، حَيْثُ كَانَ الميعَادُ السَّابِقُ، وَمَعَهُ فِي هٰذا الميعاد الآخر النُّخْبَةُ المختارَةُ مِنْ كُلّ بَنِي إسْرَائيل الَّذِينَ خَرَجُوا مَعَهُ من مصْرَ، لِيَسْجُدُوا لِرَبِّهم، ويُعْلِنُوا تَوْبَتَهُمْ واسْتِغْفَارَهُمْ عَنْ أَنْفُسِهم، إذْ لَمْ يَقُومُوا بما يَجِبُ عليهم من مَنْعِ جماهيرِهِمْ عن اتّخاذِ الْعِجْلِ وعبادته وَلَوْ بالقوَّة، فإذا لم يَسْتَطيعُوا فَارَقُوهم وهَجَرُوهُمْ واعْتزلُوهم، وليُعْلِنُوا لِرَبّهم في الْوَادي المقَدَّس طُوىٰ تَوْبَةَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ وَعَبَدُوه، مع الشفاعة لَهُمْ أَنْ لاَ يُهْلِكَهُمُ اللّٰهُ بعذابِ شامل، فهي رحلة مناجاة، واعْتِذَارٍ، وَتَوْبَةٍ، واسْتِغْفَارٍ، وشفاعَة.

وقد جاء في الإصْحَاحِ العاشر من سِفْر اللاّويّين، ذِكْرُ لِقَاءَيْنِ في ميقاتَيْنِ لموسَىٰ مع رَبّه عِنْدَ جَبَلِ الطُّورِ، بَعْدَ خُرُوج بَني إسرائيل من مِصْر، وأَنَّهُ كانَ مَعَ مُوسَىٰ عليه السّلام في أَحَدِ هَذَيْنِ اللّقَاءَيْنِ أَخوهُ هَارون عليه السلام، و«نَاداب» و«أَبيهو» ابْنَا هارون. و«يَشُوع» وسبْعُونَ من شيوخ بني إسْرَائيل.

وبناء على هذا الذي ترجّح لدَيَّ في النظرة الكليّة العامّة، أشْرَعُ في تَدَبُّر فِقَرَاتِ هذا النصّ.

التدبّر:

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا . . .﴿١٥٥﴾﴾.

يقال لغة: اخْتَارَ الشَّيْءَ مِنْ أشياء، أي: انتقاه وفضَّلَهُ عليها واصطفاه.

أورد المفسّرون في تحليل هٰذه العبارة عِدَّةَ تخْريجات:

● فقيل: أصل الكلام: واختار موسَىٰ مِنْ قومِهِ سبعين رجلاً. وحذفت كلمة «مِنْ» للإيجاز، فانْتَصَب لفظ «قومه» على أنه مفعول به ثانٍ، والمفعولُ الأول المتأخِّر ترتيباً في الجملة هو لفظ: «سبعين».

● وقيل: لفظ «سَبْعين» بدلٌ من لفظ «قومه» على أَنَّهُ بَدَلُ بعْضٍ مِنْ كُلٍّ.

● وذكر الرّازي وجهاً آخر، وهو أنْ يكُون لفظ «سَبْعِين» عطْفَ بيانٍ، على اعتبار أنَّ القوم الّذين رأىٰ مُوسَىٰ أَنَّهم قَوْمُهُ المتابعُونَ لَهُ حَقِيقَةً هُمُ السَّبْعُون الّذِين اختارهم، أي: أمَّا بقيَّةُ بني إسرَائيل فَهُمْ أعْدَادٌ صُوريّة، مَالئةٌ فراغاتٍ في السَّواد الأعظم.

وهذا الوجْهُ الّذي ذكره الرّازِي ذُو مضمون فكرِيٍّ جديرٍ بالاعتبار، أمّا الوجْهان الأخيران فتخريجان نَحْوِيَّانِ فقط.

جاء في الإصحاح الثّاني عشر من سِفْرِ الخروج، أنَّ بني إسْرَايل كانوا حين خروجِهم من مصْرَ بقيادة موسىٰ عَلَيْهِ السلام، سِتّ مِئَةِ أَلْفِ ماشٍ من الرّجال عَدَا الأولاد.

فمن هذا العدد الكثير اختار موسى عليه السلام للميقات الثاني، ميقاتِ الاعتذار، والتوبة، والاستغفار، والشفاعة، سبعين رجلاً فقط، ولا يدخُل هارون عليه السلام في السبعين المختارين، لأنّه مثلُ أخيه نبيٌّ ورسول، وقد يكون «نَاداب» و«أَبِيهو» و«يَشُوع» غير السَّبعين أيضاً، لأنهم كانُوا مُقَدَّمِين إيماناً وصِدْقاً وبرًا وإِحْسَاناً، عنْد موسى قَبْلَ هذا الاختيار الذي اختاره لهذا الميقات.

وانْطَلَقَ مُوسَى عليه السَّلامُ مع الَّذِين اصْطَفَاهُمْ من قومه إلى الميقات الثّاني الزَّمَانِي والمكاني، ميقاتِ الاعتذار والتوبة والاستغفار والشفاعة للّذِينَ اتّخذوا العجل.

وسَجَدَ مُوسَىٰ لرَبِّه، ودَعَا واستَغْفر، ووقف الذين مَعَهُ قريباً من الجبل، ولم يَصْعَدُوا عَلَيْه، لأنَّهم نُهوا عن ذَلِكَ، ودخَلَ مُوسَىٰ في الْغَمَامِ الَّذِي ظلَّلَ الجبل، فكانَ الْغَمَامُ مُجَلِّلاً سَاتراً.

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾:

لَقَدْ زَلْزلَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ الأرضَ من تحت بني إسرائيل الذي حَضَرُوا مَعَ مُوسَىٰ، فأخَذَتْهُمْ رَجْفَةُ الأَرْضِ، أي: قبضَتْهُمْ جَمِيعاً، وهزَّتْهُمْ مَعَها، وأَخَذَتْ قُلوبَهُمْ رَجْفَةُ الرُّعْبِ من الموت، ومن دفنهم أَحْيَاءَ في شُقُوقِ الأرض.

ويظهر أنَّ اللَّهَ جَلَّتْ حِكْمَتُه شاء أَنْ يُعْطِيَهُمْ بهٰذِهِ الرَّجْفَةِ دَرْساً تَرْبَويًا عَمَلِيًا، يُشْعِرُهُمْ فِيه أَنَّهُ لَوْ زادَ هٰذِهِ الرَّجْفَة زِيَادَةً قَليلَةً لأهْلَكَهُمْ بِها، ولَدَفَنَهُمْ فِي بَاطِنِ الأرْضِ الَّتِي يَقِفُونَ عليها، فإذا كانوا قَدْ خَافُوا علىٰ أنْفسِهِمْ مِنْ جَمَاهِيرِ قَوْمِهُم الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ وعَبَدُوه، فلَمْ يأخُذُوا على أيْدِيهم بالْقُوَّة، فاللَّهُ أحَقُّ أن يَخْشَوْهُ، لِأَنَّهُ قادِرٌ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ وعزّ سُلْطَانُه ـ على أَنْ يَمْحُوهُمْ من الوجود كُلِّهِ بِطَرْفَةِ عَيْنٍ، أو بأقَلَّ من ذلك.

عندئذ خاف موسى عليه السلام على صَفْوَةِ قَوْمِهِ أَنْ يُدْفَنُوا في الأَرْضِ بِهٰذِهِ الرَّجْفَةِ التأديبيَّةِ التَّرْبَوِيَّةِ، ولم يكن يَعْلَمُ أَنَّها لتأديبِهم وتَرْبيَتِهم بصُورَةٍ عمليَّةٍ مُرْهِبَةٍ، فتوجَّه لرَبِّه داعياً ملْتَجِئاً:

﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ . . . ﴿١٥٥﴾﴾؟؟

إنّ الحدّة في طبْع موسَى الفِطْريّ لَمْ تُمكِّنْهُ مِنْ أَنْ يَصْبِرَ قَلِيلاً، لِيَرَى أَثَرَ الرَّجْفَة، ولِيُدْرِكَ أَنَّ المقْصُودَ بِهَا تَأْدِيبُهُمْ، وَتَرْبيتُهُمْ، لا إهْلاَكُهم، والغرضُ مِنْ هٰذَا التأديب أَنْ لا يتَهاوَنُوا مُسْتَقْبلاً في أَمْرِ الدِّين، ولا يتَسَاهَلُوا مَعَ المحرّفِينَ والمبدِّلِين.

فأَسْرَعَ مَعَ بَدْءِ حُدُوث أوائلِ الرَّجفَة قائلاً:

• ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ﴾: أي: لو أنك شئت إهلاكَهُمْ عَلَىٰ تَقْصِيرِهِمْ في الأخْذِ على أيْدي سُفهاءِ بني إسْرَائِيلَ، لكُنْتَ أهْلَكْتَهُمْ قبل مَجيئهم مُعْتَذِرين تائبِينَ مُسْتَغْفِرينَ شَافِعِينَ للّذين أجْرَمُوا، دُونَ أنْ تَجْعَل لَنَا ميقَاتاً لِتَقْدِيم هٰذِهِ التَّضَرّعَات، ولكُنْتَ أهْلَكْتَنِي مَعَهُمْ، لأنّني عَجِلْتُ في الميقاتِ السَّابِقِ فَلَمْ أَصْحَبْ قَوْمي مَعِي، واكْتَفَيْتُ بِتَكْلِيفِهِمْ أنْ يَأْتُوا وَرَائي بقيادَةِ أَخِي هَارُونَ، فَعَصَوْهُ.

هذه المعاني نَفْهَمُهَا مِنْ مَثَاني القول.

• ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؟! وَخِلَالَ دُعَائِه أدْرَكَ مُوسَىٰ عليه السَّلَامُ أنَّ تَقْصِيرَ صَفْوَةِ قَوْمِهِ، وتَعَجُّلَه، لا يَقْتَضِيَانِ بِحَسَبِ سُنَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ في الجزاء إهلاكَهُمْ، فقالَ دَاعِياً: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؟! أي: أتُهْلِكُنَا بِسَبَب مَا فَعَلَ السُّفهاءُ مِنَّا، الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الإهْلَاكَ لِأَنَّهُمْ أشْرَكُوا، مَعَ كُلِّ آيات التَّوحِيدِ العظمَىٰ الَّتي شَهِدُوها، نظراً إلى أنَّهُمُ الجمهُورُ الأعظم مِنَّا، فهذا العِرْقُ البشريُّ لا يستَحِقُّ البقَاء في الحياة الدنيا، لكَثْرَة السُّفَهَاءِ الضَّالِّينَ فيه.

استفهامٌ فيه معْنَى التفجُّع، وهُو مبنيٌّ على ظَنٍّ ضعيفٍ سبَقَ إلى ذهْنِه، فرأَىٰ فيه أنَّ هٰذِهِ الرَّجْفة رَجْفَةُ إهْلَاكٍ.

لَقَدْ كان مُوسَىٰ عليه السّلام مَعْذُوراً في تصَوّراتِه، بسبب هَوْلِ المفاجَأةِ الّتي شَهِدَها بالرَّجفَة.

ولكِنْ سَرْعَانَ ما أدْرَكَ عليه السَّلَامُ أنَّ الحياة الدُّنْيا كُلَّها حيَاةُ امْتِحَانٍ للْعباد، فما جَرَىٰ لِقَوْمِهِ، وما جَرَىٰ مِنْهم من صُنْعِ العِجْلِ وَخُوارِه، وعِبَادَةِ جُمْهورِ بَنِي إسْرَائيلَ السُّفَهَاءِ له، هو مظْهَرٌ من مظاهِرِ هذا الامتحان، فقال في دُعَائِهِ لِرَبّه:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ... ﴿١٥٥﴾﴾:

أي: ما الْقِصَّةُ الّتي جَرَتْ، وجَرَتْ أَحْدَاثُها، ومِنْهَا تمكينُ السَّامِرِيِّ من أَخْذِ القَبْضَةِ من أَثَرِ الرَّسُول، وصُنْعِ الْعِجْلِ الذي يَصْدُرُ عَنْهُ خَوَارٌ كخوار الْعُجُولِ، إلاَّ مَظْهَرٌ من مظاهِرِ امتحانِكَ لعِبَادِك، هَلْ يَثْبتُونَ على الدِّين، أم يَنْحَرِفونَ عَنه، ويُحَرِّفون فيه.

الفتنة: هي في الأصْلِ الصَّهْرُ بالنّار للمعْدن، كالذّهب والفضة، لتمييز الجيد من الرّديء، والصافي من المختلط بالشوائب.

يقال لغة: فتن الصائغ الذّهَبَ يَفتِنُه فَتْناً وفُتُوناً، أي: أذابَهُ بالنّار ليختَبَره.

ثمّ صارَتْ مَادّة الكلمة تدلُّ على مُطْلَقِ الابتلاء والامتحان والاختبار، وهذا هُوَ المعنى المراد بكلمة الفتنة في النصّ هنا.

«إنْ» في العبارة هنا حرف نفْي بمعنَىٰ: «ما» النافية، أي: ما الْقِصَّةُ التي جرَتْ كُلُّها إلاَّ فِتْنَتُكَ يا رَبّ، بمعنى: أنّ كُلَّ الذي جرىٰ كان ضمن دائرة امتحانك الحكيم لبني إسرائيل، المشمول بعلْمِك المحيط بكلّ شيء، دلَّ على هذه الإضَافَاتِ أنّ امتحان اللّه جَلَّ جلالُهُ لا يكونُ إلاَّ كذلِكَ.

وبما أنّ الامتحانَ امتحانُكَ، والفتنةَ فِتْنَتُكَ، فأنْتَ الَّذِي تقضي بِعدْلِكَ، أوْ بِفَضْلِكَ بَيْنَ عِبَادِك، وأَنْتَ أَحْكَمُ الحاكمين.

- ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ أي: تحكُمُ بِعَدْلِكَ بالنَّظرِ إلى نتائج فِتْنَتِكَ لعبادك، بالضَّلالِ على مَنْ تشاءُ من عبادِك، لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِك.
- ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ أي: وتَحْكُمُ بالْهِدَايَةِ بالنَظَر أيضاً إلَىٰ نتائِج فتْنَتِكَ لعبادك، لِمَنْ تَشَاءُ مِنْ عِبَادِكَ، لا مُعقِّبَ لحِكْمِك.

وكلُّ مُؤْمِنٍ بكَ يَعْلَمُ عِلْماً حَقاً أَنَّ مَشِيئَتَكَ في أَقْضِيتِكَ وأحكامِكَ لِعَبَادِكَ أَوْ عَليهم، لاَ تُفَارِقُ حِكْمَتَكَ وعِلْمَكَ وعَدْلَكَ أَوْ فَضْلك.

وبَدهيٌّ أن مشيئةَ اللَّه لا تفارق حكمته، فهو لا يحكم لمن كان ضَالاً بالهداية، ولا يحكم على من كان مهتدياً بالضلالة.

فكُلٌّ مِنْ فِعْلَي: ﴿تُضِلُّ﴾ و﴿وَتَهْدِى﴾ مُسْتَعْملٌ هُنَا بِمَعْنَىٰ تقضي وتَحْكُمُ، بالضَّلاَلَةِ، أو بالْهِدَاية، وهذا أَحَدُ المعاني الّتي يُسْتَعْمَلُ فيها إسْنَادُ الأفعال إلى الفاعلِ أو إلى المفعول به.

والمعنى: تَنْسُبُ إلى الضَّالّ الضّلال، وتَنْسُبُ إلى الْمُهْتَدِي الهداية. وبَعْدَ الْحُكْمِ الرَّبَّانيّ يأتي الجزاءُ الملائم له، وبهذا تَظْهَرُ ثمرة الامتحان وغايتُه.

ولمّا أعلن مُوسَىٰ عليه السلام استِسْلاَمَهُ لِحُكْمِ رَبِّه في بني إسرائيل وما يَسْتَتْبِعُ حُكْمَهُ من جزاء، لجأ إلى ربّه داعياً قائلاً:

● ﴿. . أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾:

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: أي: أنت رَبُّنا وَسَيِّدُنا والمنعِمُ عَلَيْنا والمالِكُ لَنا، والمتولّي لكُلِّ أُمورِنا، وفي هذا تَفْوِيضٌ كَامِلٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجلَّ.

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾: بعد إعْلان الاستِسْلام الكامل لحكْم اللَّهِ، وتَفْوِيضِ الأمر كُلِّهِ إلَيْه سَأل مُوسَىٰ رَبَّه أَنْ يَغْفِرَ لَهُ ولِقَومِهِ، فَدَعا دعاءً عامًّا بالْمَغْفِرَةِ لِنَفْسِه ولقومه.

المغْفِرَة: سَتْرُ الذَّنب، وفي طلَبِ سَتْرِ الذَّنْب معنَى التجاوز عن المحاسَبة والجزاءِ عليه، فكأنّ الذُّنُوبَ غَيْرُ مَنْظُورٍ إليها في المحاسبَةِ والجزاءِ، وأَتْبَعَ فَدَعَا بالرَّحْمَة، فقال:

﴿وَٱرْحَمْنَا﴾: الرَّحْمَةُ صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ من آثارِها المغفرة والْعَفْو والصَّفْحُ والإكرامُ والجود، وكُلُّ العطاءَاتِ التي تَمْنَحُ السعادات.

وفي الدُّعاءِ بالرَّحْمَةِ بَعْدَ الدُّعَاءِ بالمغْفِرَةِ تَعْمِيمٌ بَعْد تخصيص، أي: وزدْنَا بَعْدَ المغْفِرَةِ مِنْ عطايَا رَحْمَتِكَ الواسِعَة.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾: هٰذه عبارة ثناءٍ على الله جلّ جلاله، مَبْدُوءَةٌ بِحَرْفِ عَطْفٍ، وكانَ مُقْتَضَىٰ الظَّاهِرِ أَنْ تأتِيَ دُونَ حَرْف عَطْفٍ، فما الحكمة من عطفها بالواو؟.

أقول: إنَّ التَّدبُّر الأَمْثَلَ يَهْدِينا إِلَىٰ أَنَّ هٰذِهِ الجملَةَ مَعْطُوفَةٌ على جُمْلَةٍ مَحْذُوفَةٍ أفصَحَتْ عَنْهَا «الواو» العاطفة[1]، وتقدير الكلام هُنَا:

أَنتَ وَلِيُّنَا، فَاغْفِرْ لَنا، وارْحَمْنَا، أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وأَنْتُ خَيْرُ الْغَافِرِين.

وفي دُعَائِهِ السَّابقِ في الآية (١٥١) لنفسِه ولأخيه قَالَ مُوسَىٰ عليه السَّلام:

﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾:

ومن سُنَّةِ التكامُلِ في دَلاَلاَتِ النُّصوصِ، نفهم أنّ هذِه الآية أيضاً، هي على تقدير:

وأدْخِلْنَا في رحْمَتِكَ أَنتَ خَيْرُ الغافِرِينَ، وأَنْتَ أَرْحَمْ الراحِمِين.

وقد دَلَّ المذكور في كُلٍّ من الدُّعَاءَيْنِ على المحذوف في كُلٍّ مِنهما، وأشار وجُودُ حَرْفِ العطْفِ في كُلٍّ مِنهُما إِلَىٰ الجملة المحذوفة في كُلٍّ مِنهُما.

ويُلاحظُ أنَّ طَلَبَ الرَّحْمَةِ من الله، يَسْتَدْعِي الثناء عليه بأَنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمين، وأنَّ طلَبَ المغفرة مِنه يَسْتَدْعي الثناء عَلَيْهِ بأنّه خَيْرُ الغافرين.

وهُنَا يَرِدُ سؤال، وهو: لماذَا لم يأْت في الثناء الثاني عبارة: وأَنْتَ أَغْفَرُ الْغَافِرِينَ، كما جاء في الثناء الأول عبارة: وأنت أَرْحَمُ الراحِمين؟!

---

(١) ثبت عِنْدِي أنّ العطف على محذوف لا يقتصر على الفاء التي سمَّاها النحاة الفاء الفصيحة، بل قد يكون بكلّ حُرُوفِ العطف، وفي القرآن من هذا الكثير.

أقول: إنّ المغفِرَةَ لا تكونُ خيراً دَواماً، بل قد يكون الخير في كشْفِ جريمة المجرِم ومُعَاقَبَتِه على جَرِيمته، بَيْنَما قَدْ تَدْفَعُ عَاطِفَةُ الأبُوَّة أو الأُمُومَةِ إلى سَتْرِ كلِّ جَرَائِم الأبْنَاءِ، والتجاوزِ عن المؤاخَذةِ عليها، وهٰذهِ المغفرة شَرٌّ، وتشجيع للمجْرِم علىٰ التمادِي في جرائمه.

أمَّا الرَّحْمَةُ فاللَّهُ أرْحَمُ كُلِّ الرَّاحِمِينَ دَوَاماً، وقَدْ جَاءَ في النُّصُوصِ القرآنِيَّةِ أَنَّهُ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ، للدَّلاَلَة علىٰ أنَّ الرحْمَةَ حينما تكونُ مُنَافِيةً لمقتضيات الحكمة فإنّ اللَّهَ يُنْزِلُ بالمذْنِبِ العقوبة الَّتي تقتضيها حِكْمَتُهُ جلّ جلاله، وهذا من الرَّحْمَةِ بِغَيْرِه من عباده.

وتابع موسىٰ عليه السّلام دُعَاءَه قائلاً:

• ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ... ﴿١٥٦﴾﴾:

أي: واكْتُبْ لَنَا في هذه الدُّنْيَا حَسَنْةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً أو حَسَنَاتٍ لاَ حَصْرَ لها. وقد حُذِفَ هٰذا من الجملَةِ لِلْعِلْم به، وهو ممّا يقتضيه الإيجاز والاقتصاد في العبارة، ولا سيما في مخاطبَةِ الرَّب جلَّ جلاله.

﴿وَٱكْتُبْ﴾: دُعَاءٌ جاء التعبير فيه عن آخِرِ الأمْرِ الذي يُثَبِّتُ به المرادُ المقْضِيُّ تَنْجيزُه في المستقبل.

فالأمْرُ من الممكِنَاتِ يُرادُ، فيُقْضَىٰ به، فَيُكْتَبُ، فَيُنَفَّذُ حينما يأتي وقت التنفيذ. فَطَلَبُ كتابَتِهِ يتضمّن عن طريق اللّزوم الذِهْنِيّ دُعَاءً بتخصيصِه بالإرادة، فإمْضائِه والقضاء به، فَكِتَابَتِهِ لِتَنْجِيزِه في حينه، وهذا من الكنايات لما فيه من استخدام اللوازم للدلالة على ملزوماتها.

إنّ مُوسَىٰ عليه السلام بعد أن سَألَ اللَّهَ عَزّ وجل بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾ خصّ في دُعائه بالذكْرِ نَوْعَيْنِ مِنْ أثارِ رَحْمَته:

النوع الأول: حَسَنَةٌ مُعَجَّلَةٌ في الدنيا.

النوع الثاني: حَسَنةٌ تَجْمَعُ حَسَناتٍ لا نهايَة لها مُؤَجَّلَةً إلى الآخِرَة، إلى يَوْمِ الدّين، يَوْمِ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذِ الجزاء.

أمّا حَسَنَةُ الدُّنيا فتَشْمَلُ أشياءَ كثيرة، منها التوفيق والنَّصْرُ والصِّحَّةُ والرِّزْق، ومنْحُهُمْ خَيْراتِ الأرض الّتي باركَ اللَّهَ فيها، مع ما أَبَاحَ اللَّه مِنْ متاعِ الحياة الدُّنيا.

وأمَّا حَسَنَةُ الآخرةِ فأشياءُ كثيرَة لا تُحْصَىٰ ولا تُسْتَقْصَىٰ، منها النجاة من عذاب الله، ومنها الظَّفَرُ بالسّعَادَةِ الخالِدَةِ في جَنَّاتِ النعيم، وَرِضوانٌ من اللَّهِ أكْبر.

● ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾: أي: إنّا تُبْنا إلَيْكَ، ورَجَعْنا إليكَ، طَائِعِين، مُسْتَسْلِمِين.

يقالُ لغة: هَادَ يَهُودُ هَوْداً، أي: تَابَ وَرَجَعَ إلى الحقّ والطاعَة.

إنّ مُوسَى عليه السّلامُ قد أعْلَنَ بهذه العبارة التوبَةَ عن مُذْنبي بني إسرائيل الذّين اتّخَذُوا الْعِجْل، وعن الّذِينَ قَصَّرُوا فَلَمْ يأخُذُوا على أَيْدِيهِم، وعن نفسه، فيما كان ينبغي لمثِلِه أن يفْعَلَ مَا هو الأكمل والأفضل.

❁ ❁ ❁

قَوْلُ اللّه تعالى:

﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾:

أي: قال الله عزّ وجلّ لموسَىٰ علَيْه السَّلامُ هذه المقالة.

أمّا قولُهُ: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ فالظاهر أنّهُ جواب لِقَوْلِ مُوسَىٰ: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؟! إذ هزّتْهُ مُفَاجأَة الرَّجفة، وظنّها رجْفَة إهلاك.

﴿عَذَابِىٓ﴾: أي: عِقَابي، فالعذاب في اللُّغة أتى بمعنى العقاب، وهو المرادُ هُنَا كما يظهر، ومعلومٌ أنّ العقابَ إنَّما يكون عن ذنب، وعقابُ الله للمذنبين إنّما يكون معادلاً لذُنوبهم، فالسيّئَةُ في قانون اللهِ الجزائيّ تُقَابَلُ بمثْلِها المكافئ لها.

ولمّا كان من الذّنوب مَا قَدْ يَغْفِرُهُ الله، وَكان مِنْهَا ما قَدْ يُعَاقِبُ عليه، ولمَّا كانت مشيئةُ اللّهِ الحكيمة هي الّتي تُحَدِّدُ إنْزَالَ عِقَابِهِ، أو الغفرانَ والْعَفْو، كان التعبير الملائم للدلالة على هذه الحقيقة، قولُ الله عزّ وجل: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾.

ولا بُدَّ أَنْ نَضَعَ في مُلاَحَظَتِنَا دَواماً أَنَّ مشيئة اللّهِ لاَ تُفَارِقُ حكْمَتَه، وأَنّ حِكْمَتَهُ سُبْحَانَهُ إنَّما تَقْضِي بعَدْلِه، أو تقضي بفضْلِهِ وإحْسَانِه.

وأمّا قولُهُ تَعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فالظاهر أنَّه جوابٌ لقَوْل مُوسَىٰ عليه السّلامُ لربّه: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾.

يقال لغة: وَسِعَ الشيءُ الشيءَ، أي: لم يضِقْ عنه.

والمعنى: أنَّ رَحْمَةَ اللّهِ واسِعَةٌ جدًّا سَعةً قابِلَةً لأنْ تَفِيضَ على كُلِّ شيءٍ قابلٍ بتكوينه، أو باختياره، لتلَقّي آثار فَيْضِهَا وعطائِهَا وَجُودِها، وهذا القيْدُ يُفْهَم باللُّزُوم العقلي، أَوْ بالاقتضاء العقلي، وبرهانُه أَنَّ الشيءَ الَّذي لا يقْبَلُ بأصْلِ تكوينه أن يتَلَقّى آثارَ رَحْمَهِ الله لم يخْرُجْ من عُمُوم سَعَةِ رَحْمَة اللّه لأنّها لا تَتَّسِعُ له، بلْ لأَنَّهُ مَحْرُومٌ بطبيعَتِه من تقبُّل آثارِها، والانْتِفَاعِ بِها، كالصَّخْرَةِ الصَّمّاءِ الّتي تَنْزِلُ عليها أمْطَارُ السَّمَاءِ، الّتِي هيَ أثَرٌ مِنْ آثارِ رَحْمَةِ اللّهِ فلا تنْتَفِع بِهَا، لا لأنَّ رَحْمةَ اللّه لم تَسَعْهَا، ولَكِنْ لأنَّها هي لم تَقْبَل الانْتِفاعَ بغَيْثِ السَّماء.

وكذلِكَ مَنْ يَرْفُضُ باختياره الحرّ، من ذوي الإرادات الحرّة، تَلَقّيَ رَحْمَةِ اللّهِ الَّتِي وسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ بشُرُوط تَلَقّيها.

ولنفرِضْ أنّ رَحْمَةَ اللَّهِ تُشْبِهُ نهراً عظيماً، يتّسِعُ لكل مَنْ يُريد الانتفاع بمائه، بأيّ وجْهٍ مِنْ وُجوه الانتفاع، ولكن بشرط أن يَتّخِذَ وَسِيلَةً لاسْتخراج الماء من النهر، مَعَ العلم بأن وسائل استخراج الماء مِنْهُ مُيَسَّرَةٌ لكلّ طالِب الانتفاع به بنسبة مُتَساوِية، فإذا رَفَضَ المحتاج إلى الماء اتّخاذ أيّةِ وسِيلَةٍ مُيَسَّرةٍ له، فهَلْ يُقَالُ: إنّ ماء النهر لم يتّسِعْ له، أمْ يُقَالُ: إنّهُ هو الذي أبَىٰ باختياره الحرّ الانتفاعَ بماء النّهر.

ولنفرض أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ تُشْبِهُ غيثاً عظيماً عامّاً شاملاً، ولاَ يحتاج الانتفاعُ به إلاَّ أَنْ يَتَعَرَّضَ ذو الإرادة الحرَّةِ لتَلَقّيه من السَّماء، لكنَّ المحتاج إليه أوىٰ إلى مغارة، أو سَتَرَ نَفْسَه بمظلَّةٍ حَاجِبَة، فَهَلْ يُقَالُ: إنَّ الغَيْثَ لم يكُنْ عَامًّا شاملاً يمنَحُ عطاءَهُ لكل مَنْ يَتَلَقَّاهُ، أَمْ يُقَال: إنَّ الّذِي حَجَبَ نَفْسَه بإرادتِه الحرَّةِ هو الَّذِي أبَىٰ الانْتِفَاعَ به.

إنَّ صِفَةَ رَحْمَةِ اللَّهِ هِيَ السَّعَةُ الشَّامِلَةُ لكُلِّ شيءٍ، ولَكِنَّ الّذي يَنْتَفِعُ بها هو الّذي لدَيْهِ الْقَابِلِيّة والاسْتِعْدَادُ للانتفاع بها، وإذا كانَ ذَا إرادة حُرَّةٍ فانتفاعُهُ بِهَا شَرْطُهُ اتخاذُ وسيلَةٍ للانتفاع بها، واجتنابُهُ مَا يحْجُبُه عنها. ضِمْنَ قوانين الله الثابتَة، التي وضَعَها اللَّه عزّ وجلّ بِحِكْمَتِه لحَياة الابتلاء في الدنيا، وحياة الجزاء في الآخرة.

ففي عالم الحياة الدنيا عَالَمِ الابْتلاء جعَل اللَّهُ عزّ وجلَّ كُلَّ كائنٍ حَيّ مُسْتَعِدّاً بتكْوينهِ الْفِطْريّ لتَلَقّي مقدارٍ ما مِنْ آثار رَحْمَةِ اللَّه في الرزْقِ والصِّحّةِ وَتَذَوّقِ لذّاتِ الحياة الدنيا، والاستمتاعِ بحَلاوَة ما فيها من حُلْوٍ، وجَعَلَ كُلّ ذي إرادة حُرّةٍ مَوْضوع في الحياة الدنيا موضع الامتحان، مستعِدّاً لتلَقّي تَعليمات الهداية الرَّبّانِيَّةِ الّتِي هي من آثارِ رَحْمَتِهِ.

ولكِنّ بعض النّاس يَرْفُضُونَ بإراداتهم الحرَّةِ الانتفاع بتعليمات الهدايَةِ الرَّبّانيّة، كالمريض الذي يرفض استعمال الدواء، لأَنَّهُ جاء على خلاف ما

يشتهي، مع أنَّ الرُّحَمَاءَ من أَهْلِه وذويه حَرِيصُون على أَنْ يَسْتَعْمله، رغبةً مِنْهُمْ في شفائه.

والمغفرة والْعَفْوُ هُما مِنْ آثار رحْمَةِ اللَّهِ بعباده، ولكِنَّ شرط الانتفاع بهما أَنْ تكونَ لَدَىٰ العاصِي القابليَّةُ للانتفاعِ بآثار رحمة الله في المغفرة والْعَفْو، ضمن قوانين الله عزّ وجلّ في تكوين النفوس، وهذه القابليَّةُ في النفوس الإنسانية مِفْتَاحُها التوبة الصادقة، والاستغفار وطلَبُ الْعَفْو، فَمَنْ فعَلَ ذَلِكَ فَتَح أبوابَ نفْسِه لتلَقِّي آثار رَحْمَةِ الله في المغفرةِ والعفو.

وفي عالم الجزاء يوْمَ الدِّينِ جعَل الله في قوانينه للنَّشْأَةِ الأُخرى، أنَّ قابليات الانتفاع بآثار رَحْمَةِ اللَّهِ يومئذٍ مَشْرُوطةٌ بأَنْ يموتَ الموضوعُ في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ مُؤْمِناً بِرَبِّه، لا يُشْرِك بِرُبُوبيته ولا بِإلَهِيَّتِهِ شيئاً، وجعَلَ قابليَّاتِ الانتفاع بها لدَىٰ عُصَاة المؤمنين متفاوتاتٍ مُتَفاضِلاتٍ، بحَسَبِ ما كَانَ لدى كلٍّ منهم في الحياة الدُّنيا من إيمانٍ وعَمَلٍ صالح.

بهذا التحليل ظهر لنا تَماماً أنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ وَسِعَتْ كُلَّ شِيْءٍ، وأنَّ الْعِلَّة في عَدَمِ الانْتِفَاعِ بآثار رَحْمَةِ اللَّهِ تَكْمُنُ في عَدَمِ قَابِلِيَّة الشيْءِ للانْتِفَاعِ بها في أصْلِ تَكْوِينِه الفِطْري، أو في أنَّه أَقْفَلَ علَىٰ نَفْسِه بإرادتِه أبْوابَ اسْتِقْبَالِ آثارِ رحْمَةِ اللَّهِ، ضِمْنَ قوانين التكوين العامّ في عالَمِ الابْتِلاءِ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عليه في عالَمِ الجزاء.

❁ ❁ ❁

قول اللَّهِ تعالى:

﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾.

● ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾: أي: فَسَأَكْتُبُ معقاديرَ من آثار رحْمتِي بتتابُع أقضيتي وأحْكامي الجزائيَّة، فالمراد بالرَّحْمَةِ آثارها، وهِي جنسٌ يشْمَلُ القليلَ والكثيرَ منها، وإضافتها إلى ضمير المتكلم وهو الله عزّ وجلّ يجعلها

عامَّةً شامِلَةً للجنس، مثل العموم الذي تفيده «ال» الّتي للجنس، وليس المراد الْعُمومَ الإفرادي.

• ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾: أي: فَسأَكْتُبُهَا للّذِينَ يَتَّقُونَ مُتَابعِينَ في حَرَكَةِ حياتِهِمُ التعاملَ مع أوامِرِي ونواهِيَّ وزَواجري وإنذاراتي بالتَّقْوىٰ، أي: باتِّقاء عقابي وعذابي، الَّذي رَتَّبْتُهُ علىٰ تَرْكِ ما فَرَضْتُهُ على عبادي الّذين وضَعْتُهُمْ في الحياة الدنيا موضع الامتحان، وفِعْلِ ما حَرَّمْتُهُ عليهم، وتنتهي رِحْلَةُ امْتِحَانهم في الدّنيا وهم مُتَّقُون.

التَّقْوىٰ: تكونُ باتِّخَاذِ الوسائلِ للوقاية من عقاب الله وعذابه.

ومع أنّ التقوىٰ تَسْتَلْزِمُ فِعْلَ كلّ الواجباتِ ومنْها أداء الزكاة، فَقَدْ خَصَّ اللّه ـ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ ـ إيتاء الزكاة بالذّكر، اهتِماماً بشَأْنِ هذه الفريضَةِ الَّتي فرضَهَا على بني إسرائيل، كما فَرَضَهَا في الرسَالَةِ الخاتمة، وفي سائر الرّسالات الَّتي أَنْزَلَهَا على رُسُلِه، لأنّ النّفسَ الإنسانيَّةَ يُحَرِّضُها الشُّحُّ فِيها على التَّهاوُنِ بإيتاء الزكاة، فقال تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

ومع أنَّ التقوىٰ لا تَتَحقَّقُ ابْتِداءً إلاَّ بالإيمانِ بكلّ ما يُنْزِلُهُ اللَّهُ من آياتٍ بيانيَّةٍ تباعاً، على مُوسَىٰ وعَلَىٰ غَيْرِه من الرُّسُلِ الّذين يأتون من بَعْدِه حتَّىٰ خاتَم المرسَلِين مُحَمَّدِ بْنِ عبد اللّهِ ﷺ، فَقَدْ خَصَّ اللّهُ عزّ وجلّ بالذِّكْرِ في الآيةِ قضيَّة الإيمانِ بكلّ ما يُنْزِل الله على رُسُلِه من آيات، ولوازِمِه من الاتّباع والعمل، نظراً إلى أنّ الخطّ الفكْرِيَّ الأعْظم الّذي تتعلَّقُ به الموضوعات الفرعيَّةُ في سورة (الأعراف) هو خطُّ اتّباعِ ما أُنزِلَ إلى النَّاسِ من رَبّهم، والاتباعُ لا بُدَّ أن يكون مسبوقاً بالإيمان، وقد جاء بيان هذا الخطّ في الآية (٣) من أوائل السورة. ويضافُ إلى هذا أنّ النُّفُوسَ الإنسانيَّةَ قد يشْتَدُّ فيها داء التعصُّب للرُّسُولِ السَّابِقِ، وللتحريفات المرضيَاتِ للأهواء الَّتي دَخَلَتْ في الدِّين الْمَوْرُوثِ عنْهُ، فَيَدْفَعُهَا هذا الداء إلى الكُفْرِ

بآيَاتِ الله الّتي أنزلها على الرّسُولِ اللاّحِقِ، أو الرُّسُلِ اللاّحِقينِ.

وهذا ما أُصيبَ به اليهودُ إذْ كَفرُوا بالآيات الّتي أَنْزَلَها اللّهُ على عيسى عليه السلام، وهذا ما أُصِيبَ به اليهودُ والنَّصَارَىٰ إذْ كَفرُوا بالآيات الّتي أَنْزَلَهَا اللّهُ على محمد ﷺ، مع أنّ رُسُلَ اللّهِ سواءٌ في التبليغ عن الله رَبّ السماوات والأرض وما فيهما ومَنْ فيهما، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾: أي: والّذِينَ هُمْ يُؤمِنُونَ بِكُلِّ ما نُنْزِلُ من آياتِ على رُسُلِنا، فلا يَفرّقُون بَيْنَ أَحَدٍ مِنهُمْ وسِوَاه، ولاَ يَتعصَّبُون لسابقٍ ضدّ لاحِقٍ.

وما جاء في هذه الآية (١٥٦) هو بيانٌ رَبّانيٌّ لُسنَّةٍ ثابتَةٍ مُسْتمِرَّةٍ يُعَامِلُ بَها اللّهُ الناسَ جَميعاً، حَتّى تقوم السّاعَة، وليس بياناً خاصّاً ببني إسرائيل، لكنَّهُمْ يَدْخلُون فيه دخولاً أوّليًا، لأنّ الله عزّ وجلّ خاطبَ به موسَىٰ عليه السلام، وهم قومه التابعون له مُدَّة بقاء رسالته.

● قول الله عزّ وجل:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ . . . ﴿١٥٧﴾﴾.

دلَّ هذا النَّصُّ على أَنَّ مِنْ مُقْتَضَياتِ صِفَةِ التقوىٰ في العباد الموضوعين في الحياة الدُّنيا موضع الابتلاء والتكليف، أنْ يُؤْمِنُوا بكلّ رَسُولٍ سابقٍ لرَسُولِهِمْ، أو لاحقٍ له، حتّىٰ خَاتم الأنبياء والمرسَلِينَ مُحمَّدٍ ﷺ.

ولَكِنْ خصَّ اللّهُ بالذِّكْرِ من الأنبياءِ والرُّسُلِ اللاّحِقِينَ خاتمَهُم النبيّ الأمّيّ الذي يَجِدُونَ البشارة بِبعثَتِه مكتوبة عندهم في التوراة، مع الإشارة في التوراة إلى كتابٍ لاحِقٍ يُنْزِلُهُ الله على بني إسرائيل، وهو الإنْجِيلُ الّذِي

سَيُنْزِلُهُ علىٰ عيسَىٰ عليه السَّلام، فهو مِنْ بني إسْرَائيل، وأَنَّهُمْ سَيَجِدُونَ البشارَةَ بِبِعْثَة النبيّ الرسُولِ الخاتِمِ فيه أيضاً.

ولمَّا كانَ الإنجيل سيَنْزِل على بني إسرائيل وفيه البشارة الصَّرِيحَةُ بالرَّسُولِ الخاتم، كان من الحكمةِ أن يعتبرَ الله عزّ وجل الإِنْجِيلَ عِنْدَ بني إسرائيل، سَوَاءٌ أَقبِلُوهُ إيماناً بعيسَى عليه السّلام، أم رَفَضُوهُ كُفراً به.

وبما أنَّ حركَةَ التَّقوىٰ المتَجَدِّدَة التَّي دَلَّتْ عَلَيْها صِيغة الفعل المضارع في ﴿يَتَّقُونَ﴾ تقتضي أَنْ يُؤْمِنُوا بكلّ ما يجب عليهم به، وبكلّ ما يجبُ عليهم الإيمانُ به تِباعاً، مِمَّنْ يَبْعَثُ الله من نبيّ ورَسُول، وممَّا يُنْزِلُ من آيات بيانِيَّةٍ للنَّاسِ في تتابُعِ الأزمان، على أيّ رسُولٍ لاحِقٍ مِنْ رُسُلِه.

كانَتِ المناسبَةُ داعيَةً لإعْلَامِ بَنِي إسْرَائيلَ على وجْهِ الخصوص. بالنبيّ الرَّسُولِ الخاتِمِ الذي سيأتي من غير بني إسرائيلَ، وأنْ يُبيِّن لَهُمْ أنَّ الَّذِينَ لاَ يتبعُونَهُ إذا بَعَثَهُ اللَّهُ في زمانه، فإنّ اللَّهَ لاَ يَكْتُبُ لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِه، وَلاَ يُدْخِلُهُمْ فِي جَنَّتِه، لأنَّهم كَفَرُوا بما أوْجَبَ عليهم أنْ يُؤْمِنُوا به، وعَصَوْا أَمر اللَّه لهم باتّباعه.

فَمِنْ شَرْطِ نَجاةِ مَنْ يُؤْمِنُ برسُول من رُسُلِ اللَّه أَنْ يُؤْمِنَ بسَائر رُسُلِ اللَّهِ الصَّادِقين، السّابقين واللاّحِقِين، وأنْ يتّبعَ الرَّسُولَ اللاّحِقَّ إذا كانَتْ رِسالَتُه مُكَمِّلَةً للرِّسَالة السَّابقة، أَوَ ناسِخَةً لبعضِ ما جاء فيها ومُعَدِّلَةً له.

فـفـي قـول الله عـزّ وجـلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ... ﴿١٥٧﴾﴾ إعْلَامٌ لموسَىٰ عليه السّلام، وإعْلَامٌ لبني إسرائيل بأنَّهُ يَجِبُ عليهم للنجاة والظفر برَحْمَةِ اللَّهِ ودُخول جنَّتِه أَنْ يَتَّبِعُوا هذا الرَّسُول النبيّ الأمّي.

ويتضمَّن هذا النصُّ أنَّهُمْ قَدْ أُعْلِمُوا أيضاً ببِعْثَةِ عِيسَى عليه السلام من

بني إسْرَائيل، وأعْلِمُوا بأنَّ اللَّهَ سيُنْزِلُ عليه كِتَاباً، وهو الإنجيل، وفي هذا الكتاب البشارة بالرَّسُولِ النبيّ الأُمّيّ.

ووصَفَ اللَّه عزّ وجلّ هذا الرسُول المبشّرَ به بصفاتٍ عشر:

الصفة الأولى: أنَّهُ رَسُولٌ يبعثُهُ الله عزّ وجل مَبلّغاً وقائماً بوظائف رسالاته التي يُرسِلُه بها، وهذه الصفة تَسْتَلْزِمُ في المعهود من رُسُل الله، أن يكون مؤيّداً من قبل رَبّه بالآيات الإعجازية الّتي تُثْبِت صِحَّةَ رِسالته، وصِدْقه فيما يبلّغ عن ربه.

الصفة الثانية: أنَّه نَبِيّ، أي: يصْطَفِيهِ اللَّهُ بالنُّبُوة، فيوحي إلَيْهِ كما أوحَىٰ إلى سَائر النَّبِيين.

وذكَرَ الله هُنَا وصْفَ النبوّة، مع أنَّ رَسُولَ الله لا بُدَّ أنْ يكُونَ نبيًا، لدَفْعِ توهُّم أن يكون رَسُولاً مُكلَّفاً مِنْ قِبَلِ نبيٍّ رَسُول، كالرُّسل السَّبْعين الَّذِينَ أرْسَلَهُمْ عيسَى عليه السّلام، للدَّعْوَةِ إلىٰ دين اللَّهِ الحقّ، في الأقاليم الآهِلَة بالنَّاسِ يومئذ، فالرسُولُ منْ هؤلاء لا يُشْتَرَطُ أنْ يكون نبيًا.

دلّ على صِفَتَي الرّسالة والنبوّة قول الله تعالىٰ في الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ﴾.

الصفة الثالثة: أنَّه أُمِّيٌّ، أي: لا يَقْرأُ وَلاَ يَكْتُبُ، وقد اخْتَارَهُ الله أُمّيًا لا يَقْرأ ولاَ يَكتُبُ، لأنّ أعظم معجِزَاتِهِ صلواتُ الله وسلاماتُه عليه مُعْجِزَةُ القرآن، فاخْتِيَارُهُ أمياً ادْعَىٰ إلى تَصْدِيقِهِ في بَيَانِ أنّه نَبِيُّ اللَّهِ ورسُوله، إذْ كَثِيرٌ من النّاسِ لا يُدْرِكون في بدْءِ دَعْوَتِه وسمَاعِهِمْ ما يتْلُو عليهم من كتاب الله، ما في القرآن من أنواع إعجاز جليلة.

فلَوْ كانَ من الذّينَ يقْرَؤُون ويكتُبُونَ لتبادَرَ إلَىٰ أذْهانِهم، أَنَّهُ يُحَبِّرُ القرآنَ إنْشَاءَ أو اسْتِنْسَاخاً من كُتُب الأولين، ثُمَّ يَتْلُوهُ علَىٰ الناسِ في دعْوَته.

وكان العربُ يُوصَفُون عندَ بني إسرائيلَ بأنَّهم أُمِّيُّون، إذْ كانوا يَقْسِمُونَ النَّاسَ إلى إسْرَائيليّن، وأُمّيّين (أي: چوييم، بحسب تعْبِيرِهم)، وكانُوا يسْتَحِلُّونَ أكْلَ أمْوال الأمّيّين بغير حقّ، ويقولون كما إبان الله عزّ وجل في الآية (٧٥) من سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ... (٧٥)﴾.

أي: ليْسَ علَيْنا في أكل أموال الأمّيّين بغَيْرِ حَقٍّ سَبيلٌ للمؤاخَذِةِ والجزَاء، فهي مُبَاحَةٌ لنا.

وعلى هذا يكونُ اللَّفظُ مُسْتَخْدَماً بمَعْنَيَيْن:

● فَهُو لا يقرأ ولا يَكْتُب.

● وهُوَ مِنْ غير بني إسرائيل، وعلى بني إسرائيل أَنْ يَتَّبِعُوهُ، مُسْتَبْعِدِينَ أن يكون هذا الرَّسُولُ النبيُّ الَّذي يأمُرُهُمْ اللَّهِ باتّباعِهِ متىٰ أرسَلَهُ إسْرَائيليًّا منهم.

وهذه النزعة العرقِيَّةُ الأنانيَّةُ هي العِلَّةُ الفاسِدَةُ الَّتي أثارت حَسَدَ الْيَهُودِ، حين أرسَلَ اللَّهُ هذا الرَّسُول الموعُودَ به من الْعَرَب، أبناء عمِّهم إسْمَاعيل، أَخِي جدِّهم إسْحَاقَ لأبيه إبراهيم عليهم السّلام.

فجاء في النّصّ قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾.

الصفة الرابعة: أنّ الإعْلاَمَ ببِعْثَتِه وبِبَعْضِ صِفَاتِه المميّزَةِ له تمييْزاً تامًّا، حتَّىٰ كأنَّهُ مشهُودُ الذَّاتِ، مَكْتُوبٌ عندَ بَنِي إسْرَائيلَ في التوراة، وهٰذهِ من الْبُشْرَيَات التي بَشَّر اللَّهُ فيها بِبِعْثَتِهِ قبل إرساله بعشرات القرون، وهذا أمْرٌ مَعْلُومٌ لِبَني إسرائيل منذُ عَهْدِ مُوسى.

فجاء في النصّ قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ...﴾.

الصِّفَةُ الخامسة: أنَّ الإعلام بِبِعْثَتِهِ وبِبَعْضِ صِفَاتِهِ المميّزَةِ لَهُ تَمْيِيزاً تَامًّا، مَكْتُوبٌ عِنْدَ بَنِي إسرائيل في الإنْجِيل أيضاً.

وهذهِ من البُشْرَيَاتِ الّتي بشَّرَ الله فيها بِبِعْثَتِهِ قبل إرسالِه بِنَحْو سِتَّةِ قُرُونٍ، كلُّ قَرْنٍ مِنْهَا مِئَةُ سَنَة.

وهٰذا أمْرٌ مَعْلُومٌ لبني إسرائيل المؤمِنِينَ بعيسَىٰ عليه السلام، مُنْذُ أنزَلَ اللَّهُ الإنجِيلَ عَلَيْه، وأنزَلَ فيه البشارَة بمحمَّدٍ ﷺ، فالإنجيليّون يَجِدُونه مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ في الإِنجيل.

ومن الممكن أنْ يكونَ اللَّهُ عزَّ وجلّ قَدْ بَشَّرَ بَنِي إسرائيلَ في التوراة، بعِيسَىٰ وَبِالإنْجِيلِ، مبيّناً لهم أَنَّه تُوجَدُ في الإنْجِيلِ البشارةُ بالرَّسُولِ النبيّ الأُمِيّ، ولكِنْ لا أمْلِكَ دَلِيلَ إثباتٍ على هذا.

فجاء في النصّ قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ...﴾.

الصَّفَةُ السَّادِسة: أنَّهُ يأمُرهُمْ بالْمَعْرُوف، أي: بما هو مَعْرُوفٌ لدَى بَنِي إِسْرَائيل بأنَّه حَقٌّ وخَيْرٌ وَرُشدٌ وهِدَايَةٌ، وفيه مرضاةٌ للَّهِ عزّ وجلّ.

كوجُوب الْإيمانِ بالحقِّ، وقَوْلِ الصِّدْقِ، والصَّلاةِ، والزَّكاة، وفِعْلِ الخيرات.

فجاء في النصّ قول الله تعالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

الصفة السابعة: أَنَّهُ يَنْهَاهُمْ عَنِ المنكر، أي يَنْهَاهُمْ عَنْ كُلِّ مَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْكَرٌ قبيحٌ مُحَرَّمٌ في دين اللَّهِ لعباده، كالشرك باللَّهِ في رُبُوبيّتِهِ وإلَهيَّتِهِ، وعُقُوقِ الوالِدَين، والْقَتْلِ بغير حقٍّ، والزِّنا، والسَّرقة، وأكْلِ أمْوال الناس بالباطل، والكَذِب، وأقبَحُهُ الافتراءُ على الله في الدِّين، وكأكلِ الرِّبَا، وأكْلِ

مَالِ اليتيم بغَيْرِ حق، والْغُلُولِ، وقَذْفِ المحصَنَاتِ المؤمِنَاتِ الغافِلَات وشهادة الزُّور، إلى غير ذلك من مُنْكَرَاتٍ معلومات عند اليهود والنصارى.

فجاء في النصّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ...﴾.

الصِّفَةُ الثامِنَة: أَنَّهُ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ، إذْ حَرَّمَ اللَّهُ عزّ وَجَلّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيل بَعْضَ الطيِّبَاتِ، عُقُوبَةً لهم بسَبَبِ ظُلْمٍ مِنْهُمْ ارتكَبُوهُ معانِدِين.

فإذا جاء الرَّسُولُ المبشَّرُ بهِ، أبَانَ لَهُمْ أنَّ اللَّه عزّ وجلّ قَدْ نَسَخَ تَحْرِيمَهَا، إذْ كانَتْ لَهَا صِفَةُ الْعِلَاجِ المؤقَّتِ لِبَنِي إِسْرائيل، وبِبِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَجْعَلُهَا الله حَلالاً للنَّاسِ، نظراً إلى أنَّ الحكْمَةَ الدَّائِمَةَ للنَّاسِ جَمِيعاً أَنْ تكونَ حَلَالاً.

فجاء في النصّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ ...﴾.

الصِّفَةُ التَّاسِعَة: أَنَّهُ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ، أي: يُبَيِّن لهم أنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ، قدْ حَرَّمَ في الدِّين الخاتم لِرِسَالَاتِهِ لعباده الخبائثَ، وَهِيَ الأشياء الضَّارَةُ في الأجساد، أو في النفوس، أو في العقائد، أو في المفْهُومَاتِ الدِّينيَّة، وحَرَّمَ عليهم الأشياءَ المستقْذَرَةَ في طَبَائِعِ النُّفُوس، أو المستقذرة في مفهومات الدين.

فجاء في النصّ إضافَة: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ..﴾.

الخبائث: جَمع «الْخَبِيثَة»، وهيَ كلُّ رَديء فاسِدٍ ضارّ من كُلّ شيء، وقد تُطْلَقُ على الرائحة الكريهة أو المنَفِّرة القبيحة، ولو لم تكُنْ ضَارَّة، والمقصود هنا المعنى الأوّل.

الصِّفَةُ العاشِرَة: أَنَّهُ يَضَعُ عَن بَنِي إِسْرَائيل إِصْرَهُمْ والأغْلَال التي كانت عليهم.

أي: يُبَيِّن لهم أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قَدْ وَضَعَ في الدِّينِ الخاتم للناس، الآصَارَ والأغلَالَ الَّتِي كانت على بَنِي إِسْرَائيل، في الدّينِ الذي لم تَكُنْ له صِفَةُ العالَمِيَّة للنَّاس جَميعاً حتَّى تَقُومَ السَّاعة.

الإِصْرُ: الْعَهْدُ الثقيل، والتكليف الثقيلُ الشديد، والعقوبات الشّدِيداتُ على الذُّنوبِ اللاّتي لها صِفَةُ الْحُدُود.

الأغْلَال: جمع «الْغُلّ» وهو طَوْقٌ من حَدِيدٍ يُجْعَلُ في عُنُقِ الأسِيرِ أو في يَدَيه، أو فيهما معاً، وتُعْقَد به سِلْسِلةٌ من حَدِيدٍ، لجرّ الأسِير بها.

وأُطْلِقَتِ الأغلالُ هنا على سبيل الاستعارة القائمة على تَشْبيه التكاليفِ الدينيَّةِ الشَّاقَّةِ الَّتي كانت على بني إسرائيل بالأغْلَال.

فالمراد بالأغلال التكاليف الشَّاقَّةُ الّتي كانت على بني إسرائيل.

لقد كانَتْ على بني إِسْرَائيل عُهُودٌ ثقيلَةٌ، وَتكاليفُ دينيَّةٌ شاقَّة، وَكانت الْخُطَّةُ الرَّبَّانيَّة المقدَّرة المقضيّة، أَنْ يَضَعَ عن عبادِه في الدِّين الخاتم هٰذِهِ الْآصَارَ والأغْلَال الّتي كانت على بني إِسْرَائيل، وحينَ يَبْعَثُ اللَّه الرَّسُولَ النبي الأميَّ، فإِنَّهُ يُبَيِّنُ لِلْناسِ أنَّ اللَّهَ قد وَضَعَ عن الناس في الدّين الخاتم ما كان على بني إِسْرَائيل من آصارٍ وأغْلَالٍ شَدِيدَةٍ ثقيلَة.

وتَمَّ الواقع على وفْق الخطَّةِ الرَّبَّانية الْمُقَدَّرَةِ المقضيَّة بقضائه وقَدَرِه، فجاء في النصّ إضافة: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

أمثلة من الأَحْكام الثقيلة الَّتي كانت علىٰ بني إسرائيل:

المثال الأول: جاء في الإصحاح الخامس والثلاثين من سِفْر الخروج ما يلي:

«٢ سِتَّةَ أيّامٍ يُعْمَلُ عَمَلٌ. وأمّا الْيَوْمُ السَّابع فَفِيهِ يَكُونُ لَكُمْ سَبْتُ عُطْلَةٍ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ. كُلُّ مَنْ يَعْمَلُ فيه عملاً يُقْتَلُ لاَ تُشْعِلُوا نَاراً في جَمِيعِ مَسَاكِنِكُمْ يَوْمَ السَّبْت...».

المثال الثاني: جاء في الإصْحَاح الأوّلِ من سِفْر اللّاويّين، ما يلي:

«مَا يُقَدِّمُونَ مِنْ قُرْبَانٍ لِلرَّبِّ مِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَم فَإنَّهُمْ مَأمُورُونَ أَنْ يَذْبَحُوهُ ويُقَطِّعُوهُ وَيُحَرِّقُوهُ، فَيُوقِدُهَا الْكَاهِنُ عَلَى الْمَذْبَحِ طَعَامَ وَقُودٍ للرَّبّ..».

المثال الثالث: جاء في الإصْحَاحِ الرابعِ مِنْ سِفْرِ اللاَّوِيّين ما يلي:

«مَنْ أَخْطَأَ سَهْواً فِي جَمِيعِ ما نَهَىٰ الرَّبُّ عَنْهُ فَجزاؤُهُ أَنْ يَذْبَحَ ثَوْراً صَحِيحاً للرَّبِّ ذَبِيحَةَ خَطِيَّة، ثُمَّ تُحْرَقُ هٰذِهِ الذبيحَةُ عَلَى حَطَبٍ بالنَّار...».

ويَجْرِي هٰذَا ضِمْنَ طُقُوسٍ وَأعْمَالٍ مُرَتَّبَةٍ مَرْسُومة بنظامٍ مُحدَّد.

فدلَّ هذا على أنَّهم كانوا مَسْؤُولينَ عمّا يَصْدُرُ عَنهم من مُخَالفات لأوامر الدِّين ونواهِيه، ولو كانت على سبيل الخطَأ والسَّهْوِ والنِّسْيَان.

ولَمّا جاء الدِّينُ الخاتمِ رفَعَ اللَّه ـ جلّ جَلالُه ـ فيه الحرجَ عمّا يفْعَلُ المكلَّفُ مُخْطِئاً غَيْرَ عَامِدٍ، أو ساهياً أو ناسياً.

فقد جاء في «الصحيح عن الرسُول ﷺ فيما رواه البيهقي عن ابْن عُمَر، قولُهُ:

«وُضِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ، والنِّسْيَانُ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ».

وجاء في رواية أُخرى: «رُفِعَ» بَدَل «وُضِعَ».

المثال الرابع: جاء في الإصحاح السادس من سِفْر اللاّويّين ما يلي:

«إنَّ جَزَاءَ مَنْ جَحَدَ وَدِيعَةً، أو أَمَانَةً، أو اغْتَصَبَ، أو وَجَدَ لُقَطَةً

وَجَحَدَها وَحَلَفَ كَاذِباً، أَنْ يَرُدَّ مَا أَخَذَهُ، أَوْ يُعَوِّضَ بِمِثْلِهِ، وَيَزِيدَ قَدْرَ خُمُسِه، ويُقَدِّمَ كَبْشاً صَحيحاً من الغنم، تَكْفِيراً لِإِثْمِهِ، يُذْبَحُ وَيُحْرَق».

المثال الخامس: جاء في الإصحاح الحادي عشر من سِفْرِ اللاَّوِيّين ما يدلُّ على أنّ لَحْمَ الْجَمَلِ كانَ مُحَرَّماً عَلَيْهِمْ، وأنَّه كَانَ نَجِساً بالنِّسْبَةِ إليهم، وكذلك وَبَرُه.

المثال السادس: جاء في الإصحاح العشرين مِنْ سِفْرِ اللاَّوِيّين، ما يلي:

«٩ كُلُّ إِنْسَانٍ سَبَّ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ. قَدْ سَبَّ أَبَاهُ أَوْ أُمَّهُ دَمُهُ عَلَيْهِ ١٠ وَإِذَا زَنَىٰ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةٍ فَإِذَا زَنَىٰ مَعَ امْرَأَةِ قَرِيبِهِ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ الزَّانِي والزَّانِيَة...

١٤ وإِذَا اتَّخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَأُمَّهَا فَذَلِكَ رَذِيلَةٌ بالنَّارِ يُحَرِّقونَهُ وَإِيَّاهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ رَذِيلَةٌ بَيْنَكُمْ....

٢٧ وإِذَا دَخَلَ في رَجُلٍ أَوِ امْرَأَةٍ جَانٌّ أو تَابِعَةٌ فإنَّهُ يُقْتَلُ. بالْحِجَارَةِ يَرْجُمُونَهُ. دَمُهُ عليه».

إلى غير ذلك من أحكامٍ ثقيلةٍ كانت على بني إسرائيل، وقد جاء في آخرِ إصْحَاحٍ من سِفْرِ اللاَّوِيين، ما يلي:

«هٰذِه الْوَصَايَا الَّتِي أَوْصَىٰ الرَّبُّ بها مُوسَىٰ إلىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي جَبَلِ سِينَاءَ».

❀ ❀ ❀

قولُ اللّٰهِ تعالى:

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾:

هٰذا البيانُ من هٰذهِ الآية مُوجَّهٌ لِبَني إسْرَائيلَ إبَّانَ تَنْزيل السُّورَة، فَلِكُلِّ النّاسِ الموضوعِين موضع الامتحان في الحياة الدنيا، حتَّىٰ آخرِ مُمْتَحَنٍ فيهَا.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾: أي: فَالَّذِينَ آمَنُوا بالرَّسول النبيِّ الأُمِّيِّ، وهُوَ مُحَمَّدُ بن عبد الله، فَصَدَّقُوا بقُلُوبهم وأذْعَنُوا واعْتَرفوا اعترافاً إراديًا بأنَّه رسُول الله.

«الفاء» لترتيب البيان الذي جاء بعدها على البشارة به في التوراة، وفي الإنجيل.

﴿وَعَزَّرُوهُ﴾: أي: وعظَّمُوهُ، ووَقَّرُوهُ، وأعَانُوهُ، وَقَوَّوْه.

التَّعْزِيرُ: يأتي في اللُّغَةِ بمعنى التَّوْقِير والتعظيم والتفخيم، والإعانَةِ، والتقوية، والنَّصْر، وهٰذه المعاني هي المرادة هنا.

والمعاني الأخرى لهذه الكلمة في اللّغة لا تُلاَئم هُنَا.

﴿وَنَصَرُوهُ﴾ أي: وأَيَّدُوهُ وأعَانُوه ضِدَّ أعدائه وخُصُومِهِ ومخالفيه.

﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾: أي: واتَّبَعُوا الْقُرْآنَ الَّذِي هو نُورُ هِدَايَةِ العقول.

وإطْلاَقُ النور على القرآن هو من قبيل الاستعارة القائمة على تَشْبيه الهداية الّتي يشتمل عليها القرآن، بالهداية الّتي تكون بالنور الذي يُزِيلُ الظُّلُماتِ، ويَكْشِفُ السُّبُلَ والمواقع.

وعبارة ﴿أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أَوْجَزَ اللَّهُ عزّ وجلّ بِها معنيَيْن:

- أي: أنْزِلَ عَلَيْهِ ليبلّغَهُ للنَّاس.
- فَهُوَ مَعَهُ، يَتْلوهُ ويُبَلِّغُهُ للنّاسِ مَا دَامَ حَيًّا في الدنيا.

﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: هٰذِهِ الجملَةُ خَبَرُ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾. وما عُطِفَ على صِلَةِ الموصُول.

وفي هٰذه الجملةِ حَصْرٌ اسْتُفِيدَ من تعريفِ طَرَفَي الإسناد، مَعَ ضَمِيرِ الْفَصْل: «هُمْ».

والمعنىٰ: أولئِكَ وحْدَهُمْ بَعْدَ بِعْثَةِ مُحمَّدٍ هُمُ النَّاجُونَ والظَّافِرُونَ الفائِزُونَ بنَعِيمِ الآخِرَةِ العظيم، في جَنَّاتِ النعيم.

❁ ❁ ❁

من البشائر بالرَّسول النبي الأمّي الواردة في التوراة والإنجيل:

لا تزال بعض البشائر بالنبيّ الرسول محمّد ﷺ مكْتُوبَةً في كُتُبِ أَهْلِ الكتاب الْيَهودِ والنصارىٰ، على الرُّغم ممَّا تَعرَّضَتْ لَهُ هٰذه الكتب من تحريف وحَذْف.

أولاً: جاء في الإصحاح الثامن عشر من سِفرِ التَّثْنِية، خطاباً لموسى عليه السّلام، ما يلي:

«١٨ أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوتِهِمْ مِثْلَكَ وأَجْعَلُ كَلَامِي في فَمِهِ فَيُكَلّمُهُمْ بِكُلّ مَا أُوصِيهِ به ١٩ ويَكُونُ أَنَّ الإِنْسَانَ الذي لا يَسْمَعُ لِكَلَامِي الّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ باسْمِي أَنَا أُطَالِبُهُ...».

فعِبَارَةَ: [مِنْ وَسَطِ إِخْوتِهِمْ مِثْلَكَ» تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ هٰذَا النبيَّ المبشَّرَ بِهِ لَيْسَ من بني إسْرَائيل، لأنَّهُ لو كان مِنْ بني إسْرَائيل لكانت العبارة: «مِنْ وَسَطِهِمْ» لا [مِنْ وَسَطِ إِخْوتِهِم].

وقَدْ ظهر في الواقِعِ أنَّهُ مِنَ الْعَرَبِ المسْتَعْرِبَةِ أولاد إسْمَاعيل، ومَعْلُومٌ لَدَىٰ الجميع أَنَّ إسْمَاعيل هو أَخُو إسْحَاقَ لِأَبيه، الذي هُوَ جَدُّ بَنِي إسْرَائيل، وإبراهيمُ عليه السلام الجدُّ الأَعْلَىٰ لبني إسْرَائيل، ولِلعَرَب المستَعْرِبَة.

وعبارة: [وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ] تَدُلُّ على أنَّ الكتَابَ الَّذِي يتَلَقَّاهُ عَنْ رَبِّه إنَّما يَتَلَقَّاهُ عَنْ طَرِيق سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، فَيَنْطِقُهُ بِلِسَانِه، وَلاَ يَتَلَقَّاهُ مَكْتُوباً كَأَلْوَاحِ مُوسَىٰ عليه السلام.

ثانياً: وَجاء في الإصْحَاحِ الرابع عشر من إنْجِيلِ يُوحَنَّا ما يلي:

«١٥ إنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ ١٦ وأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّياً آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إلَىٰ الأَبَد ١٧ رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ لِأَنَّهُ لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ وأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونه لأَنَّهُ مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ ١٨ لاَ أَتْرُكُكُمْ يَتَامَىٰ. إنِّي آتِي إلَيْكُمْ. . .».

وقد تتبَّعَ عُلماءُ المسْلِمين، بمساعَدَةِ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ عُلَماءِ اليهُودِ والنصارى، نُسَخَ التوراة والزُّبُور والإنْجيل، فوجَدُوا فيها نحواً مِنْ ثَمانِي عشرة بشارة[1].

❁ ❁ ❁

مَا جاء في سورة (البقرة) من بيان العقوبة الَّتي رَتبها الله على الذين اتَّخذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَنِي إسْرَائِيل:

لم يأتِ في سورة (الأعراف) بيان عن العقوبة التي رَتَّبَهَا اللَّهُ عزَّ وجَلَّ على الَّذِينَ اتَّخذُوا العِجْلَ مِنْ بَنِي إسْرَائِيل.

وَلَكِنْ جاءَ بيَانُ هٰذِه العقوبَةِ في اللَّقَطَاتِ المختارات للبيان من قِصَّةِ مُوسَىٰ وقومه، في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) فقَالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ

---

(١) جاءت طائفة منها في كتاب «العقيدة الإسْلاَميّة وأسسها» للمؤلف. وجاء في كتاب «إظهار الحق» للشيخ رحمة الله الهندي طائفةٌ منها.

فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾.

هذا البيان تابع في سورة (البقرة) لخطاب بني إسرائيل، بَعْدَ بِعْثَةِ محمّد ﷺ، ونزول القرآن عليه.

وقد أُخِّرَ هٰذا البيان إلى العهد المدنيّ، وأنزِلَ في أوَّل سُورَةٍ مدنية، لوجود اليهود يوْمَئذٍ في المدينة، ودَعْوَتِهِم إلى دين الإسلام، والإيمان بمحمَّدٍ ﷺ وبما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْه، ولبَدْءِ احتكاك الرسُول والمؤمنين بهم في المدينة.

والمعنى: واذكُرُوا يا بني إسْرَائيل نِعْمَة اللَّهِ عليكم، إذْ عَفَا عن أسْلاَفِكُمْ في اتِّخاذِهِمْ العجْلَ، بَعْدَ أنْ ألْزَمَهُمْ بإقَامَةِ حدِّ الْقَتْلِ على مَنْ كانَ قد أشْرَكَ مِنهُمْ، باتّخاذِ العِجْلِ وعبادته.

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾: أي: عــرَّضــتُّــم أنفُسَكُمْ لِعِقَاب اللَّهِ الشّدِيد المرتّبِ على الشِّرْكِ به، وفي هذا دَلالَةٌ علَىٰ أَنَّهُمْ لم يَضُرُّوا اللَّهَ بشِرْكِهِمْ شيئاً، لأنَّ اللَّهَ جَلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانُهُ لاَ يَضُرُّهُ كُفْرُ الكافِرِينَ به، ولا مَعْصِيَةُ الْعُصَاةِ المجرمين، كما لاَ يَنْفَعُهُ إيمانُ المؤمنين به، ولا طَاعَةُ المطيعين الْمُسْلِمين، إنَّما هِيَ أَعْمَالُ الناسِ يُحْصِيهَا اللَّهُ لهم، ثُمَّ يُوَفِّيهِمْ جزاءَها، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إلاَّ نفسه.

﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾: أي: فَتُوبُوا مِنْ ذَنْبِكُمُ العظيمِ الَّذي ارْتَكَبْتُمُوه.

وهذه التوبة تكونُ بأنْ يَعْتَرفوا بالإثم العظيم الذي اقترفوه، وبأنْ يسْأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يغْفِرَ لهم، وبأَنْ يَعْزِمُوا علىٰ عَدَمِ الْعَوْدَة إِلَىٰ مِثْله، وَبأن يَرْجِعُوا إلى طاعة بارئهم.

البارئ: هُو الخَالِقُ الَّذي يَخْلُقُ لاَ على مِثَالٍ سَبَقَ. قيل: ويَخْتَصُّ

بخَلْقِ الحيوان غالباً، لِمَا في خَلْقِه من إبداع، وقلَّما يُسْتَعْمَلُ في غير الحيوان.

قال ابْنُ سِيدَه: بَرَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ يَبْرَؤُهم بَرْءاً وَبُرُوءاً، خَلَقَهُمْ: يكونُ ذَلِكَ في الجواهر والأعراض. أي: في المادّيَّاتِ وغير المادّيات.

﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: أي: فَمِنْ تَوْبَتِكُمْ وَرُجُوعِكُمْ إِلَىٰ طَاعَة بَارِئَكُمْ أَنْ تُنَفِّذُوا الحدّ الَّذِي أوجَبَهُ اللَّهُ عليكم، وهي أن تقتُلُوا أنفُسَكُمْ، أي: أن يَقْتُلَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، وهذا يتحقَّقُ بأنَّ يَقُومَ الَّذِينَ لَمْ يَعْبُدوا العِجْلَ بِقَتْلِ الَّذِينَ عَبَدُوه، وبأن يَسْتَسْلم الَّذِينَ عَبَدُوه للقَتْل. ويتحقَّقُ بأنْ يَقُومَ الَّذِينَ عَبَدُوا الْعِجْلَ بِقَتْلِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً فِي سَاحَةٍ واحِدَةٍ مُشْتَرَكة.

واتَّفقَ أهل التفسير على أنَّهُمْ لَمْ يُؤْمَروا بالانْتِحار، أي: بأنْ يَقْتُلَ كُلُّ من عَبَدَ العِجْل نفسه.

والتعبير عن أنْفُسِ الآخَرِين من الأمَّة الواحِدَة بأنَّهَا أَنْفُسُ كُلّ واحِدٍ منهم تعبيرٌ مُتَكَرِّرٌ في القرآن، لإشعار الأمَّةِ الإسلاميَّةِ الرَّبَّانِيَّة، بأنَّهُمْ كالْجَسَدِ الواحد.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾: أي: تَوْبَتُكُمْ إلىٰ بَارِئِكُمْ ذَاتُ المكانَةِ الرَّفيعة، وقتْلُكُمْ لأنفسِكُمْ طَاعَةً له، خَيْرٌ لَكُمْ عنْدَه، إذْ يَرْفَعُ عَنْكُمْ عذابَ الآخِرَةِ، ويُدْخِلكُمْ جنَّاتِ النَّعِيمِ خالِدِينَ فيها.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾: الفاء في [فَتَابَ] تَعْطِفُ على محذوف، أي: فأطاع أسلافُكُمْ، فَتَابوا إلى بَارئهم، وسَارَعُوا في تَنْفِيذِ قَتْلِ أَنْفُسِهم مُسْتَسْلِمِينَ لأمْرِ اللَّهِ في إِقَامَةِ الحدّ عليهم. فلَّما عَلِمَ اللَّهُ صِدْق تَوْبَتِهِمْ وَطَاعَتِهم، تابَ عليهم، ورفَعَ عَنْهُمْ تَنفِيذَ حَدِّ الْقَتْلِ عَمَّنْ لم يُقْتَلْ بَعْدُ منهم.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾: أي: إنَّهُ وَحْدَهُ كثيرُ التوبَةِ على عباده بالمغفرةِ والْعَفْو وجميل الإحْسان.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: أي: كثير الرَّحْمَةِ بعباده، وفي هذا تعميم بعْدَ تخصيص، إذ التوبَة أثرٌ من آثار الرحمة.

وفي وصْفِ تَنفيذ أمْرِ الله لهم بأنْ يقْتُلُوا أنفسهم نجد عند المفسّرين روايتيْن، إحداهما عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، والأخرى عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه.

فروى ابْنُ أبي حاتمٍ عن عليّ رضي الله عنه: «إنّ موسى عليه السلام لمَّا قالَ لبني إسرائيل: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾ قَالُوا لَهُ: مَا تَوْبَتُنَا؟. قَالَ: يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، فَأَخَذُوا السَّكَاكِينَ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَقْتُلُ أَخَاهُ، وأَبَاهُ، وابْنَه، لاَ يُبَالِي مَنْ قَتَلَ، حَتَّىٰ قُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفاً، فأَوْحَىٰ اللَّهُ إلى موسَىٰ: مُرْهُمْ فَلْيَرْفَعُوا أَيْدِيَهُمْ، وقَدْ غُفِرَ لِمَنْ قُتِلَ، وَتِيبَ عَلَىٰ مَنْ بقي».

وروى ابن جَرير عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه قال: «أمَرَ مُوسَىٰ قومَهُ عن أَمْرِ رَبّه أَنْ يَقْتُلوا أنفُسَهُمْ، واخْتَبَأَ الَّذِينَ عَكَفُوا عَلَىٰ الْعِجْل فجلَسُوا، وقام الَّذِين لَمْ يَعْكُفُوا على العجل فأخَذُوا الخناجِرَ بأيْدِيهم، وأَصَابَتْهُمْ ظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَعَلَ يقتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، فانجلَتِ الظُّلْمَةُ عَنْهُمْ عَنْ سَبْعِينَ أَلْف قَتِيلٍ، كُلُّ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ كانَتْ لَهُ توبَةً، وكلُّ من بَقِي كانَتْ لَهُ تَوْبَة».

هاتان روايتان لا نَمْلِكُ إثباتَ صِحَّتِهما أو صحَّةِ إحداهما، ولَيْسَ في شيءٍ مِنْهُما بيانُ أنّ النبيَّ المعصُومَ أَخْبَرَ به، فاللَّهُ أَعْلَمُ بما جرَىٰ، وبعَدَدِ مَنْ قُتِلَ مِنهم في هٰذا التكليف الرَّبَّانِيّ الّذِي دلَّتِ الآيَةُ على أنّ الله رَفَعَهُ عَنهُمْ عقِبَ بَدْئِهِمْ بتَنفيذِهِ صَادِقين في توبَتِهِمْ.

أمّا ما جاء عند الإسْرَائيلِيّين حول تنفيذِ هذا التكليف الرَّبَّانيّ، فنَجِدُ في الإصْحَاحِ الثاني والثلاثين من سِفْرِ الخروج:

«أنَّ مُوسَىٰ طَلَبَ مِنَ اللاَّوِيّين أَنْ يَأْخُذُوا سُيُوفَهُمْ، ويَمُرُّوا من بابٍ

إلَى بابٍ في المحَلَّةِ، ويَقُوموا بالْقَتْل الَّذِي فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْهم، فَفَعَلَ اللَّاوِيُّونَ كَمَا قَال لهم موسى، وَقُتِلَ مِنَ الشُّعْبِ في ذَلِكَ الْيَوْمِ نَحْوُ ثَلاَثَةِ آلاَفِ رَجُل.

وأنّ مُوسَىٰ طَلَبَ من اللاّويّين أنْ يَتَوَجَّهُوا بقَتْلاَهُمْ للرَّبّ من أبنائهم وأخوانهم، ليُعْطِيَهُمُ الرَّبُّ بَرَكةً.

أي: مغفرةً وعفواً.

وأنّ موسَىٰ سَألَ الرَّبَّ بَعْدَ ذَلكَ أَنْ يَغْفِرَ خَطِيئة بَنِي إسرائيل.

وجاء فيه أيضاً:

أنّ الرَّبَّ ضَرَبَ الشَّعْبَ الإسْرائيليّ لأنَّهُمْ صَنَعُوا الْعِجْل.

اللاَّوِيُّون: هُمْ سِبْطُ مُوسَىٰ هارون، وكانوا هم الّذِين أَسْنَدَ إليهم مُوسَى عليه السّلام القيامَ بالشُّؤُون الدِّينيَّة.

ولكِنَّ أخبار الإسْرَائيليين في كتُبِهِمْ قَدْ دَخَلَ فيها تحريفٌ وحَذْفٌ كثير، ويَصْعُبُ انتقاء الصَّحيحِ منها، ومن افتراءاتهم في كُتُبِهم ادّعَاؤهم أَنَّ هارون عليه السّلام هو الذي صَنَعَ العجْلَ لِبَني إسْرَائيل هُزْءاً بهم، مع أنّ الذي كان صاحبَ فِتْنَةِ الْعِجْلِ هو السَّامِرِيُّ، بصَرِيح نَصِّ القرآن الَّذي لاَ يَأتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولاَ مِنْ خَلْفِه.

ويظْهر أنَّ عَدَدَ القَتْلَىٰ الوارد فيما روى ابنُ أبي حاتِم عن عليٍّ، وفيما روى ابْنُ جَريرٍ عن ابنِ عَبَّاسٍ عَدَدٌ مُبَالَغٌ فِيهِ جدًّا، وهلَ الرّواية صحيحة عنهما؟!

فاللَّهُ أعْلَمُ بالحقيقة.

❀ ❀ ❀

الفقرة السابعة
فقرة معترضة فيها تكليف الرسول محمّدٍ بأن ينادي بأنّه رسولُ الله للناس أجمعين

وهي الآية (١٥٨).

قال الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾:

تمهيد:

هَذِهِ الآيَةُ آيَةٌ مُعْتَرِضَةٌ أوْقَفَ الله عزّ وجلّ بها البَيانَ المَتعلِّقِ بقِصَّة موسَىٰ عليه السّلام وقَوْمِهِ إيقَافاً مُؤَقَّتاً، على مِقدار كلِمَاتِهَا وجُمَلها، وقد دَعا إلى الاعْتراضِ بها اغْتِنامُ مُنَاسَبَةِ الْحَدِيث عَنِ الرَّسُول النَّبيّ الأُمّي مُحَمَّدٍ، الَّذِي بَشَّرَ اللَّهُ بِه مُوسَىٰ عليه السَّلَامُ وبَنِي إسْرَائِيل، إبَّانَ مُكالَمةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ مُوسَى عليه السَّلاَمُ في الميقات الثاني، ميقات الاعتذار والتَّوْبَةِ والاستغفار والشَّفَاعَةِ، ومَعَهُ السَّبْعُونَ المختارون من قومِهِ بني إسْرَائيل، ويَجِدُ بَنُوا إسرائيلَ الْبِشَارَةَ بِهِ مَكْتُوبَةً عِنْدَهُمْ فِي التوراة، والَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ بِعيسَىٰ عليه السلام يَجِدُونَها مَكْتُوبَة عِنْدَهُمْ في الإنجيل.

فجاء في هٰذه الآيَةِ الْتِفَاتٌ عن مُتَابَعَةِ الْبَيَانِ المتَعَلِّق بأحْدَاثِ قِصَّةِ مُوسَىٰ وقَوْمِهِ، إلَىٰ خِطَاب الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ إبَّانَ تَنْزيلِ السُّورَة وَمَا يَتَّصِلُ به من أَزْمانٍ لاَحِقَّاتٍ، فَإلىٰ خِطَابِ النَّاسِ أَجْمَعِين، وفِيهِمْ بَنُو إسْرَائِيل، بَدْءاً من وقْتِ التَّنْزِيلِ، واسْتِمراراً مع أَزَمَانِ الحياة الدُّنيا، مَا دَامَ فيها مُمْتَحنُونَ مُكَلَّفُونَ أنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّه، وبِسَائِرِ أَرْكان القاعدة الإيمانيّة المبيَّنَةِ فِي الإسلام، وأَنْ يَتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إِلَيْهِمْ من رَبِّهم، فَلِخطَابِ اللَّهِ لعبادِه في القرآنِ المجيد سُنَّةُ الاسْتِمْرارِ والتَّجَدُّدِ، ما دَامَ في الوجود مَعْنِيُّونَ بِه.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ... (١٥٨)﴾:

يأمُرُ اللّهُ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ بهذهِ الْعِبَارَة رَسُولَهُ مُحَمّداً ﷺ بأنْ يُنَادِيَ النَّاسَ جَمِيعاً، بأنَّهُ رَسُولُ اللّهِ إلَيْهِمْ.

وبأسْلُوبِ غَيْرِ مُبَاشِرِ يُخَاطِبُ اللّهُ عزَّ وجلَّ النَّاسَ جَمِيعاً بهٰذِهِ العبارة، خِطَاباً يَتَنَاوَلُ كُلَّ صالح مِنهُمْ للخِطَابِ بِصُورَةٍ إفراديَّة، فَيُعْلِمُ كُلَّ فَرْدٍ بِهِ أَنَّ محمّداً رَسُولُهُ، فيجب عليه أنْ يُؤْمِنَ بِهِ، وأن يَتَّبِعَ مَا أَنْزَلَ اللّهُ عَلَيْهِ منْ آيَاتٍ بَيَانِيَّةٍ للنَّاس ليَعْمَلُوا بِها، وَيَتَّبِعُوا ما جَاءَ فيها.

هٰذَا الأمْرُ للرسول الذي جاء في هذه العبارة لا يَمْلِكُ الرَّسُولُ إلاَّ أن يقولَهُ ويُعْلِنَهُ، لأنّه أمْرٌ إلزامِيٌّ فَرَضَ اللّهُ عليه أنْ يَقُوله.

لَقَدْ أَمَرَهُ اللّهُ عزَّ وجلّ بأن يُنادي النَّاس جميعاً بأبلغ أدَوات النداء، فَيُعْلِمَهُمْ بجَزْمٍ وتأكيدٍ قائلاً لَهُمْ: إنّي رَسُولُ اللّهِ إلَيْكُمْ جَمِيعاً، أي: دونَ استثناء قَوْمٍ، أَوْ شَعْبٍ أو سُلاَلَةٍ بَشَرِيَّةٍ، أو أيّ شخصٍ من النّاسِ أهْلٍ للخطاب، ودُون استثناء أيّ مُنْتَمٍ لدِينٍ من الأديان السالفة.

وجاء التأكيد بلفظ ﴿جَمِيعًا﴾ لدَفْع تَوَهُّم احتِمَال استِثْنَاءِ بَعْضِ النَّاسِ من الدُّخول في عُمُوم لفظ: ﴿ٱلنَّاسَ﴾.

وجاء تأكيد الإسْنَادِ الخبريّ في الجملة بـ«إنَّ ـ والجملة الإسمية».

فكُلُّ من بَلَغَهُ هٰذَا النّداء، وكان أهْلاً لخطابات التكليف الرَّبَّانِيّ، فَهُو مُكَلَّفٌ أَنْ يُؤْمِنَ بهذا الرَّسُولِ النبيّ الأُمِيّ مُحَمَّدٍ ﷺ، وبما جاء به عَنْ رَبّه، ومُكَلَّفٌ أَنْ يُؤْمِنَ بآيات اللّهِ وكَلِمَاتِهِ الَّتي أَنْزَلَها عَلَيْهِ، وأَنْ يَتَّبِعَهُ مُسْلِماً مُطِيعاً، وأَنْ يَتَّبِعَ مَا أُنْزِلَ إلىٰ الناس من رَبّهم.

• ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ . . . ﴿١٥٨﴾﴾:

هذه العبار تابعَةٌ لما أَمَرَ اللَّهُ به رَسُولَه محمّداً أَنْ يُنَادِيَ النّاسَ به، وقد جاء في هذه العبارة وصْفُ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ بِمَا يَقْتَضِي عقلاً وجُوبَ الإيمانِ بالرَّسُول الذي يُرْسله، إذا كان معه برهانُ صِدْقِ نبوّته ورسالته، ووجُوب اتّباعِه، ووجُوبَ العَمَل بما جاء به عن ربِّهِ من آياتٍ وأَحْكامٍ وتكاليف.

الصفة الأولى: دلَّ عليها: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾: أي: هو المالِكُ والْمَلِكُ للسَّماوَاتِ والأرض وما فيهما ومَنْ فيهما.

يُقَال لغة: مَلَكَ الشيءَ يَمْلِكُهُ مِلْكاً ومُلْكاً ومَلْكاً، إذ حازَهُ، وانفَرَدَ بحَقِّ التَّصَرُّفِ فيه، وكانَ له على الأحياء المدرِكَةِ فيما مَلَكَ مِنْ ذوات الْعِلْمِ، سُلْطَانُ الأَمْرِ والنَّهْي وسائر التصرُّفَاتِ.

ومَنْ كان له مُلْكُ السَّمَاواتِ والأرضِ وَمَنْ فيهما، كانَ النَّاسُ في الأرضِ عَبِيدَهُ، إذْ هو مالِكُهُمْ، وهو الْمَلِكُ ذُو السُّلْطَانِ عَلَيْهم، وهُو رَبُّهم الّذي يُمِدُّهُمْ دواماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّته، ويُهَيْمِنِ عليهم بالابْتِلاَءِ وبالمحاسبة والجزاء.

فَيَجِبُ عَلَيْهم أَنْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِ إليهم، ويَتَّبِعُوهُ ويُطِيعُوه، فإنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ كانُوا عُصَاةً كافِرِين باللَّهِ، واسْتَحَقُّوا الْعِقَابَ الّذِي قَرَّرَهُ وحَكَمَ بِهِ على مَنْ كَفَرَ بِرَسُوله.

الصِّفَة الثانية: دلَّ عليها: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: أي: لاَ مَعْبُودَ في الوجود بحقٍّ سِواهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن الشركاء.

وذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ لَهُ مُلْك السَّماوات والأرض، كانَ هُو الرَّبّ الذي يجب على عباده أنْ يَعْبُدوه وَحْدَه، وأَنْ لاَ يُشْرِكُوا بعبادته أحداً، والَّذي يجب على عباده أنْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِ ويَتبعُوه.

الصِّفَةُ الثالثة: دلَّ عليها: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾: أي: والَّذِي يُحْيِي الأحياءَ على اختلاف أنواعها ورُتَبِها في سُلَّمِ الحياة، ويُمِيتُها بِنَزْعِ ما بِهِ تكُونُ حَيَاتُها، وهي الرُّوح الَّتي هِيَ مَن أمْرِه التكوينيّ.

فالْحَيَاةُ والموتُ ظاهِرتَان متكرّرَتان في عالَم المخلوقاتِ القابلات للحياة، وما أَحَدٌ يَدَّعي أنّه يمْنَحُ الحياة لمادّةٍ لا حَيَاةَ فيها. أو لشيءٍ مَعْنَوِيّ لاَ حياة فيه. ولَو ادَّعَىٰ ذلِكَ لم يَسْتطع.

وما أَحَدٌ يَدَّعِي أَنَّهُ قَادِرٌ على إدامَةِ الحيَاةِ وَإبقائِهَا في حيٍّ انْتَهَىٰ أجَلُهُ في الحياة، ودَعَاهُ دَاعِي الموتِ، مَهْمَا اتَّخذَ لذلِكَ من وسَائل، ولو أنْفَقَ مِلْءِ الأرضِ ذَهباً، أو ما هُوَ أثْمَنُ من الذهب.

ولهذا اقتصر ادّعاء منكري وجود اللَّهِ الرَّب الخالقِ جلّ جلاله وعظُمَ سُلْطانه، على أَنَّ الحياةَ والموتَ ظاهِرَتَانِ طَبِيعِيَّتَانِ في الكائنَاتِ الحيَّة، وأنَّ الموتَ غَايَةُ كُلِّ حَيّ حَتْماً.

وحِينَ حَاوَلَ عُلَماؤُهم تحويلَ مَادَّةٍ لاَ حَيَاةَ فيها، إلَىٰ كائنٍ حَيٍّ من أدْنَىٰ الكائناتِ الحيَّةِ خابُوا، وقَدْ بَذَلَتْ دُولُهُمْ في ذَلِكَ القَنَاطِيرَ المقَنْطَرة من الذَّهب على المختبراتِ العلميّة، وتابَعُوا بُحُوثَهم طَوَالَ عَشَرَاتِ السِّنين، فلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يوجِدُوا خَلِيَّةً واحِدَةً حَيَّةً مِنْ مادَّةٍ غَيْرِ ذَاتِ حَيَاةٍ، وبَاؤُوا بالخَيْبَة، فَضلاً عن أن يخْلُقُوا ذُبَابَةً، وأَعْلَنُوا قرارَهُمْ الموافق لقرار سَائِرِ عُلَمَاءِ الأَحْيَاء في العالم قائلين: إنَّ الحياةَ لاَ تُوجَدُ إلاَّ اشْتِقاقاً مِنْ حَيَاةٍ سابقَةٍ لها.

لمّا كان الأَمْرُ الواقِعُ في الوجود على ما سَبَقَ بيانه لَمْ يَكُنْ إثْباتُ أَنَّ اللَّهَ يُحْيي ويُمِيتُ بحاجَةٍ إلى مُؤَكِّداتٍ في البيان الكلاَمِي، ولا إلى صيغَةٍ من صِيَغِ الحصْرِ، إذ الحياة والموتُ ظاهِرَتانِ مشهودَتَان، لخالِقٍ غَيْبِيٍّ غَيْرِ مَشْهُودٍ، وهذا الخالِقُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إلهَ إِلاَّ هو، بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ، وهو على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

قول الله تعالى:

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾:

هذا خطابٌ مُباشِرٌ مِنَ اللَّهِ عَزّ وَجعلّ للنَّاسِ الموضُوعِين في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلاَءِ، للحسَابِ، وفَصْلِ القضاءِ، وتَنْفِيذِ الجزاء يَوْم الدِّين.

وفي هذا الخطاب ثلاث مَطالِبُ، يُوجِّهُها اللَّهُ للناسِ عموماً مَتَناولَةَ كُلَّ شَخْص من النّاسِ المقصُودِين به، فهو مخاطبٌ بها إفرادِيًّا وَمَعَ سائر الناس المَعْنِيّين بالخطابِ، وختام ترغيبي.

● **المطلب الأول**: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾: أي: فيا أيُّها النَّاسُ آمِنُوا باللَّهِ، الّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، لاَ إلهَ إلاَّ هو، يُحْيِي وَيُمِيتُ.

● **المطلب الثاني**: ﴿وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾: أي: وآمِنُوا بِرَسُولِهِ النبيّ الأُمّيّ الَّذِي سَبقَتِ البشارةِ بهِ في التوراة والإنجيل.

وقد سبَقَ في الفقرة السّادِسةِ تحليلُ كونه رَسُولاً نَبِيًّا أُمِّيًّا.

وجاء في هذه الفقرة السابِعةِ إِضَافَةُ كوْنِه يُؤْمِنُ باللَّهِ وبكَلِمَاته.

أي: واعْلَمُوا أَنَّ هذا الرَّسُولَ النّبيَّ الأُمِّيَّ مُكَلَّفٌ أيضاً أَنْ يُؤْمِنَ باللَّهِ وَكَلِمَاتِه، كما أَنَّكُمْ مُكَلَّفُونَ أَنْ تُؤمِنُوا باللَّهِ وَكَلماته، وبما أنّه رسُولٌ مجتبَىٰ لاَ يَعصِي الله فيما يَجِبُ أن يكون فيه أُسْوَةً للنَّاسِ، فَهُوَ يُؤْمِنُ باللَّهِ، ويُؤْمِنُ بكَلِمَاتِ اللَّهِ المَنَزلاَتِ عليه في آياتهِ البَيِّنَات، ولَيْسَ هُوَ مُجَرَّدَ أداة نَقْلٍ وَتَبْلِيغ.

إنّه عَبْدٌ مُبْتَلَىٰ مُكَلَّفٌ، مَعْصُومٌ بِعِصْمةِ الله عن المعَاصِي التي تَقَعُ في حدود مرتبة التقوى، وعليه تكاليف زائدةٌ، هِيَ من حُدُودِ مَرْتَبَةِ البرّ ومَرْتَبَةِ الإحسان.

● **المطلب الثالث:** ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾: أي: وسِيرُوا في أثَرِ هٰذَا الرَّسُولِ، مُقْتَدِين مُتَأَسِّينَ بِه، مُهْتَدِينَ بِهَدْيِه، فَهُو النُّمُوذَجُ الأَمْثَلُ، الذي جَعَلْنَاهُ لَكُم، لِتَتَأَسَّوْا بِهِ، وتَقْتَدُوا في سُلُوكِكُمْ في الحياةِ بسُلُوكه، وفي أخْلاَقِكُمْ بأخْلاَقِهِ، وفي آدابكُمْ بآدابه.

وَإِذَا اسْتَعْرَضْنَا مَا جَاءَ في السُّورةِ من تكاليفَ عُظمَىٰ، مُوَجَّهَةٍ مِنَ اللَّهِ عزّ وجلّ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ، حَتَّىٰ هٰذِهِ الآيَةِ، وَجَدنَاهَا تَكْلِفَيْنِ أعْظَمَيْن:

التكليف الأوّل: وُجُوبُ اتِّبَاعِ مَا أُنزِلَ إليهم من رَبِّهم، ويكُونُ هٰذَا الاتِّباعُ بفِعْلِ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَتَرْكِ ما نَهَىٰ اللَّهُ عَنْهُ، ويَدْخُلُ فيه طاعَةُ الرَّسُولِ في أَوَامِرِه ونواهِيه، لأنَّ اللَّهَ أَمَر بطاعَتِه فيما أنْزَل في كتابه.

التكليف الثاني: وُجُوبُ اتِّباعِ رَسُولِ الله النَّبيّ الأُمّي الَّذِي يُؤْمِنُ باللَّهِ وَكلماته، ويَكُونُ هٰذا الاتِّباعُ بالاقتداء بهِ، إلاَّ ما كان من خُصُوصِيَّاتِهِ بالنّص.

● **الختام الترغيبي:** ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: أي: أَمَرْنَاكُم بأنْ تُؤْمِنُوا باللَّهِ وبَرَسُولِهِ وبأنْ تَتَّبِعُوه، رَاغِبين في أَنْ تَهْتَدُوا بتَنْفِيذ ما أَمَرْنَاكم بِهِ، لِنَحْكُمَ لَكُم بالْهِدايةِ، فَنُثِيبَكُمْ عَلَى مَا كَسَبْتُم ثَواباً جَزِيلاً، في جنَّاتِ النعيم يوم الدين.

لَعَلَّ: أصْلُ معناها التوقُّعُ والتَّرَجي، وهي تُحْمَلُ بالنِّسْبَةِ إلى اللَّهِ عزَّ وجلّ على معنى الرَّغْبَةِ وَالرِّضا، لأنّ المرجُوَّ من الأشياء الحَسَنَةِ مَرْغُوبٌ فيه، ويُسْتَقْبَلُ بالرِّضا. واللَّهُ جَلّ جلالُهُ يَرْضَىٰ لعباده الإيمانَ والْعَمَل الصّالِحَ، ولا يَرْضَىٰ لَهُمُ الكُفْرَ والعَمَلَ السَّيِّئ.

وهٰذَا من إطلاقِ اللفظ على لازِمِ مَعْنَاه، ويَدْخُلُ في دائرَةِ المجاز المرسل.

❁ ❁ ❁

الفقرة الثامنة
من مِنَنِ الله على بني إسرائيل في التيهِ

تقطيعهم إلى أسباط ـ أسقاؤهم بآية خارقة ـ تظليلهم بالغمام ـ إطعامهم المنّ والسّلْوى.

الآيتان (١٥٩ ـ ١٦٠).

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

القراءات:

(١٦٠) ● قرأ أبو عَمرو بِكَسْرِ الْهَاءِ والميم في: [عَلَيْهِمِ الْغمامَ] وفي [عَلَيْهِمِ الْمَنَّ].

وقرأ حَمْزَةُ والكسائي، ويَعْقُوبُ، وخلف بِضَمِّهما فيهما: [عَلَيْهُمُ].

وقرأ باقي القُرّاء العشرة بكسْرِ الهاء وضَمّ الميم فيهما: ﴿عَلَيْهِمُ﴾.

وهٰذِه وجوهٌ عربيّة لنُطْقِ هاء الضمير والميم الذي بعده علامةً للجمع.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾:

جاء هذا البيان الرَّبّاني اسْتِدْراكاً الدَفعِ تَوَهُّم أَنَّ كُلَّ قَوْم مُوسَىٰ الّذِين

كانُوا معَهُ مِنْ بني إسرائيل، والذين جاءوا من بَعْدِهم حتَّىٰ بعَثَ اللَّهُ عزّ وجلّ عيسى عليه السلام بالرِّسَالَةِ التَّعْدِيليّة الَّتِي لم يَبْق بها لموسَىٰ قَوْمٌ مُعْتَرَفٌ بِهِمْ عِنْدَ الله، كانُوا سيِّئِين، أمثالَ الذين اتَّخَذُوا الْعِجل، أو أمْثال المقصِّرِين المتهاونين بما يجب عليهم من الأمْرِ بالمعروف والنهْي عن المنكر، والأخْذِ على يَدِ الظالم.

بَلْ كانَ مِنهُمُ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالْحَقِّ، وبِهِ يَعْدِلُون.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾: المرادُ بهم الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه من بني إسْرَائيل، لا كُلُّ من دَعَاهُمْ مُوسَىٰ إلى الدِّين الحقِّ، كالمصْريين، ولاَ كُلُّ بني إسْرائيل، فَمِنْ بني إسرائيل من لم يُؤْمِنُوا به، بدليل قول اللَّهِ عَزّ وجلّ في سُورَةِ (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾: أي: على خَوْفٍ مِنْ فِرعَوْنَ وَآلِهِ وَمَلَئِهِمْ مِنْ كُبرَاءِ المصْريين الَّذِين لَيْسُوا من آله، وفي عود الضمير على فرعَوْنَ بصيغة الجمع إشارةٌ إلَى أنَّهُ مَعَ آلِهِ بمَثَابَةِ فِرْعَوْنٍ واحِدٍ، إذْ كانُوا يَحْكُمونَ شَعْب مَصْرَ كَجَسَدٍ فِرْعَوْنِيٍّ واحِدٍ.

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾: أي: أنْ يُعذِّبَهُمْ لاتباعِهم مُوسَىٰ والدّين الّذي دعَا إليه.

﴿أُمَّةٌ﴾: يُطْلَقُ لفظ الأمَّةِ في الاستعمال القرآني على كلِّ مجموعَةٍ تَجْمَعُها صفاتٌ أو خَصَائِصُ أوْ روابط مُتَمِيِّزَة.

والفريقُ من الأمَّةِ إذَا اجْتَمَعُوا علَىٰ رَأيٍ متميّزٍ تُطْلَقُ عيهم كَلِمةُ «أُمَّة». حتَّىٰ الفردُ الواحِدُ المتميِّزُ يُطْلَقُ عليه أنّه أُمَّةٌ وحْدَه.

﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾: أي: هُمْ دُعَاةٌ يَدْعُونَ إلى سبيل رَبّهم، ويَأْمُرُونَ بالمعروف ويَنْهَوْن عن المنكر، فَيَهْدُونَ النَّاسَ بذلِك، ولكنَّهُمْ لا يتَّخِذونَ وسيلَةً باطلَةً لما يقُومُون به مِنْ هداية، بل يتخذون وسائل من الحقّ، فَهُمْ يَنْصُرُونَ الحقّ بالْحَقِّ، ويَهْدون إلى الحقّ بالحقّ.

معنى «الباء» في عبارة: «بالْحَقِّ» الاستعانة.

﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾: أي: وبَالحقّ يَعْدِلون، إذا حَكَمُوا بين الناس، أو قَضَوْا بين الْخُصُوم.

فهم يسْتَعِينُونَ بالحقّ وبالنّظر الثاقِب إلَيْهِ، لمعْرِفة وجْهِ الْعَدْلِ الّذِي يَحْكُمونَ بِه بين الناس، ولمعرفة وجْهِ العدْلِ الّذِي يَقْضُون بهِ بين المتخاصِمين.

وهٰذه شهادة من الله عزّ وجلّ لهذا الفريق من قومِ مُوسَىٰ، الّذِي تَصِحُّ نِسْبتَهِمْ إليه، واعتبارُهم من قومه المتبعِينَ له، بأنّهم يَهْدُونَ بالْحَقِّ، ويَعْدِلُونَ بالْحَقّ، فهم بصفاتهم أئمةٌ للمتقين وإنْ كانوا أعداداً قليلَةً في عُصُورهِم، أبْرَارٌ أَوْ مُحْسِنُونَ.

أمّا الذين بَقُوا من بني إسرائيل على يهوديّتهِمْ بِعْدَ بِعْثَةِ عيسَىٰ عليه السّلام، فلم يُؤْمِنُوا بعيسَىٰ، ولم يَتَّبِعوا ما أُنْزِلَ عَلَيْهِ من رَبّه، فلَيْسَ فيهم حَتْماً أُمّةٌ يَهْدُونَ بالحقّ وبه يَعْدِلُون، لأنَّهُمْ قد أَخْرَجُوا أنفسهم من قوم مُوسَىٰ بالكُفْرِ بعيسَىٰ، وكذَلِكَ الَّذِين لم يُؤْمِنُوا بمُحمَّدٍ بَعْدَ بعْثَتِه، من بني إسرائيل الَّذِين آمَنُوا بعيسَىٰ واتّبَعُوه، ليْسَ فيهم حتماً أُمَّةٌ يَهْدُونَ بالحَقّ وبه يَعْدِلُون، بسبب كُفْرِهم بما يجب عليهم أنْ يُؤْمِنُوا به، وبسبب عَدَمِ اتّباعهم ما أُنزِلَ إليهم من ربّهم على رَسُولِهِ محمّد خاتم الأنبياء والمرسلين.

وقُدّمَ لفظ ﴿بِهِۦ﴾ على لفظ ﴿يَعْدِلُونَ﴾ مُراعاةً لفنّيّه التّناسُقِ في رؤُوس الآيات.

قول الله تعالى:

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)﴾:

جاءت هٰذِهِ الآيَةُ في سورة (الأعراف) حَدِيثاً إخبارِيًّا عَنْ بَنِي إسْرَائيل، ثُمّ خاطبهم اللَّهُ عزّ وجلّ بمعظم مَا جاء في فِقَراتِها، مُمْتَنًّا عليهم بما أنعم به على أجدادهم، مع زيادة في البيان، فقال تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أوَّلِ سُورَةٍ نَزَلَتْ في المدينة بَعْدَ هجْرَة الرَّسُول ﷺ إليها مخاطباً بني إسرائيل فيها:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾.

وقال تعالى فيها أيضاً مُتابعاً امتِنانَهُ عليهم:

﴿۞ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)﴾.

أي: وضعوا في ذاكراتكم منّة الله على أجدادكم في حادثة السُّقْيا بعد خروجهم من مصر، وطلب موسى من ربه أن يُسْقيهم بعد أن طلَبُوا منه السقيا.

وقد اشتمل هذا الذي جاء في سورة (الأعراف) مع هذا الذي جاء في سورة (البقرة) على بيانِ سَبْعِ قَضَايا:

القضية الأولى: قول الله تعالى في (الأعراف): ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ

أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾: أي: وقَسَّمْنا بَنِي إسرائيلَ وهم في سيناء بقيادة موسىٰ عليه السلام، اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قِسْماً بحَسَب أسْباطِهِمْ، فكانُوا بمَثَابَةِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُمَّة.

والسِّبْطُ عِنْدَهُمْ بمثابَةِ القبيلة عند العرب، فالسِّبْط مِنْ بَنِي إسْرَائيل قبيلَةٌ تَنْتَمِي إلَىٰ جَدٍّ من أجْدَادِهم، أوْلاَدِ يَعْقُوبَ عليه السَّلام (وهو إسْرَائيل) أوْ أوْلاَدِ أوْلاَدِهِ.

أقول: وَكَانَ هذا توجيهاً رَبَّانِيًّا لِلْقيام بِتَنظِيم إداريّ يَتِمُّ به ترتيب الْجَيْش الّذي سيُكَلَّفُ أَنْ يَدْخُلَ الأَرْض المقدّسَة، مُقَاتِلاً في سبيل الله، مع ما في هٰذا التقسيم الإداريِّ من تيْسِير مَصَالِحِ الإقامَةِ والارتحال، وتوجيه الأوامر والنواهي، وتحديد إقامَةِ كُلّ سِبْط، ومَعْرِفَةِ كُلِّ سِبْطٍ لوظائِفِه وَمَسْؤُولياته، وتبليغِ الأسْباط عن طريق رؤسَائِهم ما يقتضي الواجب، أو تقتضي المصلحة، تبليغَهم إيّاه من أمُورِ الدّين، أو من أمُورِ الإدارة في المجتمع الإسْرَائيلي.

وفي تَفْصِيل هذا التقسيم جاء عند الإسرائيليّينَ في كُتُبِهِمْ ما يلي:

(١) جاء في الإصْحاحِ الأوّل من سِفْرِ الْعَدَدِ عنْدَ بَنِي إسْرَائيل: «أنَّ الرَّبَّ كَلَّمَ مُوسَىٰ في بَرّيَّةِ سيناء، في خَيْمَةِ الاجْتِماع، في أوَّلِ الشَّهر الثاني، في السَّنَةِ الثانية لخروجهم من أرض مِصْرَ قَائِلاً: أحْصُوا كُلَّ جَمَاعَةِ بَنِي إسْرَائيلَ، بِعَشَائِرِهِمْ، وبُيُوتِ آبَائِهِمْ بِعَدَدِ الأسْمَاءِ، كُلَّ ذَكَرٍ برَأْسِهِ، من ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعداً، كُلَّ خَارِجٍ لِلْحَرْبِ في إسْرَائيل، تَحْسُبُهُمْ أنْتَ وهَارُونَ حَسَبَ أَجْنَادِهِمْ، ويَكُونُ مَعَكُما رَجُلٌ لِكُلِّ سِبْط. رَجُلٌ هو رأسٌ لبَيْتِ آبائه».

(٢) وَجاء في الإصْحَاحَيْن الأوَّلِ والثاني من سِفْرِ الْعدد «أنَّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ وَرُؤَسَاءَ أسْبَاطِ بَنِي إسْرَائيل الاثْنَيْ عَشَرَ قَدْ قَامُوا بِهَذَا الإحْصَاءِ.

أمّا سِبْطُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ وهُمُ اللاّوِيُّونَ فَلَمْ يَدْخُلُوا فِي إحْصَاءِ الأَجْنَادِ

بِحَسَبِ قَبَائِلِهِمْ، لأَنَّهُمْ كُلِّفُوا أَنْ يَكُونُوا وُكَلاَءَ عَلَىٰ خَيْمَةِ الاجْتِماعِ الْكُبْرَىٰ «مَسْكَنِ الشَّهَادَة. كما يُسمُّونه» وهُوَ في وَسَطِ مُخَيَّمَاتِهِم وَمَنازِلِهِمْ بِمَثَابَةِ الْمَعْبَدِ الْكَبِيرِ وقَصْرِ الحكم، لكِنَّهُ قَابِلٌ للنَّقْلِ في البرّيَّةِ حَيْثُ انْتَقَلُوا وحَيْثُ ارْتَحلُوا، لأنهم صَارُوا بَعْدَ خُرُوجِهِمْ من مضرَ كالْبُدْوِ يَنْتَقِلُونَ وَيَرْتَحِلُونَ، ولاَ يَبْنُونَ أبْنِيَةً ثَابِتَةً.

فَخُصَّ اللاَّوِيُّونَ بأَنْ يكونُوا وُكَلاَءَ على مَسْكَنِ الشهادة، يَحْمُونَهُ وَيَحْمِلُونَهُ عِنْدَ الارْتحال، ويُقِيمُونَهُ عِنْدَ النُّزُولِ، وهُمْ يَنْزِلُونَ حَوْلَهُ، وَسَطَ مَنَازِلِ سَائِرِ الأَسْبَاط.

وكانَ هارُونُ عليه السَّلاَمُ وزيراً لموسَىٰ عليه السّلامُ في الشُّؤُونِ الدّينيَّة وَمَرَاسِيمها وَشَعَائِرِها، على ما يقولون.

وكانَ سِبْطُ لاَوِي هُمُ المقدَّمِينَ وراءَ الرَّسُولِ هَارُونَ يَخْدُمُونَهُ، وَيَحْفَظُونَ شَعَائِرَهُ وَشَعَائِرَ كُلِّ الْجَمَاعَةِ، قُدَّامَ خَيْمَةِ الاجْتماع، ويَحْرُسُونَ كُلَّ أمْتِعَتِها.

فيبْدُو أَنَّ وَظائِفَ الكَهَانَةِ الدّينيَّةِ كانت مَوْكُولَةً لِلاَّوِيين، ورُبّما كانت فيهم أيضاً وَظائفُ المهمَّاتِ الإداريَّة العامّة.

وَإِذْ فُرِزَ اللاَّوِيُّونَ لِهٰذِهِ المهمَّاتِ، ولَمْ يَدْخُلوا في إحْصَاءِ الأَجْنَادِ فَقَدْ بَقِيَ من بني إسرائيل أَحَدَ عَشَرَ سِبْطاً من أَوْلاَدِ يعقوبَ عليه السلام، بعد «لاَوي وذَرّيَّاتِه».

لَكِنَّ مُوسَىٰ وهارون عليهما السلام، جَعَلا سلالَةَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ سِبْطَيْن، أي: قبيلَتَيْن، إذْ كانَ لَهُ وَلدانِ: «أَفْرَايم» و«مَنَسَّىٰ». وبهذا عاد مجموعُ الأَسْباطِ المقَسَّمَةِ في الإحْصَاءِ إلى اثْنَيْ عَشَرَ سِبطاً، أي: إلى اثْني عَشَرَ قَبِيلة.

واقْتَضَىٰ هذا التقسيم تَرْتيبَ مَنَازِلِ هذه القبائِلِ إلى أَحْيَاء، وتَنْظِيم

حَرَكَةِ ارتِحَالِها عِنْدَ الارْتحال، وتَمِييزَ كُلِّ حَيٍّ من هذه الأحياءِ برايَةٍ تُرْفَعُ في الحيّ.

وقُسِّمَتْ أطْرَافُ دائِرَة الْوَسَطِ إلى أَرْبَعَةِ أَحْيَاء، شَرْقِيَّةٍ، وغَرْبِيَّةٍ، وجَنُوبِيَّةٍ، وشَماليَّة، وَوُزِّعَ على كُلِّ حَيٍّ مِنْهَا ثَلاثَةُ أسْباط.

فالحيُّ الأول: يجمع سِبْطَ «رَؤُوبين» برئاسة «أَلِيصُور». وسِبْط «شِمْعُونَ» برئاسَةِ «شَلُوميئيل». وسِبْطَ «جَاد» بِرئاسَةِ «أَلْيَاسَاف».

وتُسَمَّىٰ مَحلَّتُهُمْ: «مَحَلَّةَ رَؤُوبين» ورايتها رايَةُ «مَحَلَّةِ رَؤُوبين».

وعند الارْتِحَال يَرْتَحِل هٰؤلاَءِ ثَانِياً.

والحيُّ الثاني: يَجْمَعُ سِبْطَ «يَهُوذا»» بِرئاسَةِ «نَحْشُون». وسِبْطَ «يَسَّاكِر» بِرِئَاسَةِ «نَثَنَائيل». وسِبْطَ «زبُولُون» برِئاسَةِ «أَلِيآب».

وتُسمّى محلتهم: «محلة يهوذا» ورايتها راية «محلة يهوذا».

وعند الارْتحال يَرْتَحِلُ هؤلاء أوَّلاً.

والحيُّ الثالث: يَجْمَعُ سِبْط «أفرايم» بن يوسُفَ عليه السلام، بِرئاسَةِ «أَلِيشَمَعُ». وسِبْطَ «مَنَسَّىٰ» بن يوسُفَ عليه السلام، بِرِئاسَةِ «جَمْلِيئِيل».

وسِبْطَ «بنْيامِينَ» برئاسَةِ «أَبِيدَنَ».

وتسمّى محلتهم «محلة أفرايم» ورايتها راية «محلة أفرايم».

وعند الارْتِحال يَرْتَحِلُ هؤلاء ثالثاً.

والحيُّ الرابع: يجمع سِبْط «دَان» بِرئاسَةِ «أَخِيعَزَرَ». وسِبْطَ «أَشِير» برئاسَةِ «فَجْعِيئِيلَ». وسِبْط «نَفْتَالي» بِرِئاسَةِ «أَخِيرَعَ».

وتُسَمَّىٰ مَحلَّتُهُمْ: «مَحَلَّة دَانَ» ورَايَتُها رايَةُ «مَحلَّةِ دَان».

وعند الارْتحال يَرْتَحِلُ هؤلاء أخيراً.

فالظاهر أنّ الله عزّ وجلَّ يُشِيرُ إلى هِذِهِ التقسيماتِ التنظيمّة الإدَارية، بقوله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف):

﴿وَقَطَّعْنَهُمُ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾:

أي: وقَطّعْنَاهُمْ بتنظيم إداريّ اثنتي عَشرَة قِطْعَةً، حُذِفَت لفظَةُ «قِطْعَةً» من العبارة إيجازاً.

ولفظ: ﴿أَسْبَاطًا﴾ بَدَلٌ من ﴿اثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ ولفظ ﴿أُمَمًا﴾ عَطْفُ بيان، أو هُمَا حَالاَن من ضَمِير: ﴿وَقَطَّعْنَهُمُ﴾.

القضية الثانية: قولُ الله تعالى في سورة (الأعراف): ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ اسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانۢبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ . . . ﴿١٦٠﴾﴾.

وقوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ . . . ﴿٦٠﴾﴾.

هٰذان النَّصّان مُتَكامِلاَن ببعض ما جاء فيهما، ومتطابقان أو مُتَماثلان ببعض ما جاء فيهما:

فما جاء في سورة (الأعراف): ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ اسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانۢبَجَسَتْ مِنْهُ﴾. فَدَلَّ على أن قومه طلبوا منه السَّقْيا.

وما جاء في سورة (البقرة): ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ﴾. فَدَلَّ على أنه سأل رَبَّهُ أن يُسْقي قومه.

وبالجمع التكامُليّ بَيْنَ العبارتين تكُونُ العبارة كما يلي: وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بعَصَاكَ الحَجَرَ.

﴿ٱسْتَسْقَىٰ﴾: طَلَبَ السُّقيا، أي: الماء الدائم الذي يستقي منه بنو إسرائيل.

﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ﴾ كما جاء في (الأعراف): أي: فانْشَقَّتْ من الْحَجَرِ اثْنَتَا عَشْرَة عيناً، يَخْرُجُ من كلّ عَيْنٍ مِنْهَا الماء.

[انبَجَسَ]: فعل مُطَاوعٌ لِفِعْلِ «بَجَسَ» يقالُ لغة: بَجَسَهُ، يَبْجِسُهُ ويَبْجُسُهُ بَجساً، فانبَجَسَ. **البَجْسُ**: شَقٌ فِي قِرْبَةٍ أو حَجَرٍ أَوْ أَرْضٍ يَنْبُعُ مِنْهُ الماء، فإِنْ لم يَنْبُعْ مِنْهُ الماء فَلَيْسَ انْبِجَاساً، ولا يشترط في نبع الماء بالانبجاس تفجُّرُهُ وتَدَفُّقُه.

﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ﴾ كما جاء في (البقرة): أي: فَخَرَجَ الماءُ بِتَدَفُّقٍ من الحجر اثنتا عشرة عيناً، يتَدَفُّقُ مِنْ كُلِّ عَيْنٍ مِنْها الماء.

وقد جعل الله عزّ وجل ضَرْبَ موسَىٰ الحجَر بعصاه، وسيلة صوريّةً لإجراء آيته الإعجازية. وكذلك سائر أحوال ضرب موسى العصا ليجرِيَ الله آياته وعجائبهُ الإعجازية.

فدَلَّ التكامل بَيْنَ عبارَتي ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ﴾ و﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ﴾ على أَنَّهُ حَصَل انشِقَاقٌ في الْحَجَرِ أَوّلاً، فسال الماء انبِجَاساً عَادِيًا من الْعُيُونِ الاثْنَتَيْ عَشرة، وعَقِبَ هذا صَارَ الماء يَتَفَجُرُ بِتَدَفُّق، وصَارَ يشُقُّ أَنهُراً على مقادِيرِ المياه الّتي تتدفَّقُ من العيونِ، التي أَخْرَجَها اللّه عزّ وجل من الحجَرِ، آيةً مِنْ الآيات الإعجازية الّتي آتاها الله موسىٰ عليه السلام، سُقْيًا لِبَنِي إسرائيل معه.

«ال» في **الحجر** للْعَهْدِ، واعتبارها للجنس مستبعَد هنا، والعهد يشير إلى حديث سابق من الله.

والفاء العاطفة في العبارتين، هي الفاء الفصيحة الّتي تَعْطِفُ على محذوف، والتقدير، فضربَ الحجَرَ الذي عيَّنَهُ اللّهُ له بِعَصَاه، فانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَة عيناً، فانْفَجَرَتْ هٰذِهِ الْعُيُون بالماء الغزير.

ويُمْكِن أن نقول في الجمع التكامُلِيّ بين العبارتين: وأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ وَحْياً مضمُونُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ الْمُعَيَّنَ الَّذِي أَعْلَمْنَاكَ به، أَوْ سَنُعْلِمُكَ بِهِ، لِنُخْرِجَ لهم ماءً لسُقْيَاهم، فَلَمَّا وَصَلَ إلى الحجَرِ المعيَّنِ، قُلْنَا لَهُ: اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرِ، ليكُونَ إجراءُ الآيَةِ مُقَارِناً للطَّاعَةِ التابِعَةِ فوراً لِلأَمْرِ بضَرْب الحجَرِ بالْعَصَا، فضَرَبَ مُوسَىٰ الحَجَرَ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِضَرْبِهِ فانبجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً، فانْفَجرتْ هذه الْعُيُونُ بالماء الغزير الوفير، الذي يكْفِي أسْباطَ بني إسرائيل الاثْنَيْ عشر، ودون أن يتزاحَمُوا على عَيْنٍ واحِدَة.

وتكرَّرَ في نَصَّي (الأعراف) و(البقرة) تكراراً تطابقيًا قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾: أي: قَدْ بَيَّنَ موسَىٰ عليه السَّلامُ لكلِّ سِبْطٍ من أسباطِ بني إسرائيل مشرَبَهم الخاصّ بأُنَاسِهم، فَعَلِمُوا مِنْهُ ذلِكَ بالتَّعْيين.

ولعلَّ في ذكْرِ لفظ «أُنَاس» بدلَ «سِبْطٍ» إشارةً إِلَىٰ أنّ هٰذِهِ العيون خاصَّةٌ بالبشر، أمّا بهائمهم وأنعامهم فلها مشَاربُ أخرى، غير هذه العيون، وربما يكون مجرَّدَ تَفَنُّنٍ في التعبير، واللَّهُ أعلم.

ويبدو لي أنّ الْغَرض من هذا التكرار التطابقي في هذه العبارة، الإشارةُ إلى أنّ التعليمات الّتي صدَرَتْ من موسىٰ عليه السلام بتوزيع الأعْيُنِ على الأسْبَاطِ قَدْ كُرِّرَتْ عليهم، لإلزَامِهِمْ بمراعاة النّظام وعَدَمِ الْعُدْوان، ووجُوب الْتِزَامِ كُلِّ سِبْطٍ بالْعَيْن المخصّصةِ لهم.

القضية الثالثة: قول اللَّهِ تعالى في سورة (الأعراف): ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ بالحديث عن الغائبين.

وقوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ... (٥٧)﴾ بأسلوب خطاب بني إسرائيل امتناناً عليهم، إذ الإنعَامُ على الأجْدادِ إنْعَامٌ

على ذراريهم المتعصبين لهم، والمتفاخِرِين بالانتماء إليهم، الّذِين يَدَّعُونَ أَنّهم ملتزِمُونَ طريقتهم، وفي هذا الامتنانِ تحريض داخليّ غير مباشر على أن يؤمنوا بمحمّد ويتّبعُوه، فالذي أرسل موسَىٰ من قبل، هو الذي أرسل محمَّداً خاتم النبيين والمرسلين.

أي: وظلّلْنَاكُمْ جَاعِلِينَ الغَمَامَ عليكُمْ وأَنْتُمْ في صَحْراءِ سيناء، حِمَايَةً لَكُمْ مِنْ حَرّ الشمس، وهذا على تضمِين فعل «ظَلَّلْنا» معنى فعل «جَعَلْنَا».

الغمام: اسم جنسٍ جمعي، يُفرَقُ بَيْنَهُ وبين واحده بالتاء، فمفرَدُهُ «غَمَامَة» وهي السَّحَابَة.

يقال لغة: أَظَلَّ الشيءُ فلاناً، وظلَّلَهُ، أي: غَشِيَهُ وسَتَرَه.

ويقال: ظَلَّلَهُ بِكَذَا من الشّمْس، أي: سَتَرَهُ به، حتّى لاَ تَقَعَ عليه أشِعَّةُ الشمس فَتُؤْذِيه.

وتحليل عبارة: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ ونظيرها: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ له ثلاثَةُ وُجوه:

الوجْهُ الأوّل: قالوا: أي: وجَعَلْنَا الْغَمَامَ فَوْقهم يُظلِّلُهُمْ مِنْ أشِعَّةِ الشَّمْسِ وحَرَارَتها المؤذية، والضارّةِ ضرراً شدِيداً أحياناً.

أقول: هذا الوجْهُ يغْنِي تَضْمِين فعل: «ظَلَّلَ» معنى فِعْل: «جَعَلَ» فعُدِّيَ تَعْدِيته. والمعنى: ظلَّلَكُمْ جَاعَلاً الغمام عليكُمْ سَاتِراً لَكُمْ مِنْ أَنْ تَصِلَ إليكم أشِعَّة الشمس الحارّة، وهذا التضمين له نظائر كثيرة في القرآن المجيد.

الوجه الثاني: وقيل: أَصْلُ الكلام: وظَلَّلْنَا عَلَيْكُمْ بالغمام، وحُذِف الخافض من «بالْغَمَامِ» فانْتَصَبَ اللّفظ بنزع الخافض، فصارت العبارة، وظلّلْنا عليكم الغمام.

الوجه الثالث: أقول: العبارة تحتمل معنىً آخر، وهو أنْ يكون الْغَمَامُ الّذِي جعَلَهُ الله فَوْقَهُمْ مُباشَرَةً، قَدْ كان غَماماً رَقيقًا غير كثيف، فظَلَّلَهُ اللّهُ عزَّ سُلْطَانُهُ، بِغَمام كثيفٍ فَوْقَه، ليَكُونَ الْغَمَامُ القريبُ منهُمْ بارداً، إذْ جَعَلَ فَوْقَهُ غَماماً مَظَلَّلاً له، يَسْتُرُهُ مِنْ أشِعَّةِ الشَّمْسِ الحارّة، وهذا من عنايَةِ الله عزّ وجلّ بهم.

وجاء في الإصحاح التاسع من سِفرِ الْعَدَدِ عِنْدَ بَنِي إسرائيلِ: «أنَّ السَّحابَةَ كانَتْ عَلاَمَةً لَهُم على الحِلّ والتَّرْحَال، فإذا ارْتَحلَتِ السَّحابَةُ عَنْ خَيْمَةِ الشَّهادَةِ ارْتَحلُوا، وإذَا أَقَامَتْ أَقَامُوا.

لكنّ النَّصّ القرآني يَدُلُّ على أنَّ الْغَمَامَ كَانَ يُظَلِّلُهُمْ جمِيعاً، ولَمْ يَكُنْ خَاصًّا بخَيْمَةِ الشهادة.

وإنْ صَحَّ ما كتبَهُ الإسْرَائيليُّون، فَهُوَ مَحْمُولٌ على سحابَةٍ خاصَّة، غير الغمام الْعَامِّ، الّذي كان يُظَلِّلُ مِنْ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ عُمُومَ بني إسْرائيل في سَيناء.

القضية الرابعة: قول الله تعالى في (الأعراف): ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ بالحديث عن الغائبين.

وقوله تعالى في (البقرة): ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ . . . ﴿٥٧﴾﴾ بأسلوب خطاب بني إسرائيل امْتِناناً عليهم. وقد سبق بيان الحكمة.

﴿وَأَنزَلْنَا﴾: عَطَاءَاتُ اللّهِ لعباده كُلُّهَا إنْزالٌ مِنْ فُيُوضَاتِ آثار رَحْمَتِهِ العليَّةِ جلَّ جلاله، ولَوْ كانت غَيْرَ نَازِلَةٍ من السَّماء، بَلْ هي مُوجَّهَةٌ لَهُمْ من الأرض وأجوائِها وبِحَارِهَا.

﴿ٱلْمَنَّ﴾: رزْقٌ كانَ يَسْقُطُ لَهُمْ على وجْهِ الأرْضِ كالنَّدىٰ، وهو يُشْبِهُ الْقُشُورَ، ويَتَجَمَّعُ كالجليد على الأرض، وقد جعله الله لهم بدَلَ الخبز، وطَعْمُهُ كَطَعْمِ رِقَاقِ خُبْزٍ بعَسَل.

[السَّلْوىٰ]: طائِرٌ بَرّيٌّ لَذِيذُ اللّحم، سَهْلُ الصَّيْد، كانت تَسُوقُهُ لهم رِيحُ الجنوب كُلَّ مَسَاء، فَيُمْسِكُونَهُ بأيْدِيهم، ويُعْرَفُ هٰذَا الطائِرُ بِلَفْظِ «السُّمَانَىٰ» على وَزْن «الْحُبَارَىٰ».

جاء في كُتب بني إسرائيل أنّهمْ بَعْدَ خُرُوجهم من مِصْر، طَلَبُوا أَنْ يَأْكُلُوا خُبْزاً ولَحْماً، فَرَزَقَهُمُ اللّهُ وهُمْ في الصّحراء المنَّ والسَّلْوىٰ.

فأعطاهم اللّهُ بهٰذين أجْودَ الخبزِ، وأطيب اللّحم كمَا طَلَبُوا.

وجاء في الإصحاح السادس عشرَ من سِفْر الخُروج عند الإسرائيليين:

«أنَّ الْمَنَّ الَّذِي رَزَقَهُمْ اللّهُ إيَّاهُ، الّذي هو بدلُ الخبز كان يَسْقُطُ على وجْهِ البرّيَّةِ كالنّدَىٰ، يُشْبه الْقُشورَ، ويَتجمَّعُ كالجليد على الأرض.

وأنَّ مُوسَىٰ قَالَ لَهُمْ: هٰذَا هُوَ الخبْزُ الَّذِي أعْطَاكُمْ الرَّبُّ لتأكُلوا، وأنَّهُ نَهَاهُمْ عن أن يَدَّخِرُوا مِنْهُ لِلْيَوْمِ الثاني، فخالَفَ فريقٌ مِنْهُمْ فتَولَّدَ فيه الدُّودُ، وأنْتَنَ، فَسَخِطَ عليهم موسَىٰ».

وجاء فيه أيضاً:

«أَنَّ طَعْمَ الْمَنِّ كَطَعْمِ رِقَاقِ خُبْزٍ بِعَسَلٍ، وأنَّهُمْ سَمَّوْهُ مَنًّا».

وجاء فيه أيضاً:

«أنَّ بني إسْرَائيل أكَلُوا الْمَنَّ أَرْبَعِينَ سَنَةً حَتَّىٰ جَاؤُوا إلى طَرَفِ أَرْضِ كنْعَان.

القضية الخامسة: قول الله تعالى في (الأعراف): ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾. مخبراً عن سوابق الأحداث.

وجاء في سورة (البقرة) نظيرها: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ . . . ﴿٥٧﴾﴾ مُمْتَناً على بني إسرائيل، وجاء فيها أيضاً: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ . . . ﴿٦٠﴾﴾ بإضافة الامْتِنان بالشُّرْب، الذي هو أيضاً من رزق الله.

قال المفسرون: التقدير: وقُلْنَا لَهُمْ: كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ، أي: من الْمَنِّ والسَّلْوىٰ. وقُلْنَا لَهُمْ: كُلُوا واشْرَبوا من رزق الله.

أقول: مثل هذا التقدير يُقَلِّلُ مِنْ قيمة هذا النص الْبَيَانيَّة، إذْ يَجْعَلُها قاصِرَةً على الإيجاز بالْحَذْف.

والأَوْلَىٰ أن نقول: هذا كلامٌ مَحْكِيٌّ بلَفْظِه، مُقْتَطَعٌ من الحدَثِ الماضي، ومُقَدَّم في البيان كما هَو على طريقة عرض المشْهَدِ كما كانَ عنْدَ حُدوثه، بإبداعٍ فنّيّ جميل، لَمْ يَعْرِفه البلَغَاءِ قَبْل القرآن، وقد أدركه الإعلاميُّون في عُصُورنا المتأخرة، وهو من روائع الإبداع الْقرآنيّ.

وفي توجيههم للأكْلِ من بعْضِ ما رَزَقَهُمُ الله، إشارَةٌ إلى أَنَّ الرِّزْق الّذي قضاه اللّهُ لهم من المنِّ والسَّلْوىٰ رِزْقٌ وفير يزيد عَنْ حَاجاتِهم اليوميَّة، فَلاَ دَاعِيَ لأَن يَدَّخِرُوا مِنْهُ شيئاً للطوارئ، كما كَانُوا يَفْعَلُونَ وهُمْ في مصر.

القضيّة السَّادِسة: قولُ اللّهِ تعالىٰ في سورة (البقرة): ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٦٠﴾:

لمّا كان تأمِينُ مطالِب الحياة ممَّا يُوَلِّدُ مشاعر الاستغناء، وهٰذِهِ المشاعِرُ تُنسِي ذِكْرَ اللّه عزّ وجلّ، وتُنسِي الحاجَة إليه، وهٰذَا النِّسْيانُ يُوَلِّدُ الطغيانَ في النفوس، فَيَدْفع إلى الإفساد في الأرض بانْطِلاَقٍ إجْرَامِيّ، حذّر اللّهُ بني إسْرائيل من أَنْ يَعْثَوْا في الأرض مُفْسِدِين، ودمَجَ بالخطاب معاصِري تنزيل القرآن ومن بَعْدَهُمْ، ضمن حكاية الخطاب الذي سَبَقَ أَنْ وجَّهَهُ الله لأجْدَادِهم.

﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾: أي: ولا تُفْسِدُوا إفساداً شدِيداً مِنكراً.

الْعُثُوّ: أشَدُّ الفساد، يُقَالُ لغة: عَثِيَ يَعْثَىٰ عُثُوّاً، وَعُثِيًّا وعَثَياناً.

﴿مُفْسِدِينَ﴾: حالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِعَامِلِها.

لكِنَّ جُمْهور بني إسرائيل بَعْدَ قُرُون، لم يُطِيعُوا هذا التكليف الرَّبَّانِيّ، بل استَخْدَمُوا نِعَمَ اللّهِ عَلَيْهم في معصيته، وانْطَلَقُوا يَعْثَوْنَ في الأرضِ مفسدين.

القضية السابعة: قول الله عزّ وجل في (الأعراف): ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ في مَعْرِض الحديث عن الغائبين.

ونظيره تَماماً قول الله تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ في معرض خطاب ذَرَاري بني إسرائيل الملتزمين سُبُلَ أجْدَادِهِمُ الظالمين.

أي: لم يُطِيعُوا اللّهَ فيما نَهاهُمْ عَنْهُ، مِنْ أَنْ يَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدين، بلِ انْطَلَقُوا يَعْثَوْن في الأرضِ فساداً حتَّى صَارُوا شَرَّ النَّاسِ إفْسَاداً في الأرض، إذْ يُفْسِدُون العقائد، ويُفسِدُونَ الأَخْلاَقَ، ويُفسِدُونَ النُّظُم، ويَتَلاعَبُون فيما أنزل اللّهُ عزّ وجلّ من شرائع وأحكام، ويُفسِدُون سُلُوكَ الناس في الحياة الدنْيا، ويُجَنِّدُون الشياطين الأشرارَ، لتَدْمِير كلّ القِيَمِ الإنسانيّة، ومَحْوِ كُلّ الوصَايا والتعليمات الرَّبَّانِيَّة.

وجاءت عبارة: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ كِنَايَةً عمَّا فَعَلُوا في تاريخِهِمُ الطويل من فسادٍ عَرِيض، في العصور التَّالِيَة لِعَهْدِي دَاوُد وسليمان عليهما السلام، واستمرت أجيالهم كذلك حتى بِعْثَة محمّد ونزول القرآن.

والمعنَىٰ: فأفسَدُوا وطَغَوْا وبَغَوْا، وعَصَوْا بَارِئَهُمْ، وظَلَمُوا ظُلْماً شنيعاً فَاحِشاً، وهنا يقول الرَّبُّ جلَّ جَلاَلُهُ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بِكُلِّ مَا فَعَلُوا، لأنّ الله عزّ وجلّ لاَ يَضُرُّهُ ظُلْمُ الظالَمِينَ، كما لاَ تَنْفَعُهُ طاعَةُ المطِيعِين.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ إذْ يُعَرِّضُونَها لِعَذَابٍ أَبَدِيٍّ في جهنّم،

مَعَ ما يَنزِلُ بهم من عذابٍ أليم في الدنيا. ويَقُصُّ التاريخُ علينا ما أنْزَلَ الله بهم من عذَابٍ واضطهادٍ وذُلٍّ ومَهَانِةٍ في كثير من الأَحْقاب الزّمنيَّة، وبأيْدِي كثير من جَبَابِرَةِ الأرْضِ.

ولمَّا كان بنو إسرائيل المعاصرون للتنزيل على طريقة الظالمين من أجدادهم إلاّ من أسلم منهم، كانوا مشمولين بهذا الخطاب حتماً، بل هم أشدُّ ظُلْماً، لِقيام الحجّة عليهم بما آتىٰ اللَّهُ رسولَهُ محمَّداً من آياتٍ بيّنات، ولأنّ علماءَهُمْ وأحْبَارَهُم قد عَرَفُوا أنّ محمّداً رسول الله المبشَّرُ به في كتبهم، كما يَعْرِفون أبناءهم، وكان الواجب عليهم أن يشكُروا نِعَم الله الكثيرة التي اختصهم بها.

ولو أنّهم آمنوا به واتَّبَعُوه، وعملوا بما أَنْزل اللَّهُ للناس في القرآن، لتَبَرَّؤوا ممّا كان عليه أجدادُهم الظالمون، ولَمَا خاطَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا فَعَلَ أجدادُهم من ظُلْمٍ قَبْلَهُم.

لكنَّهم لم يُؤمِنُوا ولم يُسْلِمُوا، فتابَعُوا خُطُواتِ أَجْدَادِهِم الظَّالمين، مُتَعَصّبين لهم، ولأعمالهم، ولتحريفاتهم في دين الله، ومعتزّين بهم، ورافِضِين دين اللَّهِ الحقّ، ومعْتَبِرين أنفسهم امْتِداداً بَشَرِيًّا لآبائهم وأجدادهم في كُلّ قبائحهم، وسيّئاتهم، وكُفْرِيَّاتهم، وغَيْر مُسْتَعِدّين نَفْسِيًّا للتَّبَرُّؤ من الباطل الذي هم فيه، والاستمساك بالحقّ الذّي يُدْعَوْن إليه، فكانُوا جَدِيرين بأن يكونُوا داخلين في عُمُوم خطابِ أَجْدادهم الظالمين، وأنْ يكونُوا بَعْدَ بِعْثَةِ محمَّدٍ ﷺ مُمَثِّلين للظالمين من أجدادهم في كلّ شيء ومُضِيفين ظُلْماً جَدِيداً هُوَ كُفْرُهم بالرسُول النَّبيّ الأمّي الذي يجدونه مكْتُوباً عنْدَهُمْ في التوراة.

ويُوَضِّحُ قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾: أي: بكُفْرِهم وفجورِهم وعُتُوّهم فساداً وإفساداً في الأرض، ما جاء في الحديث القدسيّ الصحيح الذي رواه مُسْلمٌ عن أبي ذَرّ:

«يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وَإِنسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شيئاً».

وجاء فيه أيضاً:

«يَا عِبَادِي، إِنَّما هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ الله، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَه».

قصة استسقاء بني إسرائيل عند أهل الكتاب:

جاء في الإصْحَاح السابع عشر من سفر الخروج عند الإسْرائيليّين: «أنّ الاستسْقاء كان بعْدَ ارْتحالهم من «سِينٍ» ونُزُولهم فِي «رَفِيدِيم» وأنّه كانَ بَعْدَ خُرُوجهم من البحر بمدَّةٍ غَيْرِ طويلة، وأَنّ بَنِي إسْرَائيل خاصَمُوا مُوسَىٰ من أَجْلِ السُّقْيا، وأنَّ اللَّهَ أعْلَمَ مُوسَىٰ بالصَّخْرَةِ الَّتي إذا ضَرَبَها بعَصَاه خَرَجَ مِنْهَا ماءٌ لِيَشْرَبوا، وأنَّ الصَّخْرَة كَانت في «حُورِيبَ». وأنّ موسَىٰ ضَرَبَ الصَّخْرَة بَعَصَاهُ، فَأَخْرَجَ الله مِنْهَا الماء أَمَامَ عُيُونِ شُيوخِ بَنِي إسْرَائيل».

الفقرة التاسعة

وعد الله بني إسرائيل بأن ينصرهم ويُسكِنَهُم القرية بشرطين فبدّل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم

الآيتان (١٦١ ـ ١٦٢).

قال الله عزّ وجلّ مُتَحدِّثاً عن بني إسرائيل بأسْلُوب الحديث عن الغائبين في سورة (الأعراف):

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)﴾:

وجاء بشأن هذا الحدث نَفْسِه، قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف (٨٧ نزول) في مَعْرِض خطاب بني إسرائيل المعاصرين لنزول القرآن فَمَنْ بَعْدَهُمْ، حَوْلَ مَا جَرَىٰ لأَجْدادهم الّذين يَعْتَزُّون بهم ويتَّبِعُونَ سُبُلَهم:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

هٰذان نَصّانِ متكاملان في دَلاَلاَتِهما، وفْقَ سُنَّة التكامل في القرآن المجيد حول مُوضوع كُلّيّ واحد. وهُما يَتَحدَّثانِ عَنْ حادثَةٍ مِنْ حوادث بني إسرائيل التي تكرَّرَت نظائِرُهَا في أيَّامِهِمُ الأولى، في عَهْدِ النبيّ يَشُوعِ، الّذي كانَ فَتَىٰ مُوسَىٰ وخادِمَهُ الملازمَ له، وفي عَهْدِ صَمُويلَ من بعده، وفي عُهودٍ لاَحِقَة.

ووجوه التكامل فيما بَيْنَهُما مُتَعَدِّدة:

التكامل بين النّصين:

(١) فما جاء في سورة (الأعراف) جاء بأسلوب الحديث عن بني إسرائيل الغائبين.

وما جاء في سورة (البقرة) جاء في معرض خطاب بني إسرائيل المعاصرين لتنزيل القرآن فَمَنْ بَعْدَهم، بشأن أجدادهم الذين يعتزُّون بهم، ويلتزمون سبُلَهم.

(٢) وجاء في سورة (الأعراف): ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾: أي: وإذْ قَالَ لهم نَبِيُّهُمْ ادخُلُوا هٰذِهِ القريَةَ واسْكُنُوها، بَلاغاً عن الله، وجاء في هذا النّص حذف [ادْخُلو] والاكتفاءِ بعبارة ﴿ٱسْكُنُوا۟﴾.

وجاء في سُورَة (البقرة): ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾: أي: ادْخُلُوا هذه القرية واسْكُنُوها. ودلّت هذه العبارة على أنّ الآمِرَ بِدُخُول القرية وسُكناها هو الله، وأنّ المبلغ لهم هذا الأمر الرّباني هو نبيُّهم، وهو يَشُوع يومئذ، وكان فتىٰ مُوسَىٰ وخادمه في حياته، على ما ذكر المؤرّخين.

(٣) وَجاء في سورة (الأعراف): ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي: وكُلوا مِنْها من حيْثُ شِئْتُمْ مأكولاً صالحاً تَجِدُونه.

وجاء في سورة (البقرة): ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ فأضاف هذا النَّص، فِكْرَةَ الترتيب مع التعقيب، إذْ جاء عطف عبارته بالفاء. فبينَهُما تكامل، أي: فكلوا منها مباشرة عقب دخولها، وكلوا منها بعد ذلك بحسب أعمالكم في الاستثمار.

وأضَافَ أيْضاً كلمة: ﴿رَغَدًا﴾: أي: طيّباً واسعاً كثيراً رَفيهاً.

(٤) وجاء في سورة (الأعراف): ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾:

﴿حِطَّةٌ﴾: أي: اللّهم ضَعْ عَنّا أوزَارَنا وذُنُوبَنَا ولا تُحاسِبْنَا عليها.

وجاء في سورة (البقرة): ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾: بتَقْدِيم الأمر بدخول باب القرية ساجدين، على الأمْرِ بأنْ يَقُولُوا: حِطَّة.

والدّلالة التّكامُلِيَّةُ بين الْعِبَارتين تفيد عَدمَ وجوب الترتيب بين التكليفين، وعَدَم وجوب القيام بهما مُقْتَرِنَيْن، بل الواجب القيام بهما دون إلزام بترتيبٍ أو اقتران.

(٥) وجاء في سورة (الأعراف): ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وفي ﴿نَّغْفِرْ﴾ قراءة [تُغْفَرْ] بالبناء لما لم يسَمَّ فاعله، ومعلوم أنّ اللّهَ هو الذي يَغفِر، وفي هذا تعليم لَنا أنّه لا مانع من التعبير بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله، إذا كان الفعل من خصائص الرّب جلّ جلاَلُه.

وفي ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْۚ﴾ قراءات منها [**خطايكم**] ومنها بالإفراد، مُراعاة لأحوال المذنبين فيهم ما بين مُكْثِرين ومُقِلّين أخذاً من جَمْعَيْ الكثرة والقلّة، مع التَّفَنُّن في التعبير.

وجاء في سورة (البقرة): ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: وفي ﴿نَّغْفِرْ﴾ قراءة [**تُغفَرْ**] وقراءة [**يُغفَرْ**] وفي هذه القراءات الدلالة الّتي فَهِمْنَاهَا آنفاً.

وجاء في هذا النصّ إضافةُ حرْف العطف (الواو) في: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: للدّلاَلة على أنَّ الفصل والوصْلَ هُنَا مُتكافِئان بلاغيًّا.

(٦) وَجاء في سورة (الأعْرَاف): ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾:

وجاء في سورة (البقرة): ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾: بحذف عبارة ﴿مِنْهُمْ﴾ اكتِفَاء بما جاء في نَصّ (الأعراف) وللإشعار بأنّ دلالة القرينة تكْفِي، لتحقيق غرض الإيجاز والاقتصاد في العبارة.

(٧) وجاء في سورة (الأعراف): ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

وجاء في سورة (البقرة): ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾:

ويبدو التكامل بين هٰذين التعبيرين فيما يلي:

● فبين ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ و﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، أي: فَأَنْزَلْنَا بسُلْطَانِ الرُّبُوبيَّة، وجعلنا هذا الإنزال إرْسالاً، ففي الإِرسال معنى التوجيه لِأَداء مُهمّةٍ ما، بتؤدة، وأَناة، وتتابع، وهذا المعنى لا يَدُلُّ علَيْه

الإنْزَال، كَمَا أنَّ الإنْزَالِ بِسُلْطان الرُّبُوبِيَّة القاهر لا يَدُلُّ علَيْه الإرْسال، فَتَكَامَلا.

● وبين: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ والضمير يَعُود على فاعل ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾. وبين ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ في النصّ الذي في (البقرة) تكامُلٌ آخر، إذ التصريح بالوصف في مقام الضمير، يُشْعِرَ بأن ما أنْزِلَ عليهم إرسَالاً، قد كان بسبب ظَلِمْهِمْ بالتَّبْدِيل.

● وبين: ﴿رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ في (الأعراف): وبَيْنَ: ﴿رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ في البقرة، تكامل ثالث. فعبارة ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ جاءت شارحَةً ومُبَيِّنَةً لعبارة: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾: أي: إنّ ظِلْمَهُمْ، وهُوَ تجاوُزُهم لحُدود الله، قد كان من نوع الفِسْق، لاَ من نوع الكفر المخرِج من المِلّة.

الفِسْق: مصْطلح إسلاميّ، مأخوذٌ من قول العرب: فَسَقَتِ الرُّطَبَة، إذا خرجَتْ من قِشْرَتها، ومعلوم أنّ الرُّطَبَةَ إذَا خَرَجَتْ من قِشْرَتها تعرَّضَتْ للفساد السَّريع. والفِسْقُ في المصطلح الإسلاميّ يُطْلَقُ على عصيانِ أوامر اللّهِ ونواهيه، ولا يلْزَمُ أنْ يكون هذا العصيان أثراً من آثار جُحودِ رُبُوبيَّة اللّهِ، أَوْ إلَهِيَّتِهِ، بل قد يكون أثراً من آثار اتّباع الهوىٰ مَعَ سَلاَمَةِ الإيمان والإسلام من النقض.

القراءات في النصّ الذي من سورة (الأعراف):

(١٦١) ● قرأ نافع، وأبو جعفر، ويَعْقُوب: **[تُغْفَرْ لَكُمْ خَطِيئَاتُكُمْ]** ومعلوم أن الذي يَغْفِرُ هو الله عزّ وجل، وجاء الجمع على صيغةٍ من صِيغ جُمُوع القِلّة إذ كان بَعْضُ القوم قليل الذنوبِ، وَلا أرى أن الإضافة هنا تجعله للكثرة.

وقَرأ أبو عَمْرو: **[نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ]**: بضَمير المتكلم العظيم، وَجَاء

الجمع بصيغةٍ من صِيغِ جُمُوعِ الكثرة، إذ كان بعض القوم كثير الذنوب.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ]: بضمير المتكلّم العظيم، وجاء الجمع على صيغة من صيغ جُموع القِلَّة، ولا أرى أنَّ الإضافة هُنَا تجعلُه للكَثْرَة، إذْ كان بعض القوم قَلِيل الذنوب.

القراءات في النصّ الذي من سورة (البقرة):

(٥٨) ● قرأ نافع، وأبو جعفر: [يُغْفَرْ لَكُمْ] بالبناء لما لم يُسَمَّ فَاعِلُهُ، ومعلوم أنّه الله.

وقرأ ابْنُ عامِرٍ: [تُغْفَرْ لَكُمْ] بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله، ومعلوم أنَّهُ الله.

[يُغْفَرْ] وَ[تُغْفَرْ] وَجْهَان عَربيان صحيحان، فالخطيئات تأنيثها مَجَازِيٌّ.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [نَغْفِرْ لَكُمْ] بضمير المتكلم العظيم جلّ جلاله.

تمهيد:

كان بَنُو إسرائيل كلّما قَضَىٰ اللَّهُ لهم بأن يَفْتَحُوا قَرْيَةً (أي: بلداً صغيراً أَمْ كبيراً) من الأرض الّتي وعَدَهم أن يَفْتَحها لهم من أرضِ الشّام، إذا صَلَحُوا واسْتَقَامُوا وَجَاهَدُوا في سبيل اللَّهِ حَقَّ جهاده، وأَطَاعُوا أوامِرَ اللَّهِ ونواهِيَه، والْتَزَمُوا الشريعَةَ الرَّبّانِيَّة، يطالبهم نبيُّهُمْ الّذِي يَسُوسُهُمْ ويَقُودُ جِهادهم بلاغاً عن الله، إذْ كانت تَسُوسُهم أنبياؤهم بما يلي:

(١) بأن يَدْخُلُوا باب القرية الّتي يَفْتَحها اللَّهُ لهم مُسْتَغْفِرِين تائبين من ذُنُوبهم، وخاضِعِينَ لله، مُطَأْطِئي رؤوسهم، غَيْرَ مُسْتَكْبِرِين وَلاَ مُتَفَاخِرِين بِقُوَّتِهِمْ الذَّاتِيَّة.

(٢) وبأن يَسْتَمِرُّوا بَعْدَ دُخولِ القريَة وسُكْنَاهَا خَاضِعِينَ لله جلّ جلاله، ومُطيعين لأوامرِهِ، ولنواهيه، من مستوى الخضوع الأقْصَىٰ، الّذي يُعَبَّرُ عنه في الحركة الجسَدِيّة بالسُّجود، الذي هو وضْعُ الجبهَةِ على الأرض عبادةً للّهِ عزّ وجلّ، وذَلِكَ لأنَّ اللّهَ تَبارَكَ وتعالَىٰ قد كان يُمدُّهُمْ بقوىً غيبيَّة، وأسْبَابٍ لاَ يملكُونها، حَتَّىٰ يُظْفِرَهم ويَنْصَرَهُمْ عَلَىٰ أَهْلِ هٰذِهِ الْقُرَىٰ الأشدّاء، الّذين كانوا مُشْرِكين وثنيّين، كافِرين فاسِقين.

ويظهر أنّ هذا التكليف كان يقال لهم على لسان نبيهم عند حصار كلّ بَلَدٍ كانُوا يُدْعَوْن إلى فتحه جهاداً في سبيل الله.

وكان بنو إسْرائيل كلّما فتح اللّهُ عليهم قَرْية من هٰذِهِ القرىٰ، ودخلوها لم يَلْتَزِمُوا بما أَمَرَهُمْ الله به، ولم يَجْتَنِبُوا ما نهاهُمُ اللّهُ عنْهُ إلاَّ قليلاً منهم.

إذ كان يظهر فيهم الغلُول في الغنائم المحرَّمَةِ عليهم، وكانوا يَدْخُلُونَ مستكْبِرين، غيْرَ مُسْتغفِرين، وظالمين غَيْرَ عادلِين، وكانوا يُحَرّقُونَ بعضَ القرىٰ ويَجْعَلُونَها تِلاَلاً بَعْدَ قَتْلِ كلّ حيٍّ فيها بشَراً وغير بشر.

وبَدَلَ أنْ يكونوا عابدين لله، ساجدين له، عاملين بشريعَتِه وأَحْكامِه، كان يظهر فيهم الفجور، وارْتكابُ المحرَّماتِ من الكبائر، وكان ذلك يَنْتشر فيهم انتشاراً مُسْتفحلاً.

وذَكَرَتْ كتبُهُمْ أنّهم صاروا يَعْبُدونَ الأَوْثَانَ الَّتي كَانَ مشرِكُو الْبِلاَدِ يَعْبُدُونها.

وجاء في الإصحاح الثاني من سِفرِ الْقُضَاةِ، أنّهُمْ عَبَدُوا من آلِهَةِ القوْم وأوثانهم «البَعْلِيم» وهو جمع «الْبَعْل» وهذا اللفظ اسمُ ساميّ معناه «الرّبّ ـ السّيّد ـ الزوج» وعَبَدُوا وثَنَ «عَشْتَارُوت» وهي رَبَّةُ الأمومة، وهي تُعْبَدُ غالباً مع «الْبَعْل». والبَعْل إلهٌ كنعاني، وكان في خرافاتهم إلهَ الخِصْبِ في الحقول والحيوانات والمواشي.

والحادثة الّتي أشار إليها النّصّان من (الأعراف) و(البقرة) لَمْ أجِدْ ما يُسَاعِدُ عَلَىٰ تَعْيينها، ولم يَسْتَطِع المفسِّرُون من قبلي تَعْيينها، واخْتَلَفُوا في المراد بالقرية الّتي ذكرها الله عزّ وجلَّ بِقَوْلِه: ﴿هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ في النَّصَّيْن.

- فذكر بعضُهُمْ اسْمَ مَدِينَةِ: «أَرِيحَا».

- وذكر بعضهم اسم مدينة: «أُورُشَلِيم = الْقُدْس» وقالوا: إنَّ الباب الّذي أُمِرَ بَنُوا إسرائيل أن يَدْخُلُوه، هو الباب المعروف فيها باسم «باب حِطَّة».

قال ابن كثير: الصَّحِيحُ أنَّها الْقُدْس.

- وقال بعْضُهم: الظَّاهِرُ أنّها «حَبْرُون» أي: مدينة الخليل عليه السلام.

- وقيل: غَيْرُ ذَلِكَ.

أقول:

لَيسَ من المُهِمّ تَعْيينُ اسْم القرية، ما دام بنو إسرائيل دَخَلُوا بَعْدَ موسَىٰ عليه السّلامُ الأرضَ المقدّسَةَ، وفَتَحُوا فيها مُدُناً كثيرة، بقيادة النبيّ «يَشُوعَ بن نُون» الّذي كانَ فَتَىٰ مُوسَىٰ وخادِمَهُ في حياته، ثم جعله الله نبيًّا، واستثناه هو و«كَالِبُ بْنُ يَفُنَّة» من الحرمان من دخول الأرض المقدّسة، بَعْدَ أنْ قضىٰ اللّهُ على بني إسرائيلَ أَنْ يَتِيهُوا في الصحراء أربعين سنة، حتَّىٰ يموتَ الَّذِين أَبَوْا أنْ يَدْخُلُوا الأرض المقدّسَة مُقَاتِلين، من أبناء عشرين سَنَةً فصاعداً بقيادة موسَىٰ وهارون علَيْهما السّلام، وقالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (المائدة) باستثناء «يَشُوعَ بن نُونَ» و«كَالِبِ بْنِ يَفُنَّةَ» فإنَّهُما قالاَ لبني إسرائيل يَوْمئذٍ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (المائدة).

ثُمَّ فَتَحُوا مُدُناً كثيرةً في عَهْدِ النبيِّ «صَمُوئيل» ثُمَّ في عَهْدِ القضاة، وكانت هٰذِهِ الظَّاهرة المذكورة في نصَّي (الأعراف) و(البقرة) ظاهِرَةً مُتَكَرِّرَةً.

ولَعَلَّ في إغْفَالِ تعْيِينِ الْقَرْيَةِ الْمُرَادَةِ في القصَّةِ غَرَضَ الإشعار بأنَّها ظاهِرَةٌ تكَرَّرَتْ في بني إسرائيل، حينما كان يُمِدُّهم اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ بِقُوىً غَيبيَّة، وأسْبابٍ لاَ يَمْلِكُونها، ويفتح اللَّهُ لهم الْقُرىٰ في الأرض المقدّسة.

وكان المطلوبُ منهم كلّما فتح الله لهم قريَةً من الْقُرَىٰ صغيرة أمْ كبيرة، أنْ يَدْخُلُوا بابَها خاضِعِين لله، مُطَأْطِئِي رُؤوسهم له، مستغفرين من ذُنوبهم، وأنْ يَسْتَمِرُّوا بَعْدَ دُخُولِها وسُكْنَاهَا قائِمينَ بواجِبِ السُّجُودِ للّٰهِ وحْدَهُ، والعَمَلِ بشرائعه وأحكامه، لا يُشْرِكون بعبادته شيئاً، وكانُوا يُعْطُونَ الْعَهْدَ على ذٰلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْصُرَهم الله، ثمّ بَعدَ أنْ يحقِّقَ لَهُمْ وَعْدَهُ وينْصُرَهُمْ، ويَفْتَحَ لهم الْقُرىٰ، ويُمَكِّنَهُمْ من أعدائهم يَنْقُضُونَ عَهْدَهم مع الله، فيبدّلُون، ويَعْمَلُونَ بقَوْلٍ آخرَ يَفْتَرُونه، غير الْقَولِ الذي قاله الله لهم، فيظْلِمُونَ ويَفْسُقُون.

فإذا تمادَوْا في معاصيهم ومخالفاتهم وانْحِرَافاتِهم، وأَهْمَلُوا الْعَمَلَ بآيات الله المنَزَّلاَتِ، أَرْسَلَ اللَّهُ عليهم عذاباً من السَّماء بَسَبَب مَا كَانُوا يَظْلِمُون فَاسِقين.

وهذه الحادثة الّتي ذكرها الله عزّ وجلَّ في نَصّي (الأعراف) و(البقرة) لا علاقة لها بالحادثة التي جاءت في النصّ الذي جاء في سورة (المائدة) الّذي يُبيِّنُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيه دَعْوة مُوسَىٰ عليه السّلام لبني إسرائيل، أَنْ يَدْخُلوا الأَرض المقدَّسة التي كتبها اللَّهُ لَهُمْ بشَرْط أن يَدْخلوها مقاتلينَ مجاهدين في سبيله لنشر دين الله والدعوة إليه.

فقالوا له: إنَّ فيها قَوْماً جَبَّارِينَ وإنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حتَّىٰ يَخْرُجُوا منها، وقالُوا له: يَا مُوسَىٰ إنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً مَا دَامُوا فيها، فاذْهَبْ أَنْتَ ورَبُّكَ فقاتِلاَ إنَّا هَاهُنَا قاعِدُون.

ومنذ ذَلِكَ الحين حَرَّمَ الله على بني إسْرَائيل أن يَدْخُلوا الأرض المقدسة أرْبَعِينَ سنة، وذلِكَ حتَّىٰ يَمُوتَ الرافِضُون، ويظهر فيهم جيلٌ جَدِيدٌ لم يُشَارِكُوا في الرَّفْضِ.

وتُوفِّيِ هارون ومُوسَىٰ عليه السلام، ورافِضُو دخُولِ الأرض المقدّسةِ بالقتالِ من بني إسْرَائيل في التّية، دون أن يَدْخُلُوا الأرْضَ المقدَّسَةَ، ودُونَ أنْ يَفْتَحُوا شَيْئاً من قُراها الكبيرَةِ أو الصَّغِيرَة.

وظاهر في نَصّي (الأعراف) و(البقرة) أنَّهما يتحدَّثَان عن دُخُولِ القرية بفتح من الله جلّ جلاله.

واشتَبَهَ الأَمْرُ على بَعْضِ المفسّرين فَجَعَلُوا النصوص الثلاثة تتعلَّقُ بحادَثةٍ واحِدَة.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى في (الأعراف):

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾.

أي: وضع في ذاكرَتِكَ أَيُّها المتلقّي هذا البيان من رَبِّك للاعتبار والاتعاظ، قِصَّةَ من قِصَصِ بني إسْرَائيل بَعْدَ مُوسَىٰ عليه السلام، إذْ بَدَأَ أَنبِيَاؤهم يَسُوسُونَهم، لدخول الأَرض المقدَّسَةِ وافتتاح قُرَاهَا الكبيرة والصغيرة، جهاداً في سبيل الله، لنَشْرِ دينهِ.

● ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾: أي: وحينَ قِيلَ لَهُمْ، والْقَائل هو نبيُّهُمْ الّذِي كَانَ يَسُوسُهم بلاغاً عن رَبِّه، بدليل النَّصّ الذي جاء في سورة (البقرة) فَقَدْ جاء فيه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ بضمير المتكلّم العظيم الرَّبّ جلّ جلاله.

● ﴿اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾: أي: ادْخُلُوهَا مُقَاتِلِينَ في سبيل اللَّهِ، واسْكُنُوها بدَلَ أَهْلِهَا الَّذِينَ سَنَنْصُرُكُمْ عَلَيْهم.

فُهِمَ الدُّخُولُ باللُّزُومِ العقلي، لأنّ السُّكْنَىٰ لاَ تَحْصُل، إلاّ بَعْدَ الدُّخُولِ قِتالاً في سبيل الله، والانتصار على أهلها.

وجاء التصريح بالدُّخول دُون السُّكْنَىٰ في النّصّ الذي جاء في سورة (البقرة): ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾.

وسَبق في التمهيد أنّي لم أَجِدْ دليلاً قويًّا على تعيين اسم القرية الّتي أُمِرُوا بدخولها: (أريحا ـ القدس ـ مدينة الخليل) أو غيْرها، والله أعلم.

ويَدُلُ اسْمُ الإشارة (هٰذِهِ) على أنَّها كانت قَرِيبَةً من تجمُّعِ معظمهم.

• ﴿وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾: هٰذه العبارة تَدُلُّ على أنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ أَبَاحَ لَهُم مَعَ سُكْنَاها أَنْ يأكُلُوا من ثمارِ وأرزاقِ هٰذِهِ القريَةِ، في أيّ مَكَانٍ من أمْكِنَتِها شَاءُوا.

﴿حَيْثُ﴾: ظَرْفُ مَكَانٍ مَبْنِيٌّ عى الضّمّ، في مَحَلِّ نَصْبٍ بالظرْفِيّة، وهو مضافٌ إلى جُمْلَةِ ﴿شِئْتُمْ﴾.

وجاء في نصّ (البقرة): ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾: دَلَّتْ هذه العبارة على أن اللّهَ أباح لهم أَنْ يأكُلوا من ثمارها وأرزَاقها عقب دخولها فاتحين لها، من الأرزاق الموجُودَة فيها، وقَبْلَ أَنْ يَسْتَقِرُّوا سَاكِنِينَ فيها، وأنَّهُمْ سَيَجِدُون فيها رزقاً كثيراً واسَعاً وفيه رفاهية لهم، أخذاً من دلاَلَة كلمة ﴿رَغَدًا﴾ المذكورة في نصّ (البقرة).

• ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾: أي: وأَدُّوا هٰـذَيْـنِ الواجِبَيْن:

الأول: أَنْ تقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾: هذه كلمة كلّفُوا أَنْ يقولوها، أو يَقُولوا ما يُمَاثِلُها في لُغَتِهم، ومعناها الإصلاحي عندهم: اللّهُمَّ ضَعْ عنّا أَوْزَارَنَا وَذُنوبنا ولا تُحَاسِبْنَا عليها.

وفي قولهم هذا اعترافٌ مِنْهم بذنُوبهم، عند نَصْرِ اللّهِ لهم على عَدُوّهم. وثناءٌ على الله عزّ وجَلَّ بِأَنَّهُ قد تفضَّل عليهم بالنّصر، وهم يستحقون العقاب على ذنوبهم.

الثاني: أن تدخُلوا بَابَ القريَةِ سُجّداً، وهذا الواجب يتضَمَّنُ تكليفَهُمْ أَنْ يكونُوا خاضِعِينَ لله في قُلوبهم خضوعاً تامًّا، عابدين له، لاَ يُشْرِكُون بعِبَادَتِه شيئاً، وأنْ يكونُوا عنْدَ دُخُولهم مُعْلِنين بحَرَكَةِ أَجْسَامِهم خُضُوعَهُمْ للّهِ بطَأْطَأَةِ الرَّأْسِ وإحْنَاءِ الظهر، فهذا نوعٌ من السُّجُود لُغَةً، كما فَعَلَ الرسُولُ محمّد ﷺ عند فتح مكّة، وأنْ يكونوا دواماً بَعْدَ دُخُولهم وسُكْنَاهُمُ الْقَرْيَةَ سَاجِدِينَ في عبادتِهم لِلّهِ عزّ وجلَّ وَحْدَه، فلا يَسْجُدُوا لشُرَكَاءَ من دونِه.

﴿سُجَّدًا﴾: جمْعُ «سَاجد» والكلمة منصوبَةٌ على أنّها حالٌ، وهي هنا بعد الدُّخول والاسْتِقْرار حالٌ مُقَدَّرَة كما يَقُولُ النحاة.

والسُّجُودُ عَنوانٌ لكَمال الطاعَةِ والخضُوع للّهِ، والعمل بشرائعه وأحكامه، ورَمْزُه الجسَدِيُّ يكُونُ بطَأْطَأَةِ الرأسِ، وإحْنَاءِ الظهر، وأقْصَاهُ الْجَسَدِيّ يكون بِوَضْعِ الجبْهَةِ على الأرض.

وجاء في نصّ (البقرة): ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾: وسبَقَ بيان الحكمة من هذا التنويع، وهو عدم الإلزام بالترتيب، ولا بالمقارنة، وإنّما المطلُوب تحقِيقُهما بأيِّ وجه ممكن.

● ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ أي: نَسْتُرْلَكُمْ ذنوبكم ومَعَاصِيَكُمْ، فلا نَكْشِفُهَا لِمُحَاسَبَتِكُمْ عَلَيْها.

يقال لغة: غَفَرَ الشيءَ، يَغْفِرُهُ غَفْراً وغُفْراناً، أي: سَتَرَه. ومَعْلُومٌ أَنَّ السَّتْرَ في وقْتِ الحساب يَقْتِضي عَدم المحاسبَة.

﴿خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾: الْخَطِيئات جمع «الخطيئة» وتُطْلَقُ على الذنْبِ صغيراً

كانَ أمْ كبيراً. وتُطْلقُ أيضاً على الفعل المخالف للصواب بدون قصد. والمعنَى الأول هو المراد هُنَا.

وقد سبَق بيان القراءات وتوجيهها في نَصَّي (الأعراف) و(البقرة).

وفي هٰذه العبارة وعْدٌ من اللّهِ عزَّ وجلَّ لهم بأَنْ يَغْفِرَ لهم خَطِيئاتِهِمْ وخَطَاياهُمْ، إذَا دَخَلُوا الْبَابَ سُجّداً، وقَالُوا: «حِطَّة».

● ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في (الأعراف) ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في (البقرة) بفارق إضافَة حَرْفِ العطف (الواو) لبيان أنّ الْفَصْل والوصْلَ في مِثْل هٰذِهِ الْجُمَل مُتَكافِئَانِ بَلَاغيًّا.

فَالْفَصْلُ على تَقْدِير سؤالٍ مطويّ: إذَا كان حالُ الْخَطَّائِين أَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ، فَكَيْفَ يكونُ حَالُ كاملي التقوى، فالأَبْرارِ، فالمحسنينَ الذين هم في أعْلَىٰ المراتب؟

والجواب: سَنَزِيدُ المحسنين، أي: والأبرارَ، وكَامِلي التَّقْوى، لأنّ هؤلاء أكملُ حالاً من الذين لهم خطِيئَاتٌ أو خطَايا، أجراً عظيماً.

وهذا الفصل يُحسّنُه مراعاة أحوال الفطناء.

والوَصْلُ يُحسِّنُهُ تَوَافُقُ الجمَلَتَيْن، في كونِهما خَبَراً وَوَعْداً كَريماً من الله جلَّ جَلَاله. ويُحَسِّنُهُ أيضاً مُراعاةُ حَالِ مَنْ لم يَنْقَدِحْ في ذهْنِه السؤال الذي سَبَق بيانه.

الْمُحْسِنُونَ: هم الّذين اسْتَوْفَوْا حُقُوقَ مَرْتَبَةِ المتّقين، وزَادُوا أعمالاً صالِحَةً مِنْ أعْمَال مَرْتَبَةِ الأَبْرَار، دون أن تكون واجبَةً عليهم، وراقَبُوا اللّهَ في أعمالهم، فاحْسَنُوهَا، وجَوَّدُوها، فَكَانُوا محسنين بها، يَعْبُدُون الله كأنَّهُمْ يَرَوْنه.

دَلَّ قول الله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ عن طَرِيق الّلزوم الذهْنِي

على أنَّ اللَّهَ سَيَزِيدُ من فَضْلِه كامِلِي التَّقْوى، وسيزيد الأبرار، كما يَزِيد المحسنين، ولكِنَّ الزّيادة الّتي يَمْنَحُهَا اللَّهُ لَمَنْ هم أحْسَنُ حَالاً من ذوي الخطيئات تأتي بحَسَبِ ارْتقائهم في درجات مرابتهم فحكمة الله تقتضي ذَلك كما اقتضت زيادَة العطاء للمحسنين من فضله.

قول الله تعالى في سورَةِ (الأعراف):

• ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢)﴾.

وقولُ اللَّهِ تعالَىٰ في سورة (البقرة):

• ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾.

سَبق بيان التكامل في هٰذين النصّيْن.

لقَدْ كانَ في بني إسرائيلَ ظالمونَ كَثِيرُونَ بَدَّلُوا الْقَوْل الذي قيل لَهُم، فَحَرَّفُوا في النُّصُوص، وعَمِلُوا على خِلَافِ شريعَةِ اللَّهِ لهـم، وعَصَوْا أوامر الله ونواهِيَه، فَعَاقَبَهُمُ اللَّهُ عزَّ وجل بعذاب أَنْزَلَهُ عليهم مُرْسلًا، بسَبَبِ ما كانُوا يَظْلِمُون فاسقين خارجين عن طاعة الله.

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾: هٰذِهِ العبارة تدلّ على أنّ فريقاً مِنهُمْ عَصَوُا اللَّهَ في أوامِرِه ونَواهيه، وحَرَّفُوا في دين اللَّهِ، ووصفَ الله المبدِّلين بأنَّهُمْ قَدْ ظَلَمُوا، أي: تجاوزوا حُدُود الله. إنَّ تبديل قَوْلِ الله التكليفي يكونُ بوجْهَين:

الوجْهُ الأول: هو التحريف في القول، أو وضع قولٍ آخر بَدَلَه، كما فَعَلَ الإسْرائيليُّون في كُتبهم المنزّلة، وفي أقوال أنبيائهم ورُسُلِهم، فكتَبُوا أقوالاً من عند أنفسهم على خلاف ما أنزل الله، ونَسَبُوها إلى الله، وكتبوا

أقوالاً من عند أنْفُسِهِمْ ونسَبُوهَا إلى أنبِيائهم ورُسُلهم على خِلَاف ما قال لهم أنبياؤهم ورُسُلهم.

الوجه الثاني: هو العَمَلُ بِخِلَافِ أقوالِ اللّٰهِ وأقوال أنبيائه ورُسُله التكليفيّة.

وقد دَلَّ على أنَّ العملَ بِخَلَافِ القوْلِ التكليفي هو من التبديل له، قولُ الله عزّ وجلّ بشأن المخلّفين من الأعراب عن الرسول ﷺ والمؤمنين معه، لأداء العمرة، وهي العمرة التي صدّ مشركو قريش الرَّسُولَ ومَنْ مَعَهُ عن أدائها، في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول).

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾:

فأبانَ اللّٰهُ جَلَّ جَلَالُه في هٰذِهِ الآيَةِ، أنَّ مُخالَفَة قَوْلِ اللّٰهِ التكليفي هُو مِنْ تَبْديلِ كَلَام اللّٰهِ، إذْ نَهَىٰ اللّٰهُ رَسُولَهُ عَنْ أن يأذَنَ لهؤلاءِ المخلَّفِين بأنْ يَخْرُجوا مَعَهُ إلى فَتْحٍ قَريبٍ، يُحَقِّقُ اللّٰهُ فيه للمؤمِنِينَ مَغَانِم كثيرة، وحين لم يأذَنْ لَهُمْ الرسُولُ تَنفيذاً لقول الله بأنْ يخْرُجوا معه، كان هؤلاء المخلَّفُونَ يُرِيدُون الخروجَ معه بدافِعِ الطَّمَع، ولو كان في هذا الخروج مُخالَفَةٌ لِقَوْل اللّٰهِ التكليفي.

وقد كان كثيرٌ من بني إسرائيل في أيّام صحَّةِ رِسالَة رُسُلِهم، وقيادة أنبيائهم لهم يُبَدِّلُون كلام اللّٰهِ بالمعاصِي والمخالَفَات، ويُطَبِّقُون بأعْمالهم وتَصرُّفَاتِهم قَوْلاً مخالفاً للقول الذي قِيل لهم في كتاب ربّهم، أو على ألْسِنَةِ رَسُلِهم وأنبِيائهم، عُصاةً ظالِمِينَ فاسِقِين، بَعْدَ أنْ يَفْتَحَ لَهُمُ القرية الّتي وَعَدَهم أن يفْتَحَها لَهم، وينْصُرَهم بجهادهم في سبيله على أهلها الكافرين المشركين، أهل الفِسْق والفُجُورِ والأوثان.

وقَدْ تَكَرَّر هذا مِنهم فيما قَامُوا به من فَتْحِ الْقُرىٰ في الأرضِ المقَدَّسَة، من بلاد الشّام، بَعْدَ مُوسَىٰ عليه السلام، بقيادة نبيّهم «يَشُوع» ثم بقيادة «صَمُويل» ثم في عَهْدِ القضاة، ثمَّ فيما بَعْدَ ذلِكَ.

وكان من معاصي بني إسرائيل الّتي بَدَّلَ الَّذِين ظَلَمُوا مِنهم بِها قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قيلَ لهم ما يلي:

(١) الغُلولُ في الغنائم، وهو محرَّمٌ عليهم.

(٢) هَدْمُ بَعْضِ القرىٰ الّتي يَفْتَحُها الله لهم، وإحراقُها، وتَرْكُهَا تَلاًّ خَراباً مُتَهدّماً، وقد أُمِرُوا أَنْ يَدْخُلُوها، ويَسْكُنُوها، بَعْدَ أَنْ يَنصُرَهُمُ اللَّهُ على أَهْلِها.

(٣) أَنَّهُمْ كانُوا يَفْسُقُونَ، ويفْجُرُونَ، ويُخَالِفُونَ تَعْلِيمَاتِ شَرِيعة اللّهِ لهم.

(٤) وزَادَ بَعْضُهُم في تَجاوزهم لحُدودِ اللّه، أَنّهم اتَّخَذُوا لأنفُسِهِمْ أوثاناً مِنْ أَوْثَانِ المشركين الَّذِينَ انْتَصَرُوا عليهم، فعَبَدُوهَا من دون الله.

(٥) وكان كثيرٌ مِنهُمْ إذَا دَخَلُوا القريَة الَّتي وَعَدَهُمُ اللَّهُ بأنْ يَنصُرَهُمْ على أهلها، بأسْبَابٍ من لَدُنْهُ، يَدْخُلُونها مُسْتَكْبِرِينَ، مُتَعَاظِمين بقُوَّتهم مُتَفاخِرين، ولاَ يَدْخُلُونَها كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ سَاجِدِين، أي: مُطَأْطِئي رُؤُوسهم مُتَواضِعِين لربّهم، خاضِعين له بقُلُوبهم، شُكراً له على ما تفضَّلَ به عليهم من النّصْر والفتح المبين، وكانوا يتحايلون فيتقاصرون فيَزْحَفُون على أستاههم لئلا يُحْنوا ظهورهم خضوعاً لله ويُوهمون الصالحين منهم بالطاعة.

وكانوا لا يَسْتَغْفِرُون كما أَمَرَهُمُ اللَّهُ بأنْ يقولوا: حِطَّة، عناداً وكِبْراً، وسُوءَ طَوِيَّة.

وكانُوا بَدَلَ أنْ يَقولُوا: «حِطَّةٌ» باعتبار هذا اللفظ شعيرة من شعائر

دخولهم الْقَرية فاتحين، يقولُون: «حَبَّةٌ في شَعْرَة» أو «حِنْطَةٌ في شَعِيرَة» سُخْرِيَّةً من الأمْرِ الموجَّه لهم، وعَدَم إيمانٍ بفائدَته، ويوهمونَ الصالحين منهم بأنهم مطيعون.

روى البخاري ومسلم وغيرهما، من حديث أبي هُرَيْرَة عن النبي ﷺ قال: «قِيلَ لِبَني إسْرَائيلَ: ادْخُلُوا البابَ سُجّداً، وقولُوا: حِطَّة، فبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُون على أَسْتَاهِهِمْ، وقالُوا: حَبَّةٌ في شَعْرَة».

وفي رواية أخرجها ابن جرير وابْنُ المنذر عن ابن عباسٍ، وعن أبي هريرة، أَنَّهُمْ قالُوا: «حِنْطَةٌ في شَعِيرَة».

ولعلَ بعضهم كانوا يقولون هذا من العصاة، وبعضهم كانوا يقولُونَ الآخر.

وكانَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ يُعَاقب بني إسرائيل لكَثْرَةِ الظَّالِمينَ منهم، بعذَابٍ من السَّمَاءِ (أي: من جَوِّ الأَرْضِ فَوْقَهم) يُنزِلُهُ عَلَيْهِمْ مُرسلاً.

- ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف].

- ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة].

سبقَ بيان التكامُلِ في هٰذَيْنِ النَّصَّيْن.

﴿فَأَرْسَلْنَا﴾: هذا الْفِعْل يَدُلُّ على أنَّ الْمُرْسَلَ مَبْعُوثٌ لأداءِ وَظيفَةٍ مُهِمَّة، وهي هُنَا تَعْذِيبُ الظالِمينَ، وتَعْذِيب من سَكَتُوا على ظلمهم، فلَمْ يَرْدَعُوهم ولم يأخُذُوا على أيديهم.

﴿فَأَنزَلْنَا﴾: هٰذا الفِعْلُ يَدُلُّ على أنَّ أوامِرَ الإرسَالِ أوَامِرُ عُلْوِيَّةٌ رَبَّانِيَّة، إذْ كُلُّ تَصارِيف المقادير الرَّبَّانِيَّةِ من الْخَيْرِ والشَّرّ فيها معْنَى الإنْزالِ

مِنْ عِنْدِ اللَّهِ جلّ جلالُه، ولَوْ كَانَتِ الأَسْبَابُ أَسْباباً أَرْضِيَّةً، لِأَنَّ المتصرِّف بكوْنِه هُوَ في مقَام الْعُلُوِّ دَواماً.

عبارة: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الّتي في نَصِّ (الْبَقَرَة) تُشْعِرُ بسَبَبِ إِنْزَالِ الْعَذاب عليهم، فبيان الوصْفِ لدَىٰ إِصْدَارِ الحكْمِ، أَوْ لَدَىٰ بَيَانِ تحْقِيقِ الجزاء، يُشْعِرُ بأَنَّ هٰذا الوَصْفَ هُوَ السَّبَبُ المقْتَضِي لذلك.

﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾: أي: عَذَباً نَازِلاً عليهم من فَوْقهم، ومَعْلُومٌ أَنَّ جَوَّ الأَرْض هو سَمَاءٌ بالنِّسْبَةِ إليهم، فكلُّ ما هو في جهة العلُوِّ يُسَمَّى في اللُّغَةِ سماءً.

أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ، وابْنُ أَبِي حَاتِم عن ابْنِ عَبَّاسٍ قال:

«كُلُّ شَيْءٍ في كِتَابِ اللَّهِ من الرِّجْزِ يَعْنِي به الْعَذَابَ».

أي: الوسيلة الّتي يكونُ بها حصُولُ العذاب للمعذّبين.

وأخرج مُسْلِمٌ وغَيْرُهُ من حَدِيث أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، وسَعْدِ بن مالك، وخُزَيْمة بْنِ ثابت قالُوا: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«إِنَّ هٰذَا الطَّاعُونَ رِجْزٌ، وَبَقِيَّةُ عَذَابٍ عُذِّبَ بِهِ أُنَاسٌ مِنْ قَبْلِكُمْ، فَإِذَا كَانَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا، وإِذَا بَلَغَكُمْ أَنَّهُ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا».

﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ في (الأَعْرَاف) و﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ في (البقرة): أي: بسبب ما كانُوا يتَجَاوَزُونَ حُدُود اللَّهِ فَاسِقين عَنْ طَاعَتِهِ، مُعَرِّضِينَ أنفسهم للفساد والإفساد وعقابِ اللَّهِ لهم.

وقد سَبق في نَظَرات التكامل بين نَصَّي (الأعراف) و(البقرة) بيان الفِسْقِ بما يكفي.

أَمّا الظُّلْم في اللُّغَة: فَهُوَ تَجَاوُزُ الحدِّ، ووضع الشيءِ في غَيْرِ مَوْضِعه.

❁ ❁ ❁

عبادة بعضِ بني إسْرائيل الأوثَانَ أَخْذاً مِنْ كُتُبِهم.

جاء في الإصحاح الثاني من سِفرِ الْقُضاة ما يلي:

«١١ وَفعلَ بَنُو إسْرائيلَ الشَّرَّ في عَيْنَي الرَّبّ وعَبَدُوا الْبَعْلِيمَ ١٢ وتَرَكُوا الرَّبَّ إلهَ آبَائِهِمُ الَّذِي أَخْرَجَهُمْ مِنْ مِصر وسَارُوا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَىٰ مِنْ آلِهَةِ الشُّعُوبِ الَّذين حَوْلهم وسَجَدُوا لَهَا وَأَغَاظُوا الرَّبَّ ١٣ تَرَكُوا الرَّبَّ وَعبَدُوا الْبَعْلَ وَعَشْتَارُوتَ[1] ١٤ فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ علَىٰ إسْرَائيل فَدَفَعَهُمْ بِأَيْدِي نَاهبيهم وبَاعَهُمْ بِيَدِ أعْدَائِهِمْ حَوْلَهُمْ وَلَمْ يَقْدِرُوا بَعْدُ على الوقُوفِ أَمَامَ أعدائهم ١٥ حينما خَرَجُوا كانَتْ يَدُ الرَّبّ عَلَيْهِمْ للشَّرّ. كَمَا تَكَلَّمَ مُوسَىٰ وَكَمَا أَقْسَمَ الرَّبُّ لهم. فَضَاقَ بِهِمُ الْأَمْرُ جِدًّا».

الفقرة العاشرة

المعتدون في السبت من بني إسرائيل

الآيات من (١٦٣ ـ ١٦٦) وهي آياتٌ مدنيّة التنزيل مضمومة بالوحي إلى موضعها من سورة (الأعراف) المكيّة لمراعاة اقتضاءين: المناسبة الفكرية، والحكمة التنزيليّة في العهد المدني حيث ظهر الاحتكاك مع اليهود.

قال الله عزّ وجل:

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟

---

(١) سبق قريباً تفسير وثني «البعل» و«عَشْتَاروت» انظر الصفحة (٦٥٥).

بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾.

القراءات:

(١٦٣) ● قرأ ابْنُ كَثِير، والكِسَائي، وَخَلَف: [وَسَلْهُمْ].

وقرأ باقي القراء الْعَشَرَة: ﴿وَسْئَلْهُمْ﴾.

والقراءتان وجهان عربيان لنُطق فعل الأمر من فعل «سَأَل».

(١٦٣) ● قرأ يعقوب: [تَأْتِيهُمْ] بضمّ هاء الضمير في الموضعين.

وقرأ باقي القرّاء الْعَشَرَةِ: ﴿تَأْتِيهِمْ﴾ بِكَسْرِ هَاءِ الضمير في الموضعين. وهما وجهان عَرَبيّان لنطق هاء الضمير التي يأتي بعدها ميم الجمع.

(١٦٤) ● قرأ حفصٌ: ﴿مَعْذِرَةً﴾ بالنَّصب، أي: لأجل المعذِرة، مفعول لأجله.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مَعْذِرَةٌ] بالرَّفع، أي: موعِظَتُنا لهم مَعْذِرَة، فالكلمة خبرٌ لمبتدأ مَحْذوف.

والقراءتان وجْهانِ عَرَبيّانِ صحيحان، والمؤدّىٰ واحد.

(١٦٥) ● قرأ نَافِعٌ، وأبو جَعْفَر: [بِيسٍ] بياء سَاكِنَة مدِّية.

وقرأ ابْنُ عامرٍ: [بِئْسٍ] بِهَمْزَةٍ سَاكِنَة.

وقرأ شعبة في أحَدِ وَجْهَيْن له: [بَيْئَسٍ] بياء ساكنةٍ بعدها همزة مفتوحة.

وقرأ باقي القرّاءِ العَشَرَةِ: [بَئِيسٍ] بهَمْزَةٍ مَكْسُورَةٍ بَعْدَها ياء مدّيَّة.

والمعنى في هٰذه القراءات ذاتِ الوجوه في نطق الكلمة أنّ العذاب الّذي أنزلَهُ اللّٰهُ بِهِمْ عذابٌ شَدِيدُ الْبُؤْسِ والضُّرّ.

وقد ذكَّر الله بني إسرائيلَ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بالحدَث الّذي تضمَّنه هٰذَا النَّصّ، فقال عزَّ وجلّ فيها:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

وَخَاطَبهم في سورة (النّساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بقوله عزّ وجلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾.

وأبانَ لهم في سورة (النساء) أيضاً، أنّه نَهاهُمْ عن أنْ يَعْتَدُوا في السَّبْت بالْعَمَل فيه، وأخَذَ منهم مِيثاقاً غَلِيظاً، فَنَقَضُوا مِيثاقَهُمْ، واسْتَحقُّوا عقابَ الله، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾.

تمهيد:

لقدْ حَرّمَ الله عزّ وجلّ على بني إسرائيلَ أعْمَالَ الكَسْبِ يَوْمَ السبت، وشدّد عليهم التحريم، وأخَذَ مِنهُمْ ميثاقاً غَلِيظاً أَنْ لا يَعْمَلُوا فِيهِ عملاً ما من أعمال دُنياهم.

وذُكِرَ أنَّ سبَبَ هٰذَا التَّشْدِيد، أنَّ بَنِي إسْرَائل اخْتَارُوهُ بدَلَ الجمعة. الّذِي أنْهَىٰ اللَّهُ فيه خَلْقَ السَّماوات والأرض. فقالوا: نَأْخُذُ يَوْمَ السَّبْت، لأنَّهُ اليوم الذي ارْتَاحَ اللَّهُ فيه من عمليات الخلْقِ بَزَعْمِهم، وهذا افتراءٌ مِنْهم على اللَّهِ جلَّ جلاَله، لأنّه لا يُكلّفه الخلْقُ أكْثَرَ مِنْ أَمْرِ التكوين، فلا يمَسُّهُ تَعَبٌ ولا لُغُوب.

فَشَدَّدَ اللَّهُ عليهم فيه، فكلّفَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوه يوماً لاَ يقومون فيه بأيّ

عمَلٍ من أعمال الدُّنيَا، وإلاَّ عَاقَبَهُمْ عقاباً شديداً، وثَبَتَ عليهم هٰذَا التكليف.

ولمّا بَعَثَ اللَّهُ محمَّد بْنَ عبد الله بالرسَالَة الخاتمة، شاءَ أن يجْعَلَ يومَ الجمعةَ يوماً خاصًا لاجتماع المسلِمينَ في صلاةٍ جامعةٍ، وقَصَرَ تحرِيمَ الْعَملِ في هذا اليوم على ممارسَاتِ البيعِ والشّراءِ ونَحْوِهما في الوقت الّذِي يجِبُ فيه السَّعْيُ لحضُورِ صلاة الجُمعةِ وخُطْبَتَيْها، فإذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ جَازَ للمسلمين أن يَنْتَشِرُوا في الأرض، ويَبْتَغُوا من فَضْلِ اللَّه أرْزَاقَهُمْ وَمَكَاسِبَهُمْ.

لكِنَّ بَنِي إسْرائيلَ اقْتَرَحُوا على رَبّهم يوْمَ السَّبْت، فَشَدَّدَ الله عليهم، وأخذ عليهم بالْتزام عدَم العمل فيه ميثاقاً غليظاً، بدليل قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) الآنف الذكر:

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِي ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾.

وجاءت الإشارة إلى هذا في قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

وفَسَّر مجاهد اختلافَهُم فِيهِ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوهُ، وتَرَكُوا يَوْمَ الْجُمَعة، أي: اقترحُوهُ علَىٰ رَبّهم بدَلَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَاسْتَجابَ اللَّهُ لَهُمْ، ولَكِنْ شَدَّدَ عَلَيْهِمُ التكليف فيه، فألْزَمَهُمْ وأوْجَبَ عليهم أنْ لا يَعْمَلُوا فِيه أيَّ عَمَلٍ من أعْمَالِ الدنيا، فإذَا عَمِلوا فيه وعَصَوْا رَبَّهم عاقَبَهُم الله عقاباً شَدِيداً، ما دامَتْ شريعةُ موسَىٰ مَعْمولاً بِهَا لَمْ تُنْسَخْ أو يُنْسَخْ مِنْهَا أحْكَامٌ تكليفِيَّةٌ في شَرِيعَةٍ لاَحقة.

ومعلومٌ أنَّ عيسَى عليه السَّلاَمُ جاء بِشَرِيعَةٍ أحَلَّ اللَّهُ فيها بَعْضَ مَا كان مُحرّماً على الْيَهُود.

أمّا محمّد بن عبد الله فقد بَعَثَهُ الله بالشريعة الباقِيةِ أحكامُهَا حتى آخر ممتَحَنٍ مُكلَّفٍ في الحياة الدنيا، والناسِخَةِ لكلّ الأحْكام الَّتي كانَتْ لَهَا صِفَةُ الأحكام العِلاَجيَّةِ المؤقّتة.

وفي هذه الآية من سورة (النحل) أبَان الله عزّ وجلّ أنّه ما جعَلَ السَّبْتَ وأحكامه الشديدة، إلاّ على بني إسرائيل الّذين اخْتَلَفُوا على ربّهم فيه، فاقترحُوهُ عليه بدَلَ يَوْمِ الجمعة.

ومثْلُ هٰذه المقترحاتِ على الله هي من قبيلِ التدخُّلِ في خصائص ربوبيَّةِ الرَّبّ جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانُه، الَّذِي لَهُ الخلْقُ، ولَهُ الأمْرُ، وله الحكم، ولَه التشريع، تبارك الله رَبُّ العالمين.

فجعل الله السبْتَ خاصًّا ببَنِي إسْرَائِيل، المكلّفين أن يَعْمَلُوا بِشَرِيعة موسَىٰ، وجَعَلَ أحْكامَهُ وعُقوباتِ مخالفَتها مُشَدَّدةً عُقُوبةً لهم، وقد لَصِقَتْ بهم حتى جاءَ نَسْخُهَا في رِسالَةٍ رَبَّانيَّةٍ لاَحقة.

روى البخاري عن أبي هريرة أنّ رسُولَ الله ﷺ قال:

«نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القيامة، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَاب مِنْ قَبْلِنَا. ثُمَّ هٰذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ (يَعْني يَوْمَ الجمعة) فَاخْتَلَفُوا فيه، فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، الْيَهُودُ غداً، والنَّصَارَىٰ بَعْدَ غَدٍ».

ورَوَىٰ مُسْلمٌ عَنْ أبي هريرة، وعَنْ حُذَيفَة بْنِ اليمان رضي الله عنهما قَالاَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«أَضَلَّ اللَّهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ. وَكَانَ للنَّصَارَىٰ يَوْمُ الأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ والسَّبْتَ والأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ القيامة، نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، والأوَّلُونَ يَوْمَ القيامة، والْمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ قَبلَ الْخَلاَئِقِ».

قصَّة الَّذِينَ اعْتَدَوْا في السَّبْتِ من بني إسرائيل:

إنَّ القصّةَ الَّتِي أشارَتْ إلَيْهَا النّصوص القرآنيّة الَّتي سَبَق ذِكْرُها، من قِصَص بَنِي إسْرَائِيلَ، قَدْ كانَتْ مَعْرُوفَةً مَشْهُورَةً بَيْنَهُمْ، إلاَّ أنَّنِي لم أعْثرْ عليها في أسْفَارِهِمُ المدَوَّنَةِ، الَّتي دَوَّنُوا فيها تَاريخهم، وجَعَلُوها كُتباً مُقَدَّسَة، وأعْلَنُوهَا.

لَكِنّي وجَدْتُ ما يُشِيرُ إليها في سِفْر «نَحْمَيَا» في الإصْحَاحِ الثالث عشر منه، فقد جاء فيه قَوْلُ «نَحْمَيَا».

«١٥ في تِلْكَ الأَيَّامِ رَأيْتُ في يَهُوذَا قَوْماً يَدُوسُونَ مَعَاصِرَ في السَّبْتِ. وَيَأْتُونَ بِحُزَمٍ. ويُحَمِّلُونَ حَمِيراً. وأيْضاً يَدْخُلُونَ أورُشَلِيم (أي: القُدْسِ) في يَوْمِ السَّبْتِ بِخَمْرٍ وعِنَبٍ وَتِينٍ وَكُلِّ مَا يُحمَلُ. فَأَشْهَدْتُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ بَيْعِهِمُ الطَّعَامَ ١٦ والصُّورِيُّونَ السَّاكِنُونَ بِهَا كَانُوا يَأْتُونَ بِسَمَكٍ وَكُلِّ بِضَاعَةٍ ويَبِيعُونَ فِي السَّبْتِ لِبَنِي يَهُوذَا. وَفِي أورُشَلِيم ١٧ فَخَاصَمْتُ عُظَمَاءَ يَهُوذَا وَقُلْتُ لَهُمْ: مَا هٰذَا الأَمْرُ القَبِيحُ الَّذِي تَعْمَلُونَهُ وَتُدَنِّسُونَ يَوْمَ السَّبت؟! ١٨ أَلَمْ يَفْعَلْ آبَاؤُكُمْ هَكَذَا فَجلَبَ إلٰهُنَا كُلَّ هٰذَا الشَّرِّ وعَلَىٰ هٰذِهِ المدينَةِ؟! وأَنْتُمْ تَزِيدُونَ غَضباً عَلَىٰ إسْرَائيل إذْ تُدَنِّسُونَ السَّبْتَ؟!»

هٰذَا يَدُلُّ على أنّ قِصَّة عُدْوانِ آبائِهِمْ علَىٰ حُرْمَةِ يَوْمِ السَّبْتِ، الَّذِي هُوَ سَبْتٌ عليهم، وانْتِقَامِ اللَّهِ مِنْهُمْ قصَّةٌ مَعْرُوفَةٌ لَدَيْهِم، فَقَدْ مَسَخَ اللَّهُ الَّذِينَ عَتَوْا وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِنَهْيِ واعِظِيهم، مُسْتَهِينينَ مُسْتَكْبِرِينَ مُتَمادِينَ في غَيِّهم، عَلَىٰ أشْكَالِ القِرَدة.

خلاصة القصة كما ذكَرها أئمَّةُ تفسير القرآن:

وخلاصَةُ القصَّة أخذاً مما ذَكَرَهُ أئمة تفسير القرآن المجيد، هي أنَّ سُكَّانَ قَرْيَةٍ من القُرىٰ الَّتي تَقَعُ علَىٰ سَاحِلِ البحر، قيل: هي «أيْلَة» أي: «العَقَبة» اليوم. وقيل: «طَبَرِيَّة» أو قرية أُخرَىٰ كانت علَى خَلِيج العقبة من

الْبَحْر الأحمر، وكان سُكَّانُهَا الإسْرَائِيلِيُّون صَيَّادِي سَمَكٍ، وكانُوا كَثِيري ظُلْمٍ وَفِسْقٍ.

فشاء الله بإرادته الحكيمة أن يَخْتَبِرهم، هَلْ يَلْتَزِمُونَ بِحُرْمَةِ يَوْم السبت، الّذي يَحْرُمُ عليهم فيه أنْ يقومُوا بعمَلٍ ما مِنْ أعمال الدُّنيا، ومنها صَيْدُ السَّمَك أوْ بَيْعُه، أمْ هم يَعْصُونَ، ويَعْتَدُونَ، ويَتمرَّدُون، ولاَ يَسْتَجيبون لموعظة واعظٍ منهم؟؟

فجعل الله عزّ وجلّ حيتانَ الْبَحْرِ تَأْتي إلى قُرْب ساحِلِهم ظاهرةً وافرةً يَوْمَ السّبت، بخِلَافِ الأَيَّام الأخرىٰ، إذْ جعَلَها بِحِكْمتِه تَنْصَرِفُ إلى عُمْقِ الْبَحْرِ بعيداً عن ساحلهم.

فَصَعُبَ عليهم الالْتِزَامُ بحُرْمَةِ الصَّيْدِ يَوْمَ السَّبْت. إذْ وَجَدُوا الصَّيْدَ فِيه عَمَلاً مُرْبحاً، يُعْطِيهم صيْداً وَفيراً، فعَصَىٰ الكثيرون منهم، فَصَارُوا يَصْطَادُونَ الأَسْمَاكَ يَوْمَ السَّبْت.

فأسْرَع أهْلُ الطَّاعَةِ مِنْهُم فَنَهَوْهُمْ، فَلَمْ يَسْتجيبوا، فَشَدَّدُوا عَلَيْهِمُ النَّكِيرَ، فَتَمَادَوْا فِي غَيِّهِمْ، وَعَتَوْا وَظَلَمُوا وَفسَقُوا.

فَكَفَّ عَنْ مُتَابَعَةِ وَعْظِهِمْ فَرِيقٌ، إذْ يَئِسُوا من اسْتِجَابَتِهِمْ. وتابع فَرِيقٌ آخَرَ مَوْعِظَتَهُمْ، إذْ ما زالَ لدَيْهِم رَجاءٌ ما بأَنْ يَسْتَجِيبوا لهم.

وجرىٰ حِوارٌ بَيْنَ الفريقَيْن مِنْ أهْل الطّاعَة:

فقال الّذين كَفُّوا عَنْ مُتَابَعَةِ وَعَظِ المعتدين، وأمْرِهم بالْمَعْرُوف ونَهْيِهِمْ عن المنكر، للفريق الآخر الّذينَ مَا زَالُوا يُتَابِعُونَ إنْكَارَ المنكر والتحذيرَ من عقاب الله: لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً لَمْ يَسْتجيبوا لَكُمْ وَقَدْ وَصَلُوا إلى حالة مَيْؤُوسٍ منها، ولم يَبْقَ إلاّ أَنْ يُهْلِكَهُمُ اللَّهُ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ عَذاباً شَدِيداً.

فأَجَابَ الْفَرِيق المتابع: نُرِيد أن نُقَدِّم عُذْرَنَا إلى رَبِّنَا، بأَنّنا لَمْ نُقَصِّرْ

بما يجبُ علَيْنا من الأمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر والموعِظَةِ الحسنة. ولا يَزَال يُوجَدُ لدينا رجَاءٌ ما بأنْ يَسْتَجِيب بعضهم.

فلمَّا عَتَا العصاةُ مَسَخَهُمُ اللَّهُ قِرَدَةً، وأنزل بهم عذاباً أليماً شديداً مُوجعاً مُهِيناً.

وأنْجَىٰ اللَّهُ الّذِينَ كانُوا يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ مَنْ كَفَّ مِنْهُمْ، ومَنْ تَابع واعظاً، آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، وناصحاً.

التدبر التحليلي:

تمهيد:

هذا النصُّ مَدَنيُّ التنزيل، وقد نزل الوحيُ بضمه إلى سورة (الأعراف) الّتي هي من أواسِطِ التنزيل المكيّ.

والحكمة من هذا الإجراء مراعاة اقتضاءَيْن:

الاقتضاء الأول: أنّ سورة (الأعراف) المكيَّة تَشْتَمِلُ على أحداثٍ كثيرةٍ من أَحْدَاثِ بني إسرائيل، فالمناسبة الفكريَّةُ تَسْتَدْعِي ضَمَّهُ إليها.

الاقتضاء الثّاني: أنَّ المرحلَةَ المكيّة من تاريخ دعوةِ الرسُول محمّد ﷺ لم يكن فيها بين الرَّسُول وبين اليهود احتكاكٌ ما، لأنّ اليهود عند نُزُوحهم من بلاد الشام إلى داخل الجزيرة العربيّة اختاروا أن يسْتَوْطِنُوا «يَثْرِب» لأنّ صفاتها مطابقة لصفات البلد الذي سيظهر فيه النبيّ الأمّيُّ المبشَّرُ بِهِ في كُتُبِهم، وكانُوا يُحِبُّونَ أَنْ يكُونَ مِنْ بني إسرائيل.

وقد صُدِّرَ النّصّ بقول الله عزّ وجلّ لرسُوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ والمرادُ سُؤَالُ اليهود، وقَدْ كانَتْ للْيَهُودِ قبائِلُ ثلاثٌ في «يَثْرِبَ» ذات النخيل، وقدْ سمَّاها الرَّسُول ﷺ المدينَةَ بَعْدَ هجرته إليها، ولَمْ يَكُنْ لَهُمْ في مكَّةَ إقَامَةٌ ولا احتكاكٌ بالرَّسُول ولاَ بَدَعْوَته.

فكان من الحكمة تَأْخِيرُ إنْزَال النَّصّ إلى العهد المدني من تاريخ دعوة الرَّسول.

يُضَافُ إلى هٰذَا أنّ القصّة التي اشتمل عليها هذا النّصّ، ممَّا وَارَاهُ الْيَهُودُ عَنِ الأنظار، ولم يُدَوِّنُوهُ في كُتُبِهم المعلَنَة، لأنّها تشتملُ على مَسْخِ الْعُتاة المعتدين منهم في السبت قِرَدَةً، وهُمْ من آبائِهم الّذينَ يفْتخِرُون بهم، ويعتَبِرُونهم من أبناء اللّهِ وأحبائه.

وكان تصدير النّصّ بالأَمْرِ بُسؤالهم مقْصُوداً، إذ الْقَصْدُ إعلامُهم بأَنَّ القرآنَ تَنْزِيلٌ من لَدُنْ عليمٍ حكيمٍ خَبِيرٍ، فَهٰذِهِ القِصَةُ لا يَعْرِفُها غَيْرُ عُلَماءِ بني إسرائيل، وقد يكون عِلْمُهُمْ بِها معتمداً على الرّواياتِ الشفهيَّة فقط، وإذا كانت مُدوّنَةً فَهِي في كُتُبٍ يُخْفُونها ولا يُعْلِنُونَها، فلا يُمْكن الاطلاعُ عليها في مَكْتُوبَاتهم المعلَنَة.

ولا ضيْرَ أنْ لا يعْتَرِفُوا بوجُودها في تاريخهم عند سُؤالهم، إذْ يكْفي أنْ يُقيمَ اللّهُ جلّ جلالُهُ عليهم الحجّةَ بأنّ هذا القرآن تَنْزِيلٌ من لَدُنه، إذْ هم يَعْرِفُونَها ويكتُمُونها، والله يُحاسبُهم على مَا في قُلوبهم.

قولُ الله تعالى:

﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ...﴿١٦٣﴾﴾: هذا الخطاب مُوجَّهٌ أوّلاً للرّسُول محمّد ﷺ، فلِكُلِّ مَنْ يَهْتَمّ بِدَعْوَةِ اليهود إلى دين الله الخاتم.

القرية: تُطْلَقُ على كلّ مجمّع سَكَنِي ذي أَبْنِية ثابتة، سواءٌ أكَانَ صغيراً أم كبيراً، ولو بلغ مَدِينَةً عظْمَىٰ. وقد تُطْلَقُ على قُرىً متقاربَةٍ تمثّلُ في مجْمُوعِها وحْدَةً إدَارِيَّة كُقُرىٰ قَوْم لوط، وقرىٰ قوم شعيب عليهما السلام.

● ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾: يدلُّ هذا الوصفُ لهذه القرية على أنّها عند تنزيل القرآن قد اختلَفَ وَضْعُهَا عَمّا كانَتْ عليه اختلاف خرابٍ أو غيره، كانْحِسَارِ ماء الْبَحْر عنها.

قيل: هي «أيْلَة» أي: العقبة. وقيل: «طبرية». وقيل غير ذلك، واللَّهُ أعلم، وتَحْدِيدُها لا يَزِيدُ في العِبْرَةِ المقصُودَةِ شيئاً.

والمراد بكونها حاضَرةَ الْبَحر، كونُها قريبةً مِنْه، وقد تكون متَصلةً بساحله، فحاضِرُو المياه في اللّغة هم الكائِنُونَ قريباً منها، أو المشْرفُون عَلَيْها، أو المتصلون بها.

ويُراد بالسؤال عن القرية السؤال عن أهْلِها، وعن قصّتهم الّتي جَرَتْ لهم، إذْ كانُوا يَسْكُنُونها، فأحْدثوا فيها أحْدَاثاً انْتَهَتْ بمَسْخِ عُصَاتهم العتاةِ على أشكال الْقُرودِ.

إطلاق لفظ «القرية» وإرادةُ أهْلها مجازٌ مَشْهورٌ، وهو نوعٌ من أنواع المجاز المرسل، وهو هنا من إطلاق المحلّ وإرادة الحالّ فيه، أو هو من قبيل حَذْفِ المضاف وإقامَةِ المضافِ إليه مقامه.

● ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾:

﴿إِذْ﴾ ظَرْفِيَّة بمَعْنَىٰ «الْحِين».

﴿يَعْدُونَ﴾: أي: يَظْلِمُون، يُقالُ لغة: عَدَا يَعْدُو عَدْواً وَعُدُوّاً، أي: ظلَم.

وقد كان معظم أهل هٰذِهِ القرية يَعْدُون في السّبت، أي: يَظْلِمُونَ أنْفُسَهُم بمعصِيَةِ الله في انْتِهَاكِ حُرْمَةِ يَوْم السّبت، الّذي حَرَّمَ الله عليهم فِيه الأعْمَالَ الدُّنيويّة، وهُوَ من الإصْرِ الّذِي حَمّله الله عليهم بسَبَت ظُلْمِهم وعنادِهم وقَسْوَتِهم.

﴿فِي ٱلسَّبْتِ﴾: أي: في الْيَوْم المعْرُوف من الأسْبوع، بَعْدَ الجُمعَةِ وقَبْل الأحد.

فالمعنى: واسْأَلْهُمْ عن خبر أهل الْقَرْية الّتي كانَتْ قائمةً بقُرْب الْبَحْر،

حينَ كانُوا يَعْدون ظالمين أنفسهم بمعصِيَةِ اللَّهِ في الْعَمل والصَّيْدِ يَوْمَ السَّبْت، وكانُوا يُمَارِسُونَ هٰذِهِ المعصيةَ دواماً، بدَليلِ استعمال الفعل المضارع: ﴿يَعْدُونَ﴾.

فكلمةُ ﴿إِذْ﴾ ظرف للمسؤول عنه، والمسؤولُ عنهُ هُوَ خَبَرُهُمْ: وقصّتُهُمْ، وَمَا جَرَىٰ مِنهُمْ وعليهم. وهذه مُقَدَّراتٌ ذهْناً بين ﴿عَنِ﴾ وبين ﴿الْقَرْيَةِ﴾.

قول الله تعالى:

● ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ... ﴿١٦٣﴾﴾

أي: حين كانت تأتيهم حيتَانُ بَحرهم الذي تَقعُ قَرْيَتُهُمْ قَرِيباً مِنْه، يَوْمَ دُخُولِهِم في زَمَن السَّبَتِ ظاهرةً وافرةً.

يقال لغة: سَبَتَ يَسْبِتُ وَيَسْبُتُ، وأَسْبَتَ، أي: دَخَلَ في زَمَنِ يوم السبت، كما يُقال: أضحَىٰ، أي: دَخلَ في زَمَنِ الضُّحَى. وامْسَىٰ، أي: دخَلَ في زَمَنِ المساء.

﴿شُرَّعًا﴾: أي: مُقْبِلَةً نَحوَ ساحِلِهم تَدْخُلُ ماءَهُمْ، قَادِمَةً مِنْ غَمْرِ الْبَحْرِ إلى جانِبِهِ الضَّحْل. واللفظ منصوب على أنّه حال.

يُقَالُ لُغَةَ: حِيتانٌ شُرَّعٌ، أي: شَارِعَاتٌ مِنْ غَمْرَةِ الماءِ إِلَىٰ الْجُدِّ. وجُدُّ كُلّ شيءٍ جانِبه.

ويقال: دوابُّ شُرَّعٌ، إذا دخَلَتِ الماء.

والمرادَ دُخُولُ الحيتان إلى الماء القريب من ساحِلِ قَرْيَتِهم.

الْحُوت: السَّمَكَةُ صَغِيرة كانت أَمْ كبيرة، ويجمع لفظ «حُوتِ» على «حِيتان» و«أحوات».

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾: أي: وَيَوْمَ لاَ يَكُونُونَ داخلين في زَمَنِ السَّبْت من أيَّام الأسْبوع. أُطلق لفظ «يَوم» وأُريدَ بِهِ معنى «حين» أي: وحين يكونون في يومٍ آخَرَ غير يَوْم السَّبت ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ إلى قرب شاطِئِهم حيتَانُ بَحْرِهم.

وإضافَة الحيتان إليهم في عبارة: ﴿حِيتَانُهُمْ﴾ هي على تقدير: حيتانُ بَحْرِ قَرْيتهم، أو حِيتَانُ ابتلائهم وامْتِحانهم، فالإضافة تكْفِي فيها أَدْنَىٰ عَلاقَةٍ تَصِلُ الْمَضَاف بالْمُضَافِ إليه.

قولُ الله تعالى:

• ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾:

أي: كَذَٰلِكَ الامْتِحَانِ الشَّدِيدِ الَّذِي امْتَحَنَّاهُمْ بِهِ، إذْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِم الْعَمَلَ من أَعْمَال الدُّنيا يَوْمَ السَّبْتِ، ومنْهُ صَيْدُ الحيتان، قَدْ جَعَلْنَا الحيتانَ تَأْتِي إلَىٰ قُرْبِ سَاحِلِهم مِنْ غَمْرِ الْبَحْر يَوْمَ السَّبْت، وتَبْقَىٰ في غَمْرِ الْبَحْرِ بَعِيداً عَنْهُمْ سائِر الأيَّام، ونَحْنُ نُشَدِّدُ عَلَيْهِمُ الامْتِحانَ دَواماً بسَبَبِ ما كانُوا يَفْسُقُونَ دواماً، فَيَخْرُجُونَ عَن حَدَائِقِ الطاعَةِ إلى أَوْحال المعصية، وبَعْد الامْتحَانِ الشَّدِيد على نُفُوسِهِمْ، يَعْدُون ويَتمرَّدُون حتَّىٰ يَصِلُوا إلى دَرَكَةِ الْعُتُوّ، وهو الطغيان باستكبارٍ وعِنَادٍ، وعِنْدئذٍ يَسْتَحقُّون الْعِقَابَ الشّدِيدَ الذي يناسِبُ عُتُوَّهُمْ وطغيانهم، واسْتكبارَهُمْ وعنادهم، وإصرارهم على معصية بارئهم.

وهذه الشِّدَّةُ في الامْتِحان قد كانت خاصَّةً بِبَنِي إسْرَائيلَ، لتعاظُم شُرُورِهم، وتَمَرُّدِهم على أَنبيائِهم، وعلى بارِئِهِمْ جلَّ جَلاَلُهُ وعظُمَ سلطانه.

الْبَلَاء والابْتِلَاءِ في اللّغة: الامْتِحانُ لكشفِ حالِ الممتَحَنِين.

قول الله تعالى:

● ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ظرفُ زمانٍ معطوفٌ على مِثْلِه في الآية السَّابقة.

﴿أُمَّةٌ﴾: لفظ «أُمَّة» يُطْلقُ على مجموعةٍ من النَّاس تَجْمَعُها وحْدَةٌ جامعة. وكانَ إبراهيم عليه السّلامُ في بداية أَمْرِهِ في قومه أُمَّةً وحْدَه.

﴿تَعِظُونَ﴾: أي: تنصَحُونَ نُصْحاً مَقْرُوناً بِمَا يُثِير الرغبة والرَّهْبَةَ في النفس، للانتفاع بالنُّصح، واتّباعِ ما هَدَىٰ إِلَيْهِ من فعل أو ترك.

قال ابْنُ سِيدَة: **الوعْظُ**: هو تَذْكِيرُكَ للإنسانِ بما يُلَيِّنُ قَلْبَهُ من ثوابٍ وعقابٍ.

﴿قَوْمًا﴾: القَوْمُ: جَماعَةٌ من النَّاسِ تَجْمَعُهم جامعةٌ ما يَقُومُون بها.

﴿مُهْلِكُهُمْ﴾: أي: مِنْزِلٌ بهم عذاباً يُميتُهم ويَسْتَأْصِلُهُمْ به.

﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: أي: عقوبةً لهم دون إماتَةٍ واسْتئصالٍ.

﴿مَعْذِرَةً﴾: أي: لأجل أن نَرْفَعَ اللَّوْمَ عَنْ أنفُسِنَا عنْدَ رَبّنا، بأننا لم نُقَصِّرْ بواجب النصح والوعظ والنَّهي عن المنكر.

يقال لغة: عَذَرَ فُلانٌ فُلاناً فيما صَنَع، ممّا كان ينبغي أن لا يَفْعَلَه، أو أن لا يَتْرُكه: عُذْراً، ومَعْذِرَةً، أي: رفع عَنْه اللَّوْم فِيه، إذْ رَأى له حُجَّةً مقْبُولةً.

هذه الآية دَلَّتْ بصريح العبارة، وبَدَلالاتها اللُّزوميَّةِ الذِّهنيَّةِ، على أن أهل هذه القريَةِ المتحدَّثِ عَنها في النصّ، قد كان فيهم عُصَاةٌ متمرّدُونَ يَعْدُونَ في السَّبْتِ ظالمين متجاوزين حُدُودَ الله بُجرْأةٍ ووقاحَة. وكانَ فيهم صالحون، يَنْهَوْنَ عَنِ المنكرِ، ويَعِظُونَ الْعُصَاة.

واستَمَرَّ النَّاصِحُونَ النَّاهون عَنِ المنكرِ يُوَجّهون مواعِظَهُمْ لِلْعُصَاة

مُدَّةً من الزَّمَن، دون أن يَجِدُوا لمواعظِهم أثراً في العصاة الفاسقين، الأمر الّذي جعل فريقاً من هؤلاء الواعظين الناهين عن المنكر، يَشْعُرُونَ باليأسِ من استجابَةِ الْعُصَاةِ المتمرّدين، والإقلاع عن مَعَاصِيهم المتواطئين عليها، حتَّىٰ أيْقَنُوا بأنّ اللّهَ عزَّ وجلّ سَيُهْلِكُهُمْ بعذابٍ يُمِيتُهُمْ فيه ويَسْتَأْصِلُهم، أو يُعَذّبُهم عذاباً شديداً دُونَ أنْ يُميتَهم ويَسْتَأْصِلَهُم، فَكَفُّوا عَنهُم واعْتَزَلُوهم.

لكنَّ الفريق الآخر من هؤلاء الواعظين الناهين عن المنكر، لَمْ يكُفُّوا عَنْ مُتَابعة ما هم فيه من نَهْي عن المنكر مَقْرُونٍ بالترهيب مِنْ عذاب الله ونِقْمَته.

لقد اجْتَهد الفريق الأول، فرأَوْا أَنَّ الْعُصَاة قَدْ وَصَلُوا إلَىٰ حالَةٍ مَيْؤُوسٍ منها، فلا جَدْوَىٰ من مُتَابعة مَوْعِظَتِهم.

واجْتَهَدَ الفريق الآخر، فرأَوْا أَنّهُم ما زال لدَيْهم بَقِيَّةُ رَجَاءٍ في أنْ يَسْتَجِيبَ ولَوْ بَعْضُ الْعُصَاةِ لمواعظهم، ورأوا أنّهم لَمْ يَسْتَنْفِذُوا كُلَّ وَسَائِلِهم الإصلاحية بَعْدُ، فإذا تَوَقَّفُوا عَنْ مُتَابَعَةِ النَّهْي عن المنكر المقرونِ بالموعظة الحسنة، مع وُجود بقِيَّةِ وسائلَ لَمْ يَسْتَخْدِمُوها بَعْدُ، فقَدْ يكونُونَ مَسْؤُولين عند اللّهِ عن التّقْصير في اسْتِخدامها، ولا سِيما لَمْ يَنْقِطِعْ كُلُّ رَجَائِهم.

وجَرَىٰ حِوارٌ بين الفريقين:

قال الفريق الأوّل الذي يَئِسَ فَانْقَطَع، للْفَرِيق الآخرِ الْمُتَابع: لِمَ تَعْظُونَ قَوْماً وَصَلُوا إلَىٰ حَالَةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْهَا، والعقوبَةُ المتوقَّعَةُ بالنِّسْبَةِ إليْهم، أَنْ يُهلكَهُمْ اللّهُ فَيُميتَهم بعذاب، أو أن يُعَذِّبَهُمْ عَذاباً شديداً دُون إماتَةٍ واستئصال؟!

قال الفريق الآخر: نَحْنُ لاَ نَرَىٰ رَأْيَكُمْ، بل ما زالَتْ لدَيْنا وسائل لم

نَسْتَخْدِمْهَا بَعْدُ، ويجبُ علينا أَنْ نَسْتَخْدِمَهَا حَتَّىٰ نُقَدِّمَ عُذْرَنَا إلى رَبّنا، فيَرْفَعَ الملامَ عَنَّا، وما زَالَ لدَينا بَعْضُ رَجَاءٍ باستجابة بَعْضِهم، وَإِنَّنا لَمْ نَصِلْ إلى مَرْحلة اليأسِ الكامل.

دلَّ على الشّق الأول من الجواب، عبارة: ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾: أي: نُتابع تَقْدِيم ما نُقَدّم من وسائل إصلاح ونَهْي عن المنكر وترهيب من عذاب اللَّهِ ونقمته، لأجْلِ رَفْعِ اللَّوْم عن أنْفسنا عند اللَّهِ، بأننا لَمْ نَأْلُ جَهْداً في مَوْعَظَتِهِم، ونَهْيِهِمْ عن المنكر الذي يَعْصُونَ اللَّهَ به دواماً.

ودلَّ على الشّق الآخَرِ من الجواب، عبارة: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: فهذه العبارة تُشْعِرُ بأنَّهم يَرَوْن أنّ الرَّجاء لَمْ يَنْقَطِعْ بَعْدُ، بَلْ ما زال بَعْضُ رَجاء باستجَابَةِ بَعْضِهم، وأنّ العصاةَ لم يَصِلُوا من وِجْهَةِ نَظَرِهِمْ إلى مَرْحَلَةِ اليأسِ الكامل، على خلاف ما يَرَىٰ الفريق الأول.

فكَلِمَةُ «لَعَلَّ» تُسْتَعْمَلُ في الأمْرِ المرجُوّ، ولو بوَجْهٍ ما، وبِنِسْبَةٍ ضئيلة.

لكِنَّ رَأْيَ الْفَرِيق الأوَّلِ هو الّذِي أَيَّدَه الواقع.

❋ ❋ ❋

قولُ الله تعالى:

● ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾: أي: فلمَّا تَرَكَ الْعُصاةُ الْعَمَل بمَا ذُكِّرُوا بهِ مِنْ قِبَلِ الَّذِينَ كَانُوا يَعِظُونَهُم، وأعْرَضُوا عَنْ التَّذكير، غَيْرَ مُكْتَرِثين لَه، وَلاَ عَابئين به، حتَّىٰ لم يَبْقَ لمّا ذُكِّرُوا به وُجُودٌ في ذَاكِراتهم العامِلَات في سَاحَةِ تَصَوُّراتِهم الموجِّهاتِ لسلوكهم.

عندئذٍ كان من الحكمة أن نُجْرِيَ فيهم سُنَّة العِقَاب الّتي أَجْرَيْنَاهَا في الأُمَم مِنْ قبلهم، وأَنْ نُنْجِيَ أَهْلَ الطّاعَةِ مِنْهم، الّذِين كَانُوا يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ، ولا يَرْضَوْنَ بارْتِكاب المعاصي.

وتنفيذاً لهذه السنة الّتي اقتضتها الحكمة السَّنِية:

- ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾:

أي: أَنْجَيْنَا مِنَ العقابِ الَّذِينَ كَانُوا يَنْهَوْنَ المعْتِدَين في السَّبْتِ عن السُّوءِ الّذِي كانُوا يفْعَلُونه، ويَلْزَم ذِهْناً أَنَّ هؤلاء الواعظين كانُوا لا يَفْعَلُونَ مَا كانُوا يَنْهَونَ عنه، لأَنَّ معصيةَ الظالمين كانت من المعاصي الظاهرة، وهي صَيْدُهُمُ الحيتانَ يوم السَّبْت.

والّذِين كانُوا يَنْهَوْنَ عن السُّوءِ وأَنْجَاهُمُ الله عزّ وجلّ هُمُ الْفَرِيقان:

- الّذِين اجتهدوا فرأَوْا أن القوم ميئوس من استجابتهم عن طريق إراداتهم الحرَّةِ.

- والذين اجتَهدُوا فرأوا أَنّ القوم لم يَصِلُوا إلىٰ مَرْحَلَةٍ ميئوسٍ منها.

وفي الوقت الّذي أنجَيْنا فيه الّذين كانُوا يَنْهَنوْن عن السُّوء، أَخَذْنَا الّذينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بسبب ما كانُوا يَفْسُقون.

﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾:

أَخْذُهم بالعذاب، يُرادُ به القبضُ عليهم بالأسباب والوسائل الّتِي تُنْزِلُ بهم العذاب، وتجعلهم يشعُرُونَ بألاَم عقاب اللّهِ لهم، على تماديهم في ظلمهم، والمرادُ بالّذينَ ظَلَمُوا الّذِين كانُوا يَعْدُونَ في السَّبْت.

ولَمْ يُرَدْ هُنا إهلاكُهُمْ، إذْ جَاء في البيان بَعْدَ هذا أَنَّهم بعْدَ أَخْذِهم بعذابٍ بَئِيسٍ عَتَوْا عَمَّا نُهوا عَنْهُ، فالمرادُ أَنّ الله أنزل بهم البأساء والضّرَّاء

لعَلَّهم يتَضَرَّعُونَ ويَتُوبُون، إجراءً لسُنَّتِه الَّتي أبانها في الآية (٩٨) من هٰذه السورة.

﴿بَئِيسٍ﴾: أي: شديد، يقال لغة: بَؤُسَ يَبْؤُسُ بَأساً، وبَأْسَةً، وبَآسَة، أي: قَوِيَ واشْتَدَّ، فهو «بَئِيسٌ» أي: قويٌّ شديد.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: أي: بسَبَبِ مُواظبَتِهم المتكرّرة عَلَىٰ فِسْقهم. دَلَّ الفعل المضارع على أنّ الفسْق كان دَيْدَنهم وعادةً من عاداتهم المتكرّرة فيهم.

الفِسْقُ: العَصْيَانُ والخروج عن طاعة الله عزّ وجل، بفعل ما نهى عنه، أو بتَرْكِ ما أَمَرَ به.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

● ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾:

﴿فَلَمَّا﴾ «الفاء» لبيان ترتُّب العقاب على العتوّ. «لَمَّا» حينِيَّةٌ تختصُّ بالماضي.

﴿وَعَتَوْا﴾: أي: تجاوَزُوا حُدُود المعاصي الَّتي يَتَّسِعُ لها الإمْهَال، وتتَّسِعُ لها ظِلَالُ الغفران والعفو.

الْعُتُوّ: تجاوُز الحدّ والاستكبار والتجبُّر. **والعاتي**: هُوَ الجبّارُ، والشديدُ الدُّخول في الفساد، والمتمرِّدُ الذي لا يَقْبَلُ موعِظَةً ولا نَصيحةً.

● ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾: فعلُ «عَتَىٰ» لا يَتعدَّىٰ، فاقتضىٰ المعنى تضمينَه معنى فعل آخر. والملائم أنْ نُقَدّر معنى فعل: «اسْتَنْكف» فتكونُ العبارة على تقدير:

فلَمَّا عَتَوْا مُسْتَنْكفين عن طاعة الله بتَرْكِ ما نُهوا عَنْهُ، من الْعُدْوَان عَلَىٰ

حُرْمَةِ يوم السبت، الذي فَرَضَ اللَّهُ عليهم فيه تَرْكَ الأعمال الدنيويَّة، واسْتَمرُّوا مُتَمَادِين في معصيةِ بَارِئهم.

● ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾: أي: قُلْنَا لَهُمْ بأمْرٍ تَكْوِيني: كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ، فكَانُوا كَذَلِكَ بهذا الأمْرِ التكوينيّ الرَّبَّاني، لأنّ أوامِرَ التّكْوِينِ الّتِي يأمُرُ اللَّهُ بها نَافِذَةٌ لا محالةَ عَقِب الأمْر. كما قال تَعالى في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿خَـٰسِـِٔينَ﴾: أي: أَذِلاَّءَ مَطْرُودين مُبْعَدِين. **الخاسِئ**: هو الذَّلِيلُ المطرودُ المبْعَدُ.

فمسخ اللَّهُ صُورَ أجسادهم فجَعَلَهَا على صُور أجْسَادِ القُرودِ، وجَعَلَهُمْ خَاسِئين، أَذِلاء مطْرُودين مُبْعَدِين.

وخاطب الله عزّ وجلّ بني إسرائيل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧) بقوله لهم:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

أي: فجعَلْنَا العُقوبة الّتي أنْزَلْنَاها بهذه الأمّةِ عُقوبةً رَادِعَةً لأُمَمٍ مُعاصِرَة تَقَعُ بَيْنَ يَدَيْهَا في قراها، حتَّى لا تتمادىٰ مِثْلَها في غَيّها وعِصْيَانها، وللأُمَم الّتي سَتَأتي مُسْتقبلاً من أُمم بني إسرائيل.

النّكال: العقاب الشّدِيد الرادع لِلْوَاقِعِينَ في العصيان، أوْ تَدْفَعهُم نُفُوسهم بقوَّةٍ للعصيانِ.

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾: مَا بَيْنَ يَدَي الناس يُطْلَقُ على الماضي الغابر، وعلى الحاضر المعاصر، لأنه هو الذي يمكن أنْ يَشْهَدُوه.

﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾: أي: وما سيأتي مستقبلاً، فالمستَقْبَل بالنسبةِ إلى الناس هُو خلْفَهُمْ، لأنَّهم لاَ يَشْهَدُونه، فهو كالشيء الواقع خلْفَهم.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: أي: ودافعاً للالتزام بالتقوى والمحافظة عليها، بالنسبَةِ إلى الذين يتَّقُونَ عقاب الله في سلوكهم، ويرجون ثوابه.

وخاطب الله عزّ وجلّ أيضاً بني إسرائيل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بقوله جلّ جلاله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧)﴾.

فأنذرهم الله بطَمْسِ وُجوههم ومَحْوِ حَوَاسِّهِم فيها، وبرَدِّها على أدبارهم، أو بلَعْنِهم كما لَعَنَ أصحاب السبت الذين مسخهم قِرَدَةً، وجعَلَهُمْ خاسِئين.



الفقرة الحادية عشرة
إعلامُ اللّهِ بني إسرائيل بأنه سيَبْعَثُ عليهم إلى يَوْمِ الْقِيامة من يَسُومُهُم سُوءَ العذاب مع بيان تقطيعهم في الأرض أُمَما وَبَيان واقع حالهم الديني

وهي الآيات من (١٦٧ ـ ١٧٠) وهذه الآيات مدنية التنزيل مضمومة بالوحي إلى موضعها من سورة (الأعراف) المكية لمراعاة اقتضاءين: المناسبة الفكرية، والحكمة التنزيليّة في العهد المدنيّ حيث ظهر الاحتكاك مع اليهود.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ

مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

القراءات:

(١٦٩) ● قرأ رُويس: [وَإِنْ يَأْتِهُمْ] بضمّ هاء الضمير.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ ﴾ بكَسْرِ هاء الضمير. والقراءتان وجهان عربيّان في النّطق.

(١٦٩) ● قرأ نافع، وابْنُ عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بتاء المخاطبين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ بياء الغائبين. وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني، خطاباً لبني إسرائيل، وحديثاً عنهم.

(١٧٠) ● قرأ شُعْبَة: [يُمْسِكُونَ] مِنْ فعل: «أَمْسك يُمْسِكُ».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿يُمَسِّكُونَ ﴾ من فعل: «مَسَّكَ يُمَسِّكُ» المضعف.

يُقال لغة: مَسَكَ بالشيءِ، وأمْسَكَ، ومَسَّكَ. أي: أخذ به، وتعلّق واعْتَصم.

فالقراءتان متكافئتان لغة. وقد يكون في فعل «مَسَّكَ» المضَعَّف معنى شِدَّة التعلّق والاعتصام، فيكون بين القراءة تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، إذْ بَعْضُ المصْلِحين يُمْسِكُونَ بالكتاب إمْساكاً عاديًا دُونَ شِدّة، وبعضهم يُمَسِّكُ بِهِ بشِدَّةٍ وَقُوَّة.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧)﴾.

تمهيد:

هٰذه الآية من التنزيل المدنيّ، ضُمَّتْ إلى سورة (الأعراف) المكيّة لمراعاة اقتضاءَيْن: المناسبة الفكريَّة الّتي استدعَتْ ضمَّهُ إلى سورة (الأعراف). والحكمة في تأخير التنزيل إلى العهد المدني، حيث ظهر فيه احتكاك اليهود بالرَّسُولِ محمد ﷺ والمؤمنين.

وقد عَلِم الله عزّ وجلّ أنَّ بني إسرائيل سَيَسْتَمِرُّون فاسِدِين مُفْسِدين في الأرض، بَعْدَ أنْ فَضَّلَهُمْ على العالَمِين في عهد موسَىٰ عليه السَّلام، وربّما بَعْدَهُ في بعض عُهُودِ تاريخهم القديم، فأفسَدُوا في الأَرض، وفَسَقُوا فعاقَبَهُم الله عزّ وجل عقُوبَاتِ تأديبٍ وتَرْبية، إِذْ أخَذَهُمْ بالبأسَاء والضرَّاء، لعلّهم يتضرَّعُون إلى بارئهم، ولعلّهم يُقْلِعُونَ عن غَيِّهِمْ وَإِفْسَادِهِم في الأرض، فلم يَرْتَدِعُوا، فزادهم من العقوبات، ومَسَخَ بعْضَ عُتاتهم، فجَعَلَهُمْ عَلَىٰ أَشْكالِ الْقُرودِ، فَلَمْ تَتَعِظْ سُلالاَتُهم، وكانوا يَنْتَحِلُون لكلّ عُقُوبَةٍ تفسيراتٍ جانبِيَّةً، لا تتَّصِلُ بحقيقَةِ ما هم فيه من ظُلْم وعَتُوّ وإفسادِ في الأرض، واستكْبَارٍ واسْتِعْلاَءٍ عَلَىٰ سائر عبادِ الله، بأَنَّهُمْ سُلالَةُ الأنبياء، وأبناءُ اللّهِ وأحبَّاؤه، فمزَّقَ اللّهُ دَوْلَتَهُمْ الّتي لم تَدُم في مقاييسِ تاريخ الدُّوَلِ إلاَّ قَليلاً، فزادُوا فِسْقاً وفجوراً، واتَّخذَ كثيرٌ مِنهُمُ الأَوْثان، فَعَبَدُوها من دون الله، تأَثُراً بالشُعُوب والأقوام الوثنيَّة الّتي كانت مَعَهُمْ، أَوْ مُجاوِرَةً لهم، وبَدَلَ أن يكُونوا حُمَاةً لِدِين اللّهِ الحقّ، صاروا دُعاةَ سِحْرٍ وكُفْرٍ بالله، واستِخْدَامٍ للشياطين من الجنّ.

فَسَلَّطَ اللَّهُ عليهم من الأُمَمِ الْقَوِيَّةِ حَوْلَهُمْ من أَكْثَرُوا فيهم الْقَتْلَ والسَّبْيَ والإذْلاَلَ، وَسَاقُوهم عبيداً. فَلَمْ يَرْجِعُوا إلى صراطِ الله المستقيم، إلاّ أَفراداً قليلين مِنهم، لا يُمثِّلونَ قوَّةً راعيَةً ضَابطة لهُمْ عن الانحراف، وصارَ دَيْدَنُهم التعصُّب لما أَدْخَلُوهُ في دين اللَّهِ من تَحْرِيفاتٍ وضَلاَلاَتٍ بحَسَبِ أهوائهم، وصار دأْبُهم أن يقْتُلوا مَنْ يُخَالِفُهُمْ في ذَلِكَ مِنهم، ولَوْ كَانَ من أَنْبِيائِهِمْ، فقَتَلُوا عَدداً من النبيِّينَ منهم، واسْتَصْدَرُوا لِأَنْفُسِهم في ذلك فتاوىٰ زَعَمُوا أَنَّها فتاوَىٰ دينيَّة، وهٰذه الفتاوىٰ تَسْمَحُ لَهُمْ بأنْ يقْتُلُوا النبيَّ بَعْدَ إنْكارِهِمْ نُبُوَّته، قائلِين: لأَنْ يَمُوتَ رَجُلٌ واحِدٌ، خَيْرٌ من أَنْ يَتَعَرَّضَ شَعْبُ بَنِي إسرائيلَ كُلُّهُ لتغيير مفْهُومَاتِه المَوْرُوثَة، وهِي في الحقِيقَةِ التَّحْرِيفَاتُ الّتي اسْتَحْدَثُوها في دِينِ الله.

لذلك كُلِّه قَضَىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ بحِكْمَتِه السَّنِيَّة، أَنْ يَبْعَثَ عليهم إلَىٰ يَوْم القيامة من يَسُومُهُمْ سُوءَ العذاب، وأعْلَمَهُمْ بقضائه هذا، وأكَدَّهُ فيما أَوْحَىٰ به إلى طائفة من أنبيائه ورُسُله.

وهدَّدَ بقضائه هذا بَنِي إسْرَائيل بأَنَّهُ سَيُنْزِلُ بِهِمْ هذا القضاء كلَّما أَكْثَرُوا في الأرض الفساد.

التدبّر:

● ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾: هٰذهِ العبارة معطوفة على ما جاء قبلها في السُّورة، وهو قولُ الله: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ . . .﴾: أي: واسْأَلْهُمْ عَنْ قَضَاءِ اللَّهِ بشَأْنِهِمْ إذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ. . . إلى آخر البيان.

أو هي مُسْتَأْنفة، والمعنى: وَضَعْ في ذاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي أيّا كُنْتَ إذْ تَأَذَّنَ رَبك. . . إلى آخر البيان.

﴿تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾: أيْ: أَعْلَمَ مُؤَكِّداً، وَنَادَىٰ مُهدِّداً فيما أَوْحَىٰ لبَعْضِ أنبياء بَنِي إسْرَائيل، وَأَقْسَمَ في إعْلامه.

يقال لغة: تأذَّنَ فُلاَنٌ: أي: أعْلَم وأقسم، ونَادَى في الناس بتهديدٍ وَوَعِيدٍ، مُنْذِراً بشَرٍّ.

• ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ...﴾: اللاّمُ واقعةٌ في جواب قَسَمٍ مَنْوِيّ، أي: وإذْ أعْلَمَ رَبُّكَ مُؤكِّداً مُقْسِماً، لَيَبْعَثَنَّ علىٰ أَجْيَالِ بَنِي إسرائيل.

• ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ...﴾: أي: إلى يَوْمِ إنْهَاءِ رِحْلَةِ امْتِحَانِ النَّاسِ في الحياة الدنيا ﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾: أي: مَنْ يُجَشِّمُهُمْ، ويُحَمِّلُهم، ويُكَلِّفُهُمْ ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

يقال لغة: سامَهُ الأمْرَ، أي: كلَّفَهُ إيّاه، وأَوْلاَهُ إيَّاهُ، أَوْ حَمَّلَهُ إيَّاه. **والسَّوْمُ**: يأتي في اللُّغة بمعنى أنْ تُجَشِّمَ إنساناً مشقَّةً، أَوْ سُوءاً، أو ظُلْماً، أي: أن تُحَمِّلَهُ ذَلِكَ وهو عاجِزٌ عن المخالفة.

وسُوءُ العَذَاب: هو أَشَدّ العذاب وأكثَرُهُ مَشَقَّةً، وهو من إضافة الصفة إلى الموصُوف، وأصْلُ الكلام: العذاب السُّوء.

السُّوء: كلُّ ما يقبُح ويَغُمُّ الإنسان، وهو اسْمٌ جامعٌ لمختلفِ الآفات.

ودلَّت عبارة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ...﴾ على أَنَّ هٰذهِ السُّلاَلَة اليهوديَّة ستبقَىٰ منهُمْ أجْيَالٌ في الناس ما دام في الحياة الدّنيا بشَرٌ، وهؤلاء الأجيال يُفْسِدُونَ في الأرض، ويظْلِمُونَ، ويَبْتَلِي بهِمُ اللَّهُ الأمَمَ شياطِينَ أخْبَاثاً، كما ابْتَلَىٰ النَّاسَ بإبليس وجُنُودِهِ من الإنْسِ والجنّ.

وكُلَّمَا كثُرَ ظُلْمُهم وإفسادُهم، وانْتَشَرَتْ في النّاسِ خَبَائِثُهُمْ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ العذابِ، ويُعِيدُهم إِلَىٰ وضْعِهِمُ الَّذي قَضَىٰ عليهم فيه بأنْ يكونوا في حالَةِ ذِلَّةٍ ومَسْكَنَةٍ، تحقيقاً لقوله تعالى بشأنِهِمْ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ

بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

لكِنْ من تَرَكَ الملَّةَ مِنهُمْ وابْتعدَ عَنْ خَبائِثِهِمْ فَإنَّهُ يُنْجي نَفْسَه من هٰذِهِ الْعُقُوبَة الرَّبَّانِيَّة المعْتَادة، والَّتي تأتي لبني إسْرَائيل حيناً فحيناً كُلَّما ظَلَمُوا وَأَفْسَدُوا في الأَرْضِ، وتَجَبَّرُوا وطَغَوْا وَبَغَوْا.

وتَـدُلُّ عـبـارة: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ ...﴾ بمفهومها العامّ على أنَّ هٰذا البعثَ يَكُونُ عَقِبَ قِيَامِهم بإفْسَادٍ في الأرضِ، وتَمَادٍ في الشرِّ إلى حَدٍّ لَيْسَ من الحكمة معَهُ الإمْهَال، وتأخير العقاب، فيكون عقابُهُمْ بأنْ يُسَلِّطَ اللَّهُ علَيْهم مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ العذاب.

● ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ ...﴾: مـن سُـنَّـة الـلَّـهِ فـي عـبـاده الإمْهال، فالمرادُ بِسُرْعَةِ العقاب ـ والله أعلم ـ إنْزَالُهُ سَرِيعاً بِهِمْ بَعْدَ تفاقُم شُرورهم، واقتضاء الحكمة مُعَاقَبتهم، فإذْا قَضَىٰ الله العقابَ أنزلَهُ بسُرْعَة، والمعاقَبُون غافِلُون غَيْرُ مُتَرَقِّبينَ إنْزَالَهُ فيهم.

● ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ هذه العبارة تُعْطِي بني إسرائيل على تتابُعِ أجيالهم أمَلاً بأنَّهم إذا آمَنُوا بمحمَّدٍ وَمَا أنزل الله عليه، واستقامُوا، وأصْلَحُوا، ولم يَقُومُوا بما يقْتَضِي عِقَابَهُمْ، فإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يَرْفَعُ عَنْهُمْ تَسْلِيطَ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ العذاب، فالنصّ بجملته ودلالاته العامَّة يَدُلُّ على أنَّ هذا التسليط يكونُ عقاباً لهم على ما يكونُ مِنهُمْ من مُقْتَضِيَاتٍ له، فإذا لَمْ يُوجَدْ هذا المقتضي لم يُسَلِّطِ اللَّهُ عليهم من يَسُومُهُمْ سوء العذاب، كما كان حالُهُمْ في ظِلِّ الدَّوْلة المسلمة إذْ كانُوا أَهْلَ ذِمَّة.

وجاءت هٰذِه العبارة مؤكَّدَة بِـ«إنَّ ـ والجملة الإسمية ـ واللام المزحلقة».

غَفُور: أي: كثير المغفرة وعظيمُها، إذْ صيغة «فَعُول» من صيغ المبالغة والتكثير. **المغفرة**: سَتْرُ الذنوب الذي يستلزم عدم المؤاخذة عليها.

رَحِيم: أي: كثير الرَّحْمَة وعظيمها، إذْ صيغة «فَعِيل» من صيغ المبالغة والتكثير. **الرحمة**: صفة نفسية من صفات الله عزّ وجل نُثْبِتُها له على ما يلَيق بجَلاَلِه، ومن آثارها العطاء والمعونة والتوفيق والغُفْران.

وأغْلَبُ أحْوالِ اليهود إذا لم يُسْلِمُوا ويَدْخُلوا في دين اللّهِ الحقّ، أن يكونُوا كما قال الله عزّ وجلّ بشَأْنهم في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

أي: ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ صِفَةُ الهَزِيمَةِ والضَّعْفِ والْهَوَانِ والْخُضُوعِ في أيّ مَكَان ظُفِرَ بهِمْ فيه.

يُقَالُ لغة: ثَقِفَهُ، أي: ظَفِرَ به.

ومعنى ضَرْب الذِّلَّةِ والمسكنة عليهم، طَبْعُها عليهم، كَما تُطْبَعُ النُّقُودُ بِضَرْبِ الْقَوالِب المنقُوشَةِ عليها، فَتظْهَرُ صُورَة النَّقْشِ الّتِي على القالب فيها.

والمراد أنَّ الذِّلَّةَ والمسكَنَة تُلازِمانِهِمْ غالباً.



قول الله تعالى:

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾:

هذا النصّ من توابع الآيات المدنية المضمومة بالوحي إلى سورة مكية، لمراعاة اقتضاءَيْن: أَحَدُهُما الداعي الزمانيّ إذ اقتضت الحكمة تأخير الإنزال إلى العهد المدني من تاريخ دعوة الرسول ﷺ، والآخر الداعي

الفكري الَّذِي اقتضىٰ ضَمَّها إلى سورة مكية، إذْ فيها مقدارٌ وفير من أخبار بني إسرائيل.

وهذا النصّ يبيّن أحوال بني إسرائيل مُنْذُ التَّشْتِيت الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ عليهم، بسبب ذُنُوبهم وفجورِهم، وإراقتهم الدّماءَ بغير حقٍّ، وعبادتهم أوثان الأُمَم الوثنيَّة المشركة التي اخْتَلَطُوا بها، مسالِمِينَ أو مُحَارِبِين، حتَّىٰ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بالرّسَالة الخاتمة، وإيمان من آمَنَ مِنْهُمْ به، واتّباعهم الكتاب الّذي أُنْزِلَ عليه، وإقامَتِهِمْ الصَّلاة مَعَ المسلِمِين، وحتَّىٰ كُفْرِ مَنْ كَفَرَ منهم.

وهذه الآيَةُ تبيّنُ التَّشْتِيتَ الّذي ضَرَبَهُ اللَّهُ على بَنِي إسرائيل، وقَدْ كان تقطيعُهُمْ في الأرض عُقُوبَةً لهم، إذْ لم يَصْلُحُوا لَحَمْلِ رِسالَةِ الرَّبّ للنّاس، ولا للمحافظة عليها والالتزام بها، بل أرَادُوا استثمارهَا لأنانيَّاتِهِمُ الخاصَّة، وأرادُوا احتكارَ الرَّبِّ لأنفسهم، مع عدم الالتزام بشرائعه وتكاليفه، وادَّعَوْا أنَّ الرَّبّ اصطفاهُمْ وأحَبَّهُمْ لذاتِ سُلالَتِهم، لا لِحَمْلِ رِسالَتِه، عملاً بها، ونَشْراً لها، ولا لإعْلاَءِ كَلِمَةِ اللَّهِ في الأرض.

فسَلّطَ اللَّهُ عليهم من سَفَك منهُمْ دِماءً كثيرةً، وسبَاهُمْ، وطَرَدهُمْ من الأرض المقدّسة، من الأُمَم الوثنية منْ حَوْلهم، إذْ لَمْ يَرْعَوْا شريعَةَ اللَّهِ، ولا أقاموها كَمَا فرضَ عليهم، مع ادّعَائهم كِذباً وزوراً أنّهم مُنْتَمُونَ إلَيْها وقد حَرَّفُوها وغَيَّرُوا وَبَدَّلُوا فيها.

فَمِنْهُمْ مَنْ نُقِلَ إلى بَعْضِ أَرْض التَّشْتِيت بالْقَهْر والإكْرَاه، عَنْ طريق الطَّرْدِ أو السَّبْي: ومنهم من فرُّوا بأنْفُسِهم خَوْفاً، إذْ لم يَجِدُوا في البقاء في الأرض المقدَّسة من بلاد الشَّام الأمْنَ الَّذِي يُحبُّونه.

وحِينَ تَشتَّتُوا في الأرضِ شَرْقِها وغَرْبها وجَنُوبها وشمالها، كانُوا على درجاتٍ مختلفات، فكان بعضُهُمْ صالحين، وهؤلاَء قِلّه، وكانَ أكْثَرُهُمْ دُونَ ذَلِكَ تَنَازُلاً في الدَّرَجاتِ فالدَّرَكات، حتَّىٰ دَرَكَةِ الْفُجَّارِ والكُفَّارِ من أهل الأوثان.

ولمَّا تَقَطَّعُوا في الأرض كوَّنُوا في مواقِعِهم المشَتَّتَةِ أُمماً، كلُّ قِسْمٍ مِنهُمْ كَوَّنَ أمَّةً مُجْتَمِعةً إسرائيليّة، لم تَذُبْ في الأمَمِ التي دخَلُوا فيها، وعَاشُوا بيْنَها، وهذا ما يُثْبِتُه تاريخهم حتَّىٰ واقِعِهم المعاصر.

ونَوَّعَ اللَّهُ لَهُمْ وهُمْ في بُلْدَانِ التشتيت أنواع الامْتِحانِ ليتُوبُوا، وليَرْجِعُوا إلى صراط اللَّهِ المستقيمِ، والْعَمَلِ بِكتَابِه المنزَّل، وشريعتهم الَّتي بلَّغَهُمْ إيَّاها مُوسَىٰ والأنبياء من بَعْدِه عليهم السلام، حتَّىٰ انْتَهَتْ مُدَّةُ العمل بهذه الشريعة، بِبِعثةِ محمّد بن عبد الله ﷺ.

فكان من أنواع الامْتِحَانِ الَّذِي امْتَحَنَهُمُ اللَّه بِهِ حَسَنَاتٌ تَسُرُّهم على أيْدِي الشُّعُوبِ الَّتي نَزَلُوا بينها، أوْ بتصَاريف الله في كوْنِه مباشرةً.

وكان من أنواع الامتحان الذي امتحنهم الله به سَيِّئاتٌ تَسُوؤُهم علىٰ أَيْدِي الشعوب الّتي نَزَلوا بيْنَها، أو بتصاريف اللَّهِ في كَوْنه.

● ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ...﴾: دلَّتْ هذه العبارة على أنَّ الله عزّ وجلّ أجرى مقاديرَه الخفِيَّة، الّتي كان من آثارها تَقْطِيعُ بني إسرائيل وتَمْزِيقُهُم في الأَرْضِ، بَعْدَ ضَرْبِ دَوْلَتِهم وَوَحْدَتِهم.

ولم يكُنْ هذا التقطيع والتمزيق إلاَّ عُقُوبَةً لهم، لأَنَّهُمْ لَمْ يَرْعَوْا حُقوق المنحة الّتي منحهم الله إيَّاها، إذِ اسْتَخْلَفَهُمْ في الأرض المقدَّسة من بلاد الشَّام، عن مُلوكها الوثنيِّين الّذِين كانُوا فيها، وكان هذا الاستخلاف الذي منَحَهُمُ اللَّهُ إيَّاه بِمَعُونَاتٍ غيْرِ عاديَّة، ليقيموا الدّولة الرَّبّانية، ولِيُعْلُوا كَلِمَةَ الله في الأرض، إذْ مكَّنَهُمْ من الانْتِصار على شُعُوبِها ذوات القُوَّةِ والبَأس.

لكنَّهم سُرْعانَ ما حَرَّفُوا وَغَيَّرُوا وَبَدَّلُوا، واتَّبَعُوا سَنَنَ الأُمم الظالمةِ الآثمة من قبْلِهم، إفْساداً في الأرض وظُلْماً وعُدْواناً، وفِسْقاً وفُجُوراً وَوَثَنِيات، فَسَلَبَهُم الله ـ جلَّ جلالُهُ وعظمت حكْمَتُه ـ ما كان قَدْ مَنَحَهُمْ، ومَزَّقَهُمْ، فَكَانُوا في شَتَاتِ الأرضِ أُمماً.

• ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ...﴾: دَلَّتْ هذه العبارة على أنَّ الصَّالِحِين إبَّانَ تَقْطِيعِهم وتشتِيتِهم كانُوا قَلِيلين، إذْ لَوْ كانوا كثيرين لأخَذُوا على أيْدِي الفاسِدِين المفسدين منهم، فلَمْ يُعَاقبهم اللَّهُ بالتقطيع والتشتيت في أنحاء الأرض، فقرينَةُ التقطيعِ عقُوبةً لَهُمْ دلَّتْ على أنّ الصالحين كانُوا فيهم قليلين ضعفاء.

ومن إبداع الإيجاز القرآني عبارة: ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾: إذْ نَعْلَمُ أنَّ دَرَجات الصالحين تأْتي تَحْتَهَا دَرَكَاتٌ متعدّداتٌ جدًّا، أحَطُّها دَرَكاتُ منكري رُبوبيَّة الله عزّ وجل، فَدَرَكاتُ المنَافِقين والملْحدين والكفَرَةِ الجبَّارِين الطّغاة البغاة في الأرض، وهٰذِهِ أخَسُّها وأشَدُّها استحقاقاً للعذابِ الخالِدِ الشديد.

• ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾: أي: وامتحنّاهم أحياناً بما يسُرُّهم من حَسَناتٍ، وامتحناهم أحياناً بما يَسُؤُوهم من سيِّئاتٍ، رغبةً في أَنْ يَرجعُوا تائِبين مستَغْفِرين، ملتزِمين الصراطَ المستقيم.

فدَلَّتْ هٰذهِ العبارة على أنَّ الله عزّ وجلّ امْتَحَنَ بني إسرائيلَ في بُلْدانِ التَّشْتِيتِ، بأنْواعِ مختلفاتٍ ومُتَضادَّاتٍ، من الحسناتِ الّتي تَسُرُّهم، ومن السَّيِّئاتِ الّتي تَسُوؤُهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: أي: رغْبَةً في أن يَسْتيقِظُوا مِنْ غَفَلاَتهم، ويَعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ ـ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه ـ يُذَكِّرُهم بنَفْسِه، عن طريق تنويع مقادِيره فيهم، ليَرْجِعُوا تائبين إليه في أحوالِ المصَائب والمكَارِه الّتي تسؤُوهم، وَشَاكِرِين مطيعين في أحوالِ النِّعَمِ والعطايا الّتي تَسُرُّهم، ولِيَعْملُوا بِشَرِيعته ومنْهاجه.

الحسنات: عنوانٌ جامعٌ لكُلّ ما يَسُرُّ من نِعَم.

السَّيّئات: عنوانٌ جامعٌ لكل ما يَسُوءُ من مكاره ومصائب.

بيان أسباب عقاب الله لبني إسرائيل بالتشتيت في كتبهم:

ولدى تَتَبُّعِ ما جاء في كتب بني إسرائيل، نَجِدُ فيها ما يَدُلُّ علىٰ أسْباب عقاب اللَّهِ لهم بالتَّشْتيت في الأرض، ومنها ما يلي:

(١) جاء في الإصحاح السّابع عشر من سِفْرِ الملوك الثاني:

«أنَّ بني إسْرَائِيلَ عملوا بأعْمَالِ الْوَثَنِيّينَ، واتَّخَذُوا لِأَنْفُسِهِمُ الأَوْثَان، وَرَفَضُوا فرائِضَ اللَّهِ وَعَهْدَهُ الّذي قَطَعَهْ مع آبَائِهِمْ، وَسَارُوا وَرَاءَ الباطل، وصَارُوا بَاطِلاً وَرَاءَ الأُمَمِ الذين حَوْلهم الَّذِينَ أَمَرَهُمُ الرَّبُّ أَنْ لاَ يَعْمَلُوا مِثْلَهُمْ، وَعَمِلُوا لأنفسِهِمْ مَسْبُوكَاتِ عِجْلَيْن، وَعَبَدُوا الْبَعْلَ[1]. فَغَضِبَ الرَّبُّ جدًّا على إسْرَائيل، فَأَذَلَّهُمْ، وَدَفَعَهُمْ لِيَدِ نَاهِبِيهِمْ، حَتَّىٰ طَرَحَهُمْ مِنْ أَمَامِهِ، فَسُبِيَ إسْرَائيلُ[2] مِنْ أَرْضِهِ إِلَىٰ أَشُّور».

(٢) وَجاء في سِفْرِ «حِزْقيال»:

«أَنَّ اللَّهَ كَلَّمَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ على مَدِينة أُورُشَليمَ (= الْقُدْس) وَأَنْ يَتَنَبَّأَ عَلَىٰ أَرْضِ إسْرَائيل، بِأَنَّهُ اسْتَلَّ سَيْفَهُ من غِمْدِهِ، لِيَقْطَعَ مِنْهَا الصِّدِّيقَ والشِّرِّير».

(٣) وجاء في الإصحاح الثاني والعشرين منه:

«أنَّ اللَّهَ قَالَ له: قُلْ: هَكَذَا قَالَ السَّيّدُ الرَّبُّ: أَيَّتُهَا المدِينَةُ السَّافِكَةُ الدَّمِ في وَسَطِهَا لِيَأْتِي وَقْتُهَا. الصَّانِعَةُ أَصْناماً لِنَفْسِهَا لتَتَنَجَّسَ بها. قَدْ أَثِمْتِ بِدَمِكِ الَّذِي سَفَكْتِ، وَنَجَّسْتِ نَفْسَكِ بأصْنَامِكِ الَّتِي عَمِلْتِ. وَقَرَّبْتِ أَيَّامَكِ. وَبَلَغْتِ سِنِيكِ. فَلِذَلِكَ جَعَلْتُكِ عَاراً لِلأُمَمِ. وسُخْرَةً لِجَمِيعِ

---

(١) **الْبَعْل**: وَثَنْ اتخذه الكنعانيّون إلهاً يُعْبد، وكان في خرافاتهم إله الخصب في الحقول والحيوانات والمواشي.

(٢) **فَسُبِيَ إسرائيل**: أي: شَعْبُ بني إسرائيل.

الْأَرَاضِي الْقَرِيبَةِ إِلَيْكِ والْبَعِيدَةِ عَنْكِ يَسْخَرُونَ مِنْكِ يَا نَجِسَةَ الإِثْم، يَا كَثِيرَةَ الشَّغَب. هُوَ ذَا رُؤَسَاءُ إِسْرَائِيلَ كُلُّ وَاحِدٍ حَسْبَ اسْتِطَاعَتِهِ كَانُوا فِيكِ لِأَجْلِ سَفْكِ الدَّم. فِيكِ أَهَانُوا أَباً وَأُمًّا. فِي وَسَطِكِ عَامَلُوا الْغَرِيب بالظُّلْم. فِيكِ اضْطَهَدُوا الْيَتِيمَ وَالْأَرْمَلَة. وازْدَرَيْتِ أَقْدَاسِي. ونَجَّسْتِ سُبُوتِي. كَانَ فِيكِ أُنَاسٌ وُشَاةٌ لِسَفْكِ الدَّم. فِي وَسَطِكِ عَمِلُوا رَذِيلَة. فِيكِ كَشَفَ الإِنْسَانُ عَوْرَةَ أَبِيهِ. فِيكِ أَذَلُّوا الْمتَنَجِسّةَ بِطَمْثِهَا، إِنْسَانٌ فَعَل الرِّجْسَ بامْرَأَةِ قَرِيبِه. إِنْسَانٌ نَجَّسَ كَنَّتَهُ بِرَذِيلَة. إِنْسَانٌ أَذَلَّ فِيكِ أُخْتَهُ بِنْتَ أَبِيهِ. فِيكِ أَخَذُوا الرِّشْوَةَ لِسَفْكِ الدَّمِ. أَخَذْتِ الرِّبَا والمرابَحَةَ. وَسَلَبْتِ أَقْرِبَاءَكِ بالظُّلْم.

أَنَا الرَّبُّ تَكَلَّمْتُ وَسَأَفْعَلُ، وأُبَدِّدُكِ بَيْنَ الأُمَم، وأُذَرِّيكِ في الأَرَاضِي. وَتَتَدَنَّسِينَ بِنَفْسِكِ أَمَامَ عُيُونِ الأُمَمِ، وتَعْلَمِينَ أنِّي أنا الرَّبُّ».



قولُ اللّهِ تَعَالَى:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (١٦٩)﴾.

تمهيد:

تحدَّثت هٰذهِ الآيَةُ عن سُلالاتِهم الذين كانوا خُلَفاء لهم من بَعْدِهم، لكنَّهُمْ كانُوا خَلْفاً فاسِدِين، يَعْلَمُونَ كِتَابَ اللَّهِ فيهم، الّذِين وَرِثُوهُ عَن آبائهم، وتُوجَدُ لدَيْهِمْ نُصوصُه، لكنَّهم لاَ يُحَرِّمُونَ في سُلُوكِهِمْ حَرَامَهُ، ولاَ يُؤَدُّون ما عليهم من واجبات، فيأْكُلُون المالَ الحرام، ويَرْتَكِبُونَ كُبْرَيَاتِ الآثام، وَيظْلِمُونَ وَيَعْتَدُونَ ويَقْتُلونَ بِغَيْرِ حَقٍّ لأكْل أموالِ الناسِ بالباطل، ولو كانُوا ضُعفَاءَ يَتَامَىٰ أو أرَامِلَ، أو عَاجِزينَ وعاجِزات.

فإذا ذُكِّرُوا باللَّهِ وَعِقَابِه كَذَبُوا على الله قائِلين سَيَغْفِرُ اللَّهُ لَنَا، لأَنَّنَا أَبْنَاءُ اللَّهِ وأحبَّاؤه، فَنَحْنُ بنُو إسرائيل، شَعْبُ اللَّهِ المختار، لاَ يُؤَاخِذُنَا على معاصِينا مَهْمَا عظُمت، يقولون هذا القول وأشباهَه افْتراءً على ربّهم، وهم يَعْلَمُونَ أنَّ اللَّه جلَّتْ قُدْرَتُهُ، قد أَخَذَ الميثاق على بني إسرائيل، بأن يَعْمَلُوا بما أُنزِل إليهم في الكتاب وبِأَنْ لاَ يَقُولُوا على اللَّهِ إلاَّ الحق، وهؤلاَءِ قَدْ دَرَسُوا مَا فيه، وعَلِمُوا بهذا الميثَاقِ الَّذِي يَشْمَلُ كُلَّ مَنِ انْتَمَىٰ إِلَىٰ هٰذِهِ الأمَّة، واتَّبَعَ موسَى عليه السلام وأَنبياء بني إسرائيلَ مِنْ بَعْدِهِ، ومَا أَنْزَلَ اللَّهُ عليهم، ليؤمِنُوا به ويَعْمَلُوا بِأحكامه، فيُحِلُّوا حَلاَلَهُ، ويُحَرِّموا حَرامَهُ، ويُوجِبُوا على أنفُسِهِمْ واجباتِه، بيَاناً وَتَطْبِيقاً، دون تَحْرِيفِ ولا تغْيِيرِ ولا تَبْدِيلِ، ولا تَفْسِيراتِ باطلات، ما أنزَلَ اللَّهُ بها من سلطان.

وهم يَعْلَمُونَ من البيانَاتِ الرَّبَّانيَّةِ الَّتي في كُتبِهِمْ أَنَّ ثوابَ الدَّار الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ عِقَابَ اللَّهِ، بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ أمرَ إيجابِ، وتَرْكِ مَا نَهَىٰ عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيمِ.

والذين عَلِمُوا هٰذا فلم يَتَّقوا اللَّهَ فَمِنَ المناسِبِ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ بالخطاب على سبيل التأنيبِ والتَّلْويم والتَّوْبِيخ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟!! وأن يُقَالَ عَنِ الغائبينَ مِنهُمْ: [أفَلا يَعْقِلُونَ]؟!!

التدبّر التحليلي:

● ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾: أي: فجاء بَعْدَهُمْ من سَلاَلاَتهم الَّذِينَ حَلُّوا مَحلَّهُمْ وَوَرِثُوا ممتلكاتهم، وورثُوا ما كانَ لَهُمْ من مادّيَّاتٍ وعِلْمِيَّات، وأمْجَادٍ، ذُرِّيَّةٌ فَاسِدُون، يفتَخِرون بأنّهم بَنُوا إسْرَائيل، لكنّ آباءَهم لم يحسنُوا رعايتهم ولاَ تربِيتِهم على دين الله الحق فنَشَؤوا فاسِدين.

يقال لغة: خَلَفَ فُلاَنٌ فلاناً خَلَفاً، وخِلاَفَةً، أيْ: جاء بَعْدَهُ، فَصَارَ مكانَهُ، وكانَ خليفَتَه.

﴿خَلْفٌ﴾: **الْخَلْف** بإسْكَانِ اللاّم، **والْخَالِفُ**، **والْخَالِفَةُ**: الْفَاسِدُ مِنَ النَّاسِ الَّذِي لاَ خَيْرَ فيه، والْعَاصِي الكثيرُ الخِلاَف.

أمّا الْوَلَدُ الصالِحُ فَيُسَمَّىٰ «**خَلَفاً**» بفَتْحِ اللاّم.

هٰذا هو الأصْلُ الغالبُ، وقَدْ يُسْتَعْمَلُ الْخَلْفُ والخلَفُ فِي كُلٍّ من المعنَيَيْن.

وجاء في القرآن استِعْمَالُ الْخَلْف بإسْكَانِ اللاَّمِ في الذُّرِّيَّة الفاسدة، في مَوْضِعَيْن منْهُ، هذا أحَدُهُمَا. والآخر جَاء في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) بَعْدَ ذكْرِ طائفَةٍ من الرُّسُلِ السَّابقين، وبَعْضِ ذُرِّيَّاتهم، فقال اللَّهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ۝٦٠﴾:

ويَدْخُلُ المعنيُّونَ في النصّ الّذي في سورة (الأعراف) ضِمْن عُمُوم النّصّ الذي في سورة (مريم) ومعنى ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ فَسَوْفَ يلْقَوْنَ يَوْمَ الْحِسَابِ غَيًّا مُسَجَّلاً عَلَيْهِمْ في صَحَائِفِهِمْ، فَيُحَاسَبُون عليه، وبَعْدَ الحساب يُجَازَونَ، كلٌّ مِنْهُمْ بحَسَبِ نِسْبَةِ غَيِّه، أي: بحسَبِ ضَلالِهِ وإِثْمِهِ وَمَعَاصِيهِ، ومُخَالَفَةِ مُقْتَضَيَاتِ الإيمان، وواجِبِ العمل، ممَّا فرضَ اللَّهُ علىٰ النَّاسِ في الحياة الدُّنيا، من فِعْلٍ أوْ تَرْكٍ.

• ﴿وَرِثُوا الْكِتَٰبَ﴾: أي: وَرِثُوا عَنْ آبَائِهِمْ الكِتَاب الرَّبَّانِيَّ الشَّامِلَ لِلْكِتَاب الذي أنزلَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ على مُوسَىٰ، ولِمَا أَنْزَلَهُ من بَعْدِهِ على رُسُلِ بني إسرائيل، حتّىٰ تاريخ التشتيت في أنحاءِ الأرض.

ودلَّ التعبيرُ بأنَّهُمْ وَرِثُوا الكِتَابَ علىٰ أَنَّ وِرَاثَتَهُمْ له قَدْ كانَتْ وِراثَةَ الاعْتِرافِ بأنَّهُ كِتَابُ الله لهم، وأنَّ عَلَيْهِم أن يَعْمَلُوا بما فيه.

لكنَّهُمْ في واقع حالِهِمْ كانُوا لاَ يَعْمَلونَ بما فيه، بلْ يخالِفُونَه، متَّبِعين أهْوَاءَهُمْ وشَهَواتِهم، ومَا يَتَعَلَّقُونَ بِهِ مِنْ أعراضِ هٰذهِ الحياة الدنيا القليلة الضئيلَةِ السّريعَةِ الزَّوَالِ والفناء.

● ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾:

أي: يُهمِلُونَ الْعَمَل بما جاء في الكتاب الرَّبَّانيّ الّذِي وَرِثُوه، لِيَأْخُذُوا لأهوائهم وشهواتِهم ولَذَّاتِهم ومطالِب نفوسهم من متاعِ هٰذهِ الحياة الدُّنيا.

وسَمَّىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ كلّ ما في الحياة الدُّنيا، مِنْ لَذَّاتٍ وشَهواتٍ وسائِرِ ما تُحِبُّهُ نُفُوسُ النّاسِ منها عَرَضاً، إذْ وُجودُها وُجُودٌ عَارِضٌ سَرِيعُ الزَّوال، لاَ بقاء له. بخلاف ما في الجنَّةِ يَوْم الدِّين، فَهُوَ نَعِيمٌ مُقِيمٌ لاَ يَزُول.

وجاءت الإشارَةُ إلى مُرْضِياتِ الأَنْفُسِ مِنْ مَتَاعِ الحياة الدُّنيا. بِعَبارَةِ [هٰذَا الأَدْنىٰ].

﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾: أفعل تفْضِيلٍ من فعل «دَنَا يَدْنُوا فَهُوَ دَانٍ» و«الدُّنيا» مؤنّثُ «الأدنى» فهي أفعل تفضيل أيْضاً.

فالأَدْنَىٰ هو الأقْرَبُ، والدُّنَيا هي القُرْبىٰ، ضدُّ الأبْعَدِ والبُعْدَىٰ.

وقد وصَفَ اللَّهُ عزّ وجلَّ في القرآن المجيد كلَّ ما يطيبُ للنفوس مِنْ هذه الحياة الدنيا بأنَّهُ مَتَاعٌ، والمتاعُ في اللُّغَةِ، هو كلُّ شيءٍ يُنْتَفَعُ به والفناء يأتي عليه في الدنيا فهو سَريع الزّوال، مثل: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ـ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ـ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ـ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ـ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ـ﴾.

وَدَلَّ علىٰ أَنَّ مَا يأخُذُهُ هؤلاءِ الخلْفُ الفاسِدُونَ، من مَتَاعِ الحياة

الدُّنيا، وهُوَ عَرَضُ هٰذَا الأدنَىٰ، إنَّمَا يَأخُذُونَهُ بالمعاصِي والمخالَفَاتِ، وارْتِكابِ الآثامِ والذُّنوبِ من مخْتَلِفِ الدَّرَكاتِ، قول الله تَعَالَىٰ بَشَأْنِهِمْ:

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لأنَّهُمْ لَوْ كَانُوا يَأْخُذُونَهُ مِمَّا أَحَلَّ اللَّهُ لهم، لمَا احْتَاجُوا لِأَنْ يَقُولُوا في أنفُسِهِمْ، أَوْ لإخوانِهِم، أَوْ لواعِظِيهم سَيُغْفَرُ لَنَا، أي: إنَّ اللَّهَ سَيَغْفِرُ لَنَا كُلَّ ذُنُوبِنَا وَمَعَاصِينَا، مهْمَا كانَتْ من الكبائر الكُبْرَىٰ، لأنَّ اللَّهَ فَضَّلَنَا لذواتنا عَلَىٰ سائر الناس، فَنَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وأحِبَّاؤه.

لكِنَّ مَقَالَتَهُمْ هذه من الافتراء على اللَّهِ، وعَلَىٰ كِتابِه، وعَلَىٰ رُسُلِهِ، فمَغْفِرَةُ اللَّه لا تختَصُّ بشَعْبٍ دُونَ شَعْبٍ، إذْ هو ربُّ العالَمِين جَمِيعاً، فَمَنْ حَقَّقَ فِي نَفْسِهِ شُروطَ المغفرة غَفَرَ الله له، والذنُوبُ المتعلِّقَةُ بِحُقُوقِ العباد لاَ بُدَّ مِنْ إقَامَةِ عَدْلِ اللَّهِ فيها، فإمَّا أن يَغْفِرَ المظْلومون، وَإمَّا أنْ يقْتَصَّ اللَّهُ مِنْ ظالميهم، والقِصَاصُ يوم الدِّينِ يكونُ من الأعمال الصالحة، أو يكون بطَرْحِ مَا يُسَاوِيها من سيئَاتِ المظْلُومِين علىٰ الظالِمين.

● ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾: أي: وبما أنَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ مَغْفِرَة اللَّهِ لَهُمْ تتحقَّقُ بأفْضَلِيَّتِهِمْ لذَوَاتهم علىٰ سائر الناس، ادّعاءً مِنْهُمْ بِأَنَّهُمْ أبناءُ اللَّهِ وأحِبَّاؤُه، فإنَّهم يُكَرِّرُونَ ارْتكابَهُمْ لكبائر الذُّنوب الَّتي سَبَقَ أن ارْتَكَبُوها، ولَوْ لَمْ يَقُمْ في نُفُوسهم طَلَبٌ مُلِحٌّ لارتِكَابِها، فَهُمْ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذَا الأدنىٰ آثمينَ ظالِمِينَ، على الرُّغْمِ مِنْ عَدَمِ وُجُودِ الدَّاعي النَّفْسِيِّ الملحِّ لارْتَكابِ الإثْم الكبير، حتَّىٰ صَارَتْ مُمَارَسَاتُهُمْ للمعاصِي عادَاتٍ، لاَ يَرْدَعُهُمْ عَنها أقْوَى الروادعِ وَأَشَدُّها.

دَلَّتْ كلمة [إِنْ] من عبارَةِ ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ وهي أَدَاةٌ من أَدَوَاتِ الشَّرْطِ تُسْتَعْمَل في المشْكُوكِ فيه أو القليل النادر، عَلَىٰ أنَّ هذا الْعَرَضَ المماثِلَ للْعَرَضِ السَّابقِ لَمْ يَكُنْ مُنْتَظراً، ولاَ مُرْتَقَباً مِنْ قِبَلِ نُفُوسهم، إذْ لَيْسَ في نفوسهم الدافِعُ الملِحُّ في طَلَبِهِ والرَّغْبَةِ في الحصولِ عليه، وهم مع ذَلِكَ يأْخُذونَه، لاستِهَانَتِهِمْ بارْتكابِ كبَائِرِ الإثم.

لقد كذَبُوا على رَبّهم، وصَدَّقُوا أكَاذِيبَ أنفُسِهم وافتراءَاتِهم عليه، فَانْطَلَقُوا فاجِرين، لا يرْدَعُهُمْ عن فجُورِهم رادع.

● ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾؟!

استفهام تقريريٌّ لانتزاعِ اعترافِهِمْ بالْمِيثَاقِ الَّذِي أُخِذَ عَلَيْهِم.

الميثاقُ: الْعَهْدُ المؤكّدُ الْمُوَثَّقُ المثبَّتُ بما يمنعَهُ مِن التَّفَلُّتِ، وأَخْذُ الميثاقِ عليهم، يُفِيد شَدَّ الْعَهْدِ عليهم، حتَّىٰ لا يَحْتَالوا للتفلُّتِ مِنْه، وميثاق الكتاب الذي أُخذ على بني إسرائيل، هو ما أخذ عليهم من عهد في الكِتَاب الرَّبَّاني الَّذِي وَرِثُوه، وَدَرَسُوا ما فيه، وهذا الْعَهْدُ الموثَّقُ الْمغلَّظُ عليهم هو أَنْ لاَ يَقُولُوا على اللَّهِ إلاَّ الْحَقَّ المنَزَّلَ من لَدُنْهُ، والمبَلَّغَ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِه.

ممّا في كُتُب أهل الكتاب بشَأن هذا الميثاق:

ونجد في كُتبِ أَهْلِ الكتاب ما يَدُلُّ على أَخْذِ الميثَاقِ عَلَىٰ بني إسْرَائيل بأنْ لاَ يَقولُوا عَلَىٰ اللَّهِ إلاَّ الحقّ.

جاء في الإصْحَاحِ الخامِسِ من سِفْرِ التَّثْنِيَة ما يلي:

«١ وَدَعَا مُوسَىٰ جَمِيعَ بَنِي إسْرَائِيلَ وَقَالَ لَهُمْ: اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ الْفَرَائِض والأَحْكَامَ الَّتي أَتَكَلَّمُ بِها فِي مَسَامِعُكُمُ الْيَوْمَ. وَتَعَلَّمُوا واحْتَرِزُوا لِتَعْلَمُوها ٢ الرَّبُّ إلهُنَا قَطَعَ مَعَنَا عَهْداً في حُورِيبَ[1] ٣ لَيْسَ مَعَ آبَائِنَا قَطَعَ الرَّبُّ هٰذَا الْعَهْدَ بَلْ مَعَنَا نَحْنُ الَّذِينَ هُمُ الْيَوْمَ جَمِيعاً أَحْيَاءُ.... فقال: ٦ أَنا هُوَ الرَّبُّ إلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ ٧ لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَىٰ أَمَامي... ١١ لا تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إلهكَ بَاطِلاً. لِأَنَّ

---

(١) **حُوريب:** أي: جبل سيناء.

الرَّبَّ لاَ يُبْرِئُ من نَطَقَ باسْمِهِ بَاطِلاً. . . . ٣٢ فَاحْتَرِزُوا لِتَعْمَلُوا كَمَا أَمَرَكُمُ الرَّبُّ إِلٰهُكُمْ. لاَ تَزِيغُوا يميناً ولاَ يَسَاراً. . .».

هٰذا من كتُبِهِم شَاهِدٌ على أَخْذِ الْعَهْدِ المشَدّدِ الْمُوَثَّقِ عَلَيْهِم بأَنْ يَحْفَظُوا وَصَايَا الرَّبِّ لَهُمْ، ولاَ يَقُولُوا علىٰ اللّهِ إلاَّ الحقّ. لكنَّهُمْ خالَفُوا ونَقَضُوا الميثاق، وافْتَرَوْا على اللّهِ الكَذِب.

● ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾: أي: والحالُ أَنَّهُمْ دَرَسُوا ما في الكتاب، وعَلِمُوا من دِراسَتِهم لَهُ أنَّ اللّهَ أَخَذَ الميثاقَ على بَنِي إِسْرَائيل السَّابِقِين، وعلى سُلاَلاَتِهِمْ وَذُرِّيَّاتهم، أَنْ لاَ يَقُولُوا علىٰ اللّهِ إلاَّ الحقّ.

يُقَالُ لغة: دَرَسَ الكِتَابَ ونَحْوَهُ يَدْرُسُهُ دَرْساً وَدِرَاسَةً، أي: قَرأَهُ وأَقْبَلَ عَلَيْهِ لِيَحْفَظَهُ وَيَفْهَمَ دَلاَلاتِ أَلْفَاظِه.

● ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾؟!!!

وفي القِرَاءَة الأُخْرَى: **[أَفَلَا يَعْقِلُونَ]**؟!! حديثاً عن الْغَائبين.

أي: وثوابُ اللّهِ في جنّاتِ النّعِيم، للمتَّقِينَ الَّذِينَ لاَ يَرْتَكِبُونَ الآثامَ والمعاصِيَ والخطَايَا، فيَفْعَلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِه أَمْرَ إِلْزَام وإيجابٍ، وَيَتْرُكُون مَا نَهَىٰ اللّهُ عَنْهُ نهي تَحْرِيم، خَيْرٌ في مَقَادِيرِهِ، وكيْفِيَّاتِهِ، وبَقَائِه، مِنْ عَرَضِ هٰذا المتاعِ الأَدْنَىٰ، مَتَاعِ الحياة الدُّنيا، الَّذِي يَعْصُونَ اللّهَ من أجْله، ويَفْتَرُونَ على اللّهِ الكَذبَ، لِيَجِدُوا لِأَنْفسِهِمْ ذَرَائِعَ يَسْتَرُونَ بها جرائِمهم، أو يُهَوِّنُونَ بِهَا مِنْ أَمْرِها.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟! **[أَفَلَا يَعْقِلُونَ]**: أي: أَفَقَدْتُمْ مَا وَهَبْنَاكُمْ من عَقْلٍ عِلْمِيّ يُمَيِّزُ بين الحقّ والباطل، وبين الخير والشرّ، وما وَهَبْنَاكُمْ مِنْ عَقْلٍ إرادِيّ يَضْبِطُ وَيَعْقِلُ أَهْوَاءَكُمْ وَشَهواتِكُمْ، فأَنْتُمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ لاَ تَعْقِلُون؟!

وبمقْتَضَىٰ القراءة الأُخرىٰ: **[أَفَلَا يَعْقِلُونَ]** يكون المعنى: أَفَقَدُوا مَا وَهَبْنَاهُمْ من عقلٍ عِلْمِي، وعَقْلٍ إراديٍّ فهم بسببَ ذَلِكَ لاَ يَعْقِلُونَ؟

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

• ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾:

وقرأ شعبةُ عن عاصِم: [وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ] بإسكان الميم وكَسْرِ السِّين دون تَشْدِيد، والقراءتان متكافئتَانِ، إحْدَاهُمَا مِنْ فِعْلِ «مَسَّكَ» والأُخْرَىٰ من فِعْلِ: «أَمْسَكَ».

تُشِير هٰذِهِ الآية إلى وجود طائِفَةٍ مُتَّقِين، ضِمْن جماهير الخلْفِ الفاسِدِين من ذُرِّيّاتِ بَني إسرائيل، ومن صفات هٰذِهِ الطَّائِفَةِ المحافظةُ على الْعَمَلِ بتَعَالِيم كِتَابِ رَبّهم دون تحريفٍ ولا تغيير ولا تبديل، وهُمْ لاَ يَفْتَرُونَ على اللَّهِ كَذِباً، ويُقِيمُونَ الصَّلاةَ الْمَفْروضَةَ عليهم، ويَعْمَلُونَ على إصْلَاحِ أنفُسِهِم، وإِصْلَاحِ مَنْ يَسْتَجيبُ لَهُمْ مِنْ قومهم.

وقد أبان اللَّهُ عزَّ وجلَّ أنَّ هٰؤلاَء لاَ يُضِيعُ اللَّهُ أجْرَهُمْ عِنْدَه، وإِنْ كانوا قِلَّةً ضِمْنَ جماهِيرَ كثيرينَ فاسِدِين من اليهود، لأنَّهُمْ يَدْخُلُونَ فِي عُمُومِ الْمُصْلِحين.

• ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾: أي: يَعْمَلُونَ بما جَاءَ فيه من وَصَايَا وَأَحْكَام، ولاَ يُحرِّفُون فيه، ولاَ يُبَدِّلُون، ولا يَقُولُونَ على اللَّهِ إلاّ الحقّ، فَلَا يَفْتَرُونَ على اللَّهِ كَذِباً.

ومن التَّمَسُّكِ بكتاب الله المنزَّلِ إليهِمْ أنْ يُؤْمِنُوا بكُلِّ رَسُولٍ ونَبِيٍّ جاء إلى الناس بَعْدَ مُوسَىٰ وهارُون عليهما السلام، لأنَّ كتابَهُمْ يَأمُرُهُمْ بذلِكَ، فلا يَدْخُلُ في هذه الطائفة الَّذِين يَكْفُرون بالأنْبِياء وَالمرسَلِين الَّذِين جاءُوا من بَعْدِ موسى وهارون، بلْ هؤلاء يَدْخُلُونَ فِي الْخَلْفِ الفاسِدِ الكافِرِ.

وبهذا يظهَرُ لَنَا أنَّ كُلَّ الَّذِين كانُوا يُمَسِّكون بالكِتَابِ حقًّا من بني إسرائيل، قد آمَنُوا بعيسىٰ عليه السلام بعْدَ بِعْثَتِه، وأنَّ كلَّ الّذِينَ كانوا يُمِسِّكُونَ بالكتاب حقًّا من بني إسرائيل، قَدْ آمَنُوا بمحمَّدِ بْنِ عبْدِ اللَّهِ خَاتِمِ

الأنبياء والمرسلينَ بَعْدَ بِعْثَتِه، فَمَنْ كَانَ مُتمسّكاً حقًّا بالتوراة، ومَنْ كانَ متمسّكاً حقًّا بالإنجيل، فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤْمِنَ بخاتم المرسلين ويَتَّبِعَهُ، ويَتَّبِعَ الْكِتَابَ الَّذِي أُنزِلَ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّه، لأنَّ الإيمانَ به واتِّبَاعَهُ هو ممّا فَرَضَهُ الله عى أَهْلِ الكِتَابِ في كُتُبِهِم.

● ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾: أي: المفروضَةَ عليهم في شريعَتِهم، وخَصَّ اللَّهُ عزَّ وجلَّ إقَامَةَ الصَّلاَةِ بالذِّكْرِ، مع أنَّها جُزْءٌ مِنَ التَّمَسُّكِ بالكِتَاب، اهتماماً بشأنِ هٰذَا الرُّكْنِ مِنْ أَرْكانِ دِينِ اللَّهِ لعباده، في كلّ الرّسَالاتِ الّتي أرْسلَ بها رُسُلَهُ للنَّاس.

وقد كانت الصلاةُ من شريعَةِ الله لموسَىٰ وهارون، مُنْذُ أوائِلَ بِعْثَتِهما، إذْ كانَ بَنُو إسْرائيل في مِصْرَ مضطهدين مستَعْبَدِين، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: وأوحينا إلى مُوسَىٰ وأَخيه هارونَ أن اتَّخِذا وَهيِّئا لقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بيوتاً لعبادتي فيها بالصلاة والذّكر، واجْعَلُوا بيوتَكم هذه مُتَّجِهَةً للقبْلَةِ، وأقيموا الصَّلاةَ المفروضَةَ عليكم فيها.

والذي يجعلني أذْهَبُ إلَىٰ رأي اتّخاذ المساجد، في مجمعات مساكن بني إسرائيل، أنّ بني إسْرَائيل قد كانت لهم بيوتٌ يسْكُنُونَها منذ عهد يوسف عيه السلام، ولم يكونوا أهْلَ خيام، فلا معنىٰ للأمْرِ بتحصيل ما هو حاصل، لكن لم تكُنْ لهم بيوتٌ خاصَّةٌ لعبادة اللَّهِ بالصَّلاةِ والذكْرِ فيها، فنزل الوحي بالأمْرِ باتّخاذ هٰذِه البيوت، وجَعْلِهَا مُتّجةً للقبلة. وعبارة: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قَرِينَةٌ دالَّةٌ على أنّها مَساجد.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وبشِّرِ المؤمنين الّذِين يُقيمُونَ الصَّلاَة بالْعَاقِبَةِ الحسنة السَّارّة في الدّنيا وفي الآخرة.

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾: هٰذِهِ الجملَةُ دَلَّت على خبر المبتدأ الذي جاء في صَدْرِ الآية، وَوُضِعَتْ مَوْضِعَ الخبَرِ ونُزِّلَتْ مَنْزِلَتَهُ، والتقدير:

والَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بالكتاب وأقامُوا الصَّلاَةَ فَسَنُوَفِّيهم أَجْرَهُمْ لِأَنَّنا لا نُضِيعُ أَجْرَ المصْلِحِين.

إنّ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ الثابتَةِ أنَّهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وسَمَتْ حِكْمَتُهُ السَّنِيَّة ـ لاَ يُضِيعُ أجْرَ المصلحين، ولاَ يُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ من عباده المتقين ذكراً كَانَ أَمْ أنثَى، ولاَ يُضِيعُ أجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عملاً، ولا يُضِيعُ أجْرَ المحسنين، ولاَ يُضِيعُ إيمانَ مَنْ آمَنَ صادِقاً، ولاَ يُضِيع أَجْرَ المؤمنين.

كلُّ هٰذِهِ المعَاني جاءت بها نُصُوصٌ قُرآنية.

يُقال لغة: أَضَاعَ فُلاَنٌ الشيء، أيْ: جَعَلَهُ يُفْقَدُ بإهماله لَهُ، فلا يكُونُ له وجود، لكن الله عزّ وجلّ لا يُهمِلُ جزاءَ عَمَلٍ صالحٍ مَهْمَا قَلَّ، إذا ابْتَغَىٰ به عامله وجْهَ رَبِّه، وَكان على ما شرَعَ لعبادِهِ تكليفاً أو إذْناً، فَهُوَ لاَ يُضِيع أَجْرَ عَمَلٍ صالحٍ لِعَبْدٍ من عباده المؤمنينَ العاملين في الحياة الدُّنيا ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِه.

كلمةُ: «مُصْلِحِ» اسْمُ فاعل من فعل «أَصْلَح» وهذا الْفِعْلُ يأتي بمعنىٰ: فَعَلَ ما هو صالح ونافع في عَمَلِه وأمْرِه. ويأتي بمعنى أَصْلَحَ غيره، أي: سعَىٰ في إصلاح غيْره وإزالَةِ فساده.

والمصْلِحونَ هُمُ الّذِين يَعْملونَ الأعمال الصالحة الّتي يَرْضَىٰ اللّهُ عنها، ويُثيبُ فاعليها، من كلّ ما هو خَيْرٌ ونافِعٌ وفيهِ قُرْبَةٌ للّهِ عزّ وجلّ، سَواءٌ أكان من أعمال الجوارح الظاهرة، أم كان من أعمال القلُوب والنفوس.

وهم أيضاً الذين يَسْعَونَ في إصْلاح النّاس، ودَعْوَتِهِمْ لِفِعْلِ الصَّالحاتِ، وتَرْكِ المنكَرات، وابْتِغَاءِ الْخَيْرَات، والْعَمَلِ بما يُرْضِي رَبَّ

الْأَرْضِ والسَّمَاوَات، ورَبَّ الأحْيَاءِ والأَمْوَاتِ، سَائلين الله أن يُثيبَهُمْ من فَضْلِه، على ابْتِغَائهم رِضْوانَهُ في العَمَل بما يُرْضِيه، النَّعِيمَ المقِيمَ فِي جَنَّاتِ الْخُلُودِ، الّتي أعَدَّها الله للمتقين، فالأبرار، فالمحسنين.



الفقرة الثانية عشرة
رفعُ الجبَلِ فَوقَ بَنِي إسرَائيل ليأخذُوا الكِتاب بقُوّةٍ ويَذكُرُوا ما فيه

وهي الآية (١٧١) من السورة وهي مَدَنية التنزيل.

قال الله عزّ وجل:

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾:

تمهيد:

تضمّنَتْ هٰذِهِ الآيَةُ الدلالَةَ على حَدَثٍ جرىٰ لبني إسْرَائيل في عَهْدِ موسى وهارون عليهما السلام.

وقد نزلت هذه الآية في العهد المدنيّ من تاريخ دعوة الرسول محمّد ﷺ مراعاة للاقتضاءَيْنِ الّذَيْن سبَقَ بيانُهُمَا في سوابقها.

وجاء بيان هذا الحدَثِ بأسْلُوبِ الحديث عن الغائِب ضِمْنَ حكايَةِ طائفةٍ من قِصَصِ بَنِي إسرائيلَ وأَحْداثِهِم.

وجاء في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بيانُ اسْمِ الْجَبَلِ المعنيّ، بأنّهُ جَبَلُ الطُّور، فقال اللَّهُ عزّ وجلَّ فيها:

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾.

وجاء بيان هذا الحدثِ نَفسِهِ بأسْلُوبِ خِطَابِ بَنِي إسْرَائِيلَ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الْبَقَرَةِ/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لهم.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً خطاباً لبني إسْرَائيل:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

قِصَّةُ هٰذه الآيَات المتكامِلات الدّلالاتِ فيما بَيْنَها، هي أنّ بني إسرائيلَ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ من مِصْرَ، وإنْقَاذِ اللَّهِ لَهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وجنودِه، بفَلْقِ الْبَحْرِ لَهُمْ حتَّىٰ عَبَرَوهُ على اليابسَةِ مِنْهُ، وبإغراق فِرْعَوْنَ وجنُودِه بضَمّ ماءِ البَحْرِ علَيْهم، أُصِيبوا بداءِ الولَدِ المدلّلِ على أبِيه وأُمِّه، الَّذِي يُرِيدَ أَنْ يُحقَّقَ لَهُ مَا يَشْتَهِي دَواماً، دُون أن يتحمَّل هُو شيئاً من التكاليف والواجبات، مُقَابلَ تَكْرِيمهِ والْعِنَايَةِ به، وتَخْليصِه مِنْ أعدائه وخُصُومِه، ويُريد دواماً فِعْلَ خَوَارِقِ العادات من أَجْلِه.

فقالوا لموسى عليه السّلام: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾: أي: أرِنا إيّاهُ عِيَاناً غَيْرَ مُسْتَتِرٍ عنّا بشَيْءٍ، وقالوا له: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾: أي: لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ مُسْلِمِين لَكَ حتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ عِياناً، ويأمُرنا بالإيمان بك والإسلام لَكَ.

فعاقبهم الله عزّ وجلّ على هذا التّعنُّتِ، فَأَخذتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، فَأَمَاتَتْهُمْ، ثُمَّ بَعَثَهُمُ اللَّهُ من بَعْدِ مَوْتِهم، وكانَتْ هٰذهِ مَوْتَةَ تَأْدِيبٍ وتَرْبِيَة، وحَلٍّ لِبَعْضِ عُقْدَةِ الدَّلالِ التي في نُفُوسِهم.

لكنَّهُمْ لم يتخلَّصُوا مِنْ عُقْدَةِ الدَّلاَلِ هٰذِهِ، وأرادُوا أنْ تكُونَ مَنْزِلَتُهُمْ عِنْدَ رَبِّهم تفضيلاً وَتَشْرِيفاً، دون أن يَتَحَمَّلُوا في مُقَابِلِها واجباً وَلاَ تَكْلِيفاً.

بَيْدَ أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ إنّما فضَّلَهُمْ على شُعوبِ زمَانِهِم الْوَثَنيِّين لِيَحْمِلُوا شَريعته ومنهاجه، وَيَعْمَلُوا بهما، ولِيَدْعُوا الناسَ إلى دين الله، مُقَدِّمين أنْفُسَهُمْ للنّاس على أنَّهُم الْقُدْوَةُ الحسنَة، المطَبِّقَةُ لِدِينِ اللَّهِ الَّذِي اصطفاه لعباده.

فلمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عزّ وجلّ تعاليم الدِّينِ على مُوسَىٰ بالكتاب الّذِي أنْزَلَهُ عليه، كلّفَهُ أنْ يبلِّغَهُمْ إيَّاه، وأنْ يَأْخُذَ عَلَيْهِم الْعَهْدَ بأن يَعْمَلُوا بما فيه، ولا يُخِلُّوا بِما أَوْجَبَ عليهم تاركين، ولاَ بما حرَّم عليهم فاعلِين.

فأسمعهم موسَىٰ عليه السّلام تعاليم الرَّبّ ووَصَاياه، وطلَبَ منْهُمْ أَنْ يُعَاهِدُوا اللَّهَ على حفظ هٰذِهِ الْوَصَايا وَتَذَكُّرِها دواماً، والْعَمَلِ بها.

فأَبَىٰ جُمهورُ بني إِسْرَائيلَ الالْتزامَ بالتعليمات والوصايا الرَّبَّانيّة، وأرَادوا أن يسْتَمِرُّوا في حياتِهم على أهوائهم وشهواتهم، شَعْباً مُدَلَّلاً على رَبِّه، يُعْطِيهم تفضيلَهُ ونِعَمَهُ، دون أنْ يُؤَدُّوا في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا واجباتِهم تُجاه ربّهم، ودون أن يتحمَّلُوا مشقَّاتِ تكاليف الامتحان.

فرَفع اللَّهُ فَوْقَ مَحَلَّتِهِم النازلين بها في سيناء جبَلَ الطُّور، لِرَفْضِهِمْ إعطاءَ الْعَهْدِ على الالْتزام بشريعة الله، وقال لهم موسى عليه السَّلامُ بلاغاً عن رَبّه: خُذُوا مَا آتاكُمُ اللَّهُ من وصَايا وأحكام في كتابه بقُوَّةٍ، وعاهِدُوا على الْعَمَلَ بِما جاء فيه، أو يُلْقِي اللَّهُ هٰذَا الجبَلَ عليكم فيُهلِكَكُمْ.

وعلى الرُّغم من هٰذَا ظلَّتْ عُقْدَةُ الشَّعْب المدَلَّلِ مُسْتَحكمةً فيهم، فقالُوا: سَمِعْنَا وَعَصَيْنا.

ويظْهَر أَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ الأمْرَ لمجرّد التَّخويف، فَلَوْ أعلَنُوا عِصْيانَهُمْ لَمْ يُنَفِّذِ اللَّهُ فيهم ما أشْعَرَهُمْ به، فهُو لاَ يُوقِعُ الجبَلَ فَوْقَهُمْ، ولو تمرّدُوا، كما

يتصوّر الولَدُ المدَلَّلُ على أبيه، أنَّ أبَاهُ لَنْ يضرِبه بالْعَصَا، ولو رَفَعَها فَوْقَهُ مُهدِّداً إِيَّاهُ بالضّرب، دلّ على هذا ما جاء في الآية (٩٣) من سورة (البقرة) وهو قول اللّهِ عزّ وجلّ خطاباً لهم:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا . . . (٩٣)﴾.

ويَظْهَرُ أنَّ اللّهَ عزّ وجلّ أدْنَىٰ منهُمُ الجبَلَ المرْفوع فوقَهُمْ شَيْئاً فشيئاً، حتَّىٰ ظنُّوا أنَّهُ واقِعٌ عليهم، وطاحِنُهُمْ بالأرض طحناً.

عنْدَئذٍ ذهَبَتْ عَنْهُمْ أَوْهامُ مُيوعَةِ الدّلال، وتكشَّفَت لَهُمْ حقيقةُ جَبَرُوتِ الرَّبّ، وسَطْوَةِ انتقامه.

ولَمْ يكُنْ هذا من قبيل الإكْراه على الدِّين، إذْ هُمْ مُؤْمِنُون، بل هو عِلاَجٌ لما في نُفُوسِهِمْ من عُقْدَةِ الدّلال على ربّهم، وتَهْدِيدٌ بالعقاب على العصيان، بَعْدَ الإيمان وإعلان الإسلام، فإذا رَفَضوا إعلان الالتزام بالطاعة، كان القتْلُ عقاباً عادلاً لهم، بالحدّ الشرعيّ، كسَائر عقوباتِ الحدُودِ الشرعيّة.

وإذا صَحَوْا من سَكَرَاتِ مُيُوعَةِ الدلالِ على رَبّهم، لم يَجِدُوا خلاصاً لهم إلاّ بأن يُعْطُوا عَهْدَهم ومِيثَاقَهُمْ على أن يأخذوا مَا آتاهُمُ اللّهُ في الكِتَابِ بِقُوَّة، أي: بقُوَّةِ إرادة علىٰ تَنْفِيذِ أوامِرِه ونواهيه، وعلى أنْ يَذْكُرُوا ما فيه دَواماً.

التدبر:

● ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ . . . (١٧١)﴾.

أي: وضَعْ في ذاكِرَتِك أيُّها المتلّقي أيًا كُنْتَ، قصّةَ بني إسرائيلَ حين رَفَعْنا جَبَلَ الطُّور فَوْقَهُمْ فَصارَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ، في عهد موسى.

أو واسْأَلْهُمْ عن قِصَّةِ رفع الجبَلِ فَوْقَ أجدادِهم في عَهْدِ مُوسَىٰ، حتّى صار فوقهم كأنه ظُلَّةٌ، علىٰ أَنَّ هذه الآية معطوفة على الآية (١٦٣) التي جاء فيها: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ . . . ﴿١٦٣﴾﴾.

● ﴿نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾: أي: رفَعْنَا جَبلَ الطُّورِ فوْقَهُمْ.

يُقالُ لغة: نَتَقَ الحجَرَ أو نَحْوَه يَنْتُقُهُ نَتْقاً، أي: رفَعَهُ من مكانِهِ لِيَرْمِيَ بِهِ.

● ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾: أي صَارَ جَبَلُ الطُّور فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ.

الظُّلَّة: كُلُّ شَيْءٍ أظَلَّكَ. وَمَا سَتَرَ مِنْ فَوْق. وَمَا أَطْبَقَ مِنْ فَوْق. وتُطْلَقُ الظُّلَّة على سحابَةٍ مُطْبِقَةٍ.

وقد ظلَّلَ الْجَبَلُ محَلَّتَهُمُ الَّتِي كانُوا ينزِلُونَ فيها.

● ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾: أي: وظَنُّوا ظَنًّا قَوِيًّا إِذْ دَنا الْجَبلُ من رؤوسِهم أنّه واقِعٌ علَيْهم ومختلِطٌ عند وقُوعِه بأجْسَادِهِم، مُهْلِكاً ماحقاً ساحقًا.

وكان هذا الظَّنُّ بَعْدَ أَنْ أدنىٰ اللّهُ الجبَلَ من رؤوسهم، إذْ هم قبل ذلك، وحين كان مُرْتَفِعاً كالسَّحابة، تَوَهَّمُوا أنَّ رَفْعَ الجبَلِ فَوْقَهُمْ لمجرّد التخويف، فقالوا: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، كما ظهر لنا آنِفاً أخذاً من الآية (٩٣) من سورة (البقرة).

● ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾: أي: وجاءَهُمْ عندئذٍ الأمْرُ الرَّبَّانِيُّ على لسانِ مُوسَىٰ قائلاً لهم: خُذُوا ما آتَيْنَاكُمْ من أوامِرَ ونواهِيَ وَوَصَايَا وأحْكَامٍ تَشْرِيعيَّةٍ بقُوَّة.

والمرادُ بالْقُوَّةِ قُوَّةُ الإرادة والعزيمة على تَحَمُّلِ التَّكالِيفِ، والصُّعوبات، والمشَّقات، والمكاره.

• ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾: أي: وَضَعُوا في ذاكراتكم ما جَاءَ في الكِتَابِ مِنْ وَصَايَا وَأوامِرَ، تَسْتَذْكِرُونَها، وَتَسْتَدْعُونَها عِنْدَ مُنَاسَبَاتِهَا للْعَمَلِ بها، فِعلاً فيما يَجبُ فِعْلُه، وتَرْكاً فيما يَجِبُ تركه.

• ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: أي: ليكونَ تَذكُّرُكُمْ لَهَا باعثاً للْعَمَلَ بمُقْتَضَاهَا، فرجاءُ تَحقُّقِ الْعَمَل بمقتضاها مع هذا الباعثِ أكْثَرُ مِنْهُ دونه، إذِ الإهمالُ والتَّرْكُ والنسيانُ لتعليمات الواجبَاتِ والمحرَّماتِ الدّينيَّةِ يُهَوِّنُ على الإنسان معصيَتَها.

ومعلومٌ من تضافُرِ النُّصُوصِ الأصولِ، أنّ العمل بمقتضَىٰ التعليمات والتكليفات الدينيّة يقي من عقاب الله وعذابه.

وقد أعطىٰ بَنُو إسرائيلَ الميثاقَ يومَئِذٍ، لكِنَّهُمْ لَمْ يَلْتزمُوا بعد ذَلِكَ، بلْ تَوَلَّوْا فَأَدارُوا ظُهُورَهم له، وابْتَعَدُوا عَنه، وعَصُوا الله ورسوله، بدليل ما جاء في الآيتين (٦٣ ـ ٦٤) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لبني إسرائيل:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾: فعل «تَولّىٰ» يأتي بمعنى «نَأىٰ» ويأتِي بمعنى أَدْبَر، أي: ثمّ أدْبَرْتم ونَأيتم.

ممّا في كتب بني إسرائيل مِنْ أَمْرٍ لهم بأنْ يتذكَّرُوا ما في كتابِهم:

جاء في الإصحاح السادس من سفر التَّثْنِية من كتب العهد القديم ما يلي:

«٤ اسْمَعْ يَا إِسْرَائيل. الرَّبُّ إِلٰهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ ٥ فَتُحِبُّ الرَّبَّ إلٰهَكَ مِنْ

كُلِّ قَلْبِكَ. وَمِنْ نَفْسِك. ومِنْ كُلِّ قُوَّتِك ٦ ولْتَكَنْ هذهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ علَىٰ قَلْبِكَ ٧ وقُصَّهَا عَلَىٰ أَوْلاَدِكَ. وَتَكَلَّمْ بِهَا حِينَ تَجْلِسُ في بَيْتِكَ وحِينَ تَمْشِي في الطَّرِيقِ. وحِينَ تَنَامُ. وحِينَ تَقُومُ ٨ وارْبِطْهَا علىٰ يَدِك. وَلْتَكُنْ عَصَائِبَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ ٩ واكْتُبْهَا علَىٰ قَوائِمِ أَبْوَابِ بَيْتِك وَعَلَىٰ أبْوابِكَ».

لكِنَّ بني إسرائيل لم يَعْمَلُوا بهذه الوصايا التي أوْصاهُمُ الرَّبُّ بها، ولم يَعْمَلُوا بما أنْزَلَ عليهم من تعليماتٍ وشرائِعَ وأحكامٍ، فَحَقَّ عَلَيْهِمْ غَضَبُ اللَّهِ وسَخَطُه.



كان الفراغ من كتابة هذا المجلّد الرابع ليلة الثلاثاء
١١/ ٦/ ١٤٢٠ هجرية الموافق لـ ٢١/ ٩/ ١٩٩٩ ميلادية
والحمد لله على معونته وتوفيقه.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

سورة الأعراف
٧ مصحف ـ ٣٩ نزول

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

